

عادل حمودة

هيكل

الحياة الحرب الحلب

هو عبد الناصر



هـيـكـل
الحياة • الحرب • الحب

هياكل

الحياة. الحرب. الحب
الكتاب الأول: هو وعبد الناصر

الطبعة الثانية : يناير ٢٠٠٣

رقم الإيداع: ١٦٨٣١ / ٢٠٠٠
الترقيم الدولي: 977/5930/13/8

حقوق الطبع محفوظة
«الفرسان للنشر»

يحظر نقل أو اقتباس أى جزء
من هذا المطبوع
إلا بالرجوع إلى الدار.

تصميم الغلاف : شاهر وهبة
الجمع التصويرى: جى.سى. سنتر
الطباعة : إنتر بررس



٦٧ شارع العروبة - هليوبوليس ١١٣٦١ - القاهرة.
تليفون وفاكس: ٤١٧٢٠٢٨ (٢٠٢) - ٤١٧٢٠٢١ (٢٠٢)
إدارة التسويق: ٣ شارع محمد أنيس - الزمالك
القاهرة ت: ٧٣٨٣٨٨٧ - ٠١٢/٢١٥٧٤٦١

عادل حمودة

هيل كل

الحياة • الحرب • الحب

الكتاب الأول
هو وعيد الناصر



دار الفرسان للنشر

قبل أن نقرأ

هل حلقة الذكر في حاجة إلى دارويز



يموت الصحفي بترك مصادره لا بترك مناصبه

■ بدا قرص الشمس متعباً.. منهكاً.. خائر القوى.. على وشك الانطفاء بعد يوم صيفي شاق .. حار .. أستيقظ فيه مبكراً .. كان قرص الشمس يحلم بالغطس في مياه البحر المتوسط عند الساحل الشمالي الغربي.. على بعد ٨٠ كيلومتر من الإسكندرية.. كانت كل أمنيته في تلك اللحظة أن تسري البرودة في وجهه المتفجر احمراراً وقد تحول إلى برتقالة دموية ساحرة.. وعندما أتيح له ملامسة الماء فقد مقاومته للنعاس.. وراح يشق طريقه للنوم في فراش مصنوع من الأسماك الفضية اللامعة .. تشاركه فيه واحدة من جنيات البحر.

على مقعد ثابت.. عريض.. مصنوع من شرائط الخشب.. على الطراز المنتشر في الحدائق العامة يحرص محمد حسنين هيكل على متابعة هذا المشهد الرومانسي الناعم للغروب الذي يشعر أن الكون كله في حالة صلاة.. وهو يتابع هذا المشهد ويندمج فيه يومياً في أيام الصيف الطويلة التي يقضيها على شاطئ بيته البعيد عن القاهرة بحوالى ٢٥٠ كيلومتر.. في قرية تسمى «الرواد» بناها عبدالحكيم عبدالناصر.. أحد أبناء صديق عمره جمال عبد الناصر.

ولا يتردد هيكل في التعبير عن انزعاجه لضيوفه المقربين لو.. فاته هذا المشهد لسبب أو لآخر.. وهو ما حدث معي أنا شخصياً عندما رحلت أطارده بأسئلة لا تتوقف.. جعلته لا ينتبه – إلا متأخراً – إلى أن الغروب قد فاتنا.. وأغلب الظن أن هذه مفاجأة لكل من يتصور

أن الكاتب السياسى هو قلم بلا قلب.. أو قلم بارد القلب.. أو أنه شخص مصنوع من الصلب والألمونيوم.. يثير المتاعب بدون مشاعر.. ويفضل العواصف على العواطف.. وهو خطأ شائع.

* * * *

إن كثير من الكتاب السياسيين الكبار الذين مشوا فى طريق الصحافة ذاقوا جنة الأدب قبل أن يحترقوا بجحيم السياسة والصحافة.. هيكल نفسه واحد من هؤلاء.. فهو يحفظ ١٠ آلاف بيت من الشعر العربى.. ولا يتردد فى استخدام بعض أبيات حافظ إبراهيم وأحمد شوقى فى إجابته أو تعليقاته على بعض الأحداث أو المواقف الجارية.. كما أنه يهوى سيد درويش وأم كلثوم ومحمد عبد الوهاب والتواشيح الدينية والموسيقى الكلاسيكية التى تملأ مكتبه ويحركها فى مكتبه بالقاهرة بالريموت كمنترول.. كما أنه يحرص فى كثير من الأحيان على حضور مهرجان «موتسارت» السنوى هو وزوجته.

وأذكر أن الكاتب الساخر محمود السعدنى كان قد دعا مجموعة من السياسيين والصحفيين منهم الدكتور أسامة الباز (المستشار السياسى للرئيس حسنى مبارك) وإبراهيم نافع (رئيس تحرير الأهرام) والدكتور مصطفى الفقى (مدير مكتب الرئيس للمعلومات ثم سفير مصر فى فيينا ثم مندوب مصر فى الجامعة العربية) وأنا.. وعلى ضوء ليلة قمرية فى النادى النهري للصحفيين المطل على النيل عند الجزيرة، كان الحوار ساخناً متشعباً متداخلاً حول إسرائيل والسلام وإيران والسودان والخليج وشیخوخة السلطة فى العالم العربى.. وفى وسط هذه السخونة - التى عكست التناقض الواضح بين الصحافة والسياسة - فوجئنا بهيكل يطرى على ما كتبه محمود السعدنى عن مشاهير قراء القرآن فى مصر.. فى كتابه «ألحان السماء».. ولم يتخيل محمود السعدنى رغم معرفته الوثيقة بأن هيكل يتابع كل ما يجرى حوله أنه يمكن أن تستهوية سيرة مشاهير القراء.. أو يمكن أن يستمتع إليهم أو يعرف الفروق بينهم.. وساعتها عرفت أن أول كتاب حفظه هيكل هو القرآن الكريم.

وفى مناسبة أخرى عرفت أن هيكل يتابع أيضاً مشاهير النجوم فى الفن.. إن هناك مناسبة يحرص عليها هيكل فى كل رمضان وهى قبول دعوة إفطار لها مذاق خاص عند صديق بدأت علاقته الحميمة به فى السجن هو الدكتور ميلاد حنا.. وفى هذه الدعوة تجد عادل إمام ولينين الرملى وفاروق الفيشاوى.. ويحاول الفنانيون من جانبهم جر هيكل إلى السياسة.. ويحاول هيكل من جانبه جرهم إلى الفن.. وبين الشد من هنا والجذب من هناك يكون الحوار مثيراً.. لكن أهم ما فيه هو أن هذا الكاتب السياسى الذى شغل الدنيا

متابعاً لما يجرى فى عالم الفن.. ربما بكل ما فيه من كواليس وشائعات ونميمة.. وهو ما يؤكد أنه نموذج مثالى للمخبر الصحفى الذى لا يفوته أى شىء يجرى فى المجتمع.. مهما كان بسيطاً أو صغيراً.

واتذكر أنه قال لى بعد أن تركت مسئولية تحرير مجلة روز اليوسف: «لو كانوا قد عزلوك من منصبك الصحفى فلا تجعلهم يعزلونك عن مجتمعك ومصادر أخبارك».. إن الصحفى لا يموت لو ترك منصبه.. ولكنه يموت لو ترك مصادره.. ولهذا السبب يفضل هيكل لقب «الجورنالجى».. إنه الوصف الأثير له.. أما تلك الأوصاف التى أعطيناها لأنفسنا أو خلعناها على بعضنا البعض من نوع ووزن «الأستاذ الكبير» و«الصحفى الكبير» فكلها كما يقول هيكل بنفسه «فقاعات ملونة منفوخة بالهواء لا تصنع قيمة ولا تؤكد مكانة».. ويستطرد: «إن كل صحفى يجب أن يكون بالدرجة الأولى «جورنالجى» يتعامل مع الأخبار باعتبارها المادة الرئيسية لصناعته وهو يستطيع أن يحسن العرض ويجيد اللغة ويزيد فى التفاصيل ويهذب ويصقل ولكنه وهو يفعل ذلك لا ينبغى له أن ينسى مادته الرئيسية الأولى» (١)

لكن .. يبدو أن السلطة السياسية فى مصر لا تصدق أن «الصحفى» أو «الجورنالجى» يمكن أن يولد بعيداً عنها.. أو يمكن أن يعيش وينمو ويكبر ويزدهر لو خرج من رحمها أو رحمتها.. لقد أندھش الرئيس أنور السادات عندما عرف أن الزعيم الروحى الإيرانى «آية الله خمينى» استقبل هيكل فى ديسمبر ١٩٧٨ فى منفاه الأخير فى قرية «نوفل لو شاتو» القريبة من باريس والتى كان يقود منها أحداث الثورة على بعد ٣ آلاف كيلومتر من طهران.. وعندما عاد هيكل إلى القاهرة اكتشف - على حد روايته - أن السادات كان غاضباً «لأنى قابلت خمينى فى باريس.. فقد أخرجته أن يلتقى مصرى بآية الله الثائر على صديقه الشاه (محمد رضا بهلوى) وسأل واحد من معارفنا المشتركين (المهندس سيد مرعى) عن الصفة التى قابلت بها خمينى.. وكان رد «معرفتنا المشتركة» على الرئيس أننى قابلته بصفته الصحفية.. وكان تعليق السادات فى ذلك الوقت هو قوله «هل نسى أننى أحلته على التقاعد؟».. وحين بلغتنى الملاحظة رجوت صاحبنا المشترك أن ينقل للرئيس «أنه ربما أحالنى إلى التقاعد من منصب ولكنه لم يحلن إلى التقاعد من مهنة».. ونقل إلى أنه لم يقتنع..

إن ترك طبيب لمنصب مدير مستشفى ليس تركاً لمهنة الطب.

بل أكثر من ذلك لا ترى السلطة السياسية فى مصر الصحفى أكثر من كونه موظفاً فى بلاطها أو فى أحد دواوينها.. مفروض عليه تنفيذ تعليماتها وتقديم التقارير

لها.. لقد كان الشاه فى أسوان بعد أن أقنعة الأمريكيون بمغادرة طهران.. وراح هو والسادات يبحثان خيارات التدخل العسكرى لإنقاذ عرشه.. عرش الطاووس.. أو على الأقل ينقذ مجوهرات التاج الإيرانى وهى ثروة تقدر بأرقام فلكية.. وكان السؤال الذى يشغل بال الشاه والسادات هو: هل يعود خمينى إلى طهران؟.. ما هى بالضبط نواياه؟.. وكان السؤال التالى: هل يمكن معرفة هذه النوايا عن طريق هيكل الذى كان آخر من قابله؟.. وقال السادات للشاه: إنه وضع تقليدى يحتم على كل مصرى يقابل شخصا له أهمية فى الخارج أن يكتب تقريراً عما جرى بينهما فور عودته إلى القاهرة.

لم يكن هذا التقليد على ما يبدو قد وصل إلى علم هيكل أو كان مستعداً للتعامل معه.. لكنه فوجئ بالدكتور مصطفى خليل يتصل به من أسوان ليقول له: إن كل مصادر الأخبار هناك فى المدينة الجنوبية السمراء.. وأنه لا معنى أن يبقى عنده فى القاهرة.. واستطرد الرجل الذى وصل إلى منصب رئيس الوزراء: إن مقعدين قد حُجزا له ولزوجته على طائرة الرئاسة التى تسافر كل يوم من القاهرة إلى أسوان وتعود مساء كل يوم من أسوان إلى القاهرة.. ولعلها فرصة لإعادة المياه إلى مجاريها بينه وبين السادات.. تلك المجارى التى انقطعت بعد أن أخرجه السادات من الأهرام فى فبراير عام ١٩٧٤.. وكان المطلوب من هيكل أن يكتب «ورقة أو ورقتين» عن نوايا خمينى.. وكان رد هيكل: «إننى لم أعود كتابة ورقة لأحد».. وأعتذر عن السفر.. «أضيفت نقطة سوداء فى سجلى إلى نقاط سوداء سبقت منذ أن جرت مفاوضات فك الاشتباك وتوترت علاقتى بسببها مع السادات» على حد قول هيكل.

ربما ... كان الشئ الوحيد الذى يعوض هيكل عن مشهد الغروب الحريص عليه هو تدليله لأحفاده الذين يؤمن المصريون بأنهم «أعز الولد».. وهو يقول أنه «ضعيف جداً مع أولاده وأحفاده».. ولم أرى ضعفه مع أولاده.. فقد أصبحوا رجالاً مستقلين بحياتهم.. لكننى رأيت ضعفه مع أحفاده.. وهو يرى أن تربية الأولاد مسئولية.. أما بالنسبة للأحفاد فالتعامل معهم متعة.. بدون مسئولية.. المسئولية يتحملها الآباء.. أبناؤه.

لقد أصبح هيكل جداً عندما أنجب ابنه «على» تؤماً.. هما «محمد» و«هدايت» على اسمه وعلى اسم زوجته.. ثم جاء «منصور» الذى لا يكف عن اللعب.. ولا يعبأ كثيراً بملاحظات جده.

لكن.. لو كنت مكانى.. لتوقفت عند هيكل وهو يدلل حفيدته الصغرى «نادية» التى تبدو أنها قادرة على أن لا يرد لها طلباً.. كما أنها قادرة على اقتحام خلوته الصيفية

وهويقرأ أو يكتب أو يناقش زواره فى السياسة.. ولعل هذا ما جعلنى أصفها بأنها «سوبر باور» أو «القوة العظمى» فى حياته الآن وقد تجاوز الخامسة والسبعين من عمره.. وقد أسعده التشبيه.. فأعاده على مسامع جدتها.. السيدة هدايت على تيمور.

إن هيكل الذى يبدو فى الصورة التى تنشر له جاداً.. جامداً.. هو إنسان ضعيف جداً أمام الأطفال.. ليس عنده أروع من الجلوس لطفل ومناورته.. إن الطفل هو الإنسانية فى لحظة براءتها الأولى قبل أن تقطف هذه البراءة خبرة الحياة وصراعاتها.. وقد اكتشف هيكل العالم ثلاث مرات.. مرة بنفسه.. ومرة من خلال أولاده.. ومرة من خلال أحفاده.. هو يقول: «إنه من خلال رؤية عيون طفل يضع الإنسان يده على الفوارق بين الأجيال». وقد لمس هيكل هذه الفوارق عندما جلس توفيق الحكيم إلى ابنه «على» يمتحنه بطريقة الفوازير.. سألته: «من يعبر البحر ولا يبيل»؟.. رد «على» بفوريه وعفويته «واحد راكب طائفة».. قال الحكيم: «خطأ.. العجل فى بطن أمه».. بعدها سكت الحكيم متأملاً.. ثم عاد يقول: «الله هذا حقيقى يا على».. ثم ألتفت إلينا ليقول: «الدنيا تغيرت».

وهذه الفوارق يمكن لمسها أيضاً فى علاقة توفيق الحكيم نفسه بابنه إسماعيل الذى كان يهوى ويحترف الموسيقى الغربية.. إن الحكيم الذى عُرف عنه البخل لم يرض أن يمنح إسماعيل ١١ ألف جنيه لتشكيل الفرقة التى عرفت باسم «بلاك كوتس» أو «المعاطف السواء».. وكان ذلك فى بداية السبعينات.. لكن إسماعيل وجد طريقة ذكية لإقناع والده بالدفع.. فكان يذهب إليه كل ليلة ليعطيه ٢٠ جنيهاً ويزعم أنه كسبها من عمل موسيقى مع صديق له.. وتكرر الأمر عدة مرات حتى قال لوالده: كما ترى فالعمل فى الموسيقى يكسبنى ٢٠ جنيهاً فى اليوم فما بالك لو عملت فرقة موسيقية كاملة.. سأربح بين ٣٠٠ أو ٤٠٠ جنيه يومياً.. فاقتنع الحكيم وأقرض ابنه ما أراد.. لكن إسماعيل أخذ المبلغ وقاطع والده. (٢)

ويستطرد هيكل: إنه حاول أن ينهى القطيعة بين الحكيم وابنه فاستدعى الحكيم إلى مكتبه بعد أن كتب شيكا بخمسة آلاف جنيه باسمه ووضعها على المكتب.. وابلغ الحكيم أنه يرغب فى مرافقته لعمل تحقيق صحفى من الدرجة الأولى عن الحفلة الموسيقية التى سيحييها ابنه إسماعيل ولما تذمر الحكيم وأعلن رفضه للمهمة قال له هيكل: خسارة... إذن سأعيد الشيك للإدارة.. فتساءل الحكيم: أى شيك.. فأجابه هيكل: هذا الشيك بخمسة آلاف جنيه أعددت لك كبديل عن هذه المهمة وإن لم تكن راغباً فى أدائها فلا حاجة له.. فتردد الحكيم وتساءل عن المهمة المطلوب منه بالضبط؟.. فقال له هيكل: تذهب وتحضر حفل إسماعيل وتصف وتكتب ما ترى وما تسمع.. وبعد أن تظاهر الحكيم بأنه يفكر فى الأمر

تساءل عن مصير الشيك.. ثم تناوله وانصرف.. وفى المساء حضر هيكى والحكيم حفل إسماعيل معاً.

على شاطئ البحر يبدو هيكى مختلفاً.. فهو يرتدى الثياب القطنية المتحررة «كاجوال» ومعها صندال خفيف.. وساعة يد بلاستيكية «سواتش».. وشاطئ البحر قد يكون فى الساحل الشمالى.. حيث مقره الصيفى.. أو فى الغردقة على البحر الأحمر فى الشتاء.. حيث يملك بيتاً هناك يقضى فيه فترات متقطعة.. أما نهاية الأسبوع التى تبدأ من بعد ظهر كل أربعاء وتمتد حتى فجر السبت فيقضىها فى بيته الريفى فى «برقاش» القريبة من القاهرة.

وفى ظنى أن هذه الصورة المختلفة التى يبدو فيها هيكى وهو بعيداً عن مكتبه ستكون مفاجأة لكل من لا يراه إلا فى القاهرة.. حيث يحرص على ارتداء الملابس الكاملة التى تسيطر عليها الألوان الكلاسيكية مثل الرمادى والأزرق الداكن دون تفرقة ملموسة بين الصيف والشتاء.. وهو يرتديها وهو فى مكتبه عندما يكتب أو يقرأ أو يحاور ضيوفه.. أو هو فى زيارته العائلية أو عندما يدعو أحد لتناول الطعام فى بيته.. أو عندما يستجيب لدعوات العشاء التى لا يأكل فيها.. فقد حرص منذ سنوات طوال على أن لا يتناول الطعام بعد أن ينتهى من وجبة الغذاء.. نوعاً من الصرامة فى التعامل مع الجسم البشرى.. أو نوعاً من الصيانة له.. ولذلك يبدو هيكى دائماً مشدوداً.. رشيقاً.. أقل من من عمره.. وأكثر حيوية وقدرة على العمل والحياة.

وقد رأته بنفسى وهو غير قادر على مقاومة قطعة من حلوى «الباباه» فى حفل استقبال وعشاء أقامه على شرف الدكتور إيوارد سعيد.. المثقف والمفكر الفلسطينى الشهير وأستاذ الأدب المقارن بجامعة كولومبيا الأمريكية الذى بدأ شاحبا بتأثير اللوكيميا أو سرطان الدم.. كان الحفل فى نادى العاصمة بجاردن سيتى.. وحضره حوالى ١٠٠ شخصية لامعة فى الصحافة والسياسة والدبلوماسية فى مصر.. وكانت من المرات النادرة التى دعا فيها هيكى أحداً على العشاء خارج بيته.. فالعادة أن تكون مثل هذه الدعوات فى بيته المطل على نيل القاهرة.. وقد كان حريصاً على أن ينتقل بين ضيوفه مهتماً ومجاملاً.. ونجح ليلتها فى قهر أصناف الطعام الشهية إلا قطعة «الباباه» «الشريرة».. لم يستطع أن يهرب من سحرها وجاذبيتها ولونها الخمرى اللامع بعسل النحل.. فكان أن قطعها بالسكين وتعامل مع نصفها فقط.. وأغلب الظن أنه شعر فيما بعد بالندم.

وعلى شاطئ البحر أيضاً يتخلص هيكى من برنامج اليومى الذى يحرص عليه

بصرامة.. فهو على الأقل لا ينهى سهراته كما فى القاهرة فى الحادية عشرة مساءً ليدخل فراشه قبل منتصف الليل ليقرأ قليلاً قبل أن يغرق فى النوم.. لكنه حتى وهو فى المصيف لا يتردد فى ممارسة رياضة الجولف يومياً.. وهى رياضته المفضلة بعد التنس.. وهى أول ما يفعل فى صباح يومه.. لقد كان يمارسها فى نادى الجزيرة بالقاهرة.. ثم انتقل إليها فى ملاعبها الحديثة فى القطامية.. أما فى الإسكندرية فليس أمامه سوى نادى سبورتنج الذى يقطع الطريق الطويل إليه وهو يقرأ الصحف والمجلات المصرية.. وغالباً ما يحمل فى سيارته كتاباً أو يحمل صحفاً عربية وأجنبية لأن الطريق أطول من المدة القصيرة التى تحتاجها الصحف المصرية.

وفى العادة يستيقظ هيكى فى الخامسة صباحاً.. ويمارس الجولف لمدة ساعة ونصف الساعة.. وهو يعتقد أن للجولف مزايا عديدة.. منها أن الإنسان يبدأ يومه بين الخضرة.. وهى بداية صحية فى جو نقى.. وبعد الجولف يعود لتناول إفطاره.. ليكون على مكتبه فى تمام الساعة الثامنة والنصف.. ولمدة ثمان ساعات دون انقطاع.. وبلا إزعاج.. مستقبلاً ضيوفه.. أو غارقاً فى كتاباته حتى موعد الغذاء.

لقد ألزم هيكى نفسه بالنظام منذ وقت بعيد.. لأن كل إنسان على حد قوله يتحرك فى زمن محدد.. فى يوم مساحته ٢٤ ساعة.. وأمامه مهام لا حدود لها.. عليه القيام بها.. ولو لم يحسن استغلال هذه الرقعة من الزمن من خلال تنظيم جيد فإنه لن يستطيع أن يفعل شيئاً. (٣)

ويذكر هيكى أن أغلب من عمل معهم أو عملوا معه كانوا يشكون من النظام الذى يتبعه.. وهو يعتقد أن النظام ليس مهماً فى الصحافة فقط ولكن فى الفن والخلق الأدبى وفى أى شىء آخر.. والمثال الحاضر الذى لا يضربه هيكى هو نجيب محفوظ الذى يمشى يومه كالساعة.. ويكتب رواياته فى مواعيد يومية ثابتة منتظمة.. وربما لهذا السبب هو أكثر الأدباء إنتاجاً.. ولو كان النظام فى الأدب سنة فهو فى الصحافة فرض.. لماذا؟.. يجب هيكى: «لأنك مرتبط بلحظة معينة.. لابد أن تذهب فيها الجريدة إلى المطبعة لتدور الماكينات.. إذن فأنت مقيد بلحظة نهاية محددة.. كأنه توقيت معركة ينبغى أن تكون كل عملياتك مرتبة من قبل بحيث تصبح الجريدة معدة فى لحظة معينة».. «فضلاً عن هذا.. أنا واحد من الناس يعتقد أن التكريم الحقيقى للوقت هو أن تشغله بما هو مجد وما هو نافع وإلا لن يكن ما تفعل تضييع وقت.. بل تضييع حياة.. أو تضييع عمر فى النهاية».. (٤)

بجانب النظام اليومى والغذائى الصارم يحافظ هيكى على نفسه وعلى استمراره بالرياضة البدنية.. وهو يقول: «أنا واحد من الناس المعتقدين أن جسم الإنسان هو الوعاء

الذى يضم كل الحواس وكل الملكات.. إذا لم تقم بجزء من الجهد البدنى العضلى المتمثل فى الرياضة بالدرجة الأولى فإنك ستفقد شيئاً ضرورياً للياقة الإنسانية». (٤)

وهكذا.. بدأ هيكل مشواره مع الرياضة بالتمرينات السويدية.. ثم لعب التنس وتعلم منه رد الفعل السريع والقدرة الخاطفة على اتخاذ القرار.. ورد الهجوم.. وبعد أن ترك موقعه فى رئاسة تحرير الأهرام أنتقل إلى الجولف.. شعر أن التنس لم يعد يناسبه.. «ربما لأننى لم أعد أحْتَاج سرعة رد الفعل.. ربما أصبح لدى وقت أطول». (٥)

إن هذه المشاهد الإنسانية البسيطة والعابرة وربما المجهولة أيضاً قد تساعد فى كشف مناطق الظلال فى شخصية صحفى وكاتب سياسى كبير عاش حياته على برميل بارود ساخن.. لكنه رغم ذلك عرف كيف يحافظ على نفسه وعلى لياقته النفسية والبدنية والعقلية.. وعرف كيف ينجح ويستمر فى نجاحه رغم تغير الظروف والمواقع ومصادر القوى.. وعرف كيف يدير معاركه وينتصر فى أغلبها.. عرف قيمة الأشياء الصغيرة فى صياغة وصناعة الأحداث والتحويلات الكبيرة.. وهى موهبة كل من يعرف كيف يظل قائماً ثابتاً رغم الزلازل والهزات الأرضية تحت قدميه.

هذه المشاهد قد تساعدنا فى كشف سر رجل شغل الدنيا أكثر من نصف قرن من الزمن.. وحقق شهرة عالمية فى مجاله لم يصل إليها غيره فى العالم العربى ممن يخدمون فى بلاط الكلمة.. أو فى بلاط الصحافة الذى اصطلح الناس على وصفه ببلاط صاحبة الجلالة.. إنه واحد من أشهر ١١ كاتباً صحفياً على مستوى العالم.. وترجم كتبه فى كثير من الأحيان إلى ٣١ لغة مختلفة.. وتنشر مقالاته بلغات متنوعة.. من الإنجليزية إلى اليابانية.. وتبث وكالات الأنباء تصريحاته وتوزعها على أربعة أنحاء الكرة الأرضية.. وفى الدراسات الأكاديمية فى الجامعات المصرية والتونسية والفرنسية والأمريكية العديد من رسائل الماجستير والدكتوراة عنه وأغلبها يحاول أن يجيب على السؤال الصعب.. كيف استمر ناجحاً متألقاً فى أكثر من عصر؟.. كيف بقى هو وخرج من واقع الجغرافيا إلى ذمة التاريخ معظم من كان معهم طوال أكثر من خمسين سنة؟.. ولكن رغم تكرار السؤال على مستوى الرسائل الجامعية إلا أن الإجابة عليه لم تكن شافية أو وافية أو كافية.

وقد كان هيكل ولا يزال مثار جدل حاد وعنيف.. ومثار إنقسام واضح يصعب أن يلتئم أو يقترب.. فهناك من يرفعه إلى السماء.. وهناك من يراه مسئولا عن الكثير من خطايانا السياسية والصحفية.. والحقيقة أن طول الزمن كان دائماً فى صالحه.. إن قصر الزمن لم يكن فى صالح جمال عبد الناصر فمات قبل أن ينفذ خطته فى تحرير الأرض المصرية التى

أُحتلت بعد هزيمة يونيو عام ١٩٦٧ .. ولكن .. بالنسبة لهيكل كان طول الزمن كفيلاً بتوضيح وإثبات الكثير مما كان سبباً في الهجوم عليه .. كما أن طول الزمن الذى أطاح بكثير من خصومه السياسيين والصحفيين ، منحة فرصة لأن تزداد مساحات الضوء فى حياته وأعماله ومن ثم تراجعت مساحة الظلام والظلال.

أيضاً فإنه كان هدفاً لحملات سياسية وصحفية شرسة وشائعات كانت قادرة على تدمير غيره وصور خاطئة حاول من سعى لاختراعها أن ترتدى ثياب الحقيقة .. فى وقت كان هو فيه وحيداً .. فى العراق .. لا يملك قوة النيران التى تملكها الأطراف الأخرى .. كذلك فإنه كان طرفاً فى معارك من النوع الثقيل بينه وبين السلطة أحياناً وبينه وبين خصومه دائماً .. ثم والأخطر أنه وجد نفسه معرضاً لضغوط وتحقيقات سياسية لمدة ٤٤ ساعة على مدى ١١ جلسة تحاسبه على أفكاره وكتابات باثر رجعى أمام المدعى العام الاشتراكى فى عهد الرئيس أنور السادات .. ثم كان أن وجد نفسه معرضاً لتجربة السجن المؤبد لمدة ٩٠ يوماً فى الزنزانة رقم (١٤) تحت مسئولية ورقابة من الشاويش عبد الجبار إلى الشاويش عبد التواب فى حملة اعتقالات سبتمبر عام ١٩٨١ الشهير التى انتهت بحادث المنصة واغتيال السادات وتغيير نظام حكمه.

الهوامش

- (١) رسالة هيكل إلى سمير صبحى فى مقدمة كتاب «الجورنالجي» القاهرة - ١٩٩٨ - ص ١١.
- (٢) حوار هيكل مع أسرة تحرير جريدة «السفير» اللبنانية فى صيف ١٩٩٨.
- (٣) خالد توحيد - مجلة «الأهرام الرياضى» - ٢٥ نوفمبر ١٩٩٤ - العدد ٢٥٦ - ص ٢٠.
- (٤) المصدر السابق.
- (٥) المصدر السابق.

من الاهتمام بما يعرف إلى الاهتمام بما يفكر فيه

■ «إن هيكل هو أهم شخصية أثرت في مقدرات الشرق الأوسط وعلى أوسع وأشمل مدى لمدة عشرين سنة كاملة» .. هكذا .. يعترف صديق قديم لهيكل أنقلب عليه وأصبح خصماً له وراح يهاجمه بضراوة هو الكاتب الصحفي ناصر الدين النشاشيبي. (١)

لقد جاء النشاشيبي مهاجراً من القدس ليعمل في ظل المد القومي والناصرى في الصحافة المصرية .. وقد عُيِّن واحداً من رؤساء تحرير جريدة «الجمهورية» - المعبرة عن ثورة يوليو بطريقة مباشرة والتي صدر ترخيصها باسم جمال عبد الناصر - في سباق لم تحدث من قبل .. وكان النشاشيبي صديقاً لكل نجوم الصحافة المصرية .. لكن بمرور الأيام وتغير القوى انطبق عليه المثل الياباني القائل «إن الصديق هو عدو تحت التمرين» .. وانطبق عليه قول جمال عبد الناصر «اللهم أحمنى من أصدقائى أما أعدائى فأنا كفيل بهم» .. فبعد أن أصبح النفط حاكماً يملأ معظم الأقلام بدلاً من الحبر انقلب النشاشيبي على هيكل وعلى باقى أصدقائه القدامى في الصحافة وراح يُشهر بهم في الصحافة العربية الممولة من دول النفط التي نقلت الصحافة من عصر الطهارة إلى عصر «موبيل أويل».

إن النشاشيبي لم ينتظر طويلاً بعد خروج هيكل من الأهرام ليفتح النار عليه في سلسلة مقالات نشرها في مجلة «الحوادث» اللبنانية (٢) بدأت في ١٠ مايو ١٩٧٤ بعد أقل من شهرين على ترك هيكل موقعه .. في العدد ٩١٣ وما تلاه .. كان عنوانها الرئيسى «ماذا فعل هيكل بالسجين مصطفى أمين .. وماذا فعل على أمين بالطريد هيكل؟» .. وفي

هذه المقالات اتهم النشاشيبي هيكل بأنه كان وراء قانون تنظيم الصحافة كي يسيطر على المهنة .. وأنه هو الذى قام بنفى على أمين إلى لندن .. وأنه تخلى عن مصطفى أمين وعلى أمين بعد القضية التى أُدين فيها مصطفى أمين بتهمة التجسس لحساب المخابرات المركزية الأمريكية .. واتهمه بأنه كان يزور مصطفى أمين فى السجن لمجرد التشفى فيه .. وأنه وجد عملاً فى الأهرام لأبنته كي يتظاهر أمام الناس لا أقل ولا أكثر .. ثم زاد العيار مع قرب نهاية السلسلة ليصبح هيكل هو الذى تواطأ على مصطفى وعلى أمين .. ثم كان أن انتهت السلسلة بأنه هو الذى لفق التهمة لمصطفى أمين.

وقد جمع هيكل هذه السلسلة من المقالات فى ملف واحد .. وضعه فى أحد الأدراج وأعتبر الأمر من جانبه منتهياً .. ولكن .. فيما بعد .. بعد حوالى ١٠ سنوات قام هيكل بالرد الموثق فى كتابه «بين الصحافة والسياسة» الذى أصر على أن ينشره وكل الأطراف الأخرى على قيد الحياة ..

على أن ما يهمنا هنا أن النشاشيبي الذى كان من أشد المهاجمين على هيكل لا يتردد فى الاعتراف بالمكانة التى وصل إليها هيكل ..

فهو ينقل على لسان شكرى القوتلى الزعيم السورى الذى طالب بالوحدة بين مصر وسوريا فى عام ١٩٥٨ وكان يوصف بالمواطن الأول أنه قال فى دمشق فى نفس عام الوحدة:

«أنا يهمنى أن أعرف هيكل جيداً وأن تكون علاقتى معه جيدة وأن تكون فكرته عنى جيدة لأن ذلك سيفتح لى قلب الرئيس عبد الناصر ويساعدنى على أن أحل مشاكل الإقليم السورى أو الإقليم الشمالى». (٣)

ويواصل النشاشيبي شهادته:

«وكننت فى الغرفة المجاورة لمكتب هيكل فى دار الأهرام القديمة فى شارع «مظلوم» بوسط القاهرة عندما جاء الملك حسين ومعه رئيس وزرائه وصفى التل (الذى قُتل فيما بعد فى القاهرة برصاصات فلسطينية) .. جاء يزوران هيكل فى مكتبه بناء على وساطة حثيثة مستمرة قام بها سفير الأردن فى القاهرة يوم ذاك مدحت جمعة .. وسمعت المرحوم وصفى التل يحاول استرضاء هيكل ويعدده بفتح صفحة جديدة معه وأنه سيكون عند حسن ظنه دائماً». (٤)

ويواصل النشاشيبي شهادته:

«وكننت أرى السفراء والوزراء ينتظرون عند السيدة نوال المحلاوى سكرتيرة هيكل لمدة ساعات لعل الفرغ يأتى ويفتح أمامهم باب ... الألهة.

وكننت أرى هيكل يسمح لنفسه بأن يطرد من مكتبه رؤساء وزارات وكبار الصحفيين العالميين بحجة أن جرس التليفون الأبيض (وهو التليفون الخاص الموصل بينه وبين جمال عبد الناصر وكان يرن كصوت العصفور) قد بدأ يدق .. ومعنى ذلك أن الرئيس «على الخط» وأن الحديث يجب أن لا يسمعه زائر غريب مهما علا منصبه أو ارتفعت قيمته.

«وكننت أرى السيد «هارولدبيل» سفير بريطانيا العظمى جالساً فى مكتب سكرتيرة هيكل ينتظر الإذن بالدخول وقد مضى على وصوله أكثر من ساعة لا يستطيع معها أن يدخل لأن هيكل مشغول .. ولا يستطيع السفير أن يشعل سيجارة لأن سكرتيرة هيكل تكره رائحة الدخان» (٥) وقد سأل النشاشيبي السفير البريطانى عن سر قبوله لهذا الوضع الذى وصفه بأنه مذل فأجابه بالطريقة العصبية المعروفة عنه «مش مهم .. إذا كان نجاحى كسفير لبلادى فى مصر يتوقف على مزاج هيكل فأنا مستعد أن أراعى له هذا المزاج وأنتظر بدل الساعة ثلاثة ساعات وأكثر».

ويستطرد النشاشيبي:

«لقد صحبت هيكل ذات ليلة - لوحدها - لحضور حفل أم كلثوم فى ناد من نوادى الضباط بمصر الجديدة .. وغنت أم كلثوم حتى أبدعت وأشجت وأطربت .. وفى فترة الاستراحة أخذنى هيكل من يدى ودخل بى إلى خلف المسرح حيث كانت تجلس أم كلثوم وما أن رآته حتى هبت واقفة وهى تقول:

«أهلاً بالدنيا كلها .. أهلاً ياسيدى».

«ورنت كلمة «سيدى» فى أننى.

«ثم التفتت أم كلثوم نحوى وقالت وهى تصافحنى: الأغنية التى فانت كانت للجمهور .. إنما الأغنية الجاية ستكون لمستمع واحد فقط هو محمد هيكل» (٦).

ويواصل النشاشيبي: «وفى لندن التقيت منذ أعوام بالسيد نديم دمشقية سفير لبنان فى بريطانيا الذى كان قد عاد لتوه من القاهرة وسألته إذا كان قد قابل الرئيس جمال عبد الناصر فأجابنى على الفور: لا .. وإنما قابلت هيكل .. هيكل يكفى.

«وذات مرة كان الصديق كمال رفعت سفير مصر فى لندن يحدثنى عن ظروف تعيينه فى هذا المنصب وقال بالحرف الواحد: فى شهر نوفمبر من عام ١٩٧٠ استدعانى الرئيس

أنور السادات وقال لى: أريد أن تختار بين منصب سفير مصر فى لندن أو فى باريس ..
فاخترت لندن(٧) ثم ذهبت أودع هيكل وسألته عن الشائعات القائلة بقرب تعديل وزارى
قادم .. فأجابنى هيكل بالإيجاب .. وذكر أمامى أسماء الوزراء الجدد قبل أن تعلن الأسماء
بأكثر من ١٠ أيام وسألته إن كان متأكداً من الأسماء التى ذكرها فقال ضاحكاً: لو أنا
غلطت تبقى من نصيب الشخص الذى ذكرت لك اسمه .. إنه فى هذه الحالة سيصبح
وزيراً(٨).

ويعود المنشاشيبي للوراء ليحدد عمق مكانة هيكل فيروى أن هيكل اختلف مع وزير
الإرشاد وعضو مجلس قيادة الثورة صلاح سالم .. وكان هيكل رئيس تحرير «آخر
ساعة» .. وقد طلب منه صلاح سالم أن يحذف من إحدى صفحات المجلة خبر معيناً وإلا
فإنه سيصدرها عند نزولها إلى السوق مباشرة .. ودار بين الإثنين الحوار التالى على
مسمع المنشاشيبي:

صلاح سالم: يجب أن تنزع الخبر المذكور من المجلة وإلا فساundersها.
هيكل: لن أ حذف شيئاً .. وستصدر المجلة وبداخلها الخبر .. وأنا أتحداك أن تأمر
بمصادرتها.

«وصدرت المجلة وبها الخبر ولم يجرؤ صلاح سالم وزير الإرشاد وأحد كبار الضباط
الأحرار وصديق جمال عبد الناصر وشقيق جمال سالم وعضو مجلس قيادة الثورة أن
يفعل شيئاً .. وانتصر هيكل» (٩)

إن علاقة هيكل المتينة بجمال عبد الناصر هى أبرز أسباب قوة هيكل التى بدت على
هذا النحو والى جعلت بعضاً لا يستهان به يؤمن بأن هيكل كان «شريكاً» فى حكم عبد
الناصر .. إذا لم يكن بالتدبير .. فعلى الأقل بالتفكير .. بالتفسير .. ولا نقول بالتبرير ..
ومن هنا كان الوصف الذى التصق بهيكل مدة طويلة حتى رافقه كظله بعد وفاة عبد
الناصر .. وصف «الصحفى الأوحده» .. لكن .. ليس من الإنصاف أن نرجع قوة هيكل
فقط لهذه العلاقة غير المسبوقة فى مصر بين صحفى ورئيس وزعيم كبير مثل عبد
الناصر .. فمثل هذه العلاقة كانت متاحة لعدد آخر من نجوم الصحافة .. إحسان عبد
القدوس .. حلمى سلام .. أحمد بهاء الدين .. مثلاً.

من الإنصاف أن نعترف بموهبة هيكل الصحفية .. وقدرته الفائقة على تنميتها .. وبحساسيته فى التعامل مع الظروف .. والأشخاص .. وبالتحكم فى تحديد المسافات بينه وبين الآخرين .. وبسرعته فى تنمية أدواته المهنية والإنسانية .. والتعامل مع الواقع حتى ولو بدا مترفعاً عنه فى كثير من الأحيان .. وبراعته التى يحسد عليها فى أن يظل على القمة مهما تغيرت الظروف .. وإلا كان قد أنتهى بموت عبدالناصر .. أو بخروجه من نظام السادات.

إن الذين اختصروا هيكل فى علاقته بعبد الناصر .. لم يظلموه .. بقدر ما فشلوا فى تفسيره .. وتقييمه .. وفحص عناصر قوته .. ونقاط ضعفه .. وهذا الخطأ فى التقدير جعل خصومه يفشلون ويحترقون ويذهبون .. وجعله هو باقياً .. قادراً .. مستمراً .. إنهم تفرغوا للتشهير به بينما تفرغ هو للتأمل والتفكير والتأليف .. وفى كل الأحوال فإنه لم يفقد طريقه الأساسى .. عموده الفقرى .. الصحافة.

لقد ظل هيكل حديث العالم سنوات طوال بعد رحيل عبد الناصر .. ولعل ما قاله أنتونى ناتنج وزير الدولة الأسبق للشئون الخارجية فى حكومة أنتونى إيدن لهيئة الإذاعة البريطانية فى ١٤ ديسمبر ١٩٧٨ يثبت ذلك .. قال: «عندما كان هيكل قرب السلطة كان الكل يهتم بما يعرف .. وعندما ابتعد عنها تحول اهتمام الكل إلى ما يفكر فيه».

وعندما أصدر هيكل أول كتاب فى مجموعة كتبه عن «حرب الثلاثين سنة» تلقى خطاباً من السير «ستيفن رانسيمان» أستاذ التاريخ الأشهر الذى حقق لنفسه مكانة فريدة حين جلس على كرسى (مادة) التاريخ فى جامعتى كامبريدج وأكسفورد معاً رغم المنافسة التقليدية بين الجامعتين .. جاء خطاب رانسيمان مع واحد من أصدقاء هيكل المقربين هو «نديم دمشقية» الذى كان سفيراً للبنان وعميداً للسك الدبلوماسية العربى فى بريطانيا لمدة طويلة .. «كان دمشقية فى زيارة لجامعة أكسفورد فى إحدى المناسبات والتقى المؤرخ البريطانى الشهير ووجده يحدثه عن كتاب هيكل الذى فرغ من قراءته» .. ويستطرد هيكل: «وحين قال له إنه وأنا أصدقاء عمر رجاه أن يكون رسولا يحمل إلى خطاباً منه ومعه هدية أضعها باعتزاز فى مكتبى هى دراسته العظيمة التى تقع فى ثلاثة أجزاء عن «الحروب الصليبية» والتى تعتبر بحق أهم ما كتب عن هذه الحروب التى كانت واحدة من المعالم البارزة فى التاريخ الإنسانى وما يؤثر فيه من صدام الحضارات».

«كان خطاب السير رانسيمان بالغ الرقة .. فياضاً فى كرمه .. وكانت سطورره على

النحو التالى:

«عزيزى....»

«لقد فرغت قبل أيام من قراءة كتابك الأخير وكنت أبحث عن وسيلة أتصل بها بك. ولسعادتى قابلت السفير دمشقية. ومن خلال حديثى معه عرفت أنكما أصدقاء. وقد بعثت إليك بكتابى عن الحروب الصليبية ولست أعرف إذا كنت قد أطلعت عليه. فإذا كان الأمر كذلك فلا أظنك تمنع أن تكون لديك نسخة مكررة منه. كتب لك مؤلفه إهداء بخطه تحية لك.

«إننى قرأت كتابك وتصورت كم كان يمكن أن يختلف كتابى وكتب كثيرين من الذين عنوا بكتابة التاريخ غيرى لو أنه أتاحت لنا جميعاً رواية شاهد عيان عاش وقائع الأحداث التى تتعرض لها ثم فعل ما فعلت أنت وسجل لنا ما رأى...»

«ولا أخفى عليك أننى أحسبك على تجربتك التى أعطتك الفرصة لتعيش التاريخ وتكتب عنه أيضاً...»

«هناك قول شائع لعلك تتذكره وهو يقول: «إن التاريخ له آذان ولكن ليس له عيون».. بمعنى أننا نسمع روايات عما جرى من وقائعه منقوله لنا بالسمع والتواتر عن هذا وذاك من الناس ومعظمها مكتوبة بأثر رجعى يخلط الوهم بالحقيقة إلى درجة تتركنا مع نوع من الفلكلور الأسطورى يعذبنا كثيراً فرزه إذا كان ذلك الفرز ممكناً على الإطلاق. وصحيح أننا نصادف فى بعض المرات وثائق مكتوبة... ولكننا نجد أنفسنا حائرين أمامها لا نستطيع أن نقدر بالضبط أصالتها وظروفها ومدى تعبير ما فيها عن الواقع كما جرى.

«ولقد كان ما أثار اهتمامى فى تجربتك هو أن التاريخ عندك له آذان وله أيضاً عيون وهذا تجربة أتمنى لو أناقشها معك إذا خطر لك يوماً أن تعود إلى أكسفورد». (١٠)

بل وحصل الأمر فى تصور وتقدير أهمية ومكانة هيكلى إلى حد أن هناك من رشحه لرئاسة الجمهورية فى مصر.. ففى حوار نشرته مجلة «الوطن العربى» فى ٢ مارس ١٩٧٧ سألتها الصحفية اللبنانية هدى الحسينى: «هل كنت مرشحاً لرئاسة الجمهورية خلفاً لعبد الناصر بعد وفاته؟.. وهل تعد نفسك حالياً لرئاسة الجمهورية؟».

كان السؤال مفاجأة بكل المقاييس.. فهى المرة الأولى التى نسمع فيها عن ترشيح صحفى لرئاسة دولة فى العالم العربى.. حيث السلطة بالمواريث الملكية.. أو بالقوة العسكرية.. وعلى حد علمى لم يحدث سوى مرة واحدة أن أصبح صحفياً فى السلطة

العليا هو يفجيني بريماكوف الذى كان مراسلا لصحيفة البرافدا السوفيتية فى القاهرة..
وقد تولى رئاسة الحكومة لفترة محدودة فى روسيا خلال عام ١٩٩٩ .

كانت إجابة هيكل على السؤال: إن هذا ليس صحيحاً.

وسألته: وهل تعد نفسك لرئاسة الجمهورية حالياً؟

وكانت إجابته : «أبداً .. أبداً» .

وسألته: لماذا؟.

فقال: أولاً أنا خارج كل التنظيمات.. ثم أعمل أيه بالرئاسة؟.. ثم هى بحاجة لشىء آخر
مختلف تماماً.. ثم هناك التطور.. تطور الظروف.. أتصور أنها بحاجة لأمر مختلف تماماً.
ويبدو أن مثل هذا السؤال الذى جاء فى وقت يستعد فيه السادات لفترة ولاية ثانية من
حكمه هو ما أزعجه من هيكل.. وقد كان السادات لا يكف عن ترديد أن هيكل يريد أن
يحكم.. أو على الأقل يشارك فى الحكم.. أو أنه يريد أن يعمل رأسه برأس الرئيس.. وهو
ما أضاف إلى هيكل أهمية دون مجهود من جانبه.

والحقيقة أن جزء من براعة هيكل فى دعم قدرته على الاستمرار هو أنه رفض أن
يكون مشاركاً ولاعباً فى السلطة السياسية والبيروقراطية فى الوقت الذى أُجبر فيه على
ترك موقعه الصحفى فى الأهرام.. لم يقبل أن يخرج من الأهرام إلى قصر عابدين ليتولى
منصب وزير شئون رئاسة الجمهورية.. وقال: «إننى لا أنوى الذهاب إلى قصر عابدين
وإنما أنا خارج من الأهرام إلى بيتى حتى أعثر على مكتب أعمل منه كصحفى وكاتب
مستقل».. وفيما بعد أيضاً رفض أن يكون نائباً لرئيس الوزراء فى حكومة ممدوح سالم..
فهو يعرف جيداً أن أى مسئول حالى سيأتى عليه يوماً ويحمل لقب «مسئول سابق»..
ولكن.. لقب سابق لا ينطبق بأى حال من الأحوال على الكاتب والصحفيين حتى بعد أن
يرحلوا عن الدنيا.. فلا توفيق الحكيم كاتب سابق.. ولا محمد التابعى أيضاً.. إن الحاكم
يذهب.. ويبقى الكاتب.. وقد اختار هيكل البقاء.. لا الذهاب.

- (١) ناصر الدين النشاشيبي: «قصتي مع الصحافة» دون اسم ناشر ١٩٨٣ - ص ٥٩٨.
- (٢) كان يملك الحوادث ويرأس تحريرها سليم اللوزي الذي بدأ حياته الصحفية في مجلة روز اليوسف في الأربعينات.. وفيما بعد أصبحت الحوادث معبرة عن الاتجاه القومي الناصري في لبنان وكانت السلطة في مصر تدعمها.. لكن بعد غياب عبدالناصر بحثت المجلة عن مساندة أخرى.. وكانت شروط المساندين الجدد أن ينقلب سليم اللوزي على عبد الناصر.. ولم يتردد في أن يفعل.. وقد انتهت حياته بالفعل ووجدت جثته وقد ذابت في الحمض القاتل الذي يعرف شعبيا باسم ماء النار.
- (٣) النشاشيبي: المصدر السابق ص ٥٩٩.
- (٤) المصدر السابق: ص ٥٥٩.
- (٥) المصدر السابق: ص ٥٥٩.
- (٦) المصدر السابق: ص ٢٠٣.
- (٧) من عجائب السياسة المصرية أن سفارتنا في لندن كانت في كثير من الأحيان نوعاً من المنفى أو التكريم لشخصيات لعبت دوراً في الداخل.. فقد تولاهما كمال رفعت هو من رجال الصف الثاني من الثورة وكان وزيراً للعمل.. وتولاهما سعد الشاذلي رئيس الأركان في حرب أكتوبر ١٩٧٣ الذي اختلف في كيفية إدارة الحرب مع الرئيس السادات.. ورشح لها هيكمل لإبعاده عن مصر بحجة أن له في لندن أصدقاء كثيرون وفيها كذلك ناشرو كتبه ويذكر هيكمل أنه دافع عن تمثيلنا في لندن.. سفارتنا في بلاط سان جيمس قائلاً: إننا أصبحنا نتعامل معها بطريقة غير لائقة.. أصبحنا نرسل إليه سفراء من رجال وضعناهم في منطقة الظل بين الرضا والغضب.. أعني هؤلاء الذي أنقلب الأمر عليهم لكنه لا يرد أن ينقلبوا عليه...
- (٨) النشاشيبي: المصدر السابق ص ٦٠٠.
- (٩) المصدر السابق: ص ٦٠٠.
- (١٠) سمير صبحي : مصدر سابق - ص ١٠٠.

رقصة الموت لفرسان الساحات الخالية

■ على الجانب الآخر من النهر كان خصوم هيكل ينصبون له المحاكم والمشانق.. ويقرعون الطبول.. ويرقصون حوله رقصة الموت .. ويتلذذون بأكل لحمه نيئاً.. لقد كانت قائمة الاتهامات لا حد لقسوتها.. ولا لضراوتها.. من تدمير عقل الأمة إلى تزوير تاريخها.. ومن انفراده بالسلطة الصحفية إلى تضليله للسلطة السياسية.. ومن ارتباطه بالأجهزة الخفية إلى تربيته من علاقاته العلنية.. ومن التنكر لكل من ساعدوه إلى التنكر لتاريخه الشخصي.. وقد ضمت كتيبه الرماة أسماء معروفة ومشهورة في الحياة الصحفية والسياسية والفكرية.. مثل الدكتور فؤاد زكريا .. مصطفى أمين.. أنور السادات.. موسى صبرى.. أحمد أبو الفتوح.. إحسان عبد القدوس .. جلال كشك.. ناصر الدين النشاشيبي.. فتحى غانم.. ومرشد الإخوان عمر التلمسانى.. وغيرهم ممن يصعب حصرهم من المحيط إلى الخليج.

لقد خصص فيلسوف معاصر هو الدكتور فؤاد زكريا كتاباً بالكامل عن هيكل نشره فى إبريل ١٩٨٤ بعنوان «كم عمر الغضب - هيكل وأزمة العقل العربى».. كان بمناسبة الضجة الى اثارها كتاب هيكل عن السادات وعصره والذي نشره بعنوان «خريف الغضب».. وأهم ما فى الكتاب أن الدكتور فؤاد زكريا ينتقد منهج هيكل السياسى ويتهمة بالتناقض مع نفسه.. ولو كان هيكل يستخدم قوة سلاح «الأرشيف» فى مواجهة خصومه فإن هذا السلاح يمكن أن يستخدم ضده أيضاً.. ولا يرى الدكتور فؤاد زكريا فروقا جوهرية بين

نظامى حكم جمال عبدالناصر وأنور السادات .. الفروق شكلية .. أما الجوهر .. فهما نظام حكم فردى .. تختفى فيه الديمقراطية ويسود جو التكتم وتنفجر فيه القرارات الفجائية غير المحسوبة .. ولا يسمح بالاختلاف معه .. وإلا كان الثمن فادحاً.

إن السادات كان امتداداً لعبد الناصر .. وهو الذى اختاره .. فلو كان السادات خائناً فاسداً عميلاً فلماذا أدخله عبد الناصر تنظيم الضباط الأحرار ؟ .. ولماذا اختاره فيما بعد نائباً له وهو يعلم أنه قد يخلفه فى المسئولية .. ولا يجوز أن تكون مبررات اختياره أنه الوحيد من بقايا مجلس الثورة الذى لم يعين نائباً للرئيس .. ولا يجوز أن تكون مبررات اختياره أنه الوحيد من بقايا مجلس الثورة الذى لم يعين نائباً للرئيس .. فالسلطة لا تدار بطريقة «القرعة» .. كما أن هيكى «استثنى نفسه تماماً من اللوم وصب الاتهامات على الغير وكأنه كان طوال الوقت مشاهداً محايداً أو ناصحاً أميناً» .. «إن هيكى كان جزءاً لا يتجزأ من معظم الأخطاء التى يعييبها على السادات وأن دوره قد بلغ ذروته التأثير فى سنوات التكوين الأولى التى تشكلت فيه معالم السياسة الساداتية الجديدة والتى ترجع إليها معظم التطورات اللاحقة .. هذه حقيقة لا بد أن يثبتها التاريخ على نحو قاطع .. ومع ذلك فإن من يبحث عند هيكى عن كلمة واحدة تعبر عن تأنيب الضمير أو مراجعة النفس أو نقد الذات سيكون بحثه قد ضاع هباءً» .

ولعل أخطر ما فى نقد الدكتور فؤاد زكريا هو أنه يتجه مباشرة نحو طريقة التفكير وخطورتها على العقل العربى الذى أصابه التشويه بعد سنوات طويلة من الممارسات الملتوية المقيدة بألف قيد.

وتكاد مذكرات موسى صبرى التى نشرها فى عام ١٩٩٢ بعنوان «٥٠ عاماً فى قطار الصحافة» أن تكون طعنأ فى هيكى .. وقد رصدت فى هذه المذكرات - التى نشرت قبل وفاة صاحبها بالسرطان ٢٥ واقعة منشورة بالتفاصيل تتعرض لهيكى .. فمصطفى أمين رفض أن يعينه رئيساً لتحرير «الأخبار» مراعاة لهيكى .. وقبل ذلك رفضوا رفع مرتبه فى «آخر ساعة» حتى لا يتقاضى أكثر من هيكى .. ورفض إحسان عبد القدوس - وكان رئيساً لمجلس إدارة أخبار اليوم - نشر مقالة له لأنه يهاجم هيكى .. إن هيكى يكاد يكون هاجساً نفسياً لموسى صبرى .. ليس فى مذكراته فقط وإنما فى كتبه السياسية الأخرى أيضاً .. بل أن هناك من يعتقد أنه كان يقصد هيكى فى روايته المتواضعة «دموع صاحبة الجلالة» التى أنتجها التلفزيون الحكومى مسلسلاً درامياً .. ثم تحولت إلى فيلم سينمائى ..

وحسب تحرياتي فإن إبراهيم سعدة أرسل الرواية لهيكل قبل النشر كي يقرأها ويحذف منها ما يشاء .. لكن .. هيكل رفض ذلك .. وحسب تحرياتي أيضاً فإن هيكل رفض اقتراح الكاتب الصحفي محمود عوض برفع قضية منهما على موسى صبرى .. بدعوى أن بطل الرواية هو مزيج من شخصيتهما معاً ..

وحسب تحرياتي فإن هيكل رفض الاستجابة لضغوط محمود السعدنى بزيارة موسى صبرى وهو على فراش الموت .. كان موسى صبرى هو الذى أراد رؤية هيكل قبل الرحيل .. لكن .. هيكل كان يرى أن ما فعله مع موسى صبرى لم ينل منه إلا جزاء سنمار .. وهناك واقعة لا يرويها هيكل إلا لأصدقائه المقربين .. هى أن موسى صبرى أتصل به وقال له وهو فى غاية الانزعاج: «يا فندم حدثت مشكلة لا أعرف كيف أتعامل معها .. لقد اتصل بى أمين الاتحاد الاشتراكى فى القاهرة عبد المجيد فريد وقال لى أن على صبرى لا يريدنى صحفياً فى أخبار اليوم» .. كان هيكل فى ذلك الوقت مشرفاً على أخبار اليوم وقد رد على موسى صبرى قائلاً: «ياموسى .. أنت بتأخذ أوامرك من مين .. منى أم من الاتحاد الاشتراكى؟ .. أبقى فى مكانك وأنس كل ما سمعت» .. وأتصل هيكل بإدارة تحرير الأخبار وسأل سكرتير التحرير وكان عبد السلام داود: «متى ينشر موسى صبرى يومياته فى الصفحة الأخيرة؟» .. وجاء الرد: «موعدة غدا .. لكنه خاف أن يكتبها» .. فقال هيكل: «دعه يكتبها» .. فقال عبد السلام: «مفيش وقت .. المطبعة تنتظر على عجل .. فسأل هيكل: «ومن كتب اليوميات بدلاً منه؟» .. وعرف أنه أحمد زين .. فطلب رفع اسم أحمد زين من على يومياته وطلب وضع اسم موسى صبرى عليها حتى لا يبدو أن تهديد الاتحاد الاشتراكى قد أثمر .. وفى اليوم التالى تلقى هيكل مكالمات أكثر انزعاجاً من موسى صبرى الذى كان هيكل قد رفع مرتبه من ٣٦٠٠ إلى ٥٠٠٠ جنية فى السنة وعينه رئيساً للتحرير.

ولم يكن موسى صبرى هو الوحيد الذى لجأ إلى حيلة الكتابة الروائية للانتقام من هيكل .. لقد اجتهد البعض فى تفسير روايتى «زينب والعرش» و«الرجل الذى فقد ظله» لفتحى غانم بحثاً عن ملامح لهيكل بين أبطالهما .. خاصة وأن الروائيتين تدوران فى كواليس عالم الصحافة بكل ما فيه من براعة وشراسة .. لكن .. فتحى غانم أنكر ذلك فى آخر مقالاته التى كتبها قبل وفاته فى مجلة صباح الخير .. وفى عدد يوم الخميس ٢١ يناير ١٩٩٩ كتب فتحى غانم: «كان يوسف عبد الحميد السويفى بطل رواية الرجل الذى فقد ظله شخصية بريئة وماكرة وانتهازية فى نفس الوقت .. وكان قد مضى على ثورة ٢٣ يوليو أكثر من ثمان سنوات فسقطت خلال هذه السنوات حالات أحاطت برجال الثورة

كانت ترفعهم إلى مصاف الأبطال الأسطوريين وظهرت بينهم أعراض الضعف الإنساني.. «ومن هنا كان تفكيرى فى براءة يوسف وطفولته من ناحية وأمانته فى النفاق من ناحية أخرى.. وكان لابد أن يكون قد شق طريقه إلى القمة بعد معارك اقتحمها ببراءته ومكره ونفاقه.. كنت أتصوره الصحفي الأول فى مصر.. ومن هنا قلت لجمال كامل وهو يسألنى عن شخصية يوسف ليرسمها إنه محمد حسنين هيكل لأنه كان الصحفي الأول فى مصر وكان مقربا من جمال عبد الناصر.. لكنه كان أبعد ما يكون عن شخصية يوسف عبد الحميد التى أريد كتابتها ولا يقتصر البعد عن اختلاف حياة كل من يوسف وهيكل فلاصلة بين وقائع حياة الشخصية الروائية ووقائع حياة الشخصية الحقيقية».

«ولقد كانت الصداقة الى جمعتنى بهيكل تعود إلى بداية حياته كصحفى وكان يتعامل فى عالم الصحافة بيقظة شديدة وانتباه مستمر لكل ما يدور حوله وكان سلاحه الذى ينتصر به هو الخبر الذى يحصل عليه.. ولذلك كان بعيدا تماما عن مفهوم البراءة والمكر والنفاق عند يوسف».. «وللحقيقة لم يصل هيكل إلى القمة بالطرق التى لجأ إليها يوسف.. وكان هيكل يقول لى: أنا أمام عبد الناصر لا أختلف عن بقية الصحفيين الذين يتصلون به ومن بينهم محمد التابعى ومصطفى أمين.. لكن عبد الناصر رآه أكثرهم نشاطا وكان يجد عنده فى أى وقت أحدث الأخبار.. والحاكم يحتاج إلى صحفى ناجح يثق فيه كما يحتاج الصحفى إلى حاكم يزوده بأخباره.. ولقد جرب عبد الناصر صحفيين قبل هيكل.. فكان يسأل عنهم ويطلب الاتصال بهم فى ساعة متأخرة من الليل فلا يجدهم.. وتمر ساعات قبل أن يتصلوا به.. وتأتى أخبار هؤلاء الصحفيين فإذا بأحد الذين يبحث عنهم يقضى سهراته فى عوامة يتعاطى الحشيش وآخر يقضى ليلته فى شقة خاصة وثالث يلعب القمار مع من يشنعون على الثورة.

«وعندما طلب منى هيكل أن أعمل معه فى آخر ساعة قضى وقتا طويلا معى ونحن نسير على غير هدى فى الشوارع.. وكان يحذرنى من التورط مع هؤلاء الصحفيين أو الانضمام إلى شللهم وكان يرى أنهم تقاعسوا أو تشككوا فى عبد الناصر وقدرته على الاستمرار فى قيادة الثورة فأبعدوا أنفسهم بأنفسهم.. وهكذا توطدت العلاقة بين هيكل وعبد الناصر لأنه اعتمد على كفاءته ولا شىء آخر ولا أظن أن شىء آخر كان ينفعه مع عبد الناصر.

«هذا هو هيكل الذى عرفته وهو يختلف تماما عن يوسف السويفى مظهرا ومخبرا؛ فلا صلة بين الاثنين سوى أن كليهما يحتل المركز الأول المقرب من عبد الناصر ويبدو أن

هذا يكفي عند القراء سواء في مصر والعالم العربى أو العالم الخارجى.. فقد نوه كاتب في نيويورك تايمز بأن الرجل الذى فقد ظله مكتوبة عن محمد حسنين هيكل.. ولقد حدث التساؤل من هيكل نفسه فقد فاجأنى محمد التابعى وأنا فى بيته قائلاً: هل اتصلت بمحمد (يقصد محمد حسنين هيكل) .. قلت: لا .. فقال: أفضل أن تتصل به لأنه سألنى إذا كانت الرواية التى اكتبها عنهما.. التابعى وهيكل أم ماذا؟.. وذهبت إلى هيكل فى مكتبته بالأهرام فقابلنى ضاحكاً فى سخرية قائلاً: بالإنجليزية: أهلاً بالرجل الذى فقد عقله.. ولم يستغرق الأمر أكثر من دقيقة لنضحك معاً.. لأنه يعرف أن يوسف شخصية أخرى.. وإن كانت الناس تتحدث بأن يوسف هو هيكل.. ولا فائدة فى مثل هذه الأحوال من الحديث عن الرواية والفرق بين الواقع والوقائع واختلاف الشخصية فى كل منهما لأن الذى يسمع هذا الكلام كان يرفضه.. قد استراح إلى أن يوسف هو هيكل وإذا صدق أى كلام آخر فسوف يشعر بالإحباط.

وتناول ديزموند ستيوارت الروائى الإنجليزى الذى ترجم «الرجل الذى فقد ظله» إلى الإنجليزية موضوع هيكل فى مقال له كتبه فى مجلة «انكونتر» الإنجليزية بمناسبة الخلاف الذى وقع بين السادات وهيكل وأدى إلى خروج هيكل من الأهرام.. قال ديزموند: إن هيكل كان فى وضع يستطيع فيه أن يلحق الضرر بفتحى غانم إذا أراد ولكنه لم يفعل وهو يعلم أن الرواية بعيدة عنه ويفهم أسباب الحرص بين الناس على إلصاق شخصية يوسف به.. ولقد ظل السؤال يلاحقنى أينما ذهبت.. فى لندن أو موسكو أو الكويت أو الدوحة.. أينما وجدت الفرصة لسؤالى كان لا بد أن اسمع الصلة بين هيكل ويوسف.. ورغم أن الإجابة قد نشرتها عشرات التحقيقات الصحفية فى الصحف العربية إلا أن السؤال يظل مطروحاً لأن هيكل أصبح يوسف برغبة القراء وليس برغبة المؤلف.. غير أن هناك مفاجأة لا بد من البوح بها.. ذلك أن جمال كامل رأى بدسه الصحفى أن ما جاء على لسانى لأول وهلة أنى أفكر فى محمد حسنين هيكل هو ما يجب أن يحرص على تسجيله فى لوحاته وناقشته فى أن الأحداث وتطوراتها وأسبابها مختلفة إلى أن غاب عدة أيام وعاد معه لوحة للنشر مع الفصل الأول من كتاب يوسف وهو الكتاب الرابع فى رباعية الرجل الذى فقد ظله تصور اللوحة شاباً فى مستقبل الحياة وفى الركن الأسفل للوحة تاريخ ميلاد الشاب ٢٣ سبتمبر ١٩٢٣ وهذا هو تاريخ ميلاد محمد حسنين هيكل وكان جمال يعرف التاريخ لأننا تحدثنا معاً طويلاً عن هيكل وكنت أقول له أنه يكبرنى بخمسة شهور وهكذا ساهم جمال بطريقة ما فى إشاعة العلاقة بين يوسف وهيكل وإن كان أحداً لم يفتن على دلالة هذا التاريخ.

«وكان مخرج مسرحى شاب درس الإخراج فى الاتحاد السوفيتى وعاد إلى مصر من بعثته فأعجبه النص الروائى للرجل الذى فقد ظله ووجده فى تقسيمه إلى أربعة كتب تحديا فطلب إخراجه على المسرح.. وهكذا ساهم جلال الشرقاوى فى تقديم الرواية على المسرح بنجاح كبير وزاد الاهتمام بالرواية لأنها تقدم للجمهور على مسرح التلفزيون وسرت شائعة – لا أدري عن تفاصيلها شيئا – ان الدكتور عبد القادر حاتم وزير الثقافة والإعلام شجع على تقديمها لأنها تهاجم هيكل الذى ينافس فى مجال الدعاية والإعلام». انتهى ما كتبه فتحى غانم قبل وفاته.. لكن .. هل يكفى أن يفك الناس الارتباط القديم والمزمن بين شخصية يوسف السوفى وهيكى؟ .. لا أعتقد.

ولم يكن فتحى غانم فقط هو الذى فسرت شخصيات بعض رواياته على أنها تشير إلى هيكل.. كان هناك أيضا رواية إحسان عبدالقدوس «و غابت الشمس ولم يظهر القمر» رغم أن بطل الرواية ليس صحفيا وإنما يعمل فى البيزنيس.

وفى الحقيقة ليس كتاب جلال كشك «ثورة يوليو الأمريكية» الذى نشره فى حوالى ٦٥٠ صفحة عام ١٩٨٨ سوى ردا على كتابات هيكل التى روى فيها قصة «حرب الثلاثين سنة»..

ولا يمكن حصر الكتب والصحف والمقالات والكتابات التى راحت تهاجم هيكل.. لكن .. كان السؤال المحير هو كيف نجا هيكل من هذا الهجوم الضارى؟ .. كيف صمد فى وجه الضربات الثقيلة التى تعرض لها؟ ..

وينكر هيكل فى كثير من الأحيان أنه يقرأ الهجوم عليه.. وهو إنكار يعفيه من صدام مناقشة أمر يراه غير لائق بالأقتراب منه حتى مع أقرب الناس إليه.. وهو يقول: «لقد عودت نفسى منذ زمن طويل أن أتجنب الرد على الكثير مما يمكن أن ينشر عني أو يذاع.. ولم يكن ذلك – فيما أرجو عن بلادة حس أو عن مركبات غرور وإنما كان دافعى إليه إننى أعرف من واقع الحال وعن طبائع الظروف ما يغنينى وأكاد أقول يرضينى.. إننى تمثلت بنصيحة الفيلسوف القديم «قل كلمتك وأمش» .. وقد قلت كلمتى ومشيت.. ولم أسمح لنفسى أن أتلكأ على باب أو أن أقف فى انتظار دقة جرس.. وهكذا فأننى منذ تركت مكانى القديم فى الأهرام وفى ظروف ليس هذا مجالها الآن كان قرارى – ولم أحد عنه – أن تكون حياتى فى مصر وليس خارجها وأن يكون عملى لها حتى وإن حكمت الأيام عليه بأن يظهر فى بلاد أخرى غيرها». (١)

وفى موضع آخر يقول: «أنه فى العادة عزوف عن استعمال حق الرد (وهو حق شرعى) خصوصاً فى ظروف لا تسمح بالحق من أصله.. ومن ثم تصبح ممارسة الفروع - أو محاولة ذلك - نوعاً من ضرب الرؤوس فى الجدران.. وحتى ولم تكن كذلك فإن القول المأثور عن «برنارد شو» يبدو مقنعاً لى: «إنهم يقولون.. ماذا يقولون.. دعهم يقولون». (٢)

وفى الظروف السياسية المعادية له أعتاد هيكى أن يصف من يهاجمونه بأنهم «فرسان الساحات الخالية» هؤلاء الذى يرمحون فى ميادين يعرفون مقدماً أنه ليس فيها «عدو» وبالتالى ليس عليها قتال». (٣) وحين وصلت إليه من بعيد صرخات هذا الطراز من الفرسان لم يجد ما يغريه أو يدعوه إلى الإصغاء لأصواتها أو انتظار أصدائها.. ولم يخرج سوى مرات نادرة عن ما أثر الالتزام به.

ولهيكى عبارة خاصة به.. ينفرد بها منذ سنوات بعيدة.. يجدها مناسبة للرد والتعليق على كل ما لا يعجبه.. هى: «يلا.. بلا دوشة».. والدوشة تعبير مصرى دارج يعنى الصخب والضجيج الذى بلا طحين.

لكن.. الدوشة أحياناً ما كانت تزيد عن الحد.. وكثيراً ما كانت تأخذ شكل الضجة المؤثرة.. أو الضجة التى لا يمكن الفرار من تأثيرها.. وفى هذه الحالة لا بد من الرد.. وهو ما فعله هيكى حين نشرت إحدى الصحف عنواناً رئيسياً فى صفحتها الأولى تعليقا على رأى أبداه خارج مصر بمعارضة رحلة السادات للقدس قالت فيه بالحرف الواحد «واحد من مصر».. وكان رده على ذلك بعبارة واحدة فى نهاية مقال نشر أيضاً خارج مصر هى: «بل واحد من مصر».

وهو ما فعله هيكى أيضاً فى كتاب «بين الصحافة والسياسة».. المنشور فى عام ١٩٨٤.. وهو أول كتاب يحمل إهداءً خاصاً لم يعتد عليه فى كتبه من قبل.. كان الإهداء لأولاده الثلاثة: على وأحمد وحسن.. و«إلى عشرات الملايين غيرهم من شباب مصر وأمتها العربية وحتى لا يضيع منهم الغد لسبب بسيط لا ذنب لهم فيه هو أنهم لم يكونوا معنا بالأمس».. والكتاب يكشف طبيعة العلاقة بين الصحافة والسياسة فى مصر على امتداد الفترة التى تلت الحرب العالمية الثانية (أى منذ بدأ هيكى مشواره الصحفى تقريباً) وحتى فترة كتابته فى منتصف الثمانينيات وهى قصة يصفها هيكى بأنها واحدة من أغرب القصص فى علاقة الصحافة والسياسة فى مصر.. «والتى مازالت مستمرة فى تأثيرها تتواصل كل صباح».

ورغم أن القصة تبدو وكأنها قصة الصراع بين هيكل ومصطفى أمين .. أو تبدو وكأنها «قصة صراع حيتان هائجة في البحر حولته بجراحها إلى بقعة حمراء من الدم» .. أو كأنها «قصة تسوية حسابات قديمة كان يجب أن تذهب إلى زوايا النسيان لكن نوازع النفس البشرية الأمارة بالسوء أعادت بعثها مرة أخرى إلى الحياة» .. فإن هيكل يرفض ذلك ويرى أن صراع الأبطال الظاهر على المسرح يخفى في الكواليس صراعا لتشوية تجربة للتححر الوطني والتقدم الإجتماعى والاقتصادى جرت فى عصر عبد الناصر.. وقد جرى تشويهها باستخدام «أسلحة العصر ووسائله» .. ومنها بطاريات الإعلام الثقيلة .. وعندما تختلط الأمور - كما هو الآن - فإن ما يضيع ليس العلم والتجديد فقط وإنما يضيع الحلم الوطنى والقومى ولا يكون هناك بديل غير القمع والقهر. (٤) .. وعندما يضيع الحلم فإن الأنظمة لا يعود أمامها غير طريق واحد بدايته قناة تليفزيون أو محطة إذاعة أو جريدة .. ونهايته دبابة أو مدفع أو طائرة .. إذا عجزت الأنظمة عن تطويع إرادة الناس بالكلام تولى السلاح مهمة إخضاعهم بالحديد والنار. (٥)

لم يكن هذا الكتاب فى خطة هيكل .. كانت خطته أن ينشر كتابا عن «ظهور وتراجع القوة العربية» .. ولكنه أمام كثافة النيران الداخلية على جمال عبد الناصر قرر نشر كتاب «بين الصحافة والسياسة».

وأصر هيكل على أن ينشر الكتاب وكل الأطراف - وعلى رأسها مصطفى أمين - على قيد الحياة .. وقبل أن ينزل على هذه الأطراف ستار الأبدية .. وحتى لا يقول قائل «لماذا لم يتكلم وكان فى مقدوره الكلام» .. أو يقول آخر: بعد فوات الأوان جاءوا يتكلمون» .. وهكذا .. كان على هيكل أن يحسم أمره .. وليكن ما يكون .. «عارفا مسبقا أنها مهمة دونها أهوال فلدى الآخرين سلطة وليس فى يده شىء» .. ولدى الآخرين منابر ضخمة كأنها الحصون وهو فى الهواء الطلق أو العراء .. وبالتالي فهى موازين غير متكافئة .. وعلى أى حال وفى النهاية أطاع نداءً داخليا راح يهيب به أنه: الآن وقت الكلام وإلا فلا كلام».

ولعلى اكشف سرأ لو قلت أن بعضا من وثائق الكتاب التى تتعلق بمصطفى أمين وأخبار اليوم كان مصدرها محمد التابعى وإن لم يستعملها هيكل فى الكتاب .. ولعلى لا اكشف سرأ لو قلت أن هيكل كان يتوقع أن يلجأ مصطفى أمين للقضاء .. وهو ما جعل هيكل يحتفظ بعدد من الوثائق لم ينشرها فى الكتاب فى انتظار أن يقدمها للقضاء .. لكن مصطفى أمين لاذ بالصمت وخذل هيكل بعدم اللجوء للقضاء .. على حد تعبير هيكل نفسه .. فكان أن بقيت الوثائق فى مأمنها .. لأن هيكل وجد أنه بنشر الكتاب وبرحيل مصطفى أمين قد أغلق الملف.

- (١) خطاب من هيكل لجريدة الشعب الناطقة بلسان حزب العمل المعارض في ٣٠ ديسمبر ١٩٨٠ ردا على مقال للدكتور محمد عصفور نشرته الجريدة بعنوان «ديمقراطية أمين».
- (٢) مقدمة كتاب «أحاديث في العاصفة» - الناشر دار الشروق - عام ١٩٧٨.
- (٣) المصدر السابق.
- (٤) كتاب «بين السياسة والصحافة»
- (٥) المصدر السابق.



الحرب التى تنتهى بخسارة الجميع

■ يصعب أن تجد جديداً فى سيرة هيكل السياسة .. فهى منشورة ومعروفة فى أرشيف الصحف على مدى النصف الأخير من القرن العشرين.. وهو نفسه تحدث عنها فى مواقع متفرقة من كتبه.. وفى أحاديثه الصحفية فى مصر وفى خارجها .. وفى أحاديثه التلفزيونية والإذاعية وهى فى معظمها جرت خارج مصر .. ولكن .. سيرة هيكل الشخصية تظل مجهولة إلى حد كبير .. تظل محاطة بالكتمان .. وكأنها ثكنة عسكرية مكتوب عليها عبارة التحذير الشهيرة «ممنوع الاقتراب والتصوير».

وضاعف من هذا الكتمان أن هيكل كان حريصا على أن تكون هناك مسافة بين حياته الخاصة (أسرته وزوجته وأولاده) وبين حياته ومعاركه العامة .. فضياع هذه المسافة يخلط الحابل بالنابل .. ويفتح ثغرات غير متوقعة للطعنات الخلفية .. ففى حروب الشخصيات العامة كل شىء مباح لتحطيمها بما فى ذلك الزوجة والأولاد.

إن من النادر أن تجد فى صفحات المجتمع صورة أو خبر لزوجة هيكل أو لأحد أبنائه.. وأتذكر أننى عندما دعيت لحضور حفل زواج أحد أبنائه وجدت أن الدعوة - التى لم تكن مطبوعة وإنما شفوية بالتليفون وجهها هيكل بنفسه - قاصرة على الأصدقاء فقط .. وكان التصوير ممنوعا .. إلا للذكريات العائلية.. فلم تُنشر صورة واحدة فى الصحف والمجلات.. وبينما راح الكبار يتأملون النيل من بانوراما «البلفدير» فى الدور الأخير من فندق النيل وهم يتحدثون فى السياسة .. أنشغل الصغار - أصحاب الحفل - بسماع موسيقى تناسب أعمارهم .. دون أن يكون فى البرنامج راقصة شرقية.

وأنا أعرف أن السيرة الذاتية تكاد تكون مجهولة .. ومكروها فى تاريخنا الأدبى والسياسى .. فنحن لا نتمتع بالصراحة اللازمة لكتابة السيرة الذاتية .. ولا نتمتع بالشجاعة الكافية لتقبلها وقراءتها .. إن جرأة الكاتب تحتاج إلى جرأة القارئ .. وهذه الجرأة معدومة لأنها تدخل المناطق المحرمة .. الجنس .. الدين .. الخطيئة .. وتزيل ورقة التوت عن العورات .. وهو ما يمنح فرصة ذهبية على طبق من فضة للخصوم لاستخدام الأشياء الشخصية فى الحروب العامة .. فالخلط بين رأى وصاحب الرأى عادة شرقية مزمنة .. وسوء النية وسوء التفسير وسوء الاستعمال عادة شهيرة فى الخصومات والصراعات.

ونحن لا نحب السفر فى داخل أنفسنا .. ولا نحب استعمال المرايا .. أو كما يقال «حديث النفس للنفس مكروه .. نحن لا نفهم المونولوج الداخلى ونعتبره من الغرور والرجسية». (١) ويبقى الكاتب أو الصحفى أو السياسى فى بلادنا صامتا فى «انتظار حفلة تأبينة» .. وحفلات التأبين هى المناسبة الذهبية التى يجلس فيها الناس على قبر الكاتب والصحفى والسياسى كى يلعبوا الورق .. دون أن يتاح للمرحوم وللمغفور له أن يشارك فى اللعبة.

إن الناس تترك كل ما قدمه كاتب ومفكر ومبدع مثل الدكتور لويس عوض .. وتترك كل مواقفه السياسية ومعاركة الفكرية .. ولا يلفت نظرها فى مذكراته سوى متاعبه العائلية مع أبيه .. أو مع أخيه .. وتوقف الذين قرأوا سيرة حياة الدكتورة لطيفة الزيات طويلاً عند اعترافها بأن سر تأخر طلاقها من الدكتور رشاد رشدى - الذى اختلفت معه فكريا وسياسيا - هو حاجتها الخاصة جدا له .. إن هذا المشهد الذى لا يحظى بأى قيمة إذا ما قورن بباقى المشاهد قد انتقل من الخلفية إلى الصدارة فى عقل كل من قرأ المذكرات. ولكن .. على الجانب الآخر .. يتعرض من لا يكتب مذكراته .. أو يقدم سيرة حياته إلى ما يمكن وصفه بسوء التصور .. خاصة إذا كانت له أعداء وخصوم مثل هيكل .. إن عدم اقتراب هيكل من سيرته الذاتية جعل أعداؤه وخصومه يرسمون صورته العائلية والشخصية والنفسية على هواهم .. وقد استوردوا تفاصيلها من الأحياء الخلفية العشوائية .. إن هناك صورة شائعة فى أذهان البعض هى من اختراع الآخرين .. وخيالاتهم .. وهى صورة ترضيهم وتشبعهم .. ومع الصمت الذى أشتهر به هيكل وترفعه فى عدم التورط فى معارك لا طائل منها راحت هذه الصورة تأخذ طريقها فى الانتشار .. ثم أنها وجدت عيونا تحفظها .. وتطرزها .. ثم أنها كادت - مع ضراوة القتال - أن تعتدى على الصورة الواقعية.

ولعل هذا ما جعلنى أفتش بنفسى عن الصورة الحقيقية بعيدا عن كل الأطراف ..
قررت أن احصل على الصورة الطبيعية من مصادرها المباشرة بغير وسطاء .. أو إعلانات
حائط .. وليس عندى مبرر أو دافع وراء ذلك سوى احترام القارئ فى المعرفة بعيدا عن
التشويش الإنسانى والإعلامى .. وبعيدا عن تلوث البيئة السياسية الذى نغرق فيه.

وللقارئ أحكام لا يجوز استئنافها .. أنا أؤمن بذلك .. وأؤمن أيضاً أن القارئ أكبر
ديكتاتور خلقه الله منذ أن تنفست الحياة فى الأرض إلى أن تقوم الساعة .. إنه لا يكتفى
بالقراءة قبل النوم .. ثم يضع رأسه فوق «المخدة» أو تحتها ويذهب فى سبات عميق .. بل
هو يناقشنا قبل النوم .. وأثناءه .. وبعده .. ولا يكتفى بما يكتب الكاتب .. بل يتسأل إلى
الكاتب نفسه .. فيفتش فى عقله وقلبه وضميره ومزاجه وتاريخه الشخصى .. فيعرف
الأسرة التى أنجبته .. والمدرسة التى علمته .. و «بنت الجيران» التى جذبتة والأخطاء التى
أوقعته أو أفادته .. ولا مانع أن يتسلل إلى فراش الكاتب وحياته الخاصة ليحصى أنفاسه
وضحكاته وأحزانه وعدد أولاده.

ولا يكتفى القارئ بهز رأسه إعجابا بالكاتب أو سخطا عليه .. وإنما يجلس فوق أصابعه
وهو يكتب .. ويعبث بأقلامه .. وينكش أوراقه .. ويتدخل فى أفكاره .. ويحاكمه على
اختياراته .. وربما يتدخل فى لون عينيه .. وطول قامته .. وألوان ثيابه .. وطبيعة أحلامه.
إن معاهدة «عدم» فك الارتباط بين الكاتب والقارئ فى عالمنا العربى هى معاهدة
فريدة من نوعها .. انتهت صلاحيتها .. وتمزقت بذودها فى باقى أنحاء العالم .. فى العالم
الحر .. يحاسب الكاتب على أفكاره لا على حياته .. وتقييمه كتاباته لا قمصانه .. تحاسبه
مواقفه العامة لا حياته الخاصة .. والسبب هو الحرية التى يتمتع بها الناس هناك .. ولا
يعرفها الناس هنا .. فلا قارئ عربى واحد صادف هذا الطيف الساحر .. طيف الحرية ..
لا أحد لمسه بالأصابع .. أو شعر به يدخل منطقة الخواص الخمس .. إن الحرية طائر
خرافى .. أسطورى .. يرفرف فى الخيال .. لكننا لا نجده فى الواقع.

ولهذا السبب فإن غالبية الكتاب العرب يفعلون المستحيل لإخفاء حياتهم الخاصة ..
فهى الثغرة التى تتسلل منها أجهزة التشهير وكتائب الإعدام التى تتحرك طوال الليل
والنهار لاغتيال شخصية كل كاتب يحاول الخروج عن عقلية القطيع واندفاع القطيع .. بل
أن فى كل أجهزة الأمن العربية وحدات خاصة مدربة على تصنيع الشائعات وترويجها

لتشويه كل من يخالفها.. وكل من يرفض أن يكون تابعا عميلا لها .. أو مخبراً فى بلاطها.

لكن .. لا مفر من أن يواصل الكاتب معركته ضد القبح .. فهو الوحيد الذى ليس من حقه أن يكون شيطانا صامتا .. ساكتا عن الحق .. كل المسافرين من حقهم إلغاء الرحلة إلا الكاتب .. فهو محشور منذ ولادته فى عربة الدرجة الثالثة من قطار الفقر والقهر .. حيث الخبز قليل .. والماء قليل .. والحظ قليل .. والحرية توزع فى آخر الشهر بالبطاقات على سائق القطار ومرافقيه وكلابه الشرسة المتوحشة.

إننا نحاول أن نقول الحقيقة فى وطن يكره الحقيقة ويقف ضدها.. ومن ثم لا يعرف الناس فيه الفرق بين من يدافع عن الوطن وبين من ينهش لحمه.. بين المؤمنين به والخارجين عنه .. بين الجراد والضحية. (٢)

وقد أحزننى - وأنا أفتش بحثا عن السيرة الذاتية لهيكل فى أرشيف الصحافة المصرية - أن أجد أن مهنة الصحافة السامية وقد تحولت فى بعض الأحيان إلى وليمة همجية .. يسلق فيها الصحفيون بعضهم البعض فى قدور نحاسية كبيرة على نيران السلطة وأجهزة الأمن ومصالح القوى الخارجية والحسابات البنكية.. كثيرا ما تساءلت سؤالا عجزت عن الإجابة عليه.. من المستفيد من هذد الحروب غير المقدسة التى يسيل فيها دم الصحافة والصحفيين معا؟.. لماذا يطبق بعض الصحفيين طريقة رجال المباحث فى تصفية خصومهم؟ .. لماذا لا يدرك معظم الصحفيين أن سلطة الصحافة أقوى من باقى السلطات وأكثر خلودا.. وأنها سلطة يقررها استفتاء عام يدلى فيه كل الناس بأصواتهم وفق الأصول الديمقراطية .. وليست سلطة بقرار أو فرمان ممن لا يملك .. لمن لا يستحق.

إن الصحافة رسالة .. عمل من أعمال الطهارة .. وعلى الذين يكرهون الاستحمام كل يوم ويرفضون ارتداء الملابس النظيفة كل يوم أن يعودوا إلى الغابة».

ورغم أن هيكل يعطى العذر للطبيعة البشرية فإنه يشعر أنه «مجروح من مهنة الصحافة» .. فصحافة العالم وقفت معه وصحافة مصر وقفت ضده .. ثم بدأ يسمع أعذاراً .. من يقول أنه كان مضغوطة عليه .. ومن يقول «كنا مضطرين» .. و«أنت عارف الظروف» .. والحقيقة أن كل الظروف لا تبرر أن يكون الصحفي أداة لتمزيق صحفى آخر .. فالحرب الأهلية بين الصحفيين تنتهى بخسارة الجميع.

الهوامش

(١) نزار قباني : قصتي مع الشعر – الأعمال الكاملة – الجزء السابع.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

(٤) المصدر السابق.

رفيق مشاكل مازالت تجر جر أذيالها

■ ويصبح السؤال : لماذا كتاب عن هيكل ؟ .

هل نحن فى حاجة لإضافة كتاب جديد عنه ؟.

إن أرشيف هيكل يضم حوالى ٨٨٠ مقال كتبها فى «الأهرام» تحت عنوانه الشهير «بصراحة» وقد طُبعت فى بداية عام ٢٠٠٠ على أسطوانة مضغوطة أشرفت عليها الدكتورة هدى عبدالناصر .. ويضم أرشيف هيكل كذلك مئات من المقالات عنه والحوارات معه وعروضاً لكتبه ومحاضراته وندواته ورصداً لأخباره ومتابعة لتصريحاته وتفريفا لشرائط أحاديثه الإذاعية والتلفزيونية.. ويصعب أن نرصد كل الكتب التى صدرت عنه بكافة اللغات بما فى ذلك اللغة العربية.. كما يصعب تصنيف من معه ومن ضده.. ويمكن أن نتوقف عند بعض الرسائل الجامعية التى اختارته موضوعاً لها .. ومنها رسالة الدكتوراه التى قدمها منير ناصر بعنوان «الصحافة والسياسة والقوة: هيكل مصر والأهرام» المنشورة باللغة الإنجليزية فى جامعة «أيوا» الأمريكية فى عام ١٩٧٩ .. ورسالة الدكتوراه التى قدمها جمال الشلبى لجامعة السوربون فى عام ١٩٩٥ وأشرف عليها البروفيسور فرانسوا مون كومندوى أستاذ العلوم السياسية وعنوانها «هيكل: استمرارية أم تحول؟» .. ورسالة الماجستير التى قدمها فى تونس رياض الصيدوى بعنوان «هيكل صحفياً وسياسياً» .

فهل نحن بعد كل ذلك فى حاجة لإضافة كتاب جديد عنه؟.

هل حلقة الذكر فى حاجة لمزيد من الدروايش؟.. هل موسيقى الديسكوتيك فى حاجة لمزيد من الصاخبيين الرافضين؟.. هل حلقة مصارعة الديوك فى حاجة لمزيد من الساديين الذين يتلذذون بهواية تعذيب الآخرين؟.

بداية .. لابد من القول أن غالبية ما كتب عن هيكل كان يعكس أحادية العقل العربى الذى يستسهل الأمور.. ويلخصها فى موقف واحد .. أبيض أو أسود .. مع أو ضد .. مؤيد أو معارض .. عدو أو صديق .. عبد الناصر أو السادات .. هيكل أو مصطفى أمين .. ومن ثم فإن الحقيقة غالبا ما تكون مثل إنسان أصيب بنصف شلل .. فلا يرى الصورة إلا من جانب واحد .. لا يرى الصورة كاملة بكل ما فيها من أضواء وظلال .. واتصور أنه أن الأوان أن نتجاوز هذه الثنائية المحدودة .. وأن نتقبل موقفا أو موقعا خارجها.

أيضاً .. فإن معظم من كتبوا عن هيكل لم يعرفوه عن قرب .. ولم يسمعوا منه فى الغالب مباشرة.. أو لم يناقشوه لفترة كافية وجها لوجه قبل أن يمسكوا بأقلامهم .. واكتفوا بما فى الأرشيف من مواد ووجهات نظر ليست لهم.. واستندوا إلى وقائع وحكايات عاشها غيرهم فكانوا مثل «الحمال الأعمى» الذى لا يعرف ما الذى يحمله بالضبط؟.. إن مواد الأرشيف فى النهاية مواد صماء .. تفتقد الحيوية واللمسة الشخصية.. بل أستطيع أن أقول أن جمال الشلبى الذى أعد رسالته للسوريون لم يلتق بهيكل سوى مرة واحدة فى الإسكندرية.. ومنير ناصر الذى قدم رسالته لجامعة أيوا لم يستمر حوارهم مع هيكل أكثر من نصف ساعة وعاش معظم أيام بحثه فى مكتبه الجامعة الأمريكية بالقاهرة. ومن ثم فإن أغلب ما كتبه عن هيكل كان إعادة إنتاج ما سبق أن نُشر عنه أو إعادة إستعمال لما سبق أن كتبه هيكل عن نفسه.

وقد عرفت هيكل عن قرب .. ولكن .. فى سنوات متأخرة .. فى فبراير ١٩٩٣ .. بعد حوالى ٥٠ سنة من بدايته الصحفية .. وبعد حوالى ٢٠ سنة على تركه رئاسة تحرير «الأهرام» .. وبعد أن أصبح كاتبا مستقلا يعتمد فى قوته على ما يكتب .. وعلى ما يعرف .. و«ليس فى يده شيئا» .. «فى الهواء الطلق» على حد تعبيره عن نفسه فى كتاب «بين الصحافة والسياسة».

فى ذلك الوقت كان هيكل لا ينشر كتاباته فى مطبوعة عربية .. لكنه .. كان يقول ما عنده مباشرة للناس .. مرة كل سنة .. فى لقاء مفتوح فى معرض الكتاب . وكان الجمهور الذى يتزاحم على هذا اللقاء ينافس جمهور كرة القدم فى العدد .. ويتجاوزه فى الأهتمام. لكن .. فى آخر لقاء له بجمهور المعرض قال بصراحة ما جعل توجيه دعوة جديدة له مسأله مستحيلة .. وهكذا .. انتقل التريص بهيكل من الرأي المنشور إلى الرأي المنطوق .. من التعبير بالقلم إلى التعبير باللسان .. ولم تستمر تجربة المعرض .. فقد وجدت من يخشاها .. وكان أن وجدت لها فرصة لأن أنقل جمهور المعرض إلى قراء مجلة روز اليوسف

وافتح حوارا على فترات وكلما دعت الظروف معه .. وكان ذلك خلال الفترة التي توليت فيها مسئولية تحرير روز اليوسف .. من فبراير ١٩٩٢ إلى إبريل ١٩٩٨ .

كان هيكل قد قال لجمهور المعرض في آخر لقاء به .. أن معدل النمو في مصر بالناقص .. ومن ثم فإن مصر بدأت تأكل من لحمها الحي .. وكشف أن متوسط دخل الفرد تراجع بحوالى ٦٠ دولار وهو ما ضاعف من قسوة المعيشة .. وفي الوقت نفسه وصل رقم البطالة الواعية والمتعلمية في مصر إلى مليون وثمانمائة ألف من خريجي الجامعات والمعاهد العليا والمتوسطة .. وزاد التناقض بين الغنى والفقر وهو تناقض صارخ يصعب تجاهله .. وفيما بينهما أصبحت الطبقة الوسطى - وهى مستودع الحيوية الاجتماعية القادرة على دفع موجات التقدم - مضغوطة ومحاصرة .. وهو ما جعلها تتوقف عن الحركة وتعجز عن النهوض.

وتمنى هيكل أن تخرج مصر من أزمتها .. واقترح إعادة تنظيم الدولة .. وفي مقدمتها رئاسة الجمهورية التي تعتبر في بلد مثل مصر مركز الأعصاب الحساسة للدولة وبالتالي فهي شأن الجميع .. «ومن حق أى مواطن أن يدقق ليكتشف أنه ليس فى الرئاسة إلا واحد أو اثنان من المستشارين .. ومن المؤكد أن ذلك لا يكفى» .. وأضاف هيكل : «أن هناك حاجة ماسة إلى عقد اجتماعى جديد فيه نص صريح على حقوق الإنسان بالمفهوم الشامل الذى توصلت إليه الأمم المتحدة .. من التعبير إلى التعليم والصحة والعمل والديمقراطية والثقافة وحتى السعادة أيضاً» .. كذلك «فإن هناك حاجة ماسة إلى إصلاح سياسى ودستورى ينظم العقد الاجتماعى الجديد بحيث يكون محترما وملزما» .. وهناك «حاجة لتخفيف درجة الحرارة العامة فى مصر ولا بد من العمل على وقف حالة الحمى التى تعترىها وذلك بالعودة إلى القانون» . (١)

واعترف أننى لم أخف إعجابى بشجاعة هيكل .. إن المواقف المؤجلة لا قيمة لها .. مهما كان الثمن الذى يدفعه صاحبها . (٢)

وقد تضاعف إعجابى بهيكل بعد رسالته الشهيرة للجمعية العامة غير العادية لنقابة الصحفيين والتي عقدت لمواجهة القانون رقم ٩٣ لسنة ١٩٩٥ والذي كنت أول من وصفته بقانون اغتيال الصحافة .. لقد قال هيكل تعليقا على هذا القانون المشبوه والذي سقط فيما بعد : «إن هذا القانون فى ظنى يعكس أزمة سلطة شاخت فى مواقعها وهى تشعر أن الحوادث تجاوزتها» .. (٣) وهى أشد عبارات النقد التى وجهت للسلطة الحاكمة فى مصر .. وقد خرجت الأصوات الصحفية الرسمية لترد قائلة: ومفهوم أن النقد موجه للحقبة

الناصرية التي كان هيكمل أبرز معالمها ورموزها .. وفي الحقيقة سيظل هذا الرد يطارد كل رأى يقوله هيكمل .. دون مناقشة حقيقة وجادة لما يقول.

وهكذا سعيت لإشباع حاجة مهنية للقارئ .. هي أن يقرأ ويسمع هيكمل فى حوار صحفى معه إذا لم يستطع أن يقرأ مقاله له .. إنها مأساة بكل المقاييس أن لا يجد هيكمل فى مصر من يدعو له للكتابة .. وقد فعلت ذلك .. لكنه كان يفضل أن يصل للقارئ عبر روز اليوسف من خلال الحوارات الصحفية .. وكان أن اقتسمنا المسئولية .. لا أقول الشجاعة .. هو بما يقول .. ونحن بما ننشر .. وكان أن بدأ محترفو التقارير السرية وأنصار نظرية المؤامرة فى التحرك فى الخفاء .. وبدأ سوء الفهم يسيطر على العقول.

وتكررت دعوة هيكمل للحوار على صفحات روز اليوسف فى مناسبات مختلفة كان الناس فيها ينتظرون رأيه .. مناسبة ذكرى ثورة يوليو وما تبقى منها .. مناسبة تأسيس حزب ناصرى وموقف هيكمل منه .. مناسبة مرور ٢٠ سنة على زيارة السادات للقدس وما توقعه هيكمل وما تحقق منه .. مناسبة محاولة اغتيال الرئيس حسنى مبارك فى «أديس بابا» فى يونيو ١٩٩٥ وكيف حولنا الاحتفال بنجاته إلى مولد مزدحم دون الاستفادة من الحب الشعبى الجارف لهذه النجاة .. مناسبة حصار العراق وضربها والواقع العربى بكل ما فيه من أحزان وغثيان .. والفلسطينيون وما جرى لهم؟.

لقد أصبحت أطارده بالسؤال عن ما جرى .. وعن ما يجرى .. وعن ما سيجرى .. وعندما وجدت أن حواراتى معه يمكن نشرها فى كتاب – حمل عنوان «العبة السلطة فى مصر» – طلبت منه أن يكتب تقديماً له .. وفى التقديم وجدته يرفع قيمة السؤال .. مستلهما الحكمة القديمة التى تقول أن السؤال هو جوهر الفلسفة .. واستطرد : «إن ذلك تعريف دقيق .. فالفلسفة بالفعل سؤال ملح فى طلب المعرفة وفى البحث عن الوجوه المختلفة للحقيقة». (٤)

وأضاف : «وأظن أن المجتمعات تظل بخير طالما هى متمسكة بالسؤال .. تسأل عالمها وزمانها .. وتسأل واقعها وظروفها .. وتسأل نفسها وغيرها .. ثم لا تفتتر همتها .. أو ينثنى عزمها عن التفكير فى أسئلة جديدة بلا حدود أو قيود غير الحرص على أن تبقى هذه الأسئلة موصولة بالحياة وغير معزولة عنها».

وأعتبر هيكل أن الميزة الأساسية في شخصيتي المهنية هي أنني «رجل يحمل سؤاله معه أينما ذهب .. والواقع أنه إذا كان السؤال هو جوهر الفلسفة فهو أيضا صميم مهنة الصحافة في آخر طبعتها .. فالصحافة خصوصا في الغرب - أوروبا وأمريكا - تتجه في معظمها الآن إلى ما يسمونه «الصحافة السائلة» وهي مدرسة تؤمن بأن الصحافة سؤال .. وهذا صحيح إلى أبعد الحدود .. والصحيح قبله أن الحياة سؤال .. وأن الفلسفة سؤال .. وأن الحقيقة سؤال .. أما الإجابات فهي اجتهادات بعضها يصل إلى هدفه وبعضها سهام تطيش في الفضاء».

وفي مقدمة الطبعة الجديدة من كتابه «حديث المبادرة» والتي نُشرت بمناسبة مرور ٢٠ سنة على زيادة السادات للقدس كتب هيكل:

«كانت شبكة قنوات الأخبار التلفزيونية الأمريكية سي. أن. إن أول من نبهني إلى أن عشرين سنة مضت على الزيارة الشهيرة التي قام بها الرئيس أنور السادات إلى القدس في شهر نوفمبر ١٩٧٧ والتي داهمت العالم مثل زلزال تتوالى حتى اليوم توابعه.

«وفي مناسبة الذكرى العشرين لتلك المفاجأة السياسية - نوفمبر ١٩٧٧ - فإن شبكة قنوات الأخبار التلفزيونية الأمريكية اتصلت تدعوني للحديث أمام مشاهديها في العالم عن النتائج والآثار التي توالى وتداعت على العالم العربي والشرق الأوسط من يومها حتى الآن.

«واعتذرت لشبكة التلفزيون الأمريكية وشعوري أنه ليس هناك داع لتقليب مواجع مصرية وعربية أمام جمهور عالمي».

«وفي اليزم التالي مباشرة جاءتني روز اليوسف ممثلة في نائب رئيس تحريرها الأستاذ عادل حمودة وكان طلبه هو نفس الطلب الذي اعتذرت عن تلبيةه لشبكة التلفزيون الأمريكية وأفضيت للزميل الصديق بما لم أقله لغيره لأن عرض الأشجان على الغرباء هو أن».

«لكن الزميل الصديق لم يقتنع - أو حسن ظنه - أن الحديث أمام جمهور مصري وعربي ليس تقليبا للمواقع وإنما هو فحص جديد بالدرس لتجربة غير مسبوقة ولعلها غير ملحقة في تاريخنا».

«وكان عادل حمودة يحمل معه نسخة من كتاب صدر لي قبل عشرين عاما تقريبا بعنوان «حديث المبادرة» وكان يراجع صفحات منه أثناء لقاءنا وحديثنا - والكتاب يحوى

مجموعة مقالات بدأت نشرها بعد أربعة شهور من الزلزال ثم ضمها جميعا غلاف ظهرت به بيروت أوائل مايو ١٩٧٨ - أى بعد ستة شهور بالضبط.

«وهكذا فإن شبكة سى. إن. إن ذكرتني بالمبادرة.. ثم إن مجلة روز اليوسف ذكرتني بحديث المبادرة».

وكان أن أعاد هيكمل - ولأول مرة في مصر - نشر هذا الكتاب الذى كان من المحرمات والمنوعات .. وكنا نهربه سرا .. ونتداوله سرا.

وعندما صدر الجزء الأول من كتابه «المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل» فى مارس ١٩٩٦ أهدانى هيكمل نسخة منه وكتب على أولى صفحاته الداخلية: «إلى الصديق عادل حمودة .. زميلا وصديقا ورفيق مشاكل مازالت تجرجر أذيالها .. مع كل الود».

والحقيقة أن هذا الإهداء لم يكن مجرد كلمات مجاملة عابرة كالتى اعتاد الكتاب أن يكتبوها للزملاء والأصدقاء .. ولكنه كان يعكس ويترجم ويلخص واقعا قد حدث و«مشاكل مازالت تجرجر أذيالها».

على مدى ثلاثة أسابيع .. فى الفترة من ١٧ - ٣١ يوليو ١٩٩٥ نشرت حوارا مع هيكمل بعد محاولة الاعتداء على الرئيس مبارك فى أديس أبابا .. كان عنوان الجزء الأول منه على غلاف روز اليوسف «ماذا لو نجحت عملية اغتيال الرئيس» .. ووصفت الإذاعات ووكالات الأنباء العالمية العنوان بأنه «أخطر عنوان صحفى نُشر فى مصر منذ نصف قرن».

كان العنوان وحده كفيلا بإثارة أزمة .. وجاءت التفاصيل لتزيد من حدة الأزمة .. لقد تحولت مشاعر المصريين وفرحتهم بنجاة الرئيس إلى زفة ومولد .. دون أن تستغل الشعبية التى ارتفعت لنظام الحكم فى التغيير والتحديث وإنما أُستغلت فى ذبح «العجول» على شاشة التلفزيون .. ونقلت الكاميرات صور الذبائح الغارقة فى الدم .. ولم تفكر فى التوقف لمناقشة ما حدث .. وبدلا من البحث عن حلول لمشاكل كانت مستعصية وجدنا أنفسنا مندفعين لمزيد من المشاكل تجاه السودان الذى أُتهم بتدبير محاولة الاغتيال .. ودقت الطبول لغزوه.

وكان رأى هيكمل «إن الدولة فى حاجة لوقفه مع النفس» .. وقال «أحيانا الظروف تمنحك فرصة دون أن تريد وتكسبك آلية ذاتية وهو ما حدث للسلطة فى مصر الآن بعد محاولة اغتيال الرئيس مبارك فى أديس أبابا» .. لكننا لم نتوقف مع النفس .. ولم نتوقف للفحص والفرز .. ولم نقرأ الواقع قراءة سليمة.

وقال : «أنا أريد الدولة وهذا هو الأهم.. وإذا راح رمز الدولة فى هذه الظروف دون طريقة لنقل السلطة سنكون أمام مجهولات قد تؤدى إلى انفراط الدولة.. وهو أكثر من غياب رئيس .. كل بشر يمكن أن يعوض.. لكن فى الظروف الدولية الراهنة يمكن فعلا نجد أن الدولة نفسها قد انفرطت .. القلق الذى أصاب الناس مثلما أصابنى بسبب الحادث هو خوف على المستقبل وليس مبايعة لما كان .. لكن فوجئنا بمن يستغل مشاعر الناس ويطالب بمبايعة جديدة لفترة رئاسة جديدة .. أنا لم أر سوء لقراءة واقع أكثر من هذا لأن هناك عدم رضاء عما هو قائم .. وكان من الممكن توظيف لحظة القلق إيجابيا فى اتجاه التغيير.. لكن لم يحدث».

وتخيل هيكल سيناريو لما يمكن - لا قدر الله لو نجحت المحاولة - وقال : «سيدخل الجيش ويأخذ السلطة .. فليس هناك نائب رئيس .. والحكومة الموجودة لا تتمتع بمصداقية .. الوضع المتوقع أن يمد الجيش ذراعه ويأخذ السلطة .. والجيش منطقة محرمة لا نتكلم عنها ولا نعرف ما فيها.. ومن ثم فصورة الحكم القادم فى هذه الحالة مجهولة .. وهذه هى الكارثة».

وحذر هيكل من التورط فى حرب فى السودان .. وطالب بأن تترفع مصر عن ردود فعل النظام السودانى التى تخفض من هيبتها .. وقال أن الحرب فى السودان قد تؤدى بنا إلى فيتنام أخرى أفريقية .. خاصة وأنه يتعين على الجيش المصرى عبور ١٥٠٠ كيلومترا من الأراضى المكشوفة على طول المسافة بين القاهرة والخرطوم .. ورفض هيكل تأكيدات بعض المسئولين المصريين بأن القوة الجوية وحدها كافية لأن السودان يمكنه التلاعب بمياه النيل التى تشكل الأمن القومى الحقيقى لمصر.

وقال هيكل ما هو أكثر من ذلك .. وتحمسنا للنشر .. واقتسام المسئولية .. إيماننا منا بأنه مقدرات الأمة فى الظروف الحرجة لا يجوز العبث بها.. لكن .. قامت الدنيا ولم تقعد .. وبدأ المحرضون يجتهدون ويتآمرون ويدسون ويوقعون بيننا وبين قيادة الدولة .. وأعترف أن قيادة الدولة كانت أكثر وعيا وفهما .. فكان أن تراجعت كل محاولات الإطاحة بى وإخراجى من روز اليوسف .. وكانت بعض الصحف المصرية - مثل الأهالى والشعب والوفد - قد توقعات أن أدفع منصبى الصحفى ثمنا لهذا الحديث الذى لخصته وكالات الأنباء وطيرته إلى أربعة أنحاء الدنيا وعلى رأسها وكالة «رويتر» فى برقيتها التى حملت رقم ١١٢ بتاريخ ١٧ يوليو ١٩٩٥ والبرقية رقم ٣٠٦ بتاريخ ٢٤ يوليو ١٩٩٥ .. وفيما بعد تركت منصبى فى روز اليوسف بسبب أزمات أخرى.. لكن يبدو أن ظلال أزمة هذا الحوار لم تكن قد تلاشت تماما.

وأغلب الظن أن هيكل نفسه دفع هو أيضاً الثمن.. لقد أجريت الحوار معه وهو فى قرية «الرواد» فى الساح الشمالى .. كان يراجع بروفات الطبعة العربية من كتابه «المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل» تمهيداً لنشرها فى أكتوبر التالى - أكتوبر ١٩٩٥ - بعد ٣ شهور على نشر الحوار - الأزمة .. وكان قد اتفق على أن تقوم مؤسسة الأهرام بالنشر كما جرت العادة بعد أن أصبح نشر كتبه مباحاً فى مصر .. لكن .. الكتاب صدر عن دار نشر أخرى .. قطاع خاص.

وفى مقدمة الطبعة العربية التى نشرتها دار الشروق اعترف هيكل بأن هذه الطبعة «واجهت ظروفًا غير مألوفة أو على الأقل غير عادية» .. كان من نتيجتها أن «الطبعة الإنجليزية الأصلية من هذا الكتاب صدرت فى لندن يوم ٨ يناير ١٩٩٦ بينما تأخرت الطبعة العربية .. وكان المقرر لها أن تسبق .. وذلك تقليد حرصت عليه منذ أن سُمح لكتبى أن تُطبع وتصدر من القاهرة بعد قرابة عشر سنوات من المنع والحظر فيها أمارس عملى من وطنى دون وسيلة لنشره فى هذا الوطن».

«وفى هذا الكتاب تصرفت كما جرت عليه العادة منذ عام ١٩٨٥ وحتى الآن .. تقدم الأهرام بطلب حقوق الطبعة العربية كلها .. سواء للنشر الصحفى أو على شكل كتاب. وتحملت حتى قبل أن تجيء موافقة دار «هاربر كولنز» التى تملك حق التصرف فى أى تعاقد. وكنت واثقاً على أى حال أنهم يعرفون من تجارب سابقة سلفت أنه حين يكون الأمر متعلقاً بالأهرام فإن الموافقة تسبق التفاصيل بصرف النظر عما تقول به أصول صياغة العقود.

«واستعدت الطبعة الإنجليزية من الكتاب للصدور من دار «هاربر كولنز» ومعها الطبعة اليابانية فى نفس الوقت. لكن الطبعة العربية التى ترجمت نصوصها بنفسى وتوسعت فيها وزدت عليها وألحقت بها وثائقها - واجهت ما أشرت إليه من ظروف غير مألوفة أو على الأقل غير عادية. وحاولت تقدير الدواعى واظننى فعلت مستجيبة لمشاعر وولاءات تعلو فوق الحقوق والعقود .. وحافظاً لصلوات وصادقات تسبق فى حسابى أى حساب.

«وقد أضيف إلى ذلك أننى لم أطلب تفسيراً ولا تفصيلاً .. وبدأ لى أن أطلب قد يحمل شبهة إلحاح لا احتاجه .. أو شبهة ضغط لا أبتغيه».

وحسب تحريأتى فإن هيكل أعاد للأهرام ما تقاضاه من مال (حوالى ربع المليون جنيه) مقابل حقوق النشر الصحفى ونشر الكتاب .. وارفق هيكل بالشيك خطاباً رقيقاً إلى إبراهيم نافع يعتذر فيه عن قبول المبلغ ولو على سبيل تعويضه عن عدم النشر

وتأخيره وعن ما يمكن أن يترتب على ذلك من أضرار وخسائر وتنفيذا لعقود وأعراف قانونية جرى احترامها والعمل بها. وقد كان إبراهيم نافع وهيكلي يؤمنان أن علاقتهما معاً يمكن أن تتحمل أزمات عاتية وتتجاوزها .. ولعل الطبيعة الإنسانية الرحبة لإبراهيم نافع هي التي دعمت ذلك.

ويواصل هيكلي روايته:

«ولعدة أيام كان أمامي عرض لإصدار هذه الطبعة العربية في بيروت وعاودتني ذكريات أزمة المنع والحظر وأظن أن ذلك جعلني أتردد.

«إن بيروت كانت ومازالت كريمة مع ما اكتب .. حفية وحانية عليه .. وهي تظل في كل الأوقات مركز إشعاع عربي يساير مركز القاهرة ويضاهيه .. لكن الأمر هذه المرة تخالطه اعتبارات نفسية من نوع آخر.

«لم تكن اعتباراتي النفسية تتعلق ببيروت من حيث هي بيروت .. وإنما كانت تتعلق بإحساس يخشى مظنة قبول طوعي بما يمكن أن يتبدى ولو بالرمز أو بالشكل من درجات المنع والحظر على عمل يكتب في القاهرة ثم يصدر وينشر خارجها كما حدث من قبل.

«ولعل من هذه النقطة بالذات أننى رحبت وسعدت بعرض من دار الشروق لطبع الكتاب ونشره في مصر .. ومنها إلى بقية الوطن العربي الذى لا أفرق فيه بين بلد وآخر عن إيمان عميق بأمة واحدة لها كل خصائص الأمة الواحدة بما فيها ذلك التنوع الخلاق الذى يميز الأمم العظيمة.

«ويتداعى إلى فكرى - دون ضرورة لرسم مسار التداعى هنا - سؤال كثيراً ما يواجهنى به أصدقاء فى الفكرة والكلمة .. يسألوننى «لماذا لا أكتب بانتظام فى الشئون الجارية؟» .. وفى العادة فإن ردى يقتصر على عبارة عامة مرسله لأن واقع المشكلة التى تواجهنى فى الكتابة بانتظام عن الشئون الجارية فى مصر معقد بأكثر مما يظهر على السطح .. ذلك أن الصحف التى تصدر فى مصر الآن نوعان: نوع يسمى بالصحف القومية ونوع يعرف كصحف حزبية.

«وأشعر على نحو ما أن كتابتى بانتظام - أو بغير انتظام - فى الصحف القومية قد تكون مسئولية ومخاطرة بالنسبة للقائمين على أمورها .. وذلك ليس مطلبى .. ثم أن الكتابة بانتظام فى الصحف الحزبية تبدو لى استعارة لهوية ليست لى وذلك لئس من حقوقى».

«فوق ذلك - وربما قبله - فإنه يخطر لى أننى كتبت كثيرا وما زلت أكتب أحيانا - وتكلمت طويلاً وما زلت أتكلم مرات - وقد يكون من المناسب أن أترك المجال لآخرين وأن أقرأ مع القارئ وأن أصغى مع السامعين .. ولعله يرضينى أن يسأل أحد : «لماذا لا يكتب هذا الرجل بانتظام؟ خير من أن يسأل أحد: لماذا يكتب هذا الرجل بانتظام؟».

«أكرر ذلك برضى كامل ومودة خالصة مع الزمن وناسه .. فلقد قلت كلمتى فى كل العصور والظروف .. وفى كل الأحوال فأن العالم مفتوح أمامى وسماواته فسيحة رحبة». أكثر من ذلك فإن الهجوم على هيكل لم يتوقف وفى هذه المرة تقدم الصفوف الدكتور عبد العظيم رمضان.

إن الدكتور عبد العظيم رمضان هو أستاذ التاريخ الحديث فى جامعة المنوفية .. وهو تلميذ لواحد من أهم أساتذة التاريخ هو الدكتور محمد أنيس .. وقد قدم الدكتور رمضان رسائله الجامعية عن تطور الحركة الوطنية فى مصر.. وهى من أفضل الدراسات التى قدمت فى هذا المجال .. وقد رحبت مجلة رزو اليوسف بنشر دراسته عن «عبدالناصر واليسار وأزمة مارس ١٩٥٤» فى وقت كانت فى المجلة تمثل المعارضة اليسارية فى سنوات ما بعد حرب أكتوبر عندما وضعها السادات وجها لوجه أمام صحيفة تعبر عن التيار اليمنى هى «أخبار اليوم» تمهيدا لإعلان ما وصف فيما بعد بالتعددية السياسية والحزبية. (٥)

فى تلك الفترة دخل الدكتور عبد العظيم رمضان روز اليوسف والصحافة مؤرخا يساريا للحركة الوطنية .. وللناصرية .. لكن تغير الرياح والظروف حولت دفته وشراعه للناحية العكسية .. فوافق على زيارة السادات لإسرائيل .. وهاجم الناصريين واليساريين .. وكان أن انتقل بقلمه من مجلة روز اليوسف إلى مجلة أكتوبر.

وفى مجلة أكتوبر فتح الدكتور رمضان النيران على هيكل فى أربعة مقالات نشرها تحت عنوان «هيكل والكهف الناصرى» .. لم تزد بأي حال من الأحوال عن كونها دعاية مباشرة ومتواضعة للنظام.. أتصور أن النظام لم يكن فى حاجة إليها.. وتحمست الهيئة العامة للكتاب لنشر المقالات فى كتاب لكن حجم المقالات لم يكن يكفى فكان أن طلب من صاحبها أن يزيد ويتوسع لكنه كان فى طريقه إلى لندن فاعتذر .. لكن .. كان هناك من كان متعجلاً لا يحتمل الانتظار فلم يجد الرجل سوى أن يفعلها بنفسه بدلا من أن يفعلوها نيابة عنه.

وربما يكون مثيرا للدهشة أن أكشف سرا ربما لا يعرفه هيكل بعد ذلك الحوار - المشكلة معه .. لقد رفع أحد كتبه التقارير السرية تقريراً يتهمة فيه بتشكيل تنظيم غير

معلن في الصحافة المصرية .. أنا واحد من أعضائه .. ولم يقل التقرير .. ما هدف هذا التنظيم .. ولا كيف يعمل .. ولا متى يلتقى أعضاؤه؟ .. وقد رفض العقلاء في السلطة هذه «التخاريف» .. وكان ردهم : إن هيكل شخصية صحفية لامعة ومؤثرة ولا بد للأجيال الجديدة أن تقترب منه لتفهم وتتعلم وتستفيد .. إن الحلاقين والكناسين والنحاسين والفحامين لهم كبير .. فلماذا نستكثر على الصحفيين ذلك؟.

لكن فيما بعد .. بعد أن تركت موقعي في روز اليوسف كان هناك من يلمح إلى أن الأحاديث التي أجريتها ونشرتها في روز اليوسف مع هيكل كانت أحد أسباب الغضب الرسمي - ولو بأثر رجعي - مني .. ولم أشأ أن أصدق .. وكنت أميل لتفسير هيكل الذي قاله في حوار مع محمد عبد القدوس في جريدة «الشعب» عقب خروجي غير المفهوم من روز اليوسف: «إن عادل حمودة من ألمع الصحفيين المصريين الذين ظهروا في الفترة الأخيرة بصرف النظر عن اختلاف البعض معه في أسلوبه وآرائه .. ومن مميزاته أنه أعطى هامشا من الحرية يزيد عن ما هو مألوف وهذه إيجابية لصالحه فمهمة الصحفي باستمرار أن يعمل على توسيع هامش الحرية المسموح له بها بحكم الظروف وواقع الحال الذي لا يمكن إنكاره .. ولست في الحقيقة أعرف الدوافع والأسباب التي أدت إلى انتقاله من روز اليوسف إلى الأهرام .. وما تم إعلانه في هذا الصدد لا يبدو لي مقنعا .. لكن يبقى أنه انتقل إلى الأهرام واعتقادي أن عمله هناك يمكن أن يكون بداية ممتازة لنقله أخرى نوعية في عمل صحفي لامع». (٦)

الهوامش

- (١) محمد حسنين هيكل : «مصر والقرن الواحد والعشرون - ورقة حوار» الناشر دار الشروق.
- (٢) نزار قباني : «الكتابة عمل انقلابي» صفحة ٣٨.
- (٣) الأهرام - ١١ يونيو ١٩٩٥.
- (٤) عادل حمودة: «العبء السلطة في مصر» الناشر دار الشروق.
- (٥) كان على رأس هذه الفترة في روز اليوسف والتي استمرت من إبريل ١٩٧٤ عبد الرحمن الشرقاوي وصلاح حافظ وفتحى غانم وقد وقع الخلاف بينهم وبين الرئيس السادات بعد مظاهرات الطعام في ١٨ و ١٩ يناير ١٩٧٧ وكان رأى السادات أن هذه المظاهرات «انتفاضة حرامية» وكان رأى روز اليوسف أنها انتفاضة شعبية.
- (٦) أجرى الحوار محمد عبد القدوس ونشر في عدد جريدة «الشعب» الصادر في ٢٠ مارس ١٩٨٨.

أحسدك .. على عدد خصوصتك

■ وهكذا .. فرضت علينا ظروف الصحافة أن تدخل معارك السياسة .. وأن نتقاسم بعضها معا .. وربما كانت هناك «مشاركة» في دفع الثمن .. وفي خنادق القتال تولد صداقات حقيقة فلا أحد يملك في ظروف القصف والضرب فرصة التكلف ووضع المساحيق .. وفي خنادق القتال تقترب المسافات بين البشر .. وتتساقط كثير من الحواجز بينهم .. ويفتش كل منهم عند الآخرين عن جوانبهم غير المعلنة .. وعن إجابات جديدة مباشرة لأسئلة قديمة .. ولا تأتي الإجابات من النطق فقط .. وإنما من الملاحظات العابرة والبسيطة أيضاً .. إن التفاصيل الإنسانية الصغيرة قد تكون مفاتيح لبوابات كبيرة كان من الصعب فتحها.

لقد بدأت علاقتي بهيكل بعلاقة صحفى مسئول عن تحرير مطبوعة سياسية هي روز اليوسف يريد أن يحقق قدرا من الانتشار يليق بتاريخها الصحفى العريق من خلال حوارات مع كاتب كبير ومؤثر ينتظر الناس رأيه .. ثم مع تكرار اللقاءات زادت الصلة .. وسرعان ما تحولت الصلة إلى صداقة .. والصداقة لا تقوم بين البشر على قواعد من الهوى والانفعالات وإنما تقوم على أسس موضوعية .. أو مهنية كما فى هذه الحالة .. إن الاتفاق وارد والاختلاف وارد .. ولكن فى كل الأحوال هناك أسلوب للتفاهم والحوار .. ربما يقرب مسافات الاختلاف .. ربما يباعد مسافات الاتفاق .. على أن ذلك لا يمنع التقدير والاحترام لرجل وصحفى كتب وكان بإمكانه أن لا يكتب .. وتورط وكان بإمكانه ألا يتورط .. واستخدم حواسه الخمس وكان من الممكن أن يلغيتها ويستريح .. ونشر أفكاره وكان

بإمكانه أن يبقّيها مجمدة .. ودخل المطبعة ووسخ ثيابه وأصابه وكان بإمكانه أن يوفر كل هذه المتاعب ويهاجر بحجة أن الوطن فى إجازة مفتوحة ولا يحتمله.

إن لكل منا أخطاؤه.. لكن ما الذى تعنيه الأخطاء ؟ .. إنها تعنى أنك تعمل.. وكل عمل فى حد ذاته - سواء كان عملاً مادياً أو فكرياً - لابد أن يدخل صاحبه فى ورطة .. بل أن الحياة فى أساسها مشكلة .. أما الموت فهو «المؤسسة الوحيدة التى لا مشاكل فيها».

والصفعات والطعنات هى الوجه الآخر للقبالات .. وتاريخ الصحفى الذى يحترم قلمه قائم على هذه اللعبة من ألعاب المتناقضات .. إن الصحفى .. الصحفى لا يشعر أنه على قيد الحياة إلا حين تتساقط عليه الحجارة.. ويتهشم زجاج نوافذه.. فى هذه اللحظة يشعر أن جرعة الرأى والحرية والمعرفة التى يعطيها للناس بدأت تتفاعل فى شرايينهم .. وأن الزلزال الذى كان يحتفظ به فى داخله انتقل إليهم.. وعندما ينشر الصحفى مقالا ولا يرحمونه بسببه يشعر أنه مريض .. وتبدأ حرارته فى الارتفاع .. «إن الشتيمة فى بلادنا لا تعنى أنك فشلت وإنما تعنى أنك نجحت وتفوقت».

لقد سأل هيكى نفسه أكثر من مرة: «لماذا لا أغضب لكل الإساءات التى توجه إلى بغير حق فيما أظن؟».

وكان جوابه لنفسه ذات مرة: «لأننى أعرف أن الشعب المصرى بصفة عامة والقارىء المصرى بصفة خاصة أذكى عشرات المرات من كل هؤلاء الذين يتصورون أنهم يخدعون بحجب الحقائق عنه».

ثم كان جوابه لنفسه مرة أخرى: «لأننى أعرف إلى أى مدى استحكمت أزمة التصديق واتسعت الفجوة بين كل ما يقال وكل ما هو واقع».

ثم كان جوابه لنفسه مرة ثالثة: «ربما لأننى أعرف أن رماة السهام المسمومة ومعرفتى بهم تعصمنى من الغضب لأي شىء يصدر عنهم.. بل لعلنى أقول أننى بمعرفتى بهم اعتبر شتائمهم فى مديحى كما أن اتهاماتهم ضدى أوسمة على صدرى».

ويستطرد هيكى فى مقدمة كتابه «الحل والحرب» قائلاً: «وما اظننى استحق هذا المديح كله وهذه الأوسمة جميعها ولكنه الحظ وحده.. ومن الصدق أن ذلك هو نفسه المعنى الذى ورد فى برقية تلقيتها من صحفى لامع فى بيروت كتب إلى يقول: «أنا أحسدك على خصومك» .. ورددت عليه أقول له: أنت على صواب فأنا استحق الحسد على خصومى ولكننى أيضاً استحق الحسد على أصدقائى ولو خيرت لما اخترت غير ما لدى على الناحيتين».

بهذا التصور عرفت هيكل أكثر.. واقتربت منه أكثر.. وتأملت أكثر.. وهو ما جعل فرصة الكتابة عنه بصورة حقيقة فرصة جيدة لا أتصور أنها اتاحت لغير ممن يهوى كتابة السير الذاتية.

بهذا التصور فكرت فى كتابة هذا الكتاب عن هيكل.

وقد لاحظت أن كثيرا من تفاصيل حياته المبكرة غير معروفة .. وسعيت لمعرفتها منه.. واعترف أنه فتح قلبه وعقله وخزائنه أسرارها الخاصة.. ربما لأول مرة.. لكننى لم أكتف بما قال وبما روى .. ورحت أفتش عن أصدقاء الطفولة فى حي «الحسين» .. وزملاء مدرسة «التجارة» المتوسطة فى حي «الظاهر» .. ورفاق أيام الشباب الأولى فى حي «باب الشعرية» . وكان دافعى ما قاله هو نفسه وهو يكتب عن السادات فى كتاب «خريف الغضب» الذى أثار ضجة عارمة حول حدود التدخل فى الحياة الخاصة للشخصية العامة.. وحدود تأثير الشخصيات السياسية بحياتها العائلية.. طبيعة العلاقة بين البدايات والنهايات.

إن الشخصيات السياسية فى البلاد الديمقراطية تتعرض لفحص دقيق لكل ما يمر بحياتها.. من «الداية» التى شدته للحياة.. إلى نوع الحليب الذى أرضعته له أمه (هل كان طازجا من صدر أمه أم كان مجففا من الصيدليات؟) .. ومن نوع العلاقة التى كانت سائدة فى أسرته إلى مستوى المدرسة الأولى التى تعلم فيها (هل كان متفوقا أم ضبط وهو يغش فى الامتحان وهل كان كسولا أم انطوائى) .. ومن طبيعة علاقته بالمرأة إلى كيفية حصوله على الثروة (من هى الفتاة التى حظى منها بأول قبلة فى حياته وكيف كسب أول نقود من عرقه؟).

لقد اختارت فرنسا جيسكار ديستان حاكما لها بلا تردد لأنه كان أول مرشح لرئاسة الجمهورية يقبل إذاعة التقارير الطبية الكاملة عن صحته.. وكان الفرنسيون يطالبون بذلك منذ رحيل جورج بومبيدو الذى مات بسرطان الدم.. وبسبب هذا المرض لم يكن يتذكر أرقام التفجير النووى واضطر أن يكتبها ويحتفظ بها فى سلسلة كان يعلقها حول رقبتة وكان معنى ذلك سهولة معرفة هذه الأرقام وتعريض البلاد لكارثة نووية.

ورفض الأمريكيون اختيار إدوارد كيندى رئيسا لهم لأنه ثبت أنه «غش» فى الامتحان وهو طالب فى كلية الحقوق جامعة هارفارد وحرم بسبب ذلك من الدراسة لمدة سنة.. ولأنه أيضا حاول الهروب من شرطة المرور فى مخالفة سرعة وعندما قبض عليه كان مختبئا فى قاع السيارة.. ولأنه كذلك ترك سكرتيرته تموت غرقاً ولم يفكر حتى فى إبلاغ البوليس أو الإسعاف.

هذا ما يحدث عندهم.. أما ما يحدث عندنا فهو معارضة شديدة لكل من يتناول الظروف الشخصية للحكام والشخصيات العامة.. وهم يدعون أن القارئ العربى والمسلم ليس متعوداً على القراءة فى هذه الجوانب الخاصة جداً من حياة هذه الشخصيات كما هو شائع هناك.. عندهم.. فى الدول الديمقراطية.

وقد وجه صلاح عيسى هذه الملاحظة لهيكل فى الحوار الذى أجراه معه لصحيفة الأهالى المعبرة عن حزب التجمع اليسارى.. كان الحوار فى يوم الأربعاء ٢٤ إبريل ١٩٨٤ .. فى وقت كانت القيامة قد قامت ضد هيكل بعد أن تعرض فى «خريف الغضب» لعقد اللون والفقر التى حكمت السادات وطاردته.

قال هيكل: «الذين يقولون ذلك إما أنهم لم يقرأوا كتب المؤرخين العرب والمسلمين وإما أنهم يحتقرون عقلية القارئ المصرى.. ولو قرءوا كتب السلف الصالح من المؤرخين مثل المقرئى وابن اياس وابن تغرى بردى والسخاوى لوجدوهم جميعاً يربطون ظروف نشأة الحاكم وصفاته النفسية الخاصة بطريقته فى الحكم.. ولو راجعت أبواب التراجم فى تلك الكتب لوجدت حديثاً كثيراً عن أصول السلاطين الأسرية وزوجاتهم وأهوائهم وكل ماله تأثير على قراراتهم.. بل أن المصريين العاديين فى كل العهود لم يكفوا أبداً عن الاهتمام بسلوك حكامهم الشخصى وهم حساسون جداً من هذه الناحية وهم أذكياء فى التقاط ما هو مؤثر من الصفات الشخصية فى أسلوب الحكم وفى طريقة إدارته.. فليس صحيحاً أن القارئ العربى لم يتعود أن يقرأ عن حكامه بالطريقة التى كتبت بها.. والذين يقولون ذلك يقرون بتميز القارئ الأوروبى والأمريكى على القارئ المصرى.. وأنه يستطيع تناول حكامه بما لا يجسر عليه المصرى حتى بعد أن يصبح هؤلاء الحكام تاريخاً».

قال صلاح عيسى: «أظن أن الذين يقولون ذلك يخلطون بين الحياة الخاصة للرجل العام والحياة الخاصة للمواطنين العاديين».

فسر هيكل: «هذا صحيح.. هناك فرق بين الرجل العام والرجل الخاص.. فالرجل العام يتقدم ليتحدث باسم الناس وينوب عنهم ويتصرف فى مصالحهم ويصدر قرارات تمس حياتهم اليومية.. ومن هنا فتصرفاته وسلوكه ومزاجه النفسى والعوامل التى أثرت فى نشأته ينبغى أن تكون محل اهتمام الناس ومن حقهم أن يعرفوها ويفهموها.. أما الرجل الخاص الذى يقتصر أثر تصرفاته على نفسه وعلى أسرته فليس من حق أحد أن يهتم بما هو خاص من شؤونه إلا الذين تربطهم به علاقات مباشرة.. ولقد ناقش المؤرخون ومازالوا يناقشون حياة الخلفاء فهل معقول أن يطالبنا أحد ألا نناقش حياة حاكم لم يكن خليفة وليس هو نبى؟».

«حين يموت مواطن عادى وقد ترك لورثته ديونا يقع العبء عليهم وحدهم.. أما حين يتولى حاكم كالرئيس السادات حكم مصر وديونها ٣ مليارات دولار فقط ثم رحل عن الدنيا وقد وصلت هذه الديون إلى ٢٥ مليارا خدمتها السنوية وحدها توازى ٣ مليارات دولار .. أى ثمانية أمثال الدين الذى بدأ به حكمه.. ومع ذلك من المصريين من يطالب بمصادرة حقنا فى أن نناقشه .. هل من المعقول أن يأتى كل حاكم ويفعل ما يشاء ثم يذهب فلا نناقشه فى حياته .. ولا نناقشه بعد مماته .. أهذا معقول؟» .

وفى هذه القصة يعتبر الدكتور فؤاد زكريا (غير المعجب بهيكل) أن هيكل «مبالغا فى العوامل الفردية والعائلية التى تحكم فى نشأة السادات وصبغت شخصيته فيما بعد بصيغتها المميزة» .. ويفسر الفيلسوف المعاصر رأيه فى كتابه «كم عمر الغضب؟» «قائلا: «صحيح أنه حين يكون الحكم فرديا مطلقا تلعب شخصية الحاكم وأهواؤه وربما نزواته دورا لا يستهان به يمكن أن ينعكس على قراراته المصيرية .. لكن المشكلة هى أن العوامل الشخصية تقبل أشد التفسيرات تنوعا.. فالابن الذى يضطهده أبوه أو يسىء معاملته مثلا يمكن أن يتحول إلى إنسان منحرف يضطهد الآخرين عندما يكبر ويكون انحرافه هذا رد فعل على نشأته الأولى.. ولكنه يمكن أيضا أن يكون إنسانا حنوناً عطوفاً على الآخرين لا يريد لهم نفس المحنة التى مر هو ذاته بها.. ويكون هذا أيضاً رد فعل على نشأته الأولى.. وهكذا فإن الحديث عن العقد النفسية للطفولة وتأثيرها فى الإنسان البالغ هو دائما حديث محفوف بالمخاطر يقبل أشد التأويلات تناقضاً» .

على أنه سواء كان هيكل مبالغا فى تقدير العوامل الفردية والعائلية أو متوازنا فى تقديرها فإن هذه العوامل لها أهمية عنده.. ومن ثم فالبحث عنها فى حياته هو الخطوة الأولى فى كتابة سيرته الذاتية.

وهناك قضية جوهرية ثانية فى سيرة هيكل .. هل كان شاهداً على عصوره أم كان شريكا فى صياغة بعضها.. هل تعامله كسياسى لعب دورا فيما جرى أم تعامله كصحفى كانت مهمته المراقبة والكتابة؟.. بصيغة أخرى.. كيف تداخلت وتشابكت خيوط الصحافة مع أسلاك السياسة الشائكة؟.

وهناك قضايا أخرى لا تقل أهمية تطرحها وتفجرها حياة هيكل.. لكن .. يصبح السؤال الأهم هو ما «الهدف» من هذا الكتاب عنه؟ .. إن لكل كتاب هدف يسعى مؤلفه للوصول إليه.. فما هدف هذا الكتاب؟.. والإجابة على السؤال هى بسؤال آخر : كيف حافظ هيكل على نفسه ووجوده وقلمه وظل فاعلا مؤثرا منذ بدأ مشواره الصحفى فى

بداية الأربعينيات ؟ .. كيف واصل هذا المشوار فى ظل ٤ عهود سياسية مختلفة .. فاروق الأول .. جمال عبدالناصر .. أنور السادات .. وحسنى مبارك ؟ .. كيف نجا من السقوط الذى هو عادة مصير صحفى مثله أرتبط بعلاقة متينة بزعيم مثل جمال عبد الناصر بعد أن رحل الأخير فى سبتمبر ١٩٧٠ ؟ .. كيف تعايش بعد انقلاب أنور السادات عليه فى فبراير ١٩٧٤ ؟ .. كيف واجه كتائب الذئاب الشرسة التى راحت تنهشه وتمزقه لمدة ٧ سنوات كاملة قاسية منذ خرج من الأهرام وحتى اغتيال السادات؟ .. كيف واصل تأثيره فى الوقت الحالى رغم مقاطعة الصحف لمقالاته وأجهزة الراديو والتلفزيون لصوته وصورته وآرائه؟ .. كيف ظل محافظاً على مكانته رغم أنه ترك مكانه؟ .. وأخيراً .. ما هى عوامل استمراريته .. نظام رياضى وغذائى صارم .. أم دأب على متابعة ما يجرى فى العالم أول بأول .. أم تدريب شخصى على أن ينفذ ما يريد فى الوقت الذى يريد .. أم قدرة فائقة على التعامل مع الآخرين .. أم كل هذه العوامل وأكثر مجتمعة معاً؟.

ولعل كتاب عن هيكल من هذه الزاوية يجعله درساً مفيداً لكل من يواجه تقلبات الحياة عامة .. وفى الصحافة خاصة.

بل .. أستطيع أن أقول أن اقترابى منه فى فترة كنت أتعرض فيها لبعض ما تعرض له هو من قبل ساعدنى على أن أفهم ما جرى لى .. واستوعب الانقلابات التى وقعت ضدى .. وأفسر التغييرات التى حدثت حولى .. وكان رأيه أن أنظر إلى الأمام متجنباً النظر إلى الوراء .. وكان رأيه أننى اخترت مواقفى .. واخترت التمرد على السرب وعلى القطيع وعلى أن أدفع الثمن بمفردى دون أن أغضب من الآخرين - حتى الذين كان لهم مصلحة فيما فعلت - لأنهم لم يقتصموا معى «الفاتورة».

وكان رأيه أن الصحفى الذى يتجاوز الخطوط الحمراء أشبه بذلك الحيوان البحرى المغطى بصدفه ويقا تل بكلا باته الحادة مع من هم أكثر شراسة منه .. فيكسب ويخسر .. وينتصر ويهزم .. حتى إذا ما أصيب بشرخ فى قشرته التى تغطيه عليه أن ينسحب مؤقتاً بعيداً حتى تتكون له قشرة جديدة .. ليعود بعدها للقتال.

هو نفسه عاش - على ما يبدو - نفس الموقف بعد أن خرج من رئاسة تحرير الأهرام فى ٨ فبراير ١٩٧٤ وجاء إلى موقعه صديقه القديم وخصمه الجديد على أمين .. لقد قال هيكل فيما بعد:

«كنت بعد الأسبوع الأول من شهر فبراير - أسبوع البحر الهائج من حولى - قد قررت بسرعة أن أبتعد إلى جزيرة نائية.

لم أكن أريد أن أكون طرفاً في شيء مما رأيته يهدر أمامي متدفقا كحمم البركان .. كان رأيي أن أترك البراكين كلها تنفجر على هواها وتفرغ المحبوس في صدرها من اللهب حتى تهدأ وتخمد وتتحول كل النيران إلى رماد وكتل صخر جامد وبقايا دمار.

مثل الذى يحدث فى التاريخ إزاء كل تحول كبير ابتداء من أديان السماء (الردة بعد الإسلام) إلى ثورات الأرض (عودة البوربون بعد الثورة الفرنسية).

ولم يكن بى خوف على الحقيقة .. فى يوم من الأيام سوف تشرق الشمس .. ثم أن حركة التغيير الإنسانى كلها لم تتأكد إلا بمحاولة نفيها.

كانت الجزيرة النائية التى عزلت فيها نفسى وابتعدت هى مكتبى فى بيتى .. وركزت جهدى كله على كتابة «الطريق إلى رمضان» وكان كتاباً عن مصر من أعقاب سنة ١٩٦٧ إلى حرب أكتوبر ١٩٧٣.

وكانت الأصوات والأصداغ تصلنى عما يجرى خارج مكتبى وبالذات فى كواليس السياسة والصحافة .. ولم اسمح لنفسى أن انشغل به كثيراً .. وكان بعض أصدقائى يبدوون دهشتهم مما ظهر لهم وكأنه نوعاً من اللامبالاة .. ولم يقنعهم قولى إننى أمام لحظة انحسار تاريخى لابد لها أن تأخذ مداها .. ثم أن اعتراضها نوع من الحمق أولى منه التذرع بالصبر حتى تفرغ السحب شحناتها من البرق ثم تشرق الشمس وينجلي وجه الحق والحقيقة» - هيكل «بين السياسة والصحافة» صفحة ٣٨٤.

إن الدرس الذى تعلمته من هيكل فى وقت عشت فيه ظروفاً مشابهة لبعض مما عاشه فى بلاط الصحافة والسياسة كان واحداً من الأسباب التى دفعتنى للتفكير فى هذا الكتاب .. لقد نجحت فى أن أرتفع بتوزيع روز اليوسف من ٧ آلاف نسخة إلى أكثر من ١٥٠ ألف نسخة أسبوعياً .. وشكرت الذين تكرموا بوصفى بمسيح الصحافة الذى يحى المجلات الميته .. وكان أن خرجت من تحت عباءة المهنة الخناجر والسكاكين .. ونجحت فى أن أعطى فرصة النجاح والتفوق لجيل جديد من الصحفيين كان يشكو من غياب الأستاذ دون أن يحاسب نفسه فيما بعد على غياب الوفاء للأستاذ .. إن كل ما فعلت لصالح هذا الوطن أرتد فى محاولات قذرة لتصفية الحسابات معى .. وتضامن الفاسدون وتحالفوا ضدى .. وشعرت فى هذه اللحظات بدعم هيكل الإنسانى وبخبرته فى التعامل مع هذه المواقف .. وهنا أهمية التواصل بين الأجيال .. فليس مهماً أن تصاب بجرح فى معركة وإنما المهم أن تكون مناعتك قوية وقادرة على الشفاء وعلى الفوز فى النهاية .. وليس مهماً أن تفقد موقعك .. وإنما المهم أن لا تفقد نفسك .. ولا إيمانك بالحق.

إننى لا أهوى عبادة النجوم .. فالنجوم عادة تماثيل من «عجوة» نعبدتها .. ثم نلتهما ..
إننا نصنع النجوم من خيوط الضوء .. ونرسم صورها بأشعة الليزر المتحركة على
موسيقى ناعمة أو صاخبة .. وعندما تطفأ الأنوار ويسود الظلام وينصرف الجمهور ..
يصبح النجم وحيداً .. حزيناً .. تشوه دموعه المكياج .. فقد انتهى العرض .. واحتترقت
الصورة .. أصبحت الصورة «نيجاتيف» .

لكن .. هيكل هو نجم من طراز مختلف .. فالضوء يتكاثر وينضج وينطلق من داخله
.. من عقله وأفكاره وصموده ومعاركه .. ينطلق من امتزاج الكلمة بالرؤية .. والرأى
بالخبرة .. والكتابة بالرشاقة .. والبصر بالبصيرة .. والتعبير بالتغيير .. والبقاء بالاستمرار
.. لذلك فهو يزداد بريقاً عاماً بعد عام .. ويزداد نجومية كتاباً بعد كتاب .. ومقالة بعد
مقالة .. وحواراً بعد حوار .

وأجدنى متحمساً لإهداء هذا الكتاب للأجيال الجديدة فى مصر ليس فى الصحافة
فقط وإنما فى كافة نواحي الحياة فى هذا الوطن .. فقد ولدت هذه الأجيال فى مواقعها
العملية وكبرت ونمت وتحملت للتجديد والتطوير دون أن تجد من يعطيها القدوة والفرصة
.. بل أنهم حرموها من خبرات وتجارب من سبقوها من أجيال .. بل وعاقبوها لتمسكها
بفضيلة الوفاء .. ولم يترددوا فى أن يواصلوا الطرق على رأسها بمطرقة الإعلام الكاذب
المشابه للحمل الكاذب حتى تفقد الذاكرة أو حتى لا يبقى من الذاكرة إلا ما يعين بقاء
دجاجة على نبش الأرض بحثاً عن حبات قمح أو حبات رمل .. ولذلك لم يكن مستغرباً أن
هذا الوطن كان يبدأ دائماً من الصفر .. فالصفر فى كل تجاربنا السياسية والمهنية والعاطفية
هو أكبر الأرقام .

ولابد أن أتوقف هنا لأقول إن مادة الكتاب – التى استغرق الحصول عليها أكثر من
عامين – قد تضخمت إلى حد فرض أن يصدر هذا الكتاب – الذى يتوقف عند رحيل جمال
عبد الناصر – الآن على أن يتبعه كتاب آخر يواصل مشوار هيكل فيما بعد .

وبعد هذا المقدمة التى طالت .. نضع المفتاح فى الباب .. وندخل فى الموضوع .. مع
الإيمان بأن الله خير حافظ .. والثقة فى أنه لن يصيبنا إلا ما كتبنا لنا .. وأن الزيد يذهب
جفاء ولا يمكن فى الأرض إلا ما ينفع الناس .

ولا يفوتنى بعد هذا التمهيد الذى يدخل مباشرة فى لحم الكتاب أن أوجه الشكر إلى
عدد كبير من الشخصيات العامة وبعضهم – إن لم يكن معظمهم – أصدقاء .. على
المساعدة المباشرة أو غير المباشرة فى توفير مادة الكتاب أو فى تحقيقها .. ومعظمهم – إن

لم يكن كلهم - عرفوا هيكل وعایشوه عن قرب .. رجل الأعمال الوفدى أمين فخرى عبد
النور .. عميد كلية حقوق الإسكندرية الأسبق الدكتور هشام صادق .. وزير الإعلام
الأسبق رئيس المنظمة العربية لحقوق الإنسان محمد فائق .. صديق طفولة هيكل وصباه
خبير السياحة مصطفى البكرى وأسرته .. الدكتور ميلاد حنا .. الكاتبة الصحفية إيفلين
رياض .. الكاتبة الصحفية سناء البيسى .. المستشار سعيد الجمل .. مدير مكتب عبدالناصر
وزير شئون رئاسة الجمهورية الأسبق سامى شرف .. مسئولة النشر فى مؤسسة الأهرام
قبل رحيلها نوال المحلاوى .. الصحفى والدبلوماسى الفرنسى أريك رولو .. الوزير الأسبق
فى العصر الناصرى فتحى الديب .. الكاتب الصحفى صلاح منتصر .. المدير الفنى
بالأهرام سمير صبحى .. مساعد رئيس تحرير الأهرام للمعلومات أبو السعود إبراهيم
.. الباحث الأردنى جمال الشلبى .. الأديب الصحفى خيرى شلبى .. نائب رئيس تحرير
«واشنطن بوست» بوب وود ورد .. الكاتب والسياسى أحمد حمروش .. الباحث بجامعة
أيوا الأمريكية منير ناصر .. الصحفى والتلفزيونى عماد الدين أديب .. الكاتب والمفكر
محمد الخولى .. و .. رئيس تحرير الأهرام إبراهيم نافع.

لكل هؤلاء جزيل الشكر .. يضاف إليهم صديق فى عصر عزت فيه الصداقة هو
الدكتور نصيف قزمان الذى كان دعمه الإنسانى لى - خاصة فى وقت خرجت فيه الذئاب
الجائعة تنهش لحم كل من تصادفه - عاملا حاسما مؤثرا يفوق كل وصف.

عادل حمودة

مصر الجديدة - صيف عام ٢٠٠٠

الفصل الأول

الجدور: من الحجاز إلى الحسين



ولد فى عام التسـتـور

■ «وجه من القطع الكبير.. جرم الملامح والتقاطيع .. مستطيل .. مبروم كسلة الفاكهة .. حاجبان قصيران مقوسان فوق عينين ضيقتين كأنهما منضبطتان على نظرة تستشرف ما وراء الأفق البعيد .. أبرز ما فى الوجه أنف مستطيل .. يبدو أن انسيابه بين الحاجبين كمقبض الخنجر .. ولا بد أنه أنف مدرب على التقاط رائحة الأخبار من بعد بقدر درية عينيه على رؤية اتجاه الريح وكشف مصادر العواصف.

الفم واسع كفتحة جيب البالطو .. تطل منه ابتسامة عريضة تجعل الفك السفلى بالذقن أشبه بفنجان شاي ... وهى ابتسامة تضيف على الوجه إشراقاً وحميمية وفرط ذكاء .. ابتسامة مفكرة .. شديدة الخصوصية .. لا تشبه ابتسامة أى شخص آخر.

لا تخطئ العين مصريته .. فالدم الذى يجرى خلف بشرته ليس إلا طمى النيل .. يعكس على بشرته لون الفخار.

على شدة أناقته واهتمامه بمنظره الخارجى بقدر اهتمامه بثقافته وبتاريخ مصر فالعين المدققة لا تراه إلا فلاحاً عريقاً طويل الذراعين والأصابع من شدة ما عزق وزرع وحصد وعافر فى طين الأرض بأصابعه يقيم عقالات المياه ويخطط الزرايق ويظهر المصارف.

ما وقع بصرى على وجهه وذراعيه الممدودتين باستمرار يستعين بهما على شرح حديثه وتصوير آرائه والإيحاء بأفكاره المستترة، إلا وتذكرت أهلى الفلاحين الكبار الحكماء الذين يرتبطون من السنتهم وبكلمة واحد منهم تنفض المعارك وتقام الأفراح ويجرى

الصلح بين المتخاصمين .. أولئك الذين ترى فى عيونهم المكر والدهاء مستقرين وراء مسحة من التسامح والأريحية على وجوههم التى لوحتها الشمس وحمصتها وأكسبتها صلابة تعكس قوة إرادة وعزماً وتصميماً وقدرة على الاحتمال والصبر وطول البال .. لديهم طوفان لا ينفذ من المسلية المعبرة عن مثل وقيم أخلاقية ثمينة يسوقونها إليك فى أساليب ساحرة تفيض بالدفء والإنسانية والشغف بالحكى نفسه .. إنهم أحفاد العمالق الأوائل الذين أقاموا حواراً مع الكون ودخلوا فى جدل مثمر خلاق مع ظواهر الطبيعة وخوافيها وقهروا النيل وامتطوا صهوته يوجهونه أينما شاءوا ومكروا بالموت فقهروه وأقاموا على أنقاضه حضارة خالدة .. وابتلعوا جميع الغزاة فمصروهم. (١)

هذا هو هيكل كما وصفه بقلمه الموهوب أديب له بصمة واضحة فى الرواية والأدب والسيرة الذاتية هو خيرى شلبى.

والمثير أن هذا الوصف المعجون بالطمى والزرع ومياه النهر وغيرها من المفردات التى تفتح عليها خيرى شلبى يكاد يقترب من وصف كاتب آخر .. ولكن عاش فى فرنسا.. وليس أديبا بقدر ما هو صحفى .. هو جان لاكوتور.. الذى وصف هيكل بكلمة «الرجال» فى مقال نشره فى مجلة «مغرب ومشرق» التى تصدر فى باريس .. فى عدد مايو - يونيو ١٩٧٤ وهو أول عدد صدر من هذه المجلة بعد إبعاد هيكل عن رئاسة تحرير الأهرام فى فبراير من ذلك العام .. وكان جان لاكوتور واحد من الكتاب الغربيين الذين تابعوا عن قرب تجربة عبد الناصر وثورة يوليو ونشر كتاباً عنها بعد رحيل عبدالناصر بعنوان «أنصاف الآلهة».

لقد وصف لাকوتور هيكل بأنه رشيق .. حاد الملامح .. قوى .. ذو وجه فلاح .. اختار بدلا من أن يصبح فرعوناً ويدخل المتحف أن يعبر عن صديقة الأسمر الصعيدى مثله جمال عبد الناصر .. سريع الجملة .. حاد العبارة .. ذو نظرة متقدمة غالبا .. وذو ابتسامة مأكرة .. على أنه فى كل الأحوال هو الشخصية الأكثر إثارة للاهتمام فى مصر الآن .. وقد مثل المرحلة التاريخية التى عبرت فيها بلاده ارتعاشات الإقطاع المسيطر عليه من الأجنبى إلى سلطة بورجوازية وطنية محاطة ومتحالفة مع البيروقراطية ومسلحة بالكبراء الوطنى.

«ناطق رسمي متحمس وصديق وفي - من وجهة نظر قد تكون ذاتية أكثر منها موضوعية - للرئيس الراحل (عبدالناصر) المحرك الفعال لعملية تحديث أتت ثمارها مع حرب سيئة .. وتبدو استقلالية رئيس تحرير الأهرام السابق - التي لا تفتقر إلى النبل بشخصيته وطاقاته - متجاوزة للناصرية .. أو بالأحرى هو يقف في خط أكثر ضيقاً وأكثر اتساعاً .. فهو يجمع في شخصيته شيئاً ما من التيارات الثلاثة التي جعلت مصر - العابرة إلى الاستقلال منذ عام ١٩٢٢ - ما هي عليه .. تيار الوفد المنفتح .. تيار الرجال الذين اعتمدوا على أنفسهم مثل محمد عبده .. وأخيراً التيار المنتصر على فاروق ويمثله جمال عبد الناصر .. الرجل الصلب الذي وصل إلى ما وصل إليه بقوة الأشياء وربما بفضل أستاذ العلاقات العامة الاستثنائي .. هيكلي» . (٢)

ويكاد كل الذين يعرفونه عن قرب أن يجمعوا على صفات مشابهة .. خاصة وهو يتحدث .. فهو «سريع الحركة .. سريع الفهم .. سريع الإجابة .. ومن الثانية الأولى تجد نفسك منجذباً إلى ملامحه الدائمة التغير والانفعال .. المشحونة بكم وافر من الاطلاع وحب الاستطلاع .. وبالكاد تستطيع أن تسمعه وتتابع حديثه .. فحديثه عاجل ناعم حاسم كدقات تلغراف مبطن بالقטיפه .. وإذا أردت أن تتكلم أنت يلمحك فيقطع عليك التهيو وترتيب الأفكار وأي مقدمات قد تفكر فيها ويقول: شوت .. أي تكلم» . (٣)

وُلد هيكلي في ٢٣ سبتمبر سنة ١٩٢٣ .. وهي السنة نفسها التي عرفت فيها مصر أول دستور مكتوب في تاريخها الحديث .. وكان هذا الدستور هو أول مكسب وطني .. ديمقراطي حققته ثورة ١٩١٩ .. الثورة الشعبية الليبرالية التي جاءت بالبرلمان والجامعة والمسرح والتعليم الإلزامي وحرية الصحافة وحقوق النساء .. والمثير أن سنة الثورة كانت هي السنة التي تزوج فيها والد هيكلي من أمه .. وتكونت الأسرة.

في اليوم الذي وُلد فيه جرت أحداث مثيرة .. كانت تليق على ما يبدو بمولد صحفي كبير يحترف متابعة ما يجري .. فقد اشتعلت ثورة في إمارة شرق الأردن .. وطالب زعماءها بمجلس نيابي .. وانتهى البناء الجديد للوكالة السياسية الإنجليزية القريب من ثكنات قصر النيل (مقر الجامعة العربية فيما بعد) ليسكن في البناء الجديد المعتمد البريطاني اللورد كرومر .. وأحرز طيار في البحرية الأمريكية اسمه «سند رش» رقماً جديداً في سرعة الطيران هو ٣٨٥ كيلومتراً في الساعة .. وأصيب الرجال الأمريكي

الشهير «ريناي» بالشلل وتوفى وهو فى طريقه إلى نيروبي على ظهر الباخرة «ساكتون» وألقى جثمانه فى عرض البحر .. وأعلنت المدارس الثانوية عن قبول خمس منح مجانية فقط لطلاب بالأقسام الخارجية فى كل مدرسة من مدارس القطر .. وأعلنت الصحف أن الشروط معلقة فى المدارس .. بينما أعلنت إحدى المدارس الخاصة هى مدرسة «وادي النيل» الثانوية بأول «ضرب الجماهير» عن مصروفات العام الدراسى الجديد وهى ٤٥ جنيه للدراسة الداخلية و٢١ للنصف داخلية و١٥ جنيه للخارجية بالكتب .. وفى نفس الصحف إعلانا عن بيت من ثلاثة طوابق على الشارع الرئيسى فى العباسية مقابل ١٥٠ جنيه .. وإعلان آخر عن تياترو كافيه ريتش بميدان «سليمان باشا» حيث «ستطرب الأنسة أم كلثوم وتغنى بصوتها الرخيم الأدوار والطقاطيق الجديدة وسعر الدخول العمومى (بدون مشروبات) ١٠ صاغ (قرش) ٠١ (٤)

فى ذلك اليوم فتح هيكل عينيه الضيقتين الثاقبتين على منطقة عريقة .. عتيقة .. فى القاهرة القديمة .. منطقة الحسين والأزهر والغورية وخان الخليلي .. حيث يلتقى الدين بالدنيا .. ويتعايشان معاً فى حياة مشتركة صافية .. لا تعرف التحولات الحادة .. ولا التغيرات المفاجئة .. ولا المنعطفات غير المتوقعة .. إنها نفس المنطقة .. بنفس الظروف التاريخية والسياسية والاجتماعية وربما النفسية أيضاً التى وصفها نجيب محفوظ فى «الثلاثية» .

إن البيت الذى تربى فيه هيكل فى هذه المنطقة هو بيت جده لأمه وقد هُدم البيت فيما بعد وأقيمت على أرضه مستشفى «الحسين» الجامعى كما قال لى أحد أصدقاء طفولة هيكل وزميله فى مدرسة التجارة المتوسطة وزوج صغرى بنات خاله هو مصطفى البكرى الذى أصبح فيما بعد واحداً من أبرع خبراء السياحة ونائبا لرئيس مجلس إدارة شركة فنادق «حياة ريجنسى» العالمية .. وقد قابلته هو وزوجته السيدة «كرم» فى مارينا الجديدة .. المنطقة رقم (١٢) .. الفيلا رقم (٢٣) .. وقد كان أحد مصادرى فى معرفة الفصول الأولى لقصة حياة هيكل.

كان البيت مكون من ثلاث طوابق .. مغلق لسكن عائلة جد هيكل لأمه عبدالله سلام .. كان تاجراً من تجار الحبوب والغلل ويساعده فى تجارته ابنه الأكبر سلام الذى أثر كثيراً فى حياة هيكل العملية .. وكان سلام الخال ينفرد بالعيش فى «مندرة» بالدور الأرضى .. وكانت هناك فى الدور الأرضى أيضاً «مندرة» أخرى حولها إلى مكتبة تتكس

بالكتب.. كان يحصل عليها من مكتبة «صبيح» بالمقايضة على حد تعبير هيكل نفسه .. الذى وجد فى هذه المكتبة ثروة من كتب التراث .. وترجمات الأدب .. والأساطير الشعبية .. فراح ينافس خاله سلام فى قراءتها .. بل أنه كان على ما يبدو أكثر شراهة فى القراءة .. على الأقل بحكم فراغ الاجازات .. فكثيراً من الكتب كان هو الذى فض بكارتها بعينه.

مكتبة صبيح هى مكتبة ومطبعة تقع فى العقار رقم ١٢٦ فى شارع الأزهر ضمن مجموعة أملاك محمد بك أبو الذهب التى تضم ثلاثة آثار هى جامع محمد بك أبو الذهب (اثر رقم ٩٨) وخان الزراكشة (اثر رقم ٣٩١) وسبيل محمد بك أبو الذهب (اثر رقم ٩٢) .. وتتوسط المكتبة شارع الأزهر المعروف قديماً بشارع «الرقعة» وشارع «المطبخ» .. وهى تعد من اقدم المكتبات فى القاهرة .. وقد بُنيت على طراز القاهرة العثمانية .. وأُغلقت أبوابها فى عام ١٩٩٤ بعد حوالى ١٥٠ سنة .. وكانت تشمل الدورين الأول والثانى من مبنى وكالة محمد بك أبو الذهب .. وتبلغ مساحة الدور الأرضى منها ٢٩٢ متراً مربعاً .. والدور الثانى ١٦٥ متراً مربعاً .. وبُنِى مبناها فى عام ١١٨٧ هجرية .. وتضم ٥ آلاف كتاب نادر .. منها «ألف ليلة وليلة» والتفاسير والقرآن والسيرة النبوية ومخطوطة كاملة لديوان بشار بن برد المفقودة .. ومجموعة نادرة من كتب التصوف .. أهمها كتب الحلاج والسهرودى فى طبعا ترقى إلى قيمة ومستوى المخطوطات.

وفى آخر أغسطس ١٩٩٩ جرى مزاد لبيع المكتبة فى مقر المصرف الإسلامى الدولى حضره ٢٥ رجلاً من رجال الأعمال من أصحاب المكتبات الشهيرة بتأمين نقدى ٢٠٠ ألف جنيه لكل فرد يدخل المزاد .. وقد بدا المزاد بمليونين ونصف المليون جنيه وانتهى بزيادة مليونين آخرين ولكن المئمن القضائى عبد الله محمد إبراهيم رفض إتمام إجراءات البيع لأن القيمة الحقيقية والتاريخية تصل إلى ١٣٠ مليون جنيه .. فسعر المتر فى هذه المنطقة يصل إلى ١٢٠ ألف جنيه .. وكانت تصفية المكتبة بناء على حكم قضائى من محكمة النقض صدر فى الدعوى رقم ٢١٣ لعام ١٩٩٣.

إن هذه التفاصيل التى أتصور أن هيكل سيقراها بتأثر تحدد مصدر المعرفة الأول الذى ساهم فى تكوين ثقافته وضاعف من موهبة التخيل التى عرفها عنه أصدقاء الصبى وزادت من براعته فى رواية الحكايات.. خاصة وهم فى الطريق إلى المدرسة أو إلى البيت

وقد ورث هذه الموهبة عن أمه السيد «هانم» على حد قول ابنة خاله السيدة «كرم» التي أضافت أن عمتها كانت ساحرة وهي تروى للصغار الحكايات .. وكانت قادرة وهي تتحدث أن تشد الانتباه.

ويروى مصطفى البكرى: إنه هو وهيكمل وعبد العزيز سلام ابن خاله هيكمل كانوا أصدقاء فى الحي والمدرسة .. وانهم عندما كانوا يلتقون كان مصطفى يتحدث عن حلمه فى الاهتمام بالقاهرة القديمة لتضاف لثروة مصر السياحية .. وكان هيكمل يحكى لهم حكايات .. أما عبد العزيز فكان يغنى أغانى فريد الأطرش وأسمهان الجديدة.

وأحد المشاهد العالقة فى ذهن هيكمل منذ أن كان صغيراً على حد روايته لسناء البيسى فى مجلة «نصف الدنيا» .. صورته وهو «جالس فى مندره الضيوف فى البيت الكبير الذى تسكنه الأسرة وقد تحول معظمها إلى اكديس كتب جاءت لخالى من مكتبة صبيح وكان أصحابها أصدقاء له .. فى يدى كتاب ضخّم ألقب فيه برهبة عنوانه «أدب الدنيا والدين» .. مازلت أذكره .. ومازلت أحس رهبة قراءة أشياء لا أستطيع فهمها ولكنى أحاول».

وتقول السيدة «كرم»: إن والد هيكمل أيضاً كان يتمتع بجاذبة فى رواية الحكايات .. وكان موهوباً فى أن يتوقف عند نقطة مثيرة فى الحكبة تجعلنا نتحرق شوقاً لأن يأتى الغد لنعرف ما جرى لأبطال الحكاية.

إن موهبة الخيال وسحر الحديث والقدرة على شد الانتباه هى صفات يتمتع بها هيكمل .. وواضح أنها صفات وراثية .. نمت بالنهم للقراءة .. والسفر ... والتدريب على فنون الحياة .. والحرص على العلاقات الشخصية .. وربما لن يصدق الذين لم يعرفوا هيكمل عن قرب أنه قادر على الحديث ببراعة وخبرة فى موضوعات تبدو بعيدة عن الاهتمامات السياسية .. مثل الموسيقى الكلاسيكية .. واللوحات التشكيلية .. وأنواع السيارات .. وموضوعات الثياب .. وعلاقة الطعام بنوعية أدوات المائدة .. وتناسق الزهور .. بل أنه فى الموضوعات التى تتصل بالحياة ربما يكون أكثر جاذبية فى الحديث من الموضوعات السياسية المباشرة .. فى السياسة تكون كتابته أكثر براعة.

الهوامش

- (١) خيرى شلبى : بورتريه بعنوان «الوثائق» مجلة الإذاعة والتلفزيون - عدد ٩ ديسمبر ١٩٩٥ - ص ٦٠.
- (٢) جمال الشلبى : «محمد حسنين هيكل: استمرارية أم تحول» ترجمة حياة الحويك عطية - المؤسسة العربية للدراسات والنشر - ١٩٩٩ - ص ٣٣٧.
- (٣) سمير صبحى : «الجورنالجي» مصدر سابق - ص ١٩٦.
- (٤) المرجع السابق: ص ٤٦.



صراع القلب بين العمامة والطربوش

■ فى الطابق الثالث من البيت الكبير كانت جد هيكل لأمه يسكن فى شقة أمام الشقة الأخرى التى تسكن فيها السيدة هانم مع زوجها.. إنها الزوجة الثانية له.. لقد تعرف والد هيكل على جده لأمه وتشاركاً معاً فى وكالة لتجارة المحاصيل السودانية .. كانت بالقرب من مكتبة صبيح فى شارع الأزهر .. وكان خال هيكل هو المسئول عن إدارتها .. وأغلب الظن أن التجارة المشتركة خلقت نوعاً من الود الإنسانى سرعان ما تحول إلى علاقة نسب كما هو الحال فى مثل هذه المجتمعات .. فكان زواج «هانم» وهى صغرى الأبناء من والد هيكل رغم فارق السن الكبير بينهم .. ورغم أنه متزوج من سيدة أخرى هى السيدة «صالحة» ورغم أن له منها أولاد فى مرحلة الشباب على رأسهم أحمد ومجاهد اللذان كانا يساعدان الأب فى تجارته .. وليس من الصعب والزواج كان فى عام ١٩١٩ أن نتفهم قبول أسرة الأم أن تزوجها من رجل على ذمته زوجه أخرى له منها أولاد أكبرهم يقترب من عمر الزوجة الثانية .. فقد كان ذلك من طبائع الأمور فى ذلك الوقت خاصة للتجار الذين يقدرون مادياً على تحمل هذه الأعباء.

كانت الأم التى لعبت الدور الأكبر فى حياة هيكل تعرف القراءة والكتابة بل أنها كانت تعرف اللغة الإنجليزية .. وتعرف أصول الحياة العصرية التى بدأ المجتمع المصرى فى ذلك الوقت يميل إليها متأثراً برياح التحديث التى بدأت تغد إليه من ناحية أوروبا .. لكن ما ساعد الأم على قبول هذه الأفكار الزوجة الثانية للأب «دولت» هانم كما كانوا ينادونها والتى كانت تؤمن بتعليم البنات رغم أن زوجها - جد هيكل لأمه الذى كان ينتمى فى بعض جذوره إلى المغرب - كان متزماً .. محافظاً.

وفيما بعد وحتى وفاتها فى بداية التسعينات ظلت الأم كما يقول هيكل تتابع ما يكتبه وكانت ناقدة له. (١)

وقد عرف أنها كانت تقرا مقالاته بانتظام .. وعندما ترك الأهرام قال لها: «لا تنزعجى يا أمى .. مادام القلم معى فأنا لم أفقد شيئاً» .. وعندما دخل هيكل السجن كان أبناؤه لا ينقطعون عن زيارتها .. وقد رددت أكثر من مرة أنها حسب رؤية لها فى المنام «فإن محمد لن ليبقى طويلاً فى السجن» .. ويقول الذين عرفوها عن قرب: أن هيكل كان قريب الشبه منها .. وأنها كانت سيدة قوية تولت تربية وتعليم أولادها وبناتها السبعة .. وهم بالترتيب .. خديجة ومحمد وتهانى وفوزى ونادية وآمال ومها .. وكلهم تزوجوا ما عدا فوزى الذى حصل على الدكتوراه وراح يقوم بالتدريس فى إحدى الجامعات الأمريكية .. وحافظ هناك على أفكاره التقدمية .. وكلهم اعتمدوا على أنفسهم ولم يستعلموا أسم شقيقهم ولم يفكروا فى نفوذه .. بل أن لا أحد تقريبا كان يعرف عدد هؤلاء الأشقاء .. ولا حتى أسمائهم .. ولا أحد يعرف أنهم جميعاً تخرجوا فى الجامعة وشقوا طريقهم للنجاح فى صمت وصبر.

وبسبب السيدة «دولت» تمنى «هانم» الصغيرة أن تتزوج أفنديا يضع الطربوش على رأسه ويفضل أن يكون موظفا حكوميا كما حظيت شقيقاتها .. لكنها لم تجد فى نفسها الشجاعة فى التعبير عن ما تريد ووالدها يزف إليها خبر زواجها من تاجر أكثر ثراء من موظفى الحكومة وإن كان لا يضع الطروش على رأسه ولا يرتدى ملابس الأفندية .. وإنما يرتدى مثله ملابس التجار فى ذلك الوقت .. وهى أقرب لملابس رجال الدين .. الجبة والقفطان.

وعلى عادة التجار فى ذلك الزمان لم يكن والد هيكل يقرأ ولا يكتب .. ويتذكر هيكل أنه وهو طفل صغير كان يصل إلى مسامعه صوت أمه وهى تقرأ لأبيه فى كثير من الليالى سيرة «الظاهر بيبرس» وأسطورة الأميرة ذات الهمة» .. وقد كان هيكل يقاوم النوم ويحاول أن يصصره حتى يكمل ما يسمعه وما يأتى إليه من دراما مثيرة وشيقة عبر الجدران فى سكون الليل .. ويقول هيكل: «إن هذا الكلام كان يأتينى ويدخل رأسى ويفتح لى أشياء كثيرة ولكن أبى وأمى لم يكن فى بالهما أن كل هذا يؤثر فى».

إن هذا «الكلام» الذى كان يأتى هيكل ويدخل رأسه ويفتح له أشياء كثيرة هو الذى اثر فى أسلوب كتابته المتأثر بالحبكة الدرامية والخصيعة الأدبية رغم أن كتاباته هى فى الأساس كتابات سياسية .. إنه صحفى لا ينسى فضل الأدب .. أو كاتب سياسى يعرف كيف يمتطى صهوة الأدب.

ويمكن هنا أن نحتكم إلى شهادة خبير هو الأديب الذى يعرف كيف يزن الأسلوب .. خيرى شلبى .. لقد قرأ خيرى شلبى كتاب هيكل «إيران فوق بركان» - الذى صدر فى الخمسينيات فى أعقاب زيارة لهيكل لتغطية انقلاب الدكتور محمد مصدق فى طهران - وهو تلميذ فى الصف السادس من المرحلة الابتدائية .. فكان كما كتب بنفسه أن «فوجئت

بأننى أقرأ أسلوباً بسيطاً عميقاً فى آن واحد. على درجة من السلاسة لم أعدها من قبل .. أسلوب يستدرجنى شيئاً فشيئاً من السطح إلى الأعماق .. وينتقل بى فى قصر من القصور الحافلة .. يُطلعنى على غرفه وأبهائه ومسالكه ودروبه. فما أن انتهيت من الكتاب حتى شعرت أننى قد أضفت إلى ذاكرتى أشياء كثيرة ثمينة يحق لى أن أزهو بها أمام أترابى. وعلقت بذهنى عبارات رشيقة لماعة تغرينى بترديدها بصوت عال. وانفتح أمام ناظرى ذلك العالم الساحر المبهر: عالم السياسة . أدركت كذلك - لأول مرة أيضاً - كيف أن السياسة فى معظم الدول - المجاورة والبعيدة - مرتبطة ببعضها. مؤثرة فى بعضها. بهرتنى الشخصيات والأحداث والتحليلات والعلاقات المتشابكة.

«كان هو أول كتاب سياسى أكمل قراءته من الغلاف إلى الغلاف. العجيب أنه نشط خيالى الروائى منذ الصغر وفتح عينى على فحص العلاقات بين الشخصيات فى الملاحم الشعبية التى كانت تُقرأ فى مندرتنا: الزير سالم والهلالية (أبو زيد الهلالي) وعنترة (عنتر بن شداد) و(الأميرة) ذات الهمة وألف ليلة وليلة». (٢)

ولأن التحليل ثاقب ومحترف فما الذى يمنع من الاستمرار مع صاحبه الذى يواصل : «إن أسلوب هيكىل يجمع بين الحيدة العلمية المجردة كأسلوب يتعامل مع الحقائق والأرقام والتواريخ والوثائق وبين الروح الأدبية المليئة بالزخارف وفنون البلاغة العربية العريقة. فأنت تقرأ لأحد كبار الروائيين المعاصرين فى العالم .. وقد ظهرت هذه الموهبة بوضوح تام فى كتبه الفذه التى تفرع لكتابتها بعد إقصائه عن جريدة الأهرام. كأن القوة الغاشمة التى حالت بينه وبين الصحيفة السيارة كانت تعمل لصالح التاريخ المصرى المعاصر. إذ لولا تفرغ هيكىل الكامل وتحرره من المسئولية الإدارية ما قُدر للمكتبة المصرية أن تفتنى بهذه المصادر التاريخية الثمينة التى تحدث سنوات التحول المريع واحتفظت لمصر بذاكرتها وأثبتت أن الثورة المصرية لم تكن شيئاً ميسوراً ولم تضع هباء.

«وإذا كانت الثورة المصرية قد تعثرت وتعرضت للفشل واقتضبت وحيل بينها وبين التطور الخلاق لاستكمال أهدافها النبيلة بفعل سيطرة القوى الجهنمية العالمية التى سلطت عليها فإن كتب هيكىل ووثائقه تعتبر استكمالاً لثورة يوليو وصولاً بها إلى ما لم تحققه بالفعل فى الواقع المصرى.

«إن كتابة «خريف الغضب» على سبيل المثال يعتبر رواية تاريخية بكل المقاييس الفنية المتعارف عليها للرواية التاريخية مع فاروق جوهرى أساسى هو أن الخيال هنا لا دور له إلا فى الحكمة. فبطل الرواية هو الرئيس أنور السادات. يتبعه الكاتب منذ الطفولة إلى النهاية. ومثل كتاب الرواية التاريخية التسجيلية يقدم الكاتب العديد من الوثائق والمستندات التى تساهم فى توضيح جوهر الشخصية وتفسر تصرفاتها.

تمتد جذور أسرة هيكل إلى الجزيرة العربية .. وقد هاجرت منها فى القرن السابع عشر إلى الشام (وهو الاسم القديم لسوريا) ومنها إلى مصر .. حيث استقرت لبعض الوقت فى الدقهلية .. ومنها إلى الصعيد .. ويمكن أن يكون بعضها قد هاجر إلى الدقهلية والبعض الآخر وجد نفسه فى الصعيد .. حسب بحث الدكتور يوسف هيكل وهو فلسطينى كان رئيساً لإحدى البلديات فى الضفة الغربية وقد راح يتتبع اسم هيكل ليعرف من أين بدأ وإلى أين ذهب واستقر .. وقد توصل إلى أن فرعاً من العائلة المهاجرة قد استقر فى الدقهلية وبرز فيه رئيس مجلس الشيوخ الأسبق وصاحب جريدة «السياسة» محمد حسين هيكل باشا .. واستقر فرع آخر فى الصعيد .. فى ديروط الشريف ولهذا الفرع ينتمى محمد حسنين على هيكل .. والفارق بينهما هو حرف النون الزائد اسم .. حسنين.

كان الجد الأكبر يشتغل بالتجارة .. كان له مراكب شراعية تجرى فى النيل وتنقل المحاصيل من الصعيد إلى شمال القاهرة .. عند باسوس بالقرب من قليوب .. حيث استقر والد هيكل مع زوجته الأولى .. وكان للجد الأكبر أيضاً «وابور طحين» ومحلج قطن صغير وشونتان لتخزين الغلال والحبوب فى روض الفرج واثر النبى وهما من الموانئ النيلية القريبة من القاهرة .. لكن أيام الأب لم تكن كل رياحها طيبة .. وفيما بعد لم تأت هذه الرياح بما تشتهى سفن الأب.

فى رسالة الدكتوراة التى قدمها جمال الشلبى للسوربون أن علاقة هيكل بعبد الناصر تلكدت وازدادت قوة بين الرجلين «ليس فقط لأنهما يملكان توجهات وتصورات واحدة نحو العمل السياسى بل لأنهما أيضاً - وعلى ما يبدو - سلكا نفس الطريق الاجتماعى والاقتصادى مما زاد التقارب العاطفى والوجدانى بينهما». (٢)

والحقيقة أن عبد الناصر وهيكل لم يسلكا نفس الطريق الاجتماعى والاقتصادى .. ولا شىء يربط بين جذورهما سوى أن هذه الجذور تمتد جغرافياً إلى الصعيد .. عبدالناصر من قرية بنى مر الواقعة على بُعد ٤ كيلومترات من مدينة أسيوط .. وهيكل من ديروط الشريف التى تبعد عنها بحوالى ١٢٥ كيلومتراً فى اتجاه القاهرة .. وربما كانت لهما نفس الملامح الواضحة لأبناء الصعيد .. الذين تبدو خطوط وجوههم أقرب لخطوط النحت منها إلى خطوط الرسم .. فهى خطوط حادة واضحة .. فى بشرة سمراء .. وإن انفرد عبدالناصر بأنه كان فارح الطول كما أنه ولد قبل هيكل بحوالى ٦ سنوات فى عام ١٩١٧ .. لكن .. ليس هناك تشابه فى الجذور الطبقيّة بين الرجلين .. عبدالناصر ينتمى لطبقة المزارعين .. وهيكل ينتمى لطبقة التجار .. وإن تصادف أنهما عاشا فى نفس المنطقة من القاهرة القديمة .. هيكل بالميلاد وعبد الناصر بالهجرة .. ففى صيف ١٩٢٥ أنتقل عبد الناصر - بسبب ظروف الأب الدائم التنقل بحكم عمله فى إدارة البريد - للإقامة فى بيت

عمه خليل فى حى النحاسين القريب من الحسين والأزهر والغورية .. ولم يكن عمه قد أنجب أطفالا .. وإن كان يربى أبنأ بالتبنى أسمه محمود أستشهد والده فى ثورة ١٩١٩ . وبينما بقيت والده هيكل على قيد الحياة حتى أصبح شهيرا فإن عبدالناصر فقد أمه فى عام ١٩٢٦ وكل عمره أقل من ١٠ سنوات .. وكان موت أمه ضربة قاصمة «تركت بصماتها التى لا تمحى» .. وبعد ٧ سنوات تزوج الأب من سيدة أخرى هى عنايات مصطفى .. وانتقل عبد الناصر للإقامة فى الإسكندرية ودخل مدرسة «رأس التين» الثانوية .. وبينما درس هيكل فى مدرسة التجارة المتوسطة وجد عبد الناصر القدر يفتح له المدرسة الحربية فى سابقة لم تحدث بعيدا عن الشروط الطبقيّة الصارمة.

وحتى مات عبد الناصر لم يكن يملك البيت الذى كان يسكنه فى «منشية البكرى» وبعد أن مات سلمت أسرته البيت والأثاث لأنه كان «عهدة» لإدارة الأشغال العسكرية .. وحاول هيكل إقناعه بالثورة التى حدثت فى فنون الطعام .. لكنه كان يصر على تناول الأرز والخضار .. وكان يتساءل فى دهشة «وماذا يأكل الناس غير هذا؟» .. على أن هيكل المحب للحياة عاش حياة مختلفة .. مترفة .. متنقلاً بين بيته فى القاهرة وبيوته بالريفية والصيفية والشتوية .. عارفا بفنون الطعام .. وماركات السيارات .. وموضات الثياب .. ولوقت قريب كان يدخن السيجار الهافانى المميز .. ويعرف كيف يتعامل معه.

لكن اختلاف الظروف الاجتماعية واختلاف تصورات الحياة لا تمنع من الاعتراف بأن كل منهما منذ البداية كون نفسه بنفسه .. حتى استقرا فى الطبقة الوسطى التى إنطلاقاً منها نحو مشروعهما المشترك .. وفى لحظة الانطلاق كان كل منهما فى حاجة للآخر .. عبد الناصر كان فى حاجة لمن يعبر عنه .. وهيكل كان فى حاجة لمن يجسد أفكاره.

وهكذا .. فإن قيمة عبد الناصر السياسية وقيمة هيكل الصحفية ساهمتا فى تغذية علاقتهما معا وجسدتها بوضوح» . (٤)

الهوامش

(١) سناء البيسى : حوارها مع هيكل فى مجلة «نصف الدنيا»

(٢) خيرى شلبى : مصدر سابق.

(٣) جمال الشلبى : مصدر سابق ص ٢٤.

(٤) المصدر السابق : ص ٢٤.

أعتبر الله فى عقلى وفى قلبى

■ يتذكر هيكـل صورته صغيراً .. يقول : «أجلس فى مندره بيت جدى لأمى فى حى الحسين بين الأشقاء والشقيقات وأطفال العائلة نتلقى دروس تحفيظ القرآن من الشيخ قاسم .. وكان الشيخ موظفاً مستديماً لدى جدى .. وكان من يحفظ جزءاً كاملاً من القرآن يجازى من الجد جزءاً حسناً .. فإذا ما ختم المصحف فنصيبه جنيه ذهبى .. كان يحضر معنا أحياناً دروس القرآن بعض أطفال بيوت جيراننا ومنهم بيت الراقعى وبيت الرزاز» . (١)

وبتقدم العمر ترك جد هيكـل لأمه إدارة تجارته لأبنه سلام وراح يتردد أكثر على مقصورة «سيدنا الحسين» .. وكان يصحب معه أحد أطفال العائلة .. وكثيراً ما كانت هذه الزيارة من نصيب هيكـل .. وهناك كان الصبى الصغير يجلس بالقرب من الجد بين مشاهير قراء القرآن .. مثل الشيخ طه الفشن والشيخ محمد رفعت والشيخ على محمود والشيخ على حزين والشيخ عبد الفتاح الشغشاعى .

إن البيئة الجغرافية والعائلية التى سَجَلت فى ذاكرة هيكـل القوية مثل هذه المشاهد جعلته يدرك مبكراً أهمية وخطورة الدين فى حياة المصريين .. وأنه عنصر أساسى من المكونات الحضارية للمصريين .. لكنه ليس العنصر الوحيد .

وفيما بعد سئل هيكـل : كيف تنظر إلى الله من خلال الاكتشافات العلمية ؟
وكانت إجابته :

«أعتبر الله فى قلبى وفى عقلى وكثيراً ما تكلمت عن الفكرة المادية والإنسانية والعقلانية وإن الأفكار الثلاث تترابط مع بعضها لأن الإنسان لديه احتياجات مادية ولكن لديه عقلانية

الحياة تفقد كل قيمتها إذ تكلم المرء فقط عن المادة .. ولا يعود هناك معنى للحياة .. ضرورة الحياة أن يبقى عندك البعد العقلى والبعد الإنسانى والبعد الإيمانى لأن الإنسان فى النهاية كائن واحد».

على أن تصور هيكل للدين هو تصور فى حاجة أن نعرفه .. وقد قال لى فى حوار ذات مرة: «إذا كان هدف المجتمعات هو الاستقرار والترقى والتقدم فإن الدين كفل هذا مباشرة فى عصور معينة .. لكن جاءت عصور أخرى فى الاجتهاد الإنسانى أضافت إلى تعاليم الدين الكثير من الثراء .. إن ذلك لم يحدث عندنا فقط وإنما حدث فى الدنيا كلها .. ونحن شأننا شأن غيرنا سرنا فى هذا التطور .. الدين موجود ركيزة .. لكن التجربة الإنسانية أضافت وبنت حوله الكثير» . (٢)

ويعبر هيكل لى عن اندهاشه من إثار قضية الأصالة والمعاصرة ويقول : «ليس هناك شىء اسمه أصالة ولا آخر اسمه المعاصرة .. أنا إنسان .. إذن أنا حى .. ومن ثم فالموروث فاعل والمكتسب أيضاً فاعل .. وكلاهما يتسق فى داخلى» . (٣)

ويؤمن هيكل كما قال لى بأن الدين فيه سياسة حتى فى غير المجتمعات الإسلامية .. ويدلل على ذلك بأن رئيس الدولة فى إنجلترا هو فى الوقت نفسه رأس الكنيسة .. لكن «إذا قلت أنك تريد أن تفصل الدين عن السياسة فيجب أن يتقبل المجتمع ذلك .. وفى هذه الحالة يكون الدين قضية متعلقة بالتاريخ ووعاء ثقافى .. أما إذا لم يتقبل المجتمع هذا الفصل فلا بد أن تدرك أن الدين سياسة .. وأنه فاعل سياسى بالدرجة الأولى» .

«المشكلة أنك لا تستطيع أن تكون إنتقائياً .. إذا أردت أن تسير فى طريق فعليك أن تقطعه حتى النهاية .. ولا تستطيع أن تقول إنك هنا علمانى .. وهنا إسلامى .. المجتمعات لا بد أن تتسق مع نفسها .. أنت اخترت .. أنا لا أناقش اختيارك .. ولكن أمض فى اختيارك حتى النهاية .. لا ترجع من منتصف الطريق .. ومن ثم لا يجوز تضييع الوقت فى بلادنا بأن الدين سياسة أم لا ؟ .. فهو سياسة .. وقد حدث ذلك باختيارنا .. وبكل موثيقنا التى عملناها .. فدستور ١٩٢٣ دمج فى مادة متأخرة اللغة العربية بالإسلام .. وهو النص الذى اعتمده جمال عبد الناصر فى دستور ١٩٥٦ .. لكن بعد صفقة السادات مع الإخوان المسلمين جاء دستور ١٩٧١ لينص فيه كأداة متقدمه منه على الشريعة الإسلامية» . (٤)

ولا ينسى هيكل أن الدولة المصرية فى كافة العهود كانت تمارس الدين فى السياسة .. فقد انحاز القصر الملكى فى عهد فاروق للإخوان المسلمين لمواجهة أغلبية الوفد .. ودعاوى الرجوع للقرارات الاشتراكية فى عهد عبد الناصر كانت بفتاوى شرعية .. وكذلك كانت

دعاوى الرجوع عنها فى عهد السادات .. وقد وجد النظام السياسى فى مرحلة ما من شيوخ الأزهر من يفتى بإعداد ما نستطيع من قوة لمحاربة إسرائيل .. ثم وجد النظام السياسى فى مرحلة أخرى من شيوخ الأزهر من يفتى بالجنوح إلى السلم.

ويعتبر هيكى أن حسن البنا - مؤسس جماعة الإخوان - هو رجل اقترب بالاجتهاد الدينى من الفعل العام «فى ظل ملابسات سياسية محلية وإقليمية لم يكن معزولاً عنها» . ويكشف لى هيكى أنه قابل حسن البنا فى مكتبه فى «أخبار اليوم» فى عام ١٩٤٦ .. كان فى مكتبه ينتظر عبد الرحمن عمار وكيل وزارة الداخلية كى يعطيه أحد منشورات جماعة الإخوان .. وقد عرض البنا على هيكى سكرتارية تحرير جريدة «الإخوان المسلمون» .. ولكن هيكى اعتذر .. وكانوا قد عهدوا بالجريدة إلى عبد الحليم الغمراوى المحرر بالأهرام .. و «السبب أو الآخر قال الغمراوى للبنا: إننا فى حاجة إلى شبان صحفيين للجريدة .. وكان يبدو وقتها أننى يمكن أن أكون صحفياً واعدأ .. فرشحونى .. وذهبت إلى البنا فى مقره العام فى حى الحلمية بعد أن أخذت موعداً بعد صلاة الجمعة .. ودخلت المسجد فى وقت كان البنا فيه يخطب خطبته الشهيرة التى وصف فيها الإخوان برهبان الليل وفرسان النهار .. وبعد أن أنهى البنا خطبته فتحنا موضوع الجريد... وأتذكر أننى سألته سؤالاً مهنياً عن قارئ الجريدة.. من يكون؟ .. وكيف نصل إليه؟ .. فقال : «إذا كنت تسأل عن التوزيع فلا تقلق من هذه الناحية» .. أنا كنت أتساءل عن محتوى الجريدة ونوعية قارئها .. وهو سؤال سهل وصعب فى نفس الوقت .. لكنه قال : إن مصر بها ٤ آلاف قرية .. كل قرية منها فيها مكتب دعوة يضم ١٢ فرداً .. ولو اشترى الجريدة هؤلاء فقط لكان التوزيع ٤٨ ألف نسخة قبل النزول إلى باعة الصحف .. كنت أتكلم عن صحيفة وكان وهو يتحدث عن نشرة .. لذلك قلت له إن هذا غير ممكن .. وأضفت : «إننى أخشى أن أقول إن فى دعاوى الدين والوطنية والدعاوى الكبرى لابد أن نفرق بينها وبين سلعة تباع وتشترى .. لأن القارئ عندما يدفع قرشاً فى صحيفة فهو يختار ما يرضى مزاجه .. فلا تقيده بما يتحدث عنه .. أبعد عنه موضوعات الدعوة والوطنية .. دعه يختار السلعة التى يعقد أنها أنفع له .. ولا تضيع وقتك معه .. وكان متوقفاً أن نختلف .. وهو ما حدث .. ثم بعد ذلك سافرت حتى لا يتكرر العرض» . (٥)

ولا يقبل هيكى بفكرة «الحكومة الإسلامية» . وإن لا يمانع فى وجود «حزب إسلامى يعمل فى العلن كحزب سياسى وفق شروط الأحزاب السياسية» .. ورغم حماسة للثورة الإسلامية فى إيران فقد قال للخومينى قبل أن يغادر منفاه فى باريس عائداً إلى طهران:

«إنك بالدين قد تستطيع بمدافع الدين أن تدمر النظام القديم .. لكن لكى تحقق النصر لابد أن يكون لك مشاتك .. المشاة التى تحتل مواقع عدوك .. وبدون ذلك لن تستطيع أن تبني الدولة .. ومشاة الدولة هم الكوادر السياسية والإدارية .. الفنيون والمهنيون والأخصائيون».

وفى السجن وجد هيكى فى زنزانته من التيار الدينى ممن شملتهم اعتقالات سبتمبر ١٩٨١ .. ومنهم شاب اسمه «أكمل» .. «لقيته قافل» .. على حد تعبير هيكى .. سأله عن دوره فى تعبد ربنا بالصلاة والعمل والاتصال مع المجتمع .. بدأ يقول «وما خلقت الأنس والجن إلا ليعبدون» .. قال له هيكى: «طيب يا رجل .. أنا باعتقد إن ربنا خلق الإنسان فى الأرض ليعمل مهمة أكبر من كده .. ليعمر الأرض .. ليطور الحياة .. لأن فى الإنسان جزءاً من نور الله .. لكنه لم يفهم .. ثم دخل المحامى الوفدى إبراهيم طلعت مناقشة سياسية معه .. لكنه تركهم ونام .. وحاول هيكى أن يشده إلى الحديث .. فكان أن قال: «هذه أمور الدنيا لا أناقشها» .. والغريب أنه كان طالباً فى كلية الهندسة.

كان لوالد هيكى من زوجته الأولى ٣ أولاد و٣ بنات .. وكانوا يعيشون فى بيتين متجاورين فى باسوس وكان أكبر أولاده أحمد ومجاهد يعملان مع الأب على عادة أسر الطبقة الوسطى التى تعمل فى الزراعة والتجارة .. الجيل الأول من الأبناء مع الأباء .. والجيل الثانى للعلم والدين .. والجيل الثالث لوظائف الحكومة .. وكان هيكى يمثل الجيل الثانى الذى فكر الأب فى أن يرسله إلى الأزهر .. وبالفعل دخل هيكى الأزهر عدة أيام .. لكن ذلك كان على غير رغبة الأم التى كانت ترى مستقبل ابنها بصورة مختلفة .. وكان يساندها فى تصورهما شقيقها سلام الذى كان قد قرر أن يتعلم أولاده تعليماً مدنياً لا دينياً.

لقد استفادت الأم وشقيقها من سفر الأب فى رحلة لمدة ١٥ يوم إلى السودان وأخرجوا هيكى من الدراسة الأزهرية .. وتقدما له بطلب التحاق بمدرسة «خليل أغا» وهى مدرسة كانت تابعة – هى ومدرسة التوفيقية الثانوية – للأوقاف الملكية .. كانت الأم تريد لأبنها أن يكون أفنديا وليس أزهرى .. وكان لما فعلته فى غياب الأب أثرا لا يمكن تخيله ولا تصوره .. لكن .. كان مستقبل هيكى أقوى عند الأم من أى عواقب متوقعة .. على أن الأب الذى كان يجد فى أحمد ومجاهد سنداً له فى عمله لم يشأ أن يقف فى مستقبل ابنه على النحو الذى كانت قرره الأم .. خاصة وأن الأب كان يعتبر هيكى اقرب لأمه منه.

ويتذكر هيكمل مشواراً صغيراً مع أمه لحل فى وسط القاهرة اسمه «بلاتشى» ..
«حيث اشترت لى بدلتين جديدتين مع المناسبة الجديدة وبعدها بأيام كنت أجلس فى سنة
أولى بالمدرسة» ليؤكد أن أمه قد عملت انقلاباً جذرياً فى حياته.

فى مدرسة خليل أغا عرف هيكمل رفيق دراسة التقيا واختلفا فيما بعد .. وعملا معا
لبعض الوقت فى مجلة روز اليوسف هو إحسان عبد القدوس .. ويقول هيكمل : «أقول
عرفته بمعنى رأيت .. فحين وقعت عيناي عليه لأول مرة كنت تلميذا فى السنة الأولى
وكان هو فى السنة الرابعة .. وكانت أعداد التلاميذ فى مدارس ذلك الزمان صغيرة ..
وكان طابور الصباح فى فناء المدرسة المربع ملتقى لتجمع كل الفصول .. وكان ترتيب
الوقوف فى طابور الصباح يضع تلاميذ الصف الداخلى إلى المدرسة حديثا بقرب الصف
الذى يوشك تركها .. فأحدهما بداية والآخر نهاية .. ومع اضلاع المربع المصطفة فإن طرفى
البداية والنهاية كانا على نقطة تماس .. وكان طابور الصباح يحتوى على مراسم طويلة :
أناشيد وتمارين وتفتيش على مكواة المرايل السوداء فوق ملابس المدرسة .. وعلى ترتيب
الكتب والكراريس فى الحقائق .. وعلى درجة لمعان الأحذية .. وعلى نظافة الأظافر ..
وبالطبع فإن هذا الطابور الذى اعتدنا امتداده إلى قرابة نصف ساعة كل يوم كان يتيح لكل
تلميذ أن يلف بالبصر على بقية الصفوف وأن يعرف من فيها أو يعرف عنهم» .. وهكذا ..
عرف إحسان عبد القدوس أو عرف عنه .. خاصة وأن إحسان عبد القدوس كان طالبا
معروفاً بسبب شهرة والدته ممثلة المسرح والصحفية فيما بعد السيدة فاطمة اليوسف
والده الفنان الذى كان يشتغل فى التمثيل حتى اعتزل.

لكن .. فيما بعد لم تكن العلاقة بين هيكمل وإحسان على ما يرام فى أغلب الأحيان ..
ولكن فيما بعد أيضاً أتبع لى أن أدخل مكتب إحسان عبد القدوس فى شقته على النيل فى
الزمالك وإن اقلب فى مكتبته .. وكان فى المكتبة بعض كتب مهداه من هيكمل إليه وإلى
زوجته السيدة «لولا» .. فى الطبعة الأولى من كتاب «ملفات السويس» كتب هيكمل : «عزيزى
إحسان .. ألا ترى أن بعض الحياة قصص وبعض القصص حياة .. مع كل الود .. هيكمل
- ١٩٨٦ .. وفى الطبعة الأولى من كتاب «سنوات الغليان» كتب هيكمل : «إلى صديق
الصبا والشباب وما بعدهما .. إحسان عبد القدوس .. مع كل الود والمحبة .. هيكمل -
١٩٨٨ .. وفى كتاب «أكتوبر السلاح والسياسة» كان الإهداء هذه المرة إلى الصديقة الكريمة
السيدة لولا عبد القدوس مع كل مودة وتقدير واحترام .. هيكمل - ١٩٩٣ ..

ويتذكر هيكمل من رفاق المدرسة حسن الإبراشى ابن زكى الإبراشى رئيس الخاصة
الملكية .. وجمال غزلان ابن مصطفى غزلان خطاط القصر وكاتب حروف التاج المصرى.

كان التعليم فى ذلك الوقت عملة نادرة.. فالغالبية العظمى من المصريين كانت هناك .. فى الريف .. حيث كان الفلاحون يجدون بالكاد قوت يومهم .. وفى القاهرة كان النظام السياسى الملكى قد ورث فى قراره نفسه الإيمان بأن قيادة الأمة الجاهلة أسهل .. كما أن هدف التعليم كما حدده اللورد كرومر كان لتخريج الموظفين لا المبدعين والمفكرين والمتأملين .. وإلى أن دخل هيكل المدرسة فى بداية الثلاثينات لم يكن الدكتور طه حسين قد أطلق شعاره: إن التعليم يجب أن يكون مثل الماء والهواء .. ومثل أى عملة نادرة كان الاهتمام بمستوى التعليم – المحدود الانتشار – كبيراً .. حتى أن الحصول على الشهادة الابتدائية كان يعتبر مؤهلاً للتوظيف فى دواوين الحكومة أو غيرها.

كان من الطبيعى فى ظل بلد تحتله بريطانيا أن تكون اللغة الإنجليزية إجبارية منذ اليوم الأول فى المدرسة الابتدائية .. لكن فى المقابل كان للغة العربية معلمين هم فى الحقيقة شعراء .. مثل مدرس الشعر على الجندى الذى كان معلم هيكل فى المدرسة .. وقد أغراه بأن يحفظ مئات الأبيات من الشعر .. كما أغراه تعلم القراءة أن يقرأ كل ما كان يسمعه من حكايات .. وهكذا تكونت الذاكرة الأدبية وقويت .. ولا جدال أن هيكل يتمتع بذاكرة قوية لم تضعف مع مرور السنين .. وهى ذاكرة تحتفظ بالأسماء والنصوص والأرقام.

لكن .. ما كان ملفتاً فى مناهج التعليم فى مدرسة خليل أغا الابتدائية فى ذلك الوقت تدريس الجنس على أسس علمية.

الهوامش

- (١) سناء البيسى : المصدر السابق.
- (٢) عادل حمودة : «العبء السلطنة فى مصر» - مصدر سابق - ص ٧٨.
- (٣) المصدر السابق: ص ٧٨.
- (٤) المصدر السابق: ص ٧١.
- (٥) المصدر السابق: ص ٧٤.

الثعبان العجوز تتحول عيناه إلى ياقوت أحمر

■ فى طفولة هيكىل شخصية بسيطة ومهمة أثرت فى خياله .. هو عم حامد .. كان حارس البيت .. وكثيراً ما كان يعود به من المدرسة إلى البيت حماية له من شرور الطريق .. كان عم حامد واحداً من الجنود المصريين الذى حاربوا مع الجيش المصرى فى «القرم» بأمر من الخديوى إسماعيل .. وكان معجباً بالشخصية البارزة فى التاريخ العسكرى المصرى محمود سامى البارودى الذى كان شاعراً شهيراً أيضاً حتى أنه وصف برب السيف والقلم .. وكان البارودى قد وصف الفرقة المصرية التى حاربت فى القرم بأبيات من الشعر كان عم حامد يحفظها ويردها على مسامع هيكىل الذى كان جاهزاً للالتقاط .. منها بيت شعر يقول:

«تركوا السلاح إلى الصباح ... وبقوا يتسامرون بالسفن النيران».

إن هذا الرجل الذى يقول هيكىل «أن له دين كبير عندى» أثار فى خياله أشياء كثيرة بما كان يرويه من ذكريات فى شبه جزيرة القرم .. ولعله هو الذى كان أول من حدثه عن الحرب بما فيها من صدام إرادات لجأت للقوة المسلحة بعد أن عجزت عن حل مشاكلها بالتفاهم .. وبما فيها من جوانب إنسانية خفية لا يلتفت إليها الذين يديرونها عادة.

لقد فجر عم حامد خيال هيكىل عن الحرب .. وأغلب الظن أن هذا الإنسان المصرى البسيط ساهم دون أن يقصد فى مستقبل هيكىل الصحفى فيما بعد .. عندما وجد هيكىل نفسه متحمساً وهو فى بداياته الصحفية لتغطية أخبار الحرب الدائرة فى الصحراء الغربية .. عن العلمين .. «شاهداً مصرياً على الحرب العظمى الثانية» .. وكما قال : فإنه أحس

بخيال الشاب وقتها «أن الظروف أتاحت لى أن المس بأطراف أصابعى مأساة الإنسان والإنسانية وعند الذرى العالية بهذا المأساة». (١)

ويستطرد : «إن الجريمة بدت لى وكأنها ذروة المأساة الإنسانية على مستوى الفرد .. فعندما يعجز شخص عن حل تناقضاته مع الآخرين بالعقل يلجأ للعنف .. وفى تجربتى الجديدة بدت الحرب وكأنها ذروة المأساة الإنسانية على مستوى الشعوب والأمم .. فعندما يعجز مجتمع عن إدارة صراعاته بالعقل مع مجتمعات أخرى غيره - يكون التجاؤه إلى القوة». (٢)

ويعترف هيكى بأن «تجربة العمل كمراسل حربى قد استهوتنى» .. ويستطرد: «وهكذا وجدتنى باحثاً عن المتاعب فى كل مكان أغطى الحوادث الساخنة فى الشرق الأوسط وحوله .. من الحرب الأهلية فى اليونان وقد شملت كل البلقان إلى حرب فلسطين من أولها إلى آخرها إلى سلسلة الانقلابات العسكرية فى سوريا إلى عمليات الاغتيال الكبرى فى المنطقة من اغتيال الملك عبد الله فى القدس إلى اغتيال رياض الصلح فى عمان إلى قتل حسنى الزعيم فى دمشق ثم إلى ثورة مصدق فى إيران ثم اتسعت المسافات فإذا أنا أغطى المشاكل الملتهبة فى قلب أفريقيا ثم حرب كوريا وحرب الهند الصينية الأولى». (٣)

وكان ما كتبه من رسائل عن هذه الحروب هى شهادة ميلاد مبكرة بالدم لصحفى موهوب وجد مكاناً مميزاً له فى بلاط صاحبة الجلالة بسرعة يحسد عليها.. وقد فعل ذلك فى وقت لم تكن فيه الصحافة المصرية - ما عدا أخبار اليوم - على استعداد للمجازفة بمثل هذه الفرصة لأحد محرريها .. وأتصور أن صورة عم حامد لم تفارقه فى كل مرة كان يعيش فيها تجربة الحرب بين الرجال والسلاح.

لقد دفعته الصور المبكرة للخطر التى صاغها فى مخيلته عم حامد للتجوال خمس سنوات فى بداية حياته الصحفية .. وهو ما أدى إلى حصوله على جائزة فاروق الأول للصحافة ثلاث مرات .. قرر بعدها أن لا يتقدم للجائزة ويتركها لغيره .. وعندما عاد إلى القاهرة ليستقر فيها اكتشف أنه لفت الأنظار بما كان يكتب .. لكن الأهم أنه كما يقول: «أصبحت على معرفة وثيقة بأحوال شعوب المنطقة ومعرفة شخصية بكل سياستها وحكامها وعلى صلة بجبلى من الصحفيين فى العالم الواسع فقد جمعتنا معاً ميادين القتال ومواقع الأحداث على طول المسافة الممتدة من شواطئ المحيط الهادئ إلى شواطئ الأطلنطى .. وأهم من ذلك كله أن أبواب السياسة المصرية تفتحت أمامى على مصراعيها .. وكان سياسة مصر وقتها قد تعودا على مجموعات من الصحفيين يقفون على أبواب دور الرئاسة

والوزارات يسألون الداخلين والخارجين عن الأخبار. وكان من حسن حظي أنني لم أقف على باب أحد ولم أسال أحد في شيء أثناء مروره في ردهة أو نزوله على سلم خروج. ولقد سبب لي ذلك حساسيات مع البعض. ومع الأسف لم أستطع إقناعهم أن الحياة مع الخطر هي التي فتحت لي الأبواب وأعفتني من الوقوف على الأعتاب». (٤)

ويتذكر هيكل على سبيل المثال: «أني حين عدت من فلسطين لأول مرة بعد أن كتبت سلسلة تحقيقات بعنوان «النار فوق الأرض المقدسة» تلقيت دعوة من رئيس الوزراء في ذلك الوقت محمود فهمي النقراشي (باشا) يطلبني إلى مكتبه ليسألني عما رأيت ويدقق في السؤال.. لم تكن مصر قد قررت دخول الحرب». (٥)

لم يذكر هيكل ما قاله له النقراشي باشا لكن لابيير دومنيك ولاري كولين وهما اللذان ألفا كتاب «أيتها القدس» يشرحان ما جرى.. في الكتاب الذي صدر في عام ١٩٧١ في باريس عن دار نشر روبرت لافونت إشارة واضحة لدور هيكل - الذي كان في بدايته الصحفية - في النقاش السياسي الفكري الذي دار حول الوضع في فلسطين في تلك الفترة ودلا بذلك «على واقعيته وبراجماتيته في الوصف والتحليل».. وفي صفحة ٣١٤ يقول المؤلفان: هذه المرة استطاع رئيس الوزراء محمود فهمي النقراشي «أن يمضي على طريق الحرب دون أفكار مسبقة. فقد أمر بأن تصدر قضية فلسطين الصفحات الأولى في جميع الصحف لتحريك الشعور وإيقاظ غريزة الحرب. ثم انتشرت على جميع الجدران ملصقات تمثل خنجرا يقطر دما على جندي يحمل نجمه داوود. لكن بعض الأصوات كانت تحاول منع رئيس الوزراء من هذا الأسلوب. خاصة محمد (حسنين) هيكل. فقد كان الصحفي الشاب عائداً لتوه من فلسطين. وكانت تقاريره تصف اليهود بموضوعية ودون استهانة. فطلبه النقراشي باشا وطلب منه أن يعدل من لهجة تقاريره التي تقوض معنويات الأمة».. لكن.. فيما بعد.. بعد الهزيمة العربية في حرب فلسطين لم يتذكر أحداً أن لهجة هيكل كانت اللهجة الوحيدة العاقلة.

وليس من الصعب بعد ذلك أن نعرف لماذا يقول هيكل أن لعم حامد دين كبير في رقبته.

على أن خيال عم حامد تجاوز حدود القتال والرصاص والشعر إلى ما هو أكثر خصوصية.. لقد كان مقتنعاً بأن الثعبان عندما يعمر ألف سنة.. ويموت فإن عينيه تتحولان إلى نوع نادر من الأحجار الكريمة.. ياقوت أو ماس أو شيء من هذا القبيل.. وكان أن أقنع هيكل وهما عائدان من المدرسة إلى البيت بأن يعرجا إلى جبل المقطم ليفتشا عن عيون الثعابين

الثمينة التى يمتد عمرها إلى ألف سنة .. ولم تكن المخاطرة فى أن يصادفا ثعابين عمرها شهور وسنين ولديها رغبة غريزية فى الإيذاء فقط وإنما فى أن هذه المغامرة كانت تفرض عليهما التأخر فى العودة إلى البيت بكل ما يؤدى إليه هذا التأخير من عقاب وأذية من نوع آخر.

فى فترة المراهقة وقع هيكى فى حب بنت الجيران .. كانت تسكن أمامهم .. وكانت مسيحية .. وعبر عن حبه لها بقصيدة قال فيها : «ماذا بقلبك يا حسناء من وجد يضطرب .. أحال الفحمة السوداء إلى حمراء تلتهب» .

وهناك من يروى أنه أرسل إليها خطاباً غرامياً عبر الخادمة ولكن من سوء الحظ أن الخطاب وقع فى يد أمها التى اشتكتته إلى أمه التى لم تتردد فى توبيخه وتأنيبه .. وربما كان العقاب أكبر من التوبيخ والتأنيب.

ولا نستطيع أن نجزم أن هذه الفتاة هى نفسها الفتاة التى كتب عنها صفحة كاملة فى روز اليوسف فى ١٦ يونيو ١٩٤٤ أم هى فتاة أخرى .. أم أن ما كتبه هو نوع من الخيال الأدبى أكثر منه ترجمة لتجربة عاطفية.

لكن على الأقل .. يكشف ما كتبه عن مشاعر حساسة سعى لإخفائها فى كتاباته فيما بعد .. عندما قرر أن حياته الخاصة ملكاً له وحده .. لا يطرق قلعتها غريب.

كتب هيكى:

«لن أنسى أبداً..

«لن أنسى أبداً بنت الجيران الأولى .. الفتاة التى خفق لها قلبى أول ما خفق .. لن أنساها أبداً .. فقد علمتنى أشياء وأشياء وفتحت عيني الطفلتين على أشياء وأشياء.

«لن أنسى يوم سمعتها تغنى لأول مرة فظلمت أتبعها إلى كل مكان تذهب إليه .. ولن أنسى أبداً أول مرة قبلتها فيها لأننى ظلمت اليوم كله أحس بدوران لذيذ كأننى احتسيت مائة زجاجة من الشمبانيا .. ولن أنسى أبداً كيف كنت أسهر الليالى أكتب لها الخطابات الغرامية الملتهبة بكل ما كان يحمله قلبى الطفل من سذاجة ماسة وحرارة.

«لن أنسى أبداً اللحظات الهائلة التى قضيتها إلى جوارها فى ركن فى فناء المنزل القديم العزيز أكل معها الشيكولاته التى كنت أشتريها بكل ما كنت آخذ من «مصرف» .

«ولن أنسى أبدا يوم هجرتنى إلى ابن الجيران الآخر لأنه كان يستطيع أن يشتري لها شيكولاته أكثر مما أستطيع أنا.

«وأخيراً لن أنسى يوم قابلتها بعد هذا كله بسنوات طويلة فإذا هى أصبحت زوجة وأما لطفلين.. ومن ساعتها قررت أن أنسى ولكنى لم استطع، وهما أنا أظل أذكرها ولن أنسى».

والحقيقة أن هيكمل قد نسى .. وفى حياته قبل الزواج قصص مجهولة يرفض البوح بأسرارها بل يرفض أن يقترب أحد منها.. والسبب أنه يعتقد أن التاريخ العاطفى للإنسان ملك صاحبه بمفرده .. كما أن هذا التاريخ يمس أطرافاً أخرى أصبحت فى مواقف اجتماعية مختلفة لا يجوز هزها .. وأكثر من ذلك تعتبر التفاصيل العاطفية ثغرات تنفذ منها سهام الخصوم إذا لم تكن هناك ثغرات أخرى.

وقد حاول البعض استخدام شائعات عاطفية لهيكل للموقعة بينه وبين جمال عبد الناصر الذى كان هو نفسه بطلاً لشائعات عاطفية ردها خصومه لم تكن لها ظلال من الحقيقة .. منها قصة نشرها مصطفى أمين وسمعتها نقلاً عنه من سعيد الطيب الذى كان مسئولاً عن شركة تهامة السعودية .. والقصة تقول أن عبد الناصر كان فى سيارته «الأوستن» السوداء وبجواره عبد اللطيف البغدادي وهما فى محطة بنزين عندما لمح عبد الناصر فى سيارة أخرى سيدة وقع فى هواها من أول نظرة .. واختفت السيارة والسيدة التى تركت قلب عبد الناصر جريحاً .. وبعد أن مرت سنوات أصبح فيها عبد الناصر على رأس السلطة فى مصر وضعته الظروف أمامها مرة أخرى فى حفل عام.. واكتشف ليلتها أنها متزوجة من ضابط معروف .. ولها منه ابن فى مرحلة المراهقة .. وشعر عبد الناصر أن حبال الود يمكن أن تمتد .. فتبادل الزيارات العائلية معها هى وأسرتها .. وقد استغلت هى مشاعر عبد الناصر فيما بعد فى أن لا يرسل أبنها - الذى تطوع لمواجهة عدوان ١٩٥٦ - لجبهة القتال .. وحسب الرواية فإن الابن بقى فى أحد معسكرات التدريب فى القاهرة وقتل برصاصة خرجت من بندقيته وهو يقوم بنظافتها .. وفيما بعد .. اتضح أن هذه القصة الخيالية تروجها سيدة قريبة من عبد اللطيف البغدادي .. ووصلت الخرافة إلى مصطفى أمين الذى حاول قدر استطاعته أن يحولها إلى حقيقة .. لكنه فشل.

ويبدو أن الفشل فى استخدام الحياة الخاصة للإيقاع بهيكل نقل محاولات الإيقاع به إلى المستوى الوطنى والسياسى .. لقد فاجأ زكريا محى الدين هيكمل فى حضور عبد

الناصر والدكتور محمود فوزى (الذى تولى وزارة الخارجية فى أيام عبد الناصر وتولى رئاسة الحكومة فى أيام السادات) بسؤال كان يتضمن تهمة الخيانة.. «الم تقابل بن جوريون يا أستاذ هيكل؟ .. أليست هذه خيانة وطنية؟».

ورد هيكل بسرعه المعهودة:

«الذى عرفنى عليه هو الدكتور محمود فوزى وزير الخارجية حينما كان قنصلا لمصر فى القدس وهو جالس معنا الآن».. وقد كان ذلك فى وقت مبكر قبل إعلان دولة إسرائيل .. فى زيارة أولى قام بها هيكل لفلسطين.

ولم يكن هيكل هو الصحفى المصرى الوحيد الذى قابل بن جوريون - أول رئيس وزراء لإسرائيل فيما بعد - فى ذلك الوقت .. بل قابله أيضاً إحسان عبد القدوس فى أول رحلة قام بها إلى القدس فى عام ١٩٤٥ .. وجرى اللقاء - تحت شعار معرفة كيف يفكر العدو - فى مبنى الوكالة اليهودية فى القدس .. وأجرى إحسان عبد القدوس معه حواراً هو وموشى شرتوك أو موشى شاريت كما عُرف فيما بعد وكان وزيراً للخارجية ورئيساً للحكومة أيضاً - ونشر إحسان عبد القدوس ما حصل عليه من أحاديث فى روز اليوسف فور عودته للقاهرة.

الهوامش

(١) هيكل : «بين الصحافة والسياسة» - مصدر سابق ص ٢٧.

(٢) المصدر السابق : ص ٤١.

(٣) المصدر السابق : ص ٤١.

(٤) المصدر السابق : ص ٤٢.

(٥) المصدر السابق : ص ٤١.

البحث عن معجزة لإنقاذ مستقبله

■ في نهاية الثلاثينات تعرضت أسرة هيكل لصدمة مالية هزتها كثيراً .. لقد ضارب الأب على القطن الذي راح يجمع بالاته متصوراً أنه سيحقق من وراءه أرباحاً كما جرى عليه الحال في سنوات الحرب العالمية الأولى .. وكان جملة المبالغ التي ضارب بها الأب على القطن حوالي ٢٦ ألف جنيه .. لكن الحرب العالمية الثانية جاءت بكارثة خيبت كل التوقعات. وفي الوقت نفسه تعرض الأب لصدمة نفسية أخرى أشد .. لقد راح ابنه الكبير أحمد من زوجته الأولى ينفق كثيراً من الأموال فيما لا ينفع .. ولم يكن الذي ضاع هو المال فقط وإنما الابن نفسه الذي أصيب بمرض خطير انتقل بالعدوى لشقيقه .. ولم تمر فترة طويلة حتى فقدهما الأب وسط أحزان لم تستطع أن تعوضهما.

وبضياع الجيل الأول من الأبناء الذي كان يعمل مع الأب أصبح الدور على الجيل الثاني من الأبناء ليعمل مع الأب .. وهكذا .. أصبح هيكل مرشحاً لأن يعمل مع الأب .. ولا مفر من ذلك .. أو كان في حاجة لمعجزة حتى لا يترك عالمه ويصبح جزءاً من عالم الأب ... خاصة وأنه تخرج في مدرسة التجارة المتوسطة وأصبح مؤهلاً للعمل مع الأب.

لقد دخل هيكل مدرسة التجارة المتوسطة في عام ١٩٣٥ وتخرج فيها ومصر تعيش أجواء الحرب العالمية الثانية التي اندلعت لهيبها في أول سبتمبر ١٩٣٩ بهجوم هتلر على بولندا .. وفي ذلك الوقت استولت وزارة التموين على مطاحن الغلال .. وخضع القطن لقواعد صارمة محكومة في الشراء والبيع .. وضعتها لجنة رأسها هارولد ويلسون الذي أصبح فيما بعد رئيساً للوزراء منتخِباً عن حزب العمال البريطاني.

إن هذه القواعد منعت تصدير القطن المصرى للدول المعادية للحلفاء بل والدول المحايدة أيضاً بحجة «عدم المساس بالضغط الاقتصادى أو الحصار التجارى على ألمانيا» .. وتكدست بالآلات القطن فى المخازن والموانىء دون أن تتدخل بريطانيا لتعويض مصر عن انهيار أسعاره إلى ما دون العشرين ريالاً بكثير وكسدت سوقه وخسر التجار الذين جمعوه على أمل أن ترفع الحرب أسعاره كما حدث من قبل .. بل كما حدث فى الدول التى كانت على الحياد مثل أمريكا وتركيا وإيطاليا فى بادية الحرب حينما راحت هذه الدول تضاعف من صادراتها للدول التى لم تعد مصر تصدر إليها القطن .. وما جرى للقطن جرى للمحاصيل المصرية الأخرى مثل العدس والأرز والذرة ... وكان والد هيكى من الذى دفعوا الثمن غالياً بسبب ما جرى للقطن .. ثم بسبب ما جرى للمطاحن.

لم يكن هيكى وحده فى مدرسة التجارة المتوسطة والتى كانت تقع فى حي الظاهر .. كان معه صديقه مصطفى البكرى .. وابن خاله عبد العزيز .. وفيما بعد أكمل مصطفى البكرى - الذى كان الأول عليهم - دراسته فى المعهد البريطانى ثم سافر بعد الحرب فى بعثة إلى سويسرا وظل خارج البلاد يعمل معظم سنوات حياته العملية فى مجال السياحة والفنادق .. أما عبد العزيز فقد تحول هو وأخوته إلى نوع جديد من التجارة غير التى ورثوها عن أبيهم .. فقد أسسوا شركة شاهر سنترىك لبيع الأجهزة الكهربائية وشجعوا الناس على الشراء بنظام التقسيط .. وفيما بعد أصبح عبد العزيز رئيس مجلس إدارة بنك قناة السويس .. ثم أصبح مالكا هو وأخوته مصانع أوليمبيك .. وكان من زملاء الدراسة أيضاً فتحى إبراهيم الذى كان رئيس مجلس إدارة شركة برودنش للحاويات والمسئول عن شركة «كوبر فيلم» التى كانت متخصصة فى الإنتاج السينمائى المصرى - الأجنبى المشترك.

ويقول لى مصطفى البكرى: إننا كنا ننتهى للطبقة الوسطى التى تؤمن بضرورة التعليم وتؤمن بحتمية الانفتاح على العالم ولو بحذر .. ويبدو أن نجاح عبد المنعم وعبد الله شقيقا عبد العزيز فى مدرسة التجارة هو ما شجع أسرتنا على أن ندخلها .. كما أن الأصول التجارية التى كانت تتمتع بها عائلاتنا دعمت ذلك القرار.

وفى ذلك الوقت كذلك تركت أسرة هيكى حى الحسين وانتقلت إلى شارع فاروق (شارع الجيش فيما بعد) .. وكان من الشوارع الرئيسية .. الموصلة ما بين الأحياء الجديدة فى العباسية وباب الشعرية والأحياء الشهيرة مثل الموسكى والعتبة .. انتقلت إلى شقة كبيرة فى الدور الرابع من العمارة رقم ١٧٤ .. ولا تزال أبنته خاله السيدة «كرم» تتذكر

مدى انبهارها بمسكن عمتها الجديد الذى كان «على وش الدنيا» كما عبرت .. والذى كان فيه اختراعاً جديداً هو «الأسانسير» وهو لم يكن اختراعاً شائعاً.. وتتذكر أن هيكى كان له حجرة مستقلة لها باب خاص يفتح على السلم .. وتتذكر أنهم كانوا يشاهدون «المحمل» - وهو الاحتفال بكسوة الكعبة المصنوعة فى مصر والمسافرة للحجاز - من شرفات بيت عمتها .. وتتذكر أن عبد الناصر جاء لهيكل فى هذه الشقة للتعزية فى وفاة والده .. «وفى ذلك اليوم راحت شقيقتى زينب تربت على كتف عبد الناصر وتدعو له بالنصر والحماية» .. وقد كانت زينب هى الأقرب لهيكل فى فترات الصغر .. فهى الوحيدة التى كانت تصغى لسماع محاولات هيكى الأولى فى الكتابة.. وفيما بعد تزوجت زينب من رجل قانون مهوم بالحياة العامة هو المستشار سعيد الجمل .. لكن الموت الذى كان لها بالمرصاد خطفها فى وقت غير مناسب لأسرتها.

من بين أساتذة هيكى فى مدرسة التجارة كان الدكتور زكى شافعى أستاذ مادة النقود والبنوك وعميد كلية الاقتصاد وأستاذى فيما بعد .. والدكتور زهير جرانة أستاذ القانون المعروف .. والسيد أبو النجا خبير إدارة المؤسسات الصحفية .. ولكن .. هؤلاء لم يكن ليكفوا لأن يقتنع هيكى بأن مستقبله يمكن أن يبدأ من شهادة التجارة المتوسطة التى بدت فرصها بالنسبة له مغلقة فى الحياة العملية .. لقد كانت تصورات هيكى لنفسه أكبر من موظف فى بنك أو شركة أو مصلحة حكومية بهذه الشهادة.

وضاعف من هذه التصورات أنه فى كتابة محاولاته الأدبية الأولى .. وكان يتصور نفسه أديباً متأثراً بما قرأ لكبار الأدباء وبما سمع منهم فى بيت خاله .. وعلى رأسهم العقاد وطه حسين ومحمد حسين هيكى .. لكنه كان يشعر أن رغبته فى التعبير عن الحياة السياسية أكبر .. ولعل مناخ تلك الفترة هو ما شجعه على ذلك .. وربما لتأثره بالوفد مثله مثل الغالبية العظمى من المصريين .. وربما لحماسه لهتلر والألمان مثل كثيرين من السياسيين المصريين الذين اعتقدوا أن دخول روميل إلى القاهرة سيخلص البلاد من الاحتلال البريطانى .. ولكنهم لم يدركوا أنه لو تحقق ذلك فإنه سيذهب بالإنجليز ويأتى بالألمان.

ويروى لى هيكى أنه شاهد مصطفى النحاس الزعيم الوفدى الكبير مرتين فى وقت كان وعيه السياسى فيه يتفتح .. مرة وهو يصلى صلاة الجمعة فى مسجد الحسين .. وكان خاله هو ورئيس لجنة الوفد فى الحسين عبد الحميد بك البنان هما المشرفان على الزيارة .. وبعد الزيارة دخل النحاس مطعم الحلوى لتناول الغذاء .. ومرة أخير فى

مظاهرة قامت بها مدرسة «فؤاد الأول» وخرجت معها مدرسة التجارة المتوسطة وسارت المظاهرة حتى محطة السكك الحديدية .. حيث كان النحاس مسافراً لإلغاء الامتيازات الأجنبية فى عام ١٩٣٧ .. وكان يلوح لمودعيه بمنديل أبيض .. ويتذكر هيكى أنه تلقى «شومة» فى هذه اللحظة .. لكنه لا يعرف من الذى ضربه بها .. ولا ما هو السبب؟.

لقد تضافرت عناصر جديدة جعلت هيكى يشعر أن شهادة التجارة المتوسطة لا تكفى لتحقيق مستقبله الذى يشعر به ولا يعرفه بوضوح .. وعيه السياسى فى فترة غليان وتحول .. رغبته فى الكتابة الأدبية وحلمه أن يكون كاتباً أو صحفياً فى وقت كان التداخل بين الأدب والصحافة سمة أساسية فى الصحافة .. ولم يكن فيه العمل الصحفى قد تبلور وظهر بالصورة التى عليها الآن .. وإن كانت ثمة بدايات مبشرة .. مثل الحملة التى شنّها عبد القادر حمزة ضد عثمان محرم وزير الإسكان فى عام ١٩٣٦ .

إن هذه العناصر جعلت هيكى يحاول جاهداً أن يطور شهادة التجارة المتوسطة التى حصل عليها والتى بدت وكأنها نهاية طريق لا بداية طريق .. لعل وعسى تتفتح أمامه أبواب لا تزال مغلقة .. خاصة بعد أن ثبت أن شهادة التجارة المتوسطة لا تصلح لدخول كلية التجارة .. وشجعه على تجاوز أزمته مستر «براون» أستاذه فى المدرسة .. واقترح عليه أن يدخل القسم الأوروبى فى الجامعة الأمريكية .. وكان يؤهل لدخول الجامعة .. والدراسة فيه إنقاذ وفرصة جديدة للمستقبل وإن ظلت غائمة .. وكان مبنى هذا القسم فى صدارة مبنى الجامعة فى ميدان التحرير .. وكانت مدة الدراسة فيه سنة ونصف السنة تنتهى ببكالوريا التجارة.

وفى الوقت نفسه راح هيكى يدرس اللغة الفرنسية فى القسم الحرفى مدرسة «الليسيه» .. ولم يجد ما يمنع من دراسة اللغة الألمانية أيضاً .. لعلها تفيد وسط الحماس الوطنى الذى أبداه البعض لهتلر .. ولكن لم يكن المعهد الذى حاول فيه تعلم اللغة الألمانية على نفس المستوى.

وفيما بعد .. تعرض تقرير سرى - أرسلته وزارة الداخلية إلى إدارة المطبوعات بشأن التحريات المطلوبة عن محمد حسنين هيكى بعد أن تقدم بطلب الانضمام إلى نقابة الصحفيين - للشهادة الدراسية التى حصل عليها .. والرقم الكودى للتقرير السرى هو و-٥٣ (٥٦) سرى بتاريخ ١٦ مارس ١٩٤٨ وفيه:

«محافظة مصر

«بوليس مدينة القاهرة

«حضرة صاحب العزة مدير إدارة المطبوعات

«بناء على كتاب إدارة المطبوعات رقم ٢٤٦٨ - سرى مطبوعات بتاريخ ٢٤ ديسمبر ١٩٤٧ بشأن التحرى عن محمد حسنين هيكل أفندى المحرر بجريدة أخبار اليوم والراغب فى قيد اسمه فى جدول نقابة الصحفيين.

«أتشرف بأن أبلغ عزتكم بأن الطالب بلغ من العمر ٢٥ سنة. مصرى الجنسية. ورعية الحكومة المحلية. ومقيم بشارع فاروق رقم ١٧٤ بدائرة باب الشعرية. ويشغل محرراً بدار أخبار اليوم وهو حائز على دبلوم التجارة المتوسطة ودبلوم فى القانون والإعلان من أحد المعاهد الأجنبية بالمراسلة. ودرس سنتين بقسم الدراسات الاقتصادية بمدارس الليسيه الفرنسية. وقد زاول مهنة التحرير بدار أخبار اليوم منذ ثلاث سنوات تقريبا والصحافة مهنته التى يتعيش منها ولا يزاول عملاً آخر علانياً. وهو حسن السير والسلوك . وليس له لون سياسى.

«وتفضلوا بقبول فائق الاحترام ،

حكمدار مصر

توقيع

١٩٤٨/٣/١٦

على أنه حتى أصبح هيكل صحفياً لم يكن والده يفهم ما يفعل أو يستوعب غيابه طوال اليوم وضياح مصروفه فيما لا يعرف الأب .. وكذلك ضياح وقته وهو فى سن خطرة .. ولا جدال أنه قد ضغط على جهاز الأب العصبى ما جرى لولديه أحمد ومجاهد .. فكان أن عاد الأب ليحاصره مطالباً أن يعمل معه .. وقال الأب: أن كل ما هو متاح أمامك من فرص لن يمنحك أكثر من ١٢ جنيهاً فى الشهر .. تعال لتعمل معى وتراقب مالك وسأعطيك هذا المبلغ.

لكن المشكلة لم تكن مشكلة وظيفة أو مبلغ من المال .. المشكلة كانت مشكلة مستقبل غائم يريد صاحبه أن يخترق السحب والضباب ليعرفه .. مستقبل يجد فيه نفسه .. ويحقق من خلاله ذاته .. ويعبر به عن ما يضرب فى عقله من طموح وجنوح .. على أنه فوجيء بالأم هذه المرة تقف إلى صف الأب .. وتتحمس لأن يعمل مع والده فى الشونة

التي يملكها فى بنها .. وربما تصورت الأم ان ابنها الدارس لأصول التجارة الحديثة سيطور
تجارة أبيه وينميها ويوسعها .. ربما أرادته قريبا لوجود أشقاء من زوجة أخرى .. ربما
أشفقت عليه من الحيرة التي كان فيها.

ونزولا على ضغط الأم سافر هيكل إلى بنها للعمل فى شونة الأب لكنه لم يحتمل
العمل فيها يوما واحدا واستقل قطار الساعة السادسة إلا ثلث وعاد إلى القاهرة .. وهو ما
أثار غضب الأب .. فكان الحل الوحيد أو الحل المؤقت أمام هيكل هو أنه ترك البيت وراح
ليقيم عند شقيقته خديجة التي كانت قد تزوجت.

وهكذا .. لم تعد المشكلة فقط البحث عن مستقبل وإنما أضيف إليها أيضا مشكلة
أخرى هى البحث عن السكنية وسط أجواء عاصفة سادت بسببه عائلته.
وكان لابد من معجزة.. تلقى له بطوق نجاة فى هذه الظروف الحرجة.

الفصل الثانى

ولادة صحفية فى ثكنة عسكرية

البداية فى عالم يفور ويغلى

■ كان هيكل يحلم بمكان فى السماء .. ليناطح السحاب .. ويواجه الشمس .. ويمد يده ليلتقط خيوط الضوء المنبعثة من النجوم .. أو ليشرب من حليبها الصافى اللامع .. وربما لهذا السبب كانت أولى أمنياته أن يكون طيارا .. لكنه تنازل عن هذه الأمنية .. كما تنازل عن أمنية أن يكون نجما فى ملاعب الكرة .. وراح يتصور نفسه طبيبا مشهوراً .. وقد قال فيما بعد: أنه يجد نفسه فى أبنة الأكبر «على» الذى عمل طبيبا وأستاذا مساعدا فى كلية «قصر العينى» .. لكن طريق الطب يبتعد كثيراً عن طريق مدرسة التجارة المتوسطة التى تخرج فيها .. بل أن طريق مدرسة التجارة المتوسطة بدا له منتهيا بجدار سميك .. مسدود .. لا يوصله لحلم واحد من أحلامه العريضة.

وقد حاول هيكل تجاوز هذا الجدار والقفز فوقه ليصل إلى عامل آخر تصور نفسه فيه .. ومن ثم لم يتردد فى الاستفادة من أول فرصة وافته لذلك .. وقد جاءت هذه الفرصة فى القسم الأوربى فى الجامعة الأمريكية الذى كان يدرس فيه .. فقد كان متاحا لطلاب الدراسات الحرة حضور محاضرات «سكوت وطسون» وكان صحفيا فى «الإجيبشيان جازيت» .. أكبر الصحف الأجنبية فى مصر .. فى تلك الفترة .. فى بداية الأربعينات .. بالتحديد فى عام ١٩٤٢ .. وكانت مصر تعيش سنوات الحرب العالمية الثانية .. وكانت «الإجيبشيان جازيت» تصدر عن شركة «الإعلانات الشرقية» التى تمتلكها عائلة «أزوالد فينى» .. وكانت توزع حوالى ٢٥٠ ألف نسخة .. وكانت جزءاً من شبكة إعلام الحرب التى يسيطر عليها البريطانيون .. مثلها مثل محطة إذاعة «الشرق الأدنى».

كان هيكل من بين الجالسين أمام سكوت وطسون يستمع لمحاضرة عن «عناصر الخبر» عندما وجده يتطرق من موضوع المحاضرة إلى ذكرياته فى تغطية الحرب الأهلية الأسبانية .. تلك الحرب التى انقسمت أوروبا بعدها بين الفاشية والديمقراطية .. وعبر عنها بيكاسو فى لوحته الشهيرة «الجرينكا» .. ورصدها فيما بعد رفيق الرئيس شارل ديغول وأديب فرنسا ووزير ثقافتها اللامع «أندريا مالرو» فى رواية «الأمل» .. وأغلب الظن أن سكوت وطسون كان أميل للفكر اليسارى .. لكن ما جذب هيكل إليه قدرته على عرض معالم هذه الحرب وتضاريسها «بما يشبه الملحمة» .. وهو ما جعل هيكل يعرف من أول لحظة أن الأسلوب المميز للصحفى لا يقل أهمية عن المعلومات والخبرات التى يحصل عليها .. وهو ما يجعله قبل ذلك «يستمع إليه فى انبهار وخشوع» .. وحين ختم سكوت وطسون محاضرتهم وجه دعوة لمن يريد أن يتدرب عمليا على الصحافة أن يلقاه فى مكتبه فى «الإجيبشيان جازيت» .. وفى اليوم التالى .. وقبل أن يصل هو إلى مكتبه كان أربعة ممن استمعوا يلبون الدعوة .. وينتظرونه .. هم محمد حسنين هيكل .. وميخائيل فلتس .. وإكرام عبد المجيد .. ويوسف صباغ. (١)

إن هذه الفرصة التى سارع هيكل بالتقاطها لم تنقذه فقط من حيرته الشخصية والعملية وإنما وضعت على أول الطريق ليحدد مصيره .. ولم تكن الفرصة هينة .. فصحيفة الإيجيبشيان جازيت — التى كان رئيس تحريرها هارولد إيرل وهو فى الوقت نفسه مراسل المانشستر جارديان البريطانية فى مصر — كانت «ورشة» للخبرة الصحفية فى وقت الحرب .. فيها ألمع الكتاب والصحفيين .. وكانت محطة لكل المراسلين الذين جاءوا لتغطية أخبار الحرب .. كان يكتب افتتاحيتها بجانب عمود ساخر فيها الأديب لورانس دوريل مؤلف «رباعيات الإسكندرية» .. وقد جاء هاربا هو وزوجته نانسى وطفلتهم بينيلوب من وطنهم الأسمى .. مدينة كلاماتا فى جنوبى اليونان فى إبريل ١٩٤١ بعد أن دخلت أحذية الألمان الثقيلة أثينا. (٢)

وكان يعمل فى الصحيفة مصححاً للغة الكاتب جورج أوريل مؤلف الرواية الشهيرة «مزرعة الحيوانات» التى حاکمت النظام الشيوعى .. والكسندر كليفورد مراسل الديلى ميل .. أما أول مراسلة صحفية جاءت لتغطية أخبار الحرب فى شمال أفريقيا ومرت على محطة الإيجيبشيان جازيت فهى إيف كورى ابنة العالمين الفرنسيين بيير ومارى كورى (مكتشفة اليورانيوم والحاصلة على جائزة نوبل) وقد وصلت القاهرة فى نوفمبر ١٩٤١ . إن هذه الأسماء التى لمعت فيما بعد فى الأدب والصحافة على مستوى الدنيا كلها كانت خلفية المسرح الصحفى الأول الذى وجد هيكل نفسه على خشبته وكان عمره

حوالى ١٩ سنة .. وإن لم يكن يعرف أهميتهم بعد .. ولم يكن صعبا فى جو الحرب السائد أن تفتح كل الطرق السريعة أمام الأجيال الشابة فهذه هى طبيعة الحروب .. يصنعها الشباب وتصنعهم .. فى انتظار السلام الذى يوقعه الكبار .. دون أن يوقفوا التغير الذى يحدث إجباريا بعد الحرب .. بل لم يكن صعبا فى جو الحرب السائد أن يعيش هكيل فى مسرح أكبر كانت الأحداث والتغيرات بل والخرافات فيه متلاحقة .. مسرح الحياة فى مصر فى تلك الفترة الانقلابية من التاريخ الحديث.

لقد وصف هيكمل مصر فى تلك الفترة بأنها «كانت فى حالة فوران» .. حالة فوران «ترتفع أحيانا إلى درجة الغليان .. ثم يهدأ البخار .. وتعود الفقائيع إلى الظهور على سطح الحياة تنبئ بأشياء تجرى عند القاع وتتفاعل» .. «أفكار وتيارات وقوى ومصالح تحتك ببعضها وتصطدم أحيانا .. وتحدث من أثر ذلك شحنات تتراوح حركتها وطاقتها وتتفاوت بمقدار ما تتأثر بما يجرى على السطح من أفعال وردود أفعال» (٣)

«كان جو القاهرة فى تلك الأيام معجزة من معجزات التاريخ لا تتكرر بسهولة .. كان البحر الأبيض هو بؤرة الحرب .. وأصبحت القاهرة بشكل ما عاصمة الحرب وعاصمة العالم .. كانت كل عواصم الشمال الكبرى فى أوروبا (لندن وباريس وروما وغيرها) مكشوفة لحريق القنابل أو مكبوتة بظلام الاحتلال .. والقاهرة وحدها فى مركز فريد .. قريبة من مركز الحرب بدرجة كافية .. وبعيدة فى نفس الوقت عنه بالدرجة كافية .. وأصبحت ملتقى النخب من كل نوع: قادة الحرب فى السياسة وفى ميادين القتال يعيدون بقرارتهم كتابة المقادير .. صحفيون ومراسلون رفعتهم الكلمة إلى مصاف النجوم .. كتاب ومفكرون وفنانون ولاجئون وثوار من كل جنس ومذهب واتجاه يحلمون بعالم جديد بعد الحرب ويظنون أنهم يرونه فى لحظة الخلق الأولى هناك عند الينابيع المقدسة التى طهرتها النار».

ولم يكن هيكمل يعيش فى هذا الجو فقط .. ولكن .. كما يقول: «كنت أكله واشربه وأصحو به وأنام .. وكان النوم عزيزا فى تلك الأيام .. فقد كنت أشعر شعورا غامرا أن المقادير أتاحت لى أن أكون وسط لحظة تاريخية لا تعوض .. لم تكن نستطيع أن نذهب إلى العالم .. وهذا هو العالم يجئ إلينا بحروفه وكلماته .. بكتبه وأناشيده .. بأفكاره وأحلامه وأوهامه أيضا» . (٤)

ويقول هيكمل: «إن الحرب غيرت كل موازين القوى العالمية والإقليمية المحيطة بمصر .. ونقلت الشرق الأوسط من حضن إمبراطوريتين لحقت بهما الشيخوخة (هما بريطانيا

وفرنسا) .. ووضعت في قلب الاستراتيجيات العالمية حيث دخلت إلى حلبه الصراع إمبراطوريتان في عنفوان القوة بالموارد والعقائد (هما الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي) .. وكانت الحرب أيضا قد جعلت مصر ساحة من أهم ساحات القتال .. وعلى أرضها دارت واحدة من أشهر معارك وهي معركة العلمين .. وتدفقت على الأرض المصرية جيوش كان دخولها كلهيب هبوب العواصف .. ودارت مواقع مشهورة ارتجت تحتها كل كأنما أصابها الزلزال .. وسالت دماء كثيرة كأنهار من النار فيها كتل من الحديد».

ويستطرد: «ولم تكن الجيوش الزاحفة والمعارك الدائرة وأنهار الدم السائل مجرد حركة وأصوات وألوان .. وإنما كانت جميعا رموزاً لصراع عالمي هائل ومهيب لا يكتفى بتسوية حسابات مرحلة من مراحل التاريخ مضت وإنما يفتح الباب لمرحلة من التاريخ تجيء .. مزدحمة على الآخر بمجموعات قيم جديدة ومبادئ واتجاهات ومواقف ومطالب كانت هي في الواقع دافع الحرب ووقودها».

كان عدد سكان القاهرة لا يزيد عن النصف مليون .. أضف إليهم ١٤٠ ألف جندي أجنبي جاءوا من أربعة أنحاء الإمبراطورية البريطانية. (٥)

كان مقر قيادة الجيش البريطاني وقت الحرب في فندق سميراميس ثم توسع المقر ليشمل عمارة بنيت حديثا هي عمارة «جرأي بيرلارز» في حي جاردن سيتي بالقرب من شارع قصر العيني .. وفي شقة من هذه العمارة لحن محمد عبد الوهاب إحدى قصائد أحمد شوقي لتصبح الأغنية الرسمية لجيوش الحلفاء الموجودة في مصر .. كانت الأغنية تقول: «أعلى الممالك ما كرسية الماء .. وما سياساته بالحق شماء .. يا جيرة المانش حلاكم قوتكم .. ما لم يطوق به الأباء والأبناء».

وكانت حياة النخبة في القاهرة - سواء على المستوى الاجتماعي أو التجاري أو السياسي - تعيش في دائرة لا يزيد قطرها عن ميل مربع .. ومركزها ميدان إسماعيل باشا أو التحرير فيما بعد .. وعلى محورها أو في داخلها المركز التجاري للمدينة والبرلمان وقصر عابدين والبنوك ودور السينما والسفارة البريطانية والفنادق وبيوت الأثرياء وكانوا خليطا من جاليات وعائلات مختلفة من المسلمين والأقباط واليهود والمسيحيين الشوام فضلا عن الوافدين من حوض البحر المتوسط .. ورغم الاحتلال الإنجليزي فإن اللغة الأرستقراطية كانت اللغة الفرنسية.

وربما لإهمية اللغات الأجنبية على النحو سارع هيكل مبكراً في تعلمها .. بل أكثر من ذلك سعى مبكراً للقراءة بهذه اللغات كي تزيد معرفته وثقافته ومصادر الصحفية .. وفيما بعد .. في عام ١٩٤٤ كتب إبراهيم الورداني - وكان رفيق أيام أولى لهيكل في

الصحافة - أنه .. أى هيكل .. «كثيراً ما أرهقنى بوقفة الساعات أمام فاترينة الأنجلو والهاشيت (اشهر مكاتب وقتها) يقلب فى المجلات والصحف الإفرنجية وأنفاسه تلهث لو يقدر فيشتريها .. أو لو يسافر وينضم لبلادها» .. إن هيكل قد اكتشف مبكراً أهمية هذا المصدر المتميز من مصادر المعرفة الصحفية .. وهو ما جعله مختلفاً عن رفاقه الذين يصف أحدهم الوقوف أمام المكتبات الإفرنجية بأنه إرهاق .. وحتى اليوم مازال هيكل يحرص على قراءة الصحف العالمية يومياً .. وربما كان الأسرع فى الحصول على أهم الكتب التى تصدر فى لندن وواشنطن ودلهى .. وفى كل مكان يعيش فيه تجد مكتبة تضم صفوفاً من هذه الكتب التى أثرت ولاشك فى طريقته فى كتابة مقالاته وكتبه.

وفى هذا الجو المشحون بالمفاجآت والتحويلات ظهرت المدرسة الهتلرية فى الإعلام .. وهى المدرسة التى برع فيها وزير الدعاية النازية جوزيف جوبلز .. ومهما كان الرأى الآن فى سقوط هذه المدرسة - التى تعتمد على الحشد والتعبئة - فإنه لا يمكن إنكار أنها كانت مدرسة مؤثرة فى وقت ظهورها .. بل ومتفوقة على المدرسة الغربية التقليدية التى كانت تكتفى بنشر ما هو ما تسمح به الرقابة العسكرية .. وتحجب ما دون ذلك.

لقد انتشرت الإذاعة الألمانية الناطقة بالعربية فى عام ١٩٣٦ بينما لم تبدأ الإذاعة البريطانية الناطقة بالعربية إلا فى عام ١٩٣٨ .. ونجحت الإذاعة الألمانية فى الوصول لقطاعات عريضة من المصريين لأنها كانت تبث إرسالها على ترددات من السهل على أى جهاز راديو عادى التقاطها .. ولأنها كانت تبث قدراً كبيراً من الموسيقى والغناء .. ولأنها اعتمدت على مذيعين بارعين .. كان أشهرهم المذيع العراقى يونس بحرى .. ولأنها كانت تحرض المصريين على مقاومة المحتل البريطانى وتتهمه بالعدوانية والاغتصاب .. وتؤكد أن دول المحور هى دول صديقة للعرب .. وسوف تساعدهم على التخلص من الاستعمار البريطانى والفرنسى .. أما الإذاعة البريطانية فكانت تهتم بجمهور أعلى ثقافة كما كانت برامجها تبث فترة قصيرة .. وبالمقارنة مع «راديو برلين» كانت منمقة وأرستقراطية .. بل أنها كانت تقدم برامج ثقيلة الظل من عينة «مرض السل بين قطعان البقر البريطانى» .. ويقول كاتب بريطانى عاش تلك الأيام فى القاهرة .. هو جون كونيل فى كتابه «المنزل الواقع عند بوابة هيرد» : «لقد استخدمت بريطانيا فكرة القومية العربية للإطاحة بالإمبراطورية العثمانية .. وها هى دول المحور تستخدم القومية العربية أيضاً للإطاحة ببريطانيا». (٦)

ولعبت مدرسة جوبلز دورها ببراعة فى إقناع المصريين بأن البريطانيين مسئولون عن ارتفاع تكاليف المعيشة .. وفى الوقت نفسه فإن جيوبهم (شأنهم شأن كل الأجانب) مليئة بالأموال .. ولكن «كل شئ سيتغير عندما يأتى الألمان» .. لقد كان الألمان كخبراء

دعاية «يتمتعون بخيال أخصب بكثير من نظرائهم الإنجليز» .. لدرجة أنهم أشاعوا أن هتلر مسلم .. وأنه يتوق لتحرير مصر من الإنجليز «الكفار» .. ومن ثم أسماه المصريون «الحاج محمد هتلر» .. وقد تحول الاسم الجديد في النطق إلى «محمد هيدر» .. ثم أصبح «محمد حيدر» .. وأغلب الظن أن هيكل في تلك الفترة كان كثيرا ما يضبط نفسه معجبا بهتلر .. على الأقل لأنه كان فرصة الخلاص الوحيدة من الاستعمار البريطاني .. وإن كان سيفتح الباب أمام استعمار من نوع أشد هو الاستعمار الألماني .. ولم يكن هيكل وحده المعجب بهتلر وإنما كانت أيضا الغالبية العظمى من الطلاب في القاهرة الذين لم يأتوا من طبقة الباشوات .. الصفوة الموسرة التي كانت تختلط اجتماعيا مع البريطانيين .. لقد شعر هؤلاء الطلبة أن مصر ما كان لها أن تحقق المجد والاستقلال يوما ما إلا إذا «توافرت لها حكومة وطنية قوية مستمدة جذورها الراسخة من تقاليد الإسلام» .. لكن .. من ناحية أخرى كان هتلر يترجم رسالة عميقة المغزى من الأمل لهؤلاء الشباب المتحمسين .. فهي رقيب سابق في جيش مهزوم تحدى بقية أوروبا بأسرها ليرفع بلاده وجيشها إلى ذروة المجد من جديد» .. ومن ثم كان الشعار السائد في مصر «إلى الأمام يا روميل» .. لكنه كان في النهاية شعار شعب مسحوق في انتظار المخلص الذي لن يتردد في أن يسحقه من جديد.

لقد وصف البريطانيون إمبراطوريتهم العظمى في ذلك الوقت بأنها «مرغت في أحوال قرى الدلتا وكأنها عربة قديمة متهاكة» .. وقررت المخابرات البريطانية أن تتصدى لحرب الدعاية الألمانية باستخدام أساليب مماثلة لها بداها خبير في هذا المجال هو لورانس جرافتي سميث .. فقام بتشكيل هيئة من ٣٥٠ شخصية مصرية في شتى مناحي الحياة ليعملوا على نشر الشائعات والنكات والتوقعات والمقولات المؤيدة للحلفاء .. وكانت الشبكة تضم عدداً من قارئى الطوابع والمجانيب الذين يجلسون إلى جوار المساجد يوزعون الحكمة والبركة وكانت أقوالهم تحمل وزناً وسط فقراء المدينة وكانوا يتقاضون مبالغ زهيدة ولكن بوسعهم نشر نبوءات تبشر بقرب انتصار الحلفاء.

وانتشر أفراد الشبكة في فندق شبرد - الذى بنى في عام ١٨٤١ وكان يلى الأهرام في الشهرة السياحية - خاصة في البار الطويل الذى كان يديره «جو» السويسرى .. وهو واحد من أكثر سكان القاهرة إحاطة بما يجرى من أمور .. ولأن البار كان محرماً على النساء فقد أنطلق رواده الرجال على سجيتهم بشكل غير لائق يقولون كل شئ في الحب وفي الحرب.

وانتشر أفراد الشبكة في «جروبي» الذى كان واحداً من أطف الأماكن القليلة المتاحة لكل برغم أن أسعاره لم تكن زهيدة .. وكان معظم زبائنه في تلك الفترة من الضباط

الذين كان من السهل عليهم التقاط نساء ينتمين لطبقات وسطى وربما أعلى قليلاً. وكذلك انتشر أفراد الشبكة البريطانية فى دور السينما التى كان الناس تلجأ إليها هروباً من الضوء الصارخ نهاراً والحر الخانق ليلاً .. وشملت الأفلام الممكن رؤيتها فى تلك الفترة عناوين مثل «ذهب مع الريح» .. «ثورة على السفينة بونتي» .. «الديكتاتور العظيم» الذى سخر فيه شارلى شابلن من هتلر.

لقد كانت الدنيا تتعارك وتتصارع وتتغير بينما هيكى يخطو خطواته الأولى فى الصحافة .. وكان المخاض العام والمخاض الخاص على وشك أن يلتقيا بحثاً عن مستقبل جديد لمصر .. والمستقبل الجديد فى حاجة لوجوه جديدة.

الهوامش

- (١) هيكى: بين الصحافة والسياسة «مرجع سبق الإشارة إليه - ص ٢٤.
- (٢) أرتيمس كوبر: «القاهرة فى الحرب العالمية الثانية - ١٩٣٩ - ١٩٤٥» ترجمة محمد الخولى الناشر دار الموقف العربى ١٩٩٦ - ص ١٩٣.
- (٣) هيكى: المرجع السابق ص ٢٥ و ٢٦.
- (٤) هيكى: المرجع السابق ص ٢٧.
- (٥) أرتيمس كوبر: المرجع السابق ص ١٤٣.
- (٦) المرجع السابق: ص ١٢٦.

المهمة الأولى فى حى مشبوه

■ بدأ هيكل عمله فى الإجيبشيان جازيت «مساعد مخبر صحفى» فى ٨ فبراير ١٩٤٢ بعد أربعة أيام فقط من حادث ٤ فبراير ١٩٤٢ الذى كان يوم أربعاء يتسم بالسواد والعار .. فقد هدد السفير البريطانى سير مايلز لامبسون الملك فاروق بإقالته لو لم يأت بحكومة جديدة للوفد يرأسها مصطفى النحاس باشا .. وحاصرت الدبابات قصر عابدين ومعها ٦٠٠ جندي بكامل اسلحتهم .. ولم يكن أمام الملك فاروق سوى القبول ..

فى هذه الظروف السياسية غير العادية بدأ هيكل حياته الصحفية .. وإن كان دوره فى تلك الأيام هو العمل فى قسم المحليات الذى كان يرأسه مصرى .. ممتلى .. أسمر .. صعيدى من أسيوط .. يمت بصلة قرابة لكرم عبيد .. هو فليب حنين .. وهو على حد وصف هيكل لى «شخصية جذابة» .. وفيما بعد أصبح أبنة فؤاد سكرتيراً لهيكل فى أخبار اليوم .. وفيما بعد أيضاً .. فى ٨ فبراير ١٩٦٢ حضر فليب حنين احتفال الأهرام بمناسبة مرور ٢٠ عاماً على اشتغال هيكل فى الإجيبشيان جازيت .. لقد أصبح التلميذ أستاذاً .. وأصبح الأستاذ ضيفاً مكرماً ومجهولاً معاً.

فى قسم المحليات اختار هيكل تغطية أخبار الحوادث .. إن الجريمة كما يكرر دائماً هى ذروة المأساة الإنسانية .. والخوض فى تفاصيلها يمنح مخزوناً من التجارب والتفاسير لسلوك البشر لا تمنحه أقوى الروايات الإبداعية مهما كانت واقعية .. كما أن تغطية أخبار الجريمة هى البداية التقليدية لمعظم الصحفيين .. وقد فرضت هذه التغطية على هيكل أن يتردد بانتظام على مبنى «المحافظة» وهو الذى كان شائعاً فى ذلك الوقت لمقر قيادة بوليس القاهرة .. والاقتراب من حكمدارها .. الرجل القوي توماس رسل باشا الذى ذاعت شهرته بعد أن سحق تجارة المخدرات فى مصر فما بعد .. فى عام ١٩٤٦ .. وكان آخر موظف

بريطانى يعمل فى السلك المدنى المصرى .. وكان طويل القامة .. ممشوقا .. مهذباً .. صارماً .. لا يتردد فى الاستمتاع بمباهج الحياة .. وكان واحداً من أربعة عشاق عرفتهم وكتبت عنهم «مريام فوجت» زوجة المستشار النرويجى فى القاهرة فى كتابها «قصة حب» .. ويقال أن «دورسيا» زوجة رسل باشا عندما اكتشفت خيانتة لم تكن لتسمح له بمغادرة البيت وهو يحمل من المال أكثر من عشرين قرشاً فى جيبه .. إلا أن «هناك من زعم أن الزوجة ربما شعرت بالارتياح إذا اكتشفت أن حيوية ما مازالت تسرى فى أوصال الثعلب العجوز» . (١)

لم يكن من الصعب الحصول على أخبار الجرائم أول بأول مشكلة صعبة على هيكل ورفاقه .. وكان من الممكن أن تستمر المهام الصحفية سهلة على هذا المنوال التقليدى .. لكن كانت هناك مفاجأة من النوع الثقيل تنتظرهم .. لقد ألغى وزير الشئون الاجتماعية فى حكومة الوفد عبد الحميد حقى البغاء الرسمى فى مصر .. جاء قرار الإلغاء باتفاق بين الوفد والإنجليز فرضته ظروف الحرب وإصابة الجنود المقاتلين بالأمراض السرية بسبب ترددهم على بيوت البغاء .. وأثار القرار غضب الجنود المقاتلين فى صفوف الحلفاء .. وكان رأيهم أنهم ماداموا سيموتون فلا معنى للخوف من الأمراض السرية .. وكان هناك طرف ثالث لم يعرف أحد رأيه هو العاهرات أنفسهن .. وهو ما فكر فيه رئيس تحرير الإيجيبشيان جازيت هارولد إيرل الذى طلب استفتاء بين العاهرات بواسطة استمارات طبع منها ٥٠٠ نسخة .. كان على هيكل أن يملأ ١٠٠ استمارة منها وجها لوجه مع العاهرات فى أحياء البغاء .. وكان الشرط الأصعب هو أن يحصل على صورة لكل عاهرة توضع على الاستمارة الخاصة بها حتى تتأكد إدارة التحرير من صدق البيانات الموجودة فى الاستمارة.

والمؤكد أن المهمة كانت صعبة ومحرجة لهيكل ورفاقه الثلاثة .. خاصة إذا ما عرفنا من مذكرات إبراهيم الوردانى أن هيكل القادم من «الحسين» و «باب الشعرية» كان خجولاً فى تلك الأيام «يتضرج وجهه إحمرا كلما طلبته فتاة للرقص» .. فكيف سيذهب إلى عاهرة محترفة ويسألها عن رأيها فى قرار إلغاء عملها الرسمى؟ .. لكن طموح هيكل - الذى وصفه الوردانى بأنه حارق للوصول لقمة الصحافة - لم يكن يثنيه عن ترك هذه الفرصة تفلت من يده.

لقد كانت الأمراض السرية مشكلة قيادة جيوش الحلفاء فى مصر .. وقد حاولوا علاجها بإلقاء المحاضرات على الجنود «حول الوقاية من هذه الأمراض وكانوا حريصين على أن يؤكدوا على أن الدافع الجنسى طبيعياً تماماً .. لكنهم كانوا يضيفون أن بالإمكان الإستعلاء على الغريزة بممارسة الألعاب الرياضية والالتزامات العسكرية وقراءة الأعمال الأدبية .. ولم تفلح مثل هذه الإرشادات التى كان يصفها الجنود الذاهبون للموت بالसानجة .. وكان أن فتحت ٧ مراكز فى مستشفيات القاهرة لمعالجة الأمراض السرية .. كان يتردد على الواحد منها حوالى ألف حالة أسبوعياً .. وبذلت محاولات أخرى لفرض قواعد منظمة على بعض المواخير .. فقد كان يجلس فى معظم المواخير مندوب السرية الطبية يسلم كل زبون واقياً ذكرياً وعلبه مرهم وكراصة إرشادات .. لكن ذلك لم يحل سوى جزء يسير من الكارثة .. فالجنود الجائعين للجنس يأتون من الصحراء ليحولوا أقدم حرفة فى التاريخ إلى صناعة خدمية مزدهرة . (٢) وفى النهاية لم يكن هناك مفر من إغلاق أحياء الدعارة بقوة القانون.

لم يكن هيكى يعرف أين تقع أحياء البغاء فى القاهرة .. فراح يسأل موظفا يعمل مع أبيه .. هو محمود أفندى النبوى .. وفوجئ هيكى بنظرة من الرجل يوجهها إليه وتتسم بالمكر والخبث .. لقد تصور أنه مثل الشباب فى عمره يبحث عن مثل هذه الأماكن .. ورغم أنه قد دله عليها إلا أنه راح ووشى به عند أبيه الذى انتقل إليه سوء الظن وسوء الفهم من محمود أفندى النبوى ولا بد أنه خشى أن تتكرر مأساة ابنه الأكبر مجاهد.

كان أبرز أحياء البغاء فى «كلوت بك» الواقع شمالى الأزبكية مباشرة .. ومن سخرية القدر أن الاسم كان تخليداً للرجل الذى أدخل مفاهيم الصحة الحديثة فى مصر أيام محمد على باشا الذى منحه درجة البكوية وهو انطوان بارتلىنى كلوت .. من سخرية القدر أن اسم هذا الرجل لا يذكر إلا فى أشد أحياء العاصمة وضاعة .. ويحمل الشارع الذى يوازيه اسم «وش البركة» وكان منافساً له فى هذا النوع من المهن.

· ويروى شهود العيان: «إن المومسات كن يجلسن بمراوحن على مئات من البلكونات الصغيرة التى تطل على ذلك الشارع الضيق الطويل وهن ينادين على الرجال السائرين بينما كانت تقوم على الأرض أكشاك صغيرة كل منها تغطيه ستارة واحدة .. عليها لافتات تقول «نحن نتكلم لغة الاسبرانتو» .. اللغة العالمية .. وكانت الأكشاك تفضى إلى أذقة تتشعب فى البركة وتحوى معارض لاختلاص النظر وكباريهات للمناظر الفاضحة

وكان أشهرها فى كبارية «دارلينج ستريت» يقدم عملية جماع فاحشة بين امرأة بدينة وحمار». (٢)

ويروى نفس الشاهد: «أن البركة كان يحددها علامات بيضاء مستديرة فى وسطها حرف X بالخط الأسود العريض بما يشير إلى أنها منطقة ممنوعة على الأفراد من جميع الرتب .. وزياراتها تعنى المخاطرة بمواجهة الشرطة العسكرية .. ولكن لا هذه اللافتات ولا خطر الإصابة بمرض سرى كانت تبدو رادعاً كافياً ومن ثم ازدهرت البركة حتى خريف ١٩٤٢ عندما قتل أستراليان مما دفع السلطات إلى إغلاق المنطقة بأكملها .. وطردت البغايا منها .. ولكنهن تغلبن على هذه المشكلة بممارسة الجنس فى المقاعد الخلفية فى عربات الحنطور». (٤)

«أما فى الإسكندرية فقد كان حى الملاحى الحمراء وكان يقع فى الجزء القديم من المدينة قرب الميناء فى حارة متعرجة اسمها حارة «سستر» وكانت عبارة عن نسخة من وش البركة فى القاهرة لكن بصورة أشد قذارة وأكثر تعاسة .. وعلى نقيض صارخ لنظافة وكفاءة شهر ماخور فى الإسكندرية حيث يقال أن الفتيات كن يتعاملن كل ليلة مع ٣٥ رجلا .. وفى إحدى المناسبات سقطت قنبلة لتقسم الملهى قسمين تاركة سخادع الزنا دون مساس بينما دمرت البار البرئ نسبيا من الخطيئة».

كان على هيك أن يدخل هذا العالم الفاجر ويسأل «المومسات» ويدخل معهن فى حوار يسجله على استمارات ويطلب من كل منهن صورة يضعها على الاستمارة .. إنها مهمة صحفية حرجة وصعبة بكل المقاييس وفى كل الأزمان .. خاصة لشاب لا يزيد عمره عن ١٩ سنة.

ويروى هيك : أنه راح لوش البركة ولم يستطع أن يفتح فمه بكلمة واحدة وعاد بخفى حنين لفليب حنين .. ولم يكن هو الوحيد الذى أصابه الفشل .. فقد أعلن رفاق التجربة الصحفية الأولى أنه «لا أمل». (٥)

فى اليوم التالى قرر هيك تكرار المحاولة .. وتجراً واقترب من «واحدة منهن» .. فتصورت أنه زبون .. فلم يتمالك هيك الموقف .. فهرب.

وفى اليوم الثالث كانت المحاولة الثالثة .. اقترب من «واحدة منهن» وقال لها بأدب شديد: «ياهانم ..» وقبل أن يكمل سبته .. فقد تصورت أنه يسخر منها بكلمة «هانم» وعندما أضاف: إنه صحفى .. سبت الصحافة .. هكذا لوجه الله .. فلم يكن أمامه سوى أن يجلس على مقهى فى الحى ويطلب زجاجة مياه غازية ماركة «سباتس» ليبلغ ريقه ..

ويجفف عرقه .. ووضع الاستثمارات التى يحملها على المائدة التى أمامه .. وراح يسجل ملاحظاته عن المكان رغم أن ذلك ليس هو المطلوب منه .. ولحثة «المعلمة» التى تدير المقهى .. كانت امرأة مفرطة فى البدانة وتقوم بعمل سرى آخر هو إدارة شبكة دعارة من الفتيات .. وقد طلبت من «الجرسون» أن يذهب إلى ذلك «الأفندى» الذى بدأ وكأنه موظفا حكوميا فى مهمة رسمية .. ولم يكن ذلك غريبا فقد كان الحى يتعرض لموظفين رسميين يأتون لمراجعة الرخص التى تحملها العاهرات .. أو لحاسبتهن ضرائبياً .. أو للتأكد من إجراء الكشف الطبى الدورى .. طلب منه الجرسون أن يتحدث معها فذهبت إليها .. وعرفت منه أصل الحكاية .. فنادت ابنها الذى طلب منه بطاقة تحقيق شخصية تثبت أنه صحفى فى الإيجيبشيان جازيت .. لكن هيكل الذى كان «تحت التمرين» لم يكن يحمل مثل هذه البطاقة .. لكنه طلب من «عباس» أن يتصل بالجريدة تليفونيا ويتأكد نفسه .. وكان الرقم ٤٩٠٠٠ .. وهو ما حدث بالفعل .. فكان أن أمرت المعلمة أن يأخذه عباس إلى فتاة اسمها «إحسان» .. وساعدته «إحسان» فى أن تملأ الفتيات الاستثمارات وقدمن له صورهن الفوتوغرافية .. ونجحت المهمة .. وكان هيكل الوحيد الذى عاد إلى الصحيفة ومعه ٧٠ استمارة مكتملة.

وقد روى هيكل بقلمه هذه القصة بعد أن انتقل إلى مجلة «آخر ساعة» ولكن دون أن يفصح عن اسمه .. وفى صفحة (٢٠ - ٢١) من عدد المجلة رقم ٥٤٦ نجد موضوعا صحفيا بعنوان «مواقف حرجة فى حياة محررى آخر ساعة الغراء» .. يروى فيه بعض محررى المجلة بعض ما تعرضوا له من مواقف حرجة لكن دون ذكر أسمائهم .. على أننا نعرف أن هيكل هو بطل هذه القصة التى رواها كالاتى:

«كنت أقضى فترة التمرين فى «الإيجيبشيان جازيت» وذات يوم جاءنى سكرتير تحرير الجريدة وقال لى أن الحكومة تفكر فى إلغاء البغاء الرسمى وأن الجرائد كلها تكتب فى هذا الموضوع دون أن تحاول واحدة منها أن تأخذ رأى أصحاب الشأن الأول وهم البغايا أنفسهن .. وطلب منى يومها أن أقوم بسؤال مائة بغى عن رأيهن فى الموضوع قائلا أنه سيكون دليلا على مقدرتى الصحفية إذا تمكنت من استفتاء مائة بغى .. وكانت مهمة شاقة .. ولكن المسألة كانت مسألة امتحان.

«وذهبت إلى ذلك الحى .. الحى الذى تستطيع أن تشتري فيه كل شئ .. ودخلت أول بيت وأنا أفكر فى الصيغة التى ألقى بها السؤال ولكن يبدو أننى لم أوافق فى اختيار الصيغة لأننى خرجت من البيت الأول مشيعاً بسباب وصل إلى أجدادى حتى عهد الملك مينا .. وحاولت .. وحاولت .. ولكن على غير فائدة .. وأخيراً أدركت عقم المحاولة وبدأت أفكر بهدوء وأحسست أن ثقتى قد بدأت تفارقنى .. والتفت فإذا مقهى قريب منى فذهب إليه لاستريح ولأفكر .. وفى أثناء جلوسى لاحظت وجودى سيدة متقدمة فى السن كان جميع من فى المقهى ينادونها «بالمعلمة» باحترام قل أن يكون له مثيل .. ووثبت فى ذهنى فكرة فتقدمت من السيدة وشرحت لها كل مهمتى وأثبتت لها أن مستقبلى كله يتوقف على معاونتها لى وفكرت السيدة قليلاً ثم قالت لى:

«أقعد» .. وقعدت .. فنادت بعض النساء وعقد الجميع مؤتمراً لبحث المسألة وجلست أنتظر النتيجة .. وفجأة صاحت إحداهن: نادوا عباس .. ومرت فترة ثم حضر شاب سمع المسألة ثم تقدم منى قائلاً: معاك «كرنيه» .. ولم يكن معى كرنيه ولا خلافة .. ولم يقتنع عباس ولكن المعلمة اقتنعت قائلة: ده باين عليه ابن ناس .. وهزرت رأسى مؤكداً أننى ابن ناس جداً .. فبدأت ترسل فى طلب النساء من المنازل المجاورة حتى أتاحت لى الفرصة أن أسال مائة امرأة وأنا جالس فى مكانى اشرب القهوة على حساب المعلمة».

وبنجاح هذه المهمة تدعم وجود هيكل فى الصحفية .. وكلفوه بمهمة أخرى .. كانت هذه المرة لمتابعة قرار إلغاء «الحنطور» فى الشوارع الرئيسية بالقاهرة .. ولمدة أسبوع كان هيكل يرافق «العربية» فى عملهم .. ويتحدث إليهم .. ويبدو أن مثل هذه المهام جعلت رفاقة يشعرون باليأس تدريجياً فلم يكمل المشوار معه سوى يوسف صباغ الذى زامله فيما بعد فى مجلة «آخر ساعة» .. ثم أصبح مساعداً لمدير تحرير «الاهرام» .. أما الآخرون فقد عمل أحدهم فى الأمم المتحدة .. وعمل الثانى فى شركة «شل».

ويقول لى هيكل: أنه كان يذهب إلى «المحافظة» ويطلع على «دفتر الأحوال» .. وكان هذا العمل يفرض عليه التعامل مع مدير المباحث الإنجليزى الميجور «سانسون» الذى كان مسئولاً عن الجرائم المشتركة بين المصريين والبريطانيين .. وكان يطارد أنور السادات فى قضية الراقصة «حكمت فهمى» وشبكة التجسس لحساب الألمان الذين كان السادات معجباً بهم فخلق شعره على طريقتهم وأمسك بعضاً مثلهم ووضع «المونوكل» الذى

اشتهروا به .. أما مدير المباحث المسئول عن جرائم المصريين فكان عبد الرحمن بك فهمى .. وقد أعطى هيكى خبر هجوم على معسكر إنجليزى فى المريج قُتل فيه واحداً من المهاجمين وجندىا بريطانيا واستولى المهاجمون من المعسكر على بعض الأسلحة .. وقد نشر هيكى الخبر فغضب الميجور سانسون واستدعاه رسمياً للتحقيق معه .. وأصيب كل من فى الصحيفة بالذعر .. فقد كان مشهوراً عن سانسون غلظته .. وكانت المرة الأولى التى يعرف فيها هيكى أن الصحافة ليست مشياً على الحرير دائماً .. وإنما هى مشياً على الأشواك أحياناً .. بل غالباً ..

وفى تلك الفترة تعلم هيكى الدرس الأول فى حياته الصحفية وهو أن المبالغة فى تصوير الأخبار قد تؤدى إلى التهلكة .. لقد روى هيكى فى صفحة (٢٠) من العدد رقم (٥٥١) من مجلة آخر ساعة (فى موضوع مشترك بعنوان الخبر الأول) أنه كان يمضى فترة التمرين فى إحدى الصحف الأجنبية الكبرى .. وأنه كان مندوب الجريدة فى دوائر البوليس .. وذات يوم علمت أن هناك مشاجرة تدور فى مكان ما من القاهرة .. وأسرعت إلى مكان الحادث الذى يتلخص فى أن جندي بوليس ضبط لصاً ولما حاول أن يقبض عليه أسرع اللص وجرى فأطلق الجندي عليه رصاصة أرهبتة فسلم نفسه وهذا كل شئ ..

«هذا كل شئ بالنسبة للقصة نفسها .. ولكن هل هناك ما يحتم أن يكون هذا هو كل شئ بالنسبة لى .. أعلمت الفكر أو قل الخيال .. فإذا هذه الحادثة البسيطة تتحول إلى معركة عنيفة بين اللصوص وبين البوليس .. تطلق فيها مئات الطلقات ويقع أثناءها عشرات الضحايا .. تماماً كما يحدث فى شيكاغو..

«وظهرت الحادثة بهذا الشكل فى الجريدة .. وفى اليوم التالى ذهبت إلى مكتبى أتلقي أكاليل الغار فإذا بى أجد جندياً ينتظرنى .. جندياً أوفد من المحافظة خصيصاً ليصحب الكاتب الفاضل إلى المحافظة .. وهناك تلقانى وكيل الحكمدار ووجه إلى تهمة كانت أبعد ما تكون عن خاطرى .. تهمة الخيانة العظمى .. أما الأسباب فهى أننى أنشر صوراً بعيداً عن الحقائق تسئ إلى سمعة الأمن وتشكك فى استقرار قواعد الطمأنينة وتعطى العالم الخارجى كله صوراً مشوهة عن مصر.. وحاولت أن أثبت أننى أول من يحرص على سمعة الأمن وعلى سمعة الطمأنينة وعلى سمعة الوطن ولكن بلا فائدة..

«وأحلت إلى ضابط اتصال إنجليزى اسمه الكابتن مورلى ليحقق معى .. وبدأت ساعات طويلة من التحقيق .. وبين كل سؤال ووسط كل إجابة يضرب الكابتن مورلى بيده المائدة

ويقول بالعربية المكسرة: لازمتمو خمسة سنين خبس .. ولم يخرجنى من هذا المازق إلا وعد ضمنى فيه ولى أمرى أن أطلق الصحافة طلاقا بائنا .. فلم أعد إليها إلا بمحلل.

وبنجاح هيكل فى عمله الصحفى اصبح يتقاضى ١٢ جنيها وهو ما اتاح له الاستقلال بحياته .. والسكن فى «بنسيون» مدام «سيمون» مقابل ٦ جنيهات يدفعها شهريا للإقامة والإفطار وتلميع الأحذية .. وكانت مدام سيمون تعمل فى خدمة سيدة ثرية أرسنقراطية هى «قوت القلوب الدمرداشية» التى تبرعت وأوقفت الكثير من ممتلكاتها لكلية الطب جامعة عين شمس الآن .. وكانت قد تبرعت لخادمتها بشقة ٦ حجرات وصالة فى شارع «عماد الدين» حولتها إلى بنسيون .. كان أول مكان مستقل ويستقر فيه هيكل .. أما أول شقة أجراها فى حياته فكانت فى إحدى عمارات «الأوقاف» فى شارع «سليمان باشا» أو شارع «طلعت حرب» فيما بعد .. ثم انتقل إلى حى الزمالك بعد أن تزوج .. وأخيرا استقر على النيل إلى جوار فندق «شيراتون» القاهرة.

الهوامش

- (١) أرتيميس كوبر: مرجع سبق الإشارة إليه - ص ٢٧.
- (٢) المرجع السابق: ص ١٤٦-١٤٧.
- (٣) المرجع السابق: ص ١٤٧.
- (٤) المرجع السابق: ص ١٤٨.
- (٥) حوار جرى بينى وبين هيكل فى قرية الرواد بالساحل الشمالى فى ٣٠ أغسطس ١٩٩٩.

الخوف هو الطرف الوحيد الذى لا املكه

■ فى أغسطس ١٩٤٢ دعا هارولد إيرل هيكل ورفاقه الثلاثة إلى مكتبه وقال لهم: «إن حرباً تجرى على أرض مصر ومع ذلك فإن أحداً لم يصفها بعين مصرية ولم يكتبها بقلم مصرى».. ثم سأل: «هل منهم من هو مستعد للمخاطرة فى تجربة جديدة وعلى مسئوليته وحده».. وتحمس هيكل للتجربة .. وتحمس معه ميخائيل فلتس .. ولكن عائلة ميخائيل فلتس لم توافق على سفر أبنها ولم توقع على إقرار تحمل المسئولية الذى طلبته الصحيفة .. ونجح هيكل فى الحصول عليه بعد أن أقنع خاله - الذى كان متفهماً - بالتوقيع.

وهكذا .. وجد هيكل نفسه بعد شهر واحد فى ميدان الحرب فى العلمين شاهداً على الحرب العظمى الثانية .. يراها ويعيشها بعيون مصرية .. وانتقل من متابعة الجريمة .. ذروة المأساة الفردية .. إلى متابعة الحرب .. ذروة المأساة الجماعية.

ولا يمكن الاستهانة بجرأة هيكل على اتخاذ هذا القرار .. فكل الأحداث المتلاحقة كانت تؤكد أن الهلاك سيكون من نصيبه .. كما أن كل الظروف كانت تشير إلى أن الألمان قادمون .. وإن إيقافهم مهمة مستحيلة لا يقدر عليها سوى الله وحده.

لقد وصلت مدرعات روميل إلى العلمين .. وبعث راديو ألمانيا برسالة لنساء الإسكندرية تقول: «جهزن فساتين السهرة.. نحن فى الطريق».. ساعتها لم تكن فى المدينة «خياطة» واحدة بلا عمل .. لقد أصبحن «مشغولات لشوشتهن» من أجل «تشطيب» فساتين النساء التى سوف تزين «حفل النصر الراقص» (١) وراح أصحاب المحلات يتأكدون سرا من أن بحوزتهم صوراً لهتلر وروميل جاهزة لوضعها فى إطار بينما انشغلت زوجاتهم فى

تجهيز الأعلام والرايات ذات اللون الأحمر والأبيض والأسود.. بل «أن هناك من الأسر كانت قد أجرت غرفا للضباط الذين كانوا وقتها بالجبهة بدأت تحرق الملابس العسكرية البريطانية التي كانت مودعة عندها .. كأنما تحرق دليل إدانتها». (٢)

وفى نهاية يونيو ١٩٤٢ وصل التهديد للإسكندرية إلى ذروته .. فقرر الإنجليز تقسيم السفن الراسية فى الميناء بين بورسعيد وحيفا وببيروت .. وزادت نشرات أخبار الإذاعة البريطانية الطين بلة .. فقد ذكرت أن «نجاح الألمان إنما يرجع إلى التفوق الكبير فى تكتيكاتهم وأسلحتهم» .. وبدأ العسكريون والدبلوماسيون فى الإسكندرية فى حرق ملفاتهم .. وشرعت أسرهم فى حزم أمتعتهم والأنضمام للجموع التى ازدحمت فى محطة القطارات وبدأ أن المدينة على وشك أن تكون مهجورة.

وفى القاهرة وصف يوم أول يوليو بأنه «أربعاء الرماد» (٣) ففى هذا اليوم بدأت السفارة البريطانية وقيادة الجيش البريطانى فى مصر فى إحراق كميات ضخمة من الملفات .. وأصبح الهواء ثقيلًا بالدخان الأسود .. وأدت حرارة النيران إلى تطاير بعض الأوراق عالية فى الجو قبل أن يتم حرقها حسب الأصول .. و«بعد أيام كان باعة الحمص والترمس يصنعون قرطيس صغيرة من أوراق نصف محروقة تحوى معلومات فى غاية السرية». (٤) وبدأت طوابير تمتد على طول شوارع كثيرة من حول البنوك .. وكان مصطفى النحاس باشا رئيس الوزراء قد وضع مخططا لنقل حكومة مصر واحتياطاتها الذهبية إلى الخرطوم .. وأدت الهرولة إلى البنوك إلى رفع إصدار البنكنوت من ٥٧,٩ مليون جنية فى يوم ٢٥ يونيو إلى ٧٦ مليون جنية فى ٤ يوليو .. وتقرر أن تطبع مصلحة المساحة العملات الورقية لأول مرة بعد أن كان من الصعب أن يحدث ذلك كما هو معتاد فى لندن بالسرعة المطلوبة .. وخلال ٤ أيام استطاعت مصلحة المساحة أن تطبع ٦ ملايين جنية على شكل ورقات مالية فئة المائة جنية .. وفى الوقت نفسه أعلن فاروق «أنه ليس ملك العوبة ورفض مغادرة البلاد».

وانتشرت نكات بين سائقى التاكسى بالقاهرة ضد الإنجليز من قبيل «اليوم أسوق بك إلى جروبى وبكرة أنت الذى تسوق بى» .. وكان للبريطانيين نكاتهم أيضاً .. «فلأن أكثر فنادقهم كان معروفًا ببطء الخدمة قالوا: إن كل ما عليك هو أن تنتظر حيث يأتى روميل إلى شبرد وساعتها سوف تتعرض مسيرته للبطء الشديد». (٥)

* * * *

فى هذه الظروف الحرجة .. الخطرة .. غير المشجعة قرر هيكل ركوب المغامرة وقبل مهمة السفر إلى العلمين .. كان الشاب المصرى الوحيد فى مجموعة من ١٢ شابا من مختلف مستعمرات بريطانيا .. أخذوهم فى البداية إلى منطقة «الدخيلة» بالإسكندرية ..

وضعهم فى قاعدة عسكرية بريطانية لعدة أيام تدريبوا فيها على أوليات الدفاع عن النفس وأطلعوهم على اتفاقية جنيف الخاصة بالمراسلين العسكريين لاستخدامها إذا ما وقعوا فى الأسر .. وكان المسئول عن المجموعة ستيفين بربر الذى أصبح فيما بعد مراسل الديلى تلجراف فى العاصمة الأمريكية واشنطن. (٦)

وبعد أن انتهت مدة «الدخيلة» ركب هيكل سيارة عسكرية مع ستيفن بربر وألحقه بكتيبة هندية تتبع الجيش الثامن وهو الجيش الذى كان عليه أن يواجه روميل فى العلمين .. وقد كان فريسة للإلهاك .. وتعرضت طاقاته للنفاذ .. بدت قيادته عاجزة عن تحقيق أى تقدم .. وهو ما جعل رئيس وزراء بريطانيا ونستون وتشرشل يأتى بنفسه إلى مصر ويدرس الموقف العسكرى ويجدد قيادة الجيش الثامن ويقترح تعيين الجنرال برنارد مونتجمرى قائدا جديدا .. ومنفذا لخطة الهجوم على روميل التى وضعت تحت اسم «الشعلة».

إن هيكل نفسه قد شعر بالإحباط فى اللحظة الأولى الى بدأت فيها مهمته فى العلمين .. لقد تركه ستيفين بربر فى الكتيبة الهندية ليلحق بموعد فى قيادة الأركان فى مدينة «الحمام» أولى مدن محافظة «مطروح» على أن يلتقيا فى نفس اليوم ليلا .. لكن قبل أن يأتى موعد اللقاء تعرضت الكتيبة الهندية لقذف بالهاون فقدت على أثره الكثير من الضحايا وأخلت من موقعها .. فكان أن عاد هيكل إلى الدخيلة فى أقل من ٢٤ ساعة وفشلت مهمته قبل أن تبدأ .. لكنه بالرغم من صدمته الشديدة لم ييأس.

ويقول لى هيكل : أنهم ألحقوه بكتيبة أخرى نيوزيلندية .. «كان حظها أفضل من حظ الكتيبة الهندية» .. والحقيقة أن الحظ كان إضافة للتغير الذى جرى فى قيادة الجيش الثامن وقلب كل الموازين .. لقد سلم الجنرال أوكلينيك القيادة للجنرال مونتجمرى الذى كان قراره الأول إعدام كل خطط الانسحاب .. وهو أمر متوقع من شخصية مونتجمرى الخشنة الى خلقت روحا قتالية جديدة وكأنها نسمة من هواء نقى .. «وسرت حكاية بأن الرقباء فتحوا رسالة من ضابط تقول: المشكلة أنك إذا أردت أن تتعامل مع كائن قذر مثل روميل فأنت بحاجة لكائن آخر من نفس عينته وحتى الآن كان جميع قوادنا أفراد مهذبين بدرجة مخيفة لكن حمدا لله فقد حصلنا أخيرا على مونتى» .. أو مونتجمرى. (٧) الذى أجبر روميل على الانسحاب من العلمين فى ليلة ٢ نوفمبر .. وبعد ٩ أيام تحررت طبرق .. ودقت أجراس الكنائس فى إنجلترا وفى الكاتدرائية الإنجيلية بالقاهرة.

وقد بقى هيكل فى العلمين حتى بدأ الهجوم .. وفيما بعد .. فى الذكرى الخامسة والعشرين للحرب قابل هيكل مونتجمرى فى القاهرة والعلمين .. فى الاحتفال الذى نظمته صحيفتى الأهرام وصنداي تايمز - وكانت فى عصرها الذهبى تحت رئاسة دنيس

هملتون - بهذه المناسبة .. وذكره بهتافات الجنود له فى مدينة الحمام: «مونتى .. مونتى» .. وصحب مونتى فى هذه الجولة بالصحراء الغربية بعض الأحياء من كبار ضباط أركان حربه القدامى وهو وقتها الجنرال السير فرانسيس دى جينجاند رئيس أركان حربه .. والجنرال السير أوليفر ليس مدير التخطيط .. والجنرال السير بريان هوروكس مدير العمليات .. والبريجادير ريشارد جيوفرى مدير المخابرات بقيادة الجيش الثامن .. و«نزل المارشال مونتجومرى ومرافقوه فى فندق «سيدى عبدالرحمن» وكان ترتيب كل يوم ولدة أسبوع أن يطوفوا بالمواقع فى الصباح ثم جلسوا بعد الظهر - مع نسائم العصر - لمناقشة مفتوحة .. وكان هيكل ودينيس هملتون ينضممان إليهما متابعين لحوارهم باهتمام شديد وربما قاطعوه بسؤال أحيانا .. وعادة ما كانت الجلسات الممتعة تجرى فى شبه دائرة على مقاعد من قماش فوق الرمل على شاطئ البحر.

وسألت هيكل ونحن فى قرية «الرواد» بالساحل الشمالى .. بالقرب من المكان الذى كان مسرحا لتلك الحرب: ما الذى تعلمته من الحرب؟

أجاب : لقد اشتريت حياتى بمواجهة الموت فى الحرب .. علمتنى الحرب ألا أخاف الموت .. أو أن أتجاهله .. ظللت أقول لنفسى : أن الخوف هو الترف الوحيد الذى لا أملكه ولا أسمع به .. وفى الوقت نفسه أدركت مبكرا أن الإنسان يشتري حريته .. فأنت حر بقدر ما تعتمد على نفسك .. وأنت قوى بقدر ما تواجه الخطر.

وقال لى أيضاً: الحرب تعلم الصحفى الكتابة اليومية وتسجيل ما يجرى برؤيته الشخصية .. إن الأحداث تنقلها وكالات الأنباء وتحدد الرقابة العسكرية ما ينشر منها وما لا ينشر . ومن ثم فالفرق بين صحفى وصحفى فى تغطية الحرب هو الرؤية الشخصية .. إن الحرب أحدثت ثورة فى التغطية الصحفية .. خلقت ما يمكن وصفه بصحافة المأساة .. حيث الإنسان فيها أهم من الحدث أو الخبر .. الإنسان هو البداية والنهاية .. لقد حولت الحرب بعض الصحفيين إلى أدباء .. أصبحت كتاباتهم «فيها روح» .. فيها الإجابة على السؤال الصعب «كيف تمسك باللحظة؟» وهو ما فرق بينى وبين جيلى .. وفى الوقت نفسه أثرت الصحافة من تجارب بعض الأدباء الذين عاشوا الحرب وكتبوا عنها مثل «أندريه مالرو» الذى كتب عن سقوط باريس .. على أن أهم ما خرجت به من التجربة هى أننى أصبحت أدون يوميا كل ما يمر بى .. وأصبحت هذه العادة واحدة من أشهر عاداتى المعروفة.

على أن الحرب فتحت أمام جيل هيكل ما وصفه هو بإمكانية الاختيار .. وقد قال : «أن الأجيال التى سبقت جيلنا لم يكن مفروضا عليها أن تختار .. أو بمعنى أدق وأصح فإن مجالات الاختيار لم تكن واسعة أمامها .. إن العالم بالنسبة لمصر قبل الحرب وأثناءها كان

مختزلاً فى علاقة سياسية ثنائية مع بريطانيا وميلاً ثقافياً نوعاً من نحو فرنسا.. وكان النظام السياسى الاقتصادى الاجتماعى الفكرى نظاماً تابعاً بمنطق الأشياء وحقائقها .. ولم يكن هناك غير بديلين اثنين: إما الالتحاق بالصف المعادى للاستعمار أو بالصف الموالى له .. وحتى هذه الصفوف لم تكن محددة وإنما كانت ملتبسة .. وقد زاد الالتباس بضرورات الحرب ضد المحور وأصبحت مناصرة القوة المحتلة وهى بريطانيا فى الحرب ضد النازية اضطراراً لا مهرب منه غير الوقوع فى شرك تأييد النازية تحت توهم مقاومة الاحتلال». (٧)

«وكانت حدود الاهتمامات السياسية والصحفية - خارج العلاقة الثنائية مع بريطانيا - قاصرة على تغطية الساحات الخلفية للقصر الملكى والسلطة التى تمثل قمة المجتمع ومعظمها من غير المصريين أو نصف المصريين .. وأما بعيداً عن السياسة فلم تكن غير ثمرات الطبقة الراقية - كما كانوا يسمونها - إلى جانب كواليس المسارح .. وربما الصالات والكباريات».

«وبالطبع كانت هناك ايماءات هنا وهناك تشير إلى اتجاهات أخرى .. لكن هذه ايماءات ظلت محدودة فى تأثيرها .. وربما استطاعت أن تظهر أكثر فى مجال الفكر السياسى البحث .. دون أن ينعكس تأثيرها بقدر كاف على الصحافة المصرية».

«والذى حدث أن الحرب العالمية الثانية - التى كانت مصر كما رأينا ميداناً من أهم ميادينها - جاءت معها وفى أعقابها بأفكار كان من أثرها أن سقطت أسباب الثنائية الحاكمة .. وأصبحت مصر والحياة فيها مفتوحة لعشرات الاحتمالات .. وهنا برزت إمكانية الاختيار .. وأصبح على جيلنا أن يمارس ضرورة الاختيار .. وقد اختار جيلنا بشكل أو بآخر وبدرجات متفاوتة من الحماسة إلى هذه الفكرة أو تلك أو الاختلاف مع هذا التصور أو ذاك .. إن هذه المرحلة كانت الحقبة الوطنية والقومية فى العالم العربى .. بكل أولوياتها .. وهى: مقاومة الاستعمار .. والاستقلال الوطنى .. الوحدة العربية .. التصدى للمخططات الإمبريالية والصهيونية .. عدم الإنحياز .. إعادة البناء الاقتصادى مع تركيز على التصنيع .. إعادة التركيب الاجتماعى مع تركيز على ملكية الأرض .. السعى نحو حراك اجتماعى يقوم على أسس متساوية فى التعليم وفى العمل وفى الصحة وفى السلطة».

ويستطرد هيكلاً أو يستدرك : «لا أقول أن ذلك تحقق كله أو معظمه وإنما أقول أن تلك كانت رؤوس الموضوعات التى تحولت إلى قائمة بجدول أعمال المرحلة» .. وهى مرحلة كان حق الاختيار فيها مفتوحاً لأول مرة داخل بلد تحقق اتصاله بعالمه الأوسع وأصبح جزءاً من حركته بغير عزله أو وصاية أو حدود مغلقة».

لقد كانت الحرب هي مستشفى الميدان التي ولد فيها .. وقد أتيح له فيما بعد أن ينتقل من العلمين إلى مالطا .. ومن مالطا إلى باريس .. كل ذلك وهو في هذه السن المبكرة .. فكان أن تفتحت حواسه للخبر والخطر والسفر .. وهي الحواس الضرورية للصحفي .. وبدونها تصبح الصحافة - كما هي الآن - كتابة على مقعد متحرك في غرفة ملحقة - ولو من بعيد - بجهاز العلاقات العامة الرسمي والحكومي.

الهوامش

- (١) أرتيمس كوبر : مرجع سبق الإشارة إليه - ص ٢٤٦.
- (٢) المرجع السابق : ٢٤٧.
- (٣) المرجع السابق : ص ٢٥٠.
- (٤) المرجع السابق : ص ٢٥١.
- (٥) المرجع السابق : ص ٢٥١.
- (٦) حوار مع هيكمل جرى في الساحل الشمالي في يوم ٣٠ أغسطس ١٩٩٩.
- (٧) أرتيمس كوبر - المرجع السابق : ص ٢٧٢.
- (٨) محاضرة ألقاها هيكمل في «صالون إحسان عبدالقدوس» في روز اليوسف وكان يشرف على الصالون الدكتور والسفير مصطفى الفقى.

دعوة للغذاء .. ثم دعوة للصحافة

■ في سنوات العمل الصحفى فى «الإجيشيان جازيت» لم يكن هيكى بعيدا تماما عن أجواء الصحافة العربية .. كان فى تلك الأيام يذهب مع فليب حنين رئيس قسم المحليات فى الإجيشيان جازيت للغذاء فى مطعم «الباريزيانا» القريب من الجريدة .. وكانت السيدة روز اليوسف الفنانة والصحفية الكبيرة تتردد على هذا المطعم .. وقدم فليب حنين هيكى لها .. ويكمل هيكى : «ثم لقيناها أكثر من مرة .. وكانت هذه السيدة ذات الشخصية القوية كريمة فى تشجيعها للصحفيين المبتدئين .. ودعتنا إلى مائدتها مرات .. ثم دعتنا إلى مجلتها .. وكان هناك لقاءى الأول مع الصحافة العربية» . (١)

إن روز اليوسف .. السيدة والمجلة .. هما فصل مثير ومهم فى الكتاب الكبير الذى لم يكتب بعد بشجاعة أو بصراحة عن الصحافة فى مصر.

فى عام ١٨٩٧ ولدت طفلة جميلة فى مدينة طرابلس فى لبنان من أبوين مسلمين سُميت فاطمة لكنها لم تكن تعرف اسمها الحقيقى لأن الجميع من حولها ينادونها روز .. بل أنها لم تكن تعرف أنها مسلمة .. ولم تعرف إلا فيما بعد أن أبوها هو محمد محيى الدين اليوسف .. وأن أمها اسمها جميلة .. فالأسرة التى كانت تربيها وتتصور أنها أسرتها هى أسرة مسيحية .. وكانت تعاملها بقسوة غير مبررة .. فثيابها خرق .. وطعامها فضلات .. والكلمة التى تسمعا كالرعد فى الأذان .. لم تكن تلعب .. ولا تضحك .. وكانت الوحيدة التى تحنو عليها مربيتها خديجة.

لقد سافر الأب محمد اليوسف إلى استنبول سعياً وراء تجارته الواسعة التي خسرها كما خسر زوجته بموتها عقب ولادة ابنته .. وأختفى الأب .. ولم تعرف فاطمة مصيره حتى آخر يوم في عمره .. وأغلب الظن أن عدم استقراره في بلد واحد جعله يعهد لتلك الأسرة التي لم يكن لها أطفال لرعاية ابنته .. وعندما انقطعت أخباره وأمواله تحولت فاطمة إلى روز .. وبعد أن كانت مدللة أصبحت تعامل معاملة قاسية .. وفي يوم زارها صديق للأسرة أعلن عن رغبته في أن تصبح في هجرته إلى البرازيل أو تلحق به لتكون أنيساً له في غربته .. ورحبت بالفكرة هروباً من الجحيم الذي عاشت فيه.

وهكذا .. أفاقت الفتاة - حلوة الوجه صغيرة القد خافتة الصوت - من نومها ذات صباح لتغادر طرابس في طريقها إلى البرازيل لتلحق بالرجل الذي دعاها للهجرة بعيداً .. ولكن .. عندما نزلت الصبية ميناء الإسكندرية .. وجدت شيئاً ما يشدها إلى تلك المدينة الساحرة .. فبقيت فيها ولم تعد للسفينة التي تركت الميناء .. وتركتها.

لا تعرف ما الذي جرى لها في الإسكندرية .. فأول ما يذكره الدكتور سعيد عبده في كتابه عنها (٢) أنها انضمت لإسكندر فرح وفرقة المسرحية حين رآها .. وقد عاملها كسائر بناته .. ومنحها فيما بعد فرصة دخول عالم المسرح والتمثيل الذي لمعت فيه حتى أنها حظيت بلقب «سارة برنارد الشرق».

في أغسطس عام ١٩٢٥ فكرت روز اليوسف في إصدار المجلة التي تحمل اسمها وبعد شهرين وبالتحديد في ٢٦ أكتوبر ١٩٢٥ صدر العدد الأول منها .. وكان على رأس محرريها موظف في البرلمان كان يحرر باب النقد الفني في «الأهرام» بأسلوب تفرد به - وهو أسلوب أنشأ مدرسة صحفية حديثة سيطرت فيها بعد على الصحافة المصرية - هو محمد التابعي.

وقد بدأت روز اليوسف كمجلة فنية .. ثم سرعان ما وجدت نفسها تخوض في غمار المعارضة السياسية .. وساعتها وجدت نفسها تحت سيف المصادرة والتعطيل .. ووجد معظم من تولوا رئاسة تحريرها أنفسهم عرضة للسجن أو تحت ضغوط النيابات والمحاكم وتهديد حياتهم بالقتل .. وقد وصف الساخر الكبير فكرى أباطة المجلة بأنها مجلة أصيلة «لا تتأثر بالزمن ولا بالعمر ولا بالسن ولا بالأحداث» .. وأنها «كلما أمتحنت اجتازت الامتحان بنجاح .. وكلما ضحت وعانت وشقيت كلما صمدت وكافحت وزحفت» . (٣)

واستطرد فكرى أباطة: «إن إرادة هذه السيدة استطاعت أن تفتح مجلة وتفتح بجانبها معهداً .. خرج من بين من خرج أساتذة وأعلاماً وشباباً يزحف اليوم ويغزو ويفتح ويجنى

أنضج الثمار» .. إن هذه الفقرة هي سر استمرار روز اليوسف .. فهي مستشفى لولادة المواهب .. تفتح لهم الأبواب بلا حساب .. فمن النادر أن تجد نجما في الصحافة والأدب لم يمر على روز اليوسف .. خاصة في الأوقات التي تترك فيها المجلة تعبر عن نفسها وتواصل رسالتها وتحدد سقف الحرية.

لذلك لم يكن مثيرا للدهشة أن يمر هيكل على روز اليوسف .. وأن تكون محطة في مشواره الصحفى .. خاصة وأن تجربة النشر باللغة الإنجليزية في الإيجيشيان جازيت لم تعطه فرصة أن يمد الجسور بينه وبين قراء الصحف العربية .. وهم الأغلبية .. كذلك فإنه لم يجرب الكتابة بلغة الأصلية .. وفي الوقت نفسه فإن الإيجيشيان جازيت قد بدأت - مع لفظ الحرب لأنفاسها الأخيرة - تفقد بريقها وأهميتها .. وتوزيعها .. لقد انخفض التوزيع من ٢٥٠ ألف نسخة إلى ٥٠ ألف نسخة .. ولم تعد التغطية الصحفية التي تطلبها مثيرة لهيكل بكل المقاييس على حد اعترافه لى .. بل أكثر من ذلك قال رئيس تحريرها هارولد إيرل قال لهيكل بوضوح: «أنا أريدك أن تفكر بجدية في مستقبلك .. أنت «خامة» صحفية جيدة .. أبحث عن فرصة جديدة مستقرة في الصحف العربية». (٤)

ولم تكن الفرصة التي على هيكل الحصول عليها لمواصلة مشوار الصحفى فقط وإنما لمواصلة حياته التي كانت قد استقلت واستقرت بعيدة عن هواجس الأب الذي لم يكن يعرف بالضبط ما يفعله أبنه .. وكان يخشى عليه من مصير من سبقوه من الأبناء.

وهكذا .. استجاب هيكل لدعوة السيدة روز اليوسف .. وكان ذلك في عام ١٩٤٤ .. ولكنه على ما يبدو لم يبق فيها طويلاً ولم يكتب فيها كثيراً .. لقد كتب عن «بنت الجيران» التي لم ينسأها .. وعرض نتائج بحث ميدانى عن المجلات المصرية أشرت فيها هو وبعض زملائه في مدرسة التجارة تحت إشراف أستاذه السيد أبو النجا الذى يقول في مذكراته : إنه أول بحث من نوعه في الشرق الأوسط وكان أجر المشترك فيها ٣ جنيهات عن ٦ أشهر من العمل المستمر .. وعندما أظهر البحث الميدانى تفوق روز اليوسف نشر هيكل نتائجته على صفحاتها بعد أن أصبح محرراً فيها .. وبرز ما يحتفظ به أرشيف روز اليوسف السياسى لهيكل مقالين عن الملك فاروق .. الأول في العدد ٨١٨ الصادر يوم الخميس ١٧ فبراير ١٩٤٤ بعنوان «إنه الفاروق» .. والثانى في العدد ٨٣٠ الصادر يوم الخميس ١١ مايو عام ١٩٤٤ بعنوان «فى يوم عيدك يامولاي» .. وفى المقالين نجد هيكل حريصاً على الكتابة بأسلوب أدبى متميز .. والواضح أن الأسلوب كان يغلب على الحدث والخبر فى المقال الأول .. وهو ما تلافاه هيكل فيما بعد .. وعندما نقرأ المقالين لا يجوز أن نحاسب صاحبهما بأثر رجعى.

فى المقال الأول يقول:

«الملك فى الصعيد .. الملك يزور مناطق المرض بنفسه ليشرف على ما يجرى وليواسى شعبه هذا هو النبأ .. النبأ العظيم الذى لم يكن يدهش له أحد ولم يعجب له أحد .. ولكن الناس جميعا أضاءت عيونهم بنور الأمل والثقة وتقابلت أنظارهم فتبسموا ابتسامة حب وحنان .. إنه الفاروق .. إنه الفاروق دائما .. فاروق الأمس .. فاروق اليوم .. فاروق الغد.»

«وبالأمس عندما اشتدت أزمات التموين ذهب لملك بنفسه ليرأس مجلس الوزراء .. لبحث معهم مشاكل الشعب .. قالوا له: فليجتمع مجلس الوزراء فى القصر .. فقال لهم: ولماذا لا أذهب إليه أنا؟ .. وقالوا له: ولكن التقاليد لم تصطنع أن يذهب الملك إلى المجلس .. فأجابهم: وهل اصطنعت التقاليد أن يجوع الشعب؟ .. وذهب الملك.

«واليوم عندما اشتد المرض على جزء من شعب الملك وعلم الملك أنهم يعيشون فى محنة وضر وعلم أنهم يتعذبون ويتألمون أرسل لهم المال والزاد واهتم بحالتهم ولكن قلبه لم يطاوعه فقال: سأذهب بنفسى لأراهم ولأعيش معهم .. لأواسيهم وأشعرهم أننى أتألم لألهم .. ووضعوا أيديهم على قلوبهم وقالوا: العدوى .. التعب .. الصحة .. وقال الملك: شعبى .. وقالوا: عيدك .. عيد ميلادك .. وقال: لا أستطيع أن أحتفل بعيد ميلادى وشعبى فى قنا وأسوان فى هذه الحالة .. وأن ذهباى إليهم وزيارتى لهم لهى عندى خير احتفال بالعيد.

وذهب الملك .. ذهب الملك إلى شعبه الذى هتف إليه من أعماق قلبه .. يعيش فاروق منقذ الصعيد .. يعيش فاروق حبيب الفلاح .. يعيش فاروق نصير الفقراء .. زيارتك شفتنا يامولانا .. إحنا فى حلم يامولانا .. هذه ليلة القدر .. هذه الزيارة بعثت فىنا الحياة .. نريد أن نقبل يدك .. رفعت رأسنا وشرفت مقدارنا .. وقال الملك: بل أنا منكم .. وهتفوا له: فاروق .. فاروق .. فاروق.

«أجل إنه الفاروق».

انتهى.

وفى المقال الثانى يقول:

«هذه هى الذكرى الثامنة لجلوسك يامولاي على عرش مصر .. ثمان سنوات وأنت تحمل مسئولية هذا الوطن وهذا الشعب .. كنت فيها نعم الملك الدستورى فى ظروف لعلها أدق ما مر بها فى تاريخ حياتها .. أو ليس الفاروق هو الذى قال ذات مرة: إننى أحب

قيادة السفينة أثناء العاصفة.

«ثمان سنوات أنت تعمل لهذا الشعب وتخلص له وهو يعمل معك ويخلص لك وستظلان معا إلى الأبد .. وهذه مصر كلها تحتفل بعيدك ملكك.. مصر من أقصاها إلى أقصاها .. أفراداً وجماعات .. أحزاباً وهيئات .. ولم تجد مصر ما تحيي به هذا العيد سوى الهتاف باسمك والدعاء لك.

فى نادى سعد زغلول طلب الحاضرون من (على ماهر) باشا أن يقول لهم شيئاً .. فقال : أن أحسن ما أقوله ليعبر عن كل ما نحس به هو أن أهتف من القلب: يعيش جلالة الملك .. وردد الجميع هتافه.

وفى احتفال الأحرار الدستوريين قام الأعضاء وراء (محمد حسين) هيكى باشا يهتفون باسمك ويدعون الله أن يسدد خطاك .. وفى إحتفال (حزب) الكتلة كان الهتاف لجلالتك يشق عنان السماء بين كل دقيقة وأخرى.

لقد علمت مصر كيف تحبك من يوم أن تفتحت عيناك على نور الدين فلم تكن وأنت أمير طفل تترك فرصة لتظهر فيها عطفك على بنيتها واعتزازك بها إلا أظهرتها.. وكنت دائماً فى كل مكان تشعر بأنك المصرى الديمقراطى الأول .. فكنت فى كل مكان خير رمز لمصر واحسن عنوان لها .. ولقد أخذ التفكير فى مصر كل وقتك وأخذت تعمل..

فى عيد ميلادك تركت قصر ك وعاصمة ملكك وذهبت إلى الصعيد لتزور جزءاً من شعبك حلت به نكبة المرض وقلت إن أحسن احتفال بالعيد هو أن ترى هؤلاء البؤساء ويروك .. ومنذ أشهر قابلت الكولونيل بون رئيس جمعية الصليب الأحمر فكانت آخر كلماتك له : لا تدع أحداً يسىء إلى مصر .. وهكذا أخذت عليك مصر كل تفكيرك لأنك تحبها .. ومصر يا مولاي تحبك.

ولقد قال لى ذات مرة أحد كبار الأجانب وهو المستر (هارولد) إيرل رئيس تحرير الإيجيبشيان جازيت وكان مع جلالته فى بورسعيد - قال: إنه دُهِش لما رأى عشرات الألوف من الفلاحين ينتظرون الساعات الطويلة تحت وهج الشمس .. ينتظرون مرور الملك فى قطاره .. وربما لم يروه وحتى لو أتيحت لهم هذه الفرصة فلن يدوم ذلك لأكثر من جزء من الثانية .. ثم قال إنه تساءل عن قوة العاطفة التى تدفعهم إلى ذلك .. وقلت له: «إنه الحب .. وقال: يا له من حب قوى .. ولم يكن المستر إيرل هو أول أجنبى دُهِش لروعة مظاهر الحب بينك وبين شعبك وإنما كثيرون شاركوه هذه الدهشة .. ولم يترك أحدهم فرصة للإعراب عن ذلك إلا أبداها .. وقد قال لى المسيو ليجول رئيس تحرير «البورص» إن

مصر محقة أن تحب مليكها كل هذه الحب فهو جنتلمان حقيقى .. وقال مراسل مجلة «لايف»: أنه شاهد ملوكاً ورؤساء كثيرين تستقبلهم شعوبهم فلم ير أروع ولا أعظم من استقبال شعب مصر لمليكها.

وأذكر أننى سألت السناتور «ميد» أحد الشيوخ الأمريكان الذين زاروا مصر منذ عدة أشهر - وكان قد تشرف بمقابلة جلالتكم ظهر اليوم نفسه - عن رأيه فيكم فقال : صدقنى يا بنى لقد رأيت ملوكاً كثيرين قبل مليككم وقابلت عظماء قبل أن أقابله ولكن لم أجد هذا الحب لبلاده الذى يبدو واضحاً خلال حديثه عنها كما هو الحال مع فاروق..

ولن أنسى أن أحد الضباط الأمريكان رآك يا مولاي فى إحدى الحفلات فلم يتمالك نفسه وهتف «فليحفظ الله الملك» .. وبعدها قال هذا الضابط إنه لم يكن يتصور أن سيأتى عليه يوم ويهتف لأحد الملوك وهو الذى وكّد جمهورياً وقال لى: إننى لم أهتف حتى لروزفلت نفسه.. ولكن ملككم هذا رجل عظيم..

يا مولاي .. هذه ثمان سنوات وأنت وهذا الشعب تتقاسمان السراء والضراء فى طريق الحياة بأزهارها وأشواكها وستبقيان معاً إلى الأبد لأن رباطاً من الحب يوثق بينكما رباط من الحب الخالد.

أنتهى.

على أن هيكل لم يبق طويلاً فى روز اليوسف .. إن صداماً ما خفياً وقع بينه وبين إحسان عبد القدوس .. وهو صدام عبر عنه إحسان عبد القدوس فيما بعد قائلاً: «إن هيكل يستولى على الرأس الكبير فى أى مكان .. استولى على عقل والدتى .. ثم عقل محمد التابعى .. ثم عقل وقلب على أمين .. ثم عقل جمال عبد الناصر». (٥) ولم يقل إحسان عبد القدوس كيف كان هذا الاستيلاء .. ولا ما الذى أزعجه فيه .. خاصة وأنه سبق هيكل فى روز اليوسف بنحو ٧ سنوات .. كما أنه كان أشد بريقا وشهرة .. كذلك فإن هيكل فيما بعد كان وراء تعيين إحسان عبد القدوس رئيساً لمجلس إدارة ورئيس تحرير أخبار اليوم .. وقد أنقذه القرار من حالة إكتئاب لم تخرجه منه رواياته العاطفة والاجتماعية.

لقد بدأ إحسان عبد القدوس الكتابة فى روز اليوسف فى عام ١٩٣٧ .. وكان أول ما نشره فى عدد ٥ يوليو ١٩٣٧ رسالة مفتوحة بعنوان «مغامراتى وحبى الأول» يقول عنها الدكتور سعيد عبده «إنها كانت رسالة ركيكة محشوة بالأخطاء النحوية على نحو فريد وفيها تقليد شديد لبعض الناشئين من كتاب الصحافة إذ ذاك». (٦) لكنه سرعان ما أصبح واحداً من المع الكتاب والصحفيين .. وأكثرهم جرأة .. حتى أنه فى الفترة التى كان

فيها هيكل يتلمس خطواته الأولى في الصحافة المنشورة بالعربية كان إحسان عبد القدوس يشن حملة نقد قوية ضد الحكومة .. وهو ما صادر المجلة وسبق هو إلى السجن .. وكانت المرة الأولى التي يدخله .. وقد نشرت له والدته رسالة له وهو في السجن قالت فيها: «إلى والدى السجن .. أحبيك في سجنك .. تحية أم وتحية مواطنة حملت قبلك شرف الجهاد في قضية مصر وقد اختلط في نفسى شعور الأم بشعور المواطنة فما أدري بأيهما أعبر عن نفسى وإن فى قلبى ليستعر جحيमान .. جحيم الأمومة .. وجحيم المبدأ .. وكلاهما قطع من عذاب» .. وتواصل فاطمة اليوسف الكتابة - وقد امتزج الخوف على ولدها بالكبرياء والزهو به - فتقول: «إن السجن يا ولدى منازل الأحرار إذا دخلوه مدافعين عن حرية الرأى مناضلين فى سبيل الحرية.. وأحمد الله إذ كرمنى وأنا على قيد الحياة بأن أراك تحقق أملى فىك وتستقيم على المنهج الذى ربيتك عليه وأن تكون لبلادك ولحرية الرأى ومازلت فى السن التى يكون فيها غيرك لمغامرات الشباب وأحلام الشباب ومباهج العيش الهنىء» .. و .. «سيكون قريباً لقاؤنا تحت الراية لنستأنف الجهاد». (٧)

ولا يشير هيكل لهذا الصدام ويكتفى بالقول إنه التقى إحسان عبد القدوس فى ذلك المبنى العتيق (أول مقر لمجلة روز اليوسف) فى شارع محمد سعيد .. ولم يكن لقاء بغريب .. فقد سبق أن تزاملا فى مدرسة «خليل أغا» .. «وعلى أى حال فإنه منذ ذلك الوقت اتصلت واقتربت وتقاطعت فى بعض الأحيان رؤانا وأفكارنا بل مصائرنا وأقدارنا».

ولم يدخل هيكل مبنى روز اليوسف منذ أن تركها فى عام ١٩٤٤ إلا بعد خمسين سنة .. حينما وُجّهت إليه الدعوة للحوار بينه وبين أسرة تحريرها فى عام ١٩٩٥ .. ولم يتكلم هيكل عن ذكريات المكان .. ودخل مباشرة فى قضايا الزمان.

الهوامش

- (١) هيكل «بين الصحافة والسياسة» - مرجع سابق ص ٢٨.
- (٢) الدكتور سعيد عبده: «روز اليوسف: سيرة وصحيفة» مؤسسة سجل العرب - الطبعة الأولى عام ١٩٥٥.
- (٣) روز اليوسف عدد ٢٣ أكتوبر ١٩٤٦.
- (٤) هيكل: حوار جرى بينى وبينه فى الساحل الشمالى فى صيف ١٩٩٩.
- (٥) موسى صبرى: «٥٠ عاماً فى قطار الصحافة» - دار الشروق - الطبعة الأولى ١٩٩٢ - ص ٧٨٨.
- (٦) سعيد عبده: المرجع السابق - ص ١٩٢.
- (٧) المرجع السابق: ص ٢١٣.

ملوك بالوراثة .. وملوك بالصحافة

■ فى تلك الأيام التى كانت فيها الطرق تتقاطع والعلاقات تتشابك والمصائر مجهولة حدث تحول واضح فى حياة هيكل جعله يختار طريقه ويرى مستقبله الصحفى أمام عينيه وينتقل من روز اليوسف والإجيبشيان جازيت إلى آخر ساعة .. فى تلك الأيام عرف هيكل - «أمير الصحافة» ونجمها الساطع ومؤسس مدرستها الحديثة فى مصر - محمد التابعى محمد وهبة .. الشهير بمحمد التابعى.

دخل هيكل مكتب هارولد إيرل رئيس تحرير الإجيبشيان جازيت «لشأن من شئون العمل» فوجد عنده زائر قدمه له: «الأستاذ محمد التابعى صاحب مجلة آخر ساعة ورئيس تحريرها» .. وبدا التابعى وكأنه يعرف هيكل .. أو بدا وكأن هارولد إيرل قد حدثه عنه .. وكالعادة كان التابعى رقيقا مجاملا. (١) وفى اليوم التالى كان هيكل فى مكتب التابعى فى آخر ساعة يحمل «خطاب توصية» من هارولد إيرل. (٢) وسأله التابعى: «كيف ترى مستقبلك؟».

كان السؤال مفاجأة .. فقد كان هيكل يتصور أن عمله فى الإجيبشيان جازيت يكفى .. لكن التابعى كان له رأى مختلف .. «مهما فعلت فى الجازيت فإن المستقبل محصور وضيق فهى جريدة تصدر فى مصر بلغة أجنبية .. ثم أن توزيعها بعد الحرب سوف يتقلص بالطبيعة ويعود إلى بضعة آلاف بدلا من عشرات الألوف .. إن الصحفى المصرى مجاله الصحافة المصرية باللغة العربية .. وبقرائه فيها .. هذا هو المستقبل» .. ثم رفع سيجارته المنتصبة فى مبسمها الذهبى بين شفتيه وراح ينظر إليه بعينه اللتان يختلط

فيهما الرمادى والأخضر والأزرق وقد تدلت نظارته على أنفه وأمتد بصره إليه من فوق إطار النظارة. (٣)

إن «محمد» هو الاسم المدون فى شهادة الميلاد .. وقد أضيف إليه اسم التابعى تيمناً وتبركاً بالشيخ التابعى حسب رغبة أمه التى نذرت الاسم لو أفجبت ذكراً بعد أن أتت للدنيا بأربع إناث .. ورغم أن عائلة التابعى كانت تعيش فى المنصورة إلا أنه ولد فى بورسعيد .. حيث كانت أسرته تقضى الصيف فى مصيف «الجميل» .. وكان ذلك فى صيف عام ١٨٩٦ .. وقد كان والد التابعى مهندساً .. لكنه مات وكان التابعى صبياً فى السابعة من عمره .. وقد بدأ التابعى تعليمه فى المنصورة ثم أكمله فى القاهرة .. حيث دخل مدرسة السعيدية الثانوية .. وزامله فيها صديق عمره فكرى أباطة .. لكن ناظر المدرسة الإنجليزى مستر «شارمان» لم يحتمل شقاوته فطرده من المدرسة ليكمل تعليمه فى مدرسة «العباسية» الثانوية الداخلية فى الإسكندرية فى حى «محرم بك» .

ولا يشترك التابعى وهىكل فى الاسم الأول «محمد» فقط .. وإنما يشتركان فى قراءة الأساطير الشعبية وهما فى مرحلة الطفولة .. فقد كان التابعى مبهوراً بأساطير «الزير سالم» و«الزناتى خليفة» .. ومثله كان هىكل .. ويشتركان فى عشق التاريخ والإيمان بالجغرافيا .. والتعبير باللغة الإنجليزية التى كتبها بهما فى بداية حياتهما الصحفية .

إن التابعى - الذى لم يكن يخطط لنفسه هو أيضاً أن يكون صحفياً - قرأ أبان ثورة ١٩١٩ هجوماً ما شنته صحيفة «الإجيبشيان ميل» على أسلوب المظاهرات المعادية للإنجليز فاغتاظ وتناول القلم وكتب أول مقال باللغة الإنجليزية وأرسله للصحيفة وكانت دهشته واضحة عندما وجده منشوراً مع التعليق عليه .. وتكررت القصة حتى أصبح التابعى صديقاً لرئيس تحرير الصحيفة المستر «أوفارول» .. وبينما هما يشاهدان معا مسرحية «غادة الكاميليا» لروز اليوسف ويوسف وهبى وعزير عيد طلب منه مستر أوفارول أن يكتب نقداً لها لنشره فى مجلة «سفنكس» التى كان يشرف على تحريرها إلى جانب الإجيبشيان ميل .. ولم يعجب النقد فرقة «رمسيس» المسرحية فأوحت لجريدة «النظام» أن ترد عليه .. وكان أن رد التابعى على جريدة «النظام» بمقال كتبه لأول مرة باللغة العربية فى جريدة «السياسة» التى تعبر عن حزب «الأحرار الدستوريين» .. وهكذا .. وجد التابعى نفسه دون أن يقصد متورطاً فى بلاط صاحبة الجلالة. (٤)

ولعل هذا هو السبب الذى جعل التابعى يقول لهيكل: إن الصحفى عليه أن يبدأ من المسرح .. ثم ينتقل إلى البرلمان .. على عكس مدرسة «الإجيبشيان جازيت» التى كانت ترى البداية المناسبة للصحفى فى تغطية الجريمة .. ثم يستقر فى البرلمان أيضا .. ولمدة ثلاثة شهور وجد هيكل نفسه فى كواليس المسرح .. خاصة مسرح «نجيب الريحاني» بدلا من «ميادين القتال» .. ثم وجد نفسه فى شرفة مجلس النواب بدلا من «محافظة» القاهرة التى تصب فيها كل أخبار الجريمة التى تقع فى مصر.

ولو كان هيكل قد بدأ مشواره فى الصحافة المنشورة باللغة العربية فى روز اليوسف فإن التابعى هو الذى قامت عليه روز اليوسف منذ بدايتها .. فى ذلك الوقت كان التابعى موظفاً فى قسم الترجمة فى مجلس النواب .. وكان قد تعرف على فاطمة اليوسف وزوجها الأول محمد عبد القدوس فى مصيف رأس البر .. وكان التابعى فى الإسكندرية عندما طلبت منه فاطمة اليوسف العودة للقاهرة ليشاركها فى تحرير المجلة التى حصلت على ترخيصها .. بل ويكون رئيس التحرير الفعلى الذى لم يكشف اسمه لأنه كان موظفاً فى الدولة.

ولو كان هيكل قد دخل السجن بعد أن أصبح كاتباً لامعاً فإن التابعى دخل السجن فى بداية حياته الصحفية .. بل أن التابعى كان أول صحفى مصرى توضع فى يده القيود قبل أن يحكم عليه بالسجن فى ديسمبر ١٩٢٧ .. لقد نشر سلسلة مقالات تفضح الملوك والملكات فى العالم .. بدت وكأنها تشير من بعيد إلى الأسرة المالكة فى مصر .. بل أنه قال أن الدوق أوف كنوت هو أبن الملكة فيكتوريا من الخديو إسماعيل .. وقال: إن شاه إيران كان على علاقة غرامية بخادمة فرنسية عندما كان سائقاً لأحد السفراء الأجانب فى طهران .. وعندما ضبطه السفير هو والخادمة طرده من خدمته .. ففتطوع فى الجيش .. ونجح فى أن يصبح وزيراً للحربية .. ثم قام بانقلابه .. وتولى السلطة .. أى أنه مدين بعرشه لهذه الخادمة الفرنسية .. وقد وجهت إليه تهمة سب وقذف الملوك والملكات ليس فى مصر ولكن فى أوروبا .. وحكم عليه بالسجن لمدة ٦ شهور ولكن مع إيقاف التنفيذ .. لكنه فيما بعد .. فى عام ١٩٣٣ حكم عليه بالسجن مع التنفيذ لمدة ٤ شهور .. والمثير للمقارنة أنه كان يشرب المياه المعدنية فى السجن على حسابه بسبب متاعب الكلى التى كان يعانى منها .. وهو ما جرى لهيكل ولنفس السبب الطبى والصحى عندما وجد نفسه فى السجن .. إن الكلى كانت مصدر شكوى دائم لهيكل .. وقد تصاعدت الشكوى إلى حد

القلق فى عام ١٩٩٩ حينما كشفت التحليل الطبية عن وجود «كيس» غير صلب حول إحدى الكليتين .. واستدعى الأمر سفراً إلى الولايات المتحدة ودخول مستشفى كليفلاند الشهير وإجراء جراحة لإزالة ١٥ ٪ من الكلى المصابة.

ويبدو أن سجون تلك الأيام كانت أفضل للصحفيين من سجون هذه الأيام .. ففى مذكراته عن السجن يقول التابعى : «كان أول إجراء قاموا به أنهم استدعوا حلاق السجن الذى قص لى شعر رأسى (نمرة واحد) كما يقولون .. أما ذقنى فكان الحلاق يحلقها لى كل أسبوع مرة واحدة وبالفئلة .. ثم أدخلونى إلى الحمام وخوجت من الحمام إلى زنزانة كانت فى الدول الأول من السجن.

«ووجدت فى الزنزانة (برش) على أسفلت أرضية الغرفة ومن فوقه مرتبة محشوة بالقش ومخدة محشوة كذلك بالقش وبطانية صوف.. وكنت أشرب الماء المعدنى .. ولكن من مالى الخاص .. ومن ثم كانوا يحضرون لى كل يوم زجاجة ماء أيفيان وكان ثمنها وقتئذ خمسة قروش .. وكنت بدأت أشرب المياه المعدنية منذ عام ١٩٣١ .. أى منذ مرضى للمرة الثانية بسبب المغص الكلوى.

«وفى صباح اليوم التالى زارنى كبير أطباء مصلحة السجن المرحوم الدكتور عبد المجيد محمود .. واكتشف أن فى عدة أمراض لم أكن أعرفها أو أشعر بها ومنها لغط فى القلب .. وزلال .. وضغط دم ضعيف .. إلى آخره.. وأمر أن يضعوا لى سريراً فى الزنزانة وإلى جانبه مائدة صغيرة عليها غطاء من الرخام .. كما أمر لى بطعام خاص وهو بناء على طلبى قهوة وقطعة من الجبن أو الحلاوة الطحينية فى الفطور وكنت أتناوله فى الساعة السادسة صباحاً .. وحساء عدس وكبدة أو لحم مشوى وأرز وفاكهة الموسم سواء كان ذلك عنباً أو برتقالاً فى الغذاء .. وكان ميعاده فى تمام الساعة الثانية عشرة ظهراً .. مثله فى العشاء فى الساعة السادسة مساء .. ومرة كل أسبوع كان يقدم لى نصف دجاجة (روستو) فى طعام الغذاء.

«وحدث أن وصلنى كيلو من البتى فور واحترت فى كيفية إخفاؤه .. وأخيراً حشوت به جيوب (الروب دى شامبر) الذى كنت أضعه فوق البيجامة .. ولقد بقيت رائحة البتى فور عالقة بالروب دى شامبر عدة أيام .. وذات يوم كنت فى المستشفى وأرسلت لى فاطمة اليوسف زجاجة صغيرة مملوءة بالكافيار الأسود اللون الأصيل .. واحترت كيف أفتح الزجاجة أو البرطمان الصغير .. وأخيراً قمت من فراشى وذهبت إلى غرفة العمليات الجراحية وكانت بجوار الجناح الذى كان سريرى موجوداً فيه .. وجدت فى الغرفة دولاباً

مملوءا بالآلات التى يستعملها الطبيب فى إجراء أى عملية جراحة .. واخترت منها آلة صلبة .. استطعت أن انزع بها غطاء برطمان الكافيار .. واعدت الأله إلى مكانها بعد أن غسلتها جيدا وذهبت بالكافيار إلى الحمام القريب من سريرى وأكلته (حاف) أى من غير عيش أو طوست أو زبدة .. إلى آخر ما يؤكل به الكافيار).

فور خروجه من السجن قرر التابعى السفر إلى أوروبا فى رحلة إستجمام .. وفى تلك الفترة دبت الخلافات بينه وبين فاطمة اليوسف .. ويرى صبرى أبو المجد أن خطابات مصطفى أمين إلى التابعى «من الأسباب التى أدت إلى الإسراع بوقوع الانفصال بين التابعى وفاطمة اليوسف فما أكثر ما أوغر صدر فاطمة اليوسف» .. فى واحد من هذه الخطابات «لقد ضايقت المدام (لقب كانت تُنادى به فاطمة اليوسف) الفقرة التى جاء فيها إنك تطلب منها أن تسمح لك بالانفجار .. فقد فهمت مئات المعانى للانفجار أقسم لك أنك لم تجل فى خاطرك أنت يوما ما .. إنى حاولت أن أعرف سبب جفاء المدام من ناحيتك فأول هذه الأسباب أنك لا ترسل لها خطابات تسأل عن صحتها (.....) وتقبل يديها ورجليها إن أمكن .. وثانى الأسباب أنك لا تسأل عن المجلة لا بمقالة ولا بنقدها أو باقتراح تحسينات .. وثالث هذه الأسباب أن إجابتك فى التحقيق لم تعجب المدام فهى ترى أنك قلت طالما نصحتها بعدم نشر مثل هذه الأخبار بينما فى الواقع هى التى طالما نصحتك بعدم نشر مثل هذه الأخبار». (٥)

ويستطرد صبرى أبو المجد: «كانت فاطمة اليوسف لا تطيق فى ذلك الوقت مصطفى أمين الذى رد إليها الموقف بإنهاء شركة استمرت بينها وبين التابعى لمدة ٩ سنوات وعشرة استمرت ١٤ سنة كانت حديث الوسط الصحفى والفنى والسياسى».

وقد بقى مصطفى أمين بعض الوقت فى روز اليوسف ثم لحق بالتابعى فى آخر ساعة .. وقد كتب مذكراته عن تلك الفترة فى كشكول بنى كان من بين الأوراق التى احتفظت بها زوجة التابعى السيدة هدى ونشرت بعضها فى مقدمة كتاب صبرى أبو المجد عن التابعى .. وكان سبب فى تصورها أن مصطفى أمين فعل بالتابعى ما سبق أن فعله بفاطمة اليوسف .. وفى هذه المذكرات:

السبت ١٤ يوليو: «صدر العدد الأول من آخر ساعة أعتقد أنه عدد مدهش ولكن ينقصه التهويش فى كتابة الأخبار».

الأحد ١٥ يوليو : «تكلمت مع المدام فى التليفون .. كانت تسيل رقة وظرفا وبُدت اسفها أن عددنا سقط .. إننى أتألم لما أسمع رأى الناس فى المدام .. ولا أعرف لماذا أتألم هكذا؟» .

الجمعة ٣ أغسطس : «عرضت على المدام خمسة جنيهات لأدفع قسط السيارة فرفضت وقلت لها انى لا أقبل أن أخون أستاذى ولا أستطيع أن أعبد إلهين .. وأسجد لقبلتين» .
السبت ٤ أغسطس : «قالت لى المدام اخترت فاخترت طبعاً أستاذى» .
الخميس ٢٠ سبتمبر : «قالت لى المدام - لو كنت تحببى اخرب آخر ساعة كما خربت روز اليوسف» .

الأربعاء ٣ أكتوبر: «أنا مع المدام لكن عندما أخرج من عندها أدبر لها المقالب .. لماذا أكرهها كل هذه الكراهية؟» . (٦)

صدر العدد الأول من مجلة آخر ساعة يوم السبت ١٤ يوليو ١٩٣٤ .. ونجحت نجاحاً مبهرًا .. خاصة وأن التابعى أخذ من روز اليوسف معظم نجومها ومحرريها .. الدكتور سعيد عبده .. فنان الكاريكاتير الأرمنى إسكندر صاروخان .. مصطفى أمين .. على أمين .. وضم إليها فيما بعد جيل جديد من الصحفيين .. هيكल .. إبراهيم الوردانى .. ورشدى صالح .. وتوفيق بحرى .. وفرج جبران .. وغيرهم .

ويمكن القول أن هيكل وجد نفسه فى آخر ساعة .. وهو يعترف بأن «تجربة العمل مع التابعى ممتعة» .. ويشهد أنه تعلم منه الكثير .. ويقول : «ولقد وجدتني شديد الإعجاب بأسلوبه الحلو السلس .. وفى البداية رحت أقلده» . (٧) ويقول أيضاً: «ربما كان التابعى على حق .. على الأقل فيما يتعلق بمجلس النواب (البرلمان) .. فلقد أتاح لى مقعد آخر ساعة فى شرفة المجلس الاقتراب من أجواء السياسة المصرية» .

إن العبارة الأخيرة ليست مجرد عبارة عابرة .. فالبرلمان عادة هو مطبخ السياسة .. وفى هذا المطبخ ينضج الصحفى المراقب الموهوب ويتعلم على نار هادئة .. وقد توقف هيكل عند حادثتين رواهما لى وأثبتتا له أن واجهة وكواليس السياسة المصرية فى تلك الأيام كانتا وجهان لعملة واحدة هى فساد الحكم .

الحادثة الأولى كانت فى البرلمان عندما تقدم مكرم عبيد (وكان قد انفصل عن الوفد وأصدر الكتاب الأسود ضد مصطفى النحاس وحكومته) بسؤال حول استغلال أحمد

حسنين رئيس الديون الملكى لنفوذه فى الحصول على اثاث من جهة حكومية بسعر أقل من المعتاد .. وحدثت أزمة حادة ترتب عليها تدخل سير والتر سمارت السكرتير الشرقى للسفارة البريطانية وقابل رئيس المجلس عبد السلام باشا جمعة وطلب منه حذف ما جرى من مضبطة الجلسة حفاظا على ما تبقى من سمعة الوفد ودفاعا عنه وحماية لعوراتاه .. وفى اليوم التالى قال عضو البرلمان فكرى أباطة عند التصديق على جلسة اليوم السابق: إن المضبطة حذف منها شىء.. فقام مصطفى النحاس غاضبا وأنكر ذلك .. بل وسب مصطفى النحاس فكرى أباطة وقال له «أقعد يا كلب» .. فذهب فكرى أباطة وتساءل: هل ما سمعت صحيحا؟ .. فرد عليها مصطفى النحاس: أنت سمعت ما قلت .. وهاج معظم نواب الوفد مؤكدين أن ما جرى بالأمس لم يجر.

قال لى هيكل: إن هذه الحادثة علمتنى أول درس فى السياسة المصرية .. واقعة تحذف .. ورئيس حكومة يسب عضوا .. ونواب ينكرون ما جرى .. وقبل ذلك نحن أمام فساد واستغلال نفوذ .. وتدخل من الإنجليز فى أعلى سلطة تشريعية فى البلاد .. من هذا المدخل عرفت السياسة المصرية على حقيقتها.

والحادثة الثانية كان بطلها أيضا أحمد حسن باشا .. كان التابعى قد دعاه لحفل فى بيته إلى حفل على شرف رياض الصلح .. وكان بين الحضور هيكل ومصطفى أمين .. أما نجمة الحفل فكانت المطربة اسمهان .. ولم يمر سوى بعض الوقت حتى جلس رئيس الديوان على الأرض تحت قدمى اسمهان .. ولم يتردد فى أن يشرب «الشمبانيا» فى حذائها بينما كانت هى تغنى «ليال الأنس فى فيينا».

فى ذلك الوقت كانت مجلة آخر ساعة مجلة وفدية .. وفى أجوائها وجد هيكل نفسه بحكم طبيعة المصادر الصحفية المتاحة أقرب إلى الوفد .. «مع إحساس غالب بأن ذلك مجرد تأثير مناخ وليس نتيجة مؤكدة لاختيار وقرار» (٨)

لكن الوفد خرج من الحكم بإقالة ٨ أكتوبر ١٩٤٤ الشهيرة .. ووجدت آخر ساعة نفسها فى المعارضة أمام «حكومة إئتلافية هزيلة من أحزاب الأقلية شكلها الدكتور أحمد ماهر باشا رئيس حزب السعديين تحت جناح القصر» .. وكانت هذه ضربة سياسية للمجلة .. ولم يمر سوى شهر واحد حتى تطلقت آخر ساعة ضربة أخرى اشد .. وهى صدور «أخبار اليوم» .. وكانت هذه ضربة صحفية للمجلة .. وهكذا تحالفت السياسة والصحافة ضد التابعى ومجلته.

لقد حققت أخبار اليوم نجاحا فوريا بسبب المقالات التي كتبها مصطفى أمين تحت عنوان «لماذا ساءت العلاقة بين القصر والوفد؟» .. وكانت كما يقول هيكل : «حافلة بالأسرار والحكايات والقصص ومشوقة إلى أكبر حد» .. وكان هناك سبب آخر لنجاح أخبار اليوم هو لجوئها للصحافة الشعبية بصورتها الحديثة على طريقة صحافة «التابلويد» أو صحافة «بيفر بروك» الإنجليزية وهي مزيج من الإثارة والتسلية والنميمة والدعاية السياسية المباشرة.

«وفى كل الأحوال فإن أخبار اليوم أصبحت المدفعية الثقيلة الموجهة إلى الوفد تدك مواقع دكاً عنيفاً صباح كل سبت .. وكان الوفد فى موقف لا يحسد عليه .. مطرود من الحكم بالإقالة .. ومحاصر تحت دك المدفعية الثقيلة لأخبار اليوم..» (٩)

وبدا التابعى يسعى جاهدا لتطوير آخر ساعة حتى «تستطيع أن تقف مع الوفد فى وجه المدفعية الثقيلة الجديدة» .. لكن .. هيكل يضيف : «ربما كانت هناك أسباب أخرى منها أن التابعى كان يعتبر نفسه أستاذا لمصطفى وعلى أمين .. وربما شق عليه معنويا أن يرى مجلة أسبوعية سياسية جديدة يصدرانها تسبق مجلته وتفوقها بكثير من نواحى عدة» .

ويستطرد هيكل : «ومع أنى كنت قد أصبحت سكريتر تحرير آخر ساعة فإن عملية التطوير الجديدة تولاها التابعى بنفسه وظلت بنودها فى رأسه ينفذها واحداً بعد واحد» .. «ومن سوء الحظ أن التجربة لم تنجح .. وفوق ذلك فإن مصروفات آخر ساعة زادت بأكثر من توقعات التابعى» .. وكان .. «أن قرر التابعى فى نوبة ملل أو نوبة يأس أن الوقت قد حان ليرفع عن كاهله أعباء ملكية مجلته .. لقد قرر أن يبيع آخر ساعة .. وقد أتفق على بيعها فعلا .. والمشتري الجيد هو أخبار اليوم .. مصطفى وعلى أمين» . (١٠)

ولكن .. بيع التابعى لآخر ساعة كان صفقة خاسرة بالنسبة له تماما .. فهو لم يأخذ مليما واحداً فى مقابل تنازله عنها .. وقيل فى عقد البيع الذى حرره زهير جرانة فى ١٨ إبريل ١٩٤٦ أنه أخذ ألف جنيه لكنه يقول فى مذكراته إن ذلك لم يحدث .. والذى حدث أن الضرائب حاسبته على الألف جنيه .. وقال : أنه وقع العقد لأنه كان فى أشد حالات المرض .. وأنه كان فى حاجة للسفر إلى الخارج.

وينص العقد الذى وقعه مصطفى أمين وشهد عليه شقيقه التوأم أن التابعى يتقاضى مبلغ ٣٠٠ جنيه شهرياً مقابل مقالين كل شهر .. وكل ما زاد على ذلك يأخذ ١٥ جنيه على كل مقال .. على أن يتعهد بأن لا يشترك فى تحرير أو إصدار أو تمويل أى مطبوعة أخرى.

وفى أوراقه يقول التابعى : أن هيكـل وصف هذا العقد بالنسبة لى بالغبن الشديد.. كانت العلاقة بين هيكـل والتابعى قد أصبحت علاقة حميمة .. فهيكـل يعتبر نفسه «أقرب تلاميذه إليه» .. ويعتبر نفسه كذلك «آخر هؤلاء التلاميذ» .. والتابعى يعتبر هيكـل «اكتشافه» الشخصى فى عالم الصحافة.

لم يطلب الملاك الجدد لأخر ساعة سوى أربعة محررين فقط .. هم التابعى وهيكـل وسعيد عبده وصاروخان .. قال التابعى لهيكـل : «هم يطلبونك .. ويصرون عليك» .. فسأل هيكـل فى سخرية: «هل يشترون الأرض ومن عليها مثل عقود الإقطاع الروسى؟» .. وأخرجت السخرية التابعى .. وشعر هيكـل بالندم .. ولا يزال.

فى مساء اليوم نفسه وقعت مفاجأة غير متوقعة .. اتصل إميل زيدان – مالك دار الهلال هو وشقيقه جورج زيدان – هيكـل ودعاه للقاءه .. وعرض عليه رئاسة تحرير مجلة «الأثنين» وكانت مجلة سياسية مصورة سبق أن رأس تحريرها مصطفى أمين و«فى عهده بلغت أوج انتشارها» .. وبعد خروجه منها فى نوفمبر ١٩٤٤ تولاها غيره وتأثرت أحوالها .. وطلب هيكـل مهلة ليفكر فى العرض .. وكان أقرب لقبول العرض .. «فها هى رئاسة تحرير مجلة سياسية من مجلات الدرجة الأولى تعرض عليه وهو لم يتجاوز بعد سن الثالثة والعشرين .. وتصور هيكـل أن التابعى سيوافقه على رأيه .. لكن التابعى فاجأة بالقول: «راجع نفسك .. إن مجالك سيكون أوسع وأرحب فى أخبار اليوم» .. وأضاف بصوت مشحون بالتأثر والكبرياء معاً: «أنه لا يريد أن يتركه وحده».

ولم يتوقف سيل المفاجآت .. فقد إنفتح الباب ودخل منه أحد الملاك الجدد هو على أمين .. لم يكن هيكـل قد لقيه من قبل .. لكنه أقبل على هيكـل فاتحاً ذراعيه ويقبله على الخدين .. وهو يقول: إنه لا يهنته فقط على انضمامه لأخبار اليوم ولكنه يهنئ أخبار اليوم أيضاً على انضمامه إليها.

وتطوع التابعى ليحدث على أمين على عرض دار الهلال بأن يتولى هيكـل رئاسة تحرير مجلة الاثنين .. «وهز على أمين رأسه بشدة نفياً ورفضاً .. وقال مكانه الحقيقى معنا فى أخبار اليوم» . (١١)

وبقى هيكـل إلى الغذاء مع التابعى فى بيته .. واستأنفا الحديث بعد الظهر .. ثم فى المساء .. وحتى آخر الليل .. وقبل الفجر أدرك النعاس التابعى .. فدعا هيكـل إلى أن يستريح حتى الصباح فى غرفة نوم إضافية بجوار غرفته .. ودخل هيكـل الغرفة .. لكنه لم ينام .. ولا استراح.

إنها لحظة من لحظات التحول وتقرير المصير .. فهذا هو «الأستاذ» عازياً .. أجيراً .. بعد أن فقد «آخر ساعة» فى ثنائية واحدة .. وما هى عائلة صحفية جديدة تضاف لعائلات الصحافة .. عائلة «أمين» التى قررت النجاح والثراء مهما كان الثمن .. وقد أضيفت لعائلة «زيدان» فى دار الهلال .. وعائلة «تقلا» فى الأهرام .. وعائلة «فاطمة اليوسف» فى روز اليوسف .. وعائلة «نمر» فى شركة الإعلانات الشرقية .. وعائلة «أبو الفتاح» فى المصرى .. إن معظم الأقوياء فى بلاط الصحافة كان لهم ظهوراً من ملكية ما يعلمون وما يكتبون فيه .. فما الذى يمكن أن يفعله هيكى؟.

لقد مرت عليه ليلة تقرير المصير مثل عام من الأرق والسهر .. محرر فى أخبار اليوم .. أم رئيس تحرير فى دار الهلال ؟ .. الحرية فى اتخاذ القرار عند آل زيدان .. أم الصحافة المتحركة مع الضغوط والمعاناة عند آل أمين؟.

سؤال ظل يؤرقه حتى تسلمت نسمات الفجر ممزوجة بالندى .. وقام من أرقه يبحث عن فنجان قهوة .. وبدأ له أن التابعى كان نائماً مستريحاً .. غير مؤرق .. فهذه هى طبيعة التابعى أبو هيمية .. أن ينفق أكثر مما يكسب .. وأن يبيع ما يملك دون حساب الربح والخسارة .. وأن لا يعمل لدنياه أبداً.

الهوامش

- (١) هيكى : «بين الصحافة والسياسة» - مرجع سبق الإشارة إليه - ص ٢٨.
- (٢) سمير صبحى : «الجورلنجى» - مرجع سبق الإشارة إليه - ص ٣٧.
- (٣) هيكى : المرجع السابق - ص ٢٩.
- (٤) لعل أفضل كتاب عن محمد التابعى هو كتاب صبرى أبو المجد عنه وهو المصدر الرئيسى لى فى الكتابة عن التابعى وقد صدر الكتاب فى عام ١٩٨٦ عن دار التعاون.
- (٥) و (٦) صبرى أبو المجد : المصدر السابق.
- (٧) هيكى : المصدر السابق : ص ٢٩.
- (٨) و (٩) و (١٠) و (١١) هيكى : المصدر السابق - الصفحات ٣٠ و ٣١ و ٣٤.

✍

من خطر الحرب إلى خطر الكوليرا

■ عندما أصدر التابعى «آخر ساعة» فى عام ١٩٣٤ بدت المجلة الوليدة وكأنها امتداداً لمجلة روز اليوسف .. فى الحجم .. والغلاف الكاريكاتورى .. ونوع الورق .. وقبل ذلك أسلوب التحرير الذى خص به التابعى المجلتين .. وربما لهذا السبب كان نجاح آخر ساعة على حساب روز اليوسف والعكس صحيح .. وربما لهذا السبب أيضاً بقيت روز اليوسف صامدة .. فهى الأصل بينما تعرضت آخر ساعة لخطر الفناء أمام مدفعية أخبار اليوم الثقيلة .. ولم ينقذها إلا الاستسلام لشروط الغزاة الجدد للصحافة .. وأن تصبح جزءاً من إمبراطوريتهم .. وتغير جلدتها وشخصيتها.

لم يبق هيكل فى آخر ساعة - والتابعى يملكها أكثر من عامين (منذ دخوله إليها فى عام ١٩٤٤ وحتى بيعها فى عام ١٩٤٦) .. ولا يجد المدقق لأرشيف آخر ساعة فى هذان العامين نجاحاً ظاهراً لهيكل .. فإسمه لم يظهر إلا مرات تعد على أصابع اليد الواحدة وبالبنط الصغير .. وهو أمر متوقع .. فقد كان فى مرحلة البداية .. وكان المطلوب منه أن يأتى بأكبر حصيلة من الأخبار .. لا أن يكتب المقالات .. وإن كانت براعته المبكرة فى الكتابة جعلته يأخذ مكاناً سريعاً فى مطبخ المجلة الذى يسمى «الديسك» فيه تعاد صياغة الأخبار والتحقيقات والتقارير بصورة جذابة .. لكن رجال «الديسك» غالباً ما يكونوا جنوداً مجهولين .. لا يعرف القراء أسماءهم .. أما الأسماء اللامعة على صفحات آخر ساعة فى تلك الفترة فكانت تقتصر على محمد التابعى .. الدكتور سعيد عبده .. كامل الشناوى .. سلامة موسى .. عبد الله الكاتب .. وأحياناً كانت المجلة تستضيف إحسان عبد القدوس .. أما الجيل الجديد فكان لا يزال فى مرحلة الصبر والتحمل.

بعد أن أصبحت «آخر ساعة» فى أخبار اليوم .. تغيرت تماما .. أصبح حجمها فى حجم التابلويد .. وانتقلت طباعتها إلى «الروتوغرافور» .. ودبت الحياة الساخنة فى صفحاتها .. وبدأ هيكل يجنى ثمرة كل ما زرعة.

فى أول مايو ١٩٤٦ عُيِّن بمرتب ٣٠ جنيها .. ثم حصل على علاوة ١٠ جنيها فى أول مايو ١٩٤٨ بعدها قرر السفر إلى فلسطين لتغطية الأحداث التى تجرى هناك .. ثم علاوة ١٠ جنيها فى أول يناير ١٩٤٩ بعد أن نجحت رسائله الصحفية التى غطت حرب فلسطين بصورة مذهلة .. ثم علاوة ٥٠ جنيها فى أول يوليو ١٩٥٢ عندما عين رئيساً لتحرير آخر ساعة .. ثم حصل فى أول إبريل ١٩٥٤ على ٥٠ جنيها بدل تمثيل و ٢٠ جنيها بدل بنزين وإصلاح سيارة .. ثم عين - مع رئاسته لتحرير آخر ساعة رئيساً لتحرير جريدة الأخبار - فى يونيو ١٩٥٦ .. وساعتها قرر على أمين أن يرفع إجمالى دخل هيكل من عمله إلى ٥ آلاف جنيه فى السنة .. موزعة شهرياً كالتى: ٣٣١ جنيه و ٦٦٦ مليماً (مرتب أصلى) و ١٥ جنيه غلاء معيشة و ٥٠ جنيه بدل تمثيل و ٢٠ جنيه بدل انتقال .. والمجموع ٤١٦ جنيه و ٦٦٦ مليماً. (١)

لكن .. الأهم من المرتب وغلاء المعيشة وبدل البنزين كان العمل الصحفى .. لقد بدأت مرحلة تألق هيكل على صفحات آخر ساعة بتحقيقاته التى كانت تميل فى البداية إلى الجريمة بأبعادها الاجتماعية والبشرية والخفية والدرامية .. وقد غطت هذه التحقيقات سجون الرجال والنساء .. وقضايا أمن الدولة .. والمحاكمات الشهيرة فى وقائع الإغتيال السياسى .. وكان من الصعب على أشد الخصوم عداءاً لهيكل أن لا يسجلوا اعترافهم وإعجابهم به وبموهبته المبكرة فى الصحافة التى لم يدرسها ولم يكن فى نيته احترافها.

فى عدد آخر ساعة رقم (٦٣٧) الصادر يوم ١٨ يناير ١٩٤٧ يكتب هيكل عن تنظيم شيوعى قبض عليه .. كان ما كتبه بعنوان: «الرفيق» عمروف «المكوجى رئيس خلية شيوعية والرفيق «خالد» الكناس أستاذ الشيوعية» .. ويبدأ التحقيق بسخرية لا تقل عن سخريته فى العنوان أو المانشيت الرئيسى .. فيقول:

«طوال السنين الثلاثة الماضية كانت الشيوعية هى «البيع» الذى يتحدث عنه كل الناس وليس فيهم من رآه .. فإن كل التحقيقات والتفتيشات والاعتقالات لم تؤد إلى شىء يقدم أصحابه بمقتضاه إلى المحاكم ليحاسبوا على ما وجه لهم من تهم ومن هنا أصبحت الشيوعية أشبه ما تكون بقصة خيالية ومن أيضاً خرجت هذه النكتة المشهورة:

« - هل أنت شيوعى ؟

« - لا .. أنا مكوجى.

«ويظهر أن القدر شاء أخيراً أن يظهر «البعبع» فتعرض على محكمة الإسكندرية أول قضية يقدم فيها الشيوعيون إلى المحاكمة .. وشاء أيضاً أن تتحول النكته المشهورة إلى حقيقة ماثلة فإن رئيس خلية الشيوعية التى ألقى القبض عليها فى الإسكندرية وهو الرفيق «عمروف» .. مكوجى.

كانت الخلية مكونة من ٦ عمال بسطاء .. فيهم الحلاق والنقاش والكناس .. أما التهمة التى وُجّهت إليهم فهى العمل على قلب نظام الحكم بالقوة .. وكانت الخلية تجتمع فى بيت أحد أعضائها فى حارة «عبد الفتاح» بحى باكوس .. أما عناصر القوة التى كانوا سيقبلون بها نظام الحكم فكانت كتاب فيه خطب ستالين وكتاب عن كيفية استغلال الرأسمالية للعمل .. وكانت قيمة استمارة العضوية ١٠ قروش .. وقيل أنهم كانوا يسعون للتدريب العسكرى .. لكن النيابة لم تجد طلقة رصاص واحدة.

فى عدد آخر ساعة رقم (٦٦٨) بتاريخ ١٢ أغسطس ١٩٤٧ يضرب هيكل ضربته الصحفية الأولى عندما يستقل هو ومحمد يوسف كبير مصورى أخبار اليوم سيارة جيب ويشقان بها الطريق إلى منفلووط ومنها إلى حزن الجبل الذى كان «الخط» يتخذه مسرحاً لعملياته ولأيامه الأخيرة .. إن الخط كان من أشهر المجرمين الذى أثاروا الرأى العام فى مصر .. وحولته الصحافة إلى أسطورة .. وهى أسطورة أغرت مخرج سينمائى كبير مثل صلاح أبو سيف لتحويلها إلى فيلم سينمائى فيما بعد كان اسمه «الوحش» لعب بطولته محمود المليجى وكتب السيناريو والحوار له نجيب محفوظ.

إن ما كتبه هيكل عن «الخط» كان بداية شهرته العريضة .. وساعده على ذلك أنه لم يتردد فى كتابة تحقيقه الصحفى عن «الخط» وكأنه يروى رواية مثيرة .. ينتظرها الناس فى تشوق وغموض وإثارة وتوتر:

«إن الرصاصة الأخيرة فى قصة «الخط» لم تطلق بعد .. إنها رصاصة مدخرة باقية لطفل صغير عمره الآن أقل من سنتين .. ولا يمكن أن تعتبر هذه المعركة منتهية حتى تنطلق هذه الرصاصة فتستقر فى قلب الطفل البريء الذى يحدق فى الناس بشرود وهو لا يعرف مصيره ولا يعرف أى حقد سيبذر فى قلبه منذ الآن لكى يكبر ويأخذ بثأر أبيه .. والطفل هو «هاشم» والأب هو «الخط».

«إن هذا الطفل الصغير هو الرجل الوحيد الباقي من عائلة «الخط» وليس هناك شك فى أن أمه وجدته ستجعلان ثأره لأبيه مثله الأعلى وسترضعانه منذ الآن الحقد والكراهية

والضغينة وهذه حقيقة يعلمها كل الناس ويعلمها أيضاً أولئك الذين قتلوا الخط .. ومن هنا كانت الرصاصة المدخرة .

ويكتب هيكل عن أم الخط أو «خالتي فاطمة» كما يسميها أهالي «درنكة» والتي «تلمح وراء الدموع والشجن وقوة الأعصاب العزم الأكيد على الثأر» .. ويكتب عن زوجة الخط .. «رشيدة» الفتاة الجميلة التي تزوجها الخط وهي فى التاسعة من عمرها ولم تره خلال زواجها أكثر من عشر مرات .. وقد نفى الخط غداة زواجه منها إلى جبل الطور لكنه فر وعاد ليصبح عدو الحكومة رقم (١) .. ويبدو أن ذلك ما جعل أمه تقول وهي تسير فى جنازته: «يا كاييد الحكومة» .

ويكشف هيكل سر تسميه الخط فيقول: إنه عندما قُتل الخط كان فى جيبه مصحف وأحجية .. «كان جده فقيهاً كبيراً فى بلدته وكان اسمه «سر الختمة» و«الختمة» هى القرآن .. أى أنه الأمين على القرآن .. وبمضى الأعوام حذف المنادون كلمة «سر» فأصبح اسم العائلة «الختمة» .. ثم طارت التاء الأخيرة فى الختمة فأصبحت «الختم» .. ثم طارت الميم الأخيرة فأصبحت «الخت» وتحولت التاء إلى طاء كما ينطقها أهل الصعيد فأصبحت «الخط» .. أشهر أسم فى تاريخ الإجرام فى مصر» .

ويعود هيكل إلى تاريخه فيقول: إنه تاريخ فى منتهى البساطة «فعندما انتهت فترة طفولته بدأ يعمل فى رعى أغنام العائلة .. وقد منعه شيخ الخفر «حميده» ذات مرة من الرعى فى مكان بعينه .. ولم يكتف بذلك بل صفعه صفعة زلزلت عقل الغلام .. وفى اليوم التالى رد الخط الصفعة برصاصة استقرت فى قلب ابن شيخ الخفر .. ورد شيخ الخفر برصاصة استقرت فى قلب محمود عم الخط وأكبر أفراد عائلته .. ولم تمض أيام حتى كان الخط قد قتل تسعة من عائلة شيخ الخفر كل ثلاثة منهم فى ليلة وخرج مع أخوته إلى الجبل وبدأت العصابة عملها» .

«وتبعه كثيرون .. أقارب وأصدقاء وطلاب رزق .. ونصب نفسه قرصاناً على طرقات الصعيد يسرق وينهب ويهدد ويقتل عند اللزوم .. وبدأ يحكم الصعيد .. وأصبح الحاكم بأمر الله وبلغ الحال إلى حد أن أصحاب الأرض وكبار الملاك لا يجدون مفراً من أن يعهدوا له بحراسة حقولهم وحماية محاصيلهم فبدأ يعين الحراس من عصابته ويجبى الضرائب كما تفعل الحكومة وكان الفرق الوحيد بينه وبينها أنه يستطيع أن يحرس وأن يحمى أما الحكومة فقد كانت فى حاجة إلى من يحميها منه» .

«وكان أرسنقراطيا فى سرقاته .. دخل مرة منزل روبرت خياط بك فى أسيوط .. وأرسل خادماً إلى صاحب المنزل يقول له: إن الخط يطلب سيجاره .. وأرسل له روبرت بك

عشرة جنيهاً .. وأمسك الخط بالورقة فمزقتها وأعطاهما للخادم فعاد بها إلى سيده .. ورجع الخادم بعد قليل يحمل ورقة بخمسين جنيهاً .. وأشعل الخط سيجارته .. وخرج عائداً إلى الجبل» .

«كانت ملذاته هي السجائر التي يلفها لنفسه .. ثم مشروب الزبيب الذي كان لا يشرب سواه .. وقطة الأفيون التي لا يمشى بغيرها .. وكانت هوايته الكبرى بعد ذلك هي مطاردته للنساء .. وكم مرة قاد عصابته إلى معركة هائلة في سبيل امرأة .. وكانت امرأة هي التي سببت مصرعه حين أرغمته على الاستقرار في وابلور «المالطي» فذاع سره واصطادته الرصاصات الواحد والعشرين» التي أطلقت عليه .

في عدد آخر ساعة رقم (٦٧٣) بتاريخ ١٧ سبتمبر ١٩٤٩ يكتب هيكل على ٣ صفحات تحقيقاً جذاباً عن «الفندق الكبير» .. أو فندق «شبرد» القديم .. أهم مكان في مصر في ذلك الوقت .. يكتب هيكل عنه راسماً صورة جذابة .. واقعية لمكان كان ملتقى الجنرالات والعشاق والجواسيس .. ويقدم لوحته قائلاً:

«إن جميع القصص التي قرأتها الدنيا عن مصر بدأت في شبرد أو كان شبرد مسرحاً من مسارح حوادثها» .. كتاب «جافرس» المشهور «حديقة الله الخلفية» كان نصف حوادثه في شبرد .. وقصص آرثر كونان دويل كثير منها بدأ في شبرد .. وفي شبرد كتب الرحالة المشهور ستانلي ليفنجستون كتابه عن أمين عثمان باشا ..

«وكل مخاطرة أو مغامرة في مصر أو في العالم مرت على شبرد .. قبل أن يكتشف كارنارفون مقبرة توت عنخ آمون كان ينزل في شبرد .. وقبل أن يطير الجنرال الأمريكي دولتيل ليضرب طوكيو بالقنابل سنة ١٩٤٣ نزل في شبرد» ..

«وما أكثر وقائع التاريخ وأصناف الإشاعات التي صنعت في شبرد .. حضرت الإمبراطورة يوجيني بعض حفلاته .. وعاش فيه ملوك وسياسيون في الحكم وفي المنفى .. وشهد مؤتمرات بين رؤساء دول وحكومات كان بينهم تشرشل ورزفليت وشيانج كاي شيك ..

«أما الأقاويل والإشاعات فتشهد عليها ما كتبه صحفيو العالم مما كان يحدث في شبرد خلال سنوات الحزب .. فقد كان إلى جانب الملوك والسياسيين جواسيس ولصوص وقوم تحف بهم الشبهات والريب» ..

«إنه تاريخ مائة عام عاشها الفندق الذى أقيم فى المكان الذى كان فيه مقر قيادة نابليون عندما كان يحتل القاهرة .. عاشها حتى سنة ١٩٤٧ ليصبح الفندق الكبير أسطورة من أساطير مصر الغامضة».

وتحدث هيكل عن باب الفندق الدوار .. «ما أصدق الكاتبة الألمانية فيكى باوم وهى تقول فى قصتها «الفندق الكبير» .. مقعد أمام الباب الدوار للفندق الكبير هو عرش تطل منه الإنسانية فى عجائبها وأسرارها .. الباب الدوار .. يلف .. يلف .. ولا ينقطع عن الدوران .. أجناس العالم وأمم الشعوب تتدفق إلى هذه الدنيا من المثيرات والمتناقضات .. ثم يلف الباب لتنساب المثيرات والمعجزات إلى العالم الخارجى».

ثم يتحدث عن حجرات الفندق .. «إن كل حجرة لها قصة» .. ومنها الحجرة رقم ١٥٨ التى يسكنها عادة الملوك .. فقد شهدت غرام الملك ليوبولد ملك بلجيكا بزوجته الراحلة الملكة أستريد .. وشهدت وحدة الفونسو الثالث ملك أسبانيا الأخير .. وشهدت فيكتور عمانوئيل وهو ملك على إيطاليا وشهدته وهو فى منفاه فى مصر .. ومنها الغرفة ١٤٦ .. «إنها غرفة موعودة بالمغامرة والمخاطرة» .. نزل فيها بادن باول زعيم الكشافة فى العالم الذى اكتشفوا أنه جاسوسا .. والأمير يوسوبوف قبل أن يقتل راسبوتين بسنوات قليلة .. والجنرال عمر يرادلى القائد الأمريكى الذى اقتحم أوروبا حتى وصل إلى برلين .. وتشرشل .. ومونتجومرى .. ونجم السينما الأمريكية روبرت تايلور.

ثم يتحدث عن رجال الفندق .. مساعد المدير رولاندر .. «الشاب السويسرى الجميل الذى يملك مائة بدله ويتكلم خمس لغات .. وفيراراي رئيس الخدم» .. إن مرتبه الرسمى جنيهان ودخله الفعلى بين ثلاثمائة وأربعمئة جنية فى الشهر .. وماير .. البواب .. إنه فى إجازة الآن يتزحلق على الجليد فى سان موريتز فهو يقضى إجازته فى سويسرا مثل أصحاب الملايين .. وأهم من هؤلاء جميعا «جو» .. «البارمان العتيد الذى كتبت عنه كل صحف العالم وهو لم يتغير وراء البار الطويل فى الفندق الكبير».

وفى النهاية .. «لا يزال الباب الدوار فى الفندق الكبير يلف .. ويلف .. ولا ينتقطع عن الدوران».

وبعد أسبوع واحد انتقل هيكل من «الفندق الكبير» إلى «الفندق الصغير» .. من شبرد إلى فندق الحسين .. فى عدد ٦٧٤ بتاريخ ٢٤ سبتمبر ١٩٤٧ يكتب هيكل عن الوجه الآخر للحياة فى القاهرة .. وجه «الفندق الصغير» الذى يرى هيكل أن «حياته هى حياة النسيان .. الفقاعات الصغيرة التى تظهر على وجه البحر ثم تمضى لا تفهم من أين جاءت ولا تعرف إلى أين ذهبت .. ماض بلا مجد .. وحاضر بلا أضواء .. ومستقبل محفوف

بالغموض .. هذه هي الحياة في الفندق الصغير في حي سيدنا الحسين .. نزلاؤه هم أولئك المغمورون الذين لا يشعر بهم أحد .. وربما كانت حياتهم عامرة بالمغامرة والحب والشقاء والسعادة .. ولكن الدنيا لا تنظر إليهم ولا تلتفت نحوهم .. فإن أضواء الشهرة والغنى بعيدة عنهم».

«لا سجلات ولا كراسات .. وتبحث عن ماض «الفندق الصغير» المواجه لمسجد الحسين فتجيبك الذاكرة المكدودة لرجل أو اثنين عاصرا إنشاء الفندق في الوقت الذي قام فيه .. لقد مضت سنوات طويلة .. سبعون أو ثمانون .. منذ جاء رجل من بلاد العجم - هكذا يقولون - وكان معه ذهب فاشترى الأرض وبنّاها أمام المسجد المبارك ومن يومها لم يطرأ تعديل على الفندق الصغير .. ومات الرجل الذي جاء من بلاد العجم ومات أبناؤه .. والأحفاد هم الذين يرعون الفندق الصغير .. وهم اليوم سادته .. وقد بدأ أبناء الأحفاد يتطلعون إلى التراث الذي يوشك أن يؤول إليهم».

«إن الغرف لا يزيد عددها على ثلاثين .. والأجور هي ١٢ قرشاً للسريير المخصوص وفي كل غرفة سريرين .. و١٠ قروش للسريير العادي ويسمونه السكندو وفي الغرفة منها ثلاثة أو أربعة من الأسرة العادية .. وه قروش للأريكة في الأبهاء والماشى .. والباب مفتوح طوال الليل والنهار يستقبل عشرات ويودع عشرات ولا يتغير ولا يتأثر لأن الرواد هم .. هم .. لم يتغيروا ولم يتأثروا».

كان عمر هيكل ٢٤ سنة عندما بدأ يعبز عن موهبته الصحفية بهذه البراعة المبكرة .. كان ذكيا في اختيار موضوع التحقيق الصحفي وفي اختيار توقيته .. وكان جذابا في أسلوب عرضه لما يكتب .. ولا جدال أن عمله في صحيفة الإيجيبشيان جازيت ساعده على استيعاب التحقيق الصحفي بشكله الحديث .. ثم كان أن أضاف إليه دفء الأسلوب الأدبي الذي فرضه ويفضله عادة ذوق القارئ الشرقي .. ولا جدال أن دخوله أخبار اليوم في تلك الفترة قد منحه الفرصة لتجريب كل ما يخطر على باله من أفكار في التجديد والتطوير .. فقد كانت أخبار اليوم قفزة صحفية حديثة بكل المقاييس الصحفية.

لقد رفض هيكل عرض أمين زيدان .. ووجد نفسه في أخبار اليوم محرراً وسكرتيراً لتحرير آخر ساعة في نفس الوقت .. «وكانت تشغل دورا على السطح في عمارة تملكها إحدى شركات التأمين في شارع قصر النيل» .. وتعرف هيكل على مصطفى أمين الذي لا يزال يعتبره أهم وأفضل مخبر صحفي عرفته الصحافة المصرية .. وراح هيكل يتأقلم مع عالمه الجديد .. ولم تكن العملية - كما يقول - سهلة .. «وإن كانت نتائجها سعيدة

بالنسبة إلى وبالنسبة لى كل الأطراف فيما أظن .. وبالطبع كانت هناك فترة ملائمة ..
واكاد أقول فترة احتكاك .. لكنها مرت» (٢)

«كان الجو العام فى أخبار اليوم غير مستعد على الفور لقبول واستيعاب غرباء من الخارج .. ولكنها كانت مسأله أسابيع .. ثم تحقق الاندماج» (٣) ويدين هيكل بالفضل فى اندماجه فى أخبار اليوم لكامل الشناوى (وكان رئيسا لتحرير آخر ساعة فى ذلك الوقت) .. كان هيكل يعرفه من قبل .. فقد جلس إلى جواره مرات فى شرفه الصحافه فى مجلس النواب واستهوته شخصيته .. فكامل الشناوى شاعر وكاتب ومحدث وراوي .. «فنان قلب نواميس الكون فإذا النهار نوم وإذا الليل يقظة ومغامرات وحكايات لا أول لها ولا آخر» (٤) ويبدو أن اختلاف شخصية هيكل عن شخصية كامل الشناوى كانت سببا فى انجذاب كل منهما إلى الآخر .. التناقض أحيانا يكون عنصر جذب.

كان هيكل يتهمه بالبوهيمية .. وكان كامل الشناوى يتهمه بالنظام .. كان هيكل يراه «يهدر ثلاثة أرباع وقته وكان يرى أن الحياة أجمل من أن تضيق فى العمل .. وكان كامل الشناوى على علاقة حب دائمة مع الحب نفسه .. فقد كانت له حكاية غرام كل ليلة .. وكانت غراميات يائسة تلهمه قصائد حلوة فإذا جاء الصباح وسطعت الشمس تبدد غرام الليل وبقيت القصيدة الحلوة نسمعها ونستعيد سماعها عندما تهدأ الأحوال وتتيح لنا الظروف أن نسعى إلى غرفة مكتبة .. ملتقى الجميع بدفئتها الذى يذوب فيه الصقيع» (٥) ويعترف هيكل بأن مشاعره الخالصة اتجهت من أول لحظة إلى على أمين .. «كان كتلة متحركة من الحيوية .. وكان مع حجمه الضخم مازال يحتفظ بقلب الطفل الذى كان فيه ذات يوم وبطيئته .. وأحيانا كانت تعتريه حماقة الطفل واندفاعه التلقائى .. لكن الرجل فيه يعود بسرعة ليؤكد نفسه إذا هو مزاج صاف وروح اليقة» .. وكان هيكل «يحار فى الطريقة التى ينفعل فيها بسرعة ثم يهدأ فيها بسرعة» .. لكن .. مهما يكن .. فإن هيكل يعتبر تلك أحلى جوانب شخصيته.

كان العمل فى أخبار اليوم مقسما بين على أمين ومصطفى أمين .. «على أمين على وجه التأكيد هو «الموتور» الذى يجرى فيه الاحتراق الداخلى ويولد الطاقة والحركة .. ومصطفى أمين هو السائق الجالس على عجلة القيادة فى الدار ويوجهها فى أى طريق يختار» (٦)

وبدا مصطفى أمين فى عينى هيكل «رجلاً شديداً الذكاء فيما يقصد إليه .. شديد النشاط مع بعض المبالغة فى الحركة .. لطيف المعشر حين يريد .. لكنه ليس بالضبط مثل توأمه كتاباً مفتوحاً تقرأ صفحاته فى يسر وسهولة .. ولم أجد غرابه .. فذلك شأن مخبر صحفى كبير له اتصالاته اتواسعة ومصادره المتشعبة وحساباته المعقدة» (٧)

وفى الشهور الأولى من عمل هيكى فى أخبار اليوم وقعت بينه وبين مصطفى أمين احتكاكات سريعة .. «لكن العمل المشترك والصحة الدائمة أزاحا كل شىء جانباً» .. وقد اختلفا مرة فى الطريقة التى تغطى بها أخبار اليوم قضية اغتيال أمين عثمان .. إن أمين عثمان هو وزير المالية القريب للإنجليز وصاحب التصريح الشهير «إن العلاقة بين مصر وبريطانيا مثل الزواج الكاثوليكي» .. أى لا تقبل الطلاق .. وقد اغتاله حسن توفيق على نحو مثير .. وهرب من سجنه بعد القبض عليه .. وكانت أخبار اليوم تغطى هروبه «بشكل يضيف على القتل والهرب نوعاً من البطولة تختلط فيه القيم» .. وكان مصطفى أمين موافقاً ومدعماً .. لكن .. هيكى كان يرى «أن الجريمة السياسية لا قيمة حقيقية لها إلا إذا كان مرتكبها على استعداد لأن يدفع الثمن كاملاً ومن حياته قبل أى شىء آخر .. فى سبيل ما يعتقد أنه حق .. وإلا فإن كل القيم تختل بما فى ذلك جوهر روح الفداء لدى القاتل نفسه» .(٨)

واختلف هيكى ومصطفى أمين مرة أخرى حول التغطية الأخبارية لمفاوضات صدقى - بيغن .. كان مصطفى أمين يتمنى نجاح المفاوضات .. لكن .. ذلك لم يكن ما يحلم به هيكى .. وبسبب اختلاف مصادر أخبار كل منهما بدا أن ما يحصل عليه هيكى من أخبار يتعارض مع ما يحصل عليه مصطفى أمين من أخبار.

وتعقدت الأمور بينهما بعض الشىء عندما كتب مصطفى أمين فى أخبار اليوم مقالا عن مشروع معاهدة صدقى - بيغن عنوانه «نوقعها ونلعبها» .. فرد عليه هيكى بعد ثلاثة أيام فى آخر ساعة بعنوان «إذا كنا سنلعبها فلماذا نوقعها» .

وقد أشاع اختلاف المواقف والاتجاهات ظلاً من القلق لبعض الوقت بينهما .. وكان على أمين هو تيار الريح المندفع الذى يحاول دائماً أن يعيد للسماء صفاءها .. وربما ساعد على انقشاع الغيوم أن هيكى قرر فى تلك الفترة تغيير اتجاهه .. وبدأ له التغطية الأخبارية فى السياسة المحلية جهداً عقيماً .. وفكر فى العودة إلى التحقيق الصحفى .(٩)

كان الإنجليز على وشك الانسحاب من ثكنات قصر النيل التى كانت قائمة فى قلب القاهرة .. فقرر هيكى أن يقدم الصورة الأخيرة للحياة فى أكبر معقل الاحتلال والذل فى العاصمة المصرية .. وكان برفقته محمد يوسف كبير سمورى أخبار اليوم .. وقد رفض البريجادير هايم جويس قائد القاعدة دخولهما .. لكنهما رغم ذلك تسللا إلى الداخل وبقياً فيه ٤ ساعات وعندما خرجا قدما التحقيق الصحفى الذى نشرته آخر ساعة فى عدد (٦٤٤) بتاريخ ٢٦ فبراير ١٩٤٧ تحت عنوان «تسللنا إلى الثكنات» .

وكان وباء الكوليرا قد تفشى فى مصر .. فغادر هيكل القاهرة هو ومحمد يوسف أيضا ليقاما فى منطقة ظهور الوباء فى محافظة الشرقية .. وتقرر عزل المحافظة عن بقية مصر وكانا فيها .. وكانت رسائلهما الصحفية تصل كل أسبوع إلى أخبار اليوم تنقل لقرائدها ولقراء آخر ساعة صورة شاملة إنسانية للحياة فى ظلال الموت .. لقد عاد هيكل إلى الحياة مع الخطر كما كان يفعل فى الإجيبشيان جازيت .. كان الخطر هناك هو الحرب .. وكان الخطر هنا هو الوباء.

وقد لفتت مجموعة التحقيقات التى كتبها هيكل عن الكوليرا الأنظار إليه .. وفازت بجائزة الملك فاروق الأول للصحافة العربية .. وكانت جائزة لها شأنها فى ذلك الوقت خصوصاً بين الصحفيين الشبان .. ولا شك أن الصور التى التقطها محمد يوسف كانت سندا قويا لكل ما يكتبه هيكل.

ومحمد يوسف هو واحد من المصورين الصحفيين المهمين فى مصر .. كان حلمه أن يلتقط صوراً جميلة .. لكن ظروفه لم تكن تسمح له بأن يدفع ثمن الكاميرا .. ومن ثم التحق بدار الهلال فى عام ١٩٣١ ليعمل فى قسم التصوير الميكانيكى المرتبط بطباعة الروتوغرافور .. وهناك عثر على من يقرضه كاميرا كلما احتاجها .. وبدأ يجرب التصوير فى اخوته وفى المناظر الطبيعية .. ولكنه رغم ذلك لم يكن يعرف ما هو التصوير الصحفى .. وذهب يطلب عملاً فى جريدة روز اليوسف اليومية (لم تستمر طويلاً) .. وكانت أول مهمة يكلفونه بها هى تصوير مظاهرة فى الأزهر .. وذهب إلى موقع الحدث لكنه وجد المظاهرة قد انفضت وخجل أن يعود بلا صور .. فصعد إلى سطح أحد المنازل المطل على ميدان الأزهر والتقط صورة عامة للميدان فيها عدد كبير من رجال البوليس الذى كانوا يقفون تحسباً لمظاهرة أخرى .. وتصور أنه بهذه الصورة قد حصل على نصر صحفى .. وكانت مفاجأة عندما رأى زملاءه المصورين فى نفس الجريدة يقدمون صوراً للمظاهرة .. ومن يومها علم أن المسألة ليست مزاحاً.

ويروى هيكل فى عدد آخر ساعة (٧٧٦) بتاريخ ٢٩ يونيو ١٩٤٩ قصة صورة من صور محمد يوسف .. كان بطلها الآخر هو مصطفى النحاس .. الذى يقول هيكل عنه: إنه من مميزاته أنه رجل «فوتوجنيك» .. وهو بهذا الوصف نموذج رائع لمصورى الصحف الذين يبحثون عن الوجوه المعبرة الصالحة للتصوير ..

«ومن أشهر صور النحاس باشا صورة نشرتها آخر ساعة لرفعته وهو يصفق ولقد أثارت هذه الصورة يوم نشرها ضجة كبرى وتحدثت الناس عنها ولكن القصة الحقيقية

لهذه الصورة بقيت فى الكتمان حتى الآن .. ولقد التقطت هذه الصورة يوم زفاف السيدة سعاد الوكيل شقيقة صاحبة العصمة حرم النحاس باشا وكانت الحفلة فى الأريزونا ولم يكن بين المدعوين طبعاً أخبار اليوم ولا آخر ساعة وبينهما وبين النحاس باشا ما صنع كل الحدادين فى العالم .. منذ اخترعت الحداثة حتى اليوم .. ومع ذلك كان لابد لآخر ساعة أن تدخل الحفلة وأن تلتقط الصور وما كان ينبغى أن تفوتها هذه الحفلة وكانت وقتها من أكبر حفلات الموسم ..

وتسللنا أخيراً إلى داخل الحفلة .. تسللنا بعد أهوال مع الشبان الوفديين الذى كانوا يحرسون مداخل الأريزونا ومخارجه فى همة لا تقل عن همة البوليس فى تعقب الإرهابيين اليوم .. ثم وجدنا أنفسنا - محمد يوسف وأنا - أمام النحاس باشا وأمسكت قلبي بيدي أنتظر ما سوف يفعله النحاس باشا وكانت المفاجأة الكبرى أن ذاكرة النحاس باشا وهى ذاكرة حادة خائنة أو لست أدري ما الذى حدث ؟ .. فإن رفعتة أقبل على مرحباً يقول: أنت اتعشيت؟ .. قلت : نعم .. قال : إذن تعال كل بطيخاً .. ثم استطرد: أنا أكلت شمام .. وكنت وأنا لا أزال فى رهبة الإشفاق من أن يتذكر رفعتة أننى أعمل فى آخر ساعة لا أحس بشهية نحو البطيخ أو نحو الشمام .. وكان كل ما أود أن أفعله أن أبتعد عن النحاس باشا بسرعة.

«واقبل فؤاد سراج الدين باشا وهمس فى أذنى: ماذا تفعل هنا؟ .. قلت فى استسلام : ما تراه .. قال : على أى حال سأكتفم السر فعلاً .. وأشهد أن فؤاد باشا كتم السر فعلاً .. وفجأة قال النحاس باشا لفؤاد باشا ولى: تعالوا نسمع أم كلثوم .. وكانت أم كلثوم تغنى أغنية «أهل الهوى يا ليل» أو ستبدأ فى غنائها .. وذهبنا إلى الصف الأمامى وجلسنا .. رفعة النحاس باشا وإلى يساره فؤاد سراج الدين باشا .. ثم أنا .. وبدأت أم كلثوم تغنى .. غنت أم كلثوم : أهل الهوى يا ليل .. واستبد الطرب بالنحاس باشا فصاح وهو يعبر بيديه ورجليه وكيانه كله: أيوه .. مالهم؟ .. وأكلمت أم كلثوم: فاتوا .. مضاجعهم .. وصاح النحاس باشا: علشان .. إيه؟ .. واستطردت أم كلثوم: «واتجمعوا يا ليل .. صحبة وأنا معهم» .. وصاح النحاس باشا: ليه؟ .. لازم ح يطلعوا بيان .. وضحكت وابتسم فؤاد باشا وقال: النحاس باشا سعيد الليلة لأنه يحب سعاد - يقصد سعاد الوكيل - كما لو كانت أبنته ..

«ولاحظ محمد يوسف أن النحاس باشا يصفق لأم كلثوم بحماسة .. ومال على أذنى يقول لى: ما رأيك فى صورة للنحاس باشا وهو يصفق؟ .. قلت: عال .. قال: ولكن عليك أن تستأذنه .. قلت: ماذا أقول له؟ .. وجلست أقلب المشكلة فى ذهنى: كيف أستأذنه؟ وماذا أقول له؟ والأغنية تكاد تنتهى ثم ينهض رفعتة لينصرف إلى بيته - كما قال - لينام

وتضيق الصورة العجيبة .. ثم حزمت أمرى وأقدمت وهمست بالفكرة لفؤاد باشا .. قلت له: هل تستأذن لى رفعة النحاس باشا لكى نصوره وهو يصفق .. قال: إلى هنا لا .. وأنا لا أستطيع أن أقول له شيئا من هذا .. وسمع النحاس باشا حديثنا .. والتفت إلى فؤاد باشا وإلى ثم قال: ماذا يريد؟ .. وسكت فؤاد باشا ولم يكن أمامى مفر من الكلام .. قلت: كنت أطلب من فؤاد باشا أن يستأذن رفعتك فى أن نصورك وأنت تصفق .. وقال رفعتة بغضب: ليه «الزفت» ده بقى؟ .. وقلت بسرعة: كنت أريد أن أكتب تحتها «عندما يصفق الرجل الذى اعتاد أن تصفق له الجماهير» .. وضحك النحاس باشا بملء شذقيه وقال: جميلة دى .. فكرة كويسة دى .. ثم التفت إلى الوراء بسرعة وقال: فين المصور بتاعك؟ .. وأشرت إلى محمد يوسف فاقترب وبدأ النحاس باشا يشرح له فكرة الصورة كما لو كانت فكرته ..

«قال بلهجته الخاصة المعبرة .. بل القوية التعبير .. أسمع .. هى ح تخلص الحتة دى .. وأنا ح أسقف على طول .. فاهم .. وأنت تروح واخذ الصورة حالا .. وهز محمد يوسف رأسه موافقا ونظر إلى النحاس باشا الذى قال له فجأة: لا .. ده أنت باين عليك خيبان .. متنفعش .. ما أنتاش سريع كفاية .. لا بلاش .. موش عاوزين الصورة .. ثم سكت رفعتة وتغيرت ملامحه بسرعة وقال: وألا أنت تنفع .. طيب حاجربك .. بس بسرعة .. وقبل أن تمضى ثانية عدل النحاس باشا عن رأيه ومط شفتيه فى قنوط وقال: لا متنفعش .. واستمر رفعتة يقول: ينفع .. ثم يعود للنقيض .. ثم يغير رأيه .. بلا سبب ظاهر .. وأنا لا أكاد أتابع كل هذه التغيرات .. وأخيرا .. أخيرا استقر رفعتة على رأى وقرر أن محمد يوسف «ينفع» ثم قال له: أهه .. خللى بالك .. ما تبقاش خيبان .. هى ح تخلص الحتة دى وأنا أسقف .. أهه .. أنت مستعد .. وفرغت أم كلثوم من مقطع وصاح النحاس باشا: أهه .. أهه .. ثم رفع يديه يصفق بحماسة .. والتقط محمد يوسف الصورة بسهولة» .

لقد روى هيكل قصة هذه الصورة بعد حوالى ٣ سنوات من التقاطها .. وكان وقتها يوزع وقته وعمله بين أخبار الجريمة وأخبار المجتمع .. لكن .. ما صنع شهرة هيكل كانت تحقيقاته الصحفية الساخنة المعبرة عن الناس .. وهى التحقيقات التى نال بسببها جائزة الملك فاروق .. وكان أسمها الرسمى «جائزة الملك فاروق للصحافة الشرقية» وكانت تقدم للصحفيين العرب تحت سن الثلاثين .. وأن الجائزة كانت نقطة مضيئة فى حياة هيكل فإن من المفيد أن نقرأ له تحقيقا من التحقيقات التى كانت سببا فى الفوز بها .. لقد عثرت وأنا أفتش فى المجلدات القديمة لآخر ساعة على التحقيق الذى كتبه من قرية القرين فى الشرقية بعنوان «الحياة فى قرية الموت» وقد نشر فى عدد رقم (٦٧٦) فى تاريخ ٨ أكتوبر ١٩٤٧ وقد قال فيه:

«على رؤوس النخيل وبين الأكواخ المظلمة المتداعية وعلى شواطئ الترع والغدران وفى الوديان وفوق رمال الصحراء يسعى ميكروب الكوليرا فى قرية القرين ويجر فى أذياله الموت أينما ذهب .. إن معركة الموت والحياة على أشدها فى القرين .. ينشر الوباء دخانه القاتم الخانق على القرية الصغيرة فتنهض الحياة لتبدد بسماتها المشرقة هذا الدخان وتظل تقاومه وتقاومه .. وقد تختفى الابتسامة المشرقة أحيانا وتحل محلها الدموع ومع ذلك فإن الحياة لا تستسلم أبداً ولا تزال تثبت فى القرين أنها الأقوى..

«جزء كبير من سكان القرين من غير أهلها .. معكسر التل الكبير يقع على حدودها وقد نزح إليه عمال كثيرون من كل أنحاء القطر ليعملوا فيه واستقر جمهور كبير من هؤلاء فى القرين وأصبحت هذه القرية التى كان تعدادها ١٥ ألف نسمة تضم ٢٥ ألف دون أن يزيد على سبانيها بيت واحد .. وربما كان أهل القرين دون غيرهم من سكان قرى مصر قد أخذوا بنظام البنسيونات .. فكل فلاح كان له بيت وكل بيت كان صاحبه يوفر من حجراته حجرة أو حجرتين يؤجرها لغريب من العمال الذى يعملون فى القرين ..

«وحين تفشى وباء الكوليرا انتشر بادية الأمر بين عمال الجيش الغرباء وكان الفلاحون من أصحاب البيوت يخافون التبليغ عن الإصابات خيفة أن يعزلوا هم الآخرون .. ويموت «الغريب» وليس هناك من يسأل عنه .. ويحمله أهل البيت إلى الجبل فيدفنونه ويعودون فإذا سئلوا عنه فى الغد قالوا: لقد فر من القرين .. متى؟ .. قبل الوباء ..

«وحدث أن فاحت من الجبل روائح خبيثة وذهب بعض المستطلعين وعادوا يقولون أن هناك جثثا .. ويظهر أن الذين قاموا بدفنها كانوا فى عجلة من أمرهم فدفنوها على بعد قريب من سطح الأرض .. وأعلن عمدة القرية .. وفى القرين أكثر من عمدة .. إنهم يتبرعون لإقامة مقابر للغرباء وحدهم .. هؤلاء الذين لا أهل لهم ولا أحباب يكون عليهم ويحزنون لأجلهم..

«وفى اليوم التالى بدأت إجراءات الحفر والبناء .. وخرج عدد كبير من أصحاب القرين يساهمون فى بناء المقابر للغرباء وكان بين العاملين رجل اسمه رفاعى فقد أباه وزوجته وأبنا له صغيرا .. افترسهم جميعا ميكروب الكوليرا وبقي رفاعى على قيد الحياة .. ولقد حفر بنفسه ثلاث مقابر لأبيه وزوجته وأبنته .. ومع ذلك فإن هذا لم يمنعه من الاشتراك فى حفر المقابر .. للغرباء ...

«ولقد ظهر نوع من الفتيات فى القرين .. نوع الحزينات بلا سبب .. أو هكذا يرى أهلهن .. ولقد كان وجودهن ضرورة لوجود الغرباء .. الغرباء من العمال الشبان رواد السينما وسكان المدن .. وحين هبطوا على القرين لم يكن هناك مفر من حدوث قصص

غرام بينهم وبين عذارى القرين الجميلات .. وبعض هذه القصص انتهى بالزواج بين عذارى القرية والغرباء .. وبعضها لم يتسع له الوقت .. وأقبل الوباء وماتت أغاني الغرام فوق الشفاه.

«ويقبل أحد الآباء على بيته فى الليل وتقابله ابنته الشابة تسأله: أين كان؟ .. ولماذا تأخر وطرق القرية كلها مفاجآت؟.. ويجيب الأب المتعب: كنا نشترك فى دفن «غريب» .. وتسأله ابنته: من هو؟ .. فيقول لها اسمه .. ثم ينسى أن يلاحظ ابنته وهى تهرب لتخفى الدموع فجأة من عينيها .. وكل يوم يموت غرباء .. وكل يوم تسيل دموع ..

«وحين يظهر الوباء فى أحد المنازل ينقل سكانه إلى المعزل ويقفل البيت وترسم على بابه دائرة داخلها نقطة ومعنى هذه النقطة أن المنزل موبوء .. وكثيرا ما استيقظ رب أسرة فى القرين ليجد منزل جيرانه وقد رسمت عليه الدائرة فى وسطها نقطة .. لقد حدث كل شئ أثناء الليل .. زحفت الكوليرا .. وحمل المصاب ونقل أهل البيت وترك الميكروب علامته المخيفة على الدار.. وانتهى كل شئ .. والعجيب أن هذا لا يحدث ذعراً ولا يسبب رعباً..

إنتهى. (١٠)

لقد حقق هيكल نجاحا ملفتا للنظر فى مرحلة اهتمامه بالتحقيق الصحفى المحلى .. لكن .. النجاح فى حياة الصحفى سرعات ما يصاب بالملل والقلق .. ويصبح السؤال عن الخطوة التالية .. النقلة القادمة .. ماذا بعد؟ .. وهو سؤال ملح جدا رغم إرهاقه وصعوبته والمتاعب التى تأتى من الإجابة عليه.

الهوامش

(١) موسى صبرى : ٥٠ سنة فى قطار الصحافة - مرجع سبق الإشارة إليه - ص ٧٨٩.

(٢) محمد حسنين هيكل: بين الصحافة والسياسة - مرجع سابق - ص ٢٧.

(٣) و (٤) و (٥) و (٦) و (٧) و (٨) و (٩) هيكل المرجع السابق : الصفحات ٣٧ و ٣٨ و ٣٩ و ٤٠.

(١٠) استدعى الحصول على مقالات هيكل الأولى فى آخر ساعة جهدا كبيرا .. فليس فى دار واحدة فى مصر نسخة كاملة منها .. كما أن الإهمال التى عليه وسائل الحفظ والأرشيف قد ضاعفت من قسوة المهمة.

«هيك .. لأنه ما فى مصارى»

■ كان إسماعيل الحبروك يخشى أن يتكلم مع أحد فى مكان مغلق .. مكتب .. أو بيت .. أو سيارة .. وإسماعيل الحبروك كان صحفياً وشاعراً وروائياً رقيقاً وحساساً ومبدعاً .. وقد اقترح على زميله فى صحيفة «الجمهورية» ناصر الدين النشاشيبي ذات مرة أن يتمشياً معاً فى ملاعب نادى «الجزيرة» .. لياخذاً حريتهما فى الكلام بعيداً عن الرقيب وأجهزة التسجيل .. وجاءت سيرة الصراع الحاد بين هيكل ومصطفى أمين .. وكان ضمن ما قاله إسماعيل الحبروك عن هذا الموضوع:

- على الباغى تدور الدوائر .. لقد أرسل مصطفى وعلى أمين هيكل فى صيف ١٩٤٧ ومعه المصور محمد يوسف إلى قرية القرين فى منطقة الشرقية لكى يكتب عن انتشار وباء الكوليرا .. وظن مصطفى أمين أن هيكل لن يعود من هذه الرحلة إلا هو مصاب بالكوليرا فيموت ويخلص منه .. وعندما لم يمت هيكل أرسله «أولاد أمين» كمندوب عسكرى إلى غزة وبيت لحم فى حرب فلسطين .. وقال مصطفى أمين: إن هيكل سيعود جثة هامدة .. ولكنه عاد سالماً لامعاً على قدميه. (١)

وبالقطع .. يصعب قبول مثل هذا التفسير فى ذلك الوقت المبكر فى علاقة هيكل بأصحاب أخبار اليوم .. فهو من ناحية لم يكن فى حالة صراع بينه وبين مصطفى أمين .. ومن ناحية ثانية هو الذى طلب السفر بنفسه إلى القرين .. موطن وباء الكوليرا .. ومن ناحية ثالثة كان فى ذلك الوقت يعتبر تلميذاً نجيباً متفوقاً فى مدرسة أخبار اليوم .. وفى مدرسة أخبار اليوم يحرص الصحفى على تجديد مصادر أخباره .. وأن يضيف إليها .. وأن لا يكتفى بمصادر الدرجة الثالثة أو الثانية .. بل عليه أن يصل إلى مصادر الدرجة الأولى .. رؤساء الوزارة .. وزراء الخارجية .. سفراء الدول الكبرى .. زعماء الأحزاب السياسية ..

وفى هذه المدرسة لا يحتفظ الصحفى بأسرار.. فهو قد حصل عليها لينشرها .. وإذا لم يحصل عليها فلا مفر أمامه سوى أن يترك الصحافة ويعمل فى السبابة.. وفى المقابل كان المحرر فى أخبار اليوم ملكا فى هذه المملكة أو على الأقل أميراً .. راتبه مثل راتب الوزير .. وراتب الكاتب الجيد مثل راتب رئيس وزراء.. إنها مدرسة تجعل الصحفى المنتسب إليها يعيش فى أحلام سعيدة وخيالات كبيرة وطموحات واسعة «فهو بقلمه قادر على أن يشعل ثورة وأن يقيل وزارة وأن يدفع رئيس وزراء للانتحار وأن يتزوج بنت السلطان» (٢) والحققة أن هيكى -الذى تعود على حياة الخطر منذ أن ذهب يغطى معارك الحرب العالمية الثانية فى العلمين - هو الذى طلب بنفسه من على أمين أن يفتح أمامه باب التحقيق الصحفى خارج الحدود .. ويشهد هيكى أن على أمين تحمس .. ويشهد أيضاً: «أنه لم تكن هناك دار صحفية أخرى فى مصر وقتها على استعداد للمجازفة بمثل هذه الفرصة لأحد محريها غير أخبار اليوم» (٣)

والحققة أن الموت هو الوجه الآخر للحياة .. والخطر هو توأم المغامرة الصحفية .. هيكى يعرف ذلك جيداً .. وقد عاشه كثيراً .. فهو كاد أن يقتل فى حرب فلسطين لأنه لم يكن يعرف كلمة سر الليل التى لا يسمح بدخول المعسكرات المصرية إلا لمن يعرفها .. ويمكن طعن أو إطلاق الرصاص على من لا يعرفها .. وقد قال : إن أكثر متاعبة فى فلسطين سببها هذه الكلمة «كلمة سر الليل» .. «تكون سائراً ذات مرة وتضل الطريق أو تتأخر ثم تبغى العودة قبل أن يشتد بك الظلام وفجأة يبرز أمامك جندى كالعفريت ويصوب السونكى إلى صدرك تماماً.. ثم يصرخ فىك بأعلى صوته: كلمة سر الليل .. وقد تكون تعرفها فتهمس بها إليه وأنت تجمع أوصالك المبعثرة .. وقد تكون لا تعرفها وفى هذه الحالة لن تقرأ ما أكتب لأن سكان الجنة من الشهداء الأبرار لا يقرؤون الصحف ولا المجلات» (٤)

ويروى هيكى أنه كان عائداً من عمان إلى القاهرة جواً .. وبينما الطائرة تحلق فوق «بئر سبع» هرع إلى كبينة الطيار ليتابع معه خطر السير على الخريطة .. واستمع معه إلى الإشارات التى تنبعث من جهاز الراديو.. صادرة من محطات اللاسلكى التى يستخدمها الجيش المصرى فى فلسطين .. وكانت الإشارات سيلاً لا ينقطع .. ولكنه سيل غامض لا تستطيع أن تفهم منه شيئاً .. مثل «محمود - بط - سيد - ١٢ - ١٥ - ١ - فى الفجر» .. وفجأة بدأت الريح تعصف وإذا بالطائرة تدخل فى ضباب أصفر كثيف وتكافح كما لو كانت ذبابة أطبقت عليها خيوط عنكبوت قوى فبدأت تهتز وتترنح .. وكان معظم من فى الطائرة الصغيرة من طراز هافيلاند من السيدات الفلسطينيات اللاجئات العجائز .

وبصعوبة شديدة هبطت الطائرة هبوطاً اضطرارياً بعد فراغ البنزين وكان ذلك فى قاعدة عسكرية بريطانية .. وبعد تسوية أمر الهبوط بلا أنن رفضت القاعدة مد الطائرة بالبنزين ما لم تدفع ثمنه وكان ١٥ جنيهها.. ودخل هيكل للاجئات الفلسطينيات يشرح لهن القصة ويطلب حصتهن فى ثمن البنزين .. لكنهن هزذن رؤوسهن وقلن : ليس معنا مصارى .. ومصارى تعنى فلوس بلغة الشوام .. وهدد الطيار بأنه إذا لم يدفع ثمن البنزين فإن - الإنجليز سيسلمونهم لليهود .. فصرخن .. تساءلن: كيف .. فرد هيكل بلهجتهم «هيك .. لان ما فى مصارى» .. وبعدها ظهرت المصارى .. ولكنها لم تسلم للطيار إلا بعد أن تعهد كتابة بردها فى مطار القاهرة .. ووصلت الطائرة القاهرة .. وفتح بابها ونزل الطيار ووراءه عدة صيحات تسأله «وين المصارى» . (٥)

لمدة خمس سنوات .. ما بين عام ١٩٤٧ وعام ١٩٥٢ أنطلق هيكل فى تحقيقاته الخارجية وراء الحدود .. راح يغطى انصهار الحديد والدم بين العرب والإسرائيليين فى حرب فلسطين من أولها لآخرها .. وانقلابات سوريا التى كان نظام الحكم فيها يتغير كما تتغير الأفلام فى دور السينما .. والحرب الأهلية فى اليونان بكل ما فيها من أحزان وجبروت .. وثورة مصدق فى إيران التى كانت بروفة مبكرة لثورة الخومينى .. وصراع الشرق المسلم والغرب العلمانى فى تركيا والذى وصفه بصراع الويسكى والحبرة .. وعمليات الاغتيالات الكبرى التى اجتاحت المنطقة .. من اغتيال الملك عبد الله فى القدس إلى اغتيال رياض الصلح فى عمان .. إلى اغتيال حسنى الزعيم فى دمشق.

لقد اتسعت المسافات وتمددت أمام عينيه وتحت قدميه .. ولكن .. ذلك لم يحرمه من الرؤية الشاملة التى تربط مصائر وأقدار البشر فى المنطقة التى نعيش عليها .. ولعل حركة الجغرافيا الصحفية فى تلك الأيام هى التى نبهته لواقع الجغرافيا السياسية .. ولعلها هى التى تجعله يشير دائماً إلى أهمية النظر إلى الخريطة قبل أن يتكلم على حد قول ونصيحة الزعيم الفرنسى المعروف شارل ديغول.

ويجب أن نعترف أن هيكل فى رحلاته الخارجية المبكرة كان قادراً على الاحتفاظ بمصادرة الصحفية للاستفادة منها فيما بعد .. كما أنه عرف فضيلة كتابة المذكرات اليومية عن الأحداث والشخصيات التى تصادفه .. وهو ما جعل ذاكرته سليمة وحية وجاهزة للاستيقاظ فى أى وقت يشاء.. والأهم من ذلك أن هيكل لم يكتف بأن يرى ويسمع ويكتب فقط مثله مثل معظم المراسلين فى العالم.. وإنما كان يرى ويسمع ويقرا ثم يكتب.. والقراءة هى الرصيد الحقيقى للصحفى .. وهو الجسر الذى ينقله من موقع

المراسل إلى مكانة الكاتب .. إن كثيرا من المراسلين أخذوا نفس الفرصة التي أخذها هيكل في تغطية الأحداث التي غطاها .. وكانوا بارعين في التغطية الصحفية .. لكنهم لم يتجاوزها بالقراءة والتأمل والتفكير للرؤية السياسية .. فلم يزد عمرهم عن عمر الحدث الذي غطوه.

لقد سبق هيكل إلى فلسطين معظم من سبقوه في كبش البريق الصحفي .. محمود أبو الفتوح .. ومحمد التابعى .. وأميل زيدان .. وإحسان عبد القدوس الذي جاء إلى القدس في يونيو ١٩٤٥ وكان متحمسا لمعرفة القضية الفلسطينية فقابل زعمائها .. كما قابل ديفيد بن جوريون (أول رئيس حكومة إسرائيلية فيما بعد) وموشى شاريت (أول وزير خارجية لإسرائيل فيما بعد) وكان تفسير إحسان عبد القدوس هو أن هذه اللقاءات تجعلنا نعرف العدو بدقة .. وبعد أن نشر هذه اللقاءات .. تلقى إحسان عبد القدوس أول اتهام بالخيانة يحظى به صحفي مصري وطنى يعشق فلسطين حتى النخاع .. ويبدو أن الهجوم عليه كان أشد من أن يحتمله .. فقد راح يردد بعدها «كفاية سياسة .. أنا رجل فنان» (٦) رغم أنه فيما بعد حقق شهرة واسعة بسبب فلسطين عندما نشر ما وصف بقضية «الأسلحة الفاسدة» وطالب بمحاكمة مجرمي الحرب في فلسطين الذين تسببوا في هزيمة الجيش المصرى هناك.

ولا جدال أن الأحداث والمناطق التي غطاها هيكل في رحلاته الخارجية المبكرة هي التي وضعت له أساس اهتماماته التي ظل يرهاها طويلا فيما بعد .. وربما إلى الآن .. وعلى رأسها بالقطع قضية فلسطين .. وكيان إسرائيل .. ومستقبل الشرق الأوسط .. إن عمر اهتمامه بهذه القضية هو عمر القضية نفسها.

لقد بدأ اهتمام هيكل بفلسطين بعد عودته منها أول مرة وبعد أن كتب أولى سلسلة تحقيقات عنها بعنوان «النار فوق الأرض المقدسة» .. وهى مجموعة المقالات التي سبقت دخول مصر حرب فلسطين فى عام ١٩٤٨ .. وظل هذا الاهتمام حاداً ومنتبهاً حتى وصل بعد ٥٠ سنة إلى كتابه المنشور فى ثلاثة أجزاء «المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل» .. ثم أعقبه بكتاب «عروش وجيوش» وهو قراءة فى يوميات الحرب فى فلسطين.

إن فلسطين بالنسبة له لم تكن قضية عربية وإنما كانت قضية وطنية مصرية .. كما أن قيام دولة إسرائيل على أرض فلسطين فى وسط العالم العربى وفى قلبه كان الحدث الأكبر بالنسبة لشعوب الأمة العربية وفوق أرضها على امتداد واتصال القرن العشرين .. «إن الأمة العربية قضت النصف الأول من ذلك القرن تحاول بكل وسائلها اعتراض ومنع

قيام دولة إسرائيل.. ثم أن الأمة العربية قضت نصفه الآخر تحاول وبكل طاقتها حصر هذه الدوله وضبط آثار وتداعيات قيامها .. وقد كانت الأمة العربية على حق ولكنه حق افتقد الوعي أحيانا وافتقد الإرادة أحيانا وافتقد كلا من الوعي والإرادة في أحيان كثيرة». (٧) ولو قرأنا ما كتبه هيكلمنذ أكثر من نصف قرن عن فلسطين لفهمنا الأسس التي قامت عليها اهتماماته بهذه القضية التي هي جوهر وقلب كل قضايا ومتاعب ومشاكل وهموم السياسة في الوطن العربي .. وقد مرت السنين - على طولها - وكأن شيئاً لم يكن .. وكان أحداً لم يتعلم.

في عدد رقم (١١) من مجلة «الكتب وجهات النظر» الصادر في أول ديسمبر ١٩٩٩ كشف هيكلمنذ أصاب كل من قرأه بالدوار .. هو أن العاهل المغربي الراحل الملك محمد الخامس كان يترك المخابرات الإسرائيلية (الموساد) تتجسس على مؤتمرات القمة العربية التي عقدت في الدار البيضاء .. بما في ذلك الجلسات المغلقة والسرية للملوك والرؤساء العرب .. وقبل ٥٠ سنة .. وفي عدد آخر ساعة رقم (٧٥٧) بتاريخ ٢٦ إبريل ١٩٤٩ .. يكشف سراً من ذلك الطراز الدوار.. هو أن سكرتارية الأمم المتحدة كانت تتجسس على العرب لصالح اليهود.. فقد اختارت سائقين يهود ليقودوا سيارات الوفود العربية .. وبعد أن تسربت القصة للوفود العربية قدم الأمير فيصل بن سعود احتجاجاً للسكرتير العام للأمم المتحدة المستر تريجفي لى .. وطلب منه أن يستبدل بسائقة اليهودى سائقة مسيحية غيره .. وقبل المستر تريجفي لى الطلب .. ثم لم تلبث حرم الأمير فيصل أن اكتشفت بعد يومين أن سائق سيارتها هو الآخر يهودى.

وفي آخر ساعة أيضاً ولكن في عدد رقم (٧٦٤) بتاريخ ١٥ مايو ١٩٤٩ يكشف هيكلمنذ سراً جديداً من الطراز المثير للدوار .. هو أن المتطوعين العرب في حرب فلسطين بعد أن فرغوا من معركة «كفار عاصيون» نجحوا في أسر ١٤٣ فتاة يهودية كن يحاربن في صفوف الهجاناة .. ونقلت الأسيرات إلى مدينة الخليل بحثاً عن مأوى لهن .. فاقترح واحد من مشايخ فلسطين هو الشيخ الجعبرى أن يضع الأسيرات في مخزن يملكه .. وبعد أن وصل خبر الأسيرات إلى الملك عبد الله قرر نقلهن إلى عمان .. وانتدب ضابط أردنى برتبة صاغ (رائد) اسمه حكمت مهيار كى يتسلم الأسيرات وينقلهن من الخليل إلى عمان .. وعند التوقيع على الاستسلام وجد الضابط الأردنى أن عدد الأسيرات ١٤٠ فتاة .. ولم يستطيع الشيخ الجعبرى أن يفسر أين اختفت اليهوديات الأسيرات الثلاث؟.

وفي آخر ساعة كذلك ولكن في عدد (٦٦٧) بتاريخ ٦ يوليو ١٩٤٩ يكشف هيكلمنذ مهازل القيادة العربية في حرب فلسطين .. لقد سبقت الجيوش النظامية إلى فلسطين ما كان يعرف بـجيوش التحرير .. وكان قائد هذه الجيوش هو الجنرال إسماعيل صفوت

باشا .. وقد استدعوه من بغداد لتعهد إليه الجامعة العربية بقيادة جيوش التحرير العام .. وفى اليوم التالى لوصوله القاهرة حدثت قصة أفقدت الناس الثقة فى كفاءته العسكرية .. والقصة للأسف مسجلة فى محاضر البوليس .. وتتلخص فى أن الجنرال غداة وصوله إلى القاهرة خرج يتجول فى شوارعها .. وبينما هو يتمشى فى شارع «إبراهيم باشا» أبصر بعض الغلمان يجلسون عند ناصية الطريق المؤدى إلى كلوت بك يلعبون لعبة الثلاث ورقات المشهورة .. ووقف الجنرال يتفرج عليهم .. وما لبث الغلمان - لاعبو الثلاث ورقات - أن استدرجوا قائد عام جيوش التحرير العربية لإنقاذ الأرض المقدسة إلى مشاركتهم فى لعبة الثلاث ورقات .. وبعد خمس دقائق كان الجنرال قد خسر كل ما معه من نقود وهو مبلغ خمسة وأربعين جنيها .. وهو بالقطع رقم قياسى فى تاريخ هذا النوع من المقامرة الشعبية.

وأحس الجنرال أنه سرق أو على الأقل سقط فى فخ عصابة من المتشردين .. وحاول أن يسترد نقوده منهم فلم يستطع .. وحاول بعضهم الجرى فجرى وراءهم الجنرال وأمسك بهم ثم صاح يستدعى البوليس .. وحرر محضرا بالواقعة .. لكن الجامعة العربية تدخلت لمنع نشر الخبر فى الصحف .. رفقا بسمعة الجنرال وإبقاء على هيبة منصبة كقائد لجيوش التحرير العربية لإنقاذ الأرض المقدسة من اليهود.

وفى فلسطين حاول هيكل أن يقابل الجنرال .. لكن قائد جيوش التحرير العربية لم يكن فى فلسطين ولم يسافر إليها وكان يدير المعارك فى المآدب الفاخرة التى كانت تقام له فى القاهرة ودمشق وبغداد وعمان .. وكان مقر قيادته فى عمان مخزن للدقيق يملكه أحد أصدقاءه هو صبرى الطباع .. وبين أكوام الدقيق لاحظ هيكل اندماج الجنرال فى تدخين الشيشة .. ولاحظ وقوف سيارة لورى أمام المخزن .. وجاء منها رجل قال للجنرال: لم نستطع اليوم أن نؤجر أكثر من ثلاثين .. وقال الجنرال: شيعهم على رام الله .. وتبين أن قيادة جيوش التحرير تؤجر الفلاحين والعمال وترسلهم - هكذا بلا تدريب - لمحاربة اليهود .. وقبل أن يتحرك اللورى صاح الجنرال براكبه: لا تنسى أن ترسل لورى آخر إلى جنين .. أجروا خمسين بأسرع ما يمكن .. وعاد الجنرال ينفث دخان الشيشة الأزرق فى هدوء وراحة بال.

ويقول هيكل: ويبدو أن عقلية القائد العام كانت المثل الأعلى لمروسيه من القواد المحليين فى فلسطين .. كان يقود جبهة القدس فى ذلك الوقت ضابط قديم فى الجيش العراقى هو عبد الحميد الراوى بك وكان يقود ما اسماه يومئذ جيش اليرموك تيمناً بجيش خالد بن الوليد .. وذهبت إقباله وكان قد عاد لتوه من معركة فى رام الله .. وجلس

يحدثنى وهو يشرب الشيشة أيضاً عن المعركة التى خاضها .. وقلت له: ألا أستطيع أن أراها على الخريطة؟ .. فقال ببساطة: إننا لا نستعمل الخرائط .. نحن بتوفيق الله نستغنى عنها .. وسكت ولم أقل شيئاً .. واستمر فى حديثه عن المعركة .. ثم انتهى بقوله: وعلى أى حال لا نحاسبنا عما صنعناه أمس .. وإنما نحاسبنا على ما سوف نفعل غدا .. وسألته: وما هو السبب؟ .. وألقيت هذا السؤال وفى ذهنى أنه لابد أن يكون قد حصل على أسلحة جديدة أو إمدادات جديدة .. وأجاب هو بنفس البساطة: لقد كنت أمس اتخذ مقر قيادتى فى حجرة عادية ولكن اليوم نقلت قيادتى إلى الروضة الشريفة فى المسجد الأقصى .. ولم أقل شيئاً لقائد جيش اليرموك ولم أردد الحكمة التى تقول «إن الله لا يساعد إلا أولئك الذين يساعدون أنفسهم».

لكن .. الأهم من هذه الأسرار التى تثير الدوار هو تغطية هيكل لوقائع الحرب فى فلسطين ولوقائع الصراع العربى الإسرائيلى فى لحظة «الخلق الأولى عندما وقع الانفجار وتمددت كتلته وبدأ زمانه». (٨)

لقد سافر هيكل إلى فلسطين أول مرة بعد صدور قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة بتقسيم فلسطين فى عام ١٩٤٧ .. وفى الشهور الأولى من عام ١٩٤٨ عاد إلى فلسطين مرة أخرى يتابع ما يجرى «وأعيش فيه بقلبى وليس بقلمى فقط .. ورأيت حيفا تسقط ورأيت يافا تحاصر وتركت حتى «القمطون» فى آخر سيارة غادرت القدس إلى عمان» .. ويستطرد هيكل: «وبقيت مع حرب فلسطين حينما أعلنت رسمياً بعد ذلك متنقلاً بين مواقعها من بيت لحم والخليل مع قوات المتطوعين - إلى المجدل وأشدود مع مجموعة الجيش الرئيسى التى تقدمت على الطريق الساحلى - إلى قوات عراق المنشية والفالوجا على طريق شمال النقب .. ثم سافرت إلى باريس فى شهر أكتوبر ١٩٤٨ لتغطية اجتماعات مجلس الأمن الطارئة لإقرار الهدنة فى فلسطين .. وأخير وجدتني فى فندق الزهور (أوتيل دى روز) فى رودس حيث جرى توقيع اتفاقيات الهدنة فى مطلع سنة ١٩٤٩ .. وهكذا عشت حرب فلسطين من أول يوم إلى آخر يوم». (٩)

بل أكثر من ذلك لم يتردد هيكل فى الكتابة عن المفاجآت الإنسانية فى حرب فلسطين .. كتب عن أبطال الفالوجا (راجع آخر ساعة عدد رقم ٧٤٤ بتاريخ ٢٦ يناير ١٩٤٩) وكتب عن أيامهم الأخيرة تحت الحصار (راجع آخر ساعة عدد رقم ٧٤٥ بتاريخ ٢ فبراير ١٩٤٩) وكتب عن جرحاهم الذين نقلوا إلى أرض الوطن (راجع العدد نفسه) وغطى استقبالهم فى شوارع القاهرة تحت عنوان: السماء تمطر وردا وشيكولاته فى يوم الفالوجا (راجع آخر ساعة عدد رقم ٧٤٦ بتاريخ ٩ فبراير ١٩٤٩) ونشر قصة الطيار عمر شكيب الطيار المصرى الذى عاد إلى الحياة بعد أن أصيب برصاصة فى قلبه وأعتبر فى عتاد الشهداء

(راجع آخر ساعة عدد رقم ٧٤٧ بتاريخ ١٦ فبراير ١٩٤٩) ونشر مقالا فى الذكرى السنوية الأولى لاستشهاد الفدائى أحمد عبد العزيز وصفه فيه بأنه كان شهابا لمع فى حياة بلده ومرورا خاطفا .. ثم مضى .. «ولقد مضى اليوم عام منذ اختفى شهاب .. ومع ذلك ما أكثر الضوء الذى تركه وراءه .. إنه مازال حتى اليوم ينير الطريق لكثيرين .. وسوف ينيره غدا .. وبعد غد .. وإلى الأبد ما بقيت فى حياة مصر مثل عليا» (راجع آخر ساعة عدد رقم ٧٧٤ بتاريخ ٢٤ أغسطس ١٩٤٩).

ونشر مذكرات الأميرالاي (العميد) السيد طه أو «الضبع الأسود» قائد القوات المحاصرة فى الفالوجا .. ثم وبعد عدة شهور اختفى الضوء الذى كان مسلطا على الرجل .. بل وكان أن راجت الشائعات أنه معتقل فى الطور .. فكتب هيكمل: «ضبع الفالوجا ليس معتقلاً فى الطور» .. وأكد: أنه ما من سبب أو نصف سبب يدعو إلى اعتقاله.

ولعل أهم ما فعله هيكمل فى تلك الفترة المبكرة من عمر القضية الفلسطينية هو اهتمامه بنشر الدراسات والتقارير الجادة عن إسرائيل .. أو «العدو الذى حاربناه» على حد العنوان الذى نشره فى آخر ساعة فى عدد ٧٧٣ بتاريخ ١٧ أغسطس ١٩٤٧ .. وقد قال هيكمل فى مقدمه التقرير «هذه لحظة سريعة عن العدو الذى حاربناه والذى قد نحاربه .. نريد أن نعرف عنه كل شىء .. من هو وكيف يعيش وكيف يفكر وماذا يقرأ .. من هذا كله نعرف كيف سيحاربنا وأهم منه .. كيف نستعد له حتى نلقاه؟».

وبعد أسابيع نشر هيكمل تقريراً آخر عن إسرائيل كان مزوداً بالوثائق والرسوم التوضيحية والإحصائيات .. واهتم بإبراز إن عدد سكان إسرائيل كان وقت إعلان الدولة حوالى ٧٥٠ ألف نسمة .. وأن الجيش ارتفع عدده من ١٢ ألف جندي إلى ١٢٠ ألفاً خلال ٦ شهور بعد قيام الدولة .. ومن بين السكان يعيش ٣٥ ألفاً فى أكشاك خشبية مؤقتة ويعيش ٨٠ ألفاً فى خيام و٧٠ ألفاً يعيشون فى قرى عربية و٢٠٠ ألفاً يسكنون بمعدل خمسة أفراد فى كل غرفة و٧٥ ألفاً يعيشون فى المستوطنات .. وقد تغيرت الصورة فيما بعد .. وكان هيكمل حريصاً على متابعة ذلك .. وكان أهم مشاريعه فى مؤسسة الأهرام هو إنشاء مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية وهو المركز الذى تأسس تحت شعار معرفة العدو على أثر هزيمة يونيو ١٩٦٧.

لقد كانت فلسطين هى «القصة الرئيسية» فى شباب هيكمل وظلت كذلك .. «فيما وراء الصبا والشباب» .. ولعلها السبب الرئيسى وراء استمراره رغم تغير الظروف والنظم .. ولم يتابع هيكمل القصة الرئيسية فقط .. وإنما تابع عواقبها وتداعياتها التى توالى فى صور اغتلالات وانقلابات.

لقد سارع بتغطية انقلاب حسنى الزعيم الذى أطاح بشكرى القوتلى .. ثم سارع بتغطية انقلاب سامى الحناوى الذى أطاح بحسنى الزعيم وانتهى بإعدامه .. وقيل أن حسنى الزعيم كان شجاعا وهو يتلقى رصاصات إعدامه .. وقيل أن سر شجاعته هو أنه كان غارقاً فى الخمر .. وبعد ٣ ساعات من الانقلاب الأخير قابل هيكل أرملة حسنى الزعيم التقط لها محمد يوسف صورا حزينة مع شقيقتها .. ونشرت آخر ساعة الصور فى صدر العدد ٧٧٤ المنشور فى ٢٤ أغسطس ١٩٤٩ .. وفى الأسبوع التالى كتب هيكل عن متابعة مع الرقابة السورية فى تلك الظروف العصيبة فقال:

«كانت الرقابة العسكرية فى سوريا أكثر صرامه من شوارب وزير المعارف المصرى .. كان من المستحيل إذ عرضت على الرقيب رسالة من ألف كلمة أن يترك لك منها غير عشر كلمات .. معظمها من حروف الجر والإضافة وعلامات التعجب والاستفهام .. ثم اكتشفت وسيلة لتهديب الرسائل .. هى إرسالها عن طريق بيروت .. وفى اليوم التالى من أيام الانقلاب كانت هناك رسالة لا يمكن أن يجيزها الرقيب .. وأخذها أحد الزملاء فعبر بها الحدود إلى بيروت ومن هناك أبلغها باللاسلكى إلى القاهرة .. وبعد نصف ساعة كنت واقفا أمام رجال المكتب الثانى أحاسب حساب الملكين .. وقلت ببساطة: هذه رسالة زميلى وليست رسالتى .. وما ذنبى أنا إذا كان هو أرسل مثل هذه الرسالة ومن بيروت .. وأنا فى دمشق .. وخرجت من المكتب الثانى وقبل أن أغادر الباب كان هناك أمر بحجز زميلى إذا عاد مرة ثانية إلى أراضى سوريا .. وكنت أعلم أنه سيعود .. وانتظرته بالليل أنذره بالخطر ليعود عبر الحدود إلى لبنان .. وكانت قصة ليس هذا وقتها على أى حال..

«وفى الصباح فوجئت بأحد رجال المكتب الثانى يقول: شرف .. معى .. قلت: على عينى ورأسى .. وشرفت .. وكانت هناك قائمة طويلة مليئة بالأسئلة وكانت إجاباتى كلها مقتبسة من قصيدة الشاعر إيليا أبو ماضى التى عنوانها «لست أدري» .. ووسط هذا كله .. كان على الباحثين عن الحقيقة أن يبحثوا عن المتاعب».

لقد بدأ انقلاب حسنى الزعيم فى بداية عام ١٩٤٩ وبعد ٣ شهور وقع انقلاب سامى الحناوى ثم قتل سامى الحناوى فى بيروت وجاء إلى السلطة فى دمشق أديب الشيشكلى .. لكنه هو الآخر لم يستمر وهرب ليعيش على الهجوم على بلاده.

فى ذلك الوقت كان هيكل يوصف بلقب «ساحر آخر ساعة» وقد بدأ فى كتابة أول باب أسبوعى تحت عنوان «البحث عن المتاعب» .. وإلى جانب عنوان الباب كانت عبارة «فرجينيا كاولز» الشهيرة: الصحافة هى مهنة البحث عن المتاعب .. وهى العبارة التى يعرفها الناس ولا يعرفون صاحبها.

فى ذلك الوقت أيضاً أدت توابع حرب فلسطين - بعد الانقلابات - إلى اغتياالات .. وقتل فى القدس وهو على باب المسجد الأقصى الملك عبد الله ملك الأردن برصاصات شاب فلسطينى رفض ما جرى فى حرب عام ١٩٤٨ ورفض اتصالاته بالعدو الإسرائيلى .. وفيما بعد كشفت رئيسة وزراء إسرائيل جولدا مائير فى مذكراتها أن الملك عبد الله كان يتنكر فى ثياب النساء قبل يلتقى بالإسرائيليين .. وقد احتفظ حفيده الملك حسين بثوب جده وعليه آثار دمه .. وتولى الملك حسين العرش بعد الظروف المؤسفة التى أحاطت بوالده الملك طلال وأدت إلى خلعه وإدخاله مستشفى الأمراض العقلية فى استنبول.

وكشف هيكل فيما بعد أن الملك عبد الله كان له مضحك خاص يضع الملك إناء صغير فوق رأسه ثم يطلق الرصاص على هذا الإناء بينما تجلجل ضحكاته على الرعب الذى يلم بالمهرج التعس .. أما الملك حسين فقد قتل دون أن يقصد برصاصة طائشة مضحكه الخاص خالد النجارى .. إن ما جمعه هيكل من أسرار وحكايات عن الأسرة الهاشمية كان قذائف فى مدفعية جمال عبد الناصر الثقيلة ضد ما كان يوصف - فى فترة المد القومى - بالرجعية العربية.

وفى القاهرة تابع هيكل محاكمات قتلة محمود فهمى النقراشى .. لقد ذهب النقراشى ضحية التطرف الدينى .. فحرض الإخوان المسلمون شاباً هو عبد المجيد أحمد حسن على إطلاق الرصاص عليه .. وخرجت الصحف تصف القاتل وشركاؤه - كما هى العادة فى مثل هذه القضايا بلا استثناء - بالإرهابيين .. وكالعادة أيضاً كان هناك متهما بإصدار فتوى تبيح القتل .. وكان المتهم هذه المرة هو الشيخ سيد سابق .. ويقول عنه هيكل وهو فى القفص: إنه شخصية غريبة حقاً .. حتى فى ملامحها .. جلس فى القفص بلحيته السوداء ذات الزوايا والدوائر ونظارته الكثيفة والعمامة والكاكولة .. ثم انكب على مصحف صغير فى يده يتلو منه القرآن ويهتز مع الآيات بحماسة الأولياء الصالحين .. ومع ذلك فالتهم عبد المجيد حسن يقرر أن ولى الله الصالح هو الذى أفتى بأن يقتل .. وهو الذى تلقى البيعة ذات ليلة فى الظلام على أن يبيع نفسه فداءً للدعوة والجماعة .. وجاءوا بشاهد .. فإذا بالشيخ .. ولى الله .. «يثأب فى سأم وملل .. يتثائب مرات متوالية ... وليست مرة واحدة عارضة .. وخيل إلى أن سيدة تشاهد أمامها عشرات من عارضات الأزياء يعرضن عليها آخر موضة الخريف ورأت منها الكفاية وكانت الأزياء مما لا يرضيها فذب الملل وبدأت تتثائب .. تشبيه بعيد .. ولكن خيل لى».

ثم امتلأت أشعة كثيرة بريح ما بعد العاصفة فى فلسطين .. وكانت ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ التى كانت الحرب فى الأرض المقدسة واحدة من العوامل المباشرة لقيامها .. ولسنا

فى حاجة للقول أن هذه الثورة كانت نقطة تحول أو نقطة انقلاب فى حياة هيكل .. بل
لعلها كانت فاصلة بين مرحلتين فى حياته .. مثل كتاب من جزئين .. رغم اتصال موضوعه
ووحده مؤلفه إلا أن هناك بداية ونهاية مستقلة لكل منهما.

الهوامش

- (١) النشاشيبي : «قصتي مع الصحافة» - مصدر سابق - ص ٢٢٤.
- (٢) هيكل : «بين الصحافة والسياسة» - مصدر سابق - ص ٤١.
- (٣) هيكل : المصدر السابق - ص ٤١.
- (٤) مجلة آخر ساعة : عدد ٧٦٩ بتاريخ ٢٠ نوفمبر ١٩٤٩.
- (٥) مجلة آخر ساعة : عدد ٦٦٧ بتاريخ ٦ يوليو ١٩٤٩.
- (٦) النشاشيبي : المصدر السابق - ص ٧٤ و ٧٥.
- (٧) هيكل : «العروش والجيوش» - دار الشروق ديسمبر ١٩٩٨ - المقدمة.
- (٨) هيكل : المصدر السابق - ملاحظة.
- (٩) هيكل : المصدر السابق - ص ١٨.

الفصل الثالث

الرهان على جمال عبد الناصر

أسكتوا أنتم ودعوا غيركم يتكلمون

■ كان نجاح هيكل المدوى فى صحافة أخبار اليوم مصدر تعاسة للآخرين .. كل الآخرين .. وذات يوم فى صيف ١٩٤٩ فوجئ على أمين بمظاهرة من ١١ محرراً وكاتباً يقتحمون مكتبه وهم يقولون له: «يا نحن .. يا هيكل» .. ووجد على أمين نفسه فى حيرة .. إن هيكل - الذى وصفه التابعى بساحر آخر ساعة - لا يكف عن السفر والسهر .. وتحقيقاته وتقاريره الصحفية فى الداخل والخارج مثار الانتباه ومصدراً من مصادر التوزيع .. لكن .. فى الوقت نفسه لا يستطيع على أمين أن يتجاهل كل هذا الغضب .. فكان أن طلب من الغاضبين .. الساخطين أن يقدموا له قائمة اتهامات محددة يقدر على أساسها أن يواجه هيكل وينفذ مطلبهم ويختار بينهم وبينه ..

كانت الاتهامات من عينة: إنه «غامض» .. «خطير» .. «العبان» .. لا يطيق زملائه .. متعال .. «مجرد من الإنسانية» .. «لا يرى سوى مصلحته» .. وضحك على أمين قائلاً: إن كل ما سمعه إنفعالات لا اتهامات .. أحاسيس لا وقائع .. غيرة مهنية لا جرائم قانونية .. وانفض الاجتماع لكن لم ينفض الغضب من هيكل.

إن على أمين كان مؤمناً بموهبة هيكل وبقدرته الفائقة على العمل .. لقد روى على أمين فى أحد أحاديثه: أنه فى أول اجتماع عقده هو ومصطفى أمين بعد شراء آخر ساعة أن

هيكل أبدى استعداداه لعمل كل ما يؤدي إليه .. فقال له على أمين: حتى قصص الحظ مع أوراق اليانصيب .. فرد هيكل: أليست قصصاً صحفية؟ .. فأجاب على أمين: هي قصص صحفية من الدرجة الأولى .. فقال هيكل: إذن أنا معها.

ولم يتوقف نجم هيكل عن الصعود بمجرد أن ركب جواد أخبار اليوم .. وهو جواد كثيراً ما تحول إلى سيارة جيب تسافر لتحقيق حوادث مثيرة في أطراف نائية .. وكثيراً ما تحول إلى طائرة تهبط في أماكن التوتر خارج الحدود ..

وفي رحلات هيكل خارج الوطن كان يتلقى خطابات من صديقه الشاعر المرهف كامل الشناوى .. وهى خطابات يصفها هيكل بأنها «كانت خيطاً من الحرير يصل بينى وبين الوطن دائماً مهما كان البعد» .. وفي أحد منها كتب له كامل الشناوى: «ماذا تفعل أنت هناك؟ .. تتابع أحداث أوطان أخرى ووطنك هنا على شفا أحداث أكبر».

* * * *

وعاد هيكل إلى مصر فى خريف عام ١٩٥١ .. عاد مع الأيام التى ألغيت فيها معاهدة ١٩٣٦ .. فكان أن ترك مكتبه قبل أن يستقر عليه .. وجرى إلى منطقة القناه بحثاً عن المتاعب بعد أن اشتدت حركة المقاومة الوطنية ضد قوات الاحتلال البريطانى .. ثم طار إلى الخرطوم وقد توقع صداماً بين القوات البريطانية والقوة المصرية المرابطة هناك .. لكن شيئاً مما كان يشعر به بحاسته الصحفية لم يقع .. فعاد إلى القاهرة وهو يشعر بأنه أخطأ التقدير .. فلو كانت الحوادث سوف تتحرك «فإن حركتها سوف تكون فى القاهرة وليس بعيداً عنها».

وفى منتصف نهار ٢٦ يناير ١٩٥٢ - وبينما الملك فاروق يقدم ولى عهده الأمير الرضيع أحمد فؤاد إلى قادة الجيش والبوليس فى قصر عابدين - اتصل أحمد حسين رئيس الحزب الاشتراكى (مصر الفتاة) بهيكل يسأله: ماذا تفعل فى مكتبك والشارع المصرى يفور ويغلى؟. ونزل هيكل لوسط العاصمة لتتيح له الظروف «متابعة حريق القاهرة من اللهب إلى الرماد» .. ومن الفوضى إلى نزول الجيش فى الشوارع .. وفى تلك اللحظات الحاسمة والقلقة لم يكن من الصعب على هيكل أن يدرك أن أنقاض القاهرة قد اختلطت بأنقاض النظام الملكى الذى كان يتساقط وينهار يوماً بعد يوم.

وفى ١٨ يونيو ١٩٥٢ فاجأ على أمين قراء آخر ساعة التى يتولى رئاسة تحريرها بمقال خصصه كله عن هيكل .. أنتهى بقوله: «إننى اليوم أقدم لكم استقالتي لأعود

محرراً عادياً فى آخر ساعة وأقدم لكم مع الاستقالة رئيس التحرير الجديد محمد حسنين هيكل» .. وقد تولى هيكل رئاسة تحرير آخر ساعة فى أول يوليو ١٩٥٢ .. وكان عمره حوالى ٢٩ سنة .. ولم يكن يعلم أنه بعد ٢٣ يوم فقط سيفتح له الطريق ليصبح أهم صحفى فى مصر - ثم فى العالم العربى تمهيداً للدوران فيما هو أكبر - حتى وإن بدت السحب كثيفة والرؤية غائبة .. إن رصيده الصحفى فى فلسطين أصبح رصيذاً من ذهب والدبابات والمدركات وأحذية الجيش الثقيلة تغير النظام فى مصر .. فالذين قرروا التغيير هم الذين حاربوا وهزموا فى فلسطين .. إن العبارة المفتاح فيما جرى يوم ٢٣ يوليو هى العبارة الشهيرة للشهيد أحمد عبد العزيز قائد الفدائيين المصريين فى فلسطين لضابط مدفعيته كمال الدين حسين: « إن حربنا الحقيقية هناك .. فى القاهرة » .. وكانت « تلك رؤية صادقة تكشف لها الحقيقة فى لحظة عظيمة من لحظات الألم ».

«لقد عاد كل الجنود العرب الذين كانوا يقاتلون فى فلسطين ومعهم ضماير تتفاعل فى وجدانهم .. تحرك فى أعماقهم المسئولية عن تغيير الأوضاع .. وبعد ثلاثة شهور من انتهاء المعارك تحرك أول الجيوش العربية تحت الشعور بمسئولية التغيير فى دمشق .. لكن عوامل عديدة أخرجت محاولة التغيير عن أداء دورها التاريخى » .. ثم كان النجاح حليف الذين تحركوا تحت شعور مسئولية التغيير فى القاهرة.

«إن الذين عادوا من فلسطين هم الذين أعطوا أنفسهم لقوى الثورة الشعبية وتحركوا ليلة ٢٣ يوليو .. وتحقق لهم النجاح بتأييد الجماهير صباح ذلك اليوم الحاسم .. ثم استطاعوا بولائهم لهذه الجماهير أن يكتشفوا حقيقة دورهم ».

وفيما بعد قال جمال عبد الناصر: «لم أكن واثقاً أن الثورة ستنتج ولم يكن النجاح هو كل ما أريده .. لقد كان حسبى أن نتحرك .. وحتى لو جاء الصباح فوجدنا أنفسنا جميعاً معلقين على المشانق فلقد كان يكفينى أن يقال أن هذا الجيل من شباب وطننا لم يرض أن يقف ساكناً أمام كل هذا الذى يجرى فى وطنه .. لقد كان يجب أن نفعل شيئاً .. أى شئ حتى تبقى شعلة التضحية الوطنية مرفوعة جيلاً بعد جيل ».

• وفيما بعد أيضاً .. كتب هيكل عن الجيش والثورة: «لو أن فنانياً عظيماً خالقاً ومبدعاً أراد أن يرمز إلى يوم ٢٣ يوليو ١٩٥٢ بلوحة أو تمثال لاقتُرحت عليه رسماً يمثل جندياً راكعاً على ركبتيه فى ولاء وإخلاص أمام الغالية الخالدة «مصر» بينما هى تعقد على رأسه إكليل زهر رمزاً للنصر ثم محبة له وتقدير».

وقد كان هيكل أول مدنى يدخل مقر قيادة الانقلاب العسكرى فور وقوعه فى ليلة ٢٣ يوليو .. وهو يعترف .. أنه فى تلك الليلة لم يكن يخطر فى باله أن الجيش فى مصر قادر على تحقيق المعجزة التى تحققت بالفعل .. ويستطرد:

«ولقد كنت واحداً من الناس الذين لا يتصورون الجيش إلا خاضعاً لسلطة شعبية مدنية عليا يتلقى منها أوامره ويخضع لتوجيهاتها .. ومع أننى - مثل كثيرين غيرى - قبل الثورة كنت أرى أن انحرافات القيادات المدنية تعفى الجيش من كل ولاء لها وتلزمه أن يتجه بولائه إلى المصدر الأصيل لكل سلطة وهو الشعب إلا أن الحيرة كانت تستبد بى وتسألنى دائماً: وكيف يستطيع الجيش متخطياً السلطات الرسمية أن يتقدم الشعب وما هى النقطة التى يمكن أن يبدأ منها واجبه وما هى الحدود التى يستطيع أن يمضى إليها .. ثم ما هو الضمان النهائى لهذه الحدود؟»

وفجر يوم ٢٣ يوليو .. «ومع أن الحماسة كانت تلهب كل شعره فى أعصابى إلا أن ومضات من القلق كانت تلسع بين وقت وآخر فرحتى بكل ما حدث .. وأذكر أننى مع أضواء الفجر الأول وقفت وحدى فى شرفة تطل على الفناء الواسع لقيادة الثورة وكان بعض الجنود الذين شاركوا فى أحداث تلك الليلة الهائلة يجلسون على الأرض بعضهم يستريح وبعضهم ينتهزها فرصة لياكل فيها سندوتشات كانت فى جرابه طول اليوم لكنه نسيها ونسى الجوع مع الانفعالات التى عاشها ساعات متوالية خطيرة .. وكانت أفكارى فى تلك اللحظات فى ذات الصباح الحاسم تتحرك وتتداعى بسرعة مذهلة .. سألت نفسى مرة: ترى هل يعرف هؤلاء الجنود حقيقة ما قاموا به ومداه .. وآثاره؟ .. ثم قلت لنفسى: إن الذى حدث هذه الليلة كان لابد أن يحدث مهما كان الثمن .. ثم تستطرد خواطرى: لم يكن غير الجيش يستطيع القيام بمثل هذه المحاولة الجريئة من أجل تغيير الأوضاع».

«ثم أجد السؤال الخطير يفرض نفسه تلقائياً فى نهاية هذه الخواطر: لكن .. ماذا بعد ذلك؟ .. هل يحكم الجيش؟ .. هل تنتهى آمالنا الكبرى فى التغيير بإقامة نظام عسكرى يصدر الأوامر من أعلى؟ .. هل تصبح هذه المغامرة حادثة فى التاريخ استدعتها ظروف حتمية أو تصبح سابقة قابلة للتكرار وتتكرر الانقلابات مع المطامع الفردية وخيالات العظمة لدى بعض الجنرالات كما حدث فى تجارب سابقة فى بلاد غيرنا شهدت بنفسى بعضاً منها وعشت وقائعها؟».

ورغم أن هذه الأسئلة بدت سابقة لأوانها فى انقلاب لم يكن قد استقرت بعد عناصر نجاحه إلا أن تفكير هيكى فيها كان يعنى أنه قرر منذ اللحظة الأولى أن يشارك ولو بالنصيحة فى تقديم إجابات يحتاجها قادة الانقلاب الجدد الذين لم تكن لهم خبرة سياسية كافية .. كما أنهم كانوا فى حاجة لمن يساعدهم فى الإجابة على هذه الأسئلة التى سرعان ما ستفرض نفسها .. ومن ثم كان هيكى يعرف ما يفعل منذ البداية .. خاصة وأنه من الناحية الموضوعية .. كان فى مثل أعمارهم .. لكنه كان يمتاز عنهم بمعرفة الخريطة السياسية والاقتصادية والاجتماعية الحالية .. كما أنه بالقطع كان يتمتع بسعة اطلاع وخبرة سفر ووفرة علاقات لا تتوافر فى معظمهم على الأقل يوم قاموا بحركتهم البدنية العنيفة.

كان عدد آخر ساعة رقم ٩٢٦ جاهزاً للتوزيع صباح يوم الأربعاء ٢٣ يوليو ١٩٥٢ .. ولم يكن فيه ما يشير للحدث الذى كان يجرى ليلاً فى مقر هيئة أركان الجيش التى استولى عليها الضباط الأحرار وأصبحت مقراً لحركتهم الجديدة .. كان غلاف المجلة كالمعتاد صورة ملونة لامرأة جميلة .. وكانت الصورة فى ذلك الأسبوع لكريمة محمود صالح الفلكى بك وكيل وزارة المالية وهى تجلس مبتسمة على كورنيش البحر فى الإسكندرية .. وكان العنوان الرئيسى والوحيد على الغلاف «مؤامرة دولية تنفذ فى القاهرة» .. ورغم أن العنوان لم يكن له علاقة بأحداث الثورة فإنه أصاب الناس الذين سمعوا أخبار الثورة وأمسكوا بآخر ساعة وقرأوا العنوان بالتباس واضح.

والمثير للدهشة .. أن العدد التالى من آخر ساعة لم يغير سياسته .. وبقي الغلاف صورة ملونة لامرأة مثيرة .. كانت هذه المرة للنجمة السينمائية جوديث براون .. وكتب تحتها «نظرات منتصرة» .. وكان العنوان الرئيسى للغلاف: «كيف احتفظ اللواء نجيب بالسر الكبير؟» .. إن ذلك الغلاف كان يعكس طبيعة الصحافة المصرية .. خاصة صحافة أخبار اليوم التى كانت تحترف الجاذبية وتصر عليها مهما كانت الأحداث التى تجرى حولها .. إن نجاح الانقلاب وتغير السلطة ورحيل الملك لم يقنع هيكى ولا طاقم تحرير آخر ساعة ولا أصحاب أخبار اليوم بالتنازل عن صورة جوديث براون ولو فى ذلك الأسبوع.

ولكن هيكى كتب فى الصفحة الثالثة من عدد ٣٠ يوليو ثلاث مقالات صغيرة تحت عنوان رئيسى للصفحة هو «أحداث الساعة» .. كانت المقالة الأولى بعنوان «لقد أصبح الحلم حقيقة .. من كان يتصور؟» .. وكانت المقالة الثانية بعنوان: «اسكتوا أنتم ودعوا

غيركم يتكلم» .. وكانت المقالة الثالثة بعنوان: «بدأ فى القاهرة وانتهى فى دوفيل .. تاج مصر أبقى من شخص فاروق» .. وبينما كانت المقالة الثالثة تقريراً ليس فيه جديد عن خروج الملك من مصر بعد تنازله عن العرش .. كانت المقالة الأولى تأييداً حماسياً واضحاً وبلا تردد للثورة .. وكانت المقالة الثانية محاكمة سريعة للسياسيين القدامى.

ويصف هيكल ما جرى فى ليلة ٢٣ يوليو بأن الضباط الأحرار قد بدأوا تحركهم فى منتصف الليل .. وبعد ساعتين اثنتين كانوا قد حققوا ما أرادوه .. «وبعد دقائق كنت معهم» .. «ورأيت بعينى تاريخ مصر يتغير فى فجر يوم صيف».

ووسط حركة التاريخ وهى تجرى أمامه لم ينس هيكل مهنته .. اتصل بأخبار اليوم تليفونياً ليجد عامل التليفون يقول له: «مستطفى بك يبحث عنك فى الإسكندرية وفى كل مكان وهو الآن معى على الخط يتحدث مع سكرتير التحرير الأستاذ حسين فريد .. فهل تريد أن أوصلك به؟» .. ولم ينتظر رداً .. وسمع هيكل صوت مصطفى أمين الذى سارع بسؤاله: «أين أنت؟» .. وكانت إجابة هيكل: «لا يهم الآن» .. فقال مصطفى أمين: «هل تعرف أن ضباطاً فى الجيش تحركوا من ثكناتهم ونزلوا الشارع؟» .. أجاب هيكل: «إننى أعرف» .. وسأله: «كيف؟» .. فرد هيكل: «لأننى ببساطة هنا فى مقر قيادتهم» .. وحسب رواية هيكل المنشورة فإن الصمت ساد على الناحية الأخرى من الخط .. ثم تمالك مصطفى أمين نفسه وراحت الأسئلة تتسابق على الأسلاك .. فقال هيكل له: «إننى مع الأسف لا أستطيع ولا أملك أن أرد على سؤال منها .. وسأله عن رقم التليفون الذى يتكلم منه حتى يستطيع أن يتصل به مباشرة لأن الظرف بالغ الخطورة .. ثم أضاف أنه سيذهب به أيضاً إلى (نجيب) الهلالى باشا (رئيس الوزراء) الذى يهمه فى هذه اللحظة أن يسمع من هيكل.

وبذكاء هيكل الذى يحسب كل صغيرة قبل الكبيرة فى الظروف الحرجة أدرك أن «الموقف كله مما لا يسمح بأى حركة طائشة» .. فطلب من مصطفى أمين أن ينتظر .. والتفت إلى عبد الحكيم عامر وكان فى الغرفة - التى كانت من قبل مكتباً لمساعد اللواء حسين فريد رئيس هيئة أركان حرب الجيش المصرى (سابقاً) - وقال له: «إن مصطفى أمين معى على الخط .. حولونى إليه من سنترال أخبار اليوم وهو يطلب رقم التليفون هنا .. وهاج عبد الحكيم عامر وقال لهيكل: لا تعطيه الرقم .. ولكن كان رأى جمال عبد الناصر أن يعطيه التليفون .. وكان مبرره: «أنهم يريدون أن يعرفوا كيف نحن نفكر هنا .. لكننا من خلال أسئلتهم سوف نعرف كيف يفكرون هم هناك» .. ويعترف هيكل

بأنه أعجب بسرعة بديهة جمال عبد الناصر وقدرته على التصرف والحسم فى طرفة بصر أو ومضة زمان.

وفى فجر ذلك اليوم وصباحه الباكر اتصل مصطفى أمين بهيكل من الإسكندرية مرتين .. ثم اتصل نجيب الهلالي به من هناك مرتين أيضاً .. وقد حفر هيكل فى ذاكرته ما جرى وسجله فى أوراقه كذلك .. لقد أتيح له أن يلعب دور «الوسيط» بين رجال جدد لا يعرفهم جيداً ولكن يراهن عليهم .. وبين رجال قدامى يعرفهم جيداً وراهنوا على وجوده فى ذلك الظرف التاريخى الحرج .. إن هيكل كان على علاقة طيبة بنجيب الهلالي وكان معجباً بنزاهته فى وقت فسد فيه الجميع .. وكان مناصراً له فى شعاره - الذى شكل به حكومته فى مارس ١٩٥٢ - وهو: التطهير والتحرير .. وقد أتاح له نجيب الهلالي أن يلعب أول دور مباشر فى كواليس لعبة السياسة عندما رشح له اللواء محمد نجيب وزيراً للحربية .. وكان اللواء محمد نجيب قد أصبح إسماعلاً بعد أن فاز فى انتخابات نادى الجيش .. ولكن ترشيحه لهذا المنصب لم يلق قبولاً من الملك.

قال نجيب الهلالي لهيكل عبر التليفون: «هيكل .. أنا أعرف أنك فى وضع صعب .. وربما كنا نحمك أكثر مما تحتمل .. ولكن بما أن الظروف قضت بأن تكون حيث أنت الآن فى هذه اللحظة فليس أمامنا ولا أمامك إلا أن نحمل مسئوليتنا .. وأنا أكلّمك من أجل «البلد» وأرجو أن يكون ذلك واضحاً «للجماعة» عندك .. ثم استطرد يسأله: ماذا تريد «الجماعة» عندك .. إننى أريد منك أن تسأل من تعتقد أنه يستطيع الرد منهم .. ولن أسألك من هو؟ .. وبعد ثوان حمل هيكل رد «الجماعة» بعد أن سمعه من جمال عبد الناصر .. وهو أن ينتظر البيان الذى سيذاع بعد نصف ساعة من راديو القاهرة .. ونظر هيكل إلى ساعته لا إرادياً فوجدها تشير إلى السادسة وعشر دقائق.

السكوت الذى ترقد تحته عاصفة

■ كان وجود هيكل فى مقر القيادة فى لحظات المخاض القلقة التى لم يكن قد تبين فيها الخيط الأبيض من الخيط الأسود هى فرصته الذهبية لمعرفة خريطة القوى الحقيقية للسلطة الجديدة التى استولت فى أقل من ساعتين على حكم مصر.

إن محمد نجيب .. «وجه الأب الطيب» الذى أطل على الناس فور نجاح الثورة لم يكن - رغم أهمية دوره - سوى واجهة أوفاترينة .. أما الذين كانوا يصنعون الأحداث ويحركونها فكانوا وراء الستار .. ينتظرون إشارة أو إيماءة من قائدهم قليل الكلام .. الكامن فى انتظار اللحظة المناسبة .. للانقضاض وهو جمال عبد الناصر .. لقد عرف هيكل هذه الحقيقة منذ اللحظة الأولى فلم يتردد فى الرهان عليها.

وربما كان هيكل هو أول من عرف أن جمال عبد الناصر هو الرجل القوى .. وربما ظل الوحيد الذى يعرف ذلك لبعض الوقت .. وكان السبب أن أعضاء مجلس قيادة الثورة كانوا قد اتخذوا قراراً بأن يظلوا جميعاً فى الظل وأن يترفعوا عن المظاهر ويرفضوا الأضواء والدعاية ونشر صورهم وأحاديثهم فى الصحف .. واستمر هذا الاتفاق سارياً حوالى ٣ شهور .. من ٢٣ يوليو إلى ١٣ أكتوبر ١٩٥٢.

لكن .. فى صباح يوم ١٤ أكتوبر ١٩٥٢ تمزق هذا الاتفاق وانتُهِك بمقال نشرته صحيفة الأخبار على الصفحة الأولى والصفحة الثالثة .. وكتبه مصطفى أمين وإن لم يوقعه .. وفيما بعد قال لى مصطفى أمين: إنه كتب المقال بإيحاء من جمال عبد الناصر نفسه .. وقد ألح مصطفى أمين فى المقال إلى أن جمال عبد الناصر هو القائد الفعلى للثورة وأن الذين ساعدوه هم باقى ضباط القيادة .. جمال سالم وأنور السادات وعبد الحكيم عامر

وعبد اللطيف البغدادي وحسن إبراهيم وصلاح سالم وكمال الدين حسين وخالد محي الدين .. ونشر مصطفى أمين صورة كبيرة بجانب المقال في الصفحة الأولى لجمال عبد الناصر ونشر صور الثمانية الآخرين بحجم أصغر في الصفحة الثالثة .. ولم ينشر صورة لمحمد نجيب .. ولم يشر لباقي الضباط الذين قاموا بالثورة .. وغضب باقي الضباط الأحرار .. وتحول الغضب إلى ما هو أكبر من الاستياء .. وكان أن بدأت أزمة ضباط المدفعية .. ثم أزمة ضباط الفرسان .. وبدأت السلطة الجديدة تتصارع مع بعضها البعض .. وكان أن بقي البعض في الحكم ودخل البعض الآخر السجن.

وقد أفرط مصطفى أمين في وصف جمال عبد الناصر .. وقال عنه: إنه يتحدث بأعصاب حديدية صارمة .. وبوجه هادئ جامد .. «وشعره الأشيب يروي قصة كفاح سرى عجيب لم يتصوره أحد ولم يعلم به أحد».

وفي الحقيقة لم يكن مصطفى أمين أول من كتب عن جمال عبد الناصر وضباط القيادة .. لقد سبقه إلى ذلك هيكل بأكثر من ٤٧ يوماً .. في عدد آخر ساعة رقم ٩٣١ .. بتاريخ ٢٧ أغسطس ١٩٥٢ .. على صفحتين كاملتين .. بعنوان «من هم ضباط قيادة محمد نجيب؟ - الستار الحديدي الذي وضعوه حول أنفسهم» .. وحظي جمال عبد الناصر بالقطع بنصيب الأسد .. وكان ذلك هو أول ما كتبه هيكل عنه .. وإن لم يذكر اسمه صراحة .. فقد كان ضباط يوليو في المرحلة الثورية .. الرومانسية .. وهي مرحلة كان نشر أسمائهم فيها جريمة .. وكانوا في هذه المرحلة يشبهون أنفسهم بظواهر الطبيعة الخارقة الغامضة .. فهي موجودة .. تفعل فعلها .. وتؤدي عملها .. وتؤثر فيما حولها .. ولكن لا أحد يعلم على وجه التحديد من أين جاءت ولا إلى أين تروح؟.

كان عنوان أول مقال لهيكل عن جمال عبد الناصر: «السكون الذي ترقد تحته عاصفة» .. أما المقال نفسه فهو وثيقة هامة في تاريخ هيكل .. لا يمكن التفريط في عدم نشرها كاملة .. فهي بداية أهم مرحلة في حياته وهي التي تحدد بدقة متى وكيف بدأت علاقته بجمال عبد الناصر.

قال هيكل في المقال:

«سمعت عنه قبل أن ألقاه. كانوا يتحدثون عنه في الفالوجا المحصورة كما يتحدثون عن الخرافات والجن العمايقة .. كان جريئاً إلى أبعد حدود الجرأة وفي الوقت نفسه كان هادئاً إلى أبعد حدود الهدوء .. وكان هذا المزيج من الجرأة والهدوء شيئاً عجيباً مثيراً ..

وكان كل زملائه يحبونه .. واشتهر بينهم بإسم تدليل (يقصد جيمى بينما كانوا يسمون عبد الحكيم روبنسون كروزو) كانوا يطلقونه عليه وينطقونه بإنفه وإعزاز حينما يتكلمون عنه وهم جالسون فى الخنادق فى خط النار ..

«وكان كثيرون فى الفالوجا يحبون الاستماع إليه فقد كان يتكلم لغة جديدة ويثير فيمن حوله مشاعر جديدة قوية .. وعندما كانت المعارك تهدأ يهرع إليه نفر من الضباط حيث يكون ثم تدور أحاديث تتجه كلها إلى الوطن البعيد حيث يفصل بينه وبينهم عدو يحاصر مواقعهم من كل ناحية .. وكان تخليص وطنهم أهم عندهم من تخليص أنفسهم من الحصار الذى كانوا فيه ..

«وعاد من الفالوجا هادئاً ساكناً وفى نفس الوقت هائجاً ثائراً .. وكتب البوليس السياسى عنه تقارير وصفته بأنه من الإخوان المسلمين واستدعاه رئيس الوزراء القائم بالحكم وقتئذ (يقصد إبراهيم عبد الهادى) لمقابلته وسأله: هل أنت من الإخوان؟ .. وكانت تهمة الالتصاق بالإخوان المسلمين فى ذلك الوقت تهمة مخيفة وكانت مفاجأة لرئيس الوزراء حين قال الضابط: نعم أنا منهم .. ودُهِش رئيس الوزراء وصمت لحظة ثم قال: لقد أعجبتنى شجاعتك ولست أطلب منك تعهداً لى بأن لا تشترك فى أعمال عنيفة ..

«وحين خرج بعد إنتهاء وعرف بعض زملائه ما حدث أقبلوا عليه يسألونه: ولكنك لست منتمياً إلى جماعة الإخوان المسلمين فلماذا قلت أنك منهم؟ .. وقال هو بهدوء: لقد كان سيتصور إنى أتهرب وأجبن إذا قلت إنى لست منهم ..

«الذين اتصلوا بعمله يقولون إنه جندى محترف .. الجندي فى دمه وفى أعصابه وفى عقله .. ويستشهدون على ذلك بفترة قضاها فى كلية أركان الحرب وكان العقل المدبر للكلية .. ومن خريجى هذه الكلية جاء معظم ضباط حركة القوات المسلحة ..

«ثم التقيت به لأول مرة .. وكان اللقاء فى بيت اللواء محمد نجيب قبل أربعة أيام من حركة القوات المسلحة .. وكان يبدو أبعد بكثير مما سمعت عنه .. كان يرتدى قميصاً أبيض وبنطلوناً رمادى اللون .. وبدأ كأنه شاب عادى لولا الشيب الكثير الذى ملأ شعر رأسه .. وكنت قبل أن يدخل هو إلى بيت اللواء محمد نجيب جالسا مع اللواء نتحدث عن موضوع الساعة فى ذلك الوقت وهو حل مجلس إدارة نادى الضباط .. وحين دخل هو واصلنا الحديث فى نفس الموضوع وكان هو ساكناً لا يتكلم ..

«وقلت له: ماذا .. هل ستتركون المسألة هذه المرة تمضى؟ .. وقال فى هدوء: ماذا نفعل؟ .. قلت: افعلوا أى شئ .. ولكن لا يمكن أن تمضى المسألة هكذا .. وقال فى بساطة: أهذا رأيك؟ .. قلت فى عصبية: وهل لك أنت رأى سواه؟ ..

ثم التقيت به للمرة الثانية فى الساعة الرابعة من فجر ٢٣ يوليو .. كانت الحركة قد فرغت منذ أقل من دقائق .. وكانت رئاسة الجيش تعيش فى جو غريب .. حركات القوات حولها من كل ناحية .. والدبابات والسيارات المدرعة ومدافع الميدان والمدافع الرشاشة .. واقترب منى فى صوت رقيق متزن يقول: ما هو رأيك .. هل يكفى هذا؟ ..

ثم رأيته كثيراً بعد ذلك .. رأيته يلزم مكتبه سبعة أيام متواصلة .. وإذا غادره فإلى المكتب المجاور .. حيث يشهد مؤتمراً .. ورأيته يتكلم فى كل الموضوعات ويقترح حلولاً لكل المشاكل .. وبعضها بعيد عن العسكرية بُعد السماء عن الأرض .. ورأيته يجلس على ذوى القوة دون أن يحس بها فإن رأسه لم يدر ولم يركبه الغرور .. لقد كان فى هذا كله كما وصفوه أيام الفالوجا مزيجاً من الجرأة المتناهية والهدوء الوديع .. انتهى.

ويحدد هذا المقال الذى كُتب والحدث ساخناً متى بدأت علاقة هيكى بجمال عبد الناصر .. لقد كان اللقاء الأول فى ١٨ يوليو ١٩٥٢ .. قبل الثورة بأربعة أيام .. فى بيت محمد نجيب .. وقد كان اللقاء «مصادفة» على حد وصف هيكى عند إعادة الرواية فى عام ١٩٨٤ .. بعد ٣٢ سنة غلى وقوعها .. وعند إعادة الرواية قال هيكى أيضاً: إنه فى حضور عبد الحكيم عامر ومحمد نجيب دار نقاش ساخن حول ما يجرى فى البلاد ودور الجيش فيه .. «وتحمست أثناء المناقشة وقلت لجمال عبد الناصر ما معناه: أن الجيش عاجز عن رد كرامته إزاء عدوان الملك عليه .. ورد جمال عبد الناصر بالتساؤل عما يمكن أن يفعله الجيش .. أو ليست أى حركة من جانبه يمكن أن تؤدى إلى تدخل بريطانى يعيد فيه الملك فاروق تمثيل دور الخديوى توفيق ويعود فيه الجيش إلى مأساة عرابى؟ .. وتطوعت فقلت: إن الإنجليز لن يتدخلوا لأنهم لا يملكون وسائل التدخل .. وأحسست أن عبارتى رنت جرساً فى رأس جمال عبد الناصر لأنه التفت إلى وسألنى عن الأسباب التى تدعونى إلى القول بذلك .. كيف أستطيع أن أقطع على هذا النحو بأن الإنجليز لن يتدخلوا .. ورحت أشرح وجهة نظرى» (٢).

كان هيكى فى ذلك الوقت شاباً أنيقاً .. أعزب .. يدخن سيجاراً صغيراً أسود .. ويكتفى بأقل قدر من النوم .. أقل مما كان ينام جمال عبد الناصر .. ويتحدث الإنجليزية أفضل

مما كان يتحدثها فى ذلك الوقت جمال عبد الناصر .. وكان هيكلى يتابع الصحف الأجنبية ويدأوم على متابعة الكتب المنشورة فى لندن ونيويورك .. وعلى علاقة بطابور طويل من المراسلين الصحفيين القادمين من أربعة أنحاء المعمورة .. وكل ذلك جعل جمال عبد الناصر ينظر له نظرة مختلفة.

والمؤكد .. أن جمال عبد الناصر لم يكن يعرف هيكلى معرفة وثيقة حتى قامت الثورة .. بل أنه لم يكن يثق فى صحافة أخبار اليوم ولا فى محرريها .. ولو أراد استغلال أخبار اليوم لصالحه فإن رأسها مصطفى أمين كان جاهزاً وميتطوعاً .. بل أن علاقة جمال عبد الناصر كانت أكثر متانة فى تلك الفترة بأحمد أبو الفتوح .. بسبب علاقة النسب التى كانت تربط بين أحمد أبو الفتوح وثروت عكاشة .. وقد كان أحمد أبو الفتوح وراء تقديم موعد قيام الثورة بعد أن أبلغ ثروت عكاشة أن البوليس السياسى لديه قائمة بالضباط الأحرار .. وأنه على وشك أن يلتهمهم فى الغذاء قبل أن يلتهموا هم النظام فى العشاء .. ثم كانت علاقة جمال عبد الناصر أكثر متانة بإحسان عبد القدوس بعد موقفه الشجاع فى حملة الأسلحة الفاسدة .. وبعد الدور الذى لعبته روز اليوسف فى التمهيد للثورة والتحريض عليها .. فلماذا جاء هيكلى منفرداً .. بلا مؤسسة صحفية يملكها .. وبلا قوة تسانده .. ليصبح الأقرب لجمال عبد الناصر .. ليصبح المدنى الوحيد الذى ينام جمال عبد الناصر على تليفون منه ويستيقظ على تليفون منه .. ويمكنه أن يزوره فى منزل منشية البكرى فى أى وقت وهو متأكد أنه سيلقى ترحيباً مهما كان الوقت متأخراً ليلاً؟.

حسب شهادة محسن عبد الخالق وقد كان واحداً من المقربين لجمال عبد الناصر ومديراً لمكتبه فى الفترة المبكرة للثورة فإن جمال عبد الناصر اعترف له بأن هيكلى هو الوحيد «الذى فهمنى وفهم ما يدور فى عقلى قبل أن أترجم أفكارى إلى كلمات» .. وكانت نص عبارة جمال عبد الناصر لمحسن عبد الخالق: «إن هيكلى ببساطة يجلس فى رأسى» (٣) وحسب شهادة وزير الإعلام الأسبق محمد فائق: فإنه كان فى رحلة مع جمال عبد الناصر لحضور أحد اجتماعات منظمة الوحدة الأفريقية بأديس أبابا .. «وجلسنا على العشاء وكان معنا هيكلى .. وطلب منى جمال عبد الناصر بعض المعلومات لأننى كنت مسئولاً عن أفريقيا .. فقدمتها له .. فأخذها منى وقدمها لهيكلى .. الذى قام وذهب إلى حجرته .. وعندما عاد كانت المعلومات قد صيغت بطريقة جذابة .. ومبهرة .. وبدت مطابقة لما يتصوره جمال عبد الناصر الذى كان هو الآخر عاشقاً للكلمة .. شاعراً أمام الأسلوب الحلوى» (٤)

وقد كان كل الصحفيين فى مصر فى بداية الثورة يهتمون بأخبار محمد نجيب وتصريحاته ومقابلاته .. بينما ركز هيكىل - كما يقول محسن عبد الخالق - على جمال عبد الناصر .. ولم يكن الناس قد عرفته بعد بأى صورة من الصور .. وفى تلك الفترة ألقى هيكىل على إجراء حوار معه .. وجرى الحوار فى بيت جمال عبد الناصر الذى قال لمحسن عبد الخالق عندما قرأ الحوار: «إن هيكىل استطاع أن يقرأ حتى أفكارى التى لم أبح بها لأحد» .

وفىما بعد راجت قصة تكررت على السنة كثيرة .. لقد لاحظ الصحفيون الذين رافقوا جمال عبد الناصر فى رحلته إلى مؤتمر باندونج أنه ينفرد كثيراً بهيكىل ويدخلان فى حوار طويل .. وطالب هؤلاء جمال عبد الناصر بأن يعطيهم الأخبار كما يفعل مع هيكىل .. لكن كانت المفاجأة أن جمال عبد الناصر قال لهم: «إن هيكىل هو الذى يعطيه الأخبار» .. كان هيكىل ينشط فى دوائر المؤتمر .. وينقل ما يجرى فيها لجمال عبد الناصر ليعطيه الفرصة للتصرف والرد والمناورة .. وأتصور أن هيكىل كان هنا مثل أى صحفى يعرف أن الحصول على المعلومات يكون بالمعلومات .. فصيد سمكة كبيرة يحتاج لطعم من سمكة صغيرة .. وفى مقابل ما كان ينقله هيكىل لعبد الناصر مما يجرى فى صحافة العالم وأحداثه أول بأول كان يحصل على كل وثائق الدولة أول بأول .. وهكذا .. بدا هيكىل فى المنطقة الوسطى بين دور الشاهد ودور المشارك .. بين الصحافة والسياسة .. وهذه قصة أخرى.

ومنذ وقت مبكر للثورة قبل هيكىل أن يلعب دوراً سياسياً يتجاوز دوره الصحفى .. ففي الوقت الذى قرر جمال عبد الناصر إيفاد أول بعثة عسكرية - يرأسها قائد الجناح على صبرى - إلى واشنطن لبحث احتمالات عقد صفقة سلاح بين مصر والولايات المتحدة وافق جمال عبد الناصر على سفر هيكىل إلى هناك ليحاول أن يستكشف ما يسبق ذلك وما يليه من احتمالات سياسية .. وكان هيكىل قد تلقى دعوة من السفير الأمريكى فى القاهرة جيفرسون كافرى لتغطية الانتخابات الأمريكية التى كانت ستجرى فى خريف ١٩٥٢ وفاز فيها الجنرال دويت إيزنهاور الذى راح يستعد لدخول البيت الأبيض فى ٢٠ يناير ١٩٥٣ .

وحسب ما سجله هيكىل بنفسه فإنه عاد إلى مصر متشائماً «من إمكانية حصول مصر على سلاح أمريكى» ويشهد هيكىل «أن جمال عبد الناصر - من موقعه الذى لم يبرحه فى القاهرة - كان قد وصل إلى نفس القناعة وقال: «إننى قلت لبعض إخواننا هنا أننا لن نتسلم شحنات سلاح من أمريكا والشحنة الأولى التى سوف نتسلمها سوف تكون على صبرى نفسه» ..

لكن .. ضرورات السياسة لم تكن لتقنع بمشاعر التفاؤل والتشاؤم.

على أنه .. قبل أن نعرف كيف راهن هيكل على جمال عبد الناصر لابد أن نتوقف عند كتاباته الأولى التى عبر بها عن الثورة .. إن هذه الكتابات التى تصدرت صفحات آخر ساعة تحت عنوان «أحداث الساعة» .. كانت تتميز بالسرعة .. والرشاقة .. والفكرة الخاطفة .. والعنوان الملفت .. والحدة فى الرأى المنحاز للسلطة الجديدة .. والتحريض على دعمها ومساندتها والمشى فى ركبها .. وفى الصفحة الواحدة من آخر ساعة (وهى تساوى نصف صفحة جريدة) كان هيكل يكتب ما بين ٤ - ٦ مقالات قصيرة .. كان بعضها لا يزيد عن ١٥٠ كلمة وهو ما سهل على غالبية الناس قراءتها .. منها:

«ليست الثورة فيلماً من أفلام رعاة البقر نجلس لمشاهدته على مقعد وثير فى دار سينما مزودة بتكييف هواء لنرى البطل الشريف الوسيم يطارد زعيم العصاة اللص المكروه ثم نقف فى نهاية العرض نثنى على شجاعة البطل ونحن نتمطى فى تكاسل ثم يعزف النشيد الوطنى ثم نذهب إلى بيوتنا وننام ملء الجفون وأنتهى الأمر .. ليست الثورة هذا .. ولا هذا هو شعورها .. ولا تلك تبعاتها ولا هذه ضرائبها المقدسة .. لقد صفقنا طويلاً لضباط الجيش فى حربهم ضد الفساد ولكن أهذا هو كل دورنا؟ .. مجرد التصفيق .. ماذا فعلنا جميعاً لنقول للذين ثاروا حقيقة إننا معهم .. لنثبت لهم أننا عقدنا العزم على أن نقف معهم فى نفس الخط الذى يقفون فيه دفاعاً عن مستقبل مصر.»

من مقال: الثورة ليست فيلماً من أفلام رعاة البقر

١٣ أغسطس ١٩٥٢

«أكاد أفقد إيمانى بثورة سنة ١٩١٩ .. إن الثورة نفسها لم تعش إلا بضعة أيام بينما عاشت الثورة على الثورة أكثر من ثلاثين سنة .. إن تاريخ مصر بعد سنة ١٩١٩ هو قصة الثورة على الثورة .. إن أبطال الثورة تمردوا على المعانى التى جاهدوا من أجلها وتمردوا على القيم التى حاربوا فى سبيلها وتمردوا على الأهداف التى من أجلها سالت دماء إخوانهم فى الثورة .. لسبب غامض استحال الأبطال إلى قراصنة .. إن الذين كانوا أبطالاً واستحالوا إلى قراصنة لا يريدون أن يفهموا أن الساعة عصبية وأن الموقف لا يحتمل كل هذا التطاحن على بقايا ممزقة من غنائم تافهة.»

من مقال: كانوا أبطالاً فأصبحوا قراصنة

١٣ أغسطس ١٩٥٢

«إن جيل الشباب المصرى الحاضر جيل مسكين .. لقد شب ليجد الجيل الذى سبقه منهمكاً بأقصى قوته وبكل حماسة وإخلاص فى عملية هدم ليس لها مثيل .. كل رجل كان يكرس حياته لهدم رجل آخر .. وكل جماعة لا تتمنى إلا هدم جماعة أخرى .. والنتيجة أن جيل الشباب المصرى الحاضر كاد يفقد إيمانه بكل شئ حتى بنفسه .. إن آباءه لصوص وقادته خونة وأساتذته ومعلميه مرتشون فقدوا الأخلاق .. والحياة .. وبعد لقد شبعنا هدماً .. فمتى يحين دور البناء؟»

من مقال: جيل وسط الانقراض

١٣ أغسطس ١٩٥٢

«إن الذين يجهدون أنفسهم بحمل الدستور ويجهدون عيونهم فى التدقيق بين مواده ويجهدون عقول الناس معهم فى تفسير ألفاظه يبدون اليوم فى مصر وكأنهم من عالم آخر لا يشعر بما نشعر ولا يحس بما يملأ نفوسنا من أحاسيس .. لقد حدثت فى البلد ثورة أفهموا هذا يا أيها الحالمون للدستور المدققون بين مواده المجتهدون فى تفسير ألفاظه .. إننا نريد الدستور .. هذه حقيقة خالدة ليس فيها نقاش .. فالدستور فى رأينا سور يحمى مقدسات الوطن الغالية ولكن قبل أن نحكم وضع السور علينا لأن نبني المقدسات الغالية التى ينبغى لهذا السور أن يقوم بحمايتها.

من مقال: البناء قبل السور

٢٠ أغسطس ١٩٥٢

«بعض الذين أضنتهم الحياة داخل سجون الطغيان القديم لا يريدون أن يصدقوا أن عهداً جديداً قد بدأ .. إنهم مازالوا يتكلمون همساً ومازالوا يتصورون أن هناك من يعد عليهم الحركات والسكنات .. ومازالت فى عيونهم نظرات الرعب القديم .. ارفعوا أصواتكم وتكلموا وأطلقوا كل الحبس فى صدوركم .. أنتم أحرار .. وافعلوا ما تريدون وانطلقوا فى الطريق الذى تشاءون فلن تعترض طريقكم جدران عالية تصدكم عن الانطلاق .. وافتحوا عيونكم وأديروها فيما حولكم .. لقد تحطمت الأسوار وانخلعت القضبان وليس فوقكم إلا السماء الصافية .. تكلموا .. تحركوا .. انظروا .. هذا عهد جديد.»

مقال: تكلموا .. تحركوا .. انظروا

١٧ سبتمبر ١٩٥٢

«يخطئ من يتصور أن الثورة هي هوجة يوم واحد تقفز فيه متحمسة مستعدة إلى مقاعد السلطان فتطرد الجالسين عليها أمواتاً وأحياء ثم تحتل مكانهم وينتهي الأمر .. لقد بدأت الثورة الحقيقة فى اعتقادى ساعة صدور قانون تحديد الملكية .. لقد بدأت وقتئذ أن هناك أمة تولد من جديد .. وبدا وقتئذ أن روح الثورة وروح التحرير ليسا ترفاً وإنما حقيقة تدب على الأرض الطيبة وتصدم العاملين فوق التربة السمرء وتقول لهم: اسمعوا .. لم تعودوا عبيداً.»

من مقال: ما هي الثورة

١٧ أغسطس ١٩٥٢

ولم يكن هيكلى ليكتفى بالترويج للعهد الجديد دون أن يوسع بقلمه بعضاً مما كان يجرى .. فهو مثلاً ينتقد رئيس قوة البوليس التى تقوم بحراسة بيت رئيس الوزراء على ماهر لأنه يمنع مرور السيارات والبشر من أمام البيت .. ويستطرد هيكلى: «ولقد أثار هذا التصرف دهشة كثيرين فقد تصور الناس أن الفوارق قد زالت وأن جميع المصريين أصبحوا سواء فى الحقوق والواجبات وأنه لا يمكن أن يقفل طريق عام لأن واحداً من كبار المسئولين يسكن فيه» .. ووصف هيكلى مثل هذا التصرف بعقلية ما قبل ٢٦ يوليو .. تاريخ خروج الملك .. وإن كتب التاريخ فى عنوان المقال ٢٦ يناير .. خطأ.

وبمرور الأيام تلاشت مساحة محمد نجيب فى رؤية هيكلى على صفحات المجلة المصورة المؤثرة التى يرأس تحريرها .. وفى المقالات التى يكتبها .. وبدا واضحاً أن كل موهبة صناعة الضوء التى يتقنها قد أصبحت من نصيب جمال عبد الناصر رغم أن محمد نجيب قد أصبح أول رئيساً للجمهورية فى ١٨ يونيو ١٩٥٤.

لقد كثف هيكلى براعته فى الدعاية السياسية والصحفية لتكون من نصيب جمال عبد الناصر بمفرده .. ولم يفقد هيكلى رهانه على جمال عبد الناصر رغم الظروف الحرجة التى جرت فيما يعرف بأزمة مارس ١٩٥٤ .. لقد قدم محمد نجيب استقالته .. وترك مكتبه إلى بيته .. لكن المظاهرات الشعبية خرجت لتطالب بعودته .. ونجحت فى ذلك .. ولقد وصف هيكلى هذه الأزمة بالحنة .. ووصف محمد نجيب بقلب الثورة .. ووصف جمال عبد الناصر بعقلها .. وطالب بضرورة استمرار الحلف المقدس بينهما .. ولكن الحنة التى خرج منها محمد نجيب منتصراً كانت هدنة لجمال عبد الناصر استعداداً

لجولة جديدة حاسمة .. تصبح السلطة فيها من نصيبه كاملة .. بلا منازع .. وفي فترة الهدنة التي لم تزد عن شهور كان هيكل يتعامل مع جمال عبد الناصر على أنه الرئيس والزعيم والقائد رغم أنه كان لا يحتل سوى منصب رئيس الوزراء.

وقد كانت الدعاية لجمال عبد الناصر تصوره بما يتجاوز الحدود الضيقة للوطن بما هو أرحب وأوسع عربياً وعالمياً .. ففي عدد آخر ساعة ١٠٣٤ في ١٨ أغسطس صور لجمال عبد الناصر وهو في الأراضي في مكة يطوف بالكعبة التقطتها عدسة حسن دياب .. في صحبة تقرير يؤكد أن «شعوب الإسلام مع جمال عبد الناصر» .. ويشير إلى أن «الأراضي المقدسة تشهد أخطر الاجتماعات والمشاورات» .. وتقول: أن فكرة «الرئيس» جمال عبد الناصر بعقد المؤتمر الإسلامي الأول هناك نجحت ..

وقبل ذلك في عدد ١٠٢٤ من آخر ساعة في ٩ يونيو ١٩٥٤ نشر هيكل ترجمة للتحقيق الذي نشره بالصور الصحفي الإنجليزي ريتشارد طومسون عن بيت جمال عبد الناصر .. وفيه يقول: إنه قابل جمال عبد الناصر في بيته وليس في مكتبه وهو بيت صغير ملحق بإحدى ثكنات الجيش .. والحكومة هي التي تملك البيت ولكن الكولونيل عبد الناصر نقل إليه أثاثه القديم .. ولقد لفت نظري تقشف هذا الأثاث وهو حقيقة أثاث مريح ولكنه نموذج للتقشف .. وقد أدهشني أن جمال عبد الناصر يبدو في الطبيعة أحسن بكثير من الصور التي تنشر له .. إنه شاب في السادسة والثلاثين .. طويل .. ذو شعر مجعد غزاه الشيب من الجانبين .. وحررت في لون عينيه .. فهو مزيج من الأزرق والرمادي ولقد شعرت طول الوقت إنني مع شخصية مرحة ولكنها شخصية أمره .. ولفت نظري شيء آخر هو أن جمال عبد الناصر لم يتردد في الإجابة على أي سؤال وجهته إليه حتى الأسئلة التي ترددت أنا قبل إلقائها شعوراً بالحرص .. ونشر مع التحقيق الصحفي صوراً لأثاث البيت .. ولأولاد عبد الناصر .. خالد ومنى فوق مائدة الطعام .. عبد الحميد يستمتع بقطعة شيكولاتة .. وعبد الحميد على حجر والده الذي كان ينظر إليه بحنان وابتسامة خفيفة ساحرة .. وصورة لهدى وهي تلعب على مرجيحة متواضعة في حديقة أكثر تواضعاً.

وقبل ذلك .. في عدد ١٠١٨ من آخر ساعة في ٢٨ إبريل ١٩٥٤ نشر هيكل ترجمة لقصة جمال عبد الناصر كما روتها مجلة لايف الأمريكية المصورة بقلم محررها جيمس بل الذي وصف جمال عبد الناصر لأول مرة «بالزعيم» ووصفه أيضاً «بالرجل الباسم الواثب المنقض الذي يمتاز بالشهامة والنخوة» .. وقال عنه: إنه ذو طبيعة متناقضة تجمع بين

الشفقة والقسوة والاندفاع والهدوء لكنه لم يعرف عنه أنه فقد أعصابه مرة واحدة .. هذا العملاق الذى يسير دائماً فى خطى متئدة حريصة حذرة أضفت عليه فى يوم من الأيام لقب الثعلب .. وأنه ليبتسم فى طلاقة وبشر وحرارة صادقة .. وتومض فى عينيه لمعات الحماسة .. وترسم على وجهه معانى الهمة الفياضة المتدفقة وتتجلى فى مجموعته كل مظاهر الزعامة بصورة مؤثرة مقرونة بالبساطة الطبيعية وعدم التكلف .. حتى أن المرء لا يملك إلا أن يتساءل: هل هذا الرجل غامض إلى أبعد حد أم هو سليم النية إلى ما لا نهاية؟ .. ونشرت المجلة صورة له وهو يرتدى «البيجامة» ويجلس مبتسماً وسط أولاده بعد أن أجرى عملية الزائدة.

لقد بدأت صورة البطل الشعبى القوى تتسرب إلى وجدان الناس .. وراحت الأسطورة تتشكل فى انتظار الفرصة لتفرض نفسها على الجميع وهم يشعرون بأنهم أخيراً قد وجدوا حاكماً منهم يحكمهم .. وينشر العدل والرحمة والمساواة .. ويعيد الكرامة الضائعة .. ويحول نهر النيل إلى نهر من العسل والحليب.

الهوامش

- (١) عادل حمودة: نهاية ثورة يوليو - وثائق قضية المدفعية - الناشر مكتبة مدبولى - القاهرة ١٩٨٣ .
- (٢) هيك: بين الصحافة والسياسة - مرجع سابق - ص ٤٩ .
- (٣) تعرفت على محسن عبد الخالق بواسطة الصديق عيسى سراج الدين وأنا أقوم بتحقيق وثائق قضية انقلاب المدفعية فى صيف ١٩٨٢ وجرت بيننا أحاديث كثيرة تناول بعضها علاقة هيك وعبد الناصر.
- (٤) حوار شخصى مع محمد فائق جرى فى منزلة فى ضاحية مصر الجديدة بالقاهرة.

كتب «الدنيا بخير» .. ثم تزوج

■ في خريف ١٩٥٤ تعرض جمال عبد الناصر لحادث ميدان «المنشية» بالإسكندرية .. انطلقت الرصاصات وهو يلقي خطابه الشهير وسط الجموع .. وأمام تماسكه الذي كان ملفتاً للنظر راحت الجماهير تهتف وتصرخ بحياته .. وفي تلك اللحظة أصبح جمال عبد الناصر هو المسيطر على السلطة بلا منازع .. لأول مرة منذ قيام الثورة .. وبعد أكثر من عامين من الصراعات داخل مجلس قيادة الثورة من ناحية .. وبين مجلس قيادة الثورة والقوى السياسية الأخرى من جهة أخرى .. ولم يكن من الممكن الاستهانة بهذه القوى .. فقد كانت تنظيمات الشيوعيين والإخوان المسلمين شديدة التغلغل والتأثير.

وقد أُستغل حادث المنشية دعائياً بصورة متقنة وبارعة للترويج لجمال عبد الناصر .. وفي هذه اللحظة الانقلابية بالتحديد .. لابد أن نعرف كيف عالجها هيكمل .. لقد وصف جمال عبد الناصر في البداية بالمحظوظ .. وقال: إن جمال عبد الناصر رئيس وزراء مصر الذي تعرض هذا الأسبوع لثمان رصاصات كان جنوده في فلسطين يعتقدون أنه «محظوظ» .. و «كان جمال عبد الناصر نفسه يكاد يصدق ما يقوله جنوده .. وقد روى يروهان كوهين الضابط الإسرائيلي الذي قابله في فلسطين أنه قال لجمال عبد الناصر وقد قابله على بضعة أمتار من الخطوط اليهودية: «ألا تخشى أن تقترب من خطوطنا إلى هذا الحد؟» .. فضحك جمال عبد الناصر وقال: «إن جنودي يعتقدون إنني محظوظ» .. وكان جمال عبد الناصر عندما كان أركان حرب الكتبية السادسة يركب سيارته الجيب ويخرج من أحد المواقع إلى موقع آخر ماراً بقطاع مكشوف وكان رصاص المدافع الرشاشة

يلاحقه وسيارته تندفع تسابقه .. وكان هيكل يقصد بهذه القصة أن يؤكد أن شجاعة جمال عبد الناصر التي واجه بها رصاص حادث المنشية بثبات أثار دهشة العالم لم يكن جديداً عليه.

ثم بعد قصة «المحظوظ» دخل هيكل في الجد وكتب في افتتاحية أول عدد من آخر ساعة بعد الحادث (العدد ١٠٤٩ في أول ديسمبر ١٩٥٤) مقاله بأكثر من عنوان: «هذه هي النقطة التي نقف فيها اليوم بالتحديد» .. «جمال عبد الناصر يتحمل المسؤولية كاملة منذ هذه الدقيقة» .. «لن يقبل التاريخ عذراً .. ولن يلقي السمع إلى حجة».

كان الخلاف بين جمال عبد الناصر والإخوان المسلمين قد وصل إلى طريق مسدود بعد توقيع اتفاقية الجلاء بين مصر وبريطانيا .. لقد شن الإخوان أكثر الحملات السياسية والدعائية شراسة ضد جمال عبد الناصر .. وراحت المنشورات والتصريحات تهدد وتتوعد .. وتقطع وتمزق .. وراحت الصحافة الأجنبية تنشر وتشهر .. «الهضيبي (حسن الهضيبي المرشد العام للإخوان) يعلن عداؤه الصريح ويهدد حكومة جمال عبد الناصر بعرقلة اتفاقية الجلاء» .. «قولوا لا أو نعم هل اجتمع عبد الناصر في شرم الشيخ برئيس الأركان الإسرائيلي وأعقب ذلك تجريد المجاهدين الفلسطينيين من السلاح وتخفيض عدد الجيش» .. «جمال عبد الناصر يدعى النبوة ويبني سياسة مصر على علم الغيب وقراءة النجوم» .. «جمال عبد الناصر يزور تركيا لبحث إمكانية إنضمام مصر والدول العربية إلى حلف تركيا - باكستان» .. «مظاهرات ومعارك دامية في مصر» .. «جمال عبد الناصر يخشى على حياته من الإخوان ويبدأ بحملة لاعتقال زعمائهم».

والحقيقة أن حملة الإخوان المسلمين على جمال عبد الناصر - والتي اتهمته بالكفر والإلحاد وإنكار يوم الحساب والتشكيك في الآخرة - لم تتوقف عن مطاردته حياً .. وميتاً .. ولا يمكن إنكار أن هذه الحملة نجحت في تصوير جمال عبد الناصر في المخيلة الشعبية العامة معادياً للدين .. وقد سأل عماد أديب .. هيكل في برنامج تليفزيوني عن قصة الحوار الذي دار بينه وبين جمال عبد الناصر والذي استخدمه البعض في التشكيك في رؤية جمال عبد الناصر الدينية .. فقال:

«عبد الناصر كان متديناً بطبعه وهذه القصة تؤكد أن هناك للإسف عملية تضليل

وتصيد... وأصل الحكاية أنني كنت صيفاً اضطرت للإقامة فى الفنادق لأن عائلتي كانت تذهب للإسكندرية وكنت أضطر للبقاء فى القاهرة لظروف عملى فى الأهرام .. كان عبد الناصر يتصل بى تليفونياً فى الهيلتون فأصنف له جمال منظر النيل من روف الهيلتون وأعطيه صورة مشرقة عن الحياة فى الفنادق .. وأثناء مؤتمر القمة أخذ عبد الناصر جناحاً فى الدور (١٢) وكان كل الرؤساء موجودين وفى أحد المرات دار بيننا حواراً كان حاضراً فيه أنور السادات وحسين الشافعى .. والذى حدث بالتحديد ويكاد يكون بالنص أن عبد الناصر قال: «أدينا قاعدين فى الهيلتون ياسيدى.. بس رسمى» .. فقلت له: الناس بيستمتعوا وقاعدين يشربوا ويأكلوا ويعوموا فسأل: والحساب .. قلت له: الحساب يوم الحساب .. فقال: يعنى مفيش حساب.. وهذه هى القصة الحقيقية التى حفرها وحورها.

فى عام ١٩٥٣ أقترح هيكى على جمال عبد الناصر أن يكتب مذكراته عن حرب فلسطين .. واستجاب جمال عبد الناصر وسود بالفعل خمس مقالات نشرت باسمه .. وفى العام نفسه نجح هيكى فى إقناع جمال عبد الناصر بأن يشرح أفكاره الوطنية والقومية والعربية والإسلامية فى كتاب «فلسفة الثورة».

إن الحاكم لا يصبح زعيماً إلا إذا جاء وبيمينه كتاب .. هتلر ولينين وماوتسى تونج .. مثلاً .. وقبلهم الأنبياء الذين سادت رسالاتهم السماوية هم الذين نزلت عليهم كتب مقدسة .. بينما لا يذكر الناس أسماء مئات الأنبياء .. جاءوا وتلقوا التكليف وبشروا .. ثم تعرضوا للاضطهاد واختفوا .. إن الكتب تحفظ الأنبياء والزعماء .. والكتب توحى بالحكمة والرؤية والمعرفة .. وترفع أصحابها إلى مرتبة الفلاسفة والمفكرين.

وقد كان جمال عبد الناصر فى حاجة لهذا الكتاب حتى لا يبدو مجرد «كولونيل» مغامر مثل كولونيلات وجنرالات جمهوريات «الموز» فى أمريكا اللاتينية .. حيث كان يستولى على السلطة من يستيقظ مبكراً .. وحيث كانت الانقلابات تحدث لأسباب لا معنى لها .. قد يكون من بينها الاضطرابات العائلية والمعوية .. كان جمال عبد الناصر فى حاجة لتقديم نفسه بصورة مختلفة .. خاصة وأنها المرة الأولى التى يمارس ضباط الجيش السياسة والسلطة .. وما هو سائد عن ثقافتهم ومعرفتهم يتسم بالتواضع فى غالبية .. وفى تلك الفترة بالتحديد كانت التيارات والتنظيمات السياسية اليسارية قد فرضت نفسها وآرائها وأفكارها وثقافتها على الجميع .. وكانت قادرة على توصيف وتفنيذ وتشريع كل

ما يعرفه المجتمع من ظواهر وأحداث .. ولم يكن رأيها في جمال عبد الناصر مناسباً أو لائقاً في تلك الفترة على الأقل .. كانت تراه مجرد ضابط برجوازي جاء بانقلابه العسكري ليعطل تفاعلات الثورة الشعبية الحقيقية ويجهضها .. أى أن ما جرى في ٢٣ يوليو ١٩٥٢ كان انقلاباً مبكراً لإجهاض الثورة التي كانت على وشك الانفجار.

إن كتاب «فلسفة الثورة» كان عملية تجميل ثقافي وفكري وسياسي للبكباشي جمال عبد الناصر ليتحول من ضابط إلى زعيم .. وجاءت هذه العملية في وقت لم تكن فيه مواقفه الوطنية التي صنعت زعامته وشعبيته قد كشفت عن نفسها .. ولعل اسم الكتاب يوحي بذلك .. فهي ثورة .. ولها فلسفة.

في كتابه «الريس» يقول الصحفي الأمريكي «روبرت سان جون»: لقد اشترك هيكل وعبد الناصر في كتابه ما أصبح يعرف باسم «فلسفة الثورة» .. لقد جاء روبرت سان جون إلى مصر في شتاء عام ١٩٦٠ وقابل عبد الناصر وهيكل و١٠٠ شخصية مهمة أخرى وهو يستطرد: إن فلسفة الثورة كان ثمرة نقاش طويل بين هيكل وبين عبد الناصر لكنه هو الذي حرر الكتاب .. وقد أكد هيكل ذلك فيما بعد .. لقد بدأ كتاب فلسفة الثورة بثلاث مقالات نُشرت في آخر ساعة .. ثم أعاد هيكل صياغتها لتصبح كتيباً نشرته «هيئة التحرير» .. وترجمته إحدى دور النشر الأمريكية بعنوان «تحرير مصر». (١)

وفيما بعد .. اعترف مراسل صحفي أمريكي أنه كان يناقش هيكل في خطأ ارتكبه عبد الناصر .. فسأله هيكل: «وكيف تعرف وجهة نظر عبد الناصر في ذلك؟» .. فقال المراسل: «إنني أعرف تفكيره معرفة تامة» .. ثم أخرج من حقيبته نسخة من كتاب «فلسفة الثورة» وراح يقلبه حتى وصل إلى فقرة كان يضع عندها علامة ويعد أن قراها قال: «ها هي واضحة وضوحاً تاماً بكلمات عبد الناصر نفسه» .. فسأله هيكل مبتسماً: «بكلمات عبد الناصر نفسه؟» .. أجاب المراسل: «نعم فهذا هو كتاب «فلسفة الثورة» ولا بد أنك قرأته؟» .. قال هيكل: «لا بد أنني قرأته؟ نعم قرأته يا صديق وفي الواقع أنا الذي قمت بكتابته». (٢)

ومنذ ذلك الحين .. أصبح هيكل شيئاً فشيئاً .. كما يقول الكاتب الفرنسي جان لاكوتور .. «الشخص المقرب والمستشار ورجل المهمات الدقيقة والنصوص الصعبة على الكتابة والمدير المرن المرح ذو الأسلوب الأمريكي قليلاً لكنه في الوقت نفسه مصرى جداً ونموذجي جداً في كونه نمطاً جديداً من الرجال الأقوياء الواثقين من أنفسهم الذين يهونون الحياة المناسبة والقسوة في العمل .. هذا النمط أفرخه النظام الجديد في مصر». (٣)

لقد بدأ هيكل علاقته بعبد الناصر صحفياً ملتزماً .. ثم عندما قبل دور الوسيط بين عبد الناصر ونجيب الهلالي أضاف لدور الصحفي دور «المستشار» .. وتدخل في السياسة دون أن يكون صاحب دور سياسى بالمعنى الدقيق .. ثم عندما جرى الصراع بين عبد الناصر ومحمد نجيب انحاز هيكل لعبد الناصر متجاوزاً دور الصحفي قليلاً ولاعباً دور «خبير الدعاية السياسية» كثيراً .. وقد وصل الدور الأخير إلى درجة عالية من البراعة بنشر كتاب «فلسفة الثورة» .. وعند هذه الدرجة تحولت الأدوار إلى صداقة وحوار متبادل وعلاقة متينة ستميز تاريخهما معاً .

* * * *

فى تلك الفترة كانت أخبار اليوم هى محور حياة هيكل وتحولت العلاقة بينه وبين على ومصطفى أمين إلى ما يشبه «علاقة أخوة» على حد تعبير هيكل نفسه (٤) وكانت علاقته بعلى أمين أكثر خصوصية وأكثر إنسانية .. وقد كان شاهداً على زواجه الأول من «خيرية خيرى» .. وكانت صحفية فى أخبار اليوم .. ولا جدال أن هذه العلاقة تضاعفت بعد أن أصبح هيكل قريباً من جمال عبد الناصر ومسموع الكلمة عنده .. حتى أن مصطفى وعلى أمين أدخلاه فى الوصية التى كتبها فى ٣١ ديسمبر عام ١٩٥٣ والتى كانت ستنفذ فى حالة وفاتهما (٥) .. وطبقاً لهذه الوصية فإن هيكل سيكون واحداً من ١٠ أشخاص لهم الحق فى إدارة أخبار اليوم .. منهم محمد التابعى .. وأم كلثوم .. وكامل الشناوى .. وجلال الدين الحمامصى .. وطبقاً للوصية تنتقل ملكية أخبار اليوم إلى هذا المجلس ولا يكون للورثة الشرعيين .. الحق «فى التدخل أو ادعاء الملكية أو التصرف» .

وكما شهد هيكل على عقد زواج على أمين .. شهد على أمين على عقد زواج هيكل فى عام ١٩٥٥ .. كانت الشائعات قد رشحت أسماء فتيات بعينها للزواج من هيكل .. لكن هيكل خرج بمفاجأة خيبت كل الظنون والشائعات .. كان هيكل فى زيارة لعائلة صديقة عندما قابل هناك «رفيقة الدرب وسند الحياة» هدايت علوى تيمور بالصدفة وكانت بصحبة والدتها .. ويبدو أن ثراء عائلتها وأرستقراطيتها قد صعبا من اللقاء الأول .. فقد هاجمت والدتها جمال عبد الناصر بسبب قانون الإصلاح الزراعى .. وتحول الهجوم إلى «خناقة» .. ولكن ... فيما بعد فعل المثل الشعبى الذى يؤكد المحبة بعد العداوة سحره ومفعوله .

كانت هدايت مثل شابات ذلك الوقت مهتمة بالعمل الخيرى .. التطوعى .. وكانت نشيطة فى جمعية «الهلal الأحمر» .. وأكثر نشاطاً فى جمعية «النور والأمل» .. وهى

جمعية كانت ترعى المكفوفين تديرها السيدة استقلال راضى .. وكان لدى الجمعية - التى كانت مزاراً لزوجات حكام العالم - أهم فرقة مكفوفين موسيقية .. ويعترف هيكى بأن هدايت نجحت فى أن تنقل إليه الاهتمام بالعمل التطوعى (٦) .. كانت فى زيارة لأخبار اليوم للقيام بحملة واسعة لجمع التبرعات لهذه الجمعية عندما استقبلها هيكى فى مكتبه .. ثم قدم لها وللجمعية ما هو أكبر من كرم الضيافة .. راح يدعو معها إلى حملة التبرعات بالكتابة .. وبالاتصالات .. ويبدو أن سلطان الحب كان فى خدمة أعمال الخير .

لقد كتب فى افتتاحية مجلة آخر ساعة (العدد ١٠٤٤ بتاريخ ٢٧ أكتوبر ١٩٥٤) مقالة بعنوان «الدنيا بخير» .. بدت لمن يعرف القصة أنها موجهة لمزيد من لفت أنظار هدايت أو لمزيد من إبهارها .. قال هيكى فى البداية: «الدنيا بخير .. أقولها بعد تجربة .. أنا الذى كنت إلى عهد قريب من هؤلاء الذين يمصصون شفاههم فى حسرة ويهزون رؤوسهم فى تزمّت ويترحمون على أيام زمان .. أيام كانت الدنيا دنيا .. والناس ناساً .. والخير يعم كل الأرجاء .. الدنيا مازالت دنيا ولم تصبح غابة موحشة والناس لم يتحولوا - معظمهم على الأقل - إلى وحوش بحر ضخمة سوداء هائجة تبتلع فى جوفها المظلم كل ما يقابلها على الموج العاصف والشر لم ينطلق حراً طليقاً من كل قيد يتخذ من الجماجم كؤوساً يحتسى منها خمور الخطيئة .. الدنيا بخير .. أقولها - كما قلت منذ سطور قليلة - بعد تجربة عشتها بعقلي وقلبي وأعصابي ..

«أما التجربة فهى قصة أسبوع النور والأمل .. لقد دخل مكتبى فى دار أخبار اليوم ذات صباح سيدتان نبيلتان (هدايت واحدة منهما) من الهلال الأحمر ومعهما الرجل الكريم الطيب الدكتور المازنى الذى كان وكيلاً لوزارة الصحة وهو الآن يكرس جهده لمشكلة المكفوفين فى مصر .. ولم أكن فى حاجة إلى عناء كبير لكى أجد نفسى أترك مكتبى وأخرج معهم أطوف على مؤسسات رعاية العميان فى مصر وأعود بعدها إلى مكتبى وأنا أقول لنفسي «ما أقل الذى نراه حولنا» ثم أسألها بعد ذلك : كيف لا تخطر هذه المشاكل بخيالنا .. إن السياسة وحدها هى التى تبهر عيوننا القاصرة وهى التى تشد إليها تصوراتنا الظمأى فتجرى وراءها كالضائع فى الصحراء وراء السراب لا يحول عينيه عنه ولا يصل إليه أبداً ..

وبعد قليل يقول : «وجدت نفسى جالساً مع سيدتى الهلال الأحمر والدكتور المازنى نناقش الذى يجب أن نفعله لكى ينجح أسبوع النور والأمل ويعود بأكبر من بضعة قروش

هزيلة معلولة يلقيها أصحابها بتأفف وتذمر لا يتكلفون مشقة إخفائها .. وكان هناك اقتراح أن يتبنى جمال عبد الناصر حملة النور والأمل .. وكنت فيما يتعلق بى يائساً .. وكتبنا أخيراً خطاباً إليه ولعلنا كتبناه إبراء للذمة .. وإنهاء لإلحاح الأمانى .. وكانت مفاجأة .. فقد رد جمال عبد الناصر بخطاب كان كل حرف فيه - فى حد ذاته - نوراً وأملاً .. ومع الخطاب كانت هناك خمسة جنيهاً تبرعاً .. وكان نص الخطاب :

«بسم الله الرحمن الرحيم»

«حضرات السيدات والسادة أعضاء اللجنة المشرفة على جمع التبرعات لأسبوع النور والأمل .. تحية طيبة وبعد » ..

«فإنى أرفق مع هذا الخطاب مبلغ خمسة جنيهاً أرجو أن تتقبلوها من أجل أسبوع النور والأمل .. إنى أحس بالأسى يملأ قلبى وأنا أتصور حالة مائة ألف مواطن من إخواننا حرموا من نعمة البصر .. وحينما أتصور الظلام الموحش الذى شاء القدر أن يعيشوا فى دياجيره وأشعر بفداحة المسئولية التى لا بد أن نتحملها نحن الذين قضت مشيئة الله أن نكون أحسن منهم حظاً .. إنى أؤمن أن أقل واجباتنا نحوهم أن نجعلهم يرون الحياة بعيوننا . بارك الله القلوب المتحمسة لهذا الهدف وبارك الله الأيدى التى ستيح عطاؤها السخى لها فرصة النور والأمل» .

رئيس مجلس الوزراء

جمال عبد الناصر

وكان خطاب جمال عبد الناصر كفيلاً بفتح باب التبرعات على مصراعيه .. تبرع أمير الكويت بألف جنيه .. وتبرع المليونير أحمد عبود بخمسة آلاف جنيه .. أما الخبر الذى كان يستحق النشر فى الصفحة الأولى فكان خبر تبرع توفيق الحكيم بجنيه واحد .. وقررت أم كلثوم التبرع بالغناء .. وغنت أم كلثوم فى حفل جمع بين مناسبتين .. زواج هيكمل وهدايت .. والحفل الخيرى للنور والأمل .. لقد أصرنا على أن يتحول حفل الزفاف إلى حفل النور والأمل .. ولأنه لا يتحمل أن يجلس متخشباً لساعات يسمع فيها تخت أم كلثوم فقد ذهب هيكمل إلى غرفة أم كلثوم بعد الوصلة الأولى .. وما أن رآته حتى أدركت بذكائها حالته .. وقالت له ضاحكة : أنا عارفة .. خلاص .. بدون إحراج .. كفاية عليك قوى وصلة واحدة . (٧)

ويقول هيكل: إن زوجته هي ابنة أسرة ليس لها علاقة إطلاقاً بالسياسة رغم أن كثيرين من أصدقاء العائلة كانوا من الساسة .. مثل الدكتور محمد حسين هيكل (باشا) وفؤاد سراج الدين (باشا) .. ولكن فجأة بارتباطها بى وجدت نفسها فى خضم المعركة السياسية فقررت منذ اللحظة الأولى تحديد مجالها الذى تتحرك داخله كزوجة وأم وعضو مجلس إدارة جمعية خيرية فقط .. وشب عود الأولاد قليلاً .. وكانت تسافر معى مرات .. وفى رحلة للهند شاهدت معى آثار ملوك المغول فى «فاتح بورسيكرى» ثم تصادفت بعد ذلك رحلة إلى الأندلس وهناك بهرتها الحضارة الإسلامية .. ومع مضى الوقت بدأت تظهر عليها أعراض الحنين الكامنة فى فروع عائلة تيمور وهى عشق دراسة العمارة والفن الإسلامى .. ورات أن تأخذ هوايتها جداً وأن تدرس موضوعها علمياً وقررت أن تلتحق بكلية الآثار .. كانت قد أنهت تعليمها بالبكالوريا الفرنسية ولكن لدخول كلية الآثار كان لابد من ثانوية عامة عربية فبدأت من السنة الأولى وكان كثيرون من أصدقائنا فى دهشة وبينهم الرئيس أنور السادات الذى قال لها: «غير معقول» أن تصبحى من جديد تلميذة فى سنة أولى .. ونجحت هدايت فى مراحل التعليم الثانوى والتحقّت بالجامعة ونالت شهادة التخرج بتفوق مما أتاح لها أن تصبح فى سلك التدريس الجامعى .. وأشك أن أحداً عرف أن زوجتى هى المعيدة ثم المدرسة الجامعية هدايت تيمور .. واستمرت فى منهجها فحصلت على درجة الماجستير وكان موضوع بحثها فيه «العمارة العثمانية فى مصر» .. بعدها استعدت لدرجة الدكتوراه وكان الموضوع الذى اختارته يدور حول تاريخ وخطط بولاق .. لكن مشكلتها فى أن أصدقائنا الكثيرين فتحوا أمامها كل الأبواب .. وعلى سبيل المثال فقد كان أحد أصدقائنا وهو السير دنيس هاميلتون رئيساً لمجلس أمناء المتحف البريطانى .. وهكذا فإن جميع قاعات ومكتبات ووثائق المتحف البريطانى تفتحت أمامها .. وشئ من نفس النوع حدث لها فى (متحف) اللوفر فى باريس فانكبت على البحث لتجد نفسها غارقة فى مادة تصلح لعشرين دكتوراه .. وفى النهاية قررت أنه لا جدوى من تلك الدكتوراه فهى فى حد ذاتها ليست هدفها .. بل لقد ذهبت إلى أبعد من هذا بأن استقالت من الجامعة أيضاً لأنها لم تعد تستطيع الوفاء بواجباتها الجامعية والعائلية والاجتماعية جمعاء إلى جانب اهتماماتها الثقافية .. والحقيقة أنها لم تخرج يوماً عن دورها الذى وضعتة لنفسها ولا الخط الذى رأت ألا تتعداه وقد فضلت دائماً أن تتوارى عن الأضواء العامة . (٨)

وتقول له سناء البيسى: لقد ظلمتها معك .

فيقول هيكل: ربما .. قد يكون .. من حيث أنها لم تكن مستعدة لهذا النوع من الحياة .. لكنها تحملتها وتحملت آرائى المختلفة المتصادمة تماماً مع خلفيتها العائلية .. وتحملت بالتالى الدخول فى مناقشات محتدمة مع الآخرين .. أذكر مرة فى واشنطن أن دعتنا كاترين جراهام صاحبة (صحيفة) الواشنطن بوست .. دخلت هدايت فى مناقشات محتدمة مع ثلاثة من مستشارى الأمن القومى تعاقبوا على هذا المركز فى البيت الأبيض وكانت حول القضية الفلسطينية .. وخرجنا بعد العشاء وركبت إلى جوارى السيارة وفجأة لمحت دموعها وراحت تقول إنها ليست مضطرة بعد الآن لحضور أى مناقشات فى أمريكا حول القضايا العربية فأعصابها لا تحتمل شعورها بالظلم .. ولكن مسيرة الحياة جعلتها تضطر وتحضر وتسمع وتناقش .

والحقيقة أن هذه السيدة الرقيقة تتمتع بابتسامة دائمة تجمع بين الجمالة والخجل .. وهى شديدة الترحيب بضيوفها فى أى وقت وفى أى مكان .. لكنها سرعان ما تنسحب فى انتظار أن يأتى «محمد» كما تناديه .. ويبدو ذوقها الكلاسيكى واضحاً فى أثاث المكتب الذى يعمل فيه زوجها .. وبالغرفة الملحقة بالمكتب يحتفظ لها هيكل بلوحة زيتية عمرها يعود سنوات إلى الوراء .. ويبدو أنها تدير بيتها بقواعد تقليدية عريقة تحسب حساب كل شئ .. شكل فنجان القهوة .. طراز منفضة السجائر .. ألوان قماش الأثاث .. همسات الذى يقدم كوب من المياه .. ويندر أن تجد لها صورة منشورة فى أخبار المجتمع .. فهى مثل النباتات التى لا تزهر إلا فى الظل .. وهى ترى دائماً بما يصل إلى اليقين إن زوجها دائماً على حق .. إن هذه مجرد خواطر عابرة لرؤية خاطفة على سطح الأشياء .

ويؤمن هيكل أن الزواج مصير مشترك .. مصير واحد لشريكين .. «ومن ضروب المأساة أن يخبئ البعض عن زوجاتهم أوضاعهم» على حد قول هيكل الذى يستطرد: «وقد رأيت بنفسى ما يحدث للزوجة بعد رحيل مثل هؤلاء الأزواج وما تواجهه من مشاكل لا حدود لها لكى تستطيع أن تلم أطراف أشياء لا تعرف عنها شيئاً» .. ويصف هيكل فترة اعتقاله بأنها كانت فترة اختبار لمدى صلابه زوجته .. لقد كان متوقفاً الاعتقال بعدما ترك الأهرام خاصة فى الأيام التى كان فيها هجوم أنور السادات زائداً تجاهه .. ومن ثم فقد قال لزوجته: ألا تطلب من كائن من كان طلباً يخصه أو يخصها هى وأبناؤهما وألا تحدث سوى شخصين فقط هما الدكتور محمود فوزى (رئيس الوزراء الأسبق) كصديق .. هذا إذا أرادت الاستعانة بنصحه وأخذ رأيه فى تصرف ما إذا ما واجهتها مشكلة .. والشخص

الثانى ممتاز نصار المحامى .. ومن سوء الحظ أنه حين جرى اعتقال هيكل كان الدكتور محمود فوزى قد رحل عن عالمنا .. وفيما بعد لحق به ممتاز نصار .. ولا نعرف الآن ما هى الأسماء البديلة لو لا قدر الله وجرى لزوجها مكروه .

وقد زارت هدايت زوجها فى السجن مرة واحدة بعد شهرين من الاعتقال .. ويقول هيكل : «أحضر ممتاز نصار إذناً من المدعى الاشتراكى فزارتنى مع الأولاد بحضور ثلاثة من الضباط أحدهم من السجن واثنين من مباحث أمن الدولة .. فى اللحظة التى كنت أهبط فيها الزنازين على السلم الحديدى متجهاً إلى البوابة الحديدية التى تفصل بين العنابر وحجرة المأمور كانت هى والأولاد يدخلون من باب السجن فتلاقى خطانا أمام باب الحجرة لنجلس بداخلها نصف الساعة التى سمح لنا بها .. وكان استيعاب الموقف بهدوئه الظاهرى وكأننا اتفقنا عليه مسبقاً .. وتماسكت هى لتبدو مسيطرة تماماً على أعصابها رغم ما أعلمه بما يجيش به تدفق عواطفها .. لقد شاهدت إلى جانبى الكثير مما حدا بها يوماً إلى التفكير فى كتابة يوميات» . (٩)

وقد نجحت مساعى ممتاز نصار القانونية فى الحصول على تصريح بنقل المعتقل محمد حسنين هيكل لأسباب صحية إلى مستشفى «قصر العينى» .. وكان ابنه على طبيباً هناك .. فطلبت حجرة أحد النواب ووضع فيها جهاز تكييف لتصبح زنزانة مؤقتة .. ولكن حادث اغتيال السادات وما ترتب عليه من عودة المعتقلين إلى الحرية جعل هذه الزنزانة الطبية البيضاء لا حاجة لها .. وكان يشغل هذه الحجرة الدكتور مصطفى أبو النصر الذى أصبح فيما بعد جراحاً مشهوراً ووكيلاً لكلية طب القاهرة .

تزوج هيكل وهدايت فى ٢٧ يناير ١٩٥٥ .. ومنذ اليوم الأول للزواج قال لها هيكل : أنها غير مطالبة بأية واجبات اجتماعية تجاه صدقاته السياسية .. وبالنسبة لجمال عبد الناصر - وطبيعته بنشأته العسكرية - لم «نجتمع على المستوى العائلى إلا فى حدود ضيقة .. وكانت صداقة معسكرات وليست صداقة صالونات .. والحقيقة أننا أصبحنا نرى قرينة جمال عبد الناصر أكثر بعد رحيله .. فقد كنا نحصر على زيارتها بطريقة منتظمة .. والحقيقة أن هذه السيدة الكريمة عاشت جزءاً من حياتها فى ظل زوجها وبعده عاشت وليست لها أمنية غير أن تلحق به فى مثواه الأخير» . (١٠)

- (١) رشاد كامل: «هيكل بصراحة» - مجلة صباح الخير - ١٥ أكتوبر ١٩٩٨.
- (٢) المصدر السابق.
- (٣) جمال الشلبي: «محمد حسنين هيكل استمرارية أم تحول» - مصدر سبق الإشارة إليه - ص ٤٣.
- (٤) هيكل: «بين الصحافة والسياسة» - مرجع سابق - ص ٤٣.
- (٥) المصدر السابق: ص ٤٥.
- (٦) و (٧) و (٨) و (٩) و (١٠) حوار سناء البيسى مع هيكل فى مجلة نصف الدنيا - مصدر سبق الإشارة إليه.

بداية الجراح الأهلية فى الصحافة المصرية

■ منذ الأيام الأولى للثورة وجدت الصحافة المصرية نفسها فى أكثر من مأزق .. وأحياناً وجدت نفسها فى الحبس .. لقد اتفق مصطفى وعلى أمين وهيكى على عقد اجتماع منظم فى أخبار اليوم ليدرسوا فيه الأوضاع الجديدة التى تمر بها البلاد .. وليقرروا فيه خطوط سياسة صحف ومجلات الدار .. لكن .. فجأة اعتقلت السلطة الثورية الجديدة مصطفى وعلى أمين ضمن من اعتقلتهم من حاشية القصر ورجال الملك .

وذهب هيكى إلى جمال عبد الناصر محتجاً على حد قوله .. ولكن جمال عبد الناصر طلب منه ألا ينظر للمسألة من زاوية شخصية .. وقال له : إن اعتقالهما «إجراء وقائى بعد معلومات تفيد أن مصطفى أمين أجرى اتصالاً يوم قيام الثورة مع جهة أجنبية خارج مصر وبما أن الظروف لا تحتل أى مناورات فإنه أصدر أمر الاعتقال حتى تنجلي الحقائق» .. على حد قول هيكى فى كتابه «بين الصحافة والسياسة» .

وعاد هيكى فى المساء ومعه محمد التابعى لمزيد من الرجاء والإلحاح .. وأخيراً تقرر الإفراج عنهما .. وأخذهما هيكى ومعه محمد التابعى وكامل الشناوى لمقابلة جمال عبد الناصر .. وفى تلك الجلسة أزيلت آثار كدمات أول لكمة تلقتها الصحافة من قبضة السلطة الجديدة .. لقد كانت بالفعل لكمة مهما كانت التفسيرات والمبررات .

لكن .. ما لفت الأنظار فى تلك الفترة المبكرة جداً من عمر الثورة هجوم هيكى المبالغى والمفاجئ على الصحافة .. لقد طالب بعد ٢٠ يوماً فقط على الثورة بتطهير الصحافة .. وكان ذلك فى أكبر مقال نشره فى آخر ساعة (فى ١٣ أغسطس ١٩٥٢) بعد تغيير نظام الحكم .. وقال:

«صاحبة الجلالة الصحافة وأفراد بلاطها السعيد يقومون هذه الأيام بدور غريب عجيب .. بعض أفراد هذا البلاط السعيد استباحوا لأنفسهم مقعد النائب العمومى وجلسوا يوجهون الاتهام ذات اليمين وذات اليسار ويحددون من الذى تعلق رقبتة فى حبل المشنقة ومن الذى يكتفى بوضعه وراء القضبان .. وبعض أفراد هذا البلاط السعيد مضوا يقلدون كلاب الصيد .. تشم الأثر وتملأ خياشيمها بالروائح الطائفة فى الهواء ثم تجرى وهى تنبح عن الهاربين وتأتى بهم من مكامنهم الخفية وتنهش لحمهم وتسيل دمهم .. وبعض أفراد هذا البلاط السعيد مضوا يقلدون باباوات سان بيتر وصكوك الغفران الشهيرة التى كانوا يمنحونها للتائبين العائدين إلى حظيرة الإيمان ومضوا يقررون أن هذا برئ وهذا مجنى عليه وهذا لم يكن ذنبه إلى آخر صيغ صكوك الغفران التى كثرت هذه الأيام ..

«دعونى أشرح وجهة نظرى وأنا أحب أن أكون صريحاً إلى أبعد الحدود .. إننى أعتقد .. وأنا واحد من أفراد البلاط السعيد لصاحبة الجلالة .. أننا نحن .. من أفراد هذا البلاط جميعاً .. آخر من يحق لنا أن نصنع هذا .. آخر من يحق لهم أن يستبيحوا لأنفسهم مقعد النائب العمومى موزع الاتهام .. وآخر من يحق لهم أن يقلدوا كلاب الصيد ويبحثوا عن الفرائس .. وآخر من يحق لهم تقليد باباوات سان بيتر ومنح صكوك الغفران .. آخر من يحق لهم شئ من هذا لسبب واحد .. هو أننا فى حاجة أيضاً إلى تطهير ..

« من سوء الحظ إننا .. بلاط صاحبة الجلالة .. نملك قوة هائلة نحاسب بها الناس .. ولكن تمنع الناس من أن يحاسبونا .. ومن سوء الحظ أننا .. بلاط صاحبة الجلالة ، نملك أن ننتقد الناس ولكننا لا نسمح لأحد أن ينقدنا لأننا نحن الذين نسيطر على ما يجب أن ينشر وما ينبغى ألا تراه عيون القراء ..

«إنى أقولها بصراحة .. وأنا أعتقد أنها ستجلب لى متاعب الدنيا والآخرة .. إن بلاط صاحبة الجلالة فى حاجة إلى تطهير كبير .. لقد كان الملك السابق كارثة على مصر .. هذا صحيح .. وكان زعماء الأحزاب السياسية كارثة على مصر .. هذا صحيح .. وكان محترفو السياسة كارثة على مصر .. هذا أيضاً صحيح .. ولكننا .. نحن بلاط صاحبة الجلالة .. كنا كارثة أخرى .. ويجب أن نعترف أن علينا مسئولية كبرى فى كل الذى صارت إليه الأحوال .. ولقد بدأت مصر كلها تنادى بالتطهير وعلينا نحن أيضاً أن ننادى مع مصر بالتطهير .. تطهير أنفسنا قبل تطهير الآخرين ..

«إن الصحافة اليوم ليست ملك أصحاب الصحف ولا ملك المحررين .. إنما الصحافة اليوم مؤسسة عامة تؤدى دوراً بالغ الخطورة .. إنها أشبه ما تكون بعجلة القيادة للرأى العام وينبغى أن تتوافر كل الضمانات لعجلة القيادة فلا يكون بها خلل ينحرف بالمركبة

إلى اليمين حيث ينبغي أن تكون إلى اليسار .. أو ينحرف بها إلى اليسار حيث ينبغي لها أن تكون إلى اليمين .. لا يستطيع أحد أن يركب سيارة أصيبت عجلة القيادة فيها بخلل .. خصوصاً إذا كان سيقطع بها طريقاً شاقاً مليئاً بالمنحنيات والمنعرجات ..

«إنى لا أطالب بالحد من حرية الصحافة بل العكس أنا أعتقد أن الصحافة الحرة هي المعنى الوحيد للديمقراطية .. ولكن اسمعوا ما حدث فى إنجلترا .. وإنجلترا هي بلد حرية الصحافة مهما اختلفنا فى رأى حول سياسة الإنجليز .. بعد الحرب العالمية الأخيرة ثار فى مجلس العموم لغط حول الصحف البريطانية واتجاهاتها وقرر مجلس العموم تأليف لجنة برلمانية لفحص حالة الصحافة البريطانية وتضمن هذا ما يلى:

١ - فحص الحالة المالية للصحف البريطانية ومن هم أصحابها ومن هم حملة الأسهم وما هي مصادر تمويلها .

٢ - فحص حالة الصحفيين وما هي اتجاهاتهم وما هي الآراء والتيارات التى تسيرهم فى الطريق الذى يسرون فيه .

«حدث هذا فى إنجلترا بلد الحرية الصحفية التى لا تعرف حدود .. أما فى مصر فإن الحكومات تصرف مرتبات سرية لعدد من الصحفيين .. أما فى مصر فإن تيارات كثيرة ومصالح متشابكة معقدة - بل ومريبة - تعمل عملها فى الصحافة وليس هناك من يطالب بحساب أو بعقاب ..

وبعد فدعونى أقترح ثلاثة حلول ولتكن لنا الشجاعة فى مواجهتها :

١ - ينبغي إلغاء المصاريف السرية للصحافة فوراً .

٢ - ينبغي أن تعلن أسماء جميع الصحفيين الذين استحلوا لأنفسهم أموال المصاريف السرية فى جميع العهود .

٣ - ينبغي أن يقوم ديوان المحاسبة بفحص حسابات جميع الصحف المصرية لنعرف ما هي مصادر تمويلها وكيف تعيش .

هذا هو الطريق للتطهير .. تطهير أنفسنا قبل تطهير الآخرين .. وبعدها دعونا نصنع ما نريد .. نستبيح مقعد النائب العمومى .. ونقلد كلاب الصيد .. ونمنح صكوك الغفران كما كان يفعل باباوات سان بيتر» .. أنتهى .

لقد كان هذا الهجوم المبكر من هيكل على الصحافة مثيراً للدهشة وملفتاً للانتباه .. ولا بد أنه زرع بذور العداء بين عدد كبير من الصحفيين وأصحاب الصحف .. وهى البذور التى تفتحت أشجاراً .. ثم أنجبت الأشجار ثماراً من الغل والتآر فيما بعد .. وهى ثمار

شعر هيكل بمرارتها عندما وجد نفسه وحيداً عارياً بعيداً عن سلطته وسلطانته .. إن صراع الديناصورات الشرس الذى شاهدناه بعد خروج هيكل من الأهرام كانت جذوره عميقة ممتدة فى تربة الصحافة المصرية لحوالى ٢٢ سنة .. وقد عبر عن نفسه بكل هذا العنف الذى جرى لأن الكبت كان شديداً .. والبخار كان مكتوماً لسنوات طويلة .

وقد اعتبر الصحفيون الدعوة لتطهير الصحافة هى أول استعداد للسلطة الجديدة من داخل المهنة للتدخل فى شئونهم وتقييد حريتهم وتفتيش عقولهم رغم ما فى مقالة هيكل من إيمان ظاهر بحرية الصحافة .. ولم يمنع الغضب الذى قوبل به هيكل بعد نشر مقاله من الاستمرار فى دعواه .. وكرر مطالبه فى مقالة أخرى نشرها فى آخر ساعة فى ربيع عام ١٩٥٣ بمناسبة مؤتمر الصحافة العربية الذى كان يعقد فى ذلك الوقت فى القاهرة .. ولم تمر هذه المقالة التى نشرت عنوان «حديث صريح عن الصحافة فى مصر» بسلام .. فقد قال هيكل فيها:

«إن صحافة مصر لا تستطيع أن تقول لنفسها أو للناس شيئاً والشكوك تحوم حولها والشبهات تأخذها من كل جانب .. لقد كنت أتمنى لو أن نقابة الصحفيين بدلاً من هذا الهذر والهراء الذى تضيع فيه وقتها تقدمت للمسئولين برجولة تقول : نحن نريد أن نمنح أنفسنا القوة والحرية ولن نستطيع هذا إلا إذا طهرت الصحافة وسنقول لكم بأنفسنا ما هو السبيل .. إننا نتقدم لكم بثلاثة مطالب: (١) أوقفوا المصارف السرية للصحفيين إذا كانت باقية لم تلغ .. (٢) انشروا كشوفات المصاريف السرية فى العقود الماضية حتى يعرف الناس من كان يتكلم بوحى من الضمير ومن كان يتكلم بوحى من الهوى .. (٣) ألفوا لجاناً قضائية تفحص حسابات جميع الصحف لتعرف مصادر تمويلها وما هى العوامل والاتجاهات التى قد تسيطر عليها وتدفعها إلى اليمين وإلى اليسار ..

بعد ذلك .. بعده وليس قبله اقفوا خارج الحدود وحلقوا كما تحلق النسور القوية .. ووجهوا الدعوة إلى مؤتمر للصحافة الغربية إذا أردتم أو لمؤتمر لصحافة العالم كله إذا شئتم أو حتى لمؤتمر لصحافة نيام .. نيام إذا طافت بخيالكم الفكرة» .. انتهى .

لم يسكت الصحفيون هذه المرة .. ولم يبتلعوا ضربات ولكمات هيكل القوية .. وشعروا أن ما يقوله ظاهرة الرحمة وباطنه القسوة .. خاصة فى وقت لم تكن العلاقة بين الصحافة والثورة على ما يرام .. فى وقت كانت فيه الدبابات والسيارات العسكرية تقف بالقرب من دور الصحف مستعدة ومتحفزة .. ولم يكن الضباط الذين وجدوا السلطة فى أيديهم يؤمنون بالنزأى الآخر .. ولا يقبل معظمهم الجدل والاختلاف .

بعد نشر المقال قررت نقابة الصحفيين تحويل هيكل إلى مجلس تأديب بتهمة إهانة المهنة .. وكانت فرصة لأن يرد هيكل بمقال أشد عنفاً .. نشره في آخر ساعة في ٢٣ إبريل عام ١٩٥٣ .. قال فيه :

«لقد وقفت نقابة الصحفيين ضدى وأحالتنى إلى مجلس تأديب ووقف الرأى العام معى فتلقيت مئات من المكالمات التليفونية والبرقيات والرسائل .. كلها تشعرنى إنى لست وحدى .. هكذا رد الفعل عند نقابة الصحفيين وهكذا كان رد الفعل عند الرأى العام .. فهل يمكن أن تكون هناك هوة أعمق من هذه وأعرض ؟ .. أريد أن أقف أمام مجلس التأديب لأكرر له ما قلته» .. وكرر هيكل بعض ما سبق أن قاله فى مقاله السابق .. واستطرد : « وسوف أروى لمجلس التأديب بعد ذلك مثلاً صغيراً .. مثلاً سمعته من أحد أعضاء مجلس قيادة الثورة وكان قد عاد لتوه من رحلة خارج القاهرة .. لقد قال لى وعلى تقاطيع وجهه إمتعاض وهذا تعبير مهذب لحقيقة ما كان مرتسماً على وجهه .. قال : هل تعلم ماذا اكتشفت اليوم .. لقد تبين لى أن واحداً من الصحفيين الذين كانوا معى كتب إلى جريدته وصف زيارتى لبلد معين قبل أن أدخل هذا البلد .. إنه لم يكلف نفسه مشقة الانتظار ورؤية شعور الناس والانفعال به ثم وصفه بعد ذلك وإنما جلس يرص العبارات الكبيرة التى ابتذل معانيها لأنه لم يكتبها وليدة إحساس أو تأثر » .

فيما بعد .. وجد هيكل فى حديقة نقابة الصحفيين - وهى التى كانت توصف بهايك بارك - من تعجب من نشر هذا المقال الذى يعرف فى لغة الصحافة «بالفبركة» بينما نسب لهيكل نفسه أنه أثناء تغطيته لمؤتمر للملوك والرؤساء العرب فى سوريا أنه نقل الكلمات الافتتاحية لهم فى الجلسة العلنية على أنها أحاديث أجراها معهم ونشرتها أخبار اليوم على هذا النحو .. وقد شاعت هذه القصة طويلاً .. ولم يتوقف خصوم هيكل وعلى رأسهم مصطفى أمين وموسى صبرى وناصر الدين النشاشيبي فى استخدامها فى التشهير به .. بل أن موسى صبرى فى مذكراته يقول: إن مصطفى أمين أصدر قراراً بفصل هيكل بسبب ذلك .. ولكن .. كامل الشناوى وعلى أمين توسطوا لإلغاء القرار .

ويستطرد هيكل فى مقاله : «أريد أن أقف أمام مجلس التأديب لأكرر له ما قلته من مطالب كنت أتصور أن تتقدم بها نقابة الصحفيين إلى المسئولين بدلاً من أن تقدمنى أنا إلى مجلس تأديب» .. وكرر هيكل المطالب الخاصة بوقف المصاريف السرية ونشر أسماء من كانوا يتقاضونها وتشكيل لجان قضائية لفحص ذمة الصحف ..

ولا يمكن إنكار أن هيكل كان عنده الحق فيما كتب .. لكن كان الخوف أن يستخدم هذا الحق فى فرض الباطل على الصحافة .. وسحب حريتها منها .. وتحويلها من صاحبة

جلالة إلى صاحبة عصمة .. ومن ممثل إدعاء إلى متهم لا يخرج من قفص محكمة الجنايات أو محكمة الرأي العام .. وقد نشرت بالفعل قوائم المصاريف السرية التي كانت بعض الصحف وبعض الصحفيين يتقاضونها .. وكانت ضريبة مؤلة للمهنة كلها .. وأصبح الشك وعدم الثقة من نصيب كل من يعملون فيها .. كلهم .

ولم تكن قوائم المصاريف السرية هي كل عيوب وخطايا وعورات الصحافة .. لقد روى هيكل عن صحفي كان يوصل قطع الحشيش لعائلة صاحب الجريدة التي يعمل فيها .. وروى عن الكاتب الكبير الذي أنفق كل أمواله على ترف الحياة .. واضطر أن يكتب سلسلة مقالات مقابل مبالغ محددة كبيرة من المال .. ولكن .. هيكل نفسه وجد من يهاجمه لقيامه بتحرير صفحات إعلانية قبل الثورة.

لقد راح السادات يفتش عن خطأ مالي يستخدمه في التشهير بهيكل .. لكنه لم يجد سوى حكاية الإعلانات الساذجة .. وهي ساذجة لأنها لا تقارن بمبنى الأهرام الذي بناه هيكل وتكلف حوالي ٥ ملايين جنيه إسترليني دون هفوة مالية ولو عابرة .. دون ذرة غبار يمكن أن تعلق بذمته المالية .. وقد حدث أن كان يزور هيكل - أيام الحرب بينه وبين السادات - نجم التلفزيون الأمريكي مايكل والس في محطة السى بى أس .. وبينما كان هيكل يودعه كعادته إلى باب المصعد قال له مايكل والس: «محمد .. هل عندك مشكلة مع الضرائب؟» .. وتعجب هيكل .. فاستطرد والس: «لقد كنت عند الرئيس السادات وقال أنه سيحاكمك بتهمة التهرب من الضرائب وسيقوم بسجنك لخمس سنوات» .. ولم يأخذ هيكل كلامه مأخذ الجد .. لكنه سرعان ما فوجئ باستدعاء أمام المستشار عدلى حسين - المحافظ فيما بعد - الذى وجه إليه ثلاث اتهامات :

(١) أنه كان يتقاضى من الأهرام ٢٠٠ جنيه شهرياً لا يدفع عنها ضرائب.

(٢) أنه كان يقتسم المكافآت التي يمنحها لبعض المحررين معهم.

(٣) أنه أخذ مبلغ ١٣ ألف جنيه من الأهرام دون وجه حق .

وبحضور محاميه ممتاز نصار ومندوباً عن مكتب عبد العزيز حجازى قال هيكل للمستشار عدلى حسين رداً على هذه الاتهامات: أن مبلغ الثلاثمائة جنيه هي مصاريف مكتبه ولم يكن يلمسها بيده وإنما كانت تتسلمها وتنفقها مديرة مكتبه نوال المحلاوى .. وكانت تنفق منها على الشاي والبن .. وغيرها من مصاريف المكتب المباشرة.

وبالنسبة للاتهام الثانى قال هيكل: إنه كان يستخدم المكافآت لتعويض المحررين الذين يتسمون بالنشاط عن مرتباتهم التي يتقاضونها مثلهم مثل غيرهم .. واسألوا على

حمدى الجمال .. وعبد الحميد سرايا .. وغيرهم .. هل كنت أقتسم المكافآت معهم أم كانوا يحصلون عليها كاملة .. اسألوهم وهم الآن على علاقة طيبة مع السلطة .. وأضاف هيك: إن مرتبه من الأهرام كان ٥٠٠٠ جنيه سنوياً وأنه كان يتقاضى ٢٠٠٠ جنيه إسترليني من حقوق نشر مقال بصراحة كان يدفع نصفها لصندوق تعليم أبناء العاملين فى الجامعة . وبالنسبة للاتهام الثالث فإن هيكل تذكر فى تلك اللحظة قصته .. لقد جاء إلى القاهرة صحفى هندى كان على علاقة وطيدة بالمشير أحمد إسماعيل على وبالمخابرات العامة وقد أبدى استعدادة للسفر إلى إسرائيل والتعاون معنا ولكنه رفض أن يتقاضى أموالاً من الدولة وفضل أن يأخذها من صحيفة كأنه كان يكتب لها .. وحسبت تكاليف الرحلة فكانت ١٣ ألف جنيه .. طلب السادات من هيكل أن يدفعها من الأهرام .. وطلب هيكل من الدكتور فؤاد إبراهيم العضو المنتدب أن يرسل له المبلغ .. وأرسله .. وبعد أيام سأل الدكتور فؤاد إبراهيم عن التسوية الدفترية والمحاسبية للمبلغ .. فاتصل هيكل بالرئيس السادات الذى قال له أنه سيوقع على المبلغ بصفته رئيس الاتحاد الاشتراكى مالك الصحف .. وكتب الإيصال ووقعه وأضاف إليه شكره لجريدة الأهرام على أداء هذه المهمة الوطنية التى ساهمت فى انتصار أكتوبر .. وأرسل هيكل الإيصال للدكتور فؤاد إبراهيم وطلب صورة منه كعادته .. لكن ماكينة تصوير الإدارة كانت معطلة فأخذ هيكل الأصل وأرسل صورة منه إلى الإدارة .. وعندما وجد هيكل نفسه متهماً راح يفتش عن الإيصال لكنه لم يجده .. ولكن بالصدفة ولستر الله دخلت عليه زوجته وهى تحمل آخر الملفات التى جاء بها من الأهرام وكان الإيصال فيها .. وقد قدمه إلى المحقق قائلاً : هل تعرف خط الرئيس السادات ؟ .. فنفى .. فقال له : هل تعتقد أننى يمكن أن أزور توقيعه ؟ .. فنفى .. فقدم هيكل دليل براءته .. إن كل هذه المقدمات ضرورة لنفهم لماذا صنعوا من حبة الإعلانات قبة .. فالذى حدث أنهم لم يجدوا قبة حقيقية .

إن جذور الحرب بين هيكل وخصومه فى الصحافة قديمة وتتمتع بذاكرة قوية وهى خصومة متراكمة تزيد ولا تنقص . وبعضها يمكن وصفه بالموضوعية .. والبعض الآخر لا يمكن تصنيفه خارج منطقة المشاعر الدفينة .

لكن .. تبقى أن الصحافة كانت قضية من القضايا التى اهتم بها هيكل وفتح عليها النيران بخرابة بعد الثورة .. بل أنه لم تردد فى تقديم الاقتراحات المبكرة لتنظيمها .. إن عبارة «تنظيم الصحافة» وردت لأول مرة فى مقال لهيكل نشره فى آخر ساعة (عدد رقم

١٠١٧) فى ٢١ إبريل ١٩٥٤ .. كان عنوان المقال : « اقتراحات للصحافة » .. وكانت هذه الاقتراحات هى :

الاقتراح الأول : تحديد أرباح الصحف وصاحب هذا الاقتراح هو الصحفى الإنجليزى الكبير ويكهام ستيد وهو يرى أن أكبر خطر على الصحافة هو سعيها للربح فهى فى هذا السعى تلجأ إلى الإسفاف وإثارة غرائز الجماهير والتبذل فيما تنشر من أخبار ومقالات وقصص .. ويقول ستيد: إن الصحف يجب أن تحتذى بهيئة الإذاعة البريطانية ولا تحقق ربحاً أكثر من ٨ ٪ ربحاً من رأس المال ولا يجوز أن تتجاوز هذه النسبة .. هذا هو الاقتراح الأول فهل يوافق عليه من حيث المبدأ أصحاب الصحف المصرية ؟

الاقتراح الثانى : تشكيل مجلس مستقل يشرف على الصحافة .. وصاحب هذا الاقتراح هو مجلس العموم البريطانى .. ويحدد مجلس الصحافة المستقل حقوق الصحفيين وواجباتهم .. ويكون أعضاء هذا المجلس ممن يتصفون بالنزاهة والعدالة .. ويوكل إليهم الإشراف على الصحافة المصرية لصالح الصحافة ذاتها ولصالح الشعب كله .

الاقتراح الثالث : عهد شرف للصحفيين .. وصاحب هذا الاقتراح هو الأمم المتحدة .. وينص العهد أو الميثاق على أن يتحرى الصحفى الدقة فيما ينقله من أخبار والأمانة فى رواية كل ما يأتية منها دون إخفاء شئ منها لمصلحة خاصة .. وينص على رعاية المصلحة القومية العامة والبعد عما يضر بهذه المصلحة من الشائعات والأراجيف .. وينص على احترام سمعة الغير والنأى عن سوء الأخبار التى تنال منهم فى حياتهم الخاصة دون أن يكون من وراء هذا منفعة عامة .

الاقتراح الرابع : إلزام الصحافة باحترام حرية الصحافة .. وصاحب هذا الاقتراح هو إيرون كانان رئيس تحرير أفضل الصحف الأمريكية «كريستيان ساينس منيتور» .. فحرية الصحافة قد تتعرض للتقلص من الصحافة نفسها .. فهناك قيود الحزبية التى تجعل من أصحاب الصحف أداة فى يد الحزب الذين يتبعونه .. وهناك قيود الإعلان .. فالمصدر الأول للصحف الكبرى هو الإعلان التجارى .. وهو ما يخضع سياسات تحرير الصحف لسطوة ومصالح كبار المعلنين .. وهناك قيود من داخل الصحف نفسها .. على رأسها الاستمرار فى الخطأ ورفض نشر التصويب والحقيقة .

ولم يؤخذ بهذه الاقتراحات .. فقد ساد بين الصحفيين اعتقاد بأنها محاولة التفاف من جانب السلطة الثورية الجديدة على حرية الصحافة .. خاصة بعد أن نشر إحسان عبد القدوس مقاله الشهير «الجمعية السرية التى تحكم مصر» أثناء أزمة مارس ١٩٥٤ وترتب

عليه اعتقاله والقبض عليه ودخوله السجن .. وبعد أن خرج منه استقبله جمال عبد الناصر .. وفهم منه أن الزمن تغير .. فراح يكتب الروايات العاطفية والاجتماعية مبتعداً عن السياسة .. وفي غرفة مكتب إحسان عبد القدوس إناء الشرب الذي كان يستعمله في السجن .. وتوتر العلاقة بين كامل الشناوى وجمال عبد الناصر بعد أن راحت التقارير السرية تذكر أن كامل الشناوى «يلسن» ويسخر من جمال عبد الناصر ويلقى عليه النكات .. ووجد كامل الشناوى نفسه أكثر في كتابة القصائد العاطفية والدخول في مغامرات نسائية فاشلة .. وشعر عباس العقاد بالقلق فراح يفكر في الكتابات الدينية لقد كانت السلطة الثورية الجديدة غير قابلة للنقد ومن ثم كانت تجد في الصحافة مشكلة ليست هينة .. وفي الوقت نفسه كان الفساد في الصحافة هو الثغرة التي نفذت منها لتقليص حريتها بدعوى تنظيمها.

ومن جانبها حاولت السلطة الثورية الجديدة أن تخلق لها صحافة خاصة بها تعبر عنها .. فأصدرت مجلة «التحرير» وجريدة «الجمهورية» .. وقد شدت «التحرير» الناس إليها .. لكنها بعد سنوات تدهورت وأغلقت .. أما «الجمهورية» فقد صدر ترخيصها باسم جمال عبد الناصر .. وظل الفارق بين الثورة والحكومة فيها ضائعاً .. وفيما بعد صدرت مجلة «بناء الوطن» لتنضم لعائلة الثورة الصحفية .. ورغم الإمكانيات المادية التي أتاحت لها إلا أن مصيرها كان محتوماً .. الإغلاق .. فالصحافة لا تتنفس إلا في الهواء الطلق.

الفصل الرابع

انقلاب في بلاط صاحبة الجلالة

صحيفة شاخنت مع الأيام

■ عندما قرر جمال عبد الناصر إصدار جريدة الجمهورية كان أول من فكر فيه ليتولى مسئولية تحريرها هو هيكل .. لكن .. هيكل سارع بالاعتذار .. وكانت وجهة نظره .. «إنه متمسك بأخبار اليوم ومتمسك بعمله فيها وبصداقته مع أصحابها» .. ثم «أن الفارق بين الثورة والحكومة ضائع .. وفي النهاية فليست هناك صحيفة ستصدر عن الثورة وإنما عن الحكومة» .. ولم يتصور هيكل نفسه «في جريدة حكومية» .. ثم «أن الثورة لا تحتاج جرائد تعبر عنها .. فكل صحافة مصر تفعل هذا الشيء» . (١)

لكن .. تمسك هيكل بأخبار اليوم لم يستمر طويلاً .. فقد راحت الأهرام تشير إليه بما هو مغرر ومثير .

لقد جاء مؤسس الأهرام سليم تقلا من سوريا هرباً من جور السلطان عبد الحميد الذي كان يمد نفوذه المباشر من تركيا على سوريا .. وفي الوقت نفسه لم يتردد سليم تقلا في أن يضع نفسه في خدمة الخديوى إسماعيل الذي كان مهووساً بالدعاية وحب الظهور .. فكان أن قدم له التماساً في ٢٧ ديسمبر ١٨٧٥ بإنشاء مطبعة الأهرام .. ووافق الخديوى إسماعيل .. وفي ٥ أغسطس ١٨٧٦ صدر العدد الأول من الأهرام الأسبوعية في ٤ صفحات .. وابتداء من يوم الإثنين ٣ يناير ١٨٨١ أصبحت الأهرام جريدة يومية .. وفي أول أغسطس ١٩٥٧ وعلى صدر العدد رقم ٢٦٠٠٠ وضع اسم هيكل رئيساً للتحرير .

لكن انتقال هيكل من أخبار اليوم إلى الأهرام لم يكن عملية سهلة .. لقد عرض على الشمسي باشا - رئيس مجلس إدارة البنك الأهلي ورئيس مجلس إدارة الأهرام - رئاسة

تحرير الأهرام عليه فى لقاء جرى خارج الحدود فى يونيو ١٩٥٥ .. كان هيكى فى جنيف يتابع مؤتمر أقطاب العالم الكبار الذى انعقد فيها (وهم نيكيثا خروتشوف من الاتحاد السوفيتى ودويت أيزنهاور من الولايات المتحدة وأنتونى أيدن من بريطانيا وإدجار فو من فرنسا) وأثناء وجوده هناك قابل هيكى على الشمسى وفى فندق «دى برج» فاتحه على الشمسى فى فكرة انضمامه إلى الأهرام .. فسأله هيكى: «ماذا أفعل فى الأهرام؟» .. فكان الجواب: «ترأس تحريره» .. ولكن هيكى سارع بالاعتذار وطرح له أسبابه وهما جالسان فى ردهة ذلك الفندق القديم العريق .. قال له:

«أولاً فإن رئاسة تحرير الأهرام شرف بالنسبة لأى صحفى .. ولكننى ثانياً لا أظن أن فى استطاعتى أن أترك دار أخبار اليوم التى أعتبر نفسى سعيداً فيها إلى جانب ما يربطنى بها من صداقات أعتز بها كثيراً .. ثم أننى ثالثاً أنتمى إلى مدرسة صحفية قد تختلف عن المدرسة الصحفية التقليدية للأهرام .. فلقد بنيت حياتى الصحفية على أساس العمل الأخبارى وتحركت فى ذلك مراسلاً سياسياً وحربياً وراء المتاعب فى كل قارات العالم .. وذلك كله اتجاه إلى الحركة يختلف عن ثبات الأهرام .. وكذلك - رابعاً - فإننى لا أعرف أحداً فى الأهرام وفيما مضى فلقد كنت أعرف أنطون الجميل رئيس تحريره السابق كما كنت أعرف كامل الشناوى - الذى كان ولا يزال أعز الأصدقاء وأغلاهم ولكن كامل الشناوى هو الآخر ترك الأهرام .. وأخيراً - وهذا هو السبب الخامس - فإن قارئ الأهرام لا يعرفنى ومعنى ذلك أنه يتحتم على أن أبدأ من جديد» .

وقال على الشمسى: «تستطيع أن تجد السعادة فى الأهرام كما وجدتتها فى أخبار اليوم .. إن السعادة أن تنجح .. وأن تنجح رهن بما تقدمه من عمل وهذا فى يدك .. وأنت تتحدث عن ثبات الأهرام وتخرج من أن تقول جمود الأهرام .. مع أن هذا هو رأى فيه .. إن الأهرام يحتاج إلى الحركة وهى طابع العصر كله» .. و«هناك مسألة أخرى .. أن الأهرام يخسر مالياً وأخشى أيضاً أنه يخسر فى قرائه لأن المنافسة اشتدت عليه وأصحاب الأهرام تراودهم فكرة بيعه وتلك فى رأى سوف تكون خسارة وطنية فمن يعرف من يشتريه وكيف يديره صحفياً وسياسياً؟» .

وانتهى حديث جنيف سنة ١٩٥٥ وأبعد هيكى الفكرة كلها من فكره .

كانت الأهرام امتحاناً مهنيّاً حقيقياً لهيكى .. فهى «صحيفة شاخيت مع الأيام» وعجزت عن المنافسة أمام سخونة وحيوية الصحافة الشابة التى تمثلها أخبار اليوم .. ولو استطاع هيكى «تجديد دمائها» لأثبت نفسه «مستقلاً» .. إن من السهل إنجاح صحيفة جديدة .. من الصعب إعادة الحياة فى صحيفة تحتضر .. تخسر القراء والأموال .. ولا أمل فيها

سوى إغلاقها ودفنها مهما كانت الخسارة المعنوية والتاريخية فادحة .. ولا جدال أن إعادة الحياة لصحيفة وهى على فراش الموت يحتاج إلى «مسيح» صحفى .. يحى الموتى .. ويحرك المشلول .. وينطق الآخرس .

كان هيكل أمام تحدى مهنى صعب .. كيف يترك بريقاً يحظى به فى أخبار اليوم - التى كان الرجل الثالث فيها بعد صاحبها - إلى جريدة كل ما تملكه ماض عريق ولكن «مستقبلها محفوف بالشكوك» والفشل .. ويصعب «وقف تأكل الصدا فيها» إلا بمعجزة؟ .. ولكن .. فى الوقت نفسه كان هيكل يشعر بأن شيئاً ما «فى تركيبة أخبار اليوم الداخلية يحول دون إعادة تنظيمها على قاعدة مؤسسية قابلة للبقاء والتطور والتجدد» . (٢)

كان هيكل ممزق المشاعر بين الاستقلال المهنى المتوقع فى الأهرام والبريق المهنى المستقر فى أخبار اليوم .. وفى وسط هذه الحيرة .. عاد على الشمسى باشا يلح ويضغط .. كان ذلك فى ربيع ١٩٥٦ .. وفى هذه المرة أبدى هيكل اهتماماً أكبر للسمع .. كانا يدوران فى مجرى سباق الخيل فى نادى الجزيرة وبعد الدورة الثانية قال هيكل: «دعنى أفكر لبعض الوقت» .. وبعد أن انتهى فنجان الشاى بينهما ذهب هيكل إلى صديق يثق به هو شيخ المحامين مصطفى مرعى الذى تحمس للفكرة قبل أن يكمل هيكل عرضها .. وقال له: إنه سيكون محاميه فى التعاقد مع أصحاب الأهرام .. وبالفعل ذهب معه لعدة لقاءات مع عضو مجلس الإدارة المنتدب للأهرام وقتها ريمون شمیل .. وهو ينتمى لأسرة مسيحية لبنانية شهيرة جاءت إلى مصر فى نهاية القرن التاسع عشر .. وكان نقيباً لمحامى المحاكم المختلطة والمستشار القانونى الدائم لأسرة تقلا مالكة الأهرام .

وعرف هيكل فى تلك اللقاءات أن أسرة ت «تقلا» مصر على بيع الأهرام إذا لم يقبل هيكل عرضها .. وقد جرت بالفعل مفاوضات بينها وبين دار التحرير للطباعة والنشر التى أسستها الثورة لإصدار الجمهورية .. وتوقفت الصفقة لأن أسرة تقلا طلبت ٨٠٠ ألف جنيه ثمناً للأهرام .. نصفها للأصول والمطابع والمبانى .. والنصف الثانى لأسم الأهرام .. وقد وجد أنور السادات الذى كان يمثل دار التحرير ويرأس تحرير الجمهورية أن الثمن مبالغ فيه .

وتقدمت المفاوضات بين هيكل وريمون شمیل ووصلت إلى درجة كتابة عقد وقعا عليه بالحروف الأولى تسجيلاً للنوايا وتمهيداً لاتفاق نهائى .. وكان ذلك فى يونيو ١٩٥٦ .. ثم طلب هيكل ترك الموضوع حتى يتحدث مع أصحاب أخبار اليوم .. ولا جدال أن هيكل شعر بقلبه يختنق عندما دخل أخبار اليوم فى ذلك اليوم وفى جيبه عقد الأهرام .. لقد قضى فى أخبار اليوم ١٠ سنوات يصفها بالخصوبة وبأنها وضعت الأساس لأى شئ

يمكن أن يصل إليه مهنيًا .. وفيها عرفه الناس وقرءوا له .. وفيها جمعتة علاقات إنسانية «واصلت إلى الأعماق» بنجوم الصحافة والكتابة .. خصوصاً كامل الشناوى وتوفيق الحكيم وإبراهيم عبد القادر المازنى وسلامة موسى وأحمد الصاوى محمد وبيرم التونسى .. وقبلهم على ومصطفى أمين .. وتساءل هيكى بينه وبين نفسه: «كيف أترك هذا كله وأخرج؟ كيف أترك بيتاً شاركت فى بنائه وألفت كل شئ فيه ثم أذهب إلى بيت آخر غريب عتيق يكاد يتهاوى تحت وطأة الأيام والحوادث؟» . (٣)

فى صباح يوم ٢١ مايو ١٩٥٦ ترك هيكى مكتبه وقصد مكتب على أمين وطلب منه أن يدعو مصطفى أمين للانضمام إليهما .. وما أن جاء مصطفى أمين حتى استجمع هيكى شجاعته وأقضى بلا مقدمات بما فى جوفه .. لكنه قبل أن يكمل حتى قام على أمين وأغلق باب الغرفة بالمفتاح وهو يجهش بالبكاء .. وانتقلت عدوى الدموع إلى مصطفى أمين وإلى هيكى نفسه .. وبشكل ما أنتهى المشهد العاصف بورقة كتب هيكى فيها خطاب اعتذار إلى أصحاب الأهرام .. لأنه وجد أن روابطه بأخبار اليوم أقوى من اعتبارات أخرى تصورها أثناء مناقشاته معهم .. ثم جرى عناق وقبلات .. وبعدها أخرج على أمين مفتاح باب المكتب من جيبه وفتح الباب . (٤)

«ولم تعط الأحداث فرصة لأحد لمراجعة ما جرى فى مكتب على أمين» .. كان تأميم قناة السويس فى صيف ١٩٥٦ .. ثم حرب السويس فى خريف العام نفسه .. ثم كان النصر السياسى الكبير الذى تحقق لجمال عبد الناصر .. ووصوله لنقطة الذروة فى شعبيته على كافة المستويات .. فى الداخل والخارج .

فى يوم ٦ إبريل ١٩٥٧ كان هيكى على موعد لفنجان شاي فى نادى الجزيرة مع على الشمسى .. وانضم لهما وهما يتمشيان فى ساعة الغروب أستاذ الاقتصاد المعروف الدكتور على الجريتلى .. وكالعادة فى مثل هذه الأحوال راح الحديث العشوائى يتشعب من السياسة إلى الصحافة .. ومرة أخرى قفزت قصة الأهرام .

كان على الشمسى قد ترك رئاسة مجلس إدارة الأهرام للسيدة رينيه تقلا أرملة جبرائيل تقلا .. وقد حاولت المستحيل للتخفيف من حدة خسائر العشر سنوات الأخيرة التى وصلت إلى مليون ونصف المليون جنيه .. بالإضافة لتدنى توزيع الصحيفة إلى حدود ٦٨ ألف نسخة - وقد راح يتناقص كما كانوا يقولون بعدد إعلانات الوفيات فى الأهرام - ولم يكن أمام السيدة رينيه تقلا سوى البيع .. ولم تكن فرصة الشراء مغرية

فمتوسط عمر العاملين في تحرير الأهرام كان ٥١ سنة .. وكانت مطبعة الأهرام في بولاق مصنوعة عام ١٩٢٨ .. وكان عنبر الحفر في الأهرام يحتوى في الغالب على معدات صنعت في فرنسا عام ١٩٠٤ .. وكانت مباني الأهرام ما بين سراديب تحت الأرض أو جسور معلقة في الهواء .. تصل ما بين مبنى ومبنى ولم يبق أى منها ليكون داراً صحفية وكان أهمها وهو مقر التحرير أصله فيلا خاصة سكنها القنصل الإيطالى في القاهرة عام ١٩٠٠ وتم استأجرها منه في ذلك العام عندما انتقل الأهرام عقب صدوره من الإسكندرية إلى القاهرة .

قال الدكتور الجريتلى: «أنه ليس من حق أحد أن يتصرف في الأهرام كملكية خاصة لأن الأهرام مؤسسة عريقة في تاريخ مصر السياسى والصحفى» .. ثم أضاف: «أنه لابد للشمسى باشا أن يمارس كل نفوذه كى يحول دون انتقال ملكية الأهرام إلى مالك جديد لا يعرف كيف يحافظ عليه» . (٥)

وقال الشمسى باشا: «إنه جرب إقناع أسرة تقلا بأن الأمر يحتاج إلى تجربة أخيرة قبل أى قرار نهائى .. وفى رأيه - كما قال لهم - أن الأهرام يحتاج إلى صحفى شاب يستطيع تجديد حيويته مع الحفاظ على تقاليده» .. «ورد الدكتور الجريتلى بأن تلك فكرة صائبة .. وإذا بالشمسى باشا يقاطعه قائلاً: أنه عرض رئاسة تحرير الأهرام فعلاً على صحفى شاب ولكن هذا الشاب تردد فى اللحظة الأخيرة وأوقعه فى حرج كبير» .. ودون أى حسابات .. ولعله العقل الباطن الذى يدفع الكامن فيه على السطح وجد هيكى نفسه يقول للشمسى باشا: «إنه سوف يريحه إلى أبعد حد .. فى العام الماضى عرضوا الأهرام على واعتذرت وفى هذا العام أنا الذى أعرض نفسى على الأهرام» .. وكان من الصعب على الشمسى باشا أن يصدق بعد ما حدث من قبل .. ولكنه استطرد: «الماء يكذب الغطاس .. وها هو بيت ريمون شميل على طرف نادى الجزيرة البحرى فلنذهب إليه الآن ونتكلم» .. وذهب هيكى والشمسى باشا إلى بيت ريمون شميل على غير موعد وكان الرجل جالساً فى صالون بيته إلى البيانو وأصابه تجرئ على المفاتيح بلحن كنسى لباخ .. وبعد أن تجاوز الرجل الدهشة جرت اتصالات وحضر آخرون وانتهى المساء بتوقيع عقد ملزم للطرفين بالشروط السابقة وأخذ هيكى نسخته وذهب إلى بيت مصطفى مرعى الذى قال لهيكى عبارة واحدة: «خير ما فعلت» . (٦)

وفى تلك الليلة - التى يصفها هيكى بأنها كانت بيضاء كثلوج الجبال - لم ينم .. لقد اتخذ قراراً مصيرياً فى حياته .. كذلك فإن عليه قبل أن يذهب ويتسلم عمله فى الأهرام أن يخبر جمال عبد الناصر وأصحاب أخبار اليوم بما فعل .

فى صباح اليوم التالى كان أمام جمال عبد الناصر فى مكتبه ببيته بمنشية البكرى ..
وبدون مقدمات جرى بينهما الحوار التالى :

هيكل: إننى وقعت عقداً مع الأهرام .

ناصر: أليس غريباً أن تقبل العمل فى الأهرام وأصحابه أسرة تقلا بينما تعتذر عن
العمل فى الجمهورية وأنا صاحبها ؟ .

هيكل: الأهرام له صاحب أستطيع أن أتعامل معه مهنيّاً .. وأما الجمهورية فلا يمكن أن
يكون لديك الوقت لممارسة مسئوليات صاحبها .. وبالتالى فهى بلا صاحب .. وهذا
يجعلها مهنيّاً معضلة شبه مستحيلة .

ناصر: سوف تتعب مع هؤلاء الناس .. ما أسمعهم عنهم غير مشجع .. ولا أظنهم
يتركون لك الفرصة لتفعل ما تريد .

هيكل: الحكم بينى وبينهم هو العمل نفسه .. هم يريدون نجاحاً لجريدتهم .. وهو ما
أريده أيضاً .. الموقف كله يختلف إذا لاحت علامات نجاح .

ناصر: هل هناك مشاكل فى أخبار اليوم؟

هيكل: مطلقاً .. كل شئ هناك فى مجراه العادى لكننى أشعر أننى وصلت - مهنيّاً إلى
آخر السلم فيما يمكن تحقيقه فى أخبار اليوم .. فى الأهرام شئ مختلف .. سلم جديد من
بدايته .. والطريق طويل .. وهو فى كل الأحوال امتحان أشعر أننى متحمس لدخوله ..

ناصر: الأمر لك كما تراه .. فهو عملك ومستقبلك .. وإن كنت لا أخفى أننى مشفق
عليك من عناء تجربة جديدة مع اعتقادى أنك قادر على النجاح .

وانتقلا إلى موضوع آخر . (٧)

وبقيت أمام هيكل مهمة توصيل الخبر إلى على ومصطفى أمين .. واستقر رأيه على
أن يكون التوصيل كتابة حتى لا يتكرر مشهد الدموع المشحون بالانفعالات والعواطف ..
وهكذا .. كتب هيكل لهما رسالة شرح فيها ما شرح .. ثم سافر إلى الإسكندرية دون أن
يترك عنوانه لأحد .. وحينما عاد إلى القاهرة بعد ١٠ أيام كان الخبر قد أصبح حديث
الوسط الصحفى .. وأصبح الجميع أمام أمر واقع لا يمكن الرجوع عنه مهما كانت المشاعر
والروابط .

وفى يوم وصوله القاهرة التقى الثلاثة فى مكتب على أمين .. وجرى الحوار بينهم
هذه المرة هادئاً .. عاقلاً .. واتفقوا فى البداية على أن الخروج لم يكن بسبب مشاكل ولا
خلافات .. ويعترف هيكل بأن هذا صحيح .. ثم اتفقوا على أن الانتقال إلى الأهرام لا يعفى

هيكل من الاستمرار فى رئاسة تحرير آخر ساعة لمدة سنة على الأقل .. وهو ما سبب لهيكل مشاكل مع أصحاب الأهرام .. ويقول هيكل: أنهم كانوا على حق .. ثم اتفقوا على لقاء منظم بينهم كل أسبوع .. لا يحتاج إلى دعوة أو تأكيد .. وأن يكون على الغذاء كل ثلاثاء فى بيت مصطفى أمين .. واستمر هذا التقليد لمدة ٨ سنوات لم يمنعه خلالها إلا الشدائد القوي .. ويعترف هيكل بأن غذاء كل ثلاثاء «أثبت فاعليته فقد كان دوماً فرصة منظمة تزيل أية عوائق وتحول دون تراكمات» .

وفى يوليو - شهر الحظ - ولكن فى عام ١٩٥٧ دخل هيكل الأهرام .. لتبدأ مرحلة جديدة فى حياتهما معاً .. هو والصحيفة العريقة .

بعد شهر كامل من دراسة أوضاع الأهرام من الداخل ذهب هيكل إلى مجلس إدارته - وكان قد أصبح عضواً فيه - وهو يحمل معه أول تقرير عن المستقبل .. كان مجلس إدارته يتكون من السيدة رينيه تقلا رئيسة لمجلس الإدارة والأستاذ ريمون شميل عضواً منتدباً والأستاذ نعوم بحرى مديراً عاماً والأستاذة بشارة تقلا وفريد شقير أعضاء .. وكان أول ما فوجئ به هيكل فى الاجتماع أن لغة المناقشة فيه ولغة محاضرة الرسمية هى اللغة الفرنسية .. وكانت فرنسيته لا تزال تترك الكثير من التمنى على حد تعبيره .. وفى الاجتماع اعترض هيكل على تحميل الأهرام المصاريف الشخصية لأصحابه .. مثل لوج دائم فى الأوبرا .. والحفلات .. والولائم .. وسباق الخيل .. والتبرعات الخيرية .. وطلب ١٠٪ من الأرباح .. نزلت إلى ٧,٥٪ .. وفى نهاية العام الأول كان هناك وفراً ٢٠٠٠ جنيه .. وكان هذا المبلغ هو أول خميرة بناء مشروع المبنى الجديد .

ودخل هيكل الأهرام ومعه أربعة سبقوه إلى هناك هم على حمدى الجمال وقد أصبح مديراً للتحرير وكمال الملاخ وقد أصبح محرراً للصفحة الأخيرة وتوفيق بحرى وقد أصبح مديراً للشئون الفنية ونوال المحلاوى مديرة مكتبه .. وفى داخل الأهرام كان ممدوح طه رئيس قسم الأخبار وجورج عزيز رئيس القسم الخارجى ونجيب المستكاوى رئيس القسم الرياضى وزكريا نيل محرر الشئون العربية .. وبهذه المجموعة بدأ هيكل تجربته فى الأهرام .. وكان الطابع الذى اختاروه هو الطابع الخبرى .. «أن يكون الأهرام سباقاً بكل خبر .. وأن يكون كل خبر فى الأهرام صادقاً إلى أبعد حد .. وأن يكون عرض الخبر فى الأهرام عن طريق التحقيق الذى يعطى للخبر كل أبعاده وليس طريق «التزويق» الذى يغطى ملامح الحقيقة فى الخبر» .

من يوليو ١٩٥٧ إلى فبراير ١٩٧٤ بقى هيكل فى الأهرام حوالى ١٧ سنة رئيساً للتحرير ثم رئيساً للتحرير ورئيساً لمجلس الإدارة .. وبقدر خوف هيكل وقلقه من انتقاله إلى الأهرام بقدر ما كان نجاحه المذهل فيها .. لقد كان باعة الصحف يصفون الأهرام «بأهرام هيكل» .. وعندما بنى هيكل المبنى الجديد للأهرام فى شارع الجلاء وأنتهى منه فى يوليو ١٩٦٧ وُصف بأنه «الهرم الرابع» .. لكن .. ذلك لا يقارن بالقفزة الصحفية النوعية التى حققها هيكل للصحيفة العتيقة التى تسلمها وعمرها حوالى ١٢٥ سنة ومصابة بكل أمراض وأعراض الشيخوخة .. لكن .. الصحيفة العجوز أعطت للصحفى الشاب الذى كان عمره لا يزيد عن ٢٤ سنة شهرة بقدر ما أعطها حيوية .. وأعطته ثقة بقدر ما أعطها قوة .. ودعمت مستقبله بقدر ما حافظ هو على ماضيها .

لقد قفز توزيع الأهرام فى عشر سنوات من ٦٠ ألف نسخة إلى ٣٥٠ ألف نسخة يومياً .. أما العدد الأسبوعى .. عدد «الجمعة» الذى كان ينشر فيه هيكل مقاله «بصراحة» فكان يصل إلى ٧٥٠ ألف نسخة .. وهو رقم لم تصل إليه صحيفة عربية من قبل .. لكن .. كلما كان الرقم يرتفع .. كلما كان عدد «السيجار» الذى يدخنه يزيد .. وكذلك عدد أقراص الفيتامينات وأقراص «الالكاسلز» المهضمة .. وبمرور الوقت أضيفت أقراص علاج المראה .. وكلها أقراص كان يحرص على وضعها على مكتبه بجوار حجم معين من ورق «الدشت» - وهو فائض الأوراق التى تطبع عليها الجرائد - قبل أن يغلق عليه الباب يوم الثلاثاء - من الثامنة صباحاً حتى الثالثة عصراً - ليكتب مقال «الجمعة» الشهير «بصراحة» .. دون أن يجروء أحداً على إزعاجه .. ويقال أن جمال عبد الناصر كان يعرف موعد كتلة المقال .. ولكنه كان ينسى أحياناً ويطلبه .. وعندما ترد سكرتيرته «نوال المحلاوى» كان يبادر بالاعتذار قائلاً : «أنا متأسف .. نسيت أن الأستاذ يكتب النهارده» . (٨) وفيما بعد .. عندما أصبح هيكل يعمل فى مكتبه الخاص أضيفت أقلام الفلوماستر السوداء .. وورقة فى حجم الكف يسجل عليها مواعيد الأسبوع .. بخلاف أوراق صفراء يسهل نزعها بعد لصقها .. يستخدمها فى كتابة الملاحظات السريعة .

ويقال أيضاً : أنه كان يحتفظ فى جيبه بنوته حمراء صغيرة يسجل فيها - وهو فى أى مكان - بعض الجمل والعبارات الرشيقة والجدابة التى يسمعها أو تخطر على باله . (٩) ويقال أنه قليل الشطب والحذف .. ويصر على مراجعة «بروفة» مقاله بعد أن تصفها حروف المطبعة بنفسه مرتين على الأقل .. وقد رأيتته بنفسى وهو يراجع بروفة كتابه «المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل» .. وكان بطيئاً دقيقاً فى المراجعة .

وقد رأيت الكرسي الذى يجلس عليه فى مكتب بيته .. ويقال أنه اشتراه «جينو» لكننى لم أر المقعد الذى كان يجلس عليه فى مكتبه بالدور الرابع من المبنى الرئيسى للأهرام .. ويقال أنه كان أيضاً من تصميم «جينو» .. وقد وضع فى مخازن الأهرام بعد خروجه .. وحسب رواية سكرتيرته نوال المحلاوى فإن جمال عبد الناصر عندما دخل مكتب هيكى - وهو يفتح المبنى الجديد للأهرام - وجد أنور السادات - الذى كان معه - يشير إلى المقعد ويقول: «شاييف .. يا ريس .. محمد بيقعد على كرسي شكله إيه؟» .

ولو كان أنور السادات قد أنتبه إلى الكرسي فإن جمال عبد الناصر قد أنتبه إلى الأهرام كله .. فقد قال لهيكى مازحاً فى هذه الزيارة: «أنا عاوز أرفدك علشان أخذ مكانك فى رئاسة التحرير» . (٩)

ويروى مساعدو هيكى: أنه لم يكن من السهل أن يرى الناس هيكى .. حتى المحررين .. «كان دخوله وخروجه سراً .. يجرى سلالم مبنى الأهرام القديم فى شارع مظلوم فى وسط القاهرة ليدخل حجرته إلى شمال المبنى فى جزء منعزل تحرسه سكرتيرته .. وفى مدخل الأهرام كان يجلس رجل نوبى كبير اسمه عم صالح يسجل دخول وخروج المحررين على ساعة ميقاتية يخرج منها شريط طويل عليها اسم المحرر وساعة حضوره وانصرافه .. كل شئ كان سراً غامضاً .. رقم تليفونه .. وموعد حضوره .. ومن النادر أن كانت سيارته تقف أمام باب الأهرام» . (١٠)

وراء كل هذا الغموض كانت سكرتيرته نوال المحلاوى .. إن التاريخ الصحفى فى مصر لا يذكر - وربما لن يذكر - شخصية سكرتيرة رئيس تحرير مثل نوال المحلاوى .. لقد عملت مع هيكى منذ دخوله الأهرام وبقيت معه ١٣ سنة ولم يبعدها عنه إلا كارثة سياسية من النوع الثقيل .. وقد تخرجت فى الجامعة الأمريكية فى عام ١٩٥٦ بعد أن درست الصحافة والإدارة .. وأجادت اللغة الإنجليزية .. لكن كانت أهم مواهبها حفظ وكتمان الأسرار .. وحتى وفاتها بالسرطان فى عام ١٩٩٩ ظلت ترفض كتابة مذكراتها .. وماتت .. وماتت معها معظم الأسرار .. وكل ما عُرِف عنها .. أنها عملت لمدة عام واحد محررة فى وكالة أنباء الشرق الأوسط .. ثم تركتها إلى مكتب هيكى .. لتصبح الشخصية القوية فى الأهرام بعد رئيسها .. لدرجة أن جمال عبد الناصر عندما جاء لزيارة الأهرام لم يعترض عندما أعدت له بيدها فنجاناً من القهوة وقدمته له .. وكان مقرراً أن لا يشرب .. ولا يأكل شيئاً .. وتناول جمال عبد الناصر القهوة وقال لها: «أريد أن أتصور معك .. كان نفسى أشوفك من زمان .. كنت أسمع صوتك فى التليفون بس» . (١١)

لكن .. نوال المحلاوى ذات الشأن فى الأهرام والتي تتمتع بحماية هيكل الصديق الشخصى لجمال عبد الناصر قبض عليها فى مايو ١٩٧٠ هى وزوجها ولطفى الخولى الذى كان رئيساً لتحرير مجلة «الطليلة» اليسارية التى كانت تصدر عن الأهرام .. ولم ينشر الأهرام خبر الاعتقال الذى فسر بأنه كان بسبب انتقادات النظام .. وبعد أن أُفرج عنها لم تعد إلى مكتب هيكل .. وإنما نُقلت إلى مكان آخر فى الأهرام .. وفيما بعد .. تولت مسئولية إدارة نشر وترجمة الكتب .. وهو آخر منصب لها فى الأهرام .. وبقيت فيه حتى وفاتها .

وقد أشار هيكل لواقعة اعتقال نوال المحلاوى أثناء التحقيق معه أمام المدعى الاشتراكى عندما قال: «أعتقد أن الأهرام فى ذلك الوقت ورغم قرب رئيس تحريرها بصداقة حميمة مع الرئيس جمال عبد الناصر كانت أكثر الصحف تعرضاً لضربات بعض الأجهزة وعلى سبيل المثال فقد جرى اعتقال الدكتور جمال العطيفى واعتقال الأستاذ لطفى الخولى واعتقال الأستاذ حمدى فؤاد (كان محرراً للشئون الدبلوماسية) والأستاذ أحمد نافع (محرر الشئون العربية) والأستاذ يوسف صباغ من هيئة تحرير الأهرام .. ووصل الأمر إلى حد اعتقال سكرتيرتى الخاصة بعد ٣ أيام من تعيينى وزيراً للإرشاد (الإعلام فيما بعد) وكنا جميعاً فى ذلك كله نصمد .. لا نهرب ولا نستسلم .. ولا نحول موقفنا إلى حالة غضب شخصى .. وإنما ندافع عن مبدأ لنا ولغيرنا .. وإذن فقد كنا ننتقد التجاوزات ونتعرض لبعضها» . (١٢)

وقبل أن يترك هيكل الأهرام كانت الصحيفة التى تسلمها مديونة قد أصبحت تحقق أرباحاً سنوية ما بين ٣ - ٤ ملايين جنيه .. وكانت أصولها الثابتة تزيد عن ٤٠ مليون جنيه .. وحجم عملياتها السنوية لا يقل عن ١٠٠ مليون جنيه .. وأصبحت الأهرام ذات سمعة دولية جعلتها واحدة «من الصحف العشر الكبرى فى العالم طبقاً لتقرير نشرته جريدة التايمز .. وأصبحت دارها الصحفية بما فيها من تجهيزات حديثة ومعدات واحدة من الدور الصحفية الثلاث الأكثر تقدماً فى العالم وذلك بشهادة مؤتمر الصحافة العالمى فى لوس أنجلوس سنة ١٩٧١ .. إن كل ذلك تم بدون أية معونات خارجية وبدون أية مساعدات وإنما تم بالعمل الإنسانى وحده لكل الذين شاركوا معى فى إعادة بناء الأهرام» . (١٣) .. وفيما بعد .. نجح إبراهيم نافع فى أن يضع من جانبه بصمات واضحة على الأهرام .. جعلته متطوراً مع العصر، سابقاً عن غيره فى شارع الصحافة.

وقد كانت الأهرام وقت دخول هيكل إليها تعتمد على ماكينات طباعة مصنوعة فى فرنسا فى الفترة ما بين عامى ١٩٠٤ و ١٩٢٨ .. وكان رأسمال الشركة التى تصدر الأهرام هو ٤٠٠ ألف جنيه .. وقد زانت خسائر الأهرام عن رأس المال عدة مرات .

لقد ذكر هيكل هذه الأرقام بنفسه فى الجلسة السادسة من جلسات التحقيق معه أمام المدعى الاشتراكى .. وكانت هذه الجلسة فى يوم الثلاثاء ٤ يوليو ١٩٧٨ .. وفى الجلسة الثامنة التى كانت فى يوم الأربعاء ١٢ يوليو ١٩٧٨ تعمد هيكل أن يتحدث عن مساحة رأى والحرية التى تمتع بها الأهرام فى عهده .. لقد استغل هيكل سؤال المحقق عن أخطاء جمال عبد الناصر ليقول فى إجابته المطولة:

«إننى أتشرف بأن الأهرام فى فترة عملى فيها كانت منبراً يكاد يكون وحيداً للدفاع عن حرية الرأى والنقد .. ولم يكن ذلك لامتياز خاص أدعيته لنفسى أو أعطاه لى غيرى .. إنما كان عن إيمان بدور الصحافة الحرة .. وعلى سبيل المثال فلقد نشر الأهرام فى تلك الفترة لكبار كتابنا أعمالاً نقدية بارزة أذكر منها على سبيل المثال «بنك القلق» لتوفيق الحكيم .. وأتذكر فيما يتعلق ببنك القلق - وهذه الواقعة موجودة فى مقالاتى فى تلك الفترة - أتذكر أن توفيق الحكيم كتب «بنك القلق» لغير النشر وأعطاه لى كى أقرأها .. وقلت له: إننا سوف ننشرها .. وأبدى انزعاجاً شديداً .. وقلت بالحرف وهذا مسجل فى مقال لى «إذا كنت أنت وجدت الشجاعة كى تكتب فإن لدى الشجاعة كى أنشر» .. وحينما صدرت الحلقة الأولى من «بنك القلق» احتجت أجهزة أمن كثيرة فى تلك الفترة .. ومن بينها جهاز المخابرات الذى كان النقد أساساً موجهاً إليه فى «بنك القلق» .. وفوجئت أن الرئيس جمال عبد الناصر يدعونى إلى لقائه ومعى نسخة مما كتبه توفيق الحكيم لأنه كما قال لى لم يكن قد قرأه .. ولكنه تلقى احتجاجات كثيرة عليه .. وقد وصلت إلى مكتبه فعلاً فوجدت هناك المرحوم المشير عبد الحكيم عامر الذى واجهنى من أول لحظة بغضبه الشديد مما نشرته الأهرام .. وقلت له أمام الرئيس: إننى أعتقد أن ما نشرناه يقع فى دائرة ما نعتقد أنه مسئوليتنا وأنه لا يتعارض مع الأمن القومى ..

«وقال الرئيس عبد الناصر إنه يطلب منا نحن الإثنين أن ننتظر حتى يقرأ الحلقة بنفسه .. وجلسنا ساكنين .. ولكن الحديث بيننا بالإشارة ظل مستمراً .. فالمشير يشير برأسه مصراً على الاعتراض على النشر .. وأنا أشير برأسى إلى ضرورة التانى فى إصدار حكم .. وبما يعنى أن الصحافة يجب أن تمارس دورها خصوصاً على هذا المستوى الفكرى .. وطلب إلينا الرئيس أن نخرج حتى يستطيع أن يقرأ ما يقرأه بهدوء .. وخرجنا إلى صالون مجاور للمكتب .. واتصلت المناقشة بيننا .. ثم دخلنا عندما دعانا الرئيس بعد أن فرغ من القراءة .. وقال إنه يرى استمرار النشر .. وأضاف «إنه لا يستطيع أن يتصور توفيق الحكيم الذى نقد العصر الملكى فى «يوميات نائب فى الأرياف» لا يستطيع نقد العصر الثورى مهما كان الثمن» .. وحسم الموضوع .. واستمر النشر .. أضيف إلى ذلك «ثرثرة على النيل» و «اللعن والكلاب» وغير ذلك مما نشرته للأستاذ نجيب محفوظ» .

وفى مذكراته التى نشرها على لسانه رجاء النقاش يقول نجيب محفوظ: إنه تعرض لغضب المشير عبد الحكيم عامر بعد أن نشر له هيكل رواية «ثرثرة على النيل» .. ولم يعرف نجيب محفوظ بحقيقة ما جرى إلا عندما جاء إليه ثروت عكاشة إليه لتهنئته بجائزة نوبل .. كان ثروت عكاشة وقتها وزيراً للثقافة .. وبينما هو يستعد لرحلة عمل إلى إيطاليا استدعاه جمال عبد الناصر وسأله عما إذا كان قد قرأ الرواية .. ولما لم يكن قد قراها فقد طلب منه عبد الناصر قراءتها وإبداء رأيه فيها بعد عودته من إيطاليا .. وقرأ الدكتور ثروت عكاشة الرواية فى أثناء رحلته .. وفى أول لقاء له مع الرئيس عبد الناصر دافع عنها وفند اتهامات المهاجمين لها .. وأكد للرئيس أن نجيب محفوظ ينبه إلى أخطاء موجودة وليس لديه سوء نية فى مهاجمة نظام الحكم .. ثم قال له: إن من الضروري أن يتوافر للأدب هذا القدر من الحرية لينقل صورة واقعية حقيقية عن المجتمع .. وإذا لم يجد الأدب هذا القدر من الحرية مات وأضمحل تأثيره .. واستطاع ثروت عكاشة إقناع عبد الناصر بأن حرية الأدب هى أفضل دعاية للنظام فى الخارج .. وبالفعل اقتنع عبد الناصر .. وقال لثروت عكاشة «اعتبر المسألة منتهية» . (١٤)

وفى مذكراته يروى نجيب محفوظ أنه شعر بالعجز عن كتابة الرواية منذ عام ١٩٥٢ وحتى عام ١٩٥٧ .. كان قد أنتهى من «الثلاثية» التى استغرقت كتابتها ٤ سنوات متصلة (١٩٤٨ - ١٩٥٢) .. وفيها انتقد المجتمع المصرى وعندما قامت الثورة وتصور أن التغيير الذى ينشده قد حدث تساءل عن جدوى الكتابة .. وكان أن اتجه لكتابة السيناريو مع المخرج صلاح أبو سيف .. وكان أن قرر الزواج فى عام ١٩٥٤ .. ولكن فى عام ١٩٥٧ شعر أن دبيب غريب يسرى فى أوصاله ووجد نفسه منجذباً مرة أخرى ناحية الأدب .. وكانت فرحته غامرة عندما أمسك بالقلم من جديد وكتب رواية «أولاد حارتنا» التى سيطرت عليها أفكار التصوف والدين والفلسفة .. وفى حفل أقامه له إحسان عبد القدوس بمناسبة فوزه بجائزة الدولة فى الرواية عرض عليه على حمدى الجمال نيابة عن هيكل أن ينشر أول رواية يكتبها سلسلة فى الأهرام .. وعندما انتهى من «أولاد حارتنا» ذهب بها إلى الجمال الذى تصور أنها رواية تدور فى حارة فسارغ بنشرها .. ولم يمر على النشر سوى حلقيتين حتى هاجمها كاتب فى الملحق الأدبى لجريدة الجمهورية ووصفها بالإلحاد وطالب بتدخل الرئاسة ومشخة الأزهر لمنعها .. ووقعت أزمة لكن هيكل لم يوقف النشر بل سارع بنشر أكثر من حلقة فى الأسبوع حتى ينتهى من النشر قبل أن يأخذ الأزهر قراراً بمنعها .

ويروى لى أحمد حمروش فى حوار شخصى معه: إنه عندما كان مديراً للمسرح القومى فوجئ بمحرر فى الأهرام لا علاقة له بالمسرح يصف مسرحية يعرضها المسرح القومى لجان بول سارتر بالإباحية والإلحاد .. وينتقد الرقابة لإجازتها النص .. «وذهبت إلى هيكل فى مكتبه بالأهرام القديم وعبرت له عن فزعى مما نشر .. فكان أن قال أنه أشد فزعاً منى لأن أفكاراً مثل هذه الأفكار تسربت إلى صفحات الأهرام» .

وفى نهاية حوار طويل جرى بينهما فى استراحة الرئيس فى «القناطر» قال هيكل لجمال عبد الناصر: «ترى ما الذى أريده من كل هذا الحشد من قادة الفكر والمثقفين الذين حشدتهم فى الأهرام؟ .. إنهم ليسوا مجرد حلى ذهبية أزين بها صدر الأهرام .. ولكنهم وظيفة ودور لا غنى لمصر عنه ولا غنى له عنها .. آراؤهم كلها .. اجتهاداتهم بما فيها من خطأ وصواب .. أفكارهم النافذة إلى كل ركن وناحية من حياتنا الوطنية والقومية .. إثراء لهذه الحياة .. لا حدود له .. كل ما حاولناه وما نحاوله أن ندير على مستوى الوطن كله حواراً مفتوحاً ومسموعاً - ومعمقاً بقدر ما نستطيع - أمام الناس وأمامك أنت أيضاً» .

كان سبب هذا الحوار هو ما جرى ذات سبت من عام ١٩٦٨ للدكتور جمال العطيفى .. لقد أُعتقل بعد نشر مقاله له فى الأهرام عن القوانين التى تصدر وتنشر فى أعداد استثنائية محدودة من جريدة الوقائع المصرية دون أن تعمم على الناس بالقدر اللازم لعلمهم بها .. ورفع هيكل سماعة التليفون وأملى مدير مكتب الرئيس رسالة تتلخص فى أن ما كتبه جمال العطيفى يدخل فى إطار حرية النشر .. وأن ما جرى له يتعارض مع «اتفاقى مع الرئيس بشأن حرية الأهرام وهى جزء من حرية الصحافة أعتبر نفسى مسئولاً عنه مباشرة لأنه من صميم عملى واختصاصى .. إن الأهرام يستمد قيمته من حريته وهى حرية حرصنا عليها دائماً على أن تكون حرية مسئولة .. وفى ممارساتها فإننا نشرنا كثيراً من الآراء المفتوحة لأكبر كتاب مصر مما يجعل الأهرام وقتها حصناً منيعاً لمثقفى مصر .. ثم أن هذه الإجراء العنيف لا يقتصر تأثيره على الأهرام وحده وإنما سوف يمتد تأثيره إلى قضية أوسع هى قضية المثقفين فى مصر .. وأبسط ما يمكن أن أقوله هو أن مثل هذا الإجراء سوف يثير قلقهم وسوف يدفع بكثيرين منهم إلى السلبية والصمت .. وهذه خسارة ضخمة لمصر قبل أى طرف آخر .. وأخيراً فأنى أنا الذى نشرت المقال كرئيس تحرير مسئول فإذا كانت هناك عقوبة فليس كاتب المقال هو الذى يستحقها وإنما المستحق ناشره وهذه قاعدة مسلم بها» .

وشعر هيكل بالجرح مما جرى وانتظر رداً لم يأت من جمال عبد الناصر واقترح عليه أنور السادات أن يتصل مباشرة بالمعلم - وهو اللقب الذى كان يطلقه على عبد الناصر -

ولا يترك المجال بينهما مكشوفاً للآخرين .. ولم تطاوع هيكلي يده ليمسك بالتليفون ويتصل بالمعلم إلا يوم الخميس فدعاه لاستراحة القناطر وكان عنده أنور السادات وحسين الشافعي وعلى صبرى .. وعلى ظهر «ذهبية» راسية على شاطئ النيل بالقرب من الاستراحة قال هيكلي ما قال عن دور الكتاب والمفكرين والمثقفين في الأهرام .. وأنتهى الحوار بأمر واضح مباشر إلى وزير الداخلية: يا شعراوى (يقصد شعراوى جمعة) افرجوا عن جمال العطيفى الآن . (١٥)

وبعد هزيمة يونيو نشر نزار قباني قصيدته الشهيرة (هوامش على دفتر النكسة) التى حولته من شاعر الحنين إلى شاعر يكتب بالسكين .. وقد أثارت القصيدة مشاعر متناقضة بين التأييد والتجريم .. بين الإعجاب والتخوين .. وكان أن صدر قرار من السلطات فى مصر بمنع القصيدة وبمنع دواوين نزار قباني وأغانيه فى الإذاعة وبمنعه هو شخصياً من دخول مصر .. وفى ٣٠ أكتوبر ١٩٦٧ أمسك نزار قباني بالقلم وكتب رسالة شخصية لجمال عبد الناصر قال له فيها: «سيادة الرئيس جمال عبد الناصر .. فى مثل هذه الأيام التى أصبحت فيها أعصابنا رماداً وطوقتنا الأحزان من كل مكان يكتب إليك شاعر عربى يتعرض اليوم من قبل السلطات فى الجمهورية العربية المتحدة إلى نوع من الظلم لا مثيل له فى تاريخ الظلم .. وتفصيل القصة أننى نشرت فى أعقاب نكسة الخامس من حزيران قصيدة عنوانها (هوامش على دفتر النكسة) أودعتها خلاصة تمزقى وكشفت فيها عن مناطق الوجد فى جسد أمتى العربية لاقتناعى أن ما انتهينا إليه لا يعالج بالتوارى والهروب وإنما بالمواجهة الكاملة لعيوبنا وسيئاتنا .. وإذا كانت صرختى حادة وجارحة وأنا أعترف سلفاً بأنها كذلك لأن الصرخة تكون بحجم الطعنة ولأن النزيف يكون بمساحة الجرح» .

ويتساءل نزار قباني: «من منا يا سيادة الرئيس لم يصرخ بعد ٥ حزيران؟ .. من منا لم يחדش السماء بأظافره؟ .. من منا لم يكره نفسه وثيابه وظله على الأرض؟» .. «وماذا تكون قيمة الأدب يوم يجبن عن مواجهة الحياة بوجهها الأبيض ووجهها الأسود معاً؟ .. ومن يكون الشاعر يوم يتحول إلى مهرج يمسح أنيال المجتمع وينافق فيه؟» .

ويستطرد: «لذلك أوجعنى يا سيادة الرئيس أن تمنع قصيدتى من دخول مصر وأن يُقرض حصار رسمى على أسمى وشعرى فى إذاعة الجمهورية العربية المتحدة وصحافتها .. والقضية ليست قضية مصادرة قصيدة أو مصادرة شاعر لكن القضية أعمق وأبعد .. القضية أن نحدد موقفنا من الفكر العربى .. كيف نريده؟ .. حراً أم نصف حر؟ .. شجاعاً

أم جباناً؟ .. نبياً أم مهرجاً؟ .. القضية أن يسقط أى شاعر نحو حوافر الفكر الغوغائى لأنه تفوه بالحقيقة .. والقضية أخيراً هى أن نعرف ما إذا كان تاريخ هـ حزينان سيكون تاريخاً نولد فيه من جديد بجلود جديدة وأفكار جديدة ومنطق جديد .

ويضيف: «لم يكن بإمكانى وبلادى تحترق الوقوف على الحياد فحياد الأدب موت له .. لم يكن بوسعى أن أقف أمام جسد أمتى المريض أعالجه بالأدعية والحجابات والضراعات .. فالذى يحب أمته يا سيادة الرئيس يظهر جراحها بالكحول ويكوى - إذا لزم الأمر - المناطق المصابة بالنار» . «لا أريد أن أصدق أن مثلك يعاقب النازف على نزيفه والمجروح على جراحه ويسمح باضطهاد شاعر عربى أراد أن يكون شريفاً وشجاعاً فى مواجهة نفسه وأمته فدفع ثمن صدقه وشجاعته .. يا سيدى الرئيس .. لا أصدق أن يحدث هذا فى عصرك» .

ولم يطل صمت جمال عبد الناصر ولم تمنعه مشاكله الكثيرة وهمومه التى تجاوزت هموم البشر من الاهتمام برسالة نزار قبانى .. فقد روى هيكى - الذى حمل الرسالة إلى عبد الناصر - أنه وضع خطوطاً تحت أكثر مقاطع الرسالة وكتب بخط يده التعليمات الحاسمة التالية: (١) لم أقرأ قصيدة نزار قبانى إلا فى النسخة التى أرسلها إلى وأنا لا أجد أى وجه من وجوه الاعتراض عليها . (٢) تلغى كل التدابير التى قد تكون اتخذت خطأ بحق الشاعر ومؤلفاته ويطلب من وزارة الإعلام السماح بتداول القصيدة . (٣) يدخل الشاعر نزار قبانى إلى الجمهورية العربية المتحدة متى أراد ويكرم فيها كما كان فى السابق ..

التوقيع: جمال عبد الناصر .

ويقول نزار قبانى: «بعد كلمت جمال عبد الناصر تغير الطقس وتغير اتجاه الرياح وتفرق المشاغبون وانكسرت طبولهم ودخلت (الهوامش) مصر ورجعت أنا إلى القاهرة .. لأجد شمس مصر أشد بريقاً ونيلها أكثر اتساعاً ونجومها أكثر عدداً» .. «لقد كسر الرئيس عبد الناصر بموقفه الكبير جدار الخوف القائم بين الفن والسلطة .. بين الإبداع والثورة .. واستطاع أن يكشف بما أوتى من حدس وشمول فى الرؤية - أن الفن والثورة توأم سياسى ملتصق .. وحصانان يجران عربية واحدة .. وإن كل محاولة لفصلهما سيحطم العربية ويقتل الحصانين» .

- (١) هيكل: «بين الصحافة والسياسة» - مرجع سبق الإشارة إليه - ص ٦٣.
- (٢) المرجع السابق - ص ٦٥.
- (٣) المرجع السابق - ص ٦٦.
- (٤) المرجع السابق - ص ٧٠.
- (٥) و (٦) المرجع السابق - ص ٧١.
- (٧) الحوار مستخلص من المرجع السابق - ص ٧٢.
- (٨) سمير صبحي: «الجورنالجي» - مرجع سابق - ص ٢٥.
- (٩) مجلة الدستور اللندنية - العدد رقم ١٥٤ بتاريخ ٢٤ سبتمبر ١٩٧٣.
- (١٠) سمير صبحي: المرجع السابق - ص ٩١.
- (١١) المصدر السابق - ص ١٣٠.
- (١٢) هيكل: وقائع تحقيق سياسي أمام المدعى الاشتراكي - الناشر شركة المطبوعات للتوزيع والنشر - الطبعة التاسعة - ١٩٨٨ - ص ٢٢٤.
- (١٣) المصدر السابق: ص ٢٢٥.
- (١٤) رجاء النقاش: نجيب محفوظ - صفحات من مذكراته وأضواء جديدة على أدبه وحياته - الناشر: الأهرام - ١٩٨٨.
- (١٥) هيكل: السلام المستحيل والديمقراطية الغائبة - رسائل إلى صديق هناك - الناشر: شركة المطبوعات للتوزيع والنشر - بيروت - ١٩٨٦ - ص ٣١٦.

مثل قصة بوليسية مثيرة

■ فى صيف ١٩٧٨ .. وعلى مدى ٣٠ ساعة من «التحقيق السياسى» واجه هيكل أسئلة المدعى العام الاشتراكى المستشار أنور حبيب فى مبناه المثل على ميدان «لاظوغلى» .. كان التحقيق بين سؤال وجواب لا يتناول وقائع أو أحداث وإنما يتناول آراء وأفكار .. كان الخلاف بينه وبين الرئيس أنور السادات قد وصل إلى «حائط سد» .. ولم يكن أمام السياسة إلا أن تحاكم الصحافة - بعد أن تقطعت الأوصال بينهما - بأثر رجعى .. وكانت مقالات هيكل التى كتبها فى الأهرام تحت عنوان «بصراحة» هى عريضة الاتهام .. أو هى عريضة محاكمة من نوع انقرض .. كان يُعرف فى العصور الوسطى بمحاكم التفتيش .

وكان المدعى العام الاشتراكى قد حاول أن يبنى تحقيقه السياسى من خلال التفتيش فى الأحاديث الصحفية والتلفزيونية - العربية والأجنبية - التى أدلى بها .. لكن هيكل قال له: إن من الصعب أن أتذكر الأحاديث .. خصوصاً فى التلفزيون .. فما يعرض فيه قد لا يكون مسجلاً فى الأرشفة .. ومع ذلك فإن أى كاتب له مواقف واضحة ثابتة وخطوط مستمرة .. وما يقوله فى أحاديثه لا يمكن أن يقول نقيضه فى مقالاته .. إننى كتبت حتى الآن أكثر من ١٥٠٠ مقال تحت عنوان «بصراحة» .. وهذا فى اعتقادى كافياً لأى مناقشة أو حساب .

كان مقال «بصراحة» الذى كان يكتبه هيكل هو أشهر مقال صحفى ظهر فى النصف الأخير من القرن العشرين فى الصحافة المصرية .. فقد كانت الإذاعة المصرية تقرأه كاملاً فى يوم صدوره .. وكان رأى العام فى الداخل والخارج يؤمن بأن ما فى المقال هو ترجمة جذابة لما فى عقل جمال عبث الناصر من أفكار وبرامج فى كثير من الأحيان .

وقد كتب هيكل فى منتصف الأربعينات فى «آخر ساعة» تحت عنوان «البحث عن المتاعب» .. وعندما تولى رئاسة تحريرها فى بداية الخمسينات كان يكتب تحت عنوان «أحداث الساعة» .. وبعد أيام من توليه رئاسة تحرير الأهرام .. وبالتحديد فى ١٥ أغسطس ١٩٥٧ بدأ فى كتابة أول مقال له تحت عنوان «بصراحة» .. وكان المقال بعنوان «السر الحقيقى فى مشكلة عُمان» .. عن مشكلة الصراع فى جنوب الجزيرة العربية بين إمارتى مسقط وعمان .. أما آخر مقال كتبه «بصراحة» فكان بعنوان «الظلال .. والبريق» .. عن السياسة الأمريكية فى الشرق الأوسط بعد حرب أكتوبر .

لم يكن مقال «بصراحة» فى البداية بنفس الصورة التى استقر عليها قبل أن يختفى .. لقد أختفى المقال وهو يشغل مساحة عمودين من الصفحة الأولى ليستكمل فى الصفحة الثالثة (من ألفين إلى ألفين وخمسمائة كلمة) .. وب نفس التصميم نشر رؤساء تحرير الأهرام بعد هيكل مقالاتهم ..

أيضاً .. لم يكن مقال «بصراحة» فى البداية بنفس المساحة التى استقر عليها فيما بعد .. كانت مساحة المقال فى البداية لا تزيد عن مساحة عمود فى الجريدة .. وربما أقل أى من حوالى ٤٠٠ إلى ٧٠٠ كلمة .. وأحياناً كان المقال يكتب فى نصف هذه المساحة .. لكن .. فيما بعد ذلك .. كان ما يريد أن يقوله هيكل لا يكفى مقال واحد .. كان يحتاج إلى سلسلة مقالات .. ومن ثم كان نشر «بصراحة» فى كثير من الأحيان يكون كل يومين .. أو ثلاثة أيام .. وليس فقط كل «جمعة» كما اعتاد القراء .. وكانت أول سلسلة مقالات نشرها هيكل هى «العقد النفسى التى تحكم الشرق الأوسط» .. وقد استمرت ٧ حلقات .. ابتداء من ١١ يناير ١٩٥٨ .. أما أشهر هذه السلاسل فهى .. «رأيت الدنيا على حافة الهاوية» .. خمس حلقات ابتداء من ٢٢ يوليو ١٩٥٨ عن رحلة رافق فيها جمال عبد الناصر على ظهر اليخت «الحرية» إلى يوغسلافيا .. و «البحث عن نهاية الفصل الأول» وهى ٧ حلقات ابتداء من ٧ ديسمبر ١٩٥٨ عن الصراع بين القوسية العربية والغرب .. و «أسرار من مذكرات أيدن» وهى ٧ حلقات ابتداء من ٢١ يناير ١٩٦٠ .. و ٤ حلقات غير متصلة عن «أزمة المثقفين» .. ابتداء من ٢ فبراير ١٩٦١ .. و ٩ حلقات عن حقيقة الانفصال السورى عن مصر بعنوان «حديث صريح عن التجربة الأولى للوحدة» ابتداء من ١٣ أكتوبر ١٩٦١ .. وأكبر مسلسل نشره هيكل تحت عنوان «بصراحة» كان المحاضر الرسمية لجلسات محادثات الوحدة الثلاثية .. وكان ٢٦ حلقة .

وتحت العنوان نفسه نشر هيكل الرحلة التي قام بها إلى أفريقيا على ٧ حلقات ابتداء من ٥ نوفمبر ١٩٦٥ .. والرحلة التي قام بها إلى آسيا على ٦ حلقات ابتداء من ١٨ فبراير ١٩٦٦ .. والرحلة التي صحب فيها الزعيم السوفيتى نيكيتا خروتشوف من موسكو إلى القاهرة على ٤ حلقات ابتداء من ٨ مايو ١٩٦٤ .

أما أطول مسلسل سياسى كتبه هيكل فكان «نحن وأمريكا» .. على ١١ حلقة ابتداء من ٢٤ فبراير حتى ١٢ مايو ١٩٦٧ .. وكان يمهد للصراع المكتوم بين مصر وإسرائيل والذي انفجر فى صباح ٥ يونيو ١٩٦٧ .. وقد انتهت هذه الحلقات بمقال كتبه هيكل قبل الحرب بثلاثة أيام بعنوان «الصراع الذى يدور فى التفكير الإسرائيلى الآن» .. ومن أغسطس ١٩٥٧ وإلى يونيو ١٩٦٧ يمكن أن نلخص مقالات هيكل فى الموضوعات التالية:

١- مواجهة ساخنة ضد النظم العربية المحافظة أو الرجعية - على حد الوصف الذى شاع وقتها - فى الخليج والأردن والسعودية .

٢- مواجهة بنفس السخونة للنظم العربية الثورية المعادية للناصرية مثل العراق أيام عبد الكريم قاسم .. والجزائر فى بداية انقلاب هوارى بومدين على أحمد بن بيل .

٣- نقد حاد للسياسة الغربية .. الأمريكية واعتبراها القوة الدافعة الوحيدة لدول العالم الثالث ناحية الاتحاد السوفيتى .

٤- دفاع عن سياسة عدم الانحياز وترويج لها باعتبارها الفرصة الوحيدة لدول العالم الثالث لكى تجد لها مكاناً دافئاً آمناً تحت الشمس .. تتنافس عليها الدول الكبرى .. بدلاً من أن تجد نفسها فى ركبتها وأسيرتها .

٥- كشف طبيعة المجتمع والنظام السياسى والعسكرى فى إسرائيل ومتابعة تطوراتها بما ذلك توصله للقنبلة الذرية .

٦- متابعة دقيقة لما يجرى فى دول عربية كانت تراهن عليها مصر فى ذلك الوقت مثل سوريا ولبنان .. ثم ليبيا بعد ثورة العقيد معمر القذافى .. واليمن بعد ثورة العقيد عبد الله السلال .

٧- التعرض بدرجة أقل وحسب الظروف الملحة لقضايا العمل الداخلى مثل دور المثقفين فى ظل النظام الثورى .. ومشاكل القطاع العام .. وطبيعة الديمقراطية فى ظل التحولات الاشتراكية .. ودور الصحافة فى ظل هذه التحولات أيضاً .. وضرورات تقديم الميثاق الوطنى .. وضرورات إعادة تشكيل الاتحاد الاشتراكى .. التنظيم السياسى الوحيد .

٨- دور الفرد أو دور البطل فى التاريخ مع تطبيق مباشر على جمال عبد الناصر .

وقبل أن نتوقف عند القضايا المصيرية التى تناولها هيكل (خاصة قضايا الحريات والصحافة والديمقراطية والمثقفين ودور الفرد فى التاريخ وهى القضايا التى كان حسابه عليها فيما بعد) نتوقف عند لحظات الحرج التى تعرض لها عندما فرضت عليه الظروف أن يوجد وجها لوجه أمام الحكام العرب الذين جلد سياساتهم وأشخاصهم بقلمه.

فى ٢٧ سبتمبر ١٩٦٣ روى هيكل هذه القصة التى وصفها بأنها «كقصة بوليسية مثيرة جرت مشاهدتها فى باريس» .. ويستطرد: «وقع المشهد الأول فى نفس اللحظة التى وصلت فيها إلى فندق «الكريون» الواقع على نقطة التقاء «الشانزليزيه» بميدان «الكونكورد» فى قلب العاصمة الفرنسية .

«وجدتني أوقع باسمى فى سجلات الفندق محاطاً بجو غريب .. نظرات فاحصة وأسئلة لا مبرر لها ثم تدقيق فى جواز السفر كأنما الذين امسكوا به يقلبون صفحاته ويعيدون تقليبها يريدون أن يحفظوا كل حرف فيه .. وبعد دقائق نزلت إلى صالون الفندق على لقاء مع الصديق صلاح بسيونى (فيما بعد اختلف معه هيكل بعد أن أصبح مسئولاً عن جمعية السلام بين مصر وإسرائيل) سكرتير السفارة المصرية فى باريس» .. «وفجأة أحسست للمرة الثانية بنفس الجو الغريب يحيط بى .. وقلت لصلاح بسيونى: هل تعرف هذا الرجل الغريب الواقف هناك لا يرفع بصره عنى أو يحوله؟ .. ونظر صلاح بسيونى إلى الرجل وبدأت على ملامحه إشارات عجب وقال: هذا مسئول البوليس السرى الفرنسى المكلف بالقسم العربى .. وهو فعلاً فيما يبدو ينظر إليك؟؟ ولم تكد العبارة تنتهى حتى وقع شئ أغرب .. أقبل ستة رجال طوال عراض ووقفوا صفّاً واحداً أمام باب الصالون الذى كنت أجلس فيه وأغلقوه تماماً بأجسادهم وكانت ظهورهم جميعاً نحونا إلا واحد فى نهاية الصف كان وجهه إلينا وإحدى يديه فى جيبه يمسك فيها بشئ لا نراه لكن تصويره ميسور من الشكل العام للمشهد الذى نجده أمامنا .. مسدس أغلب الظن .

«ووضعت ما كان بيدى من أوراق على منضدة أمامي وقلت: زادت المسألة ولم تعد مفهومة .. وقال زميلى: بيدك الحق .. لم أر من قبل ما أراه الآن .. على أى حال من الخير أن لا تتحرك وأن ننتظر بعض الوقت لعل الغامض ينجلي .. وتناهت إلى أسماعنا حركة فى البهو أمام الصالون الذى كنا نجلس فيه وبعدها بقليل تفرق الرجال الستة الذين كانوا يسدون الباب علينا وبدأ وكأن الحصار المضروب علينا قد توقف .. ونهض صلاح بسيونى

يقول لى: دعنى أسأل ما الذى يجرى هنا؟ .. وعاد بعد دقائق ضاحكاً وقال وهو يتخذ مقعده: يبدو أنهم يعتبرونك إرهابياً خطراً أتى إلى هنا ليدبر جريمة اغتيال سياسى .. قلت بدهشة: اغتيال سياسى لمن؟ .. قال: للملك حسين ملك الأردن .. يظهر أنه ينزل هنا فى نفس الفندق معك .. وقد وصل قبلك بساعة واحدة .. لقد كان أحد أفراد حاشيته أول من رآك وأنت تنزل من التاكسى الذى وصلت به إلى الفندق فأسرع وأبلغ مسئول البوليس الفرنسى المرافق للملك أنك من أعدائه وأن وصولك إلى الفندق الذى ينزل فيه وبعد وصوله بساعة ينذر بشر مستطير .. ويظهر أن مسئول البوليس الفرنسى ذهب إلى أحد الوزراء المرافقين للملك وسأله عما إذا كنت فعلاً من أعدائه الخطرين فإذا الذعر يركب الوزير الأردنى إلى الدرجة التى حملت مسئول البوليس السرى الفرنسى على أن لا يترك شيئاً للصدفة فى سبيل حماية الملك منك .

«وعدت فى الليل إلى غرفتى وأقنعتنى النظرة الأولى إليها - وتجارب كثيرة سابقة - أن الغرفة جرى تفتيشها بدقة وحرص فى الوقت نفسه وقلت لنفسى: فى الصباح أترك الفندق كله إلى غيره تجنباً للمشاكل .. على أن محاولة البحث فى الصباح أقنعتنى أن الزحام فى باريس أقوى من شكوك مرافقى الملك حسين ووزرائه فى نوايا الإرهابية .. وقلت لنفسى: على أى حال لن يرونى فى الفندق كثيراً إن عملى كله خارجه وسوف تقنعهم التجربة أن ملكهم ليس هدفاً من أهدافى فى باريس .. لكن مساء ذلك اليوم وضعتنى الظروف وجهاً لوجه مع الملك حسين .. فقد كان يجلس فى صدر صالون دخلت إليه مع أريك رولو رئيس قسم الشرق الأوسط فى صحيفة الموند الشهيرة .. ولقد حاولت أن لا أنظر إلى اتجاه الملك ثم جلست مع أريك رولو على مقعد يتجه بظهره ناحية الملك .. لا رغبة فى إساءة ولكن تحاشياً لأى لبس .. وقال رولو هامساً: لقد كان الملك يبتسم لك ساعة دخلت .. قلت: خير من بعض رجاله الذين يظنون أنى قدمت إلى هناك فى مؤامرة عليه .. لقد لمحته بطرف عين يبتسم لكننى أدت ظهري وجلست بهدوء .. ولحقت بنا بعد قليل روزى زوجة رولو وخرجنا إلى عشاء فى مطعم صغيراًقيم فى قبو من أقبية جزيرة «لويس» بنى فى القرن الخامس عشر ومازال على حاله من يومها .

«وفى الساعة الواحدة بعد منتصف الليل دق التليفون فى غرفتى وكنت قد دخلتها قبلها بدقيقة أو على الأكثر دقيقتين ورفعت السماعة لأتلقى سؤالاً باللغة العربية عنى قلت: نعم .. هو .. كان المتكلم هو الكولونيل عمر المدنى الملحق العسكرى الأردنى فى سوريا ولبنان .. وطلب أن يقابلنى .. وأصر على أن يكون اللقاء فى غرفتى فى التاسعة

صباحاً على أن لا يأخذ منى سوى عشر دقائق .. وجاء فى موعده تماماً .. ودخل وهو يرتدى ملابس مدنية قاتمة وقلت محيياً: أهلاً وسهلاً .. يؤسفنى أن أستقبلك فى غرفة نوم لكن هكذا أردت أنت .. قال: لا بأس .. نحن أخوة وإن فرقتنا السياسة .. وأحس أننى أنظر إليه مترقباً فقال على الفور: سوف أدخل فى الموضوع مباشرة .. إننى أعتبر نفسى .. وأفخر بذلك .. خادماً للملك حسين .. هل ترانى مخطئاً فى شعورى نحو الملك؟ .. قلت له: ليس ذلك شأنى .. مهما يكن فأنا أحترم الناس فى آرائهم قدر احترامى لحقى فى رأى .. قال: قرأت كل ما كتبتة عنه فى «صراحتك» لكنك .. أستاذ .. تظلمه .. قلت: ربما .. لكننى مخلصاً .. أصوره كما أراه .. ولقد يكون ما أراه هو الصواب .. ولقد يكون هو الخطأ .. لست أملك الحقيقة المطلقة .. لكننى أملك ما أراه منها .. أو هكذا أحاول جهدى .. قال: لماذا لا تقابله؟ .. قلت: قابلته كثيراً من قبل لأحاديث طويلة وأنا هنا الآن فى باريس فى رحلة لا علاقة لها بالعالم العربى ومشكلاته .. قال: هل تريد أن تقول أن وجودك فى باريس فى نفس الفندق مع الملك مجرد صدفة؟ .. قلت على الفور: أقسم لك أننى عندما اكتشفت وجوده هنا فكرت فى تغيير الفندق وإذا كنت لم أفعل ذلك فبسبب الزحام فى باريس .. قال: هى على كل حال إذن صدفة سعيدة ولا يجب أن نتركها تمر دون فائدة .. إن الملك رآك أمس وابتسم لك لكنك أدت وجهك .. قلت: لم يكن ذلك سوء سلوك ولكن تفادياً لأى لبس .. قال: هب أن الملك هو الذى يريد أن يقابلك .. قلت: إن الملك مهما كان خلافى معه رئيس دولة عربية وأنا مواطن عربى .. وحين يطلببنى .. خصوصاً إذا كنا نحن الإثنين فى الخارج .. فأنا رهن إشارته .

وفى الساعة التاسعة والنصف جرى اللقاء بين هيكى وحسين .. وكان هيكى حريصاً على أن يأخذ من الملك اعترافاً أن اللقاء جاء بناء على رغبة منه .. وأنه لن تكون فيه ألقاب ملكية انتهت من مصر بعد الثورة .. ومع السجائر والشاى الذى قدمهما الملك لهيكى جرى الحوار الذى كان أهم قال فيه الملك أن السعوديين ليسوا أصدقاءه وأنه يختلف معهم كثيراً .. وأن حزب البعث هو سبب الوقيعة بين مصر والأردن .. وأن بترول العرب لا يذهب خيره إلى العرب .. وفى النهاية قال الملك : هل ضايقتك بإصرارى على الاجتماع بك؟ .. وقال هيكى: أبداً .. أنت تعرف شعبنا .. إننا نختلف مع الناس ولكن بغير حقد عليهم .. بل قد نحارب سياستهم ولكن بغير كراهية لهم وبغير غل .. قال باسمأ: لقد عشت فى مصر سنوات حلوة (يقصد سنوات دراسته فى كلية فيكتوريا بالإسكندرية) .. وأنهى هيكى الحوار قائلاً: «وصافحت يده الممتدة ... ومشيت» .

وفى عام ١٩٦٥ عندما بدأت بؤادر الصلح بين القاهرة والرياض بعد أن وصل الخلاف بينهما إلى حد الحرب المسلحة فى اليمن كان على هيكى أن يرافق جمال عبد الناصر إلى جدة .. إن السياسة تتخاصم وتتصالح .. وفى النهاية تبقى الكتابة والصحافة هى التى تقف فى الحلق والزور .. تبقى الكتابة والصحافة وقد أحاط بهما هواجس الجميع وانتقاداتهم .. وهو ما يعنى حرجاً على الكاتب أن يخرج منه وإلا اتهم بأنه أداة فى يد السياسة تستخدمه هراوة فى الخصام وتستخدمه غصن زيتون فى اللئام .

فى ٢٧ أغسطس فى ذلك العام كتب هيكى مقالة «بصراحة» بعنوان «كنت فى جدة» قال فيه: «ذهبت هذا الأسبوع إلى جدة مع عشرات الصحفيين العرب والأجانب أتابع عن قرب أنباء مسعى السلام الذى أثر جمال عبد الناصر أن يقوم به قبل أن تصل الأمور إلى الحافة .. وإلى الخطر .. ولقد تعودت دائماً أن أكون على استعداد للرحيل فى أى وقت وإلى أى مكان وراء الحوادث - أو قبلها إذا استطعت - ومع ذلك أعترف أن فى هذه الرحلة إلى جدة بالذات ساورنى تردد لم أواجهه من قبل ..

«إن لى مواقف إزاء أشخاص وتصرفات فى السعودية .. وأنا أعرف سلفاً أن هذه المواقف قد أغضبت البعض هناك .. ومن هنا فلقد يبدو ذهابى إلى المملكة أمراً غير مرغوب فيه خصوصاً وأن النظرة الذاتية فى الشرق العربى مازالت - قبل النظرة الموضوعية - تلون الرؤية كما يشاء الهوى .. ولقد رجحت فى النهاية أن أذهب وفى ذهنى اعتباران .. الأول: أننى ذاهب وراء الحوادث ومن أجلها والحوادث هذه المرة كبيرة ومضاعفاتها المحتملة خطيرة ولا يملك أى صحفى مهما كانت أسباب الحرج أن يبقى بعيداً يبنى أحكامه على السمع وينقل روايته عن الأطراف البعيدة عن مسرح التاريخ .. والثانى: إن الالتزام الأصيل للصحفى ليس أمام الذين يكتب عنهم وإنما الذين يكتب لهم مهما كانت أسباب الحرج مرة أخرى .. هكذا .. أثرت الذهاب إلى جدة .. مع إنى - كما قلت - لى مواقف إزاء أشخاص وتصرفات فى السعودية إلا أننى - وبغير تحفظ - على أتم استعداد لأن أتحمس من قلبى لعودة العلاقات الطبيعية بين الجمهورية العربية المتحدة والسعودية .. والعودة للطبيعة لا تنفى وجود الخلاف بل أن أسباب الخلاف فى الطبيعة ذاتها» .

أكثر من ذلك .. كان اختفاء مقال «بصراحة» فرصة للقليل والقال .. للقول والتقول لخصومه .. يفتحون اجتهادات تختلط فيها الشائعات بالأمنيات .. لقد اضطرت ظروف هيكى أن يسافر إلى لندن لمدة ثلاثة أسابيع لإجراء جراحة فى عين طفله «على» عندما كان صغيراً فى يوليو ١٩٦٥ .. وقد فتحت هذه الإجازة الإجبارية الضاغطة من الكتابة الأبواب

على مصارعها للإيحاء بأن هيكـل قد وقع فى خلاف مع جمال عبد الناصر وأنه حُرِّم ومنع من الكتابة .. بل ووصل الأمر إلى حد تصور أنه قد أُعتقل .

وعندما عاد هيكـل إلى الكتابة كان لابد أن يشرح ما جرى لوقف نزيـف التكهنات والاستنتاجات .. قال فى مقال نشره فى ٦ أغسطس ١٩٦٥ بعنوان «بعد زيارة لندن»: «لابد أن أقدم شكرى غالياً وعزيزاً للذين شغلوا أنفسهم بأمرى خلال ثلاثة أسابيع لم أكتب فيها هذا الحديث (يقصد بصراحة) أكثرهم رعاهم الله قبلوا عذرى بأننى كنت فى لندن لزيارة خاصة وأكاد أقول شخصية .. وأقلهم خصوصاً فى صحف دمشق وفى بعض صحف بيروت وفى إذاعات إسرائيل تمنعوا فى قبول هذا العذر وأصروا على أن هناك أسراراً أخرى وعلى أن وراء الأكمة ما وراءها .. ومع أننى لم أترك سرّاً يبقـى عن سبب زيارتى للندن .. فإن عشاق الأسرار أصروا على وجودها .. وإذا لم تكن فى أغراضى فلا بد أن تكون فى أغراضهم ..

«وخلال ثلاثة أسابيع فإننى أتوقف لأنفى كل ما راحوا يتصورونه أو يصورونه عن مهمتى فى لندن وعن أسبابها .. ولا أستطيع أن أنكر على كل حال أننى استمتعت إلى أقصى حد بكل الضجة التى أثاروها من حولى .. شئ ما فيها كان مرضياً لشئ ما فى .. لعله الغرور .. أعترف وأستغفر» .

وهكذا .. كان نشر «بصراحة» يثير الجدل .. وعدم نشرها أيضاً .. ولعل هذا ما جعل هيكـل يقول فيما بعد .. خير للكاتب أن يسأل الناس لماذا لا يكتب عن أن يسألوا لماذا يكتب؟ .. والأفضل أن يكون الكاتب مثاراً للتساؤل دائماً سواء كتب أم احتجب .

محكوم علينا تكرار التاريخ

■ كان هيكل برفقة جمال عبد الناصر على ظهر الباخرة الحرية فى رحلة العودة بعد زيارة شهيرة جرت إلى يوغسلافيا فى شهر يوليو ١٩٥٨ .. «كانت الباخرة الحرية تتقدم فى جو الهدوء المخيف على أمواج البحر الأديراتيكي متجهة إلى البحر المتوسط» .. فى ذلك الوقت وقعت ثورة العراق التى قام بها عبد الكريم القاسم .. وأعقبها اندفاع القوات الأمريكية البحرية من الأسطول السادس إلى شواطئ لبنان .. ثم اندفاع الطيران البريطانى عبر إسرائيل لإنزال آلاف من جنود المظلات البريطانية لحماية عرش الأردن .. كان الجو الدولى على حد وصف هيكل «مكفهرأ» (١) .. وكان «العالم العربى واقفاً على حافة الحرب» .

كانت الباخرة فى طريقها إلى الإسكندرية .. وكانت فى تلك اللحظة من بعد ظهر يوم ١٤ يوليو تتقدم نحو البحر المتوسط الذى يسيطر عليه الأسطول الأمريكى والأسطول البريطانى من بعده .. وبعثت القاهرة تطلب - لدواعى السلامة - أن يتجه الرئيس إلى الشاطئ اليوغسلافى وأن يركب من هناك طائرة محسرية أو يوغسلافية تعود به مباشرة - تحت ستار الليل - إلى الوطن فى ساعات بدلاً من ثلاثة أيام معرضة مكشوفة فى البحر .. وكان ذلك هو نفس الرأى فى يوغسلافيا .. حيث بعث المارشال جوزيف تيتو إلى عبد الناصر يرجوه فيها أن لا يتقدم فى هذه الظروف إلى البحر المتوسط .. وفى ذلك الوقت أحست المدمرة اليوغسلافية التى تتولى مرافقة الباخرة الحرية لدى عبورها الأديراتيكي أن هناك محاولة استطلاع من الجو .. ومن ثم أعطت إشارة الإنذار وطلبت إطفاء جميع الأنوار فى «الحرية» كما أطفأت هذه المدمرة بدورها جميع أنوارها .. وساد البحر كله ظلام مخيف .

ولم تمر دقائق حتى دعا عبد الناصر وزير الخارجية فى ذلك الوقت الدكتور محمود فوزى إلى الاجتماع به فى مكتبه على سطح الباخرة .. وقال له: «لقد خطر لى رأى فكرت فيه اليوم طويلاً وأريد أن أستشيرك فيه» .. واستعرض عبد الناصر الموقف السياسى والعسكرى كله ثم خلص بنتيجة وهى أن حركة القومية العربية مقبلة على معركة عنيفة .. ثم قال فى النهاية: «لقد خطر لى أن نعود إلى الشاطئ اليوغسلافى ولكن لا لنركب طائرة بالليل إلى مصر وإنما أريد أن أذهب لمقابلة خروتشوف فى موسكو كي أتحدث إليه وأعرف على وجه التحديد ما هو موقف الاتحاد السوفيتى من احتمالات الحرب فى الشرق الأوسط» .. واستطرد عبد الناصر وهو يمسك بورقة كان قد كتبها وقال: «إن هناك عوامل تحبذ هذا الرأى وعوامل أخرى تعارضه» .. وبدأ يقرأ تقديره للموقف من الناحيتين .. التحبيز والمعارضة .. ثم التفت إلى الدكتور فوزى وقال: «والآن أريد رأيك» .

طلب الدكتور فوزى مهلة للتفكير .. ووافق عبد الناصر على ساعة .. وخرج الدكتور فوزى من الغرفة .. ولحه هيكل بعد ذلك يسير على ظهر الباخرة يداه وراء ظهره وعيناه تتطلعان إلى ظلام البحر المخيف .. ومضت نصف ساعة .. وعاد الدكتور فوزى إلى مكتب عبد الناصر وقال له: «لقد فكرت بكل طاقتى واستعرضت كل الأسباب المؤيدة لهذا الرأى والمعارضة له ولم أستطيع أن أرجح فيها جانباً على جانب آخر .. إن الحساب الدقيق لهذه الخطوة متوازن .. وفى رأى أننا فى لحظة من تلك اللحظات التى لا يمكن أن تخضع التصرفات فيها للحساب الدقيق وحده وإنما لابد لها بجانبه من شئ آخر لا يستطيع أن يقرر فيه غيرك» .. وساد الصمت دقائق .. ثم قال عبد الناصر: «إذن على بركة الله نذهب إلى موسكو» .. ثم بعث رسالة إلى خروتشوف وأصدر أمراً بأن تستدير الباخرة عائدة إلى الأدرياتيكى فى اتجاه بولا حيث يركب طائرة إلى موسكو .

والتقى هيكل بالدكتور فوزى على ظهر الباخرة بعدها .. وراجا يسيران معاً حول الباخرة كلها .. وكان حديثهما عن دور البطل فى حياة أمته .. «بل ضرورة البطل فى حياة أمته فى بعض مراحل التاريخ» على حد صياغة هيكل .. الذى يستطرد: «حاجة الأمة إلى رجل غير عادى يرى بالحساب الدقيق كل الاحتمالات فى اللحظة الحاسمة من التاريخ ثم يتخذ قراره .. لا على أساس من الحساب الدقيق وحده وإنما على شئ آخر معه .. من شئ غامض مثير .. من صلة غير عادية تربطه بضمير أمته وتنقل إليه عن هذا السبيل قدرة على تحدى المستحيل وعلى تحمل مسئوليات ليست لها حدود فى مواجهة أهوال ليس لها آخر» .

إن هيكل من المتحمسين لدور البطل - أو القائد أو الفرد - فى التاريخ ومن المؤمنين به .. ولم يكن حماساً أو إيماناً مؤقتاً ارتبط بفترة صعود جمال عبد الناصر وأنتهى بفترة شحوبه ثم رحيله .. وإنما بقى حماس وإيمان هيكل بدور الفرد من الأفكار التى لم يغيرها .. وإن كان قد ناقشها بعمق أكثر فيما بعد .

ولا جدال أن هذه النظرية فى تفسير التاريخ يعتبرها البعض «نوعاً من الهرطقة السياسية» .. خاصة الماركسيين الذين يؤمنون بالاحتمية التاريخية التى تبدأ بسيطرة الإقطاع وتنتهى بسيطرة البروليتاريا عبر صراع طبقي تصادم فيه رأس المال والعمل حول أدوات وعلاقات الإنتاج .. وفى هذا الإطار «الحديدى» يغيب دور الفرد فى التاريخ الذى يصفونه بأنه «اختراع برجوازي» .. ويظن هيكل أن مثل هذا التفسير يتعسف مع التاريخ .. «وأول شاهد على تعسفه أنه يوقع أصحابه فى تناقض محرج .. ذلك أن مجتمعات هذه النظرية كانت بعينها المجتمعات التى استفحلت فيها عبادة الفرد .. ولست أرانى فى حاجة لأن أشير إلى الهالات المقدسة التى أحاطت برجال مثل كارل ماركس وفلاديمير اليتش لينين» (٢)

وتختلف قضية «عبادة» الفرد عن قضية «دور» الفرد فى التاريخ .. ولا تلغى أى نظرية سياسية هذا الدور .. «فالظاهرة موجودة ومتكررة عبر القرون الممتدة وليس لذلك كله معنى إلا إشارة إلى قانون يحدث أثره كلما توافرت شروطه .. لكن أحداً لم يصل بعد إلى صياغة كاملة له .. وهكذا يبقى دور الفرد فى التاريخ مفتوحاً لإجتهدات واسعة تحاول اكتشاف ظروفه وشروطه وتجرب صياغتها» .

هناك مدرسة قديمة ترى «أن دور الفرد ليس مجرد قانون ولكنه هو القانون» .. وهناك مدرسة حديثة ترى أن ظاهرة دور الفرد فى التاريخ تتلازم مع التخلف .. أما المجتمعات السابقة إلى الرقى فإنها لا تحتاجه .. لأن حياتها أصبحت تركز إلى شرائع دستورية تتجاوز هذا الدور .. ولا تحتاجه إلا فى وقت أزمة أو محنة عارضة .. ونستون تشرشل فى بريطانيا فى وقت الحرب العالمية الثانية .. شارل ديغول فى الوقت نفسه لكن فى فرنسا .

ويفضل هيكل وهو يناقش هذه القضية أن يعود بالتخصيص إلى عبد الناصر .. ويروى أن هذه القضية كانت موضوع حوار ذات يوم بينه وبين الزعيم الفلسطينى صلاح خلف (أبو أياد) بعد رحيل عبد الناصر بحوالى ١٠ سنوات .. كانا يجلسان فى شرفة مكتب هيكل يجوبان العالم بالحديث .. ثم فجأة ساد صمت شرد فيه كل منهما .. ثم إذا أبو أياد يقول وكأنه يحدث نفسه: «هل ينقل أن يغيب رجل واحد من ساحة أمة فتختلف

أمورها إلى هذا الحد؟ .. وفهم هيكل إشارته .. وتركه يستطرد قائلاً: «لم يكن في مقدور أحد أن يقنعني أن فرداً واحداً يمكن أن يكون له تأثير لولا أن الحقيقة أمامنا: قبله كنا في حال وفي وجوده أصبحنا في حال وبعده ها نحن كما ترى .. حالنا يصعب على الكافر».

* * * *

ويلخص هيكل دور عبد الناصر التاريخي: «رجل أعطته أمته يقيناً متجدداً بأنها موجودة وأعطى لهذا اليقين المتجدد بالوجود حركته التاريخية وأنجز بهذه الحركة مهاماً كبيرة على أرضها وحول أرضها وفي العالم» .

ويضيف: «إن الاعتراف لأي رجل تاريخي بدوره لا يعطى هذا الرجل - جمال عبد الناصر أو غيره - أكثر مما يستحق .. ثم هو لا ينزع عنه صفته كبشر معرض للصواب والخطأ .. وللنصر والهزيمة .. لكن معيار الحكم على هذا الرجل لا يكون بحساب مرات الصواب والخطأ ولا مرات النصر والهزيمة وإنما يكون المعيار هو: إلى أي مدى أستوعب الرجل حلم أمته وجسد أرائدها وحرك هممها .. ليس معنى ذلك أن الصواب والخطأ لا قيمة لهما وأن النصر والهزيمة لا حساب عليهما وإنما معناه أن تقييم الدور التاريخي له معادلات مختلفة .. والدليل على ذلك أن أي دور عادي ينتهي بانتهاء عمر صاحبه وأما الدور التاريخي فإنه يظل قضية حتى بعد انتهاء عمر صاحبها» .

وفي العصر الحديث فإن ونستون تشرشل مازال قضية وكذلك جوزيف ستالين وشارل ديغول وماوتسي تونج وجمال عبد الناصر .. لكن هيكل يرى أن قضية جمال عبد الناصر كانت ومازالت أعقد .. «ربما لأن الحركة التاريخية التي قادها لا تزال في مفترق طرق حين غاب عنها .. ربما لأن الحركة التاريخية التي قادها أثرت في منطقة لها حساسية خاصة بفعل الموقع والموارد .. ربما لأن الحركة التاريخية التي قادها تصادمت مع أكبر القوى وأعنى القوى وأغنى القوى في هذا العصر والزمان» .

ولوقت طويل بعد رحيله كان كثيرون على طول المنطقة وعرضها يقفون أمام أي حدث وأي تطور وأي طارئ ويسألون أنفسهم: «ترى هل كان عبد الناصر يفعل نفس الشيء أو كان فعله مختلفاً؟ .. ترى هل كان مثل ذلك يحدث لو أنه كان هنا؟ .. ترى كيف كان يمكن أن يفكر؟ .. كيف كان يمكن أن يقرر؟ .. كيف كان يمكن أن يتحرك؟» .

ووجد هيكل تطبيقاً عملياً مباشراً على ذلك .. كان قد فرغ من إلقاء محاضرة في جامعة أوكسفورد عن مشاكل السلام في الشرق الأوسط - وكان قد جرى بين مصر وإسرائيل ما جرى في كامب ديفيد وما بعدها - وبعد انتهاء المحاضرة وجد نفسه وسط

مجموعة من الدارسين الشباب من جنسيات متعددة يحملون هموماً ثقيلة .. ولم تمض دقائق إلا وكانت الحلقة قد تحولت إلى حصار أسئلة .. وكان السؤال البارز المتكرر .. لو أن جمال عبد الناصر كان مازال هناك فهل كان يمكن أن يجرى هذا الذى جرى فى المنطقة؟.

ويقول هيكل: لقد تفرعت المناقشة وتشعبت ولكن اسم جمال عبد الناصر ظل اللحن الرئيسى فى المعزوفة بتنويعات متعددة .. تذكره بوضوح أو تشير إليه من طرف قريب أو بعيد .. ثم علا سؤال: لماذا يفعلون ذلك به؟ .. كان السؤال يقصد الحملة الشرسة التى عرض لها جمال عبد الناصر ضرباً وطعناً وتشهيراً من كافة الجوانب .

وقال هيكل: من هم الذين يفعلون؟ .. الذين يفعلون هم أعداؤه .. أعداء دوره أو أعداء ما يمثله فكرة وموقفاً وعملاً .. وهذا حقهم .. على الأقل طبقاً لقوانين الحرب .

ولم يقنع صاحب السؤال ويسكت وإنما استطرد: وإلى متى؟ .. فقال هيكل: لا أعرف إلى متى ولكن الطريق مازالت لها بقية .. هل تذكر تاريخ بريطانيا؟ .. ماذا حدث لكرومويل بعد أن ضربت الثورة الإنجليزية الأولى وعادت الأسرة الملكية من المنفى؟ .. ماذا فعلوا بكرومويل؟ .. كان كرومويل قد مات قبلها بسنوات ولكن الملوك العائدين لم يقنعوا بالموت وإنما أجروا محاكمة للثورى الإنجليزي العظيم .. ثم أدانوه فى محكمة القروء وأصدروا عليه حكماً بالإعدام وقرروا تنفيذه .. وهكذا استخرجت عظام كرومويل من القبر وعلق هيكله العظمى فى حبل مشنقة واعتقدوا أنهم بلغوا منه ما يريدون .. وأين هم هؤلاء الملوك الآن؟ .. وأين كرومويل؟ .. لا يذكر تاريخ بريطانيا إلا وذكر اسم كرومويل لأنه كان دوراً تاريخياً .

وكان السؤال: ألا نتعلم من التاريخ؟ .

وأجاب هيكل: «قليلون يتعلمون .. ولذلك فإن الذين لا يتعلمون من التاريخ محكوم عليهم بتكراره» .

إن إيمان هيكل بعبد الناصر هو الذى دعم - أو ربما خلق - إيمانه بدور الفرد أو البطل فى التاريخ .. لقد كان عبد الناصر بالنسبة له ظاهرة بشرية استثنائية .. كانت قادرة على تجاوز الحسابات .. واحتملت ما لا تحتمل الجبال .. وقد عبر هيكل عن ذلك بمقال يستحق أن نتوقف عنده .. نشره فى يوم ١٠ يناير ١٩٦٠ .. فى اليوم التالى لتحويل مجرى نهر النيل تنفيذاً لمشروع السد العالى .. أى فى ذروة التآلق الناصرى .. كان عنوان المقال «تحية له» .. لجمال عبد الناصر .. تحدث فيه عن تجارب النجاح والقلق من قيام الثورة - مروراً بحرب السويس - وحتى تحويل مجرى نهر النيل .. تمهيداً لإستكمال حلم بناء السد العالى.

(١) هيكل: مقال بصراحة المنشور في الأهرام في ٢٥ مايو ١٩٦٢ بعنوان «الامة ودورها في صنع البطل ودور البطل في حياتها» .

(٢) هيكل: كتاب «السلام المستحيل والديمقراطية الغائبة» - مرجع سبق الإشارة إليه وقد كان هذا المرجع هو المصدر الأساسي في تفسير إيمان هيكل بنظرية الفرد التاريخية .

الصحافة بين الحرية والحكومة

■ فى منتصف مايو ١٩٦٠ دعا جمال عبد الناصر معظم رؤساء تحرير الصحف المصرية لاجتماع عاجل وسرى معه .. كانت التعليمات تقضى بعدم الإشارة إليه قبل وبعد حدوثه .. وبعد ثلاث ساعات من الحوار المتسم بالقلق والحرص خرج الجميع من قصر القبة فى حالة غير التى كانوا عليها لحظة دخولهم .

فى ذلك اليوم أعلن جمال عبد الناصر تأميم الصحافة أو تنظيمها .. لا فرق .. فالواقع الذى عاشته الصحافة منذ ذلك اليوم حتى الآن .. أكثر من ٤٠ سنة .. يؤكد أن حريتها خرجت ولم تعد .. وأن حريتها فقدت إلى ما شاء الله .

لقد تلقت الصحافة المصرية جزاء سنمار .. أيدت الثورة .. وخاضت معاركها .. وتغنت بانتصاراتها .. ثم جاء الوقت لتدفع الثمن .. حريتها .. وتحويلها إلى موظفة أميرية .. حكومية .. تفقد أصولها .. وتضيع حرفتها .. ويصبح البقاء فيها للأكثر تجسساً على زملائه .. وللأكثر نفاقاً للسلطة .. وفى النهاية على الجميع أن ينتظروا التعليمات .. وقد كان الصحفيون يدفعون الثمن بدخولهم السجن .. أما الآن فالسجن قد جاء إليهم .. فقد تحولت مؤسساتهم إلى معتقلات .

فى الاجتماع وجه جمال عبد الناصر جام غضبه على إحسان عبد القدوس وقال بالحرف الواحد: «أنا لا أسمع أن تدخل مجلات صباح الخير وروز اليوسف لبيتى» .. ثم توجهت قذيفة اللهب إلى مصطفى أمين وأستطرد جمال عبد الناصر: «أنا أخجل من الصور العارية التى تنشرها مجلة آخر ساعة» .. وعندما حاول إحسان عبد القدوس أن

يفسر الدافع الاقتصادي وراء ما ينشر فى مجلاته خاصة بعد فرض رقابة ثقيلة على الأخبار والتحقيقات السياسية بدا أن جمال عبد الناصر لا يحتمل المناقشة ..

وقال: أنت بتقول إيه يا إحسان؟ .. إذا كانت المسألة مادة وبيع ومكاسب وربح .. هناك أساليب أخرى تضمن لك ربحاً أكثر وأوفر .. الواحد يبقى تاجر أعراض ويفتح بيوت دعارة سرية... وكاد يغمى على إحسان . (١)

وحسب رواية شاهد عيان حضر اللقاء: «تسابق الصحفيون فى تأييد قرار تأميم الصحافة» .. تزلفاً ونفاقاً للرئيس الذى جاء ينعى لهم صحافتهم .. لقد نهض فكرى أباطة - بوقاره وشيخوخته واسمه - كى ينكت وينافق لكن الرئيس تجاهله .. فوقف السيد أبو النجا مدير عام أخبار اليوم كى يتحدث فى موضوع الورق .. ورق .. ورق إيه يا دكتور .. وتجاهله جمال عبد الناصر هو الآخر فجلس كالمشرد إلى عامود خشبى بانتظار أن ينفذ فيه حكم الإعدام . (٢)

وخرج الجميع من الاجتماع وعلى رؤوسهم الطير .. كامل الشناوى لم يذهب كعادته إلى كافيتيريا فندق الهيلتون للإلتقاء بأصحابه ومعاكسة بنات الكافيتيريا وانتظار مكالمة تليفونية من المطربة نجاه الصغيرة .. وعلى أمين أشعل السيجارة العاشرة بعد المائة قبل أن يأتى المساء .. وصلاًح سالم تتم بعض اللعنات للجميع .. وموسى صبرى أكتفى بإغلاق باب مكتبه على نفسه منتظراً استدعاء مصطفى أمين .. وأحمد بهاء الدين عاد إلى منزله ولم يخرج ليلاً من غرفته نومه .. وفكر فى الصباح أن يعتزل الكتابة لكنه سرعان ما أخذ طريقه إلى مكتبه .. أما إحسان عبد القدوس فقد كان الأكثر تصميمًا على تنفيذ قراره بالتخفيف من الكتابة السياسية وزيادة التورط فى الكتابة الروائية .. الاجتماعية والعاطفية .

ولم تمر عدة أيام على هذا اللقاء - الذى لم يسمح جمال عبد الناصر بنشر ما جرى فيه - حتى صدر قانون الصحافة فى ٢٤ مايو ١٩٦٠ .. القانون رقم ١٥٦ لسنة ١٩٦٠ .. وهو القانون الذى يحكم الصحافة - بصورة أو بأخرى - حتى الآن .. رغم تغير الظروف السياسية والأوضاع الاقتصادية فيما بعد .. لقد أسدلت الستائر السوداء (بلاك أوت) على الصحافة ولم ترفع من يومها .

لكن .. من ناحية أخرى .. لم تكن الصحافة بريئة أو نقية أو زهرة برية .. كانت تتفجر فساداً ونفاقاً .. وكان كل هم أصحابها جمع مغريات الحياة فى شباك المتعة .. المال .. النساء .. السلطان .. والتوحش فى مواجهة الخصوم ..

إن كشف المصاريف السرية التي كان يتقاضاها صحفيون وتتقاضاها صحف ومجلات من وزارة الداخلية قد أسقطت الكثيرين في نظر ثوار يوليو الذين كانوا في مرحلة البراءة والنقاء .. لقد شعروا أن الكتاب والصحفيين الذين قرءوا لهم وأعجبوا بهم ليسوا إلا عرائس متحركة بين أصابع القوى الخفية .

ولم يصدق جمال عبد الناصر نفسه وهو يقرأ ما كتبه مصطفى أمين عن فضائح وغراميات وفساد الملك فاروق .. هل هو نفسه مصطفى أمين الذي بدأ مشوار أخبار اليوم بالدفاع عن الملك فاروق والهجوم على حزب الأغلبية .. حزب الوفد .. في سلسلة المقالات الشهيرة: لماذا ساءت العلاقة بين الوفد والقصر؟ .

وربما نكشف سرأ لو قلنا أن الذي قام بالوشاية بين الثورة ومصطفى أمين - وهو ما أدى إلى اعتقاله هو وشقيقه على أمين بعد أيام من الثورة - هو كاتب وصحفي وشريك في صحيفة .. هو الذي اتهمه بالتآمر على الثورة وهي لا تزال في المهد .

ولم يتردد أحمد أبو الفتوح في الدعاية السياسية المضادة والشرسة ضد الثورة في وقت لم تكن فيه قد وقفت على قدميها .. لقد تعرف جمال عبد الناصر على أحمد أبو الفتوح عن طريق صهره ثروت عكاشة الذي كان عضواً مرموقاً في تنظيم الضباط الأحرار .. ولم ينس جمال عبد الناصر له أنه كان وراء التحذير الشهير بأن القصر يعرف بأمر التنظيم وأنه على وشك القبض على ١٣ ضابطاً ممن ينتمون إليه .. لذلك كان صوته مسموعاً لدى مجلس الثورة في الفترة المبكرة .. ثم أنه كان حلقة الاتصال بين الثورة وحزب الوفد في تلك الفترة .

لكن .. وحسب تفسير هيكمل في كتابه: «المصر لا لعبد الناصر» بدأت الخلافات تدب في العلاقة بينه وبين جمال عبد الناصر مع بداية عام ١٩٥٣ .. وكان لهذه الخلافات ثلاثة أسباب:

(١) سبب سياسي هو تفسير كل منهما للديمقراطية .. «كان جمال عبد الناصر يرى أن أي تعبير سياسي انعكاساً لحقائق اجتماعية واقتصادية وإذا كان المطلوب إقامة ديمقراطية سياسية سليمة في مصر تعبر عن رأي الأغلبية وسلطتها فإن ذلك لن يتأتى إلا إذا كانت الحقائق الاجتماعية والاقتصادية في الوطن تعطى لهذه الأغلبية وزنها وثقلها» .. وكان رأي أحمد أبو الفتوح يختلف عن ذلك .. فقد كان يرى أن حل مشكلة الديمقراطية هو بإجراء الانتخابات فوراً .. حتى لو أدت إلى إعادة العناصر القديمة إلى السلطة .

(٢) سبب نفسى مرجعه أن أحمد أبو الفتح بالغ - ربما بحسن نية - لدى أصدقائه القدامى فى أهميته بالنسبة للسلطة الجديدة .. «وبالتالى فقد كان حزبه وجماعته وأسرتة ينتظرون منه أن يحقق أشياء عجز عن تحقيقها وبإحساسه بالحرَج فقد تحول خلاف الرأى إلى عناد ثم إلى عدااء» .

(٣) سبب يعود إلى أن أحمد أبو الفتح كان يشعر بوفاء شديد لأخيه محمود أبو الفتح .. لكن محمود أبو الفتح كان قد ترك الصحافة وجريدة «المصرى» له وتفرغ تماماً لدور رجل الأعمال .. وأحس أحمد أبو الفتح أن أخاه لا يأخذ ما يعتبره هو حقاً له وإن فرصاً كثيرة ضاعت أو ضيعت عليه لأسباب لا يعرفها .

ويستطرد هيكمل: «ولعل أكثر يوم شعرت فيه بأبعاد أزمة أحمد أبو الفتح هو يوم أتيت لى أن ألتقى فيه بشقيقه محمود أبو الفتح فى بيروت .. فى شهر يناير من سنة ١٩٥٤ .. كنت عائداً من دمشق عن طريق بيروت .. وفى فندق «سان جورج» التقيت بمحمود أبو الفتح ووقفنا فى ردهة الفندق نتبادل أحاديث مجاملات .. ثم سألته عن أحمد وكان قد غادر القاهرة إلى جنيف .. وقال لى محمود: إنه يريد أن يجلس لحديث طويل معى عن العلاقات بين جمال عبد الناصر وأحمد أبو الفتح .. وجلسنا نحن الاثنان تلك الليلة فى ركن من صالون «السان جورج» نتحدث حتى الساعة الرابعة صباحاً .

«وبعد أيام من عودتى إلى القاهرة كان محمود أبو الفتح قد اتصل بالدكتور السيد أبو النجا المدير العام لجريدة المصرى وقتها وطلب منه أن يتصل بى لكى نرتب ما اتفقنا عليه فى بيروت .. وكنا قد اتفقنا على ترتيب مقابلة بين جمال عبد الناصر وأحمد أبو الفتح .. والتقيت مع السيد أبو النجا وكان يريد أن يستوثق من نقطة معينة هى أن أضمن عودة أحمد أبو الفتح إلى جنيف مهما كانت نتائج مقابله مع جمال عبد الناصر .. وتعهدت للسيد أبو النجا أن أكون فى استقباله وأن أكون فى وداعه .. وجاء أحمد أبو الفتح وذهبنا معاً إلى بيت جمال عبد الناصر وجلسنا ثلاثتنا لحديث طال أربع ساعات .. وفى الواقع كان الحديث بين الاثنين .. وكنت أتابع ما يدور بينهما صامتاً .. أتدخل أحياناً عندما تظهر عقدة فى حباله .. لكن الخلاف كان واضحاً بين الاثنين فى الآراء والمواقف .

«وارتفعت درجة حرارة الحديث مرتين: مرة عندما أثار جمال عبد الناصر مسألة الاتصالات التى يقوم بها أحمد أبو الفتح فى أوروبا وفى العالم العربى - خصوصاً مع نورى السعيد رئيس وزراء العراق وقتها والمروج لفكرة حلف بغداد - وكان رد أحمد أبو الفتح أن علاقات أخيه بنورى السعيد هى علاقات رجل أعمال يورد مهمات لمشروعات

تنفيذ في العراق إلى جانب اهتمامه بتوريد السلاح كوكيل لبعض شركاته» .. وكان رأى جمال عبد الناصر - بناء على معلومات لديه أن العلاقات والاتصالات فيها عنصر سياسى . ثم ارتفعت درجة حرارة الحديث مرة أخرى عندما تساءل أحمد أبو الفتح: «لماذا تضار مصالح أخى محمود فى مصر ولا يحصل على حقه؟» .. وسأله جمال عبد الناصر: «وهل حدث ذلك؟» .. ورد أحمد أبو الفتح: «نعم .. إن أخى تقدم لمشروع أتوبيسات النقل فى القاهرة ولكن عبد اللطيف أبو رجيلة أخذ المشروع ولم يأخذه محمود أبو الفتح .. ثم أن محمود أبو الفتح تقدم وكيلاً عن شركة سلاح يعرض بندقية من عيار ٨٦ وهذه هى البندقية التى أقرت لحلف الأطلنطى ومعنى ذلك أنها ممتازة ولكن اللجنة العسكرية التى تشرف على مشتريات السلاح رفضتها» .

وبدت الدهشة على وجه جمال عبد الناصر وسأل: «وهل تتصور أن لى علاقة بذلك .. إننى لا أتدخل فى مثل هذه الشئون .. هذه مسائل تقررها الوزارات المسئولة» .. وبدأ الضيق على ملامح جمال عبد الناصر وشاع الأسف فى نبرة صوته وهو يقول بالحرف «جرى أيه يا أحمد .. أتوبيسات أيه وبنادق أيه؟» .

«وكان واضحاً أمامى أن الحديث سار إلى طريق مسدود .. وذهبت أودع أحمد أبو الفتح طبقاً لما تعهدت به وأقلعت الطائرة التى استقلها إلى جنيف .. وفى الأسابيع التالية بدأت اسمع من جمال عبد الناصر أكثر من مرة وبأسف أكثر من غضب عن النشاط المنسوب إلى أحمد أبو الفتح فى أوروبا وفى بعض العواصم العربية وبالذات بغداد نورى السعيد .. ثم عرفت فى ٢٧ إبريل ١٩٥٤ أن نشاط أحمد أبو الفتح أحيل إلى محكمة الثورة وأن قرار الإدعاء ضده ينص على: «أنه أتى أفعالاً ضد سلامة الوطن من شأنها إفساد أداة الحكم وذلك أنه فى غضون عام ١٩٥٤ وما قبلها ارتكب الأفعال التالية: (١) قام بدعايات واتصالات ضد نظام الحكم القائم بقصد تقويض النشاط القومى للبلاد . (٢) أغرى موظفاً عمومياً بطرق غير مشروعة على المساهمة فى إتمام صفقة تجارية لمصلحته الذاتية» .

«وفى يوم ٢ مايو ١٩٥٤ أصدرت محكمة الثورة حكمها وكان الحكم إلى جانب السجن والمصادرة ينص بالحرف الواحد على «سحب رخصة جريدة المصرى منه» وبذلك تعطل الجريدة عن الصدور ابتداء من اليوم» .. وكان تشكيل محكمة الثورة من: عبد اللطيف البغدادي رئيساً وأنور السادات عضو يمين وحسن إبراهيم عضو يسار .. ثم عرض الحكم على محمد نجيب فصدق عليه» .

إن أوضاع الصحافة لم تكن مرضية .. ولم تكن محل رضاء جمال عبد الناصر .. فلم يتردد هيكمل في التعبير عن ذلك منذ الساعات الأولى للثورة .. ويعترف هيكمل قائلاً :
«إنه منذ أول يوم في الثورة لم يكن جمال عبد الناصر راضياً عن الظروف المحيطة بملكية الصحافة في مصر .. كان يعتقد أن «آل زيدان» أصحاب دار الهلال و «آل تقلا» أصحاب الأهرام و «آل نمر» أصحاب المقطم قد أدوا دورهم في مرحلة معينة من تاريخ مصر .. لكن مصر الآن أمام مرحلة جديدة لا يستطيعون مسايرتها .. وكانت له تجربة مزعجة مع «آل أبو الفتح» أصحاب المصري .. كما أن علامة استفهام ظلت أمامه طول الوقت على «آل أمين» أصحاب أخبار اليوم .. ولم يكن جمال عبد الناصر في أى وقت من الأوقات يفصل بين المال وهوى صاحبه وكان رآيه أن هوى كل صاحب مال يرتبط بمصالحه وغير ذلك غير جائز وإذا جاز فهو مؤقت تفرضه ضرورات» (٢).

باختصار لم يكن جمال عبد الناصر راضياً عن الملكية العائلية للصحف وظلت هذه القضية تؤرقه وتشغله طوال ٨ سنوات .. من ثورة يوليو إلى تنظيم المهنة .. ولم يكن هيكمل من جانبه يرضى عن أوضاع الصحافة .. لكنه في الوقت نفسه كان يرى أن تأميم الصحافة وتحويل ملكيتها من العائلات إلى الدولة كارثة الكوارث .. على أنه كما يقول «لم يكن هناك حل وسط» . (٣)

في ٢٨ سبتمبر ١٩٥٨ كتب هيكمل مقالاً بعنوان «حرية الرأي» عبر فيه عن ما كان يرفضه جمال عبد الناصر في الصحافة الخاصة .. لكنه لم يتصور أن ذلك سيؤدى بعد أقل من سنتين (بالتحديد بعد ستة وخمسة شهور و ٢٦ يوماً) إلى تأميم الصحافة .. أكثر الشرين صعوبة وأصعبهما قسوة (الملكية الخاصة والملكية العامة) ..
قال هيكمل في المقال ..

«من أهم المسائل التي نواجهها اليوم مشكلة حرية الرأي .. بل أنها أكبر كثيراً من الحد المفهوم من وصف «المشكلة» .. ذلك أنه في هذه المرحلة من تاريخ وتطورنا السياسى والاجتماعى والفكرى لابد أن يبرز الرأي الحر ليكون المقدمة الحقيقية للركب وهو يسير والدليل الأمين للقافلة وهى تسعى نحو المستقبل .. ولكن الرأي الحر فى بلادنا لا يمارس الآن هذا الدور الخطير .. لعدة أسباب ..

«أسباب عامة تتصل بظروف الحياة .. وأسباب خاصة متصلة بأدوات التعبير عن الرأي ووسائله .. من الأسباب العامة مثلاً: أنه فى ظروف الحياة السريعة التى نعيشها الآن طغى الخبر على الرأي وغطت الحادثة على الفكرة .. ومن الأسباب الخاصة المتصلة

بأدوات التعبير أن الصحافة وهى أول هذه الأدوات تعيش تحت رقابة قاسية .. والمحنة الحقيقية أن هذه الرقابة ليست فرضاً على الصحافة من الخارج وإنما هى قيد من الداخل .. والأسباب كثيرة .. أولها - أن صحافتنا فى كثير من الأحيان لم تستطع أن تتحول بعد عن كونها صحافة شخصية ومن هنا فإن تعبيرها عن «الرأى الخاص» لأصحابها ومحرريها أشد ظهوراً من تعبيرها عن «الرأى العام» لمجتمع بأكمله على اختلاف طبقاته .. ثانيهما - أن صحافتنا حين أعوزها إيمانها الأصليل بغايات محددة ووسائل إلى هذه الغايات تركت رسالة التوجيه واقتصرت على «المسايرة» .. «مسايرة» الحوادث على علاقتها و«مسايرة» التطورات كما تجئ .. من هنا وهذه حقيقة فرضت الصحافة على نفسها ما لم يفرضه عليها غيرها أخذا بالأحوط والأسهل وإيثاراً للعافية والسلامة .

إن الحقيقة - أننا - نحن الصحافة سكتنا حين زحمتنا الحوادث فلم نجد لنا فى وسطها رأياً وحين بقينا على هامش التطورات نسايرها .. ولا نخوض فى أعماقها بحثاً عن الإيمان نجاهر به ونقاتل دفاعاً عنه .. على أنه ينبغى أن يكون هناك مفهوم لحرية الرأى .. إن حرية الرأى ليست العناوين الثائرة الغاضبة على شخص بعينه وليست الحملات المنطلقة فى ضراوة ووحشية تبحث عن كبش فداء .. إن حرية الرأى هى حرية المناقشة .. إن الفكرة المتحررة داخل العقل مقدمة .. وانطلاق هذا الفكر حديثاً ناطقاً على اللسان أو حديثاً صامتاً على الورق نتيجة .. وبغير المقدمات لا يمكن الوصول إلى النتائج وبغير النتائج لا تصبح للمقدمات فائدة .. هذا هو فهمنا لحرية الرأى .. أنتهى .

وواضح أن هيكل جنح - فى الخلاف بين الصحافة والثورة - ناحية الثورة .. فالصحافة لم تمارس رقابة على نفسها من الداخل تهريباً من الحرية أو استجابة لسرعة العصر التى جارت على الرأى لصالح الخبر وجارت على الفكرة لصالح الحادثة .. ولكنها خشيت من الضربات المتلاحقة التى تعرضت لها بعد الثورة .. وهو ما فرض مناخاً بوليسياً فى داخل مكاتب الصحف والمجلات .. لم تعد فيه الموهبة هى الأساس وإنما العلاقات بمصادر القوة ومنابع السلطة .. وجعل الأقلام تتسابق للتأييد ولما هو أكثر من التأييد .. كذلك فإن هيكل يحاول فرض مفهوم ضيق لحرية الرأى يحصر هذه الحرية فى المناقشة ولا يمتد إلى ما يرفضه من الحملات الصحفية على شخص أو تصرف .. لكن ذلك كله لا يمنع الاعتراف بأن هيكل فوجئ بقرار تنظيم الصحافة .. ثم أنه صدم فيه .. وحاول التخفيف منه .. لكنه فى النهاية لم يقدر على مواجهة الشلال المتدفق بقوة من أعلى .

فى كتابه «الصحافة والسياسة» الذى نشره بعد تنظيم الصحافة بربع قرن من الزمن يقول أن جمال عبد الناصر دعاه إلى ما وصفه هيكى «بواحدة من أصعب مقابلاتنا» . وقال جمال عبد الناصر له: «إنه مهما كانت أرائك فى الصحافة فقد وصلت الآن إلى اقتناع كامل بأننى لا أستطيع أن أترك الأمور كما هى» .. واستطرد مؤكداً أنه لا يريد أن يتخلص من أحد .. لأنه لو أراد فإن لديه السلطة والشجاعة لينفذ .. وأضاف: «أنا مقبلون على تحولات اجتماعية كبيرة وقد بدأت هذه التحولات بتأميم البنك الأهلى وبنك مصر (صدر قرار تأميمهما فى ١١ فبراير ١٩٦٠) وإذا كنا نريد إجراء خطة للتنمية فلا بديل عن سيطرة المجتمع على وسائل المال والإنتاج .. ولا أستطيع عقلاً ولا عدلاً أن أقرض سيطرة المجتمع على الاقتصاد ثم أترك لمجموعة من الأفراد أن يسيطروا على الإعلام .. أنهم لا يسيطرون الآن عملياً لأن الثورة قوية وذلك مجرد خوف وأنا لا أثق فى خائف خصوصاً إذا تغيرت الظروف .. ثم أن المرحلة الجديدة من التحويل الاجتماعى تحتاج إلى تعبئة اجتماعية شاملة وأعرف أن الموجودين الآن سوف يصفقون لأى قرار لكن المطلوب شئ آخر غير التصفيق» .

وكانت مخاوف هيكى على المهنة - كما قال - واضحة .. لكن كان اقتراح جمال عبد الناصر له: «فكر فى أية ضمانات تريدها للمهنة ولنلتق هنا غداً فى الساعة الحادية عشر صباحاً وسوف يكون معنا محمد فهمى السيد .. المستشار القانونى للرئاسة» . ويستطرد هيكى: «وفى اليوم التالى حاولت بكل ما أستطيع .. وربحت بعض النقاط وخسرت بعضها الآخر .. ربحت فيما أظن عندما استبعدت منطق التأميم بحدوده القاطعة ووصلنا إلى صيغة تسمح بمرونة .. وهكذا كان «تنظيم الصحافة» وليس «تأميمها» .. وحاولت أن أجعل الملكية مشتركة بين التنظيم السياسى وبين جمعية العاملين فى كل دار صحفية: ٥٠٪ لكل فريق .. ولم يقبل جمال عبد الناصر وخرج باقتراح وسط .. انتقال الملكية إلى التنظيم السياسى (الاتحاد القومى فى ذلك الوقت ثم الاتحاد الاشتراكى فيما بعد) وليس إلى الدولة احتفاظ كل صحيفة بأرباحها داخلها ثم توزيع هذه الأرباح مناصفة: نصف للتجديد والإحلال فى دور الصحف ونصف لجمعية العاملين فى كل دار صحفية .. واعترضت على المذكرة التفصيلية للقانون .. فقد أحسست أن المنطق والمبررات الواردة فيها يمكن أن تحتل ما يمكن اعتباره نقداً لما كانت عليه الأحوال فى المهنة .. الأمر الذى استوجب إعادة ترتيب هذه الأحوال بالقانون .. وأشهد أن جمال عبد الناصر كان صبوراً

.. فقد قال لى : «دعك من مذكرة فهمى وأكتب أنت واحدة غيرها» .. وكتبت مذكرة كانت فى الواقع إعلاناً بتأكيد حرية الصحافة أكثر منها مذكرة تفسيرية للقانون» .

ويعترف هيكل بأن مخاوفه من القانون الجديد كانت ذاتية .. ويضيف: «فى ذلك الوقت كان قد مضى على فى رئاسة تحرير الأهرام ثلاث سنوات .. وكان التيار فيها قد تحول: فالأهرام بدأ يربح بدلاً من الخسارة .. ثم أن توزيعه بدأ يصعد بدلاً من الهبوط .. وكنت قد اتفقت مع مجلس الإدارة وأنا أعرض أمام أعضائه تقريرى الأول عن خطة العمل التى اقترحتها - أنه إذا حقق الأهرام أرباحاً فإنه يكون مسموحاً لى أن أبدأ بتطوير منشآت الأهرام (المبنى والمطابع) .. والآن كان تخوفى أن مشروع تطوير الأهرام قد يتوقف بعد أن بدأ خطواته الأولى .. فالقانون الجديد يضعنا أمام احتمالات مجهولة لا أعرف هل أستطيع فى ظلها أو أوصل أو أنه سيفرض على أن أظوى ملفات الخطط والبرامج والرسوم مودعاً حلمى إلى الأبد» .

لكنه .. يستطرد: «وصباح اليوم الذى أذيعت فيه نصوص القانون دعوت أسرة تحرير الأهرام إلى اجتماع عام كى أتشاور معهم فى الأوضاع الجديدة .. وشرحت لهم فى البداية موقفى .. قلت: أننى «لم أكن متحمساً للقانون من ناحية المبدأ» .. وفوجئت بالزميلة الراحلة السيدة جاكلىن خورى تقاطعنى قائلة: «هل نستطيع أن نسألك «لماذا؟» .. أليس الوضع فى ظل القانون الجديد أحسن مائة مرة للمهنة وللصحفيين من الملكية الخاصة للصحف؟» ..

«وبدا لى أن تياراً قوياً يؤيدها .. ودهشت .. واستطردت أشرح مجمل الأسباب التى تدعونى - من ناحية المبدأ - للتخوف .. وكان أولها قلقى من احتمالات تدخل التنظيم السياسى (الاتحاد القومى وقتها ثم الاتحاد الاشتراكى فيما بعد) الذى انتقلت الملكية إليه فى سياسات الصحف وتوجيه تحريرها بدعوى القانون .. ثم كان هناك تخوفى من احتمال تأثير الظروف الجديدة على مشروعنا لتطوير الأهرام وقد قلت للجميع أننا أمام معركة جديدة ويجب أن نقاتل فيها» .

ويواصل هيكل روايته:

«وعند الظهر أتصل بى جمال عبد الناصر تليفونياً معاتباً: «إن تقريراً وصل إليه عما قلته فى اجتماع محررى الأهرام ومع تقديره لكل الظروف فهو يرى أننى أضعف موقفى

بهذه المسافة التى أريد أن أضعها بينى وبين القانون الجديد .. وأنه سمع تحفظاتى من ناحية المبدأ وحاول بكل جهده أن يريحنى فى التفاصيل .. وبذلك فإنه لم يعد هناك داع لأن أعود فأخذ موقفاً سلبياً من القانون .. خصوصاً وأن هناك من قد ينتهزون هذه الفرصة ضدى» .

ثم قال جمال عبد الناصر:

«إنهم حاولوا أن يصوروا لى قولك: بأننا يجب أن نقاتل على أساس أنها معركة ضد القانون .. وقد قلت لهم أن هذا التعبير يجرى على لسانك كثيراً فى صدد مواجهة أى عقبة .. وأن ذلك لا يعنى أنك فى معركة ضد القانون وإنما أنكم فى معركة لإثبات أنفسكم فى الأهرام فى ظل القانون» .

«وحين انتهت المكالمة كنت أشعر بعرفان شديد لصبره وأظننى أيضاً كنت أراجع نفسى وأسائلها ما إذا كانت وساوسى وهاوجسى قد تجاوزت بى الحد المعقول» .
وكتب هيكल عدة مقالات عن القانون الجديد .. أتصور أنها تستحق أن نقرأها كما هى بنصوصها.

«قد قصدت أن أنتظر يومين أو ثلاثة قبل أن أتكلم فى موضوع تنظيم الصحافة .. قصدت أن أنتظر يومين أو ثلاثة لتكون الدوائر المتوالية المتسعة التى حدثت نتيجة لإلقاء الحجر فى الماء قد وصلت إلى مداها ويكون التأمل فى آثار الفعل الذى تم قد حقق مستلزماته فى التفكير والتحليل ..

وقبل أن ندخل فى صميم الموضوع لابد أولاً من مناقشة لبعض الافتراضات حتى نحدد ما يمكن منها أن يكون أساساً للكلام ونستبعد منها ما لا يصلح أن يكون ركيزة لمنطق أو قياس .. والافتراضات التى يمكن أن تناقش جميعها تبدأ بسؤال واحد: هل كان التنظيم الذى صدر منذ يومين أو ثلاثة يستهدف تحقيق هوى أم أنه كان تطبيقاً لمبدأ؟ .. ونبدأ نستعرض افتراضات الاحتمال الأول وهو أن يكون التنظيم الجديد استهدافاً لتحقيق هوى .. وفى هذه الحالة: ما الذى يمكن أن يكون هذا الهوى؟ .. هل يمكن أن يكون «هوى» الدولة من هذا التنظيم أن تكبح جماح معارضة عنيفة ضد سياستها فى الصحف؟ .. معارضة تهز أركانها وتزلزل دعائمها؟ .. والرد البديهي على ذلك بالنفى الواضح ..

أولاً - لأن مفهوم الدولة عندنا استقام معناه منذ تحملت ثورة يوليو مسئولياتها التاريخية باعتبار الحكومة التي يبحث عنها إرادة شعبية .. لم تعد الحكومة مجموعة أمراء من قولة ومجموعة مستشارين من لندن ومجموعة إقطاعيين وانتهازيين يتأرجح ولاؤهم ما بين قولة ولندن .. لم تعد صلة الشعب بالحكومة صلة الصيد بالصائد على حد تعبير سعد زغلول وإنما أصبحت الصلة هي صلة الكيان بالإرادة .. الشعب هو الكيان كله والحكومة هي إرادة هذا الكيان ..

وثانياً - لأن الشعب يستفتى كل يوم تقريباً في أمر حكومته وتأييده الكاسح لها ظاهر في وقوفه الصلب العنيد بجانب سياستها وفي إظهاره بكل الوسائل إنها - هذه السياسة - تعبير عملي عن إرادته تستوى في ذلك جميع مجالات السياسة الخارجية منها أو الداخلية ..

ثالثاً - لأن الصحافة بالفعل مهما كانت أوضاعها لم يكن أمامها إلا أن تعكس ذلك كله وكان تعبيرها عن تأييد الشعب لحكومة ٢٣ يوليو - وإن اختلفت أساليبه - كاملاً وظاهراً ..

وننتقل بالمناقشة إلى نقطة أخرى .. إذا لم يكن «هوى» الدولة من هذا التنظيم هو كبح جماح معارضة عنيفة ضد سياستها في الصحف والمناقشة الحرة الطليقة الصريحة للأمر تقطع بأنه ليس كذلك .. فهل يمكن أن يكون هذا الهوى هو الرغبة في إضافة موارد الصحف إلى خزينة الدولة عليها تسد عجزاً أو تواجه نفقة؟ .. والرد البديهي على ذلك - أيضاً - هو بالنفي الواضح ..

أولاً - لأن مجموع ما تكسبه الصحف التي خضعت للتنظيم لا يزيد على مائة أو مائتي ألف من الجنيهات كل سنة وهو مبلغ لا يمكن أن يكون في خزينة الدولة غير قطرة في بحر إذا تذكرنا أن ميزانية الدولة - في الإقليم المصري وحده - تزيد عن خمسمائة مليون جنيه في السنة ..

وثانياً - وهذا هو الحد الفاصل في أمر هذا الافتراض أن قانون تنظيم الصحافة الجديد جعل فائض ربح الصحف كلها لها .. نصفه يصرف لعمالها وموظفيها ومحرريها مكافأة عن جهدهم ونصفه الآخر يرصد لأعمال التجديد والتوسع تدعيماً لوجودها وتعزيزاً لإمكانياتها .. ونخلص من هذا كله بأن «هوى» الدولة لا يمكن أن يكون هدف التنظيم الذي تم منذ يومين أو ثلاثة وعلى هذا لا يتبقى من احتمال الهوى واحتمال المبدأ إلا ثانيهما ..

أى أن الأمر كان تطبيقاً لمبدأ .. ولربما كان هناك من يقول لى وقد وصلنا إلى هذا الحد من الكلام: هذه الطريقة التى تناقش بها هى منطق التشكيك .. إن هذه الطريقة تبدو وكأنها دفاع عن التنظيم الذى تم وتبرير له .. وأقول على الفور: ربما ولقد قصدت ذلك على أى حال .. قصدت أن أبدأ المناقشة من تحت الصفر لكى لا يكون «الواحد الصحيح» افتراضاً يلقي للمناقشة دون أساس لتحديد عنده نقطة البداية .. ولكى يكون الواحد الصحيح هنا نتيجة منطقية بجانب كونه نتيجة بديهية ..

نتيجة منطقية باعتبار أن هذا التنظيم كان تطبيقاً لمبدأ .. وحقيقة بديهية على أساس أن وسائل التوجيه فى مجتمع اشتراكى لا يمكن أن يكون زمامها إلا للشعب ذاته .. ومع ذلك فلماذا نأخذ الحقيقة البديهية كذلك وكأنها حكم أنزل من السماء؟ .. ولماذا لا نضع هذه الحقيقة مهما كانت درجة البدهية فيها موضع المناقشة والاختيار؟ ..

ونسأل أنفسنا: ما هى الصحافة؟ .. والردود دون حذقة وشرود وراء الضباب: أن الصحافة أداة من أدوات الرأى العام أداة فى خدمته تنقل إليه وتنقل عنه .. تنقل إليه الأخبار والأفكار وتنقل عنه صداها فى نفسه وتفاعله معها .. هكذا فإن الصحافة تفقد كل خصائصها وكل قداستها إذا ما تحولت من كونها أداة من أدوات الرأى العام إلى أن تصبح أداة للرأى الخاص .. ومعنى ذلك - تدرجاً مع تداعى المنطق - أن الصحافة لابد أن تكون تعبيراً عن تيارات فكرية واجتماعية عميقة وعريضة ولا يمكن أن تكون تعبيراً عن رغبة شخص أو مصلحة ذات .. ويترتب على ذلك ضرورة أن تكون الصحافة ملكاً للشعب وتعبيراً عنه ولا تكون ملكاً لفرد ووسيلة فى يده ..

وفى العالم المتمدين .. المتمدين فعلاً .. لا ذلك الذى تقاس مدنيته بتعداد كباريهات الليل وكازينوهات القمار .. فى هذا العالم المتمدين حقيقة نجد النماذج والأمثلة .. ولنأخذ الصحافة البريطانية .. هل يوجد فى بريطانيا صحف تمثل «الرأى الخاص» لأصحابها أم أنها جميعاً تمثل الرأى العام أو تيارات فكرية بارزة فيه .. التايمز على سبيل المثال تعكس وجهة نظر وزارة الخارجية البريطانية .. الديلى أكسبريس تعكس وجهة نظر حزب المحافظين .. الديلى هيرالد تعكس وجهة نظر حزب العمال .. الجارديان تعكس وجهة نظر حزب الأحرار .. الديلى وركر تعكس وجهة نظر الحزب الشيوعى .. كلها وغيرها تمثل الرأى العام البريطانى أو قطاعات منه أو تيارات تسرى فى المجتمع البريطانى وتحركه وتؤثر فيه ..

بل لقد كان ذلك هو الحال عندنا فى مصر قبل الثورة فيما نقلنا من أشكال الديمقراطية الغربية - دون معناها الحقيقى ودون مضمونها .. كانت الصحف تعبر عن قطاعات من رأى العام أو تيارات مؤثرة فى المجتمع .. كان هناك حزب الوفد وكانت هناك صحف تعكس وجهة نظر الوفد .. وكان هناك الحزب السعدى وحزب الأحرار الدستوريين إلى آخره .. وكانت هناك صحف تعكس وجهة نظر الحزب السعدى وحزب الأحرار الدستوريين إلى آخره .. وكانت هناك صحف تبدي الاستقلال عن الأحزاب ومع أن ذلك لم يكن إلا ستارا خارجياً لتحزب خفى فإنه حتى هذا الستار الخارجى بإدعاء الاستقلال كان يمثل - ولو تمثيلاً سطحياً - تياراً فكرياً واضحاً فى المجتمع المصرى الذى كان يضيق ذرعاً بالأحزاب فى ذلك الوقت ..

«ما الذى نصل إليه بعد هذا كله ؟ .. نصل إلى أن الصحافة لا يمكن أن يكون لها ما لا بد أن يكون لها كم قيمة ومعنى إلا إذا كان التجاوب والتفاعل بينها وبين الشعب كاملاً متصلاً .. يستوى فى ذلك أن يكون الشعب كله فى وحدة واحدة تفرضها ظروف الكفاح فى مراحل الأولى العسيرة أو أن يكون الشعب - بعد إتمام انطلاقته الأولى - موزعاً على شكل مجموعات تختلف فى وسائل العمل إلى ذات الهدف وهو صالح المجموع ..

«ولقد اقتضى كفاحنا الذى يجتاز الآن مراحل الأولى العسيرة - من أجل الوطن - اقتضى هذا الكفاح وجود وحدة وطنية شاملة يعبر عنها الاتحاد القومى .. وفى إطار هذا الاتحاد القومى كان لا بد أن تتجمع كل الأفكار والتيارات وتتفاعل معاً تفاعلاً حياً واعياً لتصنع المجتمع الجديد .. فهل كان فى وسع الصحافة أن تبقى بمعزل عن هذا الإطار الوطنى .. أعنى .. هل كان يمكن أن تبقى الصحافة شذوذاً على الأسس الديمقراطية فى العالم المتمدين كله - وسيلة للتعبير عن رأى الخاص لأصحابها مهما حسنت النوايا ومهما سمت أغراضهم ؟ ..

«ومن الناحية المحلية البحتة ما الذى كان يبرر لفرد أو مجموعة من الأفراد أن يملكه وحدهم وسيلة التوجيه الكبرى ويتجهوا بدفتها حيث شاءوا ؟ .. ويتبادر هنا إلى الذهن سؤال: هل معنى ذلك أن تصدر جميع الصحف على رأى واحد ؟ .. والجواب على ذلك: بالقطع لا .. لأن الاتحاد القومى ذاته ليس رأياً واحداً .. ليس طابوراً طويلاً يقف كل من فيه على الصف كتفاً إلى كتف .. إنما الاتحاد القومى إطار .. إطار لا يتطلب منك داخل فيه غير الإيمان بالوطن .. والإيمان بالوطن هو الإيمان بالتاريخ المشترك والواقع المشترك والمصير المشترك .. أما ربط ذلك كله معاً وتحويله إلى عقيدة تلهم الكفاح الوطنى وتدفعه فأمر

مفتوح للأفكار والآراء تتعدد وتختلف بل تتصارع وتتلاطم ثم تتفاعل وتلتقى لتصنع فى النهاية إرادة وطنية حية .. خصبة وخلاقة ..

وسؤال أخير: وحرية الصحافة؟ .. وإجابة أخيرة: هى بخير .. وكيف يمكن أن يخطر على البال أن الضمانات لحرية الصحافة كانت مصنوعة حين كانت الصحف فى ملكية فرد أو أفراد منهم تخرج خطوط التوجيه وإليههم يدخل فائض الربح ثم يكون الخوف على هذه الضمانات أن تقل .. وقد أصبحت الملكية المعنوية فى الصحف للشعب كما أن الملكية المادية قد انتقلت من فرد أو أكثر من أصحاب الصحف إلى ألف أو أكثر من عمال كل صحيفة وموظفيها ومحرريها وكتابها ؟ ..

«بل لقد كان قانون تنظيم الصحافة الجيد حاسماً فى تقييمه لحرية الصحافة حين نص صراحة فى مذكرته التفسيرية على اعتبار الصحافة جزءاً من التنظيم الشعبى لا يخضع للجهاز الإدارى وإنما هو سلطة توجيه ومشاركة فعالة فى بناء المجتمع شأنها فى ذلك شأن غيرها من السلطات الشعبية كالمؤتمر العام للاتحاد القومى وكمجلس الأمة..»
«ثم لا يبقى بعد ذلك إلا أن نفتح باب المناقشة على آخره للشعب.. يبدى رأيه فى مستقبل الصحافة ويمنحها الضوء الذى تسير على هداه باعتباره وحده سيدها وسندها».

محمد حسنين هيكل

مقال : «الصحافة» - الأهرام

٢٨ مايو ١٩٦٠

«كتبت يوم السبت الماضى عن تنظيم الصحافة والقانون الجديد الذى صدر بشأنه .. ومنذ يوم السبت الماضى تلقيت أسئلة كثيرة تطلب إيضاح بعض ما قلت .. ولقد بدأ الأهرام فى صفحة الرأى أمس بنشر بعض ما تلقيت من تعليقات .. أما اليوم فأنا أبداً محاولة الإجابة على بعض ما وجه إلى من أسئلة..»

«سؤال - لماذا يتحتم أن يملك الشعب وسائل لتوجيه فى مجتمع حدد اتجاهه بأنه اشتراكى؟ .. جواب: أن نصل إلى إجابة كاملة على هذا السؤال لابد أن نحدد المفاهيم التى يجرى على أساسها القياس والتقييم .. ذلك أن ظروف البلبلة الفكرية والمعنوية التى تحيط بمجتمعنا غطت وجه الحقيقة بأستار من الغمام كما تفعل الريح بوجه الشمس فى

أيام العاصفة .. على هذا الأساس نسأل أنفسنا أولاً: ما هي الاشتراكية؟ .. هل الاشتراكية مجرد شعار أم هدف؟ .. هل الاشتراكية علم ملون مزركش نرفعه أيام الاحتفالات ليخفق مختالاً مع النسيم ثم نطويه بعد الاحتفال حتى يجيء احتفال جديد؟ .. أم أن الاشتراكية هي إرادة شعبنا ليس فقط بحكم الإختيار الحر وإنما أيضاً باعتبارها الطريق الوحيد المفتوح أمامه إلى مستقبل أفضل..

وما هي الاشتراكية بعد ذلك؟ .. الاشتراكية ببساطة هي توسيع اشتراك مجموع الشعب في توجيه مستقبله وفي العمل على أساس التوجيه وفي الحصول على نصيب عادل من الثمار التي تأتي نتيجة لذلك .. هذا هو المفهوم الاشتراكي عموماً بغض النظر عن كثير من التفاصيل وبغض النظر عن كثير من القوالب والمصطلحات الاقتصادية التي يمكن أن تحفل بها الكتب والنظريات..

ونخلص من هذا بشيء هام .. أن الاشتراكية لها أساسان: ١- ديمقراطية .. ٢- عدل .. والديمقراطية ومنبعها الأصل وسندها حق الشعب في الاشتراك في التوجيه وهو ما يمكن أن يعبر عنه بتكافؤ الفرص .. ثم المشاركة في الثمار التي يمكن أن تأتي نتيجة للتوجيه الحر والعمل القائم على تكافؤ الفرص .. هكذا لا يمكن أن تكون هناك اشتراكية بدون ديمقراطية .. وهكذا - أيضاً - لا يمكن أن تكون هناك اشتراكية بدون عدل.

ونتوقف هنا لحظة قبل أن نمضي في الكلام .. نتوقف لنواجه أسئلة جديدة .. وما أكثر الأسئلة في هذا الحديث .. نتوقف لنسأل: وما هي الديمقراطية وكيف تتوفر؟ .. وما هو العدل وكيف يستقر؟ .. إن الإجابة على هذين السؤالين هي التي ستقودنا إلى الإجابة على السؤال الأول وهو: الاشتراكية .. ما هي؟ .. وكيف يمكن أن تطبق؟..

ونبدأ بالكلام عن الديمقراطية؟ .. ما هي الديمقراطية؟ .. هل الديمقراطية هي مجرد مجلس للنواب ومجلس للشيوخ كما كنا ندرس في كلية الحقوق أم أن مجلس النواب ومجلس الشيوخ وغيرها من المؤسسات والمنظمات هي مجرد أشكال خارجية في محاولة للتعبير عن الديمقراطية؟ .. هل الديمقراطية هي مطلب الذين يجلسون القرفصاء على شرفات في النوادي الأنيقة بالزهر والعطر يحتسون الويسكي بالصودا ساعة الغروب ثم يبدون الحسرة على الديمقراطية التي تضيع والحرية المهددة بالخطر؟ .. هل هذه هي الديمقراطية؟ .. أم أن الديمقراطية في حقيقتها هي: أن يحكم الشعب نفسه ومن أجل نفسه؟..

ومن هو الشعب؟ .. هل الشعب هو القلة التى أتاحت لها الظروف أن تتعلم وأن تعيش وأن تدخل الفنادق الكبرى والأندية الفواحة بالزهر والعطر وأن تسافر كل صيف إلى مغانى أوروبا وبحيراتها وجبالها؟ .. أم أن الشعب هو الكثرة التى تخالفت ضدها الظروف فلم ترث الفرصة ولم يتح لها بالتالى أن تتمتع بما يمكن أن يكون للفرصة المتكافئة من نتائج؟ ..

إذا كانت الديمقراطية فى حقيقتها هى حكم الشعب فمعنى ذلك أنها فى حقيقتها إرادة الكثرة لا إرادة القلة .. إرادة الأغلبية لا إرادة الأقلية .. هكذا فإن الجالسين اليوم على شرفات النوادى الفواحة بالزهر والعطر يذرفون الدموع على الديمقراطية هم آخر من يستطيع أو يقدر على مواجهة حقيقة الديمقراطية .. من هنا فهم يحاولون كل شىء إلا مواجهة الحقيقة .. من هنا التلاعب بالشعارات ومن هنا الرغبة فى عرقلة التطور الذى لابد منه لمواجهة الحقيقة والانسجام معها وإزالة التناقض الذى يحكم مجتمعنا ويقسمه بالميراث قسمين: قسما يملك كل شىء .. وقسما لا يملك أى شىء .. والذى يملك كل شىء: يملك التوجيه ويملك الفرصة ويملك الثمار .. والذى لا يملك أى شىء .. بعيد عن التوجيه بعيد عن الفرصة بعيد فى النهاية عن الثمار ..

ونسأل: هل كان يمكن أن يستمر هذا الوضع؟ .. والإجابة: كان مستحيلا أن يسكت الشعب .. ونسأل: وماذا كان بوسعهم أن يفعل؟ .. والإجابة: يثور الثورة التى هى وسيلة الشعب لفرض احترام الحقيقة .. ولقد ثار الشعب فى ٢٣ يوليو .. هل ثار الشعب ليسقط الملك .. غيظاً من كرشه الضخم وشواربه؟ .. هل ثار الشعب ليطرد الاستعمار .. كراهية فى العيون الزرق لجنود الاحتلال؟ .. هل ثار الشعب لينهى الإقطاع لأن الخواتم الماسية فى أصابع سادته تزغلل بصره وتبهره؟ .. تلك كلها كانت خطوات إلى الهدف الأصيل من الثورة .. أو هى كانت خطوات تمهيدية من أجل الوصول إلى الحقيقة .. من أجل الديمقراطية باعتبارها اشتراكا حرا فى التوجيه ومن أجل العدل باعتباره اشتراكا حرا فى الفرصة وفى ثمارها .. أو بعبارة اشمل من أجل الاشتراكية باعتبارها مضمونا شاملا للديمقراطية والعدل ..

وما الذى يمكن أن تفعله الثورة حينئذ؟ .. كان أمامها طريقها: أما أن تكون انفجارا مدمراً تنطلق منه الطاقات التى حبسها الظلم الطويل والكتب والاستغلال لتنتقم وتحطم وتحرق وتسفك الدماء بلا سيطرة عليها أو توجيه .. وإما أن تتصدى لها القيادة الثورية الواعية وتحول طاقتها من مجرد انفجار مدمر لتصبح قوة محركة ودافعة .. ومن حسن

الصورة الوحيدة في مكتبه التي تجمع بينه وبين عبد الناصر والسادات





صورة نادرة .. أم كلثوم تسأل في حوار على الهواء وهو يجيب.

في مفاوضات سرية في موسكو مع الفريق محمد فوزي





في رحلة أخيرة إلى إيران حيث تقعد علاقته بها إلى الخمسينيات

هيكل ورفيقة الدرب السيدة هدايت تيمور



إنه الفاروق



— العدوى .. التعب .. الصحة

وقال الملك :

— شعبي ..

وقالوا :

... حبيبك .. حين ميلادك

قصة برويهان الملك

هي قصة من قصص الجدة ، وقصة من قصص الحب والودع .. هي قصة برويهان الملك .. وهي هنا بالفاظه :

— أنا لا أستطيع ان أحتفل بعيد ميلادي وشعبي في قنا واسوان في هذه الحالة .. وان ذهابي اليهم وزيارتي لهم .. هي عندي خير احد ..

« أنا فاروق .. أنا فاروق حيث أسأل عنكم وأسألكم اذا كنتم تريدون شيئاً »

« ان الذي يشفيكم هو الطعام وقد أمرت أن يتوفر لكم وما تحتاجون اليه .. أنت ليلة القدر عندي هي عند ما أزور كل هذه الاكواخ في المرة القادمة ، فأخذت معكم جيدة ، ومساكنكم مريحة ، والطعام متوفر لكم جميعاً »

« سلموا لي على جيرانكم »

« استمروا في أعمالكم ، فمن اكتم نصيبه قدمونها لي أن تستمروا في خدمة شعبي هؤلاء المرضى »

« انني أغور بالسيدة المصرية التي صحت براحتها في سبيل هؤلاء الفقراء ، هي .. الصحبة ضريبه يجب أن يؤدبها التي للفقير ، هؤلاء هم اخواننا وآلامهم آلامنا جميعاً »
بأحبا من وصية خلد ..

الملك في الصعيد .. الملك يزور مناطق المرض بنفسه لشرف على ما يجري ، وليواسي شعبه ..

هذا هو النبا .. النبا العظيم الذي لم يدهش له أحد ولم يعجب له أحد ، ولكن الناس جميعاً اضاءت عيونهم بنور الأمل والثقة ، وتقابلت أنظارهم فتبسما ابتسامه حب وحنان :

انه الفاروق ..

انه الفاروق دائماً .. فاروق الأمس ..

فاروق اليوم .. فاروق القد

بالأمس عندما اشتدت ازماات التموين ذهب الملك بنفسه ليرأس مجلس الوزراء ليعت مع مشا كل الشعب

وقالوا له :

فليجتمع مجلس الوزراء في القصر

— ولماذا لا اذهب اليه أنا ؟

وقالوا له :

— ولكن التقاليد لم تصطنع ان يذهب

الملك الى المجلس !

فأجابهم :

— وهل اصطنعت التقاليد ان يجوع

الشعب ؟

وذهب الملك

واليوم عندما اشتد المرض على جزء من

شعب الملك ، وعلم الملك انهم يعيشون في محنة

وضر ، وعلم انهم يتعذبون ويقالون ،

ارسل لهم المال والزاد واهتم بحالتهم ولكن

قلبه لم يطاوعه فقال :

— سأذهب بنفسى لأراهم ، ولأعيش

معهم لأواسيهم واشعرهم اني انا لهم

ووضعوا ايديهم على قلوبهم وقالوا .

طاغية الصعيد .. ذوالشعر الأصفر والعيون الزرقاء!

«أخط» إلى الحياة بعد سنوات طويلة!

أخط .. أم الخط؟

«أتعلمون ماذا قال لي ليلة تلك اليوم؟»

«وكان الشكك هو عزيز المائلة باشا مدير أسبوط ... وكان تحدث أبناء اجتماع عتده في مكانه في أسبوط من شهوة طرية ببيع مأمري مراكيميرية أسبوط ...»

«ونظروا إليه متسائلين» واستطرد عزيز باشا قائلا:

«حدثت تشريعات القيسد وحسباً به دورى لأصحاب حلاله»

«لكن نظر إلى حاله وقتئذ»

«فإنني يا عزيز بنت أتري اسمه «أخط» أم «أخط»؟»

«وهبت نفسه حلاله» «وهبت» «أخط» في سبيل السمكات وأحسست بأنه يحسب كل

أخود السكة وجزائركه لحلاله من «أخط» ...»

«وسكت عزير باشا وباتوا هم سكون ... وطن الإحتضار»

«ساعتاً بنوا حلالها جمع أوسائل لنفسه على «أخط»

«ثم انتهى الإحتضار سبيل مرة أسبوط» «فرقة الرب» ...»

«ان على أفرادها أن يبالوا رأس «أخط» أو يبال «أخط» رؤوسهم جميعاً ...»

«ودأت المركة»

«صراع مع الموت»

«وكان «أخط» اسميه أخط أموي مائة مرة من الموت وقرقة الموت ...»

«ويقول الملازم أول محمد سعيد حلال رئيس فرقة الموت»

«لقد كان أحد حبيد «أخط» لم يحسن عنه طوال المغادرة التي طبت عاتماً كمالاً ... كان يستد

بندقيه من طراز «الهند» ولم يصفها بلا تردد ونسب صحبه

وهيب نظره فذ هو «سرك» أرباب عيه ... ثم يرسل

ألبا «أخط» من يروي لنا حركتها بين وسكات حلال

التحقيق ... يروها بطريقة لا يدع مجالاً لشك في أن «أخط»

كان أقرب الناس منا نظراً ومنع ذلك فاستغله كان يبدو لنا أنه

أحد من السماء ...»

«وكم من مرة أحكمت «أخط» للقبض عليه وكنت أخطر إلى

الموت المحتشمة فلا يساورني شك في أن «أخط» في أيدينا

ومع ذلك كان يفلت دائماً ...»

«وكنت بدقيته لا تحويه أبداً وكانت هي رسول «أخط» إليه ...»

«يستد من بعد ألب مثر ويضرب ... ويضرب في الطلب تماماً ...»

«وكان دكانه أبصاً حارقاً لمعاده ... ولم يكن أموي من ذكائه

إلا مرة أرادته وقوة أعصابه وقوة عقله ...»

«وذا مرة لاح أمام أعيننا تحت سمع حبل النسيج يغيت وطرباً

وداه وبدأ يتسلل الخلل ورصاصنا لا يباله ... فقد كان حريصاً على

أن تحمي الصخور طوره وصو ... وبعد أربع دقائق

ويعتد كمن قد وصل إلى قمة الخلل ولم نستطع نحن أن نسل

إلى أعلاه إلا بعد ساعة ونصف ... وكان وصولنا عتاً من الآن

في ملكه «أخط» «أخط» ومطاردته»



«لقد قتل «أخط»»

«هذا هو بعض الإشارة الليغونية في تلفها آخر ساعة ...»

«وبعد ساعات فلان كانت سيارة «فراز» «جب» «نشق» طريقها

«متعلوطة ومن متعلوطة شفق في الوادي إلى حوض الجبل

«أخذت تصعراء مارة بالقرى لتجوع والكفور التي كان «أخط»

«هذا مسرعا لإبامه الأخيرة ...»

«وكان في سيارة «الجيب» ساذ محمد حسين هيكل

«نرد بأحر ساعة والأساذ محمد ساذ كبير مصوري «دار أخبار

يوم» ...»

الرصاصة الأخيرة!

«الرصاصة الأخيرة» «الرصاصة الأخيرة»

«الرصاصة الأخيرة» «الرصاصة الأخيرة»

«الرصاصة الأخيرة» «الرصاصة الأخيرة»

«الرصاصة الأخيرة» «الرصاصة الأخيرة»

«الرصاصة الأخيرة» «الرصاصة الأخيرة»

«الرصاصة الأخيرة» «الرصاصة الأخيرة»

«الرصاصة الأخيرة» «الرصاصة الأخيرة»

«الرصاصة الأخيرة» «الرصاصة الأخيرة»

«الرصاصة الأخيرة» «الرصاصة الأخيرة»

«الرصاصة الأخيرة» «الرصاصة الأخيرة»

«الرصاصة الأخيرة» «الرصاصة الأخيرة»

«الرصاصة الأخيرة» «الرصاصة الأخيرة»

«الرصاصة الأخيرة» «الرصاصة الأخيرة»

«الرصاصة الأخيرة» «الرصاصة الأخيرة»

«الرصاصة الأخيرة» «الرصاصة الأخيرة»

«الرصاصة الأخيرة» «الرصاصة الأخيرة»

«الرصاصة الأخيرة» «الرصاصة الأخيرة»

«الرصاصة الأخيرة» «الرصاصة الأخيرة»

«الرصاصة الأخيرة» «الرصاصة الأخيرة»

«الرصاصة الأخيرة» «الرصاصة الأخيرة»

«الرصاصة الأخيرة» «الرصاصة الأخيرة»

«الرصاصة الأخيرة» «الرصاصة الأخيرة»

«الرصاصة الأخيرة» «الرصاصة الأخيرة»

«الرصاصة الأخيرة» «الرصاصة الأخيرة»

«الرصاصة الأخيرة» «الرصاصة الأخيرة»

«الرصاصة الأخيرة» «الرصاصة الأخيرة»

«الرصاصة الأخيرة» «الرصاصة الأخيرة»

«الرصاصة الأخيرة» «الرصاصة الأخيرة»

«الرصاصة الأخيرة» «الرصاصة الأخيرة»

«الرصاصة الأخيرة» «الرصاصة الأخيرة»

«الرصاصة الأخيرة» «الرصاصة الأخيرة»



حياة «التومي» والمدمع الرشاش!

«فصة» «مدفع التومي» «الرشاش»

«وتقف بباب المنزل تحرس على الغرام» «وقد يتصادف أن يمر

ساعها واحد من أهل دركة» «فداهها ويأذرها» «مسد» «الخبر

يا خالتي فصة» «ورقة» «خالتي فصة» «وهي

تتم مدفع التومي في يداه ووجهه سراقص في وجه عابر السبيل»

«ويبدو أن «أخط» في الداخل» «وسمى في طريقه لا يرى على

شيء ... ولا يفتح فيه» «وهكذا سرود قبل أن نقول

أن درشده» «كانت تحب» «أخط» «وأبنا لهذا سوف ترضع أبنا

لن الأسدم ...» «ولسكن مرة أخرى ألب هو الشار» «لأن

حائش فصة سكوت صاحبه النكمة الأولى وهي تمس أخطر الخندق

بهاشم وهي على الأقل مستعير كذب نعلته مداح على نفسه

«ويتقي شر الرصاصة الأخيرة» «أو يظنها هو لتبنيها رصاصات

أخرى كثيرة تعود بها معركة

ونيسة وهانم ... تزوجها في

«ولا شيء» «ولكنك تكذب تمنع وراء

«والعزم الأكيد على أن الشار لن يسي ...»

«وحسن» «ونيسة» «روحنة» «أخط» «أخط» «أخط» «أخط»

«وهي في الأسنة من غيرها ولم قرء حلال» «زواجه» «أكرم» «عشر

مرات» «هذه الفتاة هي الأخرى» «تكاد تلمح في عتسها ظلال المركة

التيه عند ما يكبر أبنا ويصير رجلاً ...»

«أبنا لم تعرف زوجها كياجب ومع ذلك فانتار هو النار ...»

«هذه هي شرمة دركة» «ولقد بقي «أخط» أن حبل

«أخط» «أخط» «أخط» «أخط» «أخط» «أخط» «أخط»

«لنفسه» «أخط» «أخط» «أخط» «أخط» «أخط» «أخط»

«وهي الشورة الأخيرة» «كان «أخط» «سكن» «أخط» «أخط»

«شهر أو شهرين لنفسه» «أخط» «أخط» «أخط» «أخط» «أخط»

«ساعة» «أخط» «أخط» «أخط» «أخط» «أخط» «أخط»

«الرجل الذي قتل «أخط»» «عملة جحتم»

التحقيق الصحفي الذي كتبه عن خط الصعيد - آخر ساعة عام ١٩٤٧

الحياة في قرية الموت



منى
القرية ١٩٤٧

والعرب، وبعضها لم يسع
الموت ... وأقبل النوباء، وما
اعانى العوام فوق الشعاع !

ويقبل احد الآباء على بيته و
الليل وتقبله ابنته الشابة
نسأله : أين كان ؟ ولماذا تأخر
وطرف القرية كلها مفاجات ؟

ويجب الاب المتعب
كنا نسرك في دفن وعرب
وتسأله ابنته من باب الفضول
- من هو ؟

فيقول لها اسمه ... د
بسي ان يلاحظ اسمه وهي تهرب
لخفي الدموع الى تفجرت فجأة
من عيها

وكل يوم يموت غرباء ...
وكل يوم تسيل دموع

الأيدي المربوطة !

ومستشفى القرين، الذي
بشده احتدام الفسار لا يزال
يشرق بابتسامات مرحة عالية.

هناك طبيب المستشفى الشاب
يخرج من خيام المرضى فيطلب
من إحدى الممرضات ان تربطه
بديه حتى لا يصاب أحدا ...
وتقابلك وهو يصحك ويد بديه
المربوطين ويقول :

- لا فائدة غير هذا ... قد
انسى وأسلم على أحد ... والله
وحده يعلم ماذا في بدي ...
ثم ترتفع ضحكته مرة أخرى
ويقول :

- كولي !

ويحزنون من اجله ...
وفي اليوم التالي بدأت اجراءات
الحفر والبناء : ، وخرج عدد
كبير من اصحاب القرين يساهمون
في بناء المقابر ، للقرين ، وكان
بين العاملين رجل اسمه «رفاعي»
فقد اناه وزوجته وابنا له صغيرا
اقترسهم جميعا ميكروب الكوليرا
وبقي ، رفاعي ، وحده على قيد
الحياة ... ولقد حفر بنفسه ثلاث
مقابر لابيه ، وزوجته ، وابنته
ومع ذلك فان هذا لم يمنعه من
الاشتراك في حفر المقابر ...
والقرين ،

الحزينة ... بلا سبب

ولقد ظهر نوع من الفتيات في
القرين ، نوع الحزينات بلا
سبب ... أو هكذا يرى أهلهم ...
بوظة «عربية» ...

والقرين ، من العمال الثمانيين
رواد السينما وسكان المدن ...
وحين صبطوا على القرين لم يكن
هناك ممر من حدوث قصص غرام
بينهم وبين عذارى القرين
الجميلات ...

وبعض هذه القصص اسهي
بالزواج بين عذارى القرية

من التربة ... ماء وكوليرا.
وايمان بالقر !

على رؤوس الحيل وبين
لاكوام المظلمة المتداعية ، وعلى
شواطئ الترع والفردان ، وفي
الوديان وفوق ومال الصحراء
يسعى ميكروب الكوليرا في قريه
القرين ، ويجسر في اذياله
الموت ايما دهب
ان معركة الموت والحياة على
اشدها في القرين ،
يشهر النوباء دخانه الفاسم
الحاقق على القرية الصغيرة ...
فتنهض الحياة لتبديد بسماتها
المشرقة هذه الدخان وتطل
تقاومه وتقاومه ... وقد نخفي
الابتسام المشرقة احيانا وتحل
محلها الدموع ومع ذلك فان
الحياة لا تستسلم ابدا ، ولا تزال
تثبت في القرين ، انها أقوى
من الموت ...

سنة

حر، كثير من سكان القرين
من غير أهلها ...
ممسك بالثقل الكبير يقع على
حدودها ، وقد مزج اليه عمال
كثيرون من كل انحاء القطر
ليعملوا فيه واستقر جمهور
كثير من هؤلاء في القرين ،
واصبحت هذه القرية التي كان
تعدادها ١٥ ألفا تضم ٢٥ ألفا
دون ان يربط على بابها بيت واحد
وربما كان أهل «القرين»

دون عدهم من سكان قري مصر
قد اخذوا نظام «النسيونات»
فكل فلاح كان له ست ، وكل
بيت كان صاحبه يوفى من
حجره حجره او حجرتين
بأجرها ، لعرب ، من العمال
الذين يعملون في القرين !
وحين تفتى النوباء انتشر
بأدى الامر بين عمال الجيش
الغريب ، وكان الفلاحون من
اصحاب البيوت يخافون التبليغ
عن الاصابات خيفة ان يعزلوا هم
الآخرون ... وموت ، والغريب
وليس هناك من يسأل عنه ...
ويحصله اعلى البيت الى الجبل
ميدمونه ويعودون فاذا سنلوا
خه في العد فالوا

- فر ... وخرج من القرين
- منى
- قبل النوباء !

وحذف ان فاح من الجبل
روائح حبيسه وذهب بعض
المستطلعين وغادوا يقولون ان
هناك جننا ، ويظهر ان انذن
غاموا بدفيا كانوا في عجلة من
امرهم فدننوها على بعد قس من
سطح الارض

واعلن ، عمه ، القرين ، وفي
القرين اكبر من عمه ، ابني
... عمة لأمه مقاد ،



حظ وطننا أن الطريق الثانى كان طريقنا .. من حسن حظنا أنه فى اللحظة الحاسمة للإنطلاقة الثورية كان هناك من يقول: إن الصراع الدموى يجب تجنبه .. وأن تطاحن الطبقات وسيطرة واحدة منها على الكل أمر يمكن تلافيه .. إن التطور السلمى قادر على أن يجنبنا الصراع الدموى .. إن تفاعل الطبقات يمكن أن يجنبها التطاحن بينها ويمكن أن يخلق تيارا مستمرا دائما إلى التقارب..

ولم يكن موقف القيادة الثورية هنا مجرد رغبة شخصية أو تطوعا خيرياً وإنما كان استقرار منطقيا واتساقا طبيعيا مع تقاليدنا وظروفنا الوطنية وسلامة مجموع شعبنا وأمان مستقبله سواء فى الداخل أو فى الخارج. ولكن هل تسكت القلة التى كان فى يدها كل شىء؟ .. طبيعة الأشياء أنها لا تسكت .. إن الذى يمسك بزمام التوجيه لا يتخلى عنه بسهولة .. والذى يملك الفرصة لا يتنازل عن جزء منها برضا .. والذى يحصل على الثمار وحده يريد أن يستمر فى الحصول عليها وحده .. ذلك كله من طبائع البشر ولن يتغير البشر بين يوم وليلة وتشف أجسادهم من الزهد والتقى وتتحول إلى أعمدة من النور المشع.

ولكن ماذا فى طاقتهم أن يفعلوا؟ .. إن المد الثورى كاسح فهل يتصدون له وقوفا؟ .. لا .. وإذن فأسلحة أخرى غير التصدى الواضح الذى لا تؤمن عواقبه .. وما أكثر الأسلحة غير المباشرة .. هناك محاولة عرقلة التطور من وراء ستار .. هناك محاولة تشكيك الشعب فى مطالبه ووسائله إى هذه المطالب .. هناك محاولة التفتيت .. تفتيت إجماع الشعب وتفريق اتجاهاته وتنويع مجالات اهتمامه وإلهائه عن متابعة معركة الحقيقة بوعى ويقظة.

وأسأل بعد ذلك كله هل كان يمكن أن تترك وسائل التوجيه والصحف فى مقدمتها فى يد غير يد الشعب؟ .. هل كان يمكن أن تترك لتصبح أساس التوجيه فيها هو المصلحة المادية وحدها؟ .. هل كان يمكن أن تترك لتظل الاشتراكية شعارا ليس له صدى من الواقع وعلما يرفع أمام الاحتفالات؟ .. هل كان يمكن أن تترك لتصبح سيدة المجتمع التى هربت من زوجها أسطورة يتابع الناس أخبارها فى لهفة وشوق؟ .. هل كان يمكن أن تترك ليصبح شاغل الناس هو حكايات الليل وجرائم هتك العرض بالرضا أو بالغصب؟ .. أم أن وسائل التوجيه يجب أن تكون فى يد الشعب لكى يستطيع أن يوجهها فى دفع التطور وخدمة الحقيقة الكبرى؟ ..

هل أصاب الصداق رؤوسنا من هذا الكلام الجاد جرعة واحدة؟ .. إذن نتوقف .. نتوقف قليلا .. نتأمل صورة جميلة أو نسمع حكاية مسلية .. إن الشمس مازالت مشرقة وأزهار الربيع تضوى على الشجر الأخضر الندى .. والكلام الجاد لا ينبغي له أن يحبس عن الحياة ابتسامتها المشرقة بالأمل والمنى.

محمد حسنين هيكل

مقال: الصحافة - لماذا يتحتم على أن يملك الشعب وسائل التوجيه

بصراحة - الأهرام فى أول يونيو ١٩٦٠

سؤال: لماذا يقال أن القانون الذى صدر بشأن الصحافة أخيرا هو قانون «التنظيم الصحافة»، ولماذا لا يقال صراحة أنه قانون لتأميم الصحافة؟ .. جواب: لأن الصحافة لم تؤم .. نقول ذلك لا تجنبنا لكلمة التأميم أو حذرا منها فإن كلمة التأميم كلمة لها قيمتها ولها احترامها فى مجتمع يؤمن بالاشتراكية .. وإنما نقول إن الصحافة لم تؤم انسجاما مع الواقع والتزاما له .. إن تأميم مؤسسة من المؤسسات معناه انتقال ملكيتها من دائرة رأس المال الخاص إلى دائرة رأس المال العام ومعناه بالتالى انتقال إدارتها إلى الأجهزة الحكومية المختصة بنوع نشاطها ودائرة عملها ومعناه أخيرا توجيه فائض دخلها إلى ميزانية الدولة التى هى حصيلة المال العام .. فهل هذا هو ما حدث للصحف؟ .. هل تنطبق شروط التأميم وخصائصه بل حتى مظاهره مع أحكام القانون الذى صدر بشأن الصحافة؟ .. الإنسجام مع الواقع والالتزام به يحتم الإجابة بالنفى .. إن ملكية الصحف لم تنتقل من أصحابها السابقين إلى دائرة رأس المال العام ولم تصبح خاضعة لأجهزة الحكومة ولن يذهب فائض ربحها إلى وزارة الخزانة .. إنما انتقلت ملكية الصحف إلى الاتحاد القومى وهو التنظيم الشعبى الذى يجمع العمل السياسى وينظمه فى الوطن كله وللوطن كله .. والاتحاد القومى ليس فرعاً من جهاز الحكومة بل العكس هو الصحيح .. أى أن الحكومة هى فرع من الاتحاد القومى وهى الفرع التنفيذى لإرادة الشعب المتمثلة فى هذا الاتحاد القومى.

أكثر من هذا فإن الاتحاد القومى لا يملك ملكية شاملة بالمعنى المفهوم .. كيف؟ .. إن الملكية فى الواقع شيئان : ملكية معنوية وملكىة مادية .. والاتحاد القومى يملك الصحف معنويا ولكنه لا يملكها ماديا .. إنه يملك «الحق» مجرد الحق فى إصدار صحيفة أى يملك

رخصة إصدارها .. ولكنه لا يملك الصحيفة ماديا لأن الملكية المادية فى حقيقتها هى الانتفاع .. والاتحاد القومى لا ينتفع بهذه الصحف فى غير دائرة المبادئ والأفكار .. أما الذى ينتفع بملكيتها المادية فهم عمال هذه الصحف وموظفوها ومحرريها وكتابها .. هؤلاء الذين نص القانون على حقهم فى أن يحصلوا مباشرة على نصف فائض ربح الصحيفة التى يعملون بها مباشرة بينما خصص النصف الثانى من فائض الربح لعملية تدعيم وتوسيع صحيفتهم ودفع تقدمها أى نهم يحصلون على ثمار ملكيتها المادية .. نصفها بطريق مباشر والنصف الثانى بطريق غير مباشر .. من هنا يتضح أن الصحف فى واقع الأمر لم تؤمم ..

لقد انتقلت ملكيتها من أصحابها .. هذا صحيح .. ولكن الملكية بعد هذا الانتقال انقسمت قسمين: قسما معنويا يتعلق بالمبادئ يملكه الاتحاد القومى .. يملكه الشعب .. وقسما ماديا ولقد تحولت الملكية فيه إلى شىء أقرب ما يكون إلى مؤسسه تعاونية .. يحصل كل واحد من أفرادها على نصيب من ربحها يتناسب مع ما يضعه فى رأسمالها .. ورأس المال هنا عمل وجهد ..

ونسأل هيز سالزبرجر صاحب جريدة نيويورك تايمز التى لم تستطع أن تجفف دموعها بعد تأثرا على حرية الصحافة فى بلادنا .. نسأله: هل يستطيع أن يطرح بين عمال صحيفته وموظفيها ومحرريها وكتابها استفتاء ويسألهم فيه عما إذا كانت حرية الصحافة فى جريدتهم - التى يملكها - يستقر معناها ويعود احترامها إذا تحولت ملكيتها منه هو - هيز سالزبرجر - لتنتقل إليهم هم .. عمل نيويورك تايمز وموظفيها ومحرريها وكتابها .. أم ما هو رأيهم؟ .. هل يستطيع هيز سالزبرجر أن يطرح هذا الاستفتاء حراً صريحاً داخل نيويورك تايمز؟ .. لا نشك فى النتيجة .. لن تكون النتيجة على هواه أو على هوى الصهيونية العالمية التى تشرف على جريدته وتوجه سياستها لصالح إسرائيل فى كل الأحيان وضد مصالح الشعب الأمريكى الذى يشتري نسخها فى معظم الأحيان .. سؤال - كيف يكون دور الصحافة فى المجتمع الجديد؟ .. جواب - إن الأمر لم يترك للاجتهاد الشخصى .. لقد كان قانون تنظيم الصحافة واضحا فى هذا الشأن حين نص صراحة على أن الصحافة سلطة شعبية لا تخضع للجهاز الإدارى شأنها فى ذلك شأن مجلس الأمة .. لقد كملت الصورة واتضحت معالمها ..

والاتحاد القومى الآن هو الخلاصة النهائية لوحدة الشعب والوحدة التى تمثل فى آخرها إجماعه على أهدافه وأمانيه .. الحكومه هى الإرادة المنفذة لهذه الأهداف والأمانى

تتلقاها من الشعب وتحولها إلى تخطيط ثم إلى خطط .. ثم إلى مشاريع محددة مفصلة .. مجلس الأمة هو سلطة التشريع والرقابة على التنفيذ .. الصحافة صلة يومية وأبدية بين هذه السلطات كلها .. سلطة يملكها الشعب .. مهمتها أن تساعد على بلورة الأهداف والأمانى المستقرة فى ضمير الشعب ثم تساعد على تعبئة الجهود ودفع التنفيذ تحقيقا لها ثم تساعد فى التوجيه والرقابة لأهداف الشعب وأمانية من أن تتعثر أو تتأثر باعتبارات العجز أو المرض ..

سؤال - هل سبقنا أحد إلى مثل هذا الذى وصلنا إليه .. هل سبقنا أحد إلى شيء مثل الاتحاد القومى وإلى ما استتبعه من خطوات آخرها تنظيم الصحافة؟ .. جواب - لم يسبقنا إلى مثله أحد لكن سوف يلحقنا إليه كثيرون من الذين يتطلعون الآن إلى الاشتراكية باعتبارها الباب الوحيد المفتوح أمامهم .. إن شعوبا كثيرة فى آسيا وأفريقيا سوف تقتفى فى الغد آثار خطانا على الطريق الذى نسير فيه .. ولقد تسأل قبل المضى فى المناقشة إلى بعيد: والذين سبقونا فى الاشتراكية لماذا لم يكن ذلك طريقهم؟ .. ونرد قائلين: اختلف طريقهم لأن الزمان كان يختلف ولأن ظروف الزمان كانت تختلف .. قبلنا دول كثيرة سبقت إلى الاشتراكية منها مثلا مجموعة إسكندنافيا: السويد والنرويج والدانمارك .. إنما هذه الدول بدأت تطورها منذ نحو مائتى سنة .. كانت الظروف - أيامها - تمنحها كفاية الوقت .. ولم يكن غيرها يسبقها بكثير وإنما كانت فى تطورها تتحرك مع الطليعة المتقدمة فى العالم كله . وكان بعد المسافات وبطء وسائل المواصلات - فى ذلك الوقت - يعطيها الاستقلال .. إن لم نقل العزلة التى تستطيع فيها أن تباشر تطورها الحر وتصونه وتدفعه .. لم تكن تواجه فى ذلك الوقت مثل ما نواجهه الآن وما تواجهه شعوب مثلنا ..

يقظة متأخرة بعد كفاح شاق ومستमित ضد الاستعمار وآثاره .. ثم تخلف طويل وضعها - بالكاد فى بداية عصر البخار - بينما التقدم العالمى سبقها إلى عصر الكهرباء وبدأ يترك وراءه عصر الكهرباء ويدخل إلى رحاب عصر الذرة ومشارف الفضاء .. ثم هى تعيش وسط الدوامة لا تملك - حتى إذا أرادت - أن تستقل بعيدا عن غيرها أو تنعزل حتى تصنع تطورها بمنأى عن المؤثرات الخارجية وضغطها وإلحاحها .. لقد تلاشت المسافات وأنهارت الحدود بفعل التقدم الخيالى فى وسائل المواصلات .. الطائرات أصبحت تعبر الفضاء بأسرع من الصوت .. الصاروخ أصبح يدور حول الكرة الأرضية كلها فى أقل من ساعة .. الكلمة التى تقال فى أى مكان من العالم أصبحت تسمع فى كل مكان من العالم فى نفس ومضة النطق بها .. ثم الظروف الدولية الملحة وآثارها من الحروب الباردة وحروب

الأعصاب .. كلها لا تترك أحدا فى حالة وإنما هى تقتحم على كل شعب حياته وتؤثر فيه أراد أو لم يرد وقد تجره من مكانه لتحوله إلى تابع أو ذليل..

«هذا هو الفرق الكبير بين ظروف التطور فى دول سبقتنا وبين الظروف التى نعيش فيها الآن .. فى النصف الثانى من القرن العشرين .. هكذا فإن التطور بالوسائل العادية .. الوسائل التقليدية للقرن التاسع عشر لم يعد ممكنا هذه الأيام .. ولقد يقال مثل أن الاتحاد السوفيتى قام بتطوره الكبير فى القرن العشرين وقفز بنفسه من عصر البخار إلى مقدمة عصر الذرة والفضاء فى أربعين سنة .. وهذا صحيح .. ولكن كيف استطاع الاتحاد السوفيتى أن يصنع المعجزة؟ .. صنعها بالثمن الغالى والضريبة الفادحة .. صنع المعجزة بكل ما يوجه اليوم حتى فى الاتحاد السوفيتى نفسه إلى ستالين وكل ما يمثله اسم ستالين من سياسات .. سياسة الستار الحديدي الكامل حول روسيا .. سياسة العزلة التامة عن العالم .. سياسة معسكرات العمل وتحول الأفراد إلى قطع من آلات .. سياسة حملات التطهير وحمامات الدم .. سياسة قمع الفكرة والكلمة والهمسة .. بهذا الثمن وبهذا الضريبة استطاع الاتحاد السوفيتى فى ظروف القرن العشرين أن يحقق انطلاقته المادية الكبرى ..

«ونعود للحديث عن أنفسنا .. ماذا كان لدينا لنحقق انطلاقتنا الكبرى .. وسائل القرن التاسع عشر .. وهى فى القرن العشرين سراب وضياع .. سياسة ستالين .. وهى أبعد ما تكون عن طبيعة شعبنا وقيمه المعنوية .. أو .. أو نبحت لنا عن طريق ثالث جديد يصون لشعبنا استقلاله دون ستار حديدي .. ويحتفظ لشعبنا بوحده دون إرهاب وحمامات الدم .. ويحقق لشعبنا بالتالى انطلاقته دون تجنيد كامل تضيق معه كل حرية فردية .. أو بمعنى أصح كنا نريد أن نحقق انطلاقتنا بوسيلة تتناسب مع ظروف عالمنا بشرط أن تكون هذه الوسيلة تعبيرا أميناً عن خصائصنا الوطنية وترجمة صادقة لطبيعة شعبنا .. وكان الاتحاد القومى .. اتجاه لم يسبقنا إليه كما قلت أحد .. ولكن سوف يلحقنا إليه كما قلت كثيرون».

محمد حسنين هيكل

مقال : الصحافة .. الصحافة لم تؤمم

بصراحة - الأهرام فى ٣ يونيو ١٩٦٠

انتهت المقالات الثلاث التى كتبها هيكى فى قانون تنظيم الصحافة .. ولا يمكن أن ننكر أن وجهة النظر التى روج لها هى وجهة نظر مناسبة لمجتمع يتحول إلى الاشتراكية .. حيث تكون أدوات التأثير والتغيير والتعبير فى يد قوة واحدة .. وحيث تكون وسائل التعبير مرآة عاكسة لقوة التأثير .. ولكن .. ما جرى فيما بعد .. وضع قانون تأمين الصحافة فى مازق .. لقد ذهب الاشتراكية واقتصاديات الدولة المركزية إلى غير رجعة .. وعاد القطاع الخاص ليسترد مواقعه الاقتصادية .. وفى الوقت نفسه ظلت السلطة محتفظة بأدوات التأثير والتغيير والتعبير فى يدها .. وهو صورة صارخة من عدم التجانس .. أن تكون حرية فى السوق ومركزية فى الإعلام .. أن يحدث إصلاح اقتصادى وموات سياسى .. ورغم ذلك فإننى لم استسغ وصف هيكى للصحافة وبقاى وسائل الإعلام بوسائل التوجيه فالتوجيه يعنى فرض رأى واحد أو وجهة نظر واحدة .. وهو ما يتنافى مع حرية الصحافة التى لا تكون إلا بالتنوع والاختلاف وتعدد الآراء.

وقد خيبت التجربة العملية كل التوقعات المتفائلة .. فالتنظيم السياسى - الاتحاد القومى - الذى كان مالكا معنويا للصحافة أختفى بين يوم وليلة بقرار من السلطة التنفيذية التى أخرجت على أنقاضه تنظيم سياسى جديد هو الاتحاد الاشتراكى العربى .. كذلك .. فإن الصحافة أصبحت خاضعة للسلطة السياسية .. تنقل وترفت وتعين ما تشاء دون أن تعود للمالك المعنوى .. أصبحت الصحافة أداة فى يد الرئيس وتابعة له مباشرة .. أضيفت إليه مع باقى السلطات والصلاحيات .. ولو كان هناك مبررات صاغها الحلم الناصرى وراء ذلك فإن ما جرى فيما بعد أجهض الصحافة وتركها كائنا مشوها .. ولا يزال.

وهو ما جعل هيكى فيما بعد يسخر من عبارة «السلطة الرابعة» التى تطلق عادة على الصحافة (٤) .. بل أنه يقول بصريح العبارة «إن الصحافة لا يمكن أن تكون سلطة رابعة لأن الفقه الدستورى فى الدنيا لا يعرف غير سلطات ثلاثة: التنفيذية والتشريعية والقضائية .. إن السلطات لا تبتدع من الهواء وإنما هى وليدة تطورات تاريخية واجتماعية وسياسية مشهودة ومؤكدة».

ويتساءل هيكى: «كيف يمكن أن تكون الصحافة سلطة رابعة إذا كانت مملوكة لجهاز تعينه السلطة التنفيذية .. ثم إذا كانت هذه السلطة التنفيذية تمارس رقابة ظاهرة أو مستترة على أقدار ومصائر العاملين فى هذه الصحافة؟» .. «كيف يمكن أن تكون الصحافة سلطة رابعة فى أى بلد من بلدان العالم الثالث كله وهذه البلدان - باستثناءات قليلة - لا

تعرف غير سلطة فعلية واحدة .. سلطة أولى واحدة» .. «وإذا كان موضع شك أن تكون هناك - بعد السلطة الواحدة الأولى - سلطة ثانية وثالثة فكيف يكون هناك مجال لسلطة رابعة؟» .

والسؤال الأخير وجيه .. لكن هيكل على ما يبدو لا يميل إلى طرحه بأثر رجعي .. يرفض تطبيقه على ما يبدو أيضاً على ما جرى للصحافة في صيف حار ملتهب .. بدأ في مايو عام ١٩٦٠ .

الهوامش

(١) ناصر الدين النشاشيبي: قصتي مع الصحافة - مرجع سابق - ص ٤٤٥ .

(٢) هيكل: «بين الصحافة والسياسة» - مرجع سابق - ص ٧٥ .

(٣) المرجع السابق - ص ٧٥ .

(٤) هيكل : السلام المستحيل والديمقراطية الغائبة - مرجع سابق - ص ٢٠٧ .

الإخوان : هو أغنى اشتراكى فى مصر

■ ليس فى الموت ما يخيفنى .. أظن أننى قربت من الوقت الذى يمكن أن أفكر فيه .. ولا أظن أن الفكرة تفرعنى .. لقد كتبت ظرفا مقفولا مع زوجتى .. وفيه نعى .. ورأسم فيه جنازتى .. هذا لا يخيفنى .. إن ما فعلته فى حياتى يجعلنى أنظر ورائى فى غير غضب .. بل أشعر بالرضا .. وأقول: أننى نسبيا عملت الكثير فى حياتى .. بقدر ما استطعت جريت .. وبقدر ما جريت نجحت .. وربما لم أنجح .. لكن فى النهاية الحمد لله .. أنا راض .. وربما يثير الاستغراب إذا ما قلت أن بالقرب من مزرعتى مكانا لمقبرتى .. وهى مقبرة بسيطة .. لكن حولها ورد كثير). (١)

إن هيكل الذى يتمير بحساب كل شىء لم يتردد - عندما وجد نفسه يتجاوز السبعين من عمره - فى أن يكتب كلمات نعيه المختصرة .. وصورة مقبرته .. وموقعها .. ونوع الزهور التى تحيط بها .. وقد أختار أن يكون بيته الريفى فى «برقاش» هو المكان الذى يطل منه على الدنيا من العالم الآخر .. وربما كان لذلك ما يبرره .. فهذا المكان الذى يسمى عادة «العزبة» ويفضل هو أن يسميه المزرعة هو أكثر الأماكن التى يستريح فيها - ولها - هيكل .. وقد رفض أن يحوله - بما فيه من أرض خصبة وأشجار مثمرة وزهور نادرة - إلى مشروع استثمارى من أى نوع .. واكتفى بأن يكون هذا المكان لمتعته الشخصية .. وفيه يلعب البنج بونج مع أولاده .. وفيه كرسى على الطراز الفرعونى أهده له كمال الملاخ وصنعه أحفاد توت عنخ آمون الذين صنعوا له منذ آلاف السنين تحفه التى تصيب العالم بالذهول .. وفيه سلالات متميزة من الكلاب.

ومزرعة «برقاش» حوالى ٢٥ فدانا .. وهى فى مكان كان يسمى «نكلة» ويقع على بعد دقائق بالسيارة من المنصورة القريبة من القاهرة .. والمجاورة للأهرام الفرعونية .. وفيها فيلات وقصور الأثرياء فى مصر.. وعند حدود الجار يقع البيت الريفى لواحد من أقدم أصدقاء هيكل هو رجل الأعمال الوفدى الشهير أمين فخرى عبد النور .. وتعود علاقتهما لأيام الشباب الأولى .. عندما كانت أسرة «فخرى عبد النور» تسكن فى العباسية وكان هيكل يأتى من بيته فى شارع الجيش (أو شارع فاروق فيما قبل) لزيارته .. وكان من أصدقاء تلك الأيام أيضاً .. محمد ياسين صاحب مصانع الزجاج «ياسين» .. والذى تولى أبنه فيما بعد إدارة المشروعات التجارية فى مؤسسة الأهرام .. ومن أصدقاء تلك الأيام أيضاً .. محمود محرم حماد .. وأحمد صدقى شيرين .. ويقول لى أمين فخرى عبد النور: إنه وشقيقه سعد فخرى عبد النور - محام أسرة تقلا - اشتركا فى مفاوضات تولى هيكل رئاسة تحرير الأهرام. (٢)

وقد اشترى هيكل مزرعة برقاش من محام عائلة تقلا .. وتسببت الصفقة فى فتح نيران الهجوم على هيكل .. لقد اتهمته مجلة المصور بأنه اشتراها من «رجل كان تحت الحراسة مستغلا فيها سلطته» .. وطيرت الاتهام وكالة الأنباء الفرنسية .. ولم يتردد هيكل فى رفع الأمر إلى القضاء .. لقد تعود أن لا يرد على محاولات تشويهه .. لكن .. هذه المرة يتعلق الأمر بدمته المالية .. وأمام المحكمة اعتذرت وكالة الأنباء الفرنسية وسجلت اعتذارها فى المحكمة فأخرجها هيكل من القضية عملا بقاعدة ناقل الكفر ليس بكافر.

كانت المصور قد قالت: أنه اشترى قطعة أرض من أجنبى تحت الحراسة .. ويقول هيكل: «أنا اشتريت قطعة الأرض على دفعتين .. الجزء الأول اشتريته من عضو فى مجلس إدارة الأهرام وهو الذى عرضها على .. وحصل إننى أخذت مكافأتى من أخبار اليوم وذهبت لأشترى أسهما أضعها فى شركة أيسترن للدخان (الشركة الشرقية) وكان هو مساهما حينذاك فيها .. فقال لى: لماذا الأسهم وليس قطعة أرض .. أنا عندي قطعة أرض أخذتها بدل أتعاب .. أبيعها لك .. وكان هو قد أهمل هذه الأرض بعد وفاة زوجته .. لما رأيت الأرض تحمست لها .. وكان ذلك فى عام ١٩٥٦ .. لم يكن هناك حراسات إطلاقا .. ثم أننى اشتريت الأرض بسعر أعلى من المعروض لأنه سمح لى بالتقسيط .. وكل هذه الأمور أطلعت المحكمة عليها وأطلعتها على كل الإيصالات المالية .. بما فيها فاتورة بثلاثين قرشا ..

«الجزء الثانى من الأرض اشتريته من ناس مصريين ليسو أجانب ولم يكونوا تحت الحراسة .. إنهم ورثة عزمى باشا الذى كان جارى وعنده قطعة أرض قرب منزلى من

ضمن أرضه فاشترت منهم قطعة الأرض بسعر أعلى من السعر المطلوب وهؤلاء قدموا شهادتهم..

«طيب .. يقولون من أين أتى بالمال؟.. فى المحكمة أنا وضعت كل إقرار ذمتى المالية .. الأرض الأولى كانت بعشرة آلاف جنيه دفعتها على ثلاث سنوات .. وقبلى كان كذا واحد يريدون شرائها منهم الدكتور جمال العطيفى .. وآخر سعر وصلت إليه الأرض كان ٨ آلاف جنيه .. وبسبب التقسيط دفعت ١٠ آلاف جنيه..

كانت مكافأتى من أخبار اليوم ٧ آلاف جنيه ولأنى أعرف حساسية المسائل المالية طلبت أن تكون المكافأة فى «شيكين» .. الشيك الأول بخمسة آلاف جنيه أخذته وعلى ظهره حولته لصاحب الأرض وقبض المبلغ على شيك صادر باسمى من أخبار اليوم .. القسط الثانى حولت له أسهما فى شركة «الخزف والصينى» وكانت بثمن ألفى جنيه وأرسل لى الإيصال من عند سمسار البورصة .. الجزء الثالث .. بعث أسهمى فى شركة «شاهر» وكانت لأقرباء لى .. بعثها فى البورصة بألفى جنيه .. والألف الأخيرة كان من السهل أن أدبرها..

قطعة الأرض الثانية كان ثمنها ٢٣ ألف جنيه اشتريتها بعد كتابى «عبد الناصر والعالم» وقبل أن اشتريها كان تحول لى من فلوس الكتاب خمسون ألف جنيه إسترلينى .. والبنك الأهلى موجود .. لو سألتنى أحد عن حالتى أقول الحمد لله .. كويسه قوى .. إن أول كتاب صدر بعد أن تركت الأهرام طبع بحوالى ٢٦ لغة .. لما يطلع لأى كاتب فى العالم كتاب بكل هذه اللغات ويأخذ من كل كتاب عدة قروش يطلع له فى النهاية مبلغ ... لذلك أنا مستعد أن اسكت عن كل الكلام الذى يقال من ناحية الحياة السياسية .. لكن الذمة المالية .. لا .. لا أتردد فى الذهاب إلى المحكمة .. وبسرعة» (٣)

على أن القضية لم تكن بالنسبة لخصوم هيكل قضية ذمة مالية ولكنها كانت قضية تشهير بالدرجة الأولى .. وكان الهدف من التشهير هو ما يوصف بالاغتيال المعنوى والسياسى للشخصية .. لفقدان المصداقية .. والتشكيك فى تجربة جمال عبد الناصر الوطنية التى ظل هيكل يدافع عنها بعد رحيل صاحبها .. وكان الرصاص الى يطلق على هيكل كان الهدف منه هو قتل جمال عبد الناصر .. مع أن جمال عبد الناصر عاش متواضعا ومات مستورا .. لم يكن يعرف كيف يستمتع بالحياة .. ولم يكن يتصور أن فى العالم طعام يزيد عن الأرز والخضار .. وكانت كل متعته فى الحياة هى التصوير

الفوتوغرافى .. بل أكثر من ذلك .. كان وهو رئيس دولة لا يعترف فى بعض الأحيان بالبروتوكول إذا ما تعارض مع طبيعته.

يروى هيكل: أن جمال عبد الناصر كان فى زيارة لليونان بدعوة من الملك «بول» .. وعند السلم .. على مدخل قاعة العشاء التقى جمال عبد الناصر مع الملك «بول» .. كانت السيدة قرينته .. السيدة تحية كاظم تصحبه فى الزيارة .. وكانت معها الملكة «فردريكا» قرينة الملك «بول» .. كان الأربعة يستعدون لدخول قاعة العشاء الكبرى التى امتلأت بالمدعوين .. ينتظرون دخول الرئيس المصرى وقرينته وملك اليونان وملكتهم .. وتولت الملكة «فردريكا» تنظيم خطى الدخول إلى القاعة..

«المنظر أمامى كأنه نابض بالحياة .. الملكة «فردريكا» تقول لجمال عبد الناصر: «أننى سوف أضع يدي فى ذراعك وندخل معا .. ثم تضع قرينتك يدها على ذراع الملك ويدخلان معا» .. وسألها جمال عبد الناصر ببساطة «لماذا؟» .. وقالت الملكة ضاحكة: «أن هذا هو البروتوكول ياسيدى الرئيس» .. وضحك جمال عبد الناصر وقال لها: «من سوء حظى أننى لا أعرف إلا بروتوكول الصعيد فى مصر .. أدخل مع الملك .. وأنت تدخلين مع زوجتى» .. ولم ينتظر جمال عبد الناصر .. مد يده إلى الملك «بول» يدعوهُ إلى الدخول معه .. وترك الملكة مع قرينته تدخلان وراءهما .. وضاع بروتوكول أوروبا .. وفرض بروتوكول الصعيد نفسه».

لم يكن من السهل الطعن فى الحياة الشخصية لجمال عبد الناصر واتجهت الطعنات والطلقات لحياته السياسية .. أما الطلقات والطعنات الشخصية فقد اتجهت لبعض أولاده .. واتجهت لهيكل أيضاً.

إن عمر التلمسانى المرشد العام للإخوان المسلمين – بعد وفاة جمال عبد الناصر – يقول: «إذا كنت تريد أن تعرف كم كانت السياسة الاقتصادية الناصرية مدمرة للأمة مربحة لمؤيديها وأتباعها فاقرا صحيفة أخبار اليوم عدد ١٠ ديسمبر ١٩٧٧ لتعرف أن هيكل هو أغنى اشتركى فى مصر .. إنه يملك شقة فى الهرم وشقة على شاطئ النيل تتكون من ١٦ غرفة وشقة فى الإسكندرية على شاطئ المعمورة وهو الذى لم يكن قبل الثورة وقبل التعرف على عبد الناصر يملك مبالغ بسيطة كان يتلقاها مقابل بعض الإعلانات فى الصحيفة .. هذا هو الصحفى اللامع كما هو» . (٤)

ولو كان هيكل قد فسر أمام القضاء وبالمستندات كيف حصل على عربة برقاش فإن حصوله على شقة على النيل ليسكن فيها وهو رئيس تحرير الأهرام أمر لا يستحق التوقف .. ولا يصعب تفسيره دون سؤاله .. وفى الحقيقة هناك خلط بين ما امتلكه هيكل

وهو فى الأهرام .. وبين ما أمتلكه وهو كاتب متفرغ يكسب من واء كتبه ومقالاته الكثير .. وهناك خلط بين أن يملك عقاراً من حر ماله وناتج علمه حتى أيام عبد الناصر وبين أن يحصل على ذلك استغلالاً لنفوذه .. إن أحدا لم يستطع أن يثبت أنه حصل على شىء مستغلاً موقعه ونفوذه..

والشقة التى يصفها عمر التلمسانى بأنها تتكون من ١٦ غرفة .. هى فى الحقيقة شقتان متجاورتان فى الدور الرابع فى العمارة التى تطل على نيل القاهرة عند فندق الشيراتون .. كانت الأولى لسكنه .. أما الثانية فقد اشتراها بعد أن خرج من الأهرام ودفع ثمنها من النقود التى حصل عليها من كتبه الأولى التى نُشرت له فى الخارج .. وقد اتخذ قراره بتشجيع من زوجته ليحولها إلى مكتب .. بعد أن قررت صاحبته الهجرة من مصر .. وقد حول هيكل جزء من عائد كتبه - عبر الجهاز الإدارى لناشره الأجنبى - إلى حساب بنكى لصاحبة الشقة.

والشقة المكتب .. تبدأ بطريقة غير عريضة يضع على جدرانها صوره الفوتوغرافية مع حكام العالم وزعمائه .. والنصيف الأكبر منها لصوره هو وجمال عبد الناصر .. وتنتهى الطريقة بغرفة يجلس فيها مدير مكتبه منير عساف وفيها كومبيوتر ومكتبة وأرشفيف صغير .. بالقرب منها غرفة مكتبه .. وفيها مكتب كلاسيكى أمامه مقعد واحد .. يصفه كل من يجلس عليه بأنه «كرسى الاعتراف» .. وتطل الغرفة على النيل .. وتنتهى بشرفة مغلقة بالزجاج يستقبل فيها زواره إذا زادوا عن واحد .. ويغطى أرضية الغرفة موكيت أخضر فاتح .. «وهناك جلد نمر ملون كأنه جاء من الغابة ولقى قدره مصلوباً على الأرض .. وآية شريفة من القرآن الكريم «اقرأ باسم ربك» تزين أحد الأركان .. هدية من زوجته .. والآية لم تفارق مكتبه فى الأهرام .. وأزهار حمراء تتوسط «فازة» فى قلب المكتب .. وعلى الحائط ثلاث خرائط قديمة للعالم .. وهناك موسيقى سوناتا شوبير تنبعث من أحد الأركان بجواره تبدو خلفية هامسة ومريحة» (٥) وإلى جواره مباشرة تمثال للكاتب المصرى الجالس القرفصاء .. وفى المكتبة التى تبدو محملة بكتب أجنبية وتمائيل فرعونية صغيرة متناثرة.

وتؤدى هذه الغرفة إلى غرفة أكبر هى أشبه بصالون ملحق .. فيه لوحات .. وتمائيل .. وتحف .. وكتب .. وتلفزيون .. وآرائك عريضة .. وبرز اللوحات لوحة زيتية لزوجته التى تبدو بصماتها واضحة على معظم الأشياء هنا .. كما أنها المسئولة عن رعاية المكان وصيانتته .. وكثيراً ما تستغل غياب هيكل خارج القاهرة لتعيد للمكان رونقه بإصلاح ما جرى ما أفسده الوقت والاستعمال.

ويحرص هيكل على أن يوصل ضيوفه إلى الأسانسير .. ويحرص على أن يكون الشخص الذى يقدم فنجان القهوة مرتديا ملابس سوداء .. الكاملة .. ولا يتردد هيكل فى أن يعرض على ضيوفه تدخين سيجار كوبي فاخر من طراز «كوهيبة» الذى كان يفضلها عندما كان يدخن .. وهو يحتفظ بكل ما يحتاجه السيجار الفاخر من قاطع حاد .. وصندوق خاص به مادة توفر للسيجار الرطوبة التى يحتاجها ليظل طازجا..

وقد كان السيجار - وهو من مظاهر الثراء رغم أن أهم الدول التى تنتجه وهى كوبا شيوعية - سببا فى توجيه الانتقاد إلى هيكل الذى لم يتردد فى الترويج لأفكار جمال عبد الناصر الاشتراكية .. خاصة وأن باشوات ما قبل الثورة كانوا يشتهرون بتدخين السيجار .. وعلى رأسهم فؤاد سراج الدين الذى لا يزال يدخنه رغم أنه يقترب من التسعين من عمره .. بل أن هيكل يقول: أن علاقته بالسيجار قد بدأت فى عام ١٩٤٩ وكان أيامها من المعجبين بنجيب الهلالى باشا آخر رئيس وزراء فى العهد الملكى وكان أيضا أحد نجوم السياسة المثقفين والبارزين فى ذلك الوقت .. وكان هيكل يذهب للقاءه فى كل يوم جمعة فى حضور زوج أبنته الدكتور محمود محفوظ (وزير الصحة الأسبق فيما بعد) وأبنه نبيل الهلالى الذى احترف الحماماه ونزل تحت الأرض معتنقا الأفكار الشيوعية .. وكان من عادة نجيب الهلالى باشا أن يقدم لكل منهم سيجارا من النوع الفاخر الذى يدخنه بعد العشاء .. وباستثناء نبيل الهلالى الى كان يرفض السيجار من والده تأديبا (وربما لأن يعارض ما يؤمن به من أفكار أيولوجية) فقد عرف هيكل ومحمود محفوظ طريقهما إلى تدخين السيجار .. وعندما عرف نجيب الهلالى باشا ذلك أصبح يعطيها بعد عشاء كل جمعة سيجارا وستة سيجار لكل منهم ليدخنه بقية أيام الأسبوع .. وفيما بعد أصبح هيكل يدخن حوالى ١١ سيجارا فى اليوم. (٦)

ويقول هيكل وهو يتحدث عن الأشياء الصغيرة فى حياته .. إنه يفضل اللون الأزرق . ويفضل البدل التى يرتديها ولا يتعامل مع الجاهز .. والهدايا التى يقبلها هى الكرافته والأقلام والسيجار .. وهى هدايا سهلة ومأمونة .. وذات مرة أهداه ابنه أحمد «هراشة» اشتراها من باريس..(٧)

فى يوم ٢ أكتوبر ١٩٩٦ كان هيكل مسافرا هو وزوجته إلى لندن .. وقبل أن يركبا الطائرة اتفقا على أن يكفا عن التدخين .. هو عن السيجار .. وهى عن السيجارة .. وأطفا كل منهما ما كان فى يده إلى غير رجعة .. لكن .. هناك سبب آخر - غير الحرص على الصحة - جعل هيكل يكف عن تدخين السيجار .. هو أنه لاحظ أن الأثرياء الجدد يفرطون ويتباهون بتدخينه .. ويتعاملون معه بمظهرية مزعجة .. وقد أهدانى هيكل صندوق

سيجار «كوهيبة» بعد أن كف عن تدخينه .. وعندما وجدني أتعامل معه باحترام أقل مما يجب .. قال: «إن السيجار مثل المرأة لا تطفئه بعد أن تشعله» .. وقد حاول كثير من الكتاب والصحفيين تقليد هيكل بتدخين السيجار واستخدام جملة السريعة الخاطفة في الحوار .. لكنهم اكتشفوا أنه ليس بالسيجار ولا بطريقة الكلام يبرع الكتاب.

ويؤمن هيكل بأن المال «خادم جيد وسيد سيء» .. ويقول: «ما لا تسمح به مواردى لا أطلبه» (٨) .. ويضيف: «كل شئ عندى هو الأحسن بصرف النظر عن عامل المقارنة بغيره .. فهذا لا يفرق معى .. أنا معتقد أن مكتبى أحسن مكتب .. وبيت أحسن بيتى .. إلى آخره».

وليس لهيكل طلبات كثيرة .. ولهذا فهو يعيش على ما يحققه من دخل .. سواء كان هذا الدخل كبيرا أم متواضعا .. ولكن .. المشكلة بالنسبة لخصومه ليست فى مستوى الدخل وإنما فى أسلوب الحياة .. الجولف والسيجار والبيت الريفى .. وربما كان خصومه ينفقون أكثر منه .. لكنهم لا يظهرون ذلك .. أو ينفقون أموالهم فى العقارات والأراضى أو يضعونها فى بنوك فى الخارج .. فيبدون أكثر تواضعا .. رغم أنهم أكثر ثراء .. كما أنهم لا يعرفون أن الاستمتاع بالحياة قد لا يكون مكلفا .. قراءة كتاب .. حوار بين أصدقاء .. مداعبة للأحفاد .. وهى أشياء تضى السعادة ولا تكلف مالا .. على أن هيكل سواء فعل أو لم يفعل فإن سيظل هدفا لحرب باردة بينه وبين خصومه .. لكنه فى النهاية وعلى حد قوله .. لا يطلب سوى الدعاء العظيم الذى كانت تدعوه له به أمه .. الصحة والستر.

الهوامش

- (١) سناء البيسى : حوارها مع هيكل الذى سبق الإشارة إليه.
- (٢) حوار شخصى جرى بينى وبينه فى ماريذا فى صيف ١٩٩٩ فى بيت الدكتور ميلاد حنا.
- (٣) هيكل: «أحاديث فى العاصفة» - دار الشروق - القاهرة ١٩٨٧ - ص ٧٥.
- (٤) عمر التلمسانى: «قالوا ولم أقل عن عبد الناصر» - دار الاعتصام - القاهرة ١٩٨٥ - ص ٢٣.
- (٥) مفيد فوزى: مجلة صباح الخير فى ٢٥ مارس ١٩٨٢ نقلا عن «أحاديث فى العاصفة» - ص ٢٤٤.
- (٦) صلاح منتصر: عمود «مجرد رأى» - الأهرام فى ٧ يناير ١٩٩٧.
- (٧) سناء البيسى: المصدر السابق.
- (٨) المصدر السابق.

الديمقراطية .. الفريضة الغائبة

■ نحت هيكل كلمات وتعبيرات فرضت نفسها على لغة الناس المكتوبة والمنطوقة .. النكبة .. النكسة .. زوار الفجر .. حادث المنصة .. فلسفة الثورة .. الطليعة الثورية .. تنظم الصحافة .. الديمقراطية الاقتصادية .. الميثاق .. أهل الثقة وأهل الخبرة .. وغيرها .. بل أنه يمكن القول أن عنواننا لكتاب له وهو «السلام المستحيل والديمقراطية الغائبة» ألهم زعيم تنظيم الجهاد – الذي اغتال أنور السادات – في اختيار عنوان كتابه «الفريضة الغائبة» وهو بمثابة دستور التنظيم .. وتنظيمات مشابهة .. متشعبة أخرى .. وقد لفتت هذه القدرة نظر الدكتور إدوارد سعيد فقدم رسالة عنها في جامعة بواستن الأمريكية.

لكن هنا تعبير فرض نفسه من منتصف الخمسينات إلى منتصف الستينات كان نحتاً مشتركاً بين هيكل وغيره من الكتاب البارزين – مثل لطفى الخولى والدكتور لويس عوض وتوفيق الحكيم – وهو تعبير «أزمة المثقفين» .. وقد تحول التعبير في تلك الفترة إلى ساحة من الشد والجذب حول الخلاف بين الثورة والمثقفين.

إن هيكل الذى حاول تبرير ما جرى للصحافة فى صيف ١٩٦٠ حاول تبرير ما جرى للمثقفين فى صيف عام ١٩٦١ .. فكانت سلسلة مقالاته الشهيرة «أزمة المثقفين» التى بدأ نشرها فى ١٢ يونيو ١٩٦١ والتى أثارت جدلاً واسعاً بين التيارات السياسية المختلفة ثم جمعت فى كتاب حمل نفس الاسم ونشرته دار المعارف فى العالم نفسه.

لقد بدأ الضربة الأولى الكاتب الماركسي المنفتح على الثورة لطفى الخولى بمقالات كتبها فى مارس ١٩٦١ (فى ذكرى أزمة مارس ١٩٥٤ الشهيرة) حول تعريف ودور المثقفين فى الثورة .. ويمكن القول أن ما وصف بأزمة المثقفين كان نوعا من المواجهة الأيدلوجية - كان من الصعب تجنبها - بين المثقفين والسلطة .. «فمن جهة كان المثقفون يشعرون أنهم أبعدوا عن الحياة السياسية والاجتماعية بسبب رفضهم لعبة «فلسفة الثورة» التى صاغها هيكل وعبد الناصر .. ومن جهة أخرى كانت السلطة الجديدة - التى عبر عنها هيكل - ترى أن مثقفيا ليسوا على مستوى ما يجرى من تغيرات فى البلاد ولا يعرفون أدوارهم الجديدة». (١)

ولم يكن الهدف - كما كتب هيكل فى مقالاته - أن يتعاون المثقفون مع السلطة فقط وإنما يدخلون فى «علاقة تفاعل معها» لرعاية مسيرتها وتأمين فكرها وتأكيد نظريتها ودعم خطواتها المتتالية .. الإصلاح الزراعى .. إلغاء الأحزاب السياسية .. الوحدة مع سوريا .. تأميم الصحافة .. وغيرها..

ويعرف هيكل المثقفين بأنهم «أولئك الذين أوتوا فرص التعلم والحصول على الشهادة ليضطلعوا بالمسئولية الفكرية فى مجالات متعددة: سياسية واجتماعية واقتصادية» .. وقد أثار التعريف جدلاً وخلافاً واسعاً .. فهو يقتصر على المتعلمين الذين تخرجوا فى المدارس والجامعات فقط .. وهو ما جعل لويس عوض يقول: إن المثقفين هم الأشخاص ذوى الاهتمامات العامة الجادة (٢) .. وبينما وصف لطفى الخولى الأزمة بأنها «أزمة منهج» تمشى عليه الثورة كان من رأى الدكتور عبد الرازق حسين (رئيس مركز الأبحاث فى البنك الصناعى) أنها «أزمة ثقة» .. ثقة المثقفين بأنفسهم وثقتهم بالمجتمع الذى يعيشون فيه .. وفى الوقت نفسه كان وصف لويس عوض للأزمة بأنها «أزمة تفاعل» بين الثور والمثقفين.

أما هيكل فقد فتح النار على المثقفين .. فهم فى رأيه «اصبحوا طبقة لها مصالحها المتميزة عن مصالح الجماهير» .. وهم «فيما عدا ظواهر فردية كانوا بعيدين عن المعركة» .. وبعضهم «بارتباطاته الطبقية كان يقف فى الصف المعادى للجماهير» .. و«البعض الآخر فضل إثارة العافية» .. وفى المحصلة النهائية فإنه لم يستطيعوا أن يروا الثورة القادمة ولا نذرها وما تدل عليه وما تشير إليه .. وبعد الثورة تبنى بعضهم موقفاً سلبياً فى حين وقف البعض الآخر فى صف النظام الجديد معتبراً إياه واقعا قائماً لا يمكن

تجاهله .. لكن تأييد هؤلاء المثقفين ظل يتأرجح بين الدعم والشك .. بل إن أكثرهم قد لجأ بشكل أو بآخر إلى نوع من الانتظار أملاً في أن يحمل له الوقت أخباراً جديدة. (٣)

ولكن .. هيكلي يعترف بوجود ثلاث أزمتين بين الثورة والمثقفين:

(١) قامت الأزمة الأولى حول المطالبة بعودة الجيش إلى ثكناته في أعقاب تصديده لتنفيذ ثورة ٢٣ يوليو وكان هناك من يبنى هذه المطالبة على أساس أن الجيش ليس سلطة حكم وإنه وقد قام بالثورة عليه أن يتنحى وترك الحكم لإربابه والعارفين بأصوله.

(٢) وقامت الأزمة الثانية حول المطالبة بعودة الحياة النيابية وعودة الأحزاب السياسية باعتبار أن ذلك في رأي المطالبين به هو أساس الديمقراطية وصورته التي لا تتغير.

(٣) وقامت الأزمة الثالثة حول ما أسموه في ذلك الوقت بالمفاضلة بين «أهل الثقة» و«أهل الخبرة» وتركزت هذه الأزمة في الواقع حول تعيين بعض العسكريين في عدد من الشركات والهيئات والمؤسسات وفي وظائف يبدو أنها فنية بحتة لا تشمل غير المتخصصين في أعمالها.

وفي الأزمة الأولى لا يتحمس هيكل لعودة الجيش لثكناته .. فالذي تحرك في ٢٣ يوليو لم يكن الجيش بقيادته وجنرالاته وقادة الأسلحة فيه .. الذي تحرك في تلك الليلة .. طلائع شابة «بقي اتصالها بال جماهير مفتوحاً لا تعوقه مصالح طبقة ولا تصده انتهازية أو سلبية» .. و«كان الحد الفاصل بين النجاح والفشل هو موقف الجماهير» .. وقد اندفعت الجماهير في الشوارع .. هي التي اندفعت من غير تحفظات في تأييد الطلائع الشابة التي خرجت من الجيش استجابة لندائها وتفاعلاً معها بعد أن عجزت كل الفئات الأخرى عن مواجهة التحدي الذي فرضته الحوادث .. ولعل خطأ المثقفين الفادح أنهم لم يدركوا أن التغيير لم يكن تغييراً في رأس الحكم وإنما كان تغييراً في المجتمع من أساسه.

ولم يكن هيكل وحده الذي يعرف أن العسكريين لن يعودوا إلى ثكناتهم .. كل المثقفين كانوا يعرفون ذلك .. ويدركونه .. فالذي يصل إلى السلطة بالقوة لماذا يتركها؟ .. ثم والأهم أن الثورة نفذت ما عجزت عنه كل القوى السياسية والحزبية والثقافية .. بل أن التنفيذ هو أبرز حسنات الثورة .. فهي لم تأت بأفكار جديدة .. وإنما نفذت ما كان مطروحاً للجدل والمناقشة .. مثل الإصلاح الزراعي .. والعدالة الاجتماعية .. واستكمال مسيرة التعليم المجاني .. وبرامج التصنيع .. بل أن الأفكار القومية كانت سابقة عليها .. لقد كان

المثقفون يفكرون .. ولكن الثورة هي التي نفذت .. وغيّرت .. ومن ثم كان الشعب معها .. مع من نفذ .. لا مع من فكر وتصور.

لكن .. شعار «نحن نفكر والثورة تنفذ» الذى طرحه المثقفون فى بداية الثورة سرعان ما أصبح دخانا فى الفراغ .. فالثورة أصبحت هي التى تفكر .. وتنفذ .. ولا تريد من المثقفين سوى التأييد بالطريقة التى تحددها وتختارها .. ولا مانع أيضاً من تقديمهم بقسوة واتهامهم بالسلبية والانتهازية والتكاسل.

وفى الأزمة الثانية يرفض هيكل عودة الأحزاب السياسية القديمة .. والسبب فى رأيه أن الأحزاب الثلاثة الكبرى التى كانت قائمة قبل الثورة – الوفد والأحرار الدستوريين والسعديين – لفظت أنفسها السياسية بتوقيع معاهدة ١٩٣٦ .. ولم يعد الوفد بعد حادث ٤ فبراير ١٩٤٢ قادراً على الفعل أو على تحقيق التغيير .. وباعد بين هذه الأحزاب وبين الثورة ارتكازها على كبار ملاك الأراضى .. ورفضها إعادة توزيع الأراضى وهى الخطوة الأولى نحو الثورة .. ولقد كانت هذه الصورة كلها أساس ما كان يشكو الناس منه قبل الثورة من قيام الأحزاب على غير برامج وإنما على مجرد أسماء الأشخاص .. كذلك ما كان يشكو الناس منع سهولة التنقل بين الأحزاب .. فالأحزاب الثلاثة فى حقيقتها كانت حزباً واحداً من حيث كونها مصلحة واحدة تمثل كبار ملاك الأراضى ومن جذبهم بريق الثروة والسلطان إلى ناحيتهم من المثقفين». (٤)

«وفى مواجهة هذه الأحزاب الثلاثة التى اضطلعت بالحكم كانت هناك مجموعات أخرى من تنظيمات العمل العام استطاعت أن تجذب إليها أعداداً من المثقفين لم يجذبهم إليها إيمانهم الكامل بها بقدر ما جذبهم محاولة البحث عن طريق .. وكان الإخوان المسلمون أكبر هذه التنظيمات ولكن فلسفتهم كانت تلفت إلى الوراء .. وكانت التنظيمات الشيوعية تليهم فى القوة ولكن الثورة فى تقديرهم لا تصنع محياً وإنما يتم استيرادها .. واستيرادها جاهزة ملفوفة بالسيلوفان الأحمر مختومة بالنجمة الحمراء من الاتحاد السوفيتى أمر لا مناص منه .. وكان الحزب الوطنى أصغر هذه التنظيمات وربما أطيبها ولكنه على أى حال أبعداً عن قدرة العمل الثورى». (٥)

«وكما أن الأحزاب الثلاثة غير الحاكمة (الوفد والأحرار الدستوريين والسعديين) استطاعت أن تشد جماعات كبيرة من المثقفين الذين كان بمقدورهم أن يقوموا بالثورة .. فإن هذه التنظيمات غير الحاكمة (الإخوان والشيوعيون والحزب الوطنى) استطاعت أن

تشنت جماعات كبيرة أخرى من المثقفين وأن تستنزف منهم طاقة كان يمكن أن تدفع الاتجاه نحو الثورة .. ثم تبقى بعد ذلك من المثقفين جماعة الذين آثروا أن يتوافروا على عملهم الفنى سواء فى وزارات الدولة أو فى منشآت القطاع الخاص .. وهؤلاء آثروا لسبب أو لآخر ألا يمارسوا العمل العام» .. ولكن هيكل يستطرد قائلاً: إنه بهذا التحليل لا يسلب من الأحزاب والتنظيمات التى عددها مواقف لها مهدت للثورة: «إننى أسلم بوجود مثل هذه المواقف ولكنها تأثير ظروف مرحلية لا تقدر على المضى فى فتح الطريق وصولاً إلى الثورة» .. وهو بهذا التحليل لا يستبعد وجود عدد من المثقفين خارج الأحزاب والتنظيمات التى عددها كان ينظر إلى ما يجرى حوله من غير رضا ولكنه ولم يكن فى تعبيرة عن عدم رضاه غير أن يضرب كفا بكف ويتحسر .. وكانت الحسرة شىء والثورة شىء آخر» .

ثم يقول: «وحصيلة هذه الصورة للعمل السياسى فى النهاية هى وجود فراغ هائل كبير فى النهاية كان بنفسه هو الذى دعا الطليعة من ضباط الجيش الذى تحركوا ليلة ٢٣ يوليو إلى حركتهم .. هو الذى ناداهم وأكاد أقول ألح عليهم فى النداء .. أكاد أقول هذا وأنا أذكر حديثاً لجمال عبد الناصر قال فيه: لم أكن واثقاً أن الثورة ستنجح ولم يكن النجاح هو كل ما أريده .. لقد كان حسبى أن نتحرك» .

أى أن كل ما يبنيه هيكل من تقرير للثورة هو الحركة البدنية التى قام بها الضباط الأحرار .. معطياً دوراً أقل – أو دور يبدو عابراً – لكل الذين مهدوا لها من تنظيمات وجماعات وأحزاب .. فالعبرة عنده بالإنجاز .. بالتغيير .. وربما يكون عنده بعض الحق .. ولكن .. هل كان الشعب سيستقبل ما جرى فى ٢٣ يوليو بكل هذه الحفاوة وبكل هذا الحماس ويحولها من انقلاب إلى ثورة لو لم تمهد التنظيمات والجماعات والأحزاب لها؟ ثم أن هناك تحليل يلقى رواجاً كبيراً بين المثقفين – المعارضين والمؤيدين للثورة – هو أن ضباط الجيش تحركوا فى الوقت المناسب لا لأن غيرهم كان عاجزاً عن الحركة وإنما لإجهاض حركة الآخرين قبل أن تحدث الثورة الشعبية بمفهومها المباشر .. لا بالمفهوم الذى يطرحه هيكل .. وهى نظرية سادت .. واستخدمت فى تفسير النجاح العاجل غير المتوقع لثورة يوليو وفى تفسير عدم تدخل القوات البريطانية للإجهاز على الثورة .. وكان مرشحاً للثورة أو كانوا على أطرافها – حسب هذه النظرية – قوة الإخوان وقوة الشيوعيين .. وهما قوتان تمثلان خطراً على معادلة السلطة فى دولة مهمة فى المنطقة مثل مصر .. فكان لابد أن تخرج قوة ثالثة معتدلة تصل إلى السلطة وتكون جاهزة

لتحقيق إصلاح مقبول فى اتجاه العدالة الاجتماعية بعيدا عن تطرف الإخوان والشيوعيين .. وهكذا .. تحركت ما اسماه هيكل بالطليعة الثورية من ضباط الجيش .. ويرى أصحاب هذه النظرة أن الولايات المتحدة الأمريكية كانت وراء ذلك كله.

ويخلص هيكل من رفضه لعودة الأحزاب القديمة إلى ثلاث نتائج: (١) أن المطالبة بعودة الأحزاب القديمة كان معناها تجميد الثورة من حيث أنها دعوة للمصالح القديمة أن تعود إلى الحكم .. بل إلى التحكم .. (٢) أن المطالبة بتأليف أحزاب جديدة كانت دعوة نظرية باعتبار أن التغيير الثورى الذى وقع حتى ذلك الوقت لم يكن قد سمح بفرصة لظهور مصالح جديدة قوية وقادرة .. (٣) أن مطالبة الطليعة التى تصدت للثورة بتأليف حزب واحد تنطوى على كثير من التجنى .. فإن هذه الطليعة بسبب بعدها عن مجال العمل السياسى بصورته الطبيعية لم تكن تملك إلا إرادة التغيير الثورى .. ولم تكن قد وصلت بعد إلى عقيدة تقود خطاها إلى التغيير وإنما هى حتى ذلك الوقت كانت تمارس عملها الثورى بالتجربة والخطأ. (٦)

ويصل هيكل إلى الأزمة الثالثة .. وهى المفاضلة بين أهل الثقة وأهل الخبرة .. وفى بداية مناقشة هذه الأزمة يضع هيكل بعض النقاط على بعض الحروف: (١) التسليم بأنه فى عدد من الظروف كانت لأهل الثقة أفضلية معينة .. (٢) أن المفاضلة بين أهل الثقة وأهل الخبرة ليست مفاضلة بين العسكريين والمدنيين .. (٣) أنه ليست هناك خطوط فاصلة قاطعة ونهائية بين أهل الثقة وأهل الخبرة .. فكثير من أهل الثقة يمكن أن يكونوا أهل خبرة (محمود يونس فى قناة السويس ومحمود رياض فى الخارجية مثلا) .. كما أن كثيرا من أهل الخبرة يمكن أن يكونوا فى نفس الوقت أهل ثقة (سيد مرعى فى الزراعة وعزيز صدقى فى الصناعة وعبد المنعم القيسونى فى الاقتصاد وهم من المدنيين مثلا). (٧) وبينما اعتبر لويس عوض أن جمال عبد الناصر كافا بالمناصب الذين قاموا بالثورة معه وتحملوا معه عبء المخاطر وهو ما خلق أهل الثقة فإن هيكل يرى أن الثورة لجأت إلى هؤلاء بسبب الفراغ الذى وجدت الدولة فيه بعد أن تغيرت السلطة .. «فالجموع التى جاءت إليها كانت أشياء متفرقة وقلولا متناثرة» وأضاف جمال عبد الناصر فى «فلسفة الثورة»: «وذهبنا نلتمس رأى من ذوى الرأى والخبرة من أصحابها ومن سوء حظنا لم نعثر على شىء كثير .. كل رجل قابلهنا لم يكن يهدف إلا إلى قتل رجل آخر .. وكل فكرة سمعناها لم تكن تهدف إلا لهدم فكرة أخرى .. ولو أطعنا كل ما سمعناه لقتلنا جميع

الرجال وهدمنا جميع الأفكار .. وكان لابد أن تخلق الثورة رجالها وأن توسع الدائرة بعد ذلك.

هل تغيرت رؤية هيكل لمشكلة الديمقراطية فيما بعد؟.

إنه لا يتحدث الآن عن «أزمة المثقفين» وإنما يتحدث عن «أزمة الديمقراطية» أو بتعبيره الذى يراه أدق «مشكلة الديمقراطية» والمشكلة أكبر من أزمة (٧) .. ولكنه يطرح هذه المشكلة بعيدا عن المشهد المصرى وبمنظور عين طائر يحلق فوق سماء العالم الثالث.. باعتبار أن مصر هى جزء منه.

وهو يرى أن الديمقراطية مشكلة «فى بلادنا» مثلها مثل مشكلة الفقر .. ومشكلة الجهل .. ومشكلة التفاوت الطبقي الفادح .. وهى قضايا لا يستطيع حاكم بالذات أن يتحمل كل المسئولية عنها «لأن الحقيقة التاريخية أكبر من عمر أى حاكم» .. ويلاحظ أنه يتحدث عن الحاكم لا عن الحكم .. «لأن الظاهرة السائدة فى معظم بلدان عالمنا الثالث هى ظاهرة الرجل الواحد .. الحاكم الفرد «بنص كلامه».

وبنص كلامه أيضاً:

• إن الديمقراطية لا يمكن أن تتحقق إلا فى مناخ يسمح بحل المشاكل عن طريق المناقشة الحرة .. الحوار الديمقراطى.

• إن ذلك لا يمكن أن يتوفر إلا إذا كان المجتمع المنتج قادرا على أن يصنع ثروة تكفى مجموعة .. وأن يكون توزيع هذه الثروة على أساس يكفل لكل فرد نصيبا عادلا فى الثروة العامة يكفى لتلبية احتياجاته الأساسية من الغذاء والكساء .. من الصحة والسكن .. من التعليم والثقافة.

• مثل ذلك التوازن الاقتصادى الاجتماعى هو القاعدة التى يمكن أن يقوم عليها التوازن السياسى داخل أى مجتمع .. التوازن السياسى يعبر عن نفسه بمؤسسات دستورية .. المؤسسات الدستورية وعاء الحوار .. ثم مصدر القرار بعد الحوار.

• الديمقراطية هى أعقد قضايا الإنسانية فى ماضيها وحاضرها .. ربما مستقبلها .. سبب التعقيد أن الكل طلبوها ويطلبونها وسوف يلحون فى طلبها .. لكن أحد لا يعرف بالتحديد ماذا يريد منها .. أو حتى هى على وجه اليقين؟ .. وعالم اليوم على سبيل المثال يختلف فى مذاهبه واتجاهاته .. لكن كلمة الديمقراطية على لسان كل المختلفين .. هناك مثلاً: رأسمالية واشتراكية وماركسية وبين هذه المذاهب حروب لكنها جميعا تجرى تحت

لواء الديمقراطية .. كلهم ديمقراطيون .. وهناك مثلاً: شرق وغرب وشمال وجنوب .. وبين هذه الاتجاهات جميعاً فوارق وفواصل بعيدة بعد السماء عن الأرض .. لكن الاتجاهات الأربعة تلتقى عند حديث واحد هو الديمقراطية .. بالحق أو بالادعاء.

• الحل الديمقراطي هو أن يصبح الحكم فى غير حاجة إلى القوة العسكرية إلا فى حماية الأمن الخارجى للدولة.

• ورغم ذلك كله تبقى كلمة ذلك الديمقراطى العظيم مونتيسكيو خالدة : «إن الديمقراطية الحقيقة لم توجد قط .. ولن توجد قط».

ولا أزيد.

الهوامش

- (١) جمال الشلبى : «محمد حسنين هيكل - استمرارية أم تحول؟» - مصدر سابق - ص ٥٧.
- (٢) عادل حمودة: «أزمة المثقفين وثورة يوليو» - مكتبة مدبولى - القاهرة ١٩٨٥.
- (٣) المقال الأول لهيكل بعنوان «أزمة المثقفين» - الأهرام فى ١٢ يونيو ١٩٦١.
- (٤) المقال الثانى لهيكل بعنوان «لماذا فتحت المناقشة فى هذا الموضوع الآن؟» - الأهرام فى ١٦ يونيو ١٩٦١.
- (٥) المقال الثانى.
- (٦) المصدر السابق.
- (٧) المقال الثالث لهيكل بعنوان «المطالبة بعودة الحياة النيابية» - الأهرام فى ٢٣ يونيو ١٩٦١.
- (٨) المقال الرابع بعنوان «أهل الثقة وأهل الخبرة» - الأهرام فى ٣٠ يونيو ١٩٦١.
- (٩) هيكل «السلام المستحيل والديمقراطية الغائبة» - مصدر سابق - ص ٢٣٦.

الفصل الخامس

نحن وأمريكا.. من الثورة إلى الهزيمة

فتش عن المخابرات المركزية

■ دخل الرئيس الأمريكى ليندون جونسون على بعض السفراء العرب فى قاعة استقبال وزارة الخارجية فى واشنطن.. كانت مشاعر القلق تسيطر على الجميع بعد هزيمة العرب فى حرب يونيو ١٩٦٧ .. وكان هناك تصور أن هذا اللقاء بين السفراء العرب – الذين بقوا فى واشنطن رغم قطع العلاقات بين بلادهم والولايات المتحدة – والرئيس الأمريكى سيخفف من حدة هذا المشاعر .. واعتبر السفراء العرب أن لقاء الرئيس جونسون مفاجأة سارة لأنها تتيح لهم التحدث معه والتعبير عن مشاعرهم .. لكن الدهشة سرعان ما استبدت بهم حين دخل جونسون إليه وهو يمسك بوثاق من الجلد يقود به كلبه الذى يسبقه إلى الدخول .. ثم جلس .. وكانت بداية حديثه – لذهولهم – موجهة إلى الكلب وأسمه على نفس فصيلته «بيجل» قائلاً له بالحرف الواحد تقريباً:

«اسمع يا بيجل .. حكاية رجل شرير تخانق مع جاره الطيب متصوراً أن هذا الجار الطيب لا يستطيع الرد عليه .. ولكن الجار الطيب يا بيجل استجمع كل قواه ولكم جاره الشرير لكمة قوية طرحته على الأرض .. له حق يا بيجل .. أليس كذلك؟ .. لماذا يحق لأصحاب هذا الرجل الشرير أن يشتكوا للآخرين؟ .. ماهو رأيك يا بيجل؟» .

وكاد يغمى على السفراء العرب المدعويين .. بل وكاد يغمى على بعض السفراء الأمريكيين الحاضرين .. وإن تكلف بعضهم ابتسامات مغتصبة .. ثم قام الرئيس جونسون وبيجل لا يزال يسابقه .. فقد كان كلبه الأثير إليه ضمن أربعة كلاب يحتفظ بها من نفس الفصيلة أهدتها إليه ماتيلدا كريم .. حسب رواية هيكل فى كتابه «الانفجار» .

إن ما تيلدا كريم من أب سويسرى كاثوليكي وأم إيطالية يهودية .. وقد كانت جاذبيتها لا تقاوم .. وقد تزوجت من يهودى هو ديفيد داتون كان الرأس المدبر لحادث اغتيال اللورد موين وزير الدولة البريطانى فى الشرق الأوسط والذى كان مقيما فى القاهرة .. وعندما وقع جونسون فى هواها وأصبحت عشيقته كانت فى الأربعين من عمرها وإن لم تفقد سحرها ولا تأثيرها على الرئيس الأمريكى الذى صورته الصحافة العربية فى ذلك الوقت على هيئة راعى بقر .. كاوبوى قبيح وخشن.

لقد كان مشهد جونسون وكلبه بيجل هو ذروة الشماتة الأمريكية فى أصعب لحظات عاشها جمال عبد الناصر .. وقد تلقت تجربته وأحلامه الوطنية والقومية أعنف ضربة سياسية وعسكرية .. وبهذه الضربة وصلت العلاقات المصرية الأمريكية إلى حائط سد .. لم يكن من الممكن هدمه وإعادة فتح الطريق من جديد أمام هذه العلاقات إلا بمعجزة سماوية .. أو بتغير النظام فى مصر.

ولم تكن صدفة أن يروى هيكल قصة العلاقات المصرية الأمريكية قبل ساعة صفر الحرب .. فالعلاقات المتوترة بين البلدين كانت طرفاً فاعلاً ومؤثراً فى السخونة المتصاعدة على الحدود العربية الإسرائيلية .. بل ربما كانت الطرف الرئيسى فى الأزمة التى انتهت بكارثة .. فلو لم تجدها الولايات المتحدة فرصة لتوجيه ضربة صاعقة للنظام الناصرى فى مصر لما منحت إسرائيل ضوئاً أخضر للهجوم الخاطف على النحو الذى عجل بالهزيمة فى ساعات قليلة .. وقد شاركت الولايات المتحدة فى خطة الخداع عندما وافقت على استقبال زكريا محيى الدين فى واشنطن فى نفس اليوم الذى كان مقرراً فيه أن تبدأ إسرائيل الحرب.

كتب هيكل ١١ مقالاً بعنوان «نحن وأمريكا» .. نشر المقال الأول فى ٢٤ فبراير ١٩٦٧ .. ونشر المقال العاشر فى ٥ يونيو فى ٢٤ فبراير ١٩٦٧ .. يوم الحرب .. ونشر المقال الأخير بعد أسبوع من الزلزال .. فى ١٢ يونيو ١٩٦٧ .. وكانت أجواء الهزيمة تخيم على الجميع .. وكانت هذه السلسلة من المقالات هى منطقة فاصلة فى كتابات هيكل بين ما قبل الهزيمة أو النكسة .. وما بعدها.

وصف هيكل «أمريكا» بالغنى الغبى .. وصف تصرفاتها «بحماقة القوة» التى تتحول بكثرة التهور والتورط إلى مركب خطر وشرير .. ومن ثم فإن أسلوب تصدينا للصدام معها «لا بد له من تقديرات سليمة وحسابات دقيقة» .. «وأول ما ينتج عن ذلك ضرورة أن لا يكون رد الفعل مطلقاً .. رد الفعل المطلق ضد خصم لا نطوله بطريقة مباشرة يصبح

من جانبنا حالة هياج عصبى .. كلما زادت كلما قل تأثيرها، .. ورغم أن هيكمل استطرد قائلاً: «وأود أن يكون واضحاً أن ذلك شيء يختلف عن المساومة والمهادنة» إلا أن التيارات السياسية والثقافية اليسارية والماركسية – التى حلت تنظيماتها ووجدت نفسها قادرة على التعبير فى أجهزة الإعلام المختلفة – اعتبرت ما يكتبه عن الولايات المتحدة «مساومة ومهادنة» .. خاصة فى وقت وصل فيه العداء لأمريكا إلى حد الغضب الكاسح الذى يصعب معه مناقشة أى شيء يتعلق بها دون «هياج عصبى» .. وراحت هذه التيارات تروج لفكرة سادت فى تلك الأيام هى أن هيكمل «أمريكاني» .. وهى فكرة لم تلغها اتهامات الإخوان المسلمين له بأنه «اشتراكي» ..

إن الصراع والصدام بين هيكمل والاتحاد الاشتراكي كان يرجع إلى ما بعد قانون تنظيم الصحافة .. كان الاتحاد الاشتراكي – الذى آلت إليه الملكية الأسمية للصحافة – يريد أن يمارس نفوذاً مباشراً عليها .. وكان أن اقترح تشكيل مجلساً أعلى للصحافة يمارس من خلاله هذا النفوذ .. لكن .. كان لهيكمل رأى آخر .. هو تشكيل ما يسمى بهيئة الصحافة العربية المتحدة .. على غرار تجربة الملكية التعاونية فى صحيفة «الموند» الفرنسية .. وهو ما جعله يوجه دعوة لرئيس مجلس إدارتها «بيف ميرى» ليكون ضيفاً على الأهرام ليشرح التجربة .. وكانت صيغة هيئة الصحافة العربية المتحدة – التى صاغها فى قالبها القانونى الدكتور جمال العطيفى – وكما قال لى هيكمل بنفسه: كانت تعطى استقلالاً كاملاً للصحف .. بأن تؤجر كل صحيفة رخصتها من الاتحاد الاشتراكي التى يملكها لمدة ٢٥ سنة قابلة للتجديد مقابل ٥٠ ألف جنيه سنوياً .. وهو ما رفضه رئيس التنظيم السياسى على صبرى الذى كان يهيمه الهيمنة على الصحافة ولا يهيمه ما يجنيه من ورائها مالياً .. وهكذا .. وُلد الخلاف والصدام بينه وبين هيكمل.

وما زاد الطين بلة أن جمال عبد الناصر رحب بمشروع هيكمل وطلب تنفيذه فى الأهرام وأخبار اليوم على أن يكون هيكمل هو رئيس مجلس إدارة هذه الهيئة الجديدة .. على أن تخرج منها جريدة الجمهورية التى كان من رأى جمال عبد الناصر أن تترك للاتحاد الاشتراكي لتكون جريدته وليشرف عليها على صبرى .. ولم يكن هيكمل مستريحاً لإدارته لأخبار اليوم إلى جانب الأهرام .. وكان ما قاله لجمال عبد الناصر: «أن ذلك تركيز للقوة الصحفية فى يد واحدة بأكثر مما هو ضرورى وصحى» .. لكن .. جمال عبد الناصر كان مُصر .. وهكذا زادت سخونة الخلاف والصدام بينه وبين الاتحاد الاشتراكي.

كانت أخبار اليوم قد مرت بتطورات حادة بعد تنظيم الصحافة .. فقد عُين أمين شاکر من ضباط الثورة رئيساً لمجلس إدارتها .. وتدخل هیکل .. ووافق جمال عبد الناصر على أن يعود مصطفى وعلى أمين إلى أخبار اليوم .. ولم تهدأ الصراعات .. بل تضاعفت .. وكان أن خرج أمين شاکر .. وجاء بعده کمال رفعت .. ثم خالد محیی الدين .. إلى أن تقرر أن يشرف عليها هیکل .. وبخروج هؤلاء السياسيون من أخبار اليوم وصل الخلاف والصدام بين هیکل والتنظيم السياسی إلى نقطة اللاعودة.

وفيما بعد .. بعد الهزيمة عندما راح هیکل يدعو إلى «تحييد أمريكا» ووجدها الاتحاد الاشتراکی فرصة لفتح النيران عليه فی جريدة «الجمهورية» .. لقد قال له جمال عبد الناصر: «ليس لدى اعتراض على ما تكتب .. ولن يصيبك أحد بسوء طالما أنا على قيد الحياة .. لكن لن أمنع أحد من الهجوم عليك .. دافع عن نفسك ودافع عن أفكارك» .. وما كاد هیکل يفتح سيرة «تحييد أمريكا» حتى وجد هجوما عليه من أقطاب التنظيم السياسی .. على صبرى وضياء الدين داود ولبيب شقير .. فقد كتبوا يهاجمونه فی ثلاثة مقالات نشرتها «الجمهورية» فی يوم واحد.

كانت هناك ثلاثة مشاكل رئيسية مزمنة بين القاهرة وواشنطن – ناقشها هیکل فی مقالاته المطولة – راحت حداثها تزداد يوما بعد آخر:

(١) مشكلة إسرائيل : وقد انتقل الدعم الأمريکی لها من مجرد مجاملة لأصوات اليهود فی انتخابات البيت الأبيض إلى مساندة عسكرية واقتصادية بلا حدود وضمنان لأمنها وسلامتها فی اتفاقات استراتيجية يصعب الرجوع فيها.

(٢) مشكلة ملوك العرب الرجعيين: وقد انتقل الدعم الأمريکی لهم من دعم نظمهم بالدعاية والمساندة السياسية إلى دعمها بالقوة المسلحة ومؤامرات الكواليس بما فيها محاولات القتل والاغتيال.

(٣) مشكلة الضغط الاقتصادي : وقد انتقل من مجرد تجميد الأرصدة المصرية كما حدث فی حرب السويس عام ١٩٥٦ إلى حرب التجويع بمنع القمح عن الشعب المصری كما حدث فيما بعد .. فی بداية الستينات.

وكانت هناك أربع مراحل مرت بها العلاقات المصرية الأمريكية من التفاهم إلى الصدام:

(١) مرحلة محاولة الترويض: وهی مرحلة ممتدة من قیام الثورة عام ١٩٥٢ إلى توقيع صفقة الأسلحة السوفيتية عام ١٩٥٥.

(٢) مرحلة محاولة العقاب: وقد بدأت من عام ١٩٥٦ بالحرب النفسية وسحب عرض المساهمة فى مشروع السد العالى ثم امتدت بعد الحرب المسلحة فى السويس إلى حرب اقتصادية عنيفة استمرت إلى عام ١٩٥٨.

(٣) مرحلة محاولة الاحتواء: وقد بدأت من عام ١٩٥٩ مستغلة الخلاف الذى وقع بين مصر والاتحاد السوفيتى بسبب دور الشيوعيين فى العراق الذين حكموا بقوة عبدالكريم قاسم الذى كان قد وصل إلى السلطة هناك فى عام ١٩٥٨ .. واستمرت هذه المرحلة إلى عام ١٩٦٣ حين بدأ الصدام بين مصر والسعودية فى اليمن .. ساعتها تراجعت أمريكا عن الاحتواء ودخلت العلاقات بينها وبين مصر فى مرحلة جديدة.

(٤) مرحلة محاولة العنف: وقد بدأت منذ عام ١٩٦٣ .. ووصلت إلى ذروتها فى حرب يونيو ١٩٦٧.

فور قيام الثورة كان على صبرى يوقظ صديقه الملحق الجوى الأمريكى من نومه ويبلغه بما وقع .. وبهذه المكالمات التاريخية بدأت المرحلة الأولى فى العلاقات بين الثورة وواشنطن .. المرحلة التى يطلق عليها هيكل مرحلة «الترويض» .. وهذه المرحلة بدأت بطلب شراء أسلحة لمصر من الولايات المتحدة وانتهت بصفقة الأسلحة من الاتحاد السوفيتى فى عام ١٩٥٥.

كانت كلمة «السلاح» هى الكلمة – المفتاح فى هذه المرحلة التى استمرت نحو ثلاث سنوات .. وكان هذا متوقعا على الأقل من جانب النظام الثورى الجديد فى مصر .. فالجيش الذى تقدم ليحتل موقع القوة فى البلاد كان يشعر بالضعف والمهانة .. والإنجليز من جانبهم لم يقتنعوا بالجلاء والرحيل – خلال مفارقات ما قبل الثورة – «لأنه لم تكن هناك قوة مسلحة قادرة على فرض الاقتناع» .. ووراء القاعدة التى يحتلها الإنجليز تترامى أرض عربية أخرى هى فلسطين واجه عليها الجيش المصرى محنته القاسية فى عام ١٩٤٨.

وفى جو كان يوحى بالتفاهم كان أول طلب تقدمت به مصر إلى الولايات المتحدة هو طلب شراء أسلحة يُدفع ثمنها بالإسترلينى من أرصدة مصر المجمدة لدى بريطانيا وقتها .. ولم ترفض الولايات المتحدة الطلب .. بل على العكس رحبت به واستجابت للتفاوض بشأنه على الفور .. بل أنها تذكرت اتفاقا وقعته مع النظام الملكى للحصول على سلاح

منها بمقتضى قانون الأمن المتبادل .. وإن كانت الأسلحة المطلوبة لا تصلح إلا لقوات الأمن الداخلية.

بعد أسابيع قليلة وفى شهر نوفمبر ١٩٥٢ على وجه التحديد وصل إلى القاهرة ويليام فوستر مساعد وزير الدفاع الأمريكى وقتها .. وقالت السفارة الأمريكية وهى تخطر بمجيئة: «لقد جاءكم من تستطيعون الحديث معه فيما تريدونه كله» .. ووجه السفير «جيفرسون كافر» دعوة عشاء إلى جمال عبد الناصر ورفاقه على شرف الضيف الأمريكى .. وذهب جمال عبد الناصر وفى جيبه قائمة بما يحتاجه الجيش المصرى لتكوين فرقة مدرعة حديثة .. وقد استغرق أعداد هذه القائمة شهرا كاملا .. وأعقب العشاء جلسة امتدت ثلاث ساعات وافق ويليام فوستر على القائمة مع بعض التعديلات .. ثم وضع سيجارا كبيرا كان يدخنه على منفضة بجانبه وأمسك ورقة وكتب عليها بيده عبارة «طريقة السداد وشروطه» .

وانتهى العشاء بأن تسافر بعثة عسكرية مصرية إلى واشنطن لتوقيع اتفاق تفصيلى .. وسافرت البعثة برئاسة على صبرى وكان مديرا لمكتب جمال عبد الناصر .. وفى الوقت نفسه كان هيكل هناك بدعوة رسمية لتغطية الانتخابات الرئاسية الجديدة .. وهناك راح يراقب من بعيد عمل بعثة على صبرى ونشاطها الذى لم يزد عن زيارة مصانع وقواعد السلاح .. وراح كذلك يجرى اتصالات مع قيادات الخارجية والبنجاجون .. وقد شرح هيكل ما جرى وما كان بالتفصيل فى مجموعة كتبه «حرب الثلاثين عام» .. وخلاصته أن واشنطن لن تعطى مصر السلاح الذى تطلبه إلا إذ دخلت فى تسوية مع إسرائيل .. ودخلت فى الحلف الإسلامى الذى يضم تركيا وباكستان (مثلث أنقرة - القاهرة كراتشى) . طال غياب على صبرى وبعثته .. وكانت تعليمات جمال عبد الناصر أن يحضر بنفسه شحن أول دفعة من السلاح الأمريكى المنتظر .. ولكن الانتظار طال والشحنة الأولى لم تصل .. وكان أن قال جمال عبد الناصر كلمة أصبحت شهيرة فيما بعد : «يظهر أن على صبرى سوف يكون هو نفسه الشحنة الأولى إلى مصر .. وبغير سلاح» .

وهكذا فشلت بعثة على صبرى .. وكان سر الفشل مكالمة تليفونية من رئيس الحكومة البريطانية ونستون تشرشل للرئيس الأمريكى الجديد دوايت ايزنهاور وكان صديقا شخصيا له منذ أيام الحرب العالمية الثانية .. وقال تشرشل على التليفون: «يا صديقى العزيز ويارفيق السلاح القديم .. هل يعقل أن تعطوا المصريين أسلحة يقتلون بها أولادنا من جنود قاعدة السويس؟» .. وكان تعليق ايزنهاور: «إن ذلك لن يحدث بسهولة» .. وإنه

كقائد عام سابق لقوات الحلفاء «لا يمكن أن يسمح بأى شىء من شأنه إلحاق أذى بجنود ربما كانت فرقتهم وكتائبهم بالذات تحت قيادته فى الحرب العالمية الثانية» .

ولم تتوقف المناورة الأمريكية .. ففى ربيع عام ١٩٥٣ جاء وزير الخارجية جون فوستر دالاس إلى مصر فى زيارة كان يروج فيها لسياسة «سد الفراغ» فى الشرق الأوسط لتطويق الخطر الشيوعى .. السوفيتى .. والتقى الوزير الأمريكى بجمال عبد الناصر وجرى بينهما حوار رصدته التقارير الرسمية وسجلته الميكروفونات الخفية .. وكانت النهاية رفض جمال عبد الناصر مطالب واشنطن وتسويق واشنطن فى بيع السلاح لمصر.

ويقول هيكل : إن دالاس يقول فى الأوراق التى تركها بعد وفاته لجامعة برنستون : إنه اهتم بوجهة نظر جمال عبد الناصر .. لكنه كره صاحبها .. وكان السؤال الذى طرحه فى واشنطن أثناء اجتماع لمجلس الأمن القومى الأمريكى عرض فيه لنتائج رحلته إلى الشرق الأوسط هو : إن ناصر بدا مقنعا بما أبداه من حجج ولقد بدا لى متعصباً «كالرينو» - وحيد القرن - ولكن المسألة هى مدى قوة ناصر فى مصر ومدى تأثيره خارجها؟ .. هل يستطيع ناصر أن ينطح مشروعاتنا فى المنطقة .. أغلب الظن أنه لا يقدر .. فظروف مصر لا تعطيه أكثر من قرن من الصفيح .. وبدأ التفكير يومها فى حلف بغداد مع استبعاد مصر.

وقبل أن استطرد أسجل أننى أنقل من مقالات نشرها جمال عبد الناصر فى «عز» قوته .. إنه لم يغضب من نشر الأوصاف التى وصفه بها دالاس .. «وحيد قرن» .. و«قرن من الصفيح» .. وقبل ذلك فإنه لم يتردد فى السماح بنشر مثل هذه الأسرار وإطلاع الناس عليها.

ولم يكن موقف جمال عبد الناصر مع دالاس هو الموقف الوحيد الذى إتسم بالإثارة .. كان هناك موقف آخر مع السفير الأمريكى الجديد هنرى بايرود الذى كان شاباً فى الأربعين ليسهل على الإدارة الأمريكية معرفة جمال عبد الناصر - الذى كان فى منتصف الثلاثينات - بصورة أدق يرسمها شخص قريب من جيله وعمره .. خاصة وأن السفير الأمريكى السابق جيفرسون كافرى كان قد تجاوز الستين .. وقد استمر بايرود سفيراً لمدة ٣ سنوات .. من عام ١٩٥٣ إلى عام ١٩٥٦ .. «لكن المشكلة أنه استطاع أن يرى من وجهة النظر المصرية أكثر مما كانت واشنطن مستعدة لرؤيته والنتيجة أن بايرود وقع فى تناقض مؤلم بين ما كان يطلبه وبين ما كان مطلوباً منه» .

وفى ذلك الوقت جاء إلى القاهرة كيرميت روزفلت (مستول الشرق الأوسط فى المخابرات المركزية الأمريكية) مبعوثا شخصيا للرئيس أيزنهاور .. وفى الوقت نفسه كان فى القاهرة أريك جونسون .. صاحب المشروع الشهير باسمه لاستغلال مياه نهر الأردن .. ورتب سفير مصر فى واشنطن «أحمد حسنين» وكان وقتها فى إجازة فى القاهرة - عشاء يحضره جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر مع كيرميت روزفلت وأريك جونسون وهنرى بايرون .. «وكان واضحا حتى قبل العشاء أن بايرون يعانى بسبب التناقض الذى يعيش فيه تمزقا داخليا .. وعندما وصل جمال عبد الناصر وبدأ حديث ما قبل العشاء كان روزفلت وجونسون يسألان أسئلة متعددة وجمال عبد الناصر يجيب ويقول بين الحين والآخر: «إن بايرون يعرف هذا كله ولقد قلته أكثر من مرة» .. وفجأة قال بايرون : «سيدى الرئيس» «إننى أعرف هذا كله .. ولكننى لا أعرف لماذا ضرب أحد رجالى اليوم فى السويس؟» .

ونظر الكل إلى بايرون فى دهشة لتحويلة مجرى الحديث وللعصبية المكبوتة فى كلماته .. واستمر بايرون يقول: «إن المستر «فينش» الملقب العمالى فى سفارتى كان يقوم بزيارة لمصنع تكرير السويس وقد ضربه العمال هناك إلى حد كاد يفضى به إلى الموت» . وقال جمال عبد الناصر فى هدوء: «إن المستر «فينش» كما تقول معلوما متنا ليس مجرد ملحق عمالى ولكنه ممثل للمخابرات الأمريكية .. ولقد طلبنا إليكم أكثر من مرة أن يمتنع عن الذهاب إلى المناطق العمالية لكنه مازال يذهب وعليه أن يتحمل أية مشاكل تقع له من جانب نقابات عمالية تعرف مهمتها وترفض دخوله وسط عمالها» . وقال بايرون وكانت ظروفه كلها تضج بتفاعلات داخلية عنيفة داخلية: «أخشى أن أقول يا سيدى الرئيس أن عمالكم تصرفوا بطريقة غير متحضرة» .

ونظر جمال عبد الناصر إليه .. ومرت فترة صمت حبس فيها الجميع أنفاسهم .. وفجأة أطفأ جمال عبد الناصر سيجارته فى مطفأة على مائدة أمامه ثم قال: «سوف أترك الليلة تقرأ كتابا عن الحضارة المصرية وتاريخها البعيد وعندما تتعلم منه شيئا نتكلم مرة أخرى» .. وقام جمال عبد الناصر ومعه عبد الحكيم عامر وسار معه حتى باب سيارته مبعوثا أيزنهاور: روزفلت وجونسون ويحاولان الاعتذار إليه .. وكان بايرون وحده فى الصالون الذى شهد الأزمة يدرك تماما أنه وقع فى خطأ مروع ولا يعرف كيف يخرج منه أو يعتذر عنه .. وفى اليوم التالى كان هيكل يقول لروزفلت وجونسون: إن بايرون قد انتهى .. وفى ذلك اليوم نفسه أبرق مبعوثا أيزنهاور برقية مشتركة إلى جون دالاس تقول

فى بدايتها: «إننا نأسف لأن نقول لك إننا نعتبر - وهذا تقديرنا نحن الاثنين - أن بايرود لم يعد يصلح أن يكون سفيرا فى القاهرة بعد حادث وقع أمس» .. ثم ذكرا ما جرى.

كان كيرميت روزفلت قد كون رؤية واقعية دقيقة لجمال عبد الناصر .. فقد كان فى رأيه: شخص يؤثر فيمن يقابله .. صبور .. لا يحيد عن هدفه رغم أن يوحى بغير ذلك أحيانا .. يتحلى بكفاءات تؤهله لقيادة المنطقة وتجميع شعوبها ودفعها إلى مستقبل أفضل .. بارع فى «التكتيك» وإن لم يصبح بعد صاحب «إستراتيجية» محددة.

ورغم أن جمال عبد الناصر قبل اعتذار بايرود فيما بعد إلا أن الرأى فى الخارجية الأمريكية أن بايرود لم يعد يصلح .. فهو لم يستطع أن يؤثر على جمال عبد الناصر «فقد تأثر بدلا من أن يؤثر» .. وعندما سامحه جمال عبد الناصر فإنه شعر بدين أدبى تجاهه .. أو بالتعبير المصرى الشائع إنه «كسر عينه».

ثم جاءت سنة ١٩٥٥ وهى سنة حاسمة وخطيرة .. ففى بدايتها .. فى شهر يناير تكون حلف بغداد وقادته الأسرة «الهاشمية» من بغداد .. وفى شهر فبراير وقعت الغارة الإسرائيلية الشهيرة على غزة .. وفى ذلك الوقت قال جمال عبد الناصر للسفير الأمريكى: «إن مصر لن تدخل فى حلف بغداد ولن تقبل بحماية الغرب الذى هو نفسه حامى إسرائيل» .. وإذا لم نستطع الحصول على السلاح من مصدر غربى فسوف نحصل عليه من حيث نجد» .. وسأل بايرود فى قلق: «إننى لم أفهم تماما سيدى الرئيس هذه العبارة الأخيرة» .. وقال جمال عبد الناصر: «أقول بوضوح: إذا لم أحصل على السلاح منكم فسوف أحصل عليه من غيركم».

وسافر جمال عبد الناصر إلى باندونج فى إبريل ١٩٥٥ وعلى الطريق إلى هناك التقى فى مدينة رانجون عاصمة بورما بشواين لاي رئيس وزراء الصين .. وفى لقاء بينهما جرى يوم الاحتفال بعيد المياه شرح جمال عبد الناصر تطورات الأزمة فى الشرق الأوسط ثم وصل إلى السؤال الصعب: هل يستطيع الاتحاد السوفيتى أن يبيع لنا سلاحاً؟ .. ونقل شواين لاي السؤال إلى موسكو - وكانت العلاقات بينها وبين بكين على ما يرام - ولم تمر سوى شهور معدودة حتى كانت الإجابة جاهزة .. ففى مايو ١٩٥٥ نقل السفير السوفيتى فى القاهرة «سولود» رسالة هامة وسرية إلى جمال عبد الناصر .. كان ملخصها: «إن الاتحاد السوفيتى يقدر لمصر أنها رفضت بتصميم أن تجعل من بلادها قاعدة عسكرية فى مخطط الغرب لتطويق الاتحاد السوفيتى وحصاره .. ومع أن الاتحاد السوفيتى يقدر

أن مصر فعلت ذلك من إصرارها على الاستقلال الوطنى الكامل فإن الاتحاد السوفيتى لا يشعر بأن ذلك لا يقلل من عرفانه لموقف مصر .. والاتحاد السوفيتى يرى أن أبسط ما يستطيع أن يعبر به عن تقديره وعرفانه هو أن يستجيب لطلب مصر بشراء السلاح منه» .

ودعى جمال عبد الناصر بايرود بعد أيام لمقابلته وقال له : «لم أتلق منكم ردا بلا أو نعم.. وأنا أريدك أن تفهم أننى لا أناور .. وأنا أعنى ما أقول» .. وخرج بايرود ليبرق لواشنطن بأن جمال عبد الناصر يعنى ما يقول .. لكن واشنطن لم تصدقه .. وقال دالاس : «إن جمال عبد الناصر نجح فى تهويشة» .. ولكن سرعان ما شعرت المخابرات المركزية أن صفقة الأسلحة السوفيتية هى مسأله جادة .. فطلب كيرمت روزفلت موعدا من جمال عبد الناصر الذى أحس وهو يوافق على الطلب أن واشنطن ستمارس ضغطا لمنع الصفقة .. وكان أن اتخذ قرارا بإعلان النبأ قبل وصول روزفلت وكان رأيه : أنه فى حاجة إلى تعبئة رأى العام «سلاحه الأساسى والوحيد فى مواجهة الضغط المنتظر.. كذلك فإنه لا يستطيع أن يعطى الآخرين حق سؤاله وهو يرفض إذا سئل أن يجيب بغير الصدق .. كما أن الإعلان عن الصفقة سوف ينقل الموقف خطوة إلى الأمام ويفرض على واشنطن أن تحدد رد فعلها» .. ولم يجد جمال عبد الناصر مناسبة لإعلان النبأ سوى معرض للقوات المسلحة .. لكن إعلان النبأ كان أكبر من أى مكان يمكن أن يعلن منه.

ويقول هيكل فى مقال بصراحة نشره فى يوم الجمعة ٢١ إبريل ١٩٦٧ : «وانذكر أننى قابلت كيرميت روزفلت صباح يوم وصوله - وكان صديقا قديما من أيام اشتغاله بالصحافة وعندما كتب كتابه الشهير «بتروول العرب وتاريخهم» .. وكان «كيم» يبدو فى ذلك الصباح قلقا وعصبيا وقد قال لى : «ليس هناك حل آخر غير إلغاء الصفقة مع الاتحاد السوفيتى .. أو على الأقل التعهد بعدم تنفيذها» .. فقال هيكل : «ظنى .. كواحد من الذين يتابعون الأحداث .. أن كلا الطرفين مستحيل» .. قال «كيم» : «إن ستكون العواقب رهيبه» .. ثم استطرد : «إن الأمور قد تتطور إلى قطع العلاقات الاقتصادية بيننا وبين مصر.. ثم قد نقطع العلاقات السياسية .. ثم قد نفرض حصارا على الشواطىء المصرية لمنع وصول السفن الحاملة للأسلحة» .

وكان شبح ما جرى فى جواتيمالا يثير الفرع .. لقد حاصر الأمريكيون شواطئها وغزوها من الداخل عندما اشترت سلاحا سوفيتيا .. وكان رأى جمال عبد الناصر : «إن جواتيمالا هناك فى أمريكا اللاتينية .. ونحن هنا فى العالم العربى .. ولو فتش الأسطول

السادس سفننا فلن يجد عليها شيء .. وإذا استوقف سفن غيرنا فلن تكون المشكلة معنا» .

وتقرر أن يأتي جورج ألن مساعد وزير الخارجية إلى القاهرة وكان في جيبه إنذاراً مكتوباً من دالاس إلى جمال عبد الناصر بوقف صفقة الأسلحة أو التعهد بعدم تنفيذها .. وإلا .. وأبلغت رئاسة الجمهورية السفارة الأمريكية وأبلغت كيرميت روزفلت برسالة مضمونها: (١) أن الرئيس جمال عبد الناصر سوف يستقبل جورج ألن. (٢) أن الصفقة مع السوفيت أصبحت أمراً واقعاً لا يقبل البحث أو المناقشة خصوصاً مع أى طرف أجنبي. (٣) أن مصر ليست مستعدة لسماع إنذار أمريكي فضلاً عن قبوله وإذا حدث أثناء مقابلة جورج ألن مع الرئيس جمال عبد الناصر أن بدر منه ما قد يفهم ولو بالتلميح على أنه إنذار فإن الرئيس جمال عبد الناصر سوف يذق الجرس على مكتبه ويستدعى تشريفاتي الرئاسة منه أن يسحب جورج ألن إلى طريق الباب مطروداً. (٤) بعدها فإن الرئيس جمال عبد الناصر لن ينتظر بل إنه هو من جانبه سوف يخرج ليعلن قطع كل العلاقات مع أمريكا.

«كان الوقت يجرى بسرعة وطائرة جورج ألن تقترب من القاهرة وبإيرود روزفلت كلاهما قد أصبح واثقاً أن جمال عبد الناصر سوف «يعملها» ويطرد مساعد وزير الخارجية الأمريكية من مكتبه إذا تصور أنه يهدده أو أنه يحمل إليه إنذاراً أو ما يمكن أن يوصف بأنه إنذار .. وقصد الاثنان مطار القاهرة ينتظران وصول جورج ألن .. وعندما اقتربت طائرته ودخلت إلى المجال الجوي طلبا الإبراق إليه برسالة عاجلة تسلم إليه في الطائرة قبل الهبوط .. وكانت الرسالة تقول له: «إن الموقف في القاهرة قابل للانفجار ومن رأينا - نحن الاثنين - أن لا يظهر تلميح أو تصريح من كلامك مع الصحفيين الذين ينتظرونك في المطار أنك تحمل تهديداً أو إنذاراً إلى عبد الناصر» .

ونفذ جورج ألن النصيحة .. وسأل: هل يستطيع عبد الناصر أن يطردني من مكتبه؟ .. فقال روزفلت: «نعم يستطيع» .. ذهب جورج ألن لمقابلة عبد الناصر .. ووجد مناسبا أن لا يخرج من جيبه على الإطلاق رسالة دالاس المكتوبة مستعيضا عنها برسالة شفوية قام هو بإعدادها عن الرغبة في حسن العلاقات مع مصر وعن الأمل في أن لا تحدث مضاعفات من شأنها الإساءة إليها .. وخرج مساعد دالاس من مكتب عبد الناصر منكسراً .. وعلى حد تعبير هيكل: فإنه بهذا المشهد انتهت محاولة أمريكا لترويض الثورة المصرية بالفشل .. وكانت الثورة المصرية قد تمردت واتخذت موقف العصيان علناً .. وكان على الولايات

المتحدة أن تتجرع الكأس المرة إلى القطرة الأخيرة .. وكان عليها أن تفكر فى المرحلة القادمة .. وفكرت فى محاولة العقاب» .

وبعد سقوط مرحلة الترويض أمام مفاجأة صفقة الأسلحة السوفيتية وصدمتها فإن القاعدة الموضوعية للعلاقات المصرية – الأمريكية تهاوت من أساسها .. ولم يكن اختيار الأحجار لبناء القاعدة الجديدة أمر سهلاً .. قريب المنال ..

فى بداية شهر نوفمبر ١٩٥٥ وبعد مناقشات واسعة فى وزارة الخارجية الأمريكية اشترك فيها ممثلون عن وزارة الدفاع عن إدارة المخابرات المركزية الأمريكية – بدا دالاس مقتنعاً بأن أسلوب تخويف جمال عبد الناصر غير مجد وأن أسلوب الترغيب قد يكون أقرب إلى التحقيق .. وكانت نقطة الترغيب تعرض نفسها بنفسها .. فقد كان مشروع السد العالى يناقش باهتمام فى مصر كأمل من أعز الآمال وأغلاها .. ووافق دالاس على فكرة أن تعرض الولايات المتحدة على مصر مساعدتها فى تنفيذ المشروع ولم يكن فى ذلك بريئاً كل البراءة وإنما كانت له مقاصده وأبرزها: (١) أن المساعدة فى بناء السد العالى هى مساعدة فى مشروع سلام وهى مساعدة تختلف عن ما قدمه السوفيت من أسلحة هى فى النهاية تصب فى الحرب. (٢) أن المشروع طويل الأجل لن يستغرق أقل من ١٥ سنة وفى هذه الفترة ستكون مصر فى حاجة مستمرة ومتصلة لواشنطن. (٣) إن المشروع يشد جمال عبد الناصر إلى الداخل ويبعده عن الخارج وبالذات العالم العربى حيث لا تريده السياسة الأمريكية ولا تريد تأثيره.

لكن بعد أسبوعين غير دالاس رأيه بحجة أن عبد الناصر أهان السياسة الأمريكية وتحداه شخصياً وأن معلومات السفارة الأمريكية أنه لن يكف عن شراء الأسلحة السوفيتية .. وعكست تقارير السفارات الأمريكية فى بغداد وأنقرة وطهران وكاراتشى مخاوف حلفاء واشنطن هناك من نجاح سياسة التمرد التى قام بها عبد الناصر فى تحقيق مكاسب له ولوطنه أكثر مما حققه الحلفاء والأصدقاء .. «فوق ذلك فإن دالاس قال بنفسه فى اجتماع لمجلس الأمن القومى الأمريكى عقد فى البيت الأبيض تحت رئاسة أيزنهاور: «إننى أكره جمال عبد الناصر ولا أظنه سوف يكون صديقاً لنا فى يوم من الأيام ولا يجب أن نسمح له بأن يذهب آمناً بما أخذ وإنما يجب أن نعيده إلى حجمه الطبيعى» .. وهكذا فى فترة ١٥ يوماً انتقل دالاس من النقيض إلى النقيض .. وإن أخفى قرار سحب تمويل السد العالى لمدة ٦ شهور كاملة» – هيكل: بصراحة مقال يوم الجمعة ٢١ إبريل ١٩٦٧ .

وقرر جمال عبد الناصر أن يرد .. قرر الاعتراف بالصين الشعبية .. وصدمت القاهرة دالاس – الذى كان قد نجح فى عزل الصين الشعبية – صدمة جديدة .. ولم يتردد دالاس

فى إعلان قرار سحب تمويل السد العالى .. فكان أن قام جمال عبد الناصر بتأميم قناة السويس .. وبدأت مقدمات حرب السويس .. فى محاولة لغزو مصر وتصفيه الثورة وجمال عبد الناصر من الداخل .. وفشل العدوان الثلاثى (البريطانى الفرنسى الإسرائيلى) وخرج جمال عبد الناصر منتصرا سياسيا على الأقل .. وبدأ دالاس بعد انتهاء المعارك يجرع أسلوبه.

«كانت مصر فى حاجة إلى قمح وطلبت شراؤه من أمريكا على أن تدفع ثمنه بالدولار من أرصدها التى جمعتها .. ورفض دالاس بيع القمح لمصر.. ورفض أيضا بيع الدواء .. لكن مصر لم تأكلها المجاعة ولم يحصدها الوباء ولم تركع أمامه .. ثم بدأ دالاس عملية إقناع الملك سعود بن عبد العزيز (ملك السعودية) بفكرة الحلف الإسلامى .. ثم رتب مع تركيا عملية غزو لسوريا .. لكنه فوجئ بوجود قوات مصرية هناك .. ثم فوجئ بالوحدة بين مصر وسوريا .. ثم فوجئ بالثورة فى لبنان .. ثم كان الانقلاب فى العراق ومصرع الملك فيصل وهروب نوري السعيد وسقوط حلف بغداد .. وبدأت السياسة الأمريكية كلها «كرجل فقد صوابه» .. وهكذا انتهت مرحلة محاولة العقاب وبدأت مرحلة محاولة الاحتواء - المصدر السابق.

وجاءت المرحلة الثالثة .. مرحلة محاولة الاحتواء بعد فشل مرحلة محاولة الترويض .. ومرحلة محاولة العقاب .. ورسمت المرحلة الجديدة مجموعة من الصور بينها: «الحصار بغير عنف والعرقلة بدون استعمال القوة وكسوة اليد الحريرية بالقفازات الحريرية» . «كان الترتيب الأقرب إلى المنطق هو أن يكون العنف تالياً للعقاب بغير فاصل يتطفل على السياق المعقول لخط سير الأحداث باعتبار أن العنف ذروة يتصاعد نحوها العقاب .. وفى الحقيقة فإن مرحلة الاحتواء كانت دخيلة بالفعل على خط سير العلاقات المصرية - الأمريكية فى تلك الظروف التى استيقظت فيها الولايات المتحدة صباح ١٤ يوليو ١٩٥٨ فإذا حلف بغداد حطام وإذا أصدقائها الهاشميين فى العراق موتى بغير قبور وإذا عرش عمان يترنح يحتاج إلى سند سريع من الإنجليز يجيئه عبورا من أجواء إسرائيل وإذا الأعوان فى لبنان لا يحميهم إلا تدفق جنود البحرية الأمريكية من قطع الأسطول السادس على شواطئ بيروت .. فى تلك الظروف بدت القاهرة وواشنطن وكأنهما سفينتان على «مجرى صدام محقق» حسب التعبير البحرى الشهير» .. لكن فجأة «وقع تحول فى مجرى

الصدام المحقق ولم يدو الانفجار الملتهب وأفاق الذين كانوا ينتظرونه بأعصاب مشدودة فإذا هناك تداخل غير منطقي يؤجل مرحلة العنف ويحشر في خط سير العلاقات بين البلدين مرحلة طارئة هي الاحتواء ١ - هيكمل: بصراحة يوم الجمعة ٢٨ إبريل ١٩٦٧.

كان سبب التداخل المفاجيء والطارىء هو أن المخابرات البريطانية اكتشفت بسرعة شخصية اللواء عبد الكريم قاسم الذى تصدر ثورة ١٤ يوليو ١٩٥٨ فى العراق .. وكانت من اعقد الشخصيات التى ظهرت على مسرح التاريخ العربى واشدها غرابة .. إنه كان على استعداد لأن يواصل سياسة وضع بغداد فى موقع مضاد للقاهرة .. وأنه اختلف نتيجة ذلك مع القوميين .. وهو ما خلق صراعا بينهم وبين الشيوعيين .. وهو أيضاً ما جر الاتحاد السوفيتى إلى الميدان، وهكذا .. وقع الخلاف بين القاهرة وموسكو وصل إلى حد تبادل الاتهامات علنا بين جمال عب الناصر ورئيس الحكومة السوفيتية نيكيتا خروتشوف .. ووجدت واشنطن أن خطر جمال عبد الناصر أهون من خطر الشيوعية .. فاضطرت أن تضع فرامل على اندفاعها نحو الصدام العنيف مع مصر.

وقدمت الولايات المتحدة لمصر مساعدات محدودة تصورت أنها يمكن أن تشجع القاهرة على هجر موسكو وربما تؤدي بهما إلى القطيعة .. كانت مصر وقتها قد بدأت فى تنفيذ خطة السنوات الخمس الأولى .. فسعت واشنطن لبيع القمح لها بالجنية المصرى .. وكانت مدة الاتفاق ٣ سنوات .. وقيمه ٣٠٠ مليون دولار .. جرعة كبيرة قد تخلق العادة .. ثم تجعل القمح بهذه الشروط السهلة بندا لا يمكن الاستغناء عنه ببساطة فى خطة التنمية .. وتقدمت مصر من جانبها بطلب ثان وهو تحويل طلبه البعثات - الذين بدءوا يتعرضون للمضايقات - من الاتحاد السوفيتى إلى الولايات المتحدة .. وعلى الفور تقدمت واشنطن بثلاثمائة منحة دراسية .. ومضت الحوادث فى تطورها.

تمكنت القاهرة من حصار النفوذ الشيوعى فى بغداد .. ونجحت فى توقيع عقد بناء السد العالى مع موسكو .. وفى الوقت نفسه رفضت القاهرة اقتراحا - سجلة فى خطاب رسمى - للرئيس الأمريكى جون كيندى لتسوية النزاع العربى الإسرائيلى .. وتابعت واشنطن بقلق قوانين يوليو الاشتراكية .. ثم تابعت بقلق أشد تجربة إطلاق الصواريخ المصرية .. وخشية أن تصل القاهرة فى عملية تطوير الصواريخ إلى السلاح النووى .. ثم وقعت مفاجأة الثورة اليمنية فى عام ١٩٦٢ .. وعبرت قوات مصرية البحر الأحمر بطوله وذهبت إلى اليمن لمساعدة ومساندة الثورة هناك .. وكان أن بدأ القفاز الحرير يتمزق من تحت اليد الحديدية .. وراحت مرحلة العنف فى العلاقات المصرية الأمريكية تطلب وتشخص وتستعد للتعبير عن نفسها.

فى عام ١٩٦٥ كانت الولايات المتحدة تظن أن الأوضاع مواتية لترفع ضغطها على مصر إلى درجته القصوى .. ٣ فرق من الجيش المصرى فى اليمن على مسافة قريبة من السعودية .. موطن مصالحها البترولية الحيوية .. وكانت هذه الفرق على بعد ألفى كيلومتر من وطنها .. تتعرض لمناوشات من الشرق والشمال يحركها العرش السعودى .. ومناوشات من الجنوب تحركها القواعد البريطانية فى عدن وما حولها .. وكان على هذه القوات أن تتصرف بحذر .. وقد تركت هذه القوات فراغا أمنيا أغرى الإسرائيليون فيما بعد بتنفيذ خطة الحرب فى يونيو ١٩٦٧ .. وكانت هناك متاعب اقتصادية تتمثل فى التضخم الذى سببته خطة التنمية .. وتراجع واشنطن عن الاستمرار فى تنفيذ اتفاقية القمح .. وكانت هناك مؤامرات الإخوان المسلمين وعلاقتها بالمخابرات المركزية .. ولم تكن الظروف الدولية مواتية .. فخروتشوف سقط فى موسكو .. والصراع بين موسكو وبكين تفجر .. والمخابرات الأمريكية تقود الثورة المضادة فى إفريقيا .. وتستعد لضربات إضافية فى آسيا .. وفى وسط كل هذه الظروف بدت السياسة المصرية على حد تعبير هيكى «ساكنة .. ساهمة» .. وكان السؤال: «كيف تستطيع مصر أن تتقدم للمواجهة وخطوط العنكبوت الضخم الرهيب تبدو وكأنها أمسكت بحركتها»؟.

ولم يتح لهيكى الإجابة على السؤال .. فقد كانت الأحداث من حوله تجرى أسرع من أن يلحق بها أحد .. وكانت الأحداث تتجه بمرحلة العنف إلى ذروتها الدرامية والسياسية .. حرب يونيو ١٩٦٧ .. وكان أن قطع هيكى سلسلة مقالات «نحن وأمريكا» .. ليكتب مقالا بعنوان: «الصدام بالسلاح مع إسرائيل محتم .. لماذا؟» .. نشره فى ٢٦ مايو ١٩٦٧ .. ثم كتب مقالا بعنوان: «الصراع الذى يدور فى التفكير الإسرائيلى الآن» .. نشره فى ٢ يونيو ١٩٦٧ .. وكان المقالان هما آخر ما نشره قبل ١٩٦٧ .. وبهما انتهت مرحلة كاملة من مراحل كتاباته السياسية.

هيكل ومصطفى أمين .. بلا عودة

■ فى عام ١٩٦٥ وقعت حادثة غير متوقعة ضاعفت من جو التوتر المشحون بالعنف بين القاهرة وواشنطن .. وفى الوقت نفسه أصابت كل الصحافيين فى بلاط صاحبة الجلالة بالذهول .. وكانو جميعا فى حاجة لبعض الوقت لتقبل الصدمة .. ثم تجاوزها

فى ١٥ مارس من نفس العام كان موعد الاستفتاء على مدة رئاسية جديدة لجمال عبد الناصر .. وفى ٢٣ إبريل من نفس العام طلب على أمين من هيكل أن يترك أخبار اليوم ويذهب للعمل معه فى الأهرام .. وكانت حجتة: «إن جو العمل فى أخبار اليوم أصبح ثقيلًا عليه وقد أصبح ضيق الصدر بكل شىء.. ويكاد ينفجر فى أى لحظة» .. ووافق هيكل .. بل ووافق أن يكون على أمين مراسلا مقيما للأهرام فى لندن .. وفى مساء ذلك اليوم كان على موعد مع جمال عبد الناصر وأخبره بما فعل .. ثم وجد نفسه يضيف: «أن على أمين يحمل فى قلبه طفل رغم اندفاعاته أحيانا» .. وفوجئ بجمال عبد الناصر يسأله: «ومصطفى..؟» .. وأحس هيكل أن لديه شيئا يعرفه ولا يريد أن يقوله .. ثم حدث بعد فترة شىء أصاب هيكل بالدهشة .. كان على موعد مع جمال عبد الناصر فإذا به وسط حديث طويل يقول له: «أنت تتقابل مع مصطفى أمين بطريقة منتظمة وليس من شأنى أن تقابله أو لا تقابله .. هذه مسألة تخصك ولكنى أرجوك أن تتحفظ فى أحاديثك معه» .

كان موعد الغداء يوم الثلاثاء - الذى اتفقوا عليه فى بيت مصطفى أمين بعد أن ترك هيكل الأهرام - قد أصبح من عادات هيكل الثقيلة .. فهو قد لاحظ أن مصطفى أمين يحاصره بالأسئلة التى تدور حول كل ما يجرى فى البلد .. وقد حاول كثيرا أن يتهرب منه

.. كما أنه فى كل ثلاثاء كان يرسم سيناريو للهروب من أسئلة مصطفى أمين .. وكان هذا الموعد فى الأصل هو موعد غذاء هيكل الأسبوعى فى نادى «الروتارى» .. وقد أصر عليه على أمين .. ولم يشأ هيكل أن يخذله للعشرة القديمة بينه وبينهما.

ويقول هيكل فى كتابه «بين الصحافة والسياسة» وهو المصدر الرئيسى لنا فى هذه الرواية: أنه بعد أن سمع تحفظات جمال عبد الناصر راح وهو فى طريقه إلى مكتبه يفكر فيها .. «وتداعى فى خواطره لدى استعادته لملاحظات جمال عبد الناصر شعور غريب راوده مرات فى أثناء غذاء الثلاثاء.. كنت أشعر أحيانا لمحاولة «ضخ» أو «سحب» من نوع ما يحدث لبئر ماء أو بترول يسقطون فيه ماسورة تتصل بمحرك قوى «يشد» و«يشفط» .. وكان هذا الشعور بذلك يحدث معى دائما أثرا عكسيا فقد كان رد فعله الغريزى انقباض يحتبس به أى كلام له معنى أو فيه قيمة .. وكنت أعزو ما أتعرض له فى هذا الشأن إلى الرغبة الحارقة لدى صحفى تقطعت عنده مصادر الأخبار من ينابيعها فراح يحاول اصطياها من حيث يجدها» .. ولم يكن هيكل يتصور أن ما يقوله يوم «الثلاثاء» يعيده مصطفى أمين يوم «الأربعاء» بصورة أو بطريقة أخرى لندوب المخابرات الأمريكية .. ولم يكن يدرك أن عيون المخابرات المصرية وأذانها ترصد وتسمع وتصور وتسجل.

لم يطل هيكل التفكير فيما سمعه من جمال عبد الناصر .. فانصرف إلى شواغل العمل .. وانصرف إلى ترتيبات السفر إلى لندن لإجراء جراحه لأبنته «على» فى عينيه هناك .. فى مستشفى مورفيلد .. وقد سافر هيكل إلى لندن على وعد أن يعود قبل احتفالات ٢٣ يوليو .. ولكن كانت هناك رسالة من القاهرة تطلب منه العودة قبل ٢١ يوليو .. وهو اليوم الذى أجريت فيه عملية أبنته.

وصل هيكل يوم ٢٠ يوليو .. وفى اليوم التالى كان فى بيت جمال عبد الناصر مستعدا لمناقشة معه تسبق كتابة خطاب الرئيس فى الاحتفال بعيد الثورة .. وبعد نصف ساعة من الدردشة العابرة .. وقبل أن يدخل فى تفاصيل الخطاب دق جرس التليفون على مكتبه .. وتوجه إليه من حيث كانا فى ركن من القاعة تطل نافذته على الحديقة .. ولم يكن جمال عبد الناصر يتكلم وإنما كان يسمع .. ولم يستغرق الوقت طويلا على التليفون فما لبث أن قال لمحدثه بهدوء «طيب» .. ثم وضع السماعة وعاد إلى حيث كنت أجلس .. وكنت قد نظرت إلى ساعتى عند قيامه استجابة لرنين التليفون وكانت الساعة الثالثة إلا ثلثا بعد الظهر.

ويستطرد هيكل: وبعد أن استقر جمال عبد الناصر فى مقعده أمامى أشعل سيجارة جذب منها نفسا عميقا وهو ما جعلنى أشعر بأن فكره تحول عن ما كنا نتكلم فيه .. ثم

قال لى وصوته يحمل نبرة حزم وأسف فى نفس الوقت: «إننى سأقول لك الآن شيئاً أعرف أنه سيضايقك» .. ثم أضاف: «لقد قبضوا على مصطفى أمين متلبساً بالتجسس للأمريكان» .. وعقد الذهول لسانى وتساءلت غير مصدق لما سمعت: «غير معقول» .. قال: «ذلك ما حدث للأسف» .. وقلت والذهول مازال مستبد بى: «سيادة الرئيس .. لا أفهم تماماً ما تقول» .. وراح بنفس النبرة التى يختلط فيها الحزم والأسف يقول: «أسمع .. أننى أريدك أن تعرف بشكل واضح أن الموضوع كبير وخطير .. وأنا لا أريدك أن تحتكم إلى مشاعرك الشخصية».

وطلب جمال عبد الناصر من هيكى أن يفعل شيئاً واحداً .. أن يعبر الشارع الذى يفصل بين مكتبه ومكتب سامى شرف .. وأن يطلع بنفسه على الملفات والأوراق ويستمع إلى التسجيلات الصوتية .. ثم عليه بعد ذلك أن يفكر على مهل فيما سوف يقرؤه ويسمعه .. ثم يذهب لينام على أن يعود فى الصباح .. ليناقدش كما يشاء.

ونفذ هيكى ما اقترحه جمال عبد الناصر .. ودخل غرفة فيها الملفات والتسجيلات .. دخلها فى الساعة الثالثة والنصف بعد الظهر تقريباً .. ولم يخرج منها إلا فى الساعة الثامنة مساءً .. وعلى حد قول هيكى «دخلتها مهموماً وخرجت منها ممزقاً».

القصة من واقع الملفات تبدأ فى عام ١٩٦٤ .. فى وقت كانت فيه العلاقات المصرية الأمريكية قد دخلت مرحلة العنف .. ويظهر اسم «بروس تايلور أوديل» لأول مرة فى القصة فى تقرير أرسله مندوب المخابرات المصرية فى «أثينا» فى ٦ مارس ١٩٦٤ .. يقول فيه: «أن معلومات وصلته تفيد أن أحد رجال المخابرات الأمريكية واسمه «بروس تايلور أوديل» سيجىء للعمل فى القاهرة تحت ستار دبلوماسى كمستشار فى السفارة الأمريكية فى القاهرة» .. ولم يكن ذلك مثيراً للدهشة .. فأكثر من ٤٠٪ من الدبلوماسيين فى السفارات الأمريكية هم فى الحقيقة عملاء لوكالة المخابرات المركزية.

وصل بروس تايلور أوديل القاهرة فى أغسطس من نفس العام وراح يتصرف بما لا يثير الريبة .. حضور الحفلات الدبلوماسية .. إجراء اتصالات لا شبهة فيها .. القيام بالنشاط الدبلوماسى المألوف .. وفى الفترة ما بين ديسمبر ١٩٦٤ ومارس ١٩٦٥ بدأ اسم مصطفى أمين يظهر فى تقارير متابعة أوديل .. وكانت اللقاءات فى البداية متفرقة .. ثم بدأت فى الانتظام كل يوم «أربعاء» .. فى اليوم التالى للقاء المعتاد بين هيكى ومصطفى أمين .. وكان اللقاء الأسبوعى يجرى فى بيت مصطفى أمين فى شارع «صلاح الدين»

رقم (٨) فى الزمالك .. وكانت اللقاءات تحاط بتصرفات تتسم بالغموض والسرية .. منها أن أوديل كان يوقف سيارته بعيداً عن بيت مصطفى أمين ثم يمشى على قدميه .. ومنها أنه كان يصعد بالأسانسير إلى دور أعلى ثم ينزل الشقة على السلالم.

ونجحت المخابرات المصرية فى الحصول على أذن من القيادة السياسية فى تسجيل اللقاءات .. وزرعت رجالها فى مطبخ مصطفى أمين .. وزرعت أجهزة التصنت فى جدران شقته بالزمالك .. وفى جدران فيلته بالإسكندرية .. فى ٢٦ شارع الإسماعيلية المتفرع من طريق الحرية .. وتراكت الملفات التى ترصد كلمات وهمسات وتحليلات ولقاءات الصحفى ورجل المخابرات الأمريكية .. وكان عدد هذه الملفات ثمانية .. وما فى هذه الملفات كان كافياً لاستصدار أمراً بالقبض عليه .. عندما جرى ذلك كان فى جيب مصطفى أمين خمسة آلاف جنيه .. وقبل ذلك كانت هناك أموال أخرى حصل عليها .. ولم يكن مصطفى أمين يأخذ أموالاً فقط وإنما كان يعطى أموالاً لرجل المخابرات الأمريكية لتحويلها إلى عملة صعبة يهربها إلى الخارج.

وفى التسجيلات والملفات التى تضمها القضية ينسب مصطفى أمين أخبار وأحاديث يقول لرجل المخابرات الأمريكية أنه سمعها مباشرة من الرئيس الذى يرمزان له بحرف «ر» أو «R» الحرف الأول من كلمة «ريس» .. وهى الكلمة الشائعة التى كان يُنادى بها «الرئيس» .. وأغلب الظن أن مصطفى أمين أراد أن يوهم أصدقائه الأمريكيين أن صلتته القوية بجمال عبد الناصر لم تنقطع أو تهتز .. وهى الصلة التى وصلت إلى ذروتها عندما كان جمال عبد الناصر يكلفه بهام سياسية فى واشنطن .. مثل مهمة إبلاغ «دالاس» بعد تأميم القناة: «أن العدوان المتوقع على مصر أصبح فى ذمة الله» .. ثم حدث العدوان بعد ذلك .. وقال مصطفى أمين فى القضية: إنه عندما كان ينقل أخباراً على لسان «الرئيس» فإنه كان يتصور أنه بهذه الطريقة يستطيع الحصول على معلومات هامة من الأمريكان .. ويضيف: «وعندما أعود لنفسى وأتذكر ما قلت أجد أننى أخطأت ولكن شفيعى فى ذلك حسن نيتى وأننى قدمت لبلادى نتيجة هذه الاتصالات الكثيرة».

وكشفت القضية أن «أخبار اليوم» كانت تتحول فى بعض الأحيان إلى غرفة عمليات يشترك فيها مصطفى أمين وهيكى وبعض رجال وكالة المخابرات الأمريكية فى مصر .. مثل ذلك ما حدث فى أيام العدوان الثلاثى الأولى .. وفى اعترافات مصطفى أمين المكتوبة نجده يقول بنفسه: «إن المباحثات بشأن وقف إطلاق النار وإرسال البوليس الدولى إلى مصر كانت تجرى فى مكتب فى أخبار اليوم بحضور محمد حسنين هيكى وبيل ميلر .. وكنا نبلغ الرئيس جمال عبد الناصر أول بأول بكل المعلومات ونقوم بمهمة الاتصال بين

الرئيس جمال عبد الناصر وأيزنهاور حتى أن الرئيس جمال عبد الناصر قال يومها: إن أخبار اليوم أصبحت وزارة خارجية تحت الأرض».

وكشفت القضية أن مصطفى أمين كان يستغل محرري أخبار اليوم في جمع الأخبار والمعلومات ليس للنشر ولكن لاستخدامها سواء في إرسالها للدولة .. أو لاستعمالها في لقاءاته مع رجل المخابرات الأمريكية .. وكانت هناك مكافآت من خزانة أخبار اليوم لمن يستجيب لهذه المهمة وينفذ ما يريد مصطفى أمين.

وكشفت التسجيلات أن مصطفى أمين كان يتحدث في موقف القوات المصرية في اليمن .. وفي حجم مخزون القمح في مصر .. وإمكانية تجويع المصريين ليضغطوا على النظام .. ومعلومات عن شراء أسلحة جديدة من الاتحاد السوفيتي .. والحالة المالية «السيئة» في مصر .. وسيطرة الشيوعيين على جريدة الأخبار ومجلتي روز اليوسف وآخر ساعة .. واكتشاف خلايا سرية في وحدات المشاة في الجيش المصري .. ومرض السكر الذي يزداد على الرئيس والذي أصابه بعد الانفصال في سوريا.

شعر هيكل وهو يسمع ويقرأ مفاجآت الملفات «بنوع من الدوران والغثيان» .. وسأله سامي شرف: «ما رأيك؟» .. فقال هيكل: «إنني أريد أن أفكر أكثر فيما سمعت وقرأت» .. فقال سامي شرف: «ألا ترى أن على أمين ضالع في القضية أو على الأقل أن اتصالا قد تم به؟ .. أنك أنت الذي توسطت له كي يخرج والواجب يقضى عليك أن تعيده إلى هنا» .. وسأله هيكل: «وكيف أفعل ذلك؟» .. قال: «فكرت في هذا الموضوع .. واقتراحي أن تبعث إليه ببرقية تستدعيه إلى القاهرة للتشاور .. إنه بالطبع لم يعرف أن مصطفى قد اعتقل .. فنحن لم نذع شيئا عن ذلك حتى الآن» .. قال هيكل له: «إنني مع تفهمي لدوافعه لا أستطيع أن أستدرج على أمين إلى فخ .. لا أستطيع ذلك إنسانيا ولا مهنيا ولا أخلاقيا» .. ويشهد هيكل أن سامي شرف لم يلح في طلبه:

وترك هيكل بيت الرئيس ومكتبه .. وركب سيارته وهو لا يعرف كيف حملته من منشية البكري إلى شارع مظلوم .. حيث كان مقر الأهرام في ذلك الوقت .. ويسجل في يومياته: «إن كل شيء بدا لي مسطحا فارغا .. حتى منظر الشوارع في وسط المدينة بألوانها وأضوائها بدت مجرد صور .. وكانت الأفكار والهواجس في رأسي دوامات ورياح وأمطار».

التجأ هيكل في مكتبه إلى مقعده «المألوف» في الركن القريب من المكتبة .. وقبل أن يواصل قراءة أوراق القضية تذكر أسرته «لأول مرة في ساعات بدت لي دهورا» .. واتصل

تليفونيا بلندن يطمئن على ابنه بعد الجراحة التي أجريت له .. وعرف أن أحوال ابنه طيبة .. «كثيرون جاءوا لزيارته وجاءوا معهم بلعب وزهور وحلوى .. وكان على أمين فى المستشفى طوال اليوم وانصرف مساء» .. وألقى هيكل رحلة السفر إلى لندن .. وعاد إلى القضية التي قلبت كيانه .. وراحت علامات الاستفهام تتدافع صلبة وعنيدة أمامه .. وكان من الصعب أن يجد لها حلاً .. فقد تساءل عن تكيف ما قرأ وما سمع؟ .. وتساءل عن تأثير ذلك على مهنة الصحافة؟ .. وتأثيره على علاقته الشخصية والعائلية والإنسانية بعائلة على ومصطفى أمين؟ .. ثم كان التساؤل الصعب: «ماذا أقول لجمال عبد الناصر؟ .. لقد صدقنى فيما قلت وأجابنى إلى ما طلبت ومن حقه أن يعتب ومن حقه أن يشك فى أحكامى على الناس وعلى الحوادث» .. و«أخيراً هل أعفيه من كل حرج وأقدم له استقالتي؟» .. وكيف يؤثر ذلك على المهنة؟ وبالتأكيد فإنها سوف تصبح حرماً مباحاً لمراكز قوة أرادت دائماً أن تسيطر على الصحافة وهى على استعداد فى أى وقت لكى تأخذ البريء بجريرة غير البريء .. ولا أقول المذنب .. ليس بعد .. ثم ألتست بتقديم استقالتي الآن أغامر بوضع نفسى فى دائرة لم أدخل إليها وفى مجال لا شأن لى به .. وفى كل الأحوال ماذا أقول لجمال عبد الناصر؟ .. وكيف أواجهه .. وبأى لغة أتحدث إليه .. وحتى مطلع الفجر لم يكن قد استقر لى قرار وكانت معظم الأسئلة لا تزال تتدافع من داخلى ومن حولى فى كل اتجاه» ..

كان موعد هيكل مع جمال عبد الناصر فى الساعة العاشرة صباحاً .. لكنه ذهب مبكراً نصف ساعة لعله يجد معلومات جديدة فى القضية .. كانت هناك بعض المعلومات عن واقعة القبض على مصطفى أمين وأوديل .. لقد فوجئاً بوكيل نيابة أمن الدولة وبعض ضباط الأمن القومى يدخلون عليهما فى ركن ظليل من حديقة البيت الذى استأجره مصطفى أمين فى ذلك الصيف فى الإسكندرية .. وجرى تفتيش أوديل وعشر معه على بعض الأوراق التى كتبها خلال المقابلة .. وأثناء تفتيشه أحتج بصفته الدبلوماسية وأخرج جواز سفره الدبلوماسى .. وسئل عن ما يفعله .. فقال: إنه كان مدعو إلى الغذاء ومع مصطفى أمين .. وأنهما كان يتحدثان فى مشاكل العالم .. وقد أفرج عنه بعد مصادرة الأوراق التى كانت معه .. وهى خمس ورقات صغيرة الحجم» ..

الورقة الأولى مكتوب فيها كلمات وإشارات أقرب إلى رؤوس الموضوعات: الخطاب ٢٢ .. المحتويات .. هل هناك خطاب فى الإسكندرية يوم ٢٦ .. اليمن .. العمرى .. ماذا حدث للنعمان؟ .. السعودى .. التغيير فى الحكومة .. مؤامرات الانقلابات .. حالة السخط .. الاتحاد السوفيتى .. الصين ..

أما الورقات الأربع الأخرى فتسجل حوار ادعاه مصطفى أمين جرى بينه وبين «ر» حول إضرابات عمالية في شركتي النسيج والجوت في الإسكندرية .. وفي شركة النقل في القاهرة .. لعدم صرف أرباح لعمالها .. لأنها لم تحقق أرباحا .. وشائعة عن تخفيض العملة المصرية .. ورفض «ر» لهذه الشائعة لأن الحكومة تطبع ما تشاء من أوراق النقد .. وتصريح من «ر» بأن خطابه يوم ٢٢ (يوليو) سيكون ارتجاليا .. وأنه سيرد فيه على الناس التي تهاجمه وتهاجم المتصلين به .. وقال «ر» أن كل ما يحدث من الخليج الفارسي إلى المغرب هو من تخطيط المخابرات المركزية».

وجاء موعد هيكل مع جمال عبد الناصر .. وكان واضحا أن جمال عبد الناصر يتفهم الحالة التي كان فيها هيكل .. فبادره بالكلام .. وقال له عدة نقاط محددة: (١) أن لا ضغوط قد جرت في التحقيق. (٢) إنه يعرف الصلات الإنسانية بينه وبين عائلة مصطفى أمين وأنه لا يخلط بين المسائل وعليه أن يتصرف إنسانيا كما يشاء. (٣) لن يسمح له مهما كانت الأسباب والدوافع بزيارة مصطفى أمين. (٤) ليس عليه مسئولية فيما فعل من وساطات بينه وبين مصطفى وعلى أمين .. وطلب منه أن يمسك أعصابه حتى لا يستغل أحد ما جرى ضده .. أو للنيل منه».

وطبقا لسجلات رئاسة الجمهورية فإنه في ظهر يوم ٢٢ يوليو دعى كل من أحمد بهاء الدين وفتحى غانم وعلى الشلقانى (مساعد خالد محيى الدين فى إدارة أخبار اليوم والمحامى الشهير فيما بعد) ومحمود أمين العالم وأحمد حمروش وسميرة الكيلانى (من الإذاعة) وحسن فؤاد للاطلاع على كل التقارير والوثائق .. ثم تقرر أن يقوم وزير الخارجية محمود رياض باستدعاء السفير الأمريكى فى القاهرة لوشىوس باتل وإبلاغه باستياء مصر مما جرى واعتبار بروس تايلور أوديل شخصا غير مرغوب فيه .. ولم يكن محمود رياض فى حاجة إلى أن يلح على هذا الطلب الأخير فقد تبين أن السفير الأمريكى طلب من أوديل فور علمه بما جرى بأن يركب أول طائرة ويخرج من مصر .. وقد كان» - هيكل: «بين الصحافة والسياسة».

فى مساء ٨ أغسطس كان هيكل مدعو للعشاء مع جمال عبد الناصر فى استراحة المعمورة بالإسكندرية .. وخرجا بعد العشاء يتمشيان على شاطئ البحر ويتحدثان طويلا وبعيدا فى كل شىء.. وفجأة قال جمال عبد الناصر: سوف أعطيك نسخة من خطاب بعث به مصطفى أمين إلى .. سوف تذهل من قراءته فهو اعتراف كامل.

وسأله هيكل عما يقصده باعتراف كامل فقال: «أنه خطاب بخط يد مصطفى أمين من ٦٠ صفحة» .. ثم أضاف: «لا أظنك تستطيع أن تقول ضغطا وقع عليه من أى نوع كى

يكتب خطابا من ٦٠ صفحة .. بالضغط يمكن لأحد أن يكتب صفحة صفحتين.. أما أن يكتب كتابا كاملا .. ويتفرغ لكتابته أربعة أو خمسة أيام .. فهذا مستحيل» .. ثم استطرد: «لكى أكون دقيقا معك فإننى أعتقد أنه فوجيء بالتسجيلات وبكمية ما تحتويه من «مصائب» ثم أنهم طمأنوه إلى أقصى حد لكى يعترف .. قالوا له فيما أتصور أن خبر القبض عليه لم ينشر وأنه إذا اعترف اعترافا كاملا فإن الموضوع كله يمكن أن يكون محل نظر.. وقالوا له أن اعترافا مفصلا هو الشيء الوحيد الذى يوفر إمكانية حصر الضرر الذى يمكن أن ينشأ نتيجة لما قاله لضابط المخابرات الأمريكى وقد يساعد هذا على التصرف فى القضية».

* * * *

ولا جدال أن الخطاب - الاعتراف مكتوب بلغة تقريرية صحفية لا تخلو من السلاسة والجاذبية وهو ما اشتهر به مصطفى أمين كواحد من أفضل المخبين الصحفيين إذا لم يكن أفضلهم .. ولكن يبدو أن الصحفي الذى تعود أن يجد نفسه فى القمة ثم وجد نفسه ينحدر قد قرر مواصلة الانحدار فراح يراهن على جواد المخابرات الأمريكية متصورا أنه جواد رابح لا يمكن أن يخسر السباق مهما كانت قوة جمال عبد الناصر .. خاصة فى ظروف كانت العلاقات بين القاهرة وواشنطن فيها قد وصلت إلى أسوأ ما يمكن .. ولا يتصور أن جمال عبد الناصر يمكن أن يزيد من سوء الذى يحكمها ويقبض عليه متلبسا بما فعل.

إن المخبر البارع لم يتردد فى أن «يفبرك» ما يسمعه وينسبه لرئيس الدولة .. وكان واضحا أنه فى حالة من اليأس جعلته يندفع ناحية الانتحار .. فهو يتحدث عن رغبتة الجدية فى طلب إجازة طويلة من أخبار اليوم «لأننى مرهق ومن رأى أنه يجب أن أعزل أى عمل صحفى إدارى بعد بلوغى سن الخمسين وأننى أفكر فى أن أكون مراسلا متجولا لأخبار اليوم ويكون مركزى بيروت ولكنى أخشى على حياتى فى بيروت .. فقد سبق أن حذرت أن حياتى فى خطر فى هذه المدينة» .. وسأل مصطفى أمين رجل المخابرات الأمريكية عن أفضل مدينة آمنة يمكن أن يلجأ إليها .. وكان رايه أنها لا بد وأن تكون خارج المنطقة العربية .. لأنه فى حالة وقوع انقلاب شيوعى فى مصر فلن تكون هناك عاصمة أو مدينة عربية آمنة .. وكان متوقعا أن تكون هذه المدينة هى لندن .. وكان متوقعا أن يفتح جمال عبد الناصر فى هذه الرغبة .. ويبدو أن عمليات تحويل الأموال المصرية الى كانت تقوم بها المخابرات الأمريكية هى عملية تمهيدية لخروجه من القاهرة إلى لندن.

ولم تتضمن المعلومات التى قدمها مصطفى أمين معلومات سياسية عسكرية واقتصادية فقط وإنما امتدت للمعلومات الشخصية .. فقد كانت هناك صورة للسيدة

«قدريّة» صديقة حسن إبراهيم نائب الرئيس وقد كتب عليها باللغة الإنجليزىة «نائب رئيس الجمهورية» .. وحسب ما قاله مصطفى أمين فإن جمال عبد الناصر لم يوافق على زواج حسن إبراهيم بها.

ولم يتردد مصطفى أمين فى كشف وسرد تاريخه الطويل مع المخابرات الأمريكية منذ كان يدرس هناك وهو طالب فى جامعة «جورج تاون» والتي لم يكمل دراسته فيها ولا فى غيرها.. وقد استفاد - على حد اعترافه - من علاقته بالولايات المتحدة فى الحصول على الأخبار والوثائق .. وحصل على امتياز طبع ونشر مجلة «المختار» الشهرية .. وحصل على امتياز طبع مجلة «الصدّاقة» الدعائية .. وحصل على إعلانات لصحف أخبار اليوم من الشركات الأمريكية .. وحصل على صفقة ورق أمريكية بحوالى ٢ مليون جنيه .. وحاول شراء مطابع أمريكية حديثة .. ثم أنه ساعد أم كلثوم على السفر إلى واشنطن والعلاج هناك بالذرة بدون مقابل.

ويروى مصطفى أمين: أنه حدث فى سنة ١٩٥٤ أن أخبرنى ايكل بيرجر من رجال وكالة المخابرات المركزية فى السفارة الأمريكية فى القاهرة أنه أطلع على برقية سرية جداً وصلت على التو من السفير الأمريكى فى تل أبيب بأن الجيش الإسرائيلى سيقم بعدوان فى يوم معين على مصر وألح فى أن لا أخبر الرئيس بهذا الأمر وقال أنه لو عرف أحد أن هذه البرقية تسربت فسوف يفقد عمله .. وأسرعت على الفور وأخبرت الرئيس عبد الناصر بما حدث .. واهتم الرئيس بهذا النبأ وطلب معلومات أوسع عن هذه العملية الخطيرة ومكانها .. واتفقنا أن أذهب أنا ومحمد حسنين هيكل ونقابل مستر بايرود السفير الأمريكى واستطاعنا أن ندخرجه ونعلم أن الخبر صحيح مائة فى المائة .. وأحضر السفير بايرود البرقيات السرية التى وصلت إليه وتفاهمت أنا وهيكل أن يشغله هيكل بالحديث بينما أنا أنقل البرقية وفعلاً استطعت أن أنقل نص البرقية وقدمناها إلى الرئيس جمال عبد الناصر وأصدر الرئيس على الفور أمره إلى الجيش المصرى بالاستعداد لهذا العدوان المفاجئ .. وتم العدوان فى موعده .. وكان الجيش المصرى مستعداً له .. وأعطى الجيش المصرى يومها درساً لليهود .. وقد شكرنى الرئيس جمال عبد الناصر يومها على هذا العمل الذى قمت به وقال أننى خدمت خدمة كبرى.

ولم يشأ هيكل فى هوامش كتاب «بين الصحافة والسياسة» - الذى نشر فيه نص خطاب مصطفى أمين إلى جمال عبد الناصر - أن يعلق على هذه الرواية .. وقال بالحرف الواحد: «يُورد الأستاذ مصطفى أمين اسمى فى عدة مواضع من هذه الرسالة ولا أريد اعتراض النص هنا بالتوقف أمام نفى أو تصحيح فليس هذا مجاله» .. وقال سألتها عندما

جاء الوقت المناسب عن صحة هذه الواقعة فنفاها .. وكان رأيہ أن خیال مصطفى أمين النشط قد شطح إلى أقصاه .. وأنه لا يمكن تصور أن السفير والدبلوماسيون ورجال المخابرات المركزية في السفارة الأمريكية بهذه السذاجة .. لا يمكن أن يقولوا له نص برقية سرية جاءت من إسرائيل على هذه الدرجة من الخطورة .. وإذا فعلوا فالهدف هو أن يعرف جمال عبد الناصر .. ولا يمكن أن يحضر السفير الأمريكي البرقية عندما نطلبها منه .. ولا يمكن أن يتركها لينقلها مصطفى أمين على النحو البوليسي «الأهبل» الذي يرويہ.

مرت ساعتان وهيكل يقرأ هذه الرسالة التي أرسلها له مكتب جمال عبد الناصر في شرفة تطل شاطئ البحر بالإسكندرية .. «ورحت أنظر من بعيد إلى البحر الذي غطاه الظلام وإن لم يستطع أن يوقف حركته .. كان صوت تدافع الأمواج على الشاطئ يصل إلى في سكون الليل .. وكانت السماء ملأى بالنجوم التي تلالاً بريقها أكثر في تلك الساعات التي تسبق طلوع الفجر .. ورحت أحرق في النجوم العالية البعيدة .. وبعض السحب التي تجرى تحتها وتخفيها عن ناظري لبعض الوقت ثم تذهب إلى حال سبيلها» .. و .. «كان في ذهني سؤال واحد يطرح نفسه على بغير صخب وبغير إلحاح .. وكان السؤال هو: ولكن ما هي الحقيقة؟ ما هي الحقيقة وراء ما يبدو في هذه الأوراق التي فرغت لتوى من قراءتها .. ما هو جوهر الحقيقة؟».

والحقيقة أن الإجابة تأجلت أكثر من عشرين سنة ولم تتبلور إلا عندما راح هيكل يكتب كتابه «بين الصحافة والسياسة» إلى كان حاداً ودامغاً وقاطعاً في الرد على الحملات الشرسة التي خاضها أنصار مصطفى أمين ضده فيما بعد .. بعد أن ترك الأهرام . وبعد أن عاد مصطفى وعلى أمين إلى الصحافة من جديد .. وبعد أن انقلبت مصر على جمال عبد الناصر وعلى نفسها سياسياً واجتماعياً واقتصادياً وأيدلوجياً.

قال هيكل: «كان سهلاً على أن آخذ بالتفسير البسيط والمسطح وأنسب الأمر كله إلى الخيانة والعمالة وما إلى ذلك من كل ما شاع في القاموس السياسي العربي من نعوت .. وكان ما سمعته وقرأته - بما فيه الرسالة الوثيقة - يوافق ويؤيد .. ثم كان في استطاعتي أن أتذكر مما أعرفه ما قد يعزز هذا التفسير ويؤكدہ».

أما ما يعرفه هيكل ويعزز هذا التفسير ويؤكدہ فهو : أن الولايات المتحدة كانت وهي ترتب لورثة الإمبراطوريات القديمة بعد الحرب العالمية الثانية تسعى إلى نشر القيم الأمريكية وطريقة الحياة الأمريكية في كل انحاء الدنيا .. خصوصاً في بلاد الأعداء السابقين

الذين خسروا الحرب وأصبحوا تحت رحمتها .. وكذلك فى البلدان التى كانت واقعة تحت نير الاستعمار التقليدى الذى فكت الحرب قبضته وأوشك الذين كانوا تحت حكمه أن يتحرروا وأن يختاروا لأنفسهم ما يريدون من مجموعات القيم وطرق الحياة .. كسب هؤلاء جميعا كان أولوية تسبق غيرها من الأولويات فى السياسة الأمريكية بعد الحرب. «بمقتضى ذلك وتأسيسا عليه قامت المخابرات الأمريكية بعمليات واسعة فى عالم النشر .. وبالتحديد فى المجالين السابقين .. مجال الأعداء الذين استسلموا فى أوروبا والشرق الأقصى .. ثم فى مجال الدول التى انفكت عنها قبضة الاستعمار التقليدى وجاءتها الفرصة لتتحرر .. لم يعد ذلك ضربا من الظن وإنما أصبح اليوم أدلة وشواهد لا سبيل إلى إنكارها».

فحسب تقرير السيناتور «تشرش الذى قدمه للكونجرس فى عام ١٩٧٤ عن نشاط وكالة المخابرات المركزية فإن مجلة «المختار» أو النسخة العربية من مجلة «ريدر دايجست» كانت من المجلات التى ساندتها المخابرات الأمريكية .. وكذلك مجموعة صحف «دار كيهان» التى ظهرت فى إيران فى عام ١٩٤٥ .. وصحيفة «دى فيلت» فى ألمانيا .. وصحيفة «يمپورى» فى اليابان ويستطرد هيكى: «ويخطر على البال أن أخبار اليوم ظهرت فى نفس الفترة - أواخر ١٩٤٤ - فهل كانت أخبار اليوم منذ اليوم الأول حلقة من هذه السلسلة؟» .. إن ما قاله مصطفى أمين فى خطابه - الاعتراف لا يجعل الإجابة فى صالحه.

بعد انتهاء التحقيقات الأولية معه .. نُقل مصطفى أمين إلى سجن الاستئناف فى ميدان «باب الخلق» .. ومن هناك بعث برسالة لهيكى مع ضابط شاب فى مصلحة السجون هو عباس لبيب الذى أصبح فيما بعد ناقدا رياضيا مشهورا فى الأهرام .. وكان مجيئه لهيكى بهذه الرسالة هو بداية صلته به ومقدمة التحاقة بالقسم الرياضى فى الأهرام.

كان مصطفى أمين يريد أن يرى هيكى .. وكذلك كان يريد بعض أدوية وفيتامينات لم تكن متوفرة فى السوق المحلية فطلبها هيكى من سعيد فريحة صاحب دار الصياد فى بيروت .. وأنتهز هيكى فرصة لقاءه بجمال عبد الناصر وعرض عليه الأمر .. ونجح فى إقناعه بأن زيارة مصطفى أمين ليست رغبة شخصية وإنما هى مصلحة عامة تثبت أن ليس فى مصر ستارا حديديا نزل لإخفاء واحد من أشهر الصحفيين فى العالم العربى. وفى الساعة العاشرة إلا خمس دقائق من صباح الثانى من نوفمبر عام ١٩٦٥ كان هيكى يقف أمام سجن الاستئناف ومعه محمود عبد العزيز حسين رئيس قسم الحوادث

فى الأهرام وقتها .. وكان يحمل فى يده تصريح الزيارة .. وشعر هيكلى فى هذه اللحظة «بانقباض من هذا الموقف الذى كان فى سبيله إلى مواجهته ولم يكن منه بد» .

وفى غرفة مأمور السجن .. وفى انتظار مصطفى أمين .. شعر هيكلى أن الدقيقة تمر دهرًا .. وشعر بأن الموقف بالغ الصعوبة عليه وعلى مصطفى أمين .. لكن مصطفى أمين أقبل «فاتحا ذراعية يعانقه ويقبله على الخدين .. وفى لحظة واحدة ذابت أشياء كثيرة» .. وتبادلا أسئلة بلهاء عن الصحة والأحوال . وكان السبب وجود مأمور السجن الذى انسحب تقديرًا للظروف رغم أن اللوائح تقضى بالبقاء .. وأصبح هيكلى ومصطفى أمين بمفردهما .. ويروى هيكلى تفاصيل تلك اللحظات العصبية .. ويقول:

«بدأنا ندخل فى الموضوع .. قلت على الفور: أريد أن أطمئن منك أولاً عن معاملتك أثناء التحقيق؟ .. هل وقع عليك ضغط .. إكراه أو قسر؟ .. فقال بصوت خفيض: لقد عزلت عن الدنيا أربعين يوما لم أقرأ فيها صحيفة ولم أعرف ماذا يجرى؟ .. قلت: إننى لا أسألك عن ذلك .. طبيعى أن تكون هذه العزلة أثناء التحقيق .. ما أسألك عنه هو: هل كان هناك شىء آخر؟ .. وهز رأسه نفيا ثم أجاب بالنفى .. ثم سألتنى: لقد كتبت خطابا شخصيا إلى الرئيس فهل وصله؟ .. وقلت: نعم .. وقد قرأته .. أعطانى الرئيس نسخة منه .. وفجأة أفلت زمام السيطرة منى فقلت له: مصطفى .. لماذا؟ .. وكان صوتى جريحا بمشاعر الآسى .. ولاحت فى عينيه دمة تتأرجح .. وأصررت على سؤالى أكرره: لماذا؟ .. لماذا؟ ..

واندفع يتكلم: إننى خائف من الشيوعيين .. خائف منهم على سيادة الرئيس .. أرجوكم أن تحذروه .. أنهم فى كل مكان فى الصحافة وفى الجيش .. يرتبون أنفسهم داخل الجيش .. أنت لا تعرف ماذا يفعلون .. إننى كنت أريد إخراج ما لدى من فلوس إلى الخارج قبل أن يستولوا على السلطة .. ووجدت نفسى مضطرا إلى مقاطعته قائلا: يا مصطفى .. أين هم هؤلاء الشيوعيون؟ .. وعلى فرض أنهم على هذا النحو الذى تصفه فهل هذا يبرر أن تتصرف على هذا النحو الذى تصرفت به؟ .. وقال: ربما أكون أخطأت .. وسالت دمعته المتأرجحة .. وأعطيته منديل .. ووجدتنى أمسك بيده .. وتمالك نفسه .. وعاد يسألتنى عما نشر فى مصر وفى بيروت عن قضيته .. وأجبت ..

«وعاد يسألتنى : ماذا سيفعل سيادة الرئيس؟ .. وقلت : لم تعد المسألة ماذا سيفعل سيادة الرئيس ؟ .. القضية الآن فى الطريق إلى المحكمة .. ولا أخفى عليك أننى أدعو الله أن تكون المحاكمة سرية لأن كل ما فى الأوراق والشرائط مسيء ... مسيء ... للمهنة ولكل الأطراف .. ومع ذلك فلا أظن أن الصورة ستتضح إلا بعد انتهاء المحاكمة ..

«وعاد إلى حكاية خطر الشيوعية والشيوعيين ولم أشأ أن أجادله فلقد أحسست أنه يقف عند خط دفاعه الأخير .. وكان لابد له من غطاء أمام الناس وربما أمام نفسه .. بدا لي أنه من الظلم في هذه الظروف أن أحاول - أنا على الأقل - تشديد الجدل في حكاية خطر الشيوعية والشيوعيين .. وإذا سقطت ورقة التوت أثناء اشتداد الجدل فأى نفع يمكن أن يعود عليه أو حتى على الحقيقة من سقوطها .. إن سقوطها - هكذا بدا لي - سوف يؤدي إلى انفكاك تماسكه ومن الظلم له أن يدفع إلى هذه الحالة في تجربة يحتاج فيها إلى أكبر قدر من تماسكه العقلي والنفسى - بصرف النظر عن الأساس - حتى يستطيع أن يعبر رحلة الأسابيع والشهور - وربما السنين - القادمة.

«وسألنى: كم من الوقت أقدر أن تطول المسألة؟ .. وقلت: وكيف لي أو لغيري أن يعرف؟ .. وقال: ألم يكن كافيا أننى اعترفت بكل أخطائى؟ .. ولم أقل شيئا .. واستطرد: لدى اقتراح بدل المحكمة والمحاكمة لماذا لا يعتقلنى سيادة الرئيس بقرار منه فترة تأديبية؟ .. أو لماذا لا يحكم هو على بالنفى من مصر؟ .. وقلت: مصطفى .. دعنا نواجه الواقع كما هو ولا فائدة الآن من التعلق بأوهام .. وأطرق برأسه ساكتا .. ورحت أحدثه عن بناته .. ثم انتقلت إلى بعض الشئون العامة المنشورة فى الصحف وقد تصورت أنه يخفف عنه أن يشعر بصلة مع ما يجرى خارج السجن .. وسألنى: إذ كنت أستطيع أن أرتب إرسال صحف ومجلات القاهرة وبيروت له وجهاز راديو صغير .. ووعدته».

ودخل مأمور السجن إلى الغرفة ومعه أحد جنود السجن يحمل صينية عليها فنجانين من القهوة وقال بأدب: تشربان القهوة .. ثم تنتهى الزيارة .. قالها وهو ينظر إلى ساعته .. وراح مصطفى أمين يفتح طرود الأدوية والفيتامينات التى بعث بها سيعد فريحة ويراجع محتوياتها .. ثم رفع رأسه وسأل مأمور السجن: متى يسمحون لي بأن ألقى طعاما من بيتى؟ .. وقال مأمور السجن: فور أن يصلنا تصريح بذلك .. وقال هيك للامور: أننى سأعمل على أن يصل التصريح هذا اليوم ونحن على أى حال كصحفيين نترك الأستاذ مصطفى أمين أمانة عندك واثقين أنك تعرف مكانته بالنسبة لنا جميعا .. وقال مصطفى أمين موجه كلامه لمأمور السجن: هه .. هل سمعت؟ .. ورد مأمور السجن: أستاذ مصطفى .. هل هناك ما تشكو منه؟ .. أننا بالطبع نعرف أن السجن ليس تجربة «مفرحة» ونحن نتمنى لكل نزير عندنا أن تثبت براءته ويذهب إلى بيته .. لكننا حتى يحدث ذلك أمام قوانين ولوائح .. وعلى أى حال فإننا نحاول أن نعطيك كل التسهيلات التى تسمح بها هذه القوانين واللوائح .. وإذا كانت لديك ملاحظات فإننى أرجوك أن تقولها الآن أمام الأستاذ هيكل .. وتدخل هيكل بسرعة قاثلا: بالعكس إننى لم أر صحة الاستاذ مصطفى أمين

منذ وقت طويل جيدة كما أراها الآن .. أخذ إجازة هنا من العمل ومن السهر ومن بعض الناس .. وضحك الجميع على الأقل من حناجرهم على تعبير هيكل .. وجاءت لحظة الوداع ولم يكن عبثها النفسى بأخف من لحظة اللقاء.

كانت هناك شخصيتان عربيتان على درجة كبيرة من الأهمية كانتا تتابعان قضية مصطفى أمين .. سعيد فريحة .. ومحمد أحمد محجوب رئيس وزراء السودان الأسبق .. وقد حاولا التدخل أكثر من مرة لإقناع جمال عبد الناصر بالإفراج عنه .. لكن جمال عبد الناصر كان يرى أن القضية ليست قضية شخصية وإنما هي قضية تخاطر تمس الأمن القومى للبلاد .. وكل ما وافق عليه جمال عبد الناصر إنسانيا هو السماح لزوجته على أمين وابنتى مصطفى أمين بالسفر إلى حيث يقيم على أمين فى لندن.

ثم كانت هزيمة يونيو ١٩٦٧ .. وذات يوم من شهر إبريل عام ١٩٦٨ كان هيكل مع جمال عبد الناصر .. وعلى غير تحسب قال له جمال عبد الناصر: «يظهر أن صديقك مصطفى أمين يعتقد أن محاكمة صلاح نصر فرصة مواتي له .. يقول فى السجن أن صلاح نصر أوقع به لأنه كان يحس بالغيرة منه عندما قلت لمصطفى مرة أن تقاريره التى يكتبها لى تؤهله لمنصب مدير مخابرات أخذا جد .. كان يكتب تقاريراً لصلاح نصر أيضاً لكنه الآن يقول ان صلاح نصر لم يغفر له أبدا مناقشته له فى الحصول على المعلومات وكتابتها فى التقارير .. مصطفى أيضا يدعى الآن أن صلاح نصر عذبه .. لقد سمع أن بعض حالات التعذيب وقعت وأننا نحقق فيها وقرر إدخال نفسه فى العملية على أمل أن يجد مكانا فى الزحام .. هو أيضا يتهم الإسرائيليين بأنهم وراء قضيته .. غريبة هذه القدرة لدى بعض الناس على أن يكذبوا حتى على أنفسهم».

وفى يوم السبت ٢١ سبتمبر ١٩٦٨ قام هيكل بأخر زيارة لمصطفى أمين فى السجن .. وكان معه هذه المرة سعيد فريحة الذى حمل إلى السجن صناديق التفاح وغيره من المأكولات الفرنسية التى جاء بها من بيروت والريفيرا .. وأراد سعيد فريحة طمئنة مصطفى أمين فقال له: «إننا كنا أمس مع سيادة الرئيس وحدثناه فى أمرك ووعدنا خيرا بأذن الله» .. ويقول هيكل: إن هذه العبارة كان لها تأثير السحر فى غرفة مأمور السجن .. «بعدها بدأ المناخ المحيط بنا يتغير بسرعة ولم تمض غير دقائق حتى كنا نقوم بجولة فى السجن ودليلنا هو مصطفى أمين .. يمشى وسطنا ومن حولنا مأمور السجن وبعض الضباط .. وذهبنا إلى ورشة السجن وإلى المخبز والمطبخ ثم إلى المكتبة .. وكانت المكان الوحيد الذى

تقرر أن ينفذ فيه مصطفى أمين عقوبة السجن مع الشغل .. شغلة فى المكتبة .. وداعبته قائلاً له: على الأقل تقرأ بعض الكتب .. وضحكنا .. فقد كنت ألومه مرات فى الأزمنة الخوالى لأن قراءاته كانت قاصرة على الصحف والمجلات لا يتعدها .. وراح مصطفى أمين أثناء تجوالنا فى السجن يقدمنا إلى بعض زملائه .. وفى لحظة من اللحظات راودنى الإحساس بأننا فى فناء مدرسة ولسنا وسط جدران سجن .. وأخذنا من الوقت أكثر من ساعتين ثم جاء من ينبه إلى أن الزيارة تجاوزت كل القواعد المقررة وخرجنا.

وبعد ٤٨ ساعة .. أى فى صباح يوم ٢٢ سبتمبر .. اتصل جمال عبد الناصر بهيكل فى مكتبه مبكراً .. قال له على الفور: «لولا عيد ميلادك لما اتصلت بك اليوم .. الحقيقة أننى غاضب منك وأنت تعرف أننى لا أحب أن اتصل بأحد وفى قلبى ذرة غضب» .. وتساءل هيكل عن السبب .. فراح جمال عبد الناصر يسأله عما جرى فى السجن أول أمس .. ولم ينتظر إجابته ولكنه استطرد يقول: «إننى أعرف ما حدث وأنا فى دهشة من أنك تركت مصطفى أمين يستغلك إلى هذا الحد .. يطوف بك السجن كله و«يهوش» الناس باعتبارك صديقى .. هل تريد أن تعرف أكثر من ذلك؟ .. قال لبعضهم فى السجن أننى بعثت بك رسولا إليه تفاوضه فى الخروج على أساس استعمال اتصالاته فى الظروف الراهنة (بعد الهزيمة) هل يرضيك ذلك؟» .. وأعرب هيكل صادقاً عن أسفه لأن ذلك حدث .. وقال انه سيكون أكثر حرصاً فى المرات القادمة .. لكن رد جمال عبد الناصر كان قاطعاً: «لن تكون هناك مرات قادمة».

ورحل جمال عبد الناصر وجاء أنور السادات .. ووجد سعيد فريحة فرصته ليفتح من جديد حوار العفو عن مصطفى أمين .. لكن ما أن سمع السادات السيرة حتى أنتفض فى مقعده وقال: «جرى أيه يا سعيد؟ .. عفو يشمل مصطفى أمين؟ .. أنا لا أعفو عن الجواسيس» .. ولم يياس سعيد فريحة .. وقال: «ولكن ياشياد الرئيس ما وقع لمصطفى أمين نوع من الخطأ ونحن لا نجادل فيه ..» .. وقاطعة السادات: «لم يكن نوعاً من الخطأ .. كان تجسساً .. بالعربى الفصيح تجسس .. ولم لم أكن واثقاً من الموضوع مائة فى المائة لأفرجت عنه من أول يوم .. أنا أعرف تاريخ مصطفى حتى من قبل القبض عليه وأنا بنفسى حذرت «جمال» وحذرت هذا الجالس هنا ..» وكان يقصد هيكل الذى أشار إليه وسأله: «ألم يحدث؟» .. فقال هيكل فى حيرة: «الحقيقة لا أذكر» .. وراح السادات يذكر هيكل بيوم حذره فيه .. وهو ما لم تصل إليه ناكرة هيكل .. وحسم السادات الموضوع بنبرة بدت غريبة على هيكل قائلاً: «سعيد .. أقفل هذا الموضوع ولا تفتحه معى أبداً».

وكان تعليق سعيد فريحة الذى قاله لهيكل بعد أن خرجا من عند السادات: «يا ويلي .. شوها العنف» .. ثم استطرد - حسب رواية هيكل فى كتاب «بين الصحافة والسادات»: «مع جمال عبد الناصر كنا نستطيع أن نناقش .. وهذا الرجل قفل الباب على الفور» .

وكان عند السادات كل الحق .. فقضية مصطفى أمين محفوظة فى متحف المخابرات العامة المصرية تحت رقم «واحد» .. ولم يحدث - كما حدث فى بعض القضايا الأخرى - أن خرج من رجال العهد السابق من يشكك فيها .. ولكن .. جاءت الأيام والأحداث ما قلب الأمور فى رأس السادات.

بعد حرب أكتوبر ١٩٧٣ وبعد مباحثات «فض الاشتباك» بين مصر وإسرائيل كان واضحا أن الإسرائيليين يريدون - فى المباحثات - الإفراج عن جواسيسهم .. ويبدو أن هنرى كيسنجر وزير الخارجية الأمريكى فى ذلك الوقت والذى كان يلعب دور الوسيط بين مصر وإسرائيل وجدها فرصة للمطالبة بالإفراج عن جواسيس الولايات المتحدة .. وكان رأى السادات: أنه لن يوقع رأسه بهؤلاء جميعا .. وأن سوف يعطيهم لهم و«يخلص نفسه» .

لكنه على غير انتظار أو توقع قال لهيكل: «ما رأيك فى الإفراج عن مصطفى أمين؟» .. ألم تطلب منى أكثر من مرة أن أفرج عنه؟» .. يبدو أن علامات دهشة بدت على ملامح هيكل .. فاستطرد السادات بالحرف: «لماذا تشعل حواجبك من الدهشة .. هكذا .. إنهم يطلبونه وأنا أريد أن أجاهلهم فيه» .. وتساءل هيكل: «من هم؟» .. وقال السادات: «كثيرون .. الأمير سلطان طلبه .. وكمال أدهم (الوسيط السعودى لدى المخابرات الأمريكية) أيضاً» .. وسكت لحظة ثم استطرد: «... ولماذا لا أجاهل الأمريكان فيه» .. وقال هيكل: «الأمر لك بالطبع .. وإن كنت أخشى من أن الإفراج عنه فى هذا الإطار الذى كنت تتكلم فيه - إساءة له .. لماذا لا تجعل فاصل أسبوع أو أسبوعين بين الإفراج عنه والإفراج عن كل هؤلاء الذين طلبتهم إسرائيل وطلبهم هنرى كيسنجر؟» .. ثم أضاف هيكل: «إننى جنّت الآن وكان فى نيتى أن أنقل إليك رسالة من على أمين (وكان قد عاد إلى مصر) يرجوك فيها الإفراج عن توأمه وهو على استعداد لأن يأخذه من باب السجن إلى باب طائرة تذهب بهما إلى أى مكان خارج مصر» .. وقال السادات بسرعة: «عال .. يأخذه .. ويغوروا» .. ولاحظ السادات أن هيكل غير مستريح لمجرى المناقشة فنظر إليه بنصف ابتسامة ونصف عين وقال: «أنت تدعى أنك تفهم فى السياسة وأنا أقول العكس .. لو أنك كنت تفهم فى السياسة لوافقتنى على ما قلت بالعكس .. من الأفضل الإفراج عن مصطفى ضمن هذه الصفقة حتى لا يتجاسر يوما ويفتح فمه وإذا فتحه فنقدر نضربه بـ«.....» .. ولم

يكن لدى هيكل ما يقول .. وإن أصر فيما بعد أن يسجل هذا الحوار أما المدعى العام الاشتراكي في محاضر التحقيق حتى يثبت حدوثه في وقت كان فيه السادات ومصطفى أمين على قيد الحياة.

كان هذا الحوار قد جرى بين السادات وهيكل في ٢١ يناير ١٩٧٤ .. وفي ٢٧ يناير قرر السادات الإفراج عن مصطفى أمين إفراجاً صحياً .. وفي مساء ٣١ يناير عرف هيكل وهو في بيته بقرار إخراجه من رئاسة تحرير الأهرام.

خرج هيكل من الصحافة المصرية .. وعاد إليها مصطفى أمين وعلى أمين وأحمد أبو الفتوح .. وظهر فوق سطحها من كان غائراً أو غائصاً ممن وجدوا في نفاق العهد الجديد وتصفية الحسابات مع العهد السابق فرصة لأن يحتلوا المساحات والمناصب في بلاط صاحبة الجلالة .. وعكست السياسة نفسها - كما هي العادة - على الصحافة .. وبدأت حملات التشهير بجمال عبد الناصر .. وبهيكل .. وبدأت الصحف السعودية والصحف اللبنانية والمصرية الممولة من السعودية تفتح ذراعيها لروايات مصطفى أمين التي راح يسهب فيها في كتبه التي بدأها بكتاب «سنة أولى سجن» .. ثم «سنة ثانية سجن» .. وهكذا .. واتهمت هذه الصحف هيكل بأنه هو الذي كان عميلاً للمخابرات الأمريكية .. وأنه كان يقبض منها .. واستشهدت بما نشرته مجلة «الحوادث» اللبنانية أن الزعيم السوفيتي «نيكيتا خروتشوف» واجه هيكل في أحد مقابلاتهما بأنه أخذ من جريدة «واشنطن بوست» مبالغ في مقابل مقالات .. وأن هذه المبالغ - وكانت بمئات ألوف الدولارات - لا تتناسب مع قيمة ما كتب هيكل .. «ولو يكن لهذا معنى إلا أن هذه المبالغ كانت مكافأة لهيكل على خدمات غير صحفية .. وبعدها طلب خروتشوف منه أن يغادر الاتحاد السوفيتي فوراً» .

وقد سألت هيكل عن هذه الواقعة فقال: أنني لم أكتب في حياتي كلها مقالاً في الواشنطن بوست ولم أتقاضى منها بالتالي دولاراً واحداً .. وفيما يتعلق بخروتشوف فإنه هو الذي دعاني في مايو ١٩٦٤ في بيته في «يالتا» كي أرافقه طوال رحلته من «يالتا» إلى «الإسكندرية» .. وهي رحلة استغرقت خمسة أيام في البحر .. وذلك حتى يستطيع أن يسألني فيما يريد ويتعرف مني على عالم عربي وإسلامي وأفريقي يوشك أن يزوره لأول مرة بزيارته لمصر لحضور الاحتفال بإتمام المرحلة الأولى من السد العالي .. وبعدها لم أر خروتشوف لأنه في أكتوبر من نفس السنة سقط من السلطة فمتى كانت الواقعة التي نشرتها الحوادث؟» .

ومرت فى النهر تيارات ودوامات وغطت المياه أحداث وأحداث .. واذكر أننا كنا نتناول طعام الإفطار فى يوم من أيام شهر رمضان عام ١٩٩٧ فى بيت الدكتور ميلاد حنا .. كان هناك على المائدة التى أشرفت عليها زوجته الكاتبة الصحفية إيفلين رياض كوكبة من نجوم الصحافة والفن وزوجاتهم . سلامة أحمد سلامة .. صلاح منتصر .. عادل إمام .. لينين الرملى .. وفى هذا الجو المشحون بالود والسماحة طرح صلاح منتصر فكرة أخذت إنصات الجميع وانتباههم .. أن يتصالح هيكل ومصطفى أمين .. فقد تغيرت الظروف .. وسكنت المعارك .. ولم يعد هناك من يضمن الحياة من الموت .. واعترف إننى كنت متحمسا لاقتراح صلاح منتصر الذى لم يعلق عليه هيكل وفضل إدارة دفة الحوار إلى منطقة أخرى .. لكن .. بعد أن انتهيت من فحص ودراسة ملف الخلاف بين هيكل ومصطفى أمين تراجعت فى حماسى .. فالقضية ليست قضية شخصية وليست صراعا أشبه بصراع الديناصورات أو الحيتان الهائجة .. القضية قضية اختلافات فى رؤية النظام السياسى وطبيعته وتوجهاته ونوعية القوى التى يجب أن تديره وتسيطر عليه .. ومهما كانت المواقف الشخصية فإن المواقف السياسية هى التى تغلب وتحسم فى النهاية.

أصعب وأطول يوم فى حياة عبد الناصر !

■ فى ثلاث ساعات ونصف الساعة - فى الثامنة صباحا إلى الحادية عشر والنصف - وقعت هزيمة ٥ يونيو ١٩٦٧ .. كانت هذه المدة الزمنية القصيرة هى المدة التى استغرقتها الضربة الجوية الإسرائيلية .. وكانت ضربة قاضية .. قاصمة .. أنهت الحرب قبل أن تبدأ .. وجعلت الأراضى العربية فى الدول المتحاربة سهلة المنال وكأنها قالب من «الجلى» بين أسنان جائع للسطوة والسيطرة.

كانت هناك ٤٩٢ طائرة إسرائيلية انطلقت على ٣ موجات لضرب مطارات العمق .. وحطمت الطائرات التى كانت نائمة فى هناجرها .. وحطمت معها أعصاب القيادة العسكرية المصرية .. وهو الهدف الأول فيما يسمى بالحرب الخاطفة .. وكانت النتيجة الطبيعية أن الجيش المصرى قد أصبح فى وضع عسكرى لا يطاق .. ولا يحسد عليه .. فرجاله كانوا يقاتلون بدون غطاء جوى .. ومع سيطرة جوية كاملة للعدو .. وفى صحراء مكشوفة فإن القتال لا يعود قتالا .. وإنما يتحول إلى قتل مهما كانت شجاعة الرجال.

ولم يجد قائد عام الجيوش عبد الحكيم عامر ما يفعله أمام هذه الصدمة سوى أنه أمر بالانسحاب قبل مرور أقل من ٢٤ ساعة .. وهو ما رفع عدد القتلى عن ٢٩٤ شهيد فى اليوم الأول إلى ٦٨١١ شهيدا فى الثانى .. ومع الفوضى التى صاحبت الانسحاب تحولت الخسائر إلى خسائر فادحة.

والمؤسف أن الخطة الإسرائيلية فى حرب (٦٧) هى نفسها الخطة الإسرائيلية فى حرب (٥٦) .. فالخطط عادة لا تتغير لأنها محكومة بشروط وتضاريس الجغرافيا .. ولكن

التغيير يكون فى أساليب القتال .. وعنصر المفاجأة .. طبيعة الظروف السياسية الدولية ..
وكان رأى وزير الدفاع الإسرائيلى الأسبق موشى ديان: أن العرب لا يقرءون .. وإذا قرءوا
لا يتعلمون .. وإذا تعلموا لا يثقون فى أنفسهم.

لم يفصل هيكىل بين ما جرى فى يونيو (٦٧) وبين ما كان يكتبه قبل الهزيمة مباشرة
تحت عنوان «نحن وأمريكا» .. اعتبر هيكىل ما جرى فى يونيو ٦٧ هو أقصى درجات
العنف فى التعامل مع التجربة الناصرية .. وقد استخدم هيكىل العبارة نفسها .. عبارة
«أقصى درجات العنف» لتكون عنوان أول مقال له بعد الهزيمة.

لكن .. قبل أن نحدد إلى أى مدى وصلت أقصى درجات العنف .. لابد أن نشير إلى أن
هيكىل فور إعلان مصر إغلاق خليج العقبة كتب مقالا فى الأهرام بتاريخ ٢٦ مايو ١٩٦٧
يقول فيه : «إن هذا القرار معناه الحرب المسلحة مع إسرائيل» وشرح بالتفصيل نظرية
الأمن الإسرائيلى .. ثم قال فى المقال نفسه: «إننا سوف نتلقى الضربة الأولى فى المعركة»
.. ثم أضاف بالحرف الواحد: هناك ملاحظة لابد أن نقولها من الآن وهى أنه لابد أن نتوقع
أن يوجه العدو علينا الضربة الأولى فى المعركة ولكنه يتعين علينا ونحن ننتظر الضربة
الأولى من العدو أن نقلل إلى أقصى حد مستطاع من تأثيرها ثم تكون الضربة الثانية فى
المعركة وهى ضربتنا الموجهة إليه ردا وردعا - ضربة مؤثرة إلى أبعد حد مستطاع» ..
وقبل ثلاثة أيام من المعركة أشار هيكىل فى مقال نشر فى ٢ يونيو ١٩٦٧ إلى أن إستيلاء
المؤسسة العسكرية الإسرائيلىة - وهو الإستيلاء الذى تمثل فى عودة الجنرال موشى
ديان إلى وزارة الدفاع والجنرال حاييم بارليف إلى وكالة الأركان العام للجيش الإسرائيلى
- معناه أن الهجوم الإسرائيلى أصبح مسألة ساعات» .. ولكن لم يكن فى مصر فى ذلك
الوقت من كان قد تعود على السمع والقراءة .. فكانت الكارثة متجاوزة كل تقدير وتوقع.
ولابد أن تكون الكتابة فى مثل هذه الظروف القاسية صعبة ومؤلمة .. وهو ما عبر عنه
هيكىل فى بداية مقاله المنشور فى يوم ٩ يونيو ١٩٦٧ .. بعد ٤ أيام فقط من الهزيمة .. فقد
كتب يقول: «فى أوقات المحن الكبرى - وما أكثرها على طريق بناء الأمم - لحظات يشعر
فيها الذى يمسك بالقلم أنه لا يكتب ما يكتبه على الورق بقطرات من الحبر ولكن بقطرات
من دمه .. ومثل هذا شعورى اليوم .. لكن مثل هذا الشعور بالرغم من أى شىء وبالرغم
من كل شىء لابد تنحيته جانبا فإن هناك الآن ما هو أولى وأبدى .. وأولى وأبدى الأشياء

الآن أن نتمثل بوضوح حقيقة ما حدث .. بتعقل كامل مهما كانت انفعالاتنا العاطفية .. وبصدق مع النفس مهما كانت نزعاتنا إلى التبرير .. ومع أن الانفعال العاطفى والنزوع إلى التبرير طبائع بشرية فإن أمتنا العربية تحتاج فى ظروفها الراهنة إلى أن ترتفع حتى فوق الطبيعة ذاتها..

«ماذا حدث تماماً؟.. وما هو معنى العاصفة العاتية التى هبت على العالم العربى ابتداء من اليوم الخامس من يونيو سنة ١٩٦٧ .. ثم توقفت فى اليوم العاشر من هذا الشهر بعد أن تركت على أجزاء عديدة من وطن الأمة العربية حطاما وركاما وأشلاء كثيرة؟.. كيف؟.. ولماذا؟.. وإلى أين بعد الآن؟..

«نقول وبالحق: إن ما رأيناه خلاف هذه الأيام الخمسة الرهيبة هو أقصى درجات العنف فى الصدام الذى احتدم بين الأمة العربية وبين حكومة الولايات المتحدة الأمريكية والمصالح التى تمثلها وسياسات السيطرة والقوة التى تمارسها؟.. هذا هو الموضوع نفسه .. وأى شىء غيره، ظواهر عارضه تعبر عن الشكل الخارجى للحوادث ولا تعبر عن صلب الحقيقة فيه .. ولقد كنت قبل أسابيع منهمكا فى حدث طويل عن المراحل المتعددة للصدام بين ما تمثله الولايات المتحدة الأمريكية وما تمثله الجمهورية العربية المتحدة .. وعددت من مراحل هذه الصدام أربعاً كانت آخرها مرحلة العنف .. ولقد تركت ذلك الحديث ومرحلة العنف فى بدايتها وأعود إليه الآن ومرحلة العنف قد بلغت أقصاها» .

وقد رصد هيكمل مظاهر مرحلة «أقصى درجات العنف» التى مارستها الحكومة الأمريكية فى حرب يونيو .. ومنها .. إرسال ٢٠٠ طائرة على عجل لإسرائيل .. بالإضافة إلى إرسال قرابة ألف متطوع من الطيارين والملاحين العسكريين .. وتكفلت حاملات الطائرات الأمريكية بحماية الشواطئ الإسرائيلية لتترك كل القوة الإسرائيلية للهجوم .. وقامت طائرات التجسس الأمريكية الشهيرة «يو-٢» بالسيطرة على أجواء المنطقة وقت العمليات .. وكانت هناك أيضاً سفينة التجسس الأمريكية المعروفة «ليبرتى» .

وينهى هيكمل مقاله قائلاً: «ولا أستطيع أن أقول - أمانة - أننا كنا بلا خطايا .. ولكننا نستطيع أن نقول - أمانة - أنه فى عام ١٩٥٦ جاءتنا إسرائيل ووراءها بيومين بريطانيا وفرنسا .. وفى سنة ١٩٦٧ جاءتنا إسرائيل .. وقبلها بشهرين على الأقل الولايات المتحدة الأمريكية» .

كانت كل الإدارات والأجهزة والمؤسسات الأمريكية العلنية والخفية طوال الشهرين - على الأقل قبل الهزيمة فى حالة استنفار كامل لتوجيه الضربة إلى جمال عبد الناصر أو

«الديك السمين» على حد الاسم الكودى أو الرمزى لعملية ٥ يونيو ١٩٦٧ .. وقد كانت الأيام الخمسة من الاثنين ٥ يونيو إلى الجمعة ٩ يونيو هى أسوأ الأيام فى حياة جمال عبد الناصر وأكثرها عذابا على حد وصف هيكى الذى أضاف «كانت أيام محنة حقيقة لرجل تحمل بتبعات مشروع عربى كبير .. وكانت بعض الساعات خلال هذه الأيام أشبه ما تكون بكوابيس مطبقة على عمر بأكمله .. وقد انقضت عليه وقائع أشبه ما تكون مطبقة على عمر بأكمله وقد انقضت عليه وقائع ما جرى وكأنها صواعق من نار وظلام» .

كان جمال عبد الناصر قد ذهب فى الحادية عشر من صباح الاثنين ٥ يونيو إلى مقر القيادة فى مدينة نصر .. وكان ذهابه إلى هناك خروجاً عن ما تعود عليه فيما قبل وهو أن يترك جو العمليات للعسكريين دون تدخل أو ضغط سياسى .. لكنه فى الساعة التاسعة والنصف بدأ يشعر بالقلق بعد أن عرف بأمر الضربة الجوية الإسرائيلية .. لكنه لم يستطع تقدير حجمها .. وبدت التقارير التى يتلقاها مرتبكة ومشوشة .. فقرر الذهاب بنفسه إلى مقر القيادة .. وعندما وصل إلى هناك أحس بالشؤم عندما وجد أن عبد الحكيم عامر يتجنب النظر فى عينيه .. وعلى حد وصف هيكى «بدت له أجواء القيادة شديدة الارتباك بأكثر مما هو منتظر .. أن بعض الارتباك فى مثل هذه الظروف ضرورى ولكن ما رآه أمامه كان أقرب إلى حالة الفوضى منه إلى مجرد ارتباك عابر» .

«ومضت الساعات عصيبة رهيبة .. فقد بدأت آلة الدعاية الأمريكية والإسرائيلية تعملان بهمة ونشاط على إلحاق أكبر الأضرار المعنوية بالأمة العربية كلها .. وجاء دور الصلف الأمريكى عندما فرضت واشنطن وقف إطلاق النار إلا عندما تعلن مصر سحبها واعتذارها عن معلومات خرجت منها باتهام الولايات المتحدة بأنها شاركت عملياً فى ضرب الطيران المصرى .. وفى نهاية ساعات مأساوية وحزينة لم يكن أمام جمال عبد الناصر غير أن يوافق على وقف إطلاق النار بدون ربطه بضرورة انسحاب القوات الإسرائيلية إلى المواقع التى كانت فيها قبل أن ينشب القتال .. وفى هذه اللحظة عرف جمال عبد الناصر من شمس بدران أن المشير عبد الحكيم عامر مصمم على الانتحار .. وذهب إليه جمال عبد الناصر وهو يرجوه ألا يضيف الفضيحة إلى المصيبة» .

كان جمال عبد الناصر مقتنعاً أن النظام قد «انتهى» .. وقال لعبد الحكيم عامر: «إن أى نظام يعجز عن حماية حدود وطنه يفقد شرعيته .. وأنه مهما كانت أحزاننا الآن فإن علينا أن نعرف أن دورنا قد انتهى نهاية مأساوية ولم يبق أمامنا إلا مهمة أخيرة هى ترتيب «أوضاع البلد» بما يمكن معه تحقيق انتقال إلى ظروف تختلف اختلافاً بيناً عما هى الآن»

.. واستطرد جمال عبد الناصر قائلاً: «إنه أصبح مقتنعا بضرورة اعتزال الحياة العامة فقد انتهى دوره وانتهت في رأيه ثورة يوليو» .. وكان اقتراح جمال عبد الناصر بعد ذلك هو أنه سيقدم استقالته للأمة وسوف يقترح في نفس الوقت أن يكون شمس بدران رئيساً مؤقتاً للجمهورية ريثما يمكن ترتيب الأمور .. وكان يعتقد أن وجود شمس بدران وزيراً للحربية يجنب احتمال الصدام بين الجيش والجماهير .. ووافق عبد الحكيم عامر على هذا الاقتراح .. وانضم لهما زكريا محي الدين وأنور السادات وشمس بدران.

وفي الساعة الثامنة والنصف من مساء يوم الخميس ٨ يونيو اتصل جمال عبد الناصر بهيكل بالتليفون في مكتبه بالأهرام .. كان جمال عبد الناصر في مقر القيادة .. وكان قد أدرك بنفسه أن الموقف «بالغ السوء» .. وهو ما جعله قرر وقف إطلاق النار .. ويقول هيكل: إن صوته بدا للوهلة على التليفون مثقلاً بهموم الدنيا كلها .. وقال: أنه «يتحمل المسؤولية كاملة» غير أن يذهب أو «يمشى» على حد تعبيره .. ويقول هيكل أنه «قد سألتني ما الذي أقترح عمله؟» .. وكان رأيي أنه لم يبق أمامه غير الاستقالة .. وكان رده بالحرف: هذا ما فكرت فيه تماماً .. وكان ردي: أنه ليس هناك خيار آخر .. وكان تعليقه بالموافقة .. وطلب جمال عبد الناصر من هيكل أن يكتب له خطاب الاستقالة ليلقية يوم الجمعة ٩ يونيو .. وقال هيكل .. سوف أسهر عليه طوال الليل وهي مهمة لم أكن أتمنى في حياتي أن تعهد لي بها ولكنني أقبلها عارفاً بمسئولية الظروف» .. واتفقا على اللقاء في بيت جمال عبد الناصر في الساعة الثامنة صباحاً .. «فقد كان يعرف أنني لن أنام مثله» .. وبالفعل قضى هيكل الليلة في مكتبه في حماية نوال المحلاوي .. «تلك الصديقة الوفية والصلبة» التي كانت «مسئولة عن المكتب مقيمة فيه قبل دخولي إليه وبعد خروجي منه» .. وعند الفجر «جاءت نوال المحلاوي بآخر فنجان قهوة ومعه قطعة من خبز «الكرواسان» .. وشرب هيكل القهوة ولم يجد في استطاعته مضغ شيء في فمه.

في ملف خاص من ٢٦ ورقة كتب هيكل ما جرى في ذلك اليوم الذي وصفه بأنه «يوم طويل .. طويل» .. كان ذلك اليوم هو يوم الجمعة ٩ يونيو .. اليوم الذي قدم فيه جمال عبد الناصر استقالته .. لقد بدأ ذلك اليوم من اليوم الذي قبله .. يوم الخميس ٨ يونيو .. بدأ منذ اللحظة التي كلفه فيها جمال عبد الناصر بكتابة خطاب التنحي .. ويصف هيكل هذه المهمة بأنها «كانت تجربة في الكتابة من أقسى ما عانيت في حياتي .. وقد ظللت معها ليلة كاملة دون نوم تحت وطأة هم الكلمات وقبلها هموم الحوادث».

فى ذلك اليوم فكر هيكلى فى أن يعتزل الكتابة .. أو على الأقل يقدم استقالته هو أيضا من رئاسة تحرير الأهرام .. فكل شىء من حوله ملفوف بالضباب .. ويحجب رؤية ما هو قريب ولكن .. لابد من الإشادة بقدرته على التماسك والسيطرة على نفسه وعلى أعصابه .. فرغم كل المعاناة فقد نفذ المهمة التى بدت وهو ينفذها وكأنها المهمة الأخيرة للرجل الذى ارتبط به كظله .. جمال عبد الناصر .. إن أحدا غيره ما كان يقدر على هذه الدرجة فى فصل ضغوط العواطف عن ضغوط الدور العام.

لم يكن أمامه طول الليل سوى فناجين القهوة «السادة» وسحب دخان السيجار .. وفى الطريق إلى بيت جمال عبد الناصر كان معه ملف فيه مشروع الخطاب «الذى أرهقنى سطره أكثر من أى شىء آخر كتبتة من قبل .. وظننت أننى حفظت العبارة والألفاظ من كثرة ما راجعتها وغيّرت فيها وبديلت» .. وترك هيكلى الملف على مقعد السيارة .. وأمسك بنسخة من جريدة الأهرام الصادرة فى ذلك اليوم «والذى لم أكن قد شاركت فى إعدادها لأنى كنت مأخوذاً بالكامل بعيد عنه» .. وبدت له عناوين الأهرام كلها وغيرها «بقايا مرحلة مضت وتوشك أن تلحقها اليوم مرحلة لا أظنها خطرت ببال أحد .. فمحتويات الخطاب الملقى إلى جانبى كفيّلة بأن تفتح عالماً آخر مجهولاً وموحشاً توشك الأمة العربية أن تخطو إلى عتباته».

وراح هيكلى يتطلع إلى شوارع القاهرة والسيارة تمرق فيها فى هذه الساعة المبكرة من الصباح .. كانت العاصمة مازالت نائمة .. «وبدت لى رقيقة وجميلة وحزينة لا تعرف ما تخبئة لها المقادير .. لقد عاشت أياماً مرهقة شدت أعصابها على الآخر وهى الآن مقبلة على يوم لم تنهياً له .. وهو يوم قد يكون فاصلاً فى حياتها ومصائرهما بعده معلقة بميزان دقيق».

ويواصل هيكلى كشف خواطره وملاحظاته على هذا اليوم فى كتاب «الانفجار» الذى كتبه عن الهزيمة فى سلسلة كتبه «حرب الثلاثين عاماً» ثم أعاد نشرها فى عدد أغسطس ٢٠٠٠ من مجلة «وجهات نظر» .. ويقول: «ولأن الطريق كان خالياً فقد وجدت سيارتى أمام بيت جمال عبد الناصر فى الساعة السابعة إلا عشر دقائق .. وعرفت أنه فى غرفة مكتبه منذ ساعات .. وتوجهت إليه مباشرة .. وكان (يقف وراء مكتبه مرتدياً بنطلونا رمادياً ينزل عليه من خارجه قميص أبيض) وممسكاً بسماعة التليفون يناقش طرفاً آخر .. ووقفت أمامه لثوان .. وعرفت مسار الحديث أن الطرف الآخر هو عبد الحكيم عامر .. ثم فهمت بعد لحظات أن عبد الحكيم عامر يبلغه بأن القوات الإسرائيلية تضغط بالغارات

الجوية على القوات غربى القناة وأن هناك معلومات عن جسور منقولة على حاملات ضخمة .. وكل التقديرات ترجح أنها محاولة إسرائيلية لعبور القناة إلى الضفة الغربية .. كان جمال عبد الناصر يناقش هذه المعلومات .. ويدألى الموضوع من أساسه فى حاجة إلى تدقيق .. ويظهر أننى هزرت رأسى بأشارة تحمل هذا المعنى .. وقال جمال عبد الناصر لعبد الحكيم عامر على التليفون إننى أقف أمامه ولدى ما أريد أن أقوله .. وأزاح سماعة التليفون وتطلع نحوى منتظرا ما أقول .. وأبديت رأيا مفادة أننى أستبعد تماما أن تكون هذه المعلومات صحيحة .. وأضفت أن إسرائيل حققت أكثر مما تريد وعبروها إلى الضفة الغربية من قناة السويس فوق ما تحتمله الموازين الدولية .. وأيضا فوق ما تحتمله قواتها المشدودة الآن على آخرها .. لقد وصلت هذه القوات بعد زحف طويل إلى الضفة الشرقية وعبروها إلى الضفة الغربية معناه أن تجد نفسها داخله فى نوع من المعارك ليست مستعدة له خصوصا بعد زحفها الطويل وهو معارك المدن .. فالجيش الإسرائيلى لا يستطيع أن يواجه عملا أو حركة وسط التجمعات السكانية فى منطقة القناة لأن ذلك سوف يعرضه إلى ما كان يتجنبه باستمرار .. قلت ذلك باختصار .. وأعاد جمال عبد الناصر سماعة التليفون إلى وضع الحديث الطبيعى وقال لعبد الحكيم عامر: إن هيكلك له رأى مختلف .. ثم لخص له وجهة نظرى وطلب إليه أن يظل على اتصال به إذا ما جد جديد» .

ترك جمال عبد الناصر كرسي مكتبه وجلس فى مواجهة هيكلك على مقعد آخر فى الناحية الأخرى من مكتبه .. ولأول مرة كان فى استطاعة هيكلك أن يرى ملامح وجهه .. لقد كانت آخر مرة رآه فيها قبل ذلك منذ ثمان وأربعين ساعة .. «وهو الآن يبدو وكأنه أضاف إلى عمره عشر سنوات على الأقل .. كان مرهقا بشكل يصعب وصفه .. وكانت فى عينيه سحابة حزن لم أرها من قبل رغم أننى رأيت كثيرا فى خضم أزمات عاتية سبقت» .

وسأله جمال عبد الناصر عن ما فعل .. وأضاف: «لأبد أنك وجدت صعوبة كبيرة فى كتابته؟» .. وأخرج هيكلك مشروع الخطاب .. وقال له: أن لديه ملاحظة قبل أن يقرأه .. وكانت ملاحظة هيكلك خاصة بشمس بدران .. الذى قرر جمال عبد الناصر أن يخلفه بعد الاستقالة .. قال هيكلك: لقد «حاولت أن أكتب اسمه فى سياق الخطاب ولم أستطع رغم كل المحاولات» .. وسأله جمال عبد الناصر بصوت متعب عن السبب .. فقال هيكلك: «إننى أنا الذى أريد أن أعرف السبب .. لماذا شمس بدران؟» .. وكان رد جمال عبد الناصر هو أن كرر ما سبق أن قاله بالأمس عن تجنب الاحتكاك بين الجيش العائد جريحا من سيناء والجماهير

الغاضبة بمفاجأة الهزيمة .. وقال هيكمل: أنه لم يفهم هذه النقطة .. وأضاف: إن شمس بدران هو أحد المسؤولين عما جرى .. وهو واحد من مجموعة ليس لديها رصيد عند الناس.

«ثم أن هناك فى الأمر محظورا لا يجب السماح بوقوعه .. ذلك أن تعيين وزير الحربية وهو مسئول ولو جزئيا عن الهزيمة بحجة تجنب صدام بين الجيش والشعب يعنى فى المحصلة النهائية رخصة للقادة المهزومين بحق لهم فوق مشاعر الناس .. فالشعب سوف يغضب بلا جدال وهؤلاء القادة المهزومين ليس عندهم ما يدافعون به عن أنفسهم غير السلطة .. فإذا أصبح الرجل الذى كان وزيرا للحربية قبل الهزيمة رئيسا للجمهورية بعدها .. إذن الصدام قادم لا محالة .. ولا أظن أن ظروف البلد تحتمله الآن أو غدا».

كان يراود هيكمل وقتها إحساس مبهم بأنه يعبر فى هذه اللحظة عما هو أكبر من صديق وأكثر من صحفى وقد استغرب هذا الشعور المبهم .. وقد قال لجمال عبد الناصر: «أنه وقد قرر الاستقالة وهو قرار سليم لا بديل عنه فإن المنطق الطبيعى بعده أن تعود الأمور بالكامل للناس فيكون هناك رئيس مؤقت مقبول منهم يشرف على لم أجزاء الموقف وشظاياها ثم يجر بعد ذلك استفتاء عام للناس على أساس جديد ودستور جديد وبرنامج يلبي مطلب مرحلة مختلفة».

وسأله جمال عبد الناصر: «إذا لم يكن شمس بدران فمن؟» .. وفكر هيكمل لثوان .. ثم سأله: «من هو الأقدم بين الأعضاء الباقين من مجلس قيادة الثورة؟» .. وفكر جمال عبد الناصر لحظة ثم قال: «زكريا محيى الدين» .. وابدئ هيكمل ما يفيد معنى الارتياح .. وقال جمال عبد الناصر: «زكريا رجل عاقل وهو ذكى» .. ثم استطرد: «وفيه مميزات كبيرة» .. «ويمكن أن يكون مقبولا دوليا وهو بالتأكيد قادر على الحوار مع الأمريكيين وهى ضرورة حتمية الآن» .. «وإن كان السوفيت لن يعجبهم اختياره بانطباعاتهم السطحية عنه» .. ثم سأل: «هل أتحدث مع زكريا؟» .. ورد بنفسه على سؤاله قائلاً: «لا فلو تحدثت إليه فمن المؤكد أنه سيعتذر» .. وأضاف: «الحقيقة أنه حمل ثقل .. وكئيب أيضاً .. والرجل لا ذنب له فيه».

وطلب جمال عبد الناصر من هيكمل أن يقرأ الخطاب .. وراح هيكمل يقرأ .. لكن .. ما أن قرأ ثلاث أو أربعة سطور حتى استوقفه تعبير «النكسة» الذى استخدم لأول مرة .. وسأله جمال عبد الناصر لماذا اختار هذا التعبير .. وإن لا يمنع أنه مستريح إليه .. وقال هيكمل: «إننى توقفت كثيرا قبل أن استقر عليه .. كان على أن اختار بين كلمة النكسة وبين ثلاثة

أوصاف أخرى طرحت نفسها على أثناء الكتابة .. كلمة «صدمة» وقد وجدتها أقل من اللازم .. وكلمة هزيمة وقد وجدتها أسوأ من اللازم» .. واستطرد هيكمل: «إننا لو استعملنا كلمة هزيمة فذلك سوف يحدث خطرا لأن كلمة الهزيمة معناه أن جمال عبد الناصر أو من يجيء بعده قرر الاستسلام.. كما أن كلمة هزيمة تؤثر على معنويات قوات ما تزال تشكياتها - أو بعضها - تقاتل في سيناء وعلى ضفتي القناة» ..

ثم واصل هيكمل القراءة إلى أن وصل إلى الفقرة الخاصة بقراره أن يتنحى (عن أى منصب رسمى وأى دور سياسى) وعندها توقف هيكمل ونظر إليه .. وفيما بعد كتب هيكمل: «كنت أرى فرصة للتوقف لأننى أحسست أن نبرات صوتى - وقد حاولت أن اضعها كلها فى خدمة ما أقرأ - على وشك أن تتحشرج تأثرا .. كان اعتقادى من أول لحظة أن ذلك لا يصح أن يحدث .. الرجل يحتاج الآن إلى أصدقاء يشجعونه على قراره الصعب وأن ضعف أصدقاءه أمامه فقد يؤثر عليه .. وتذكرت أنه لسوء الحظ أنه ليس هناك معنا الآن أصدقاء كثيرون يستطيعون المساعدة على التماسك .. هناك أنا وهو وليس معنا غير الله» ..

وواصل هيكمل القراءة حتى وصل إلى الفقرة الجوهرية التى تقول: «وبرغم أية عوامل قد أكون بنيت عليها موقفى من الأزمة فإننى على استعداد لتحمل نصيبى من المسئولية» .. عندها قاطعه جمال عبد الناصر قائلاً: «أنه يعترض على هذه الجملة لأنه يتحمل المسئولية كاملة .. ولا يرى مجالا لتجزئتها بأن يتحمل «نصيبا منها» بينما هو يرى أنه يتحمل المسئولية كاملة» .. ولم يختلف هيكمل معه فيما قال وأعاد صياغة العبارة على الفور كالآتى: «وبرغم أية عوامل قد أكون بنيت عليها موقفى من الأزمة فإننى على استعداد لتحمل المسئولية كلها» .. وكان تعليقه على هذه الصياغة الجديدة: «أن تلك هى الحقيقة .. وهذا أدق وأكرم» .. وقال: إنه لن يعرف ما الذى سيفعله به الناس؟ .. واستطرد: إنه سوف يرضى بأى شئ ولن يلتمس لنفسه دفاعا وسوف يقبل كل شئ حتى ولو الشنق فى ميدان العتبة.

استغرق هذا الحوار أكثر من الساعة .. كانت الساعة قد أصبحت الثامنة والثلاث عندما أبدى جمال عبد الناصر استعداده أن يلقي بالخطاب فى الساعة السادسة أو السابعة بعد الظهر .. وطلب من هيكمل أن يذهب إلى مكتب سامى شرف لطبع الخطاب على الآلة الكاتبة .. لمراجعته فى صورته النهائية مرة ومرات قبل إعلانه .. وقال: أنه سوف يظل فى مكتبه إلى أن يعود هيكمل إليه بعد أن يعطى سامى شرف مشروع الخطاب وبعد أن يكون

قد تأكد من «أنهم» استطاعوا فك رموز خطه .. وكان عند جمال عبد الناصر كل الحق .. فخط هيكل يبدو مثل الخط الذى يكتب به الأطباء روشتات الدواء .. دقيق .. صغير .. لكن كثيرا من حروفه ضائعة .. ولكن فى مكتب سامى شرف من كان متخصصا فى حل طلاسمه .. وحمل هيكل مشروع الخطاب وسار على قدميه فى اتجاه باب البيت وعبر الشارع إلى مكتب سامى شرف.

ويروى هيكل: «كان سامى شرف فى حالة من العصبية البالغة .. ويبدو أنه لن يكون فى صورة آخر التطورات .. وعندما أعطيته نص مشروع الخطاب راح يقلب صفحاته بسرعة يستقرىء ما يستطيع استقراءه من السطور والكلمات .. ووصل عند الفقرة التى يعلن جمال عبد الناصر قراره بـ «التنحي تماما ونهائيا عن أى منصب رسمى وأى دور سياسى» .. وأصابته حالة من الهستيريا .. فراح يصرخ بصوت عال بأن «هذا مستحيل .. ثم أنه حرام .. والله حرام .. أنها مصيبة لا تقل عن المصيبة العسكرية» .. وبينما هو فى حالة الهياج التى انتابته دق جرس التليفون الذى يصل بينه وبين جمال عبد الناصر .. فقد خطر للرئيس فيما يبدو أن يطلب منه شيئا .. ويظهر أن جمال عبد الناصر فوجئ بحالة الهياج التى أصابته فطلب إليه أن يعطينى السماعه وسألنى: عن هذا الصراخ الذى سمعه .. وشرحت له بسرعة رد فعل سامى شرف .. وكان تعليقه عليه أنه «لا يريد أعصابا فلتانة الآن» .. وقلت له: سوف أتأكد من أن كل شىء يسير على ما يرام .. ثم أعود إليه فى المكتب بأسرع ما يمكن .. واحتاجت أعصاب سامى شرف إلى وقت حتى اقتنع بأن يطلب من الموظف المختص فى مكتبه بقراءة خطى ويعطيه مشروع الخطاب ويطلب إليه أن يجىء بآلته الكاتبة وأن يجلس أمامه فى حجرته ويطلع ما هو مطلوب منه حفاظا على السرية الكاملة».

جاء الموظف المختص واسمه عبد الرحمن سالم .. ووقف هيكل بجانبه حتى يقرأ نص الخطاب قبل أن يبدأ بطباعته فإذا ما استعصت عليه قراءة كلمة ساعده على فك رموزها .. وعندما وصل الموظف إلى النقطة التى أثارت غضب سامى شرف قبله لم ينفعل بالغضب وإنما انفعل بالبكاء .. فإذا هو يجهش به ودموعه تتساقط على الورق .. وعادت حالة الهياج العصبى لسامى شرف وقام من وراء مكتبه وهجم على عبد الرحمن سالم محاولا ضربه قائلا بأعلى صوت: كيف تطاوعك نفسك على أن تكتب هذا الكلام يا..... (سباب) ؟ .. وفوجئ هيكل بالرجل المستسلم تماما للبكاء يقول: أنه لا يقدر ولا يستطيع أن يكتب هذا الكلام .. واندفع خارجا من المكتب .. وراح هيكل يهديء سامى شرف قائلا: «سامى .. إن الرجل فى محنة وليس أمامه إلا الإنهيار وهو شىء ما اختاره ونحن نملك إحدى وسيلتين:

إما أن نسهل له قراره ونساعده على اجتياز المحنة بأقل قدر من الخسائر وإما نضغط عليه وندفع بأعصابه إلى حد الانهيار وهو شيء لا يليق بتاريخه ولا بمكانته التي أعطتها له الأمة .. وأعرف أن ذلك آخر ما يمكن أن يكون قصدك الآن .. وكانت عدوى البكاء قد انتقلت إلى سامى شرف .. وقضى هيكल حوالى الساعة حتى تأكد أن عبد الرحمن سالم قد استطاع أخيرا أن يمسك بنص مشروع الخطاب وأن يجلس أمام آله الكاتبة ويبدأ فى طبعه.

وعبر هيكل الطريق من مكتب سامى شرف إلى مكتب جمال عبد الناصر بعد أن اتصل بالأهرام وعرف آخر تطورات الموقف .. وفى هذه المرة قال جمال عبد الناصر وقد ضايقه ما حدث فى مكتب سامى شرف يضايقه: «تحتاج الأمة إلى من يضمد جراحها حتى تتمالك نفسها بعد صدمة ما جرى .. الأمم بمواردها الإنسانية قبل مواردها الأخرى من أى نوع .. وأن معرفته باتساع الموارد الإنسانية للأمة هو الذى يشجعه على قراره ويطمئنه على «بكرة» أو «الغد» ..

ثم أضاف: «إن زكريا نبيه ومناور من الدرجة الأولى وسوف يستطيع مواجهة الضرورات» .. وأضاف على حد رواية هيكل: أنه لم يتصور فى يوم من الأيام أن زكريا هو الذى سيخلفه .. كانت يتصور باستمرار أن عبد الحكيم عامر هو الذى سيخلفه .. «فقد كان أول عضو تمكنت من ضمه إلى تنظيم الضباط الأحرار .. وفى السودان كان معى ليل نهار .. وبعد الثورة تركت له التنظيم فى القوات المسلحة .. قربه منى كان مشكلة المشاكل فى مجلس الثورة .. كانت «الخنقة» فى المجلس باستمرار على موقع الرجل الثانى .. وقد وقفت معه معتقدا بأن معدن «فلاح الصعيد» فيه سليم وأنه يمكن أن يكون مؤتمنا على الثورة» .. ثم استطرد: «إنه تغير .. وكان لازما أن أرى أنه تغير كثيرا بعد سوريا .. عندما رجع بعد الانفصال مكسورا وأراد أن يعوض .. وتسامحت معه كثيرا لأنى قدرت أنه يريد أن يعوض .. يظهر أننى أخطأت .. التسامح معه أضره أكثر مما أفاده أو أفاد البلد .. تغير أكثر فى السنة الأخيرة .. وكنت ألاحظ .. ولا أربط بشكل كاف .. لاحظت أن قمصانه وربطات عنقه تحسنت فجأة .. ملابسه كلها .. ولفت نظرى مرات كلمات غريبة على قاموسه يرددها .. ونغمة يسار بالفاظ تزيد على لسانه .. وكان يجب أن أعرف أن مؤثرات أخرى دخلت حياته ولم تتركه كما كنت أعرف .. ظننته الضعف الإنسانى لرجل خام واجه الغواية لأول مرة .. ولكنه كان الغرق» .

كان جمال عبد الناصر يقصد زواجه السرى من الفنانة برلنتى عبد الحميد .. وقد جرى الزواج على ورقة أقرب ما تكون إلى خطاب غرامى شهد عليها بعض المقربين منه ..

وقد اثمر هذا الزواج طفلا لم يعلن عنه بسهولة .. وكان وراء ذلك كله مدير المخابرات الأسبق صلاح نصر الذى تصور أن وضع عبد الحكيم عامر فى جيبه يعنى أن الجيش قد أصبح فى جيبه ومن ثم يصبح الأقوى فى البلد كلها.

ترك هيكل مكتب جمال عبد الناصر وذهب إلى مكتب سامى شرف ليحصل على نسخة نهائية من الخطاب ثم عاد من جديد إلى جمال عبد الناصر ليقدّم له نسخة الخطاب .. وراحت عينا جمال عبد الناصر تجريان على سطورهما فى صمت .. كانت الساعة قد وصلت إلى الثالثة والنصف .. وأحس هيكل بأن على جمال عبد الناصر أن يستريح بعض الوقت حتى يحين موعد إلقاء الخطاب .. ولكن جمال عبد الناصر طلب منه أن يبقى .. وعاد الحديث بينهما بلا ترتيب .. وعندما بلغت الساعة الخامسة وخمس دقائق سأل جمال عبد الناصر هيكل فجأة: «ألا تريد أن تجيء معى إلى قصر القبة وتحضر إلقاء الخطاب؟» .. ورجاه هيكل أن يعفيه من هذه التجربة .. فهى أكثر مما يستطيع احتماله .. وقال: إن كل ما أدعو الله به أن يوفقه فى هذا الموقف الذى سيقف فيه أمام الأمة.

وفاضت مشاعر جمال عبد الناصر وقال لهيكل: أنه كان معه أكثر من أخ .. وهو لا يعلم هذه اللحظة ماذا سوف يحدث غدا .. «وإذا كنا سنلتقى مرة أخرى فى يوم من الأيام أو أنه اللقاء الأخير» .. ثم تحدث عن الصداقة التى جمعت بينهما وقال لهيكل فى النهاية: «إن عليك أن تعرف إلى آخر العمر أنك لى أخاً».

وفى تلك الليلة أمر جمال عبد الناصر أن يكون هيكل مسئولاً عن كل ما يقال أو يذاع باسمه حتى يتسلم زكريا محيى الدين مسئوليته .. وأعطى تعليماته بذلك إلى شعراوى جمعة (وزير الداخلية) وسامى شرف (مدير مكتبه) ومحمد فائق (وزير الإعلام أو وزير الإرشاد) .. وتصافح الرجلان .. ولمح هيكل دمعة فى عيني جمال عبد الناصر لأول مرة فى حياته .. واستدار هيكل خارجاً من غرفة مكتبه . «فلم أكن أريده أن يرى دمعة أخرى فى عيني» .

خرج هيكل من بيت جمال عبد الناصر إلى بيته وقد استقر رأيه على أن يكون بمفرده أثناء متابعة الخطاب .. وفى الساعة السابعة إلا خمس دقائق كان جالسا أمام التلفزيون .. كانت هناك مارشات حماسية .. كان أول من يعلم أنها متناقضة تماما مع المفاجأة التى سيفجرها بعد دقائق الخطاب.

ويكتب هيكل بنفسه شارحا خواطره: «ظهرت صورته على الشاشة وراح يقرأ .. وكنت أكثر من غيرى أشعر بمدى الجهد الذى يبذله كى يظل مسيطرا على الموقف .. وكادت سيطرته أن تفلت منه للحظة عندما وصل إلى الفقرة التى يعلن فيها تنحية .. ثم فرغ من الخطاب .. واختفت صورته من الشاشة .. ولأول مرة بدأت تصوراتى تذهب إلى ما يحتمل أن يحدث بعد انفجار النبأ .. ولم تمض غير دقائق حتى جاءت الإجابة عما كنت أتساءل فيه .. فإذا أنا أسمع أصواتا فى الشارع لا أتبين مصدرها .. ثم اقتربت من نافذة تطل على كوبرى الجلاء فأجد ألوف من الناس يجرون عليه ولا يعرفون إلى أين .. ولكنهم ذاهبون بأقصى سرعة .. وصراخهم متصاعد ينادى بما لم استطع تمييزه من مكانى .. ورحت أدير جهاز الراديو على بعض محطات الإذاعة أحاول التقاط ما عساه أن يكون للنبأ من صدى فى العالم الخارجى .. وكانت بعض المحطات تقطع إرسالها وتذيع النبأ..

«واتصلت بالأهرام أسأل عن برقيات وكالات الأنباء وما حملته أو جاءت به مما أعلنه جمال عبد الناصر قبل دقائق فى قصر القبة .. وأحسست بالمفاجأة الضخمة التى وقعت على كل الرؤوس من هؤلاء الذى تحدثت إليه فى الأهرام .. ثم قيل لى أن جماهير كبيرة من الناس تتدفق على مبنى الأهرام .. وكان وقتها فى وسط المدينة فى شارع المساحة وأن هتافهم الملح هو كلمة واحدة «ناصر» ..

«وفى هذه اللحظة دق جرس تليفون آخر كان موصولا بالشبكة الخاصة للرئاسة .. وكان المتحدث هو شعراوى جمعه .. وكان انفعاله على الآخر .. وهو يصرخ فى التليفون متسائلا عن هذا الذى حدث .. قائلا إنه ليس فى مقدوره ولا فى مقدور غيره أن يمسك بزمام الأمن فى البلد لأن كل المعلومات التى وصلت إليه فى نصف الساعة التى مضت منذ ألقى الرئيس خطابه تقول أن طوفانا من البشر يتدفق إلى الشوارع مناديا باسم «عبد الناصر» ومطالبيا ببقائه .. ثم قال لى أن سامى شرف أبلغه الآن فقط أن أوامر الرئيس قاطعة فى أن لا تقال أو تذاع أى كلمة بدون الرجوع «إليك» .. وقد عرف من سامى شرف أن الرئيس لا يريد أى اتصال مباشر به .. وهو على اقتناع كامل بأن الموقف قد يفلت فى الشارع فى أى لحظة .. وسألنى عما يمكن عمله .. وكان رأى أن عليه أن يبقى فى مكتبه وأن يحاول قدر ما يستطيع .. فهى ساعات اختبار لنا جميعا .. ولم يكن على استعداد لأن يسمع شيئا وإنما قال لى بسرعة إنه فى طريقه إلى بيت الرئيس .. ليستطلع رأيه فيما يجرى ..

وبعد قليل اتصل بى زكريا محيى الدين .. وكانت دهشته بالغة .. وكانت أول عبارة صدرت عنه هى سؤاله عن هذا الذى فعلناه به .. وهل هذا معقول؟ .. وأنه عرف أن مظاهرات فى الشوارع تهتف ضده وتطالبه بأن لا يقبل ما كلف به وإلا فهو أمام الناس خائن .. ثم قال لى أيضاً إن سامى شرف أبلغه أن الرئيس ترك فى يدي مسئولية ما يمكن أن يقال أو يذاع .. وهو يطلب على الفور إذاعة بيان بأنه أعذر عما كلف به وأنه مستعد لمواصلة دوره فى الخدمة العامة تحت قيادة جمال عبد الناصر .. وهو ما يطالب به الناس جميعاً .. وقلت له أننى أتفهم منطقة وأقدر حرج موقفه .. ولكن قرار جمال عبد الناصر كان واضحاً .. ولا أظن أن فى إمكان أحد أن يفعل شيئاً قبل الصباح .. وخرج عن هدوئه الطبيعى وقال لى «بهذا الشكل لن يطلع صباح» .. وراح يحدثنى عما يجرى فى الشوارع ليس فى القاهرة فقط وإنما فى كل مكان فى مصر..

«وعاد الأهرام يتصل بى لإبلاغى أن ما يحدث فى القاهرة متكرر فى كل عاصمة عربية .. وأن وكالات الأنباء تنقل صوراً رهيبة عن بحور من البشر تتدفق إلى الشوارع مطالبة ببقاء جمال عبد الناصر وأن صوت الرصاص بدأ يلعلع فى بيروت..

«وكان شعراوى جمعة مرة أخرى على الخط الآخر يقول لى إنه ذهب إلى بيت الرئيس وأن هناك حصاراً بشرياً مخيفاً حول البيت وكل الأخبار لديه أن القاهرة معرضة لحريق أسوأ من حريق سنة ١٩٥٢ ما لم تصدر كلمة عن جمال عبد الناصر تطمئن الناس وتهدىء مشاعرهم..

«ثم اتصل بى محمد فائق يقول لى أن المشير عبد الحكيم عامر اتصل به صاخباً ومهتاجاً وقائلاً إن لديه بياناً يريد أن يذاع على الناس .. وأن رد عليه بعدم استطاعته إذاعة شىء إلى بعد الاتفاق معى .. ثم قال أنه يرجح أن المشير سوف يتصل بى الآن ولا بد أن لاحظ أن أعصابه فى آخر درجة من الهياج .. ثم قال لى إنه كاد يضرب فى طريقة إلى بيت جمال عبد الناصر لأن بعض الناس أخطأوا وتصوروه زكريا محيى الدين..

«وصدق ما توقعه محمد فائق لم أكد أضع سماعة التليفون بعد حديثى معه إلا والمشير عبد الحكيم عامر على الخط مهتاجاً بطريقة لا يبين منها كلام مفهوم .. وحاولت تهدئته قدر ما أستطيع بأن طلبت منه أن يبعث لى بالبيان الذى يريد إذاعته مع رجائى له بأن يكون ما فيه مساوياً لحرج الموقف كله..

«ولم تمض دقيقة حتى دوت صفارات الإنذار مؤذنة بغارة جوية على القاهرة وحاولت الاتصال بشعراوى جمعه فى مكتب سامى شرف وكانت جميع الخطوط مشغولة بلا

توقف .. ودق جرس التليفون .. وكان المتحدث هو عبد الحكيم عامر مرة أخرى يقول أنه يفضل إملائي البيان بدلاً من إرساله اختصاراً للوقت .. وكان البيان الذي يريد إذاعته هو إعلان بأنه قدم استقالته من جميع مناصبه ابتداء من الساعة السابعة والنصف مساءً .. وأن استقالته قبلت .. وسألته: «من قبلها» .. واستغرب السؤال .. وقلت له: إن الرجل الذي كان في اختصاصه قبول الاستقالة أعلن على الناس استقالته في الساعة السابعة .. ولم يعد في إمكانه أن يقبل شيئاً أو يرفضه .. وفوجيء المشير .. وقال إنه سيعاود الاتصال بى بعد دقائق .. وعاد وكان اقتراحه أن يصدر إعلان عنه بـ «أنه ابتداء من الساعة السابعة والنصف تخطى عن كل مسئولياته .. ورجوته في صياغة ما يريد وإرساله مباشرة إلى الإذاعة اختصاراً للوقت .. وأنى سوف اتصل بمحمد فائق .. والواقع أن هدفي كله في تلك الساعة كان أن أكسب الوقت بأقل قدر ممكن من دواعي التفجير .. وكان غضبه قد بدأ يتزايد ولكنى أشهد أن كلمة خارجة لم تصدر عنه .. ورجوته أن يراعى أن أعصاب الجميع مشدودة على الآخر .. وإذا فلتت منا أعصابنا فإن أحداً منا لا يستطيع أن يضمن كيف يجيء الصباح علينا.

«وعدت أحاول الاتصال بشعراوى جمعة وإذا بى أجده على الخط الآخر يطلبنى والصورة لديه عن الجماهير الزاحفة في اتجاه بيت جمال عبد الناصر قد أصبحت مقلقة رغم الإنذار بوقوع غارة .. وسألته عن هذا الإنذار .. وكان رده أن الدفاع المدنى رصد طائرات معادية في اتجاه القناطر الخيرية وكان ذلك يدعو إلى قلق كبير .. وما هى إلا دقائق حتى أعلنت قيادة الجيش الإسرائيلى أنه لم تكن لها «هذا المساء» طائرات على الإطلاق في العمق المصرى .. وعدت أتصل بشعراوى جمعة وقد أحسست من لهجته بشعور غامض جعلنى أتساءل بعد المكالمة ما إذا كانت هناك غارة حقيقة أو أن صفارات الإنذار كانت وسيلة فكر فيها أحد لإقناع الناس بإخلاء الشوارع .. وبدا لى أنه حتى إذا كان ذلك هو القصد فإن النجاح لم يكن حليفه لأن الجماهير الزاحفة في الشوارع كانت في انفجار مشاعرها أقوى من أية قنابل يمكن أن تلقىها طائرات ..

«واتصل بى أنور السادات رئيس مجلس الأمة الذى حاصره أعضاء المجلس في مظاهرة امتزج فيها الأسى والغضب طالبين منه أن يفعل شيئاً لتدارك الوضع الخطيرة في كل مكان .. قد حاول عدد منهم أن يذهبوا معه إلى بيت الرئيس أيضاً .. ولم يتمكنوا من الوصول إليه .. وعاد أنور السادات إلى المجلس مصراً على ضرورة أن يصدر بيان يقول للناس على الأقل بأن الرئيس سوف يعاود التفكير في الأمر .. وقلت له «أنه ليس في

استطاعتى كتابة هذا البيان أو طلب إذاعته .. وكان عدد كبير من نواب مجلس الأمة قد دخلوا قاعة المجلس واعتبروا أنفسهم اجتماعا شرعيا فيه باسم الشعب ملحين على طلب عودة جمال عبد الناصر .. وكانت تلك بالضبط هى الصيحة العامة من المحيط إلى الخليج وورائهما طبقا لما كانت تتناقله وكالات الأنباء على خط طويل ممتد من أقاصى أسيا حتى المغرب الأقصى..

«وكان الليل على وشك أن ينتصف .. ودق جرس التليفون .. وكان جمال عبد الناصر هو المتكلم .. وكان سؤاله بصوت مثقل هو «ما الذى حدث؟» .. كانت الدولة كلها قد انتقلت إلى مكتب سامى شرف المواجه لبيته .. وكان بحر الجماهير الزاحفة قد أحاط بهذا البيت من كل جانب .. وكانت خشية المسئولين بدون استثناء أنه إذا طلع الصباح دون رد على المشاعر الجامحة فإن الموقف سوف يفلت تماما وسوف تكون العواقب خارج تصور أى إنسان .. وهكذا اقتحمت باب بيت جمال عبد الناصر مجموعة من المتحمسين لطلوع الصباح وصعد بعضهم إلى غرفته ودخلها عدد منهم يضعون أمامه صورة الموقف .. ولم يصدق ما سمعه .. واتصل بى يسألنى عما يجرى .. ورويت له صورة مصر والعالم العربى كما كانت بادية لى لحظتها .. وكان سؤاله المتكرر «ليه؟» وراح يردد لها مستغربا».

لقد جرت كل هذه الاتصالات فى خمس ساعات كانت الأعصاب فيها مشدودة ورؤية الصباح غامضة .. وفى هذه الساعات الخمس كان هيكل هو الذى يدير ما جرى .. كانت كل الخطوط تنتهى إليه .. وكانت كل التصورات تخرج منه .. وهو ما جعل البعض يكرر فيما بعد أن هيكل كان على الأقل الرجل الثانى فى مصر .. أقول على الأقل لأن البعض اعتبرها «الأول مكررا» .. وفيما بعد أجاب هيكل فى حوار صحفى أجرته معه مجلة «نصف الدنيا» فى صيف عام ٢٠٠٠ قائلاً:

«أعتقد (أن حكاية الرجل الثانى) كلام فارغ .. وكان ممكنا من ناحية الغرور الإنسانى الطبيعى أن أقول أن هذا الكلام صحيح .. لكن واقع الأمر إن هذه الكلام لم يكن صحيحا .. ولا جدال أننى فى ذلك الوقت كنت أقرب الناس للقمة .. لكننا ننسى دائما طبائع السلطة عندما يقال أن فلان الثانى أو الثالث أو الرابع .. وأعتقد أننا فى النظم الموجودة فى عالمنا الثالث وهى فى غياب عمليات فرز وديمقراطية حقيقة تصبح مسأله الرجل الثانى والثالث شائعة .. والأمر هكذا ادعاء أعمى .. وفى أمريكا مفهوم أن الرئيس هو الأول

والثانى هو رئيس المحكمة العليا لأن السلطة هناك موزعة طبقا لقانون وطبقاً لأوضاع حقيقة وعندما نتكلم عن العالم الثالث فإننا نتكلم عن سلطة رجل واحد (لا يستطيع أن يبني هرما ولكن يعمل حوله دائرة) وهذه الدائرة قد تتغير .. أو هي قابلة دائماً للتغيير .. يعنى عبد الحكيم عامر كان يمكن أن تجده فعلاً الرجل الثانى .. ليس بحكم منصبه لكن بحكم القوات المسلحة .. ثم انتهى .. ومعنى ذلك أن الرجل الثانى موجود لكنه قضية متغيرة دائماً..

«أنا بالفعل – كنت قريباً من الدائرة .. وكنت صديقاً من أقرب الناس إلى جمال عبد الناصر .. ولكن هذا لا يجعلنى أن أكون الرجل الثانى فى النظام .. ولأن الرجل الثانى فى النظام لابد أن يكون مهيئاً ليحل محل الرجل الأول وهذا لم يكن موجوداً فى حالتى على الإطلاق .. هذا على فرض أننى نسيت يوماً أن الصحافة هى حياتى وليست فقط مهنتى .. وحتى لا نطيل النقاش فى هذه النقطة فأنا فعلاً كنت فى الدائرة القريبة لجمال عبد الناصر ولكن حكاية الرجل الثانى غير مطروحة من ناحية السلطة ولا من ناحية التنفيذ» . ولوجوده فى الدائرة القريبة – أو لوجوده فى مركزها فى ذلك اليوم – فإن هيكىل عندما اتصل به جمال عبد الناصر لم يتردد فى إقناعه بضرورة إصدار بيان يهدىء على الأقل الخواطر الهائجة .. واتفق على أن جمال عبد الناصر سيذهب فى الغد إلى مجلس الأمة ليناقش معه الأمر .. لكن الجماهير التى غطت الشوارع لم تعد إلى بيوتها .. وفضلت البقاء خارجها .. بلا نوم.

واتصل جمال عبد الناصر بهيكىل مرة أخرى بعد منتصف الليل ليقول له : أنه يشعر بتعب لم يشعر به من قبل وأنه يحس بحاجة شديدة إلى أن يغمض عينيه وينام .. وأنه بالفعل سوف يبلع قرصاً منوماً ويحاول .. لكن المحاولة لم تنجح .. لأنه عاد واتصل بهيكىل فى الساعة الخامسة والربع قائلاً: إن القرص المنوم أضرب به أكثر مما نفعه .. فقد أصابه بعوارض النوم وفى نفس الوقت فإن فكره كان يقظان .. وسأله: متى أستطيع أن أراك ؟ .. فرد هيكىل: على الفور إذا أردت .. ونزل هيكىل من بيته .. وكانت كل الطرق فى تلك الساعة من الصباح مسدودة وبخاصة ميدان التحرير .. وتمكنت من الوصول إلى الأهرام بصعوبة بالغة .. واتصلت به أقول أننى سوف أتأخر رغم إرادتى لأن الطرق كلها مغلقة .. ولم يكن قادراً – على حد وصف هيكىل – أن يستفيق من دهشته .. وكان تعليقه بصوت تشيع فيه حيرة كاملة «إن هذا الشعب غريب تصورت أنه سينصب لى مشنقة فى ميدان التحرير فإذا تصرفه على عكس ذلك تماماً» .. وقال لهيكىل أيضاً: «إنه من الأفضل

أن تظل في مكتبك حيث أستطيع الاتصال بك في أي وقت بدلاً من أن تتوه في وسط الزحام فلا تصل إلى بيتي ولا تبقى حيث أستطيع أن أتصل بك».

وكما فشل هيكل في الوصول إلى بيت جمال عبد الناصر .. فشل كل المحيطين بجمال عبد الناصر في البحث عن وسيلة لوصوله إلى مجلس الأمة .. وكان أن اقترح هيكل أن يوجه جمال عبد الناصر برسالة إلى مجلس الأمة بدلاً من الذهاب إليه .. على أن يكون الذهاب إليه فيما بعد عندما تعود الجماهير إلى منازلها .. وطلب هيكل مهلة ربع ساعة لكتابة الرسالة .. وراجعها مع جمال عبد الناصر عبر التليفون .. وبهذه الرسالة انتهى يوماً من أطول الأيام في مصر.

زوار الفجر يحاولون اغتياله بالرصاص !

■ كان هيكل فى مبنى الأهرام القديم عندما طلب سكرتير التحرير توفيق بحرى ليذهبا معا لتفقد مبنى الأهرام الجديد .. وبينما هما يعبران الشارع لركوب سيارة هيكل فوجئا بصوت طلقات رصاص .. وسارعا بالاختباء .. وعندما جاءت الشرطة للمعاينة - بناء على بلاغ تقدم به الدكتور جمال العطيفى - كان من السهل التأكد أن هيكل هو المقصود .. فأثار طلقات الرصاص كانت واضحة على سيارته.

وفيما بعد .. أمام محكمة جنايات القاهرة سئل هيكل : هل حقيقة أنه تم إطلاق النار عليك فى وقت من الأوقات ؟ .. وأجاب هيكل: نعم .. وسئل أيضاً: ومن الذى أطلق عليك النار؟.. فقال: جهة أمنية؟.

كانت المحكمة تنظر قضية ضد صلاح نصر وتحاكمه بتهمة التعذيب .. وكانت المحاكمة بناء على بلاغ إلى النائب العام تقدم به مصطفى أمين متهما مدير المخابرات العامة الأسبق بتعذيبه .. وقد استدعى هيكل شاهداً . وفجر "حامى شوكت التونى مفاجأة إطلاق النار على هيكل .. وفيما بعد سألت هيكل عن هذه الواقعة .. فقال: نعم الواقعة صحيحة .. وكان الهدف من إطلاق النار على هو «إحداث فرقة» .. أو «عمل حاجه ترن» .. أو ربما كان الهدف تخويفى بعد ما كتبته نقداً فى المخابرات .. وإشارة إلى «زوار الفجر».

كان ذلك بعد أحداث ٩ و ١٠ يونيو التى أعادت جمال عبد الناصر إلى السلطة .. وبعد أن بدأ هيكل يكتب عن الجبهة الداخلية .. والتغيير والمجتمع المفتوح .. ودولة المؤسسات ..

ومراكز القوى .. وكيفية القضاء عليها .. لقد شعر المجتمع المصرى أن الهزيمة لم تكن هزيمة عسكرية فقط وإنما كانت هزيمة سياسية وحضارية أيضاً .. وظهرت فى ذلك الوقت - إلى جانب سخيرية النكات وجلد الذات - دعوات لوضع الصراع العربى الإسرائيلى فى حجم يتجاوز الصراع العسكرى المسلح إلى حجم أكبر .. هو حجم الصراع الحضارى الدائم .. وإذا كان أحمد بهاء الدين هو صاحب فكرة «الصراع الحضارى مع العدو» فإن هيكىل كان صاحب فكرة «التعمير الحضارى» .. وقد نشطت الفكرة بعد عام ١٩٦٨ وتكون لها مجموعة خاصة من المفكرين والباحثين كان على رأسهم الدكتور محمود فوزى .. وكان الدكتور عبد الملك عودة هو المقرر .. وقد كان هيكىل يحلم بأن تصل الفكرة إلى الذروة فى الاحتفال الذى كان يحلم به بمناسبة مرور ١٠٠ عام على الأهرام فى ٢٧ ديسمبر ١٩٧٥ .. ولكن السادات لم يتح له تحقيق حلمه فقد خرج من الأهرام قبل ذلك بأكثر من عام.

لقد راح هيكىل يتحدث عن دور الجبهة الداخلية فى حل الأزمة التى خلقتها هزيمة يونيو .. وفى مقال يحمل عنوان «الجبهة الداخلية» نشره على أسبوعين ابتداء من ١٠ نوفمبر ١٩٦٧ قال: «إنه لا جبهة قتال قوية .. بدون جبهة داخلية أقوى» .. وأضاف: «أن القوة العسكرية لا قيمة لها إلا أن تكون مظهراً وتعبيراً على قوة اجتماعية شاملة اقتصادية وسياسية وروحية وثقافية ومعنوية .. ومن هنا فإن الجبهة الداخلية هى الأصل والقوة العسكرية شكل من أشكالها الخارجية .. إن الجيش هو قشرة صلبة يفرزها المجتمع الذى يبنيه لى يحمى بها نفسه من التقلبات المحيطة به والقشرة لا قيمة لها بغير ما يصلها خلال الأنسجة والخلايا الحية للجسم وهى به تعود إلى الالتئام إذا انشربت بل وتجدد نفسها إذا تحطمت».

ويضيف : «ولقد ظهرت سلامتها وصلابتها يومى ٩ و ١٠ يونيو مجموعة عوامل من بينها غريزة البقاء .. لكنه من الخطأ والخطر أن تترك غريزة البقاء وحدها تحكم الجبهة الداخلية وتوجه سيرها .. غريزة البقاء يجب أن تتحول إلى إرادة بقاء .. ثم إلى إرادة انتصار .. ووسيلة ذلك هى «العمل السياسى قبل أى شىء آخر وبعده» .. على أن حجم العمل السياسى وفاعليته - كما يقول هيكىل - «لم يكن بالقدر الكافى» .. «وقد حان الوقت لمحاولة أكثر عمقا وأبعد مدى بزيادة حجم وفاعلية العمل السياسى».

ولا يتردد هيكىل فى أن يقول: إن ذلك لا يمكن أن يحدث إلا «بعمل ديمقراطى شعبى» .. ولم ير فى «ظروف الأزمة» حاجزاً أمام الديمقراطية .. بل رأى أنها «حافز للمزيد منها»

.. لكنه أضاف شرط «أن نحسن فهمها» .. وهو يعرف الديمقراطية بأنها «شعور الشعب أنه يملك الحقيقة» .. فملكية الحقيقة هي «المعيار الأصيل للديمقراطية السليمة» .. وبهذا التعريف ليس ضروريا للديمقراطية السليمة - على حد قوله - وجود معارضة .. «فهدف المعارضة هو أن تظهر الحقيقة أمام الشعب ليملكها ويقرر بملكيتها ما يشاء» .. لكن .. كيف يمكن أن تظهر الحقيقة أما الشعب بدون معارضة؟ .. يقول: «إن الحوار الهادئ يستطيع أن يحقق صيغة معقولة للديمقراطية .. بل إن التأمل المتأنى مع وضوح كاف يستطيع أن يؤدي إلى نفس النتيجة» .. «إن المادة الخام للتوعية الديمقراطية آراء ومعلومات تحمل من الصدق أكبر شحنة متاحة أو ممكنة وتزدهر بالمناقشة ولا تذبل بعدها .. والشعارات المصكوكة مهما كان رنينها أصبحت الآن كالصناديق المقفلة تاهت مفاتيحها ولا يعرف أحد حقيقة ما تحتويه وهي تنقل وتلقى هنا وهناك دون أن يعنى ذلك كشفا حقيقيا أو رؤية واضحة» .. واعتقد أن تصور هيكل للديمقراطية على هذا النحو لا يخلو من التصورات غير الملموسة وغير المحسوسة.

وفى هذا المقال يذكر هيكل أنه كان أول من كتب ناقدا جهاز المخابرات .. وتحدث عن انحرافات «حين كان جهازها فى عنفوان قوته وسطوته .. وأعاد ما سبق أن قاله قبل أن تبدأ التحقيقات مع صلاح نصر ورجاله .. «لقد قلت بالحرف الواحد: إن أجهزة المخابرات إذا تركت بغير رقابة كافية تكتسب فى نواها طبيعة سرطانية مدمرة» .. ويذكر هيكل فى المقال أيضاً أنه كان أول من استخدم تعبير «مراكز القوى» .. وأول من حذر من خطورتها وأخطارها .. لكنه أضاف متسائلاً: «هل يمكن أن نعود مرة أخرى إلى أوضاع مراكز القوى .. والأجهزة المتحكمة؟» .. وبصراحة يرد: «نعم .. يمكن» .. ويشرح: «إن صميم المسألة ليس هو أن مجموعة من الأفراد هنا أو هناك تجاوزوا الحدود وخرجوا .. وإنما صميم المسألة هو وجود المناخ الذى يسمح بهذا التجاوز والخروج .. المناخ هو الذى يسمح .. بل هو الذى يغرى .. حيث توجد سلطة فردية لأى شخص مهما كان دوره .. ينشأ على الفور مركز قوة .. وحيث توجد أجهزة لا رقابة عليها فإنها تتحول على الفور من الخدمة العامة إلى السيطرة والتحكم .. وإذا ما تحدثنا مثلاً عن «مراكز القوة» فلقد نستطيع القول بأن الظروف الأولى للثورة أتاحت الفرصة لظهور هذا الوضع لكن استمراره بعد ذلك أصبح عقبة ضد الثورة لعدة أسباب: (١) أن ذلك يحول الولاء من المبادئ إلى ولاء للأشخاص .. (٢) أن ذلك يساعد على الانحرافات نتيجة لمحاولات الأشخاص أن يستبقوا الولاء لأنفسهم أو أن يستزيدوا منه .. (٣) أن ذلك يؤدي إلى تقسيم السلطة فى الدولة

فينشأ نوع من الإقطاع - التصرف المطلق - وهو لا يختلف كثيراً عن الإقطاع التقليدي وأن كان يكتسى ثوباً حديثاً .. (٤) أن ذلك من أول العوامل التي يمكن أن تساعد البيروقراطية - أي التحكم الإداري - والسبب في ذلك أن مراكز إصدار أي قرار تصبح محددة وضيقة في حين أن مهام الدولة الجديدة تتطلب تعدد واتساع مراكز إصدار القرار .. (٥) إن ذلك يمكن أن يؤدي إلى صراعات على السلطة ..

.. «وإذا انتقلنا بعد ذلك إلى «الأجهزة المتحكمة» وأجهزة المخابرات بالطبع أولها فإننا نستطيع القول بأن مثل هذه الأجهزة ضرورية لأمن الدولة الحديثة .. ولكن في الوقت نفسه وحتى لا تتجاوز هذه الأجهزة حدودها يجب: (١) تحديد مهمتها تحديداً قاطعاً فاصلاً .. (٢) وضعها تحت رقابة من نوع معقول .. يضع في اعتباره دورها وأهميته .. وبالتالي يحصر اهتمامه في متابعة خط عملها ولا يقحم نفسه على تفاصيل عملياتها .. «وفي النتيجة مما يمكن استخلاصه من ظروف قبل النكسة فإن هذين العائقين على وجه التحديد - وضع مراكز القوى ووضع الأجهزة المتحكمة - وقفاً عائقاً أمام حرية التعبير والتفكير .. والتعبير والتفكير هما الدورة الدموية الصحيحة للديمقراطية .. اقصد أن أقول أن التفكير وحده نصف ديمقراطية لا يكتمل ولا يحقق قيمته بغير النصف الآخر .. وهو حرية التعبير .. وكلا الوضعين - وضع مراكز القوى ووضع الأجهزة المتحكمة - فرض قيوداً على إمكانية التفكير والتعبير بطريقة منظمة .. أي بطريقة جماعية .. ولم يعد هناك - في بعض الأحيان - غير التفكير والتعبير الفردي .. الذي يقف وحده في الجو العام الموحش وأمام العواصف .. هذه مغامرة غير مأمونة لأنه لا يمكن أن يطلب كل الناس أن يبلغوا مرحلة القديسين والشهداء.

وأغلب الظن أن التوصيف الذي قدمه هيكل على هذا النحو يصلح لأن نطبقه على ما جرى في مصر .. فيما بعد .. سواء كانت مراكز القوى هي مراكز سياسية داخل النظام .. أو كانت مراكز مالية خارجه ولكنها متحالفة معه .. وعلى ظل فإنه مع تغير الظروف والأشخاص وطبيعة النظام الحاكم في مصر فإن المشكلة ظلت كما هي بلا حل .. بل وبقيت الدعوة التي ظهرت في ذلك الوقت - دعوة التغيير - كما هي دعوة مزمنة بلا استجابة.

إننا نتساءل الآن عن : ما هو السبيل إلى التغيير؟ .. وهو نفسه التساؤل الذي طرحه المصريون في تلك الأيام القاسية .. وقد حدد جمال عبد الناصر الإجابة على السؤال بعبارة «تقنين الثورة» .. أن سيادة حكم القانون .. ويضيف هيكل إلى «تقنين الثورة» ..

«الحرية» .. لكنه يضيف: إنه ليس من شك أننا نعيش مع غيرنا من الشعوب فى عالم يعانى ما يمكن أن نسميه «أزمة حرية» .. ويصبح السؤال: «كيف يمكن مثلا أن تصان الحرية فى عالمنا بينما هناك دول كبيرة تملك من الأسلحة ما لا قبل بها للدول الصغيرة؟» وكيف يمكن مثلا أن تصان الحرية فى مجتمعات تملك فيها الدولة - حتى الدول الصغيرة - أسلحة لا قبل للمواطن العادى بها أو التصدى لها؟ .. وكيف يمكن مثلا أن تصان الحرية فى ظل التفاوت الاقتصادى الفادح على مستوى الشعوب وعلى مستوى الأفراد؟ .. وكيف يمكن مثلا أن تصان الحرية مع مظنة وجود تصادم بين مضمونها الاقتصادى وحركتها السياسية؟ .. وكيف يمكن مثلا أن تصان الحرية بكل وسائل الإعلام المتاحة عندما تتحول من وسائل إعلام إلى وسائل إعلان؟».

ورغم مرور أكثر من ٣٣ سنة على طرح هذه الأسئلة فى مصر فإن من المؤكد أن لا أحد كان قادرا على التوصل إلى إجابة مناسبة .. أو غير مناسبة .. بل أن الأسئلة التى بدت فى تلك الأيام سهلة وبسيطة أصبحت الآن معقدة وصعبة .. ولا نقول مستحيلة.

ولو كان هيك فى تلك الأيام قد نقل عن جمال عبد الناصر تحذيره من خطورة الاعتماد على الفرد .. فإن التحذير مع مرور الأيام وتغير النظم وتعاقبها قد تحول إلى مساحة من النيران الحمراء التى نندفع إليها دون أن نشعر بخطر الانتحار والفناء .. فنحن لا نستفيد من أخطائنا .. ونحن نبدا دائما من الصفر .. ونحن لا نتعلم من دروس التاريخ لذلك فنحن نكرر عيوبنا وعاهاتنا بنفس الحماس وبنفس الحيوية.

لقد بقيت مفاتيح حل الأزمة السياسية فى مصر - وهى سيادة القانون والمؤسسات والعمل السياسى والمعلومات والوقائع والحقائق والمشاركة والديمقراطية وحرية التفكير والتعبير - ملقاة على قارعة الطريق لا تجد من يمسك بها أو يستعملها حتى أصابها الصدا .. وأصاب الناس اليأس .. فكان أن أصبح الناس فى واد .. والحكومة فى واد .. وتحولت العلاقة بينهما إلى علاقة ضارب ومضروب .. أو راكب ومركوب .. أو فاعل ومفعول به.

كذلك فإن السؤال الذى طُرح فى تلك الأيام عن «ما هى الضمانات التى يمكن أن تحول دون تكرار ما حدث؟» يظل سؤالاً مفتوحاً حتى الآن .. حتى لو كان ما حدث قد اختلف من هزيمة عسكرية إلى هزيمة سياسية .. أو تحول من نكسة فى سيناء إلى نكسة فى الداخل .. نكسة اقتصادية واجتماعية وديمقراطية .. والغريب أن جمال عبد الناصر قد حدد

بوضوح طريق الإجابة .. لكن الغريب أيضا أن لا أحد مشى فى هذا الطريق .. أو لا أحد سمح له بالمشى فى هذا الطريق .. أما ما قاله جمال عبد الناصر فهو: «الآن يبدو واضحا أن كثيرين لم يتكلموا حين كان واجبهم يقضى عليهم أن يتكلموا .. ومن هنا فلسوف يبقى أهم الضمانات فى نظرى أن يكون فى هذا الوطن دائما الفرد المؤمن الذى يقول كل ما يريد قوله حتى إذا أعطى رأسه ثمنا لذلك» .

وقد اقتبس هيكل هذه الإجابة ونشرها فى مقال يوم الجمعة ٨ نوفمبر ١٩٦٨ بعنوان «المعنى الحقيقى لكل ما تكشف بعد النكسة» .. وأضاف إليها: «وبالحق فإنه ليس هناك وقت تشتد فيه حاجتنا إلى أن نتكلم أكثر مما تشتد الآن .. وأن نتكلم بالتصريح أولى من التلميح .. وأن نشترك فى مناقشات واسعة وأن ندعو إلى مناقشات أوسع بل وأن نحرض عليها تحريضا إذا لزم الأمر .. وفضلا عن ذلك فلست أعتقد أن رؤوسنا معرضة .. بل أن رؤوسنا سوف تكون معرضة إذا لم نتكلم لأن كل ما حدث سوف يتكرر كما أن الوطن ليس ملكا لبعض من فيه دون البعض الآخر .. إن كثيرين لديهم ما يقولونه وقد يكون نافعا وقد لا يكون .. لكن المهم أن لا نتحرج ولا نتردد .. أن نتكلم .. هذه هى روشة العلاج التى لم نأخذ بها حتى الآن رغم أن الجسم السياسى يزداد ضعفا وهزالا .. فقد تعودنا أن لا يصحح النظام السياسى تلقائيا .. بل يجب أن يجبر على ذلك تحت وطأة ضغوط مفاجئة لا قبل له بتجاوزها .. وساعتها قد يكون التصحيح والتغيير قد فات أوانهما .. كما حدث فيما بعد .. فى حادث المنصة الذى دفع فيه السادات حياته ثمنا لعناد لم يكن له أى معنى .. وكما حدث بعده فى مواقف أقل حدة .. ولكنها راحت تتراكم منذرة بما يهدد أو على الأقل يثير القلق» .

ويتذكر هيكل أنه قال لجمال عبد الناصر: أنه «لا بد أن يرى ناس ويحاورهم» .. لا بد أن يسمع لأعداد كبيرة ومتنوعة منهم حتى لا تضيق الرؤية والمعرفة وتقفز مراكز القوى مسيطرة وضاغطة .. واقترح هيكل على جمال عبد الناصر أن يدعو من وقت إلى آخر عدة شخصيات .. عشرة مثلا .. فى بيته .. بعيدا عن «رسميات» العمل .. ويتكلم معهم بلا قيود .. ونفذ جمال عبد الناصر الاقتراح مرتين .. لكن .. فى المرتين لم نجد من تكلم .

ويفسر هيكل صمت الناس فى مواجهة جمال عبد الناصر بالكاريزمة التى كان يتمتع بها .. لقد حدث أثناء مناقشة «قانون السلطة القضائية» أن اتصل هيكل - وكان فى الإسكندرية - بالدكتور جمال العطيفى ليسمع منه رأيه فى القانون .. وبعد أن اقتنع هيكل بملاحظاته قال له: أنه سيمر على جمال عبد الناصر فى المنتزة ليناقشه فى القانون

.. واقترح أن تأتى معى فى السيارة وتنتظرنى .. فإذا احتاج الأمر لشرح منك طلبت من الرئيس أن تنضم إلينا .. وفور أن عرف جمال عبد الناصر أن جمال العطيفى ينتظر أمر بأن يأتى وينضم إليهم .. ولكن .. ما أن دخل جمال العطيفى علينا وصافح جمال عبد الناصر حتى انعقد لسانه .. لم يستطع الكلام .. والسبب .. ربما هيبة اللقاء .. ربما كاريزمية جمال عبد الناصر .. ربما .. لكن هذا هو ما حدث.

وأغلب الظن أن قدره هيكلى على الحديث والكلام مع جمال عبد الناصر كانت سبب فى أن يثير غضب وحقد الآخرين .. ويروى هيكلى : إن السادات كان عنده فى مكتبه بالأهرام عندما رن التليفون الساخن بين هيكلى وجمال عبد الناصر .. وقال السادات قبل أن ينسحب تاركاً له حرية التحدث مع جمال عبد الناصر: آه لو قطعوا سلك التليفون ده يا محمد .. بعد خمس دقائق حيقطعوا رقبتك.

وقد طرح هيكلى ضمن ما طرح فى تلك الأيام ضرورة إحداث انقلاب حاد فى التنظيم السياسى .. لتجديد دمائه .. ولسريان الحيوية فى مفاصله .. ولكن يبدو أن خلافاته القديمة والمزمنة مع قيادات الاتحاد الاشتراكى رأت فيما كتبه تعريضاً بها .. وتقليلاً من شأنها ودورها .. وتهديداً لوجودها واستمرارها .. فكان أن راحت تتحين الفرصة للانقضاض عليه .. لرد الهدية بأحسن منها .. وقد جاءت الفرصة على طبق من فضة فى مظاهرات الغضب التى اجتاحت الشباب فى مصر .. فى فبراير ونوفمبر عام ١٩٦٨ .. لقد أطلقت بعض عناصر المخابرات عليه الرصاص لإرهابه .. أما قيادات التنظيم السياسى فقد أطلقت عليها الهتافات فى المظاهرات التى راحت تلقى الطوب والحجارة على مبنى الأهرام .. وتصرخ فى وجهه بعبارات خلت من اللياقة أحياناً .. وقد عرف هيكلى فيما بعد أن هذه المظاهرات تحركت بأمر من قيادة التنظيم فى القاهرة .. ولأن التنظيم السياسى كان محكوماً بسطوة الأمن الداخلى فى المباحث العامة (مباحث أمن الدولة فيما بعد) فإن المظاهرات انقلبت إلى منشورات .. كتبت ضده فى مكاتب الأمن السياسى .. وبدأت نوعاً من الحرب الخفية للتخلص منه .. ولم يشفع له فى هذه الحرب علاقتة بجمال عبد الناصر .. الذى قال له: لقد اخترت .. تحمل.

لقد تفجرت المظاهرات فى أعقاب الأحكام التى بدت هزيلة فى قضية قادة الهزيمة وعلى رأسهم الفريق صدقى محمود قائد سلاح الطيران .. وقد حاول هيكلى قدر استطاعته أن يفتح حواراً مع المتظاهرين .. ويرد على الشعارات .. بالكلمات .. وكان رأيه .. «إن

المظاهرات مهما فيها - بعض الأحيان - من جموع تعتبر فى الواقع ظاهرة صحية وهى فى أبسط صورها تعبير عن اهتمام بالمصير لابد من تقدير دوافعه وحتى لو ثبت أنه كانت هناك محاولات لاستغلالها فإنه من الضرورى أن نفرق بين النوايا .. كلمات غير قاطعة .. فيها محاولة بارعة لتجنب إثارة غضب طرف من الطرفين المتناقضين فى ذلك الوقت .. الشباب الغاضب .. والدولة التى لا تزال تلملم جراحها .. وبنفس الأسلوب القريب من أسلوب سائق سيارة سباق مسرعة فرضت عليها الظروف أن يدخل فى حوارى ومنحنيات يستطرد هيكلاً: «إن لمسات الجموح فى هذه المظاهرات تعكس بالدرجة الأولى شعوراً عاماً يهز المجتمعات العربية كلها بالقلق وهو شعور يتخلخل فى أسس «اليقين» الذى يسند كل تصوراتنا العامة قبل النكسة .. وسواء كانت هذه التصورات السابقة صحيحة أو كانت مخولة بشيء من التوهم فلقد كنا قبل النكسة نقف على أرض «يقين» معين فمما يتعلق باحتمالات المواجهة مع العدو الاستعماري الإسرائيلي .. لكن النكسة هزت هذه الأرضية وحدث بالنتيجة تخلخل فى «اليقين» وفى وسط المراجعة والبحث عن يقين جديد تجرى على أرضيته المواجهة المقبلة مع العدو .. فإن القلق واقع لا يمكن إنكاره» .

واعترف - وقد كنت واحد من جموع الشباب الغاضب التى فجرت وشاركت فى المظاهرات - أننا لم نكن نقنع كثيراً بما قاله هيكلاً .. كان نوعاً من المناورة العقلية لم تكن تقبلها عقولنا التى كانت فى حاجة إلى يقين واضح .. وعلامات طريق لا تحدث التباساً فى الاختيار .. وفى حالة فقدان الثقة التى أصابتنا وشملت كل شيء - بما فى ذلك شخصية جمال عبد الناصر - لم يعجبنا التفسير النفسى لأزمة الشباب الذى تبناه هيكلاً .. أعجبنا أكثر قصائد الجلد التى كتبها نزار قباني .. وأحمد فؤاد نجم .

وقال هيكلاً لجماعة من الشباب وجدت طريقها إليه فى مبنى الأهرام .. إن الشباب على حق فى أسلوب تعامل أبعد إدراكاً وعمقاً .. وهو بحاجة إلى حقائق أوضح فى أيديهم .. بأكثر من حاجتهم إلى شعارات أعلى .. لها فى أذانهم مثل فرقة السياط .. وقد قال هيكلاً ذلك لكى 'يمهد به إلى نتيجتين .. «النتيجة الأولى: إننى برغم أى شيء لست متحمساً لأسلوب التعبير بالمظاهرات خارج الجامعة .. والنتيجة الثانية: إننى برغم أى شيء لست متحمساً لإعادة المحاكمة بالنسبة للقادة السابقين للسلاح الجوى» .. ثم راح يشرح أسباب اقتناعه بهاتين النتيجتين .

لم يكن متحمسا لأسلوب التعبير بالمظاهرات خارج الجامعات لأكثر من سبب: (١) أنه فى حرم الجامعة يمكن للطلبة أن يناقشوا كل شىء وأن يبدوا أى رأى .. ولكن الخروج إلى الشارع فلا يعطيهم «الحصانة المطلوبة» .. لأننا فيه لا نكون فى رحاب الجامعة .. ولأننا فيه لن نكون وحدنا .. ولا نضمن أن تسير الأمور على النحو الذى نريده ونرضاه .. (٢) إن المظاهرات قد تعطى انطبعا خاطئا عن سلامة الجبهة الداخلية .. (٣) إن الشهور السابقة منذ معارك يونيو وإلى اليوم شهدت إيجابيات ضخمة تحققت بما لا يدع مجالا للشك .. وكانت تحقيقها بواسطة أكثر الجهود مشقة وضنى.

ولم يكن متحمسا لإعادة المحاكمة بالنسبة للقادة السابقين للسلاح الجوى لأكثر من سبب: (١) إذا كنا جادين فى تحرير أرضنا المحتلة فيجب أن ندرك أن ذلك مرهون بقدرة قواتنا لمسلحة وأى نتيجة سياسية أو عسكرية نصل إليها لحل الأزمة هى محصلة صحيحة لقدرة قواتنا المسلحة .. (٢) إن القيادة العسكرية التى سوف تتحمل مسئولية المواجهة مع القدوة يجب أن تعمل فى ظل تقاليد محفوظة ومصانة .. ولم يحدث أن حوكم قائد عسكرى لأنه دخل معركة ثم خسرها .. قصارى ما يمكن أن يلحق بأى قائد عسكرى مهزوم - إلا إذا ثبتت عليه تهمة التواطؤ والخيانة مع العدو - هو أن يعزل من الخدمة وأن يفقد سمعته العسكرية .. ليست هناك سابقة لمحاكمة قائد عسكرى خسر معركة أمام العدو حتى وإن كان هزيمة رخيصة .. وحتى إذا كان العدو قد فاجأه برغم تحذيرات واضحة لديه.

فى نوفمبر من نفس العام تجددت المظاهرات فى الجامعات .. بدأت فى المنصورة وتصاعدت فى الإسكندرية .. وكان الأقاليم البعيدة عن القاهرة أرادت القول أنها هى أيضا من حقها الغضب .. أو أرادت القول أن الغضب ليس حكرا على القاهرة التى تستحوذ على كل شىء .. إن بركان الغضب فى صدر الجيل الجديد كان يبحث عن مبرر أو سبب مهما كان لكى ينفجر .. ويلقى بما فى صدره من حمم وشياط .. وكالعادة فى مثل هذه الظروف - التى يحول فيها الشباب الكبت إلى انفجار - بدأ الكلام السابق واللاحق عن «أزمة الشباب» .. و«مشكلة الشباب» .. وهكذا .. كتب هيكى فى ٢٩ نوفمبر ١٩٦٨ عن «قضية الشباب».

ويدخل هيكى على أطراف أصابعه إلى «القضية» .. والسبب كما يقول: أنه يعرف مقدما أن الحديث عن قضية الشباب - خصوصا فى هذه الظروف - ديناميت .. «ذلك أن بعض الحق فى الموضوع قد لا يعجب الذين يرون فى شباب اليوم نفعا ولا أملا كما أن

بعضه الآخر قد لا يعجب الشباب .. بطل القضية .. ومهما يكن فإن أوضاع الأمة العربية الآن تفرض على كل من فيها التعامل مع الديناميت يوميا أينما كانت مواقعهم وإذن فما تخرجى اليوم منه أو خشيتى إزاءه؟ .

ثم يقول: «وفى البداية أحدد خطين يجرى عليهما هذا الحديث كما يجرى القطار الحديدى على شريطه المتوازى - حتى تكون هناك نقطة قيام ونقطة وصول لا يحدث بينهما عطل أو خروج:

الخط الأول: إن حركة الشباب حركة عالمية وهى حركة إلى الأمام بطبيعة التطور ذاته ومن الخطأ أن نقع فى الخلط بين حركات الشباب العالمية وبين ما قد نلاحظه من مظاهر الانحراف التى تنسب تجاوزا إلى حركة الشباب كما هو الحال بالنسبة لجماعة الهيبز المشهورة فى أمريكا مثلا وهى ظاهرة الشباب الشارد الطويل الشعر والذقون والأظافر يتعاطى المخدرات ويمارس الجنس بغير ضوابط تحت شعار دع الحرب وتفرغ للحب إلى غير ذلك مما يفعل ويقول .. إن حركة الشباب العالمية شىء ومثل هذه المظاهر أو الظواهر التى انفلت عيارها شىء آخر بل لعل تدقيق النظر فى هذه الظواهر برغم ما فيها من شذوذ يكشف أنه حتى هذه الظواهر إنما هى انعكاس لقلق ضل طريقه إلى المثل العليا وتخطب وسقط بينما هو يحاول أن يتحرر وينعتق من الأغلال القديمة.

والخط الثانى: إن حركة الشباب المصرى هى جزء من الحركة العالمية للشباب وامتدادا لها مع إضافة الأوضاع المحلية ومناخها العام وخصائصها إلى التأثير العالمى .. وهنا أيضا فإنه من الخطأ أن تقع فى الخلط ما بين حركة الشباب المصرى وما بين الإنزلاق غير المفهومة لبعض تلاميذ المنصورة أو التشنج العصبى الذى رأت الإسكندرية يوم الاثنين الماضى لمحة منه .. إن سوء التعبير مرة أو مرتين لا ينبغى له أن يؤثر على حق التعبير أساسا كما أن جموح قلة ليس له أن يغطى على موقف الكثرة الغالبة التى تتمثل فيها حركة الشباب.

«وأنا أعلم أن بيننا من تغضبه - وأحيانا تفزعه - اللغة التى يتكلم بها شباب اليوم وأقول بغير تحفظ: إننى اختلف مع الذين يتركون أنفسهم للغضب أو للفرع .. ذلك أننا يجب أن نسلم بأن الجيل المعاصر من الشباب يعبر عن نفسه بلغة تختلف كثيرا عما ألفناه وذلك لظروف موضوعية كثيرة .. وإذا أردنا أن نحتفظ بقدرتنا على الحوار مع هذا الجيل - وتلك ضرورة حيوية - فإنه يجب علينا أن نحذر التحدث إليه - أو عنه - بأسلوب التعالى الأبوى من منطق أننا نعرف أكثر مما يعرف فذلك ليس صحيحا تماما .. والتمسك

به سوف يؤدي حتما إلى انقطاع الحوار بين الأجيال وسوف يقود أكيدا إلى التصادم بينها.

وفى الأسبوع التالى واصل هيكل مناقشته لقضية الشباب فى تلك الأيام .. أيام ما بعد الهزيمة .. ولكن ما بين المقالين كان هناك سبعة أيام من الاختلاف معه فيما قاله .. وقد كنت واحد من أولئك الذين اختلفوا معه .. وكنت أنا وجيلي الذى كان لا يزال يدرس فى الجامعة نعتقد أنه ليست هناك صلة بين قضية الشباب العالمى وبين المظاهرات التى أشعلناها فى الجامعة .. وكنا نعتقد أن ما أورده هيكل عن ذلك «ليس إلا نوعا من التبرير أو على الأقل محاولة التبرير» .. وقد رد هيكل على هذا الاتهام فى مقاله المنشور فى ٦ ديسمبر ١٩٦٨ بعنوان «الشباب بين النيران والثلوج» .. وقال: إن التبرير أو محاولته لم يكن قصده .. ولا كان موضوعه .. «لكننى مقتنع بوجود تأثيرات مشتركة بين قضية الشباب فى العالم وقضية الشباب فى بلادنا» .. «إن لدى سؤال بسيط أوجهه إلى الذين يرون انقطاع الصلة بين القضيتين هو: هل شبابنا يعيش فى عالمه وفى عصره أو هو فى عزلة عنهما؟ .. إذا كان يعيش فى عالمه وفى عصره فهو متأثر بما يتأثر به غيره .. وهذا طبيعى وإذا كان لا يتأثر فهو إذن فى عزلة عن عالمه وعصره .. وهذا غير طبيعى .. ولو صح لكانت تلك المشكلة أخطر».

وفى الحقيقة فإن جيلنا فى ذلك الوقت لم يكن يعيش عالمه وعصره .. أو بالدقة .. لم تكن القيود والحواجز الإعلامية والأمنية لتسمح له أن يعيش عصره وعالمه .. أو يتصل عن بعد بهما .. ولو أن ذلك كان قد حدث فإن صدمات ومفاجآت الهزيمة كانت أقوى وأخطر وأشد من أى تأثير خارجى .. لقد قيل أن جيلنا «كان على موعد مع القدر» «فإذا به على موعد مع «الكارثة» .. قيل له أنه سيبنى فإذا به يقاتل .. قيل له أننا نتمتع بأكبر قوة ضاربة فإذا بنا نفاجأ بأنها أكبر قوة مضروبة .. إن انهيار الأحلام والرموز المفاجئ والمباغت كان السبب الأول والأخير فيما جرى فى الجامعات المصرية من غضب فى ربيع وخريف ١٩٦٨.

وقد كان تقديرنا أن هيكل يحاول أن يشغلنا فيما كتب عن أسباب الغضب الكامنة فى النفوس .. ولم يعجبنا أن يستعمل هيكل تعبير «الشغب» وهو يتكلم عن المظاهرات .. وقبل ذلك كله كنا نؤمن بأنه كان شريكا فيما حدث .. وقد حاول هيكل فى مقاله الثانى أن يعيد التوازن إلى ما قال من قبل .. فكان أن دخل مباشرة فيما يعانيه الشباب المصرى من تناقضات حادة على وجه التخصيص .. وراح يشير إلى بعضها:

(١) التناقض بين المثل الأعلى فى خيال الشباب وبين بعض أسباب القصور مما تكشفته خباياه بعد النكسة.

(٢) التناقض بين الحماسة الزائدة وقت المعركة وبين النكسة الزائدة بعدها.

(٣) التناقض بين أسلوب التعبئة قبل المعركة وأسلوب تفريغ هذه التعبئة بعد المعركة نفسها.

(٤) التناقض بين استمرار الحرب وعدم استمرار القتال .

«ثم تضاف لهذه المتناقضات الكبرى أسباب أخرى: (أ) أن شبابنا لم تتح له الفرصة لكى يرى المنجزات الحقيقية لثورة بلاده.. لم ير السدود ولم ير المصانع ولم ير الأرض الجديدة .. لقد سمع عن ذلك كله وحتى سماعه عنها لم يكن بالأسلوب السليم .. وبدلاً من أن نجعله يرى بعينه ما استطاعت الثورة تحقيقه للمستقبل وهو أكثر من الكثير فلقد رحنا نقرع - وأكاد أقول نجلد - سمعه بمنجزات تحققت فى أوانها ومضت .. كأنما نحن نطلب منه أن يكون غده رهينة لأمس جيل سبقه .. وحين طغت موجة الشك بعد النكسة فإن حواجز الموج لم تكن بما فيه الكفاية صلابة وعلوا .. (ب) إن التنظيم السياسى فى الماضى لم يستطع أن يسلم الشباب المفاتيح الفكرية التى تمكنه من النفاذ إلى صميم المسائل .. ولقد ركزت منظمة الشباب مثلاً جهدها على تعليم الشباب كيف يصرخ بالهتافات لكنها لم تعلمه أن التفكير يستطيع الاستغناء عن الهتافات .. أن الحماسة تستطيع أن تعبر عن نفسها بغير الصراخ .. وكان الخطأ الأكبر للتنظيم السياسى أنه حاول أن يجعل من الشباب «أداة سياسية» ولم يحاول أن يجعل منه «قوة سياسية» والفارق شاسع بين الاثنين .. وقد استيقظ الشباب يوماً فإذا الهتاف متجمد على الحناجر وإذا الحماسة شلل .. وكان رد الفعل وحشة ضائعة .. (ت) وبعد مظاهرات فبراير الماضى - وقد كانت محاولة من الشباب لاستعادة ثقته بنفسه وتأكيدا - فإن أسلوب التعامل معه انتقل من النقيض إلى النقيض .. ولقد شرح عدد من أساتذة الجامعات الذين تحدثوا أمام المؤتمر نماذج محزنة من أسلوب التعامل الجديد .. بدا وكأن النظام لا يقود الشباب وإنما يداريه .. وبدا كأنه لا يوجه الشباب وإنما يسترضيه .. وحدثت تجاوزات لم يكن هناك سبب لها مع أن القبول بها كان يهدد الشباب نفسه قبل غيره بأن تتحول الثقة بالنفس إلى نوع من الغرور تتسنى معه حقائق الأشياء وحقائق الأمور».

ورغم أن هيكـل أنهى مقالـه بأن مشكلـة الشبـاب ليست من اختصاص السلطة وإنما من صميم عمل السياسة فإن ما جرى بعد مظاهرات نوفمبر ١٩٦٨ هو أن مشكلة الشباب أصبحت من صميم عمل أجهزة الأمن .. فقد خرجت منظمة الشباب – ميدان الممارسة السياسية الوحيد للشباب رغم كل ما قيل عنها – من الجامعات .. وتُرك الشباب لأنشطة الاتحادات الطلابية .. وهى أنشطة تركز جهودها على الرياضة والرحلات واستضافة نجوم الفن والكتابة .. ثم كان أن سيطرت التقارير السرية على انتخابات هذه الاتحادات .. وهكذا .. لم يبق من دعوة هيكـل سوى كلمات أضيفت للقاموس السياسى الرسمى فى مصر .. كلمات مثل «قـلة» .. و«شغب» .. و«مثيرى الفتنة» .

الحرية والتغيير والمجتمع غير المفتوح !

■ قبل أن تفرض الأحداث على هيكل مناقشة قضية الشباب كان ينوى فتح مناقشة واسعة عن موضوعين فرضا نفسيهما على المجتمع والدولة في مصر بعد الهزيمة المروعة .. كان الموضوع الأول: التغيير .. وكان الموضوع الثاني: الصحافة.

وقد كان هيكل وراء صك كلمة «التغيير» وطرحها للتداول في تلك الأيام .. فقد كتب سلسلة من المقالات بدأ نشرها في يوم ٢٨ يوليو ١٩٦٧ بعنوان «تفويض للتغيير» .. وكان ذلك هو «التفسير الذي وجدته ولم يجد غيره فيما حدث في يوم ٩ و ١٠ يونيو» .. وقد كان رأيه: إنه لا معنى لما حدث في هذين اليومين سوى أنه «تفويض جديد لجمال عبد الناصر» لكنه «لم يكن تفويضا على بياض» .. وإنما «كان تفويضا للتغيير أعطته الجماهير من منطق رفض الهزيمة ومن منطق الإصرار على المقاومة».

وقد بدأ التغيير بالتخلص من مجموعة المشير عبد الحكيم عامر في القيادة العامة للقوات المسلحة والمتحالفة مع مجموعة صلاح نصر في المخابرات العامة .. وهما معا تشكلان ما وصفهما هيكل بمجموعة السلطة .. وقد تصورت هذه المجموعة أنهم «أصحاب حق شرعى في أن يرثوا السلطة ويرثوا الثورة» .. وتصورت «أنهم فوق القانون» .. وتصورت أن السلطة يجب أن تعود عليهم بالمنافع والمكاسب.

وأغلب الظن أن جمال عبد الناصر فكر قبل الهزيمة بوقت كاف في التخلص من هذه المجموعة .. وهو ما كشفه هيكل بالتفاصيل الدقيقة فيما بعد في كتابه «الانفجار» عندما قال أن عبد الحكيم عامر كان نصف فنان ونصف بوهيمى .. لطيف جدا .. عسكري لا

يصلح لقيادة جيش .. تكفيه كتيبه .. ولم يقرأ .. أو يتابع الجديد فى فنون الحرب .. ولم يكن لديه الوقت ليكون قائدا للجيش .. «لقد توقفت معلوماته العسكرية عند رتبة صاغ (رائد) .. ولم تزد واحدة حتى مات» .

«وقد راح عبد الحكيم عامر يدلل الضباط حتى أفسدهم .. فتحول رجال مكتبه إلى تجار ومهربين .. ففى مارس عام ١٩٦٦ كانوا يجيئون ببضائع وثلاجات وأجهزة تكييف وتلفزيونات من عدن عن طريق اليمن ويبيعونها فى السوق السوداء فى القاهرة» .

وبعد سنة تقريبا على هذه الفضيحة انفجرت قنبلة الزواج السرى للمشير من نفيسة عبد الحميد حواس الشهيرة ببرلنتى عبد الحميد .. وقد دبر اللقاء الأول بينهما صلاح نصر .. ويقال أن التعارف بينهما جرى على ضوء ولاعة أشعل لها بها سيجارة .. كان هذا اللقاء فى أواخر عام ١٩٦٠ .. وقد تطورت العلاقة إلى زواج عرفى وقع عليه حسن ومصطفى شقيقا المشير فى أوائل عام ١٩٦٥ .. وفى ٢٠ فبراير ١٩٦٧ - حسب ما يقول هيكل - قرأ جمال عبد الناصر تقريراً كان بمثابة صدمة .. كان التقرير عن زواج عامر وبرلنتى .. وأنهما ينتظران مولوداً نتيجة لهذا الزواج .. ورأى جمال عبد الناصر أن ينتظر أياماً قبل أن يفتح عامر فى الموضوع حتى لا تملكه انفعالات الغضب وتصعب المناقشة الجادة فى تصرف يصعب السكوت عليه» .

كان شعور جمال عبد الناصر لأول وهلة أن عامر يجب أن يبتعد عن منصبه .. ومادام قد اختار أن يغلب ضعفه الإنسانى على شعوره بالواجب فإن الأمور تقتضى حسماً .. وقام جمال عبد الناصر باستدعائه لمقابلته فى يوم أول مارس ١٩٦٧ وكانت مشاعره مختلفة بين الأسى والغضب ..

«وحين وصل عامر إلى مكتب جمال عبد الناصر فى بيته فى منشية البكرى فإنه أحس على الفور بأن شيئاً غير عادى فى الجو وبدأ من بعض تصرفاته أن لديه فكرة عن الموضوع الذى استدعى من أجله .. كان أسلوب عامر المعتاد عندما يوجه إليه أى تساءل عن تصرف من تصرفاته أن يبدأ بإثارة زوابع صغيرة ويتخذ مظهر الغاضب المجروح المعتدى عليه .. وهكذا عندما سأل جمال عبد الناصر فى موضع زواجه السرى بدا متألماً غاضباً وقال: إنه سئم من هذه الحملات الموجهة ضده والتي تثور من وقت إلى آخر وأنه لم يعد يطلب غير أن يبتعد ويستريح وأنه يفضل أن يعود إلى قريته «أسطال» بالمنيا ويعيش هناك فلاحاً عادياً يزرع ويقلع ولا يكون نائباً لرئيس الجمهورية أو نائباً للقائد الأعلى للقوات المسلحة .. وانتظره جمال عبد الناصر حتى أفرغ ما لديه ثم كان تعليقه أن كل ما سمعه منه خارج الموضوع .. وأن سؤاله كان سؤالاً محدداً .. وليست هناك جدوى من

تجنب الرد عليه مباشرة .. وهكذا .. هبط عامر فوراً من الغضب إلى التظاهر به دفاعاً عن النفس .. واعترف بعلاقته مع برلنتى عبد الحميد .. ولم يجد ما يبرر به تصرفاته سوى أنه وجد أخيراً الإنسانية التى تستطيع أن تفهمه .. كانت الدموع تلوح فى عينيه وهو يحاول أن يكتمها .. ثم لم يتمالك نفسه وراح دموعه تجرى على خديه .. وسأله جمال عبد الناصر عن الظروف التى تعرف فيها عليها.. وكان رده أنه تعرف بها عن طريق صلاح نصر» .

وفى وسط شواغل وهموم جمال عبد الناصر فى ظروف ما بعد الهزيمة جاء إلى بيته على غير موعد صلاح نصر .. وعلى حد شهادة هيكمل نقلاً عن جمال عبد الناصر فإن صلاح نصر أبدى دهشته من أن الرئيس لم يطلب استدعاءه لكى يسمع ما لديه من معلومات المخابرات العامة خلال الظروف الأخيرة .. وكان رد جمال عبد الناصر عليه مباشرة هو قوله: «إنه كان مشغولاً بالبحث عن حلول لمازق صعب يواجهه البلد وهو ليس متأكد من أن صلاح نصر هو جزء من الحل أو هو جزء من المصيبة .. وظهرت تعبيرات القلق على وجه صلاح نصر وراح يقسم أنه حاول بكل جهده أن يساعد على حل مشاكل كثيرة بدون أن يزعج الرئيس بها .. وسأله جمال عبد الناصر عن هذه المشاكل التى حلها .. وكان رده «أنه طوال الوقت يخشى من انفلات عبد الحكيم عامر إلى تصرفات لا تحمد عواقبها» .. ولم يسكت جمال عبد الناصر وإنما راح يقول له: إنه شخصياً أحد المسؤولين عما جرى لعبد الحكيم عامر .. ولعله يلاحظ أنه (جمال عبد الناصر) لم يقابله منذ شهور وكان ينوى عزله من منصبه لولا الظروف الخارجية التى طرأت فجأة .. ثم قال له: «إن عبد الحكيم عامر كان قطعة مغمضة حتى تولى هو (صلاح نصر) فتح عينيه على ما لم يكن يجوز له أن يتورط فيه» .. وراح صلاح نصر يقسم بأغلظ الإيمان أنه لم يكن له ذنب فيما تورط فيه عبد الحكيم عامر .. وأنه يعترف بحقيقة أنه هو الذى قدم له برلنتى عبد الحميد ولكنه لم يكن يتصور أن تصل الأمور إلى الحد الذى بلغته .. وسأله جمال عبد الناصر عن السبب الذى دعاه - وهو مدير المخابرات العامة فضلاً عن علاقته المباشرة به - إلى إخفاء ما جرى عنه فى وقته .. وقال صلاح نصر «أنه تصور أن المشير سوف يفوق بعد وقت قصير ثم ينتهى الأمر وينسى الموضوع كله .. ولكن ما توقعه لم يحدث وغاص المشير فى ورطته إلى شوشته.

ويواصل هيكمل روايته قائلاً: «وربما كان أهم ما قاله صلاح نصر فى هذا الصدد أن عامر كان تحت ضغط عنيف فى الظروف التى بدأت فيها الأزمة .. ذلك أن برلنتى عبد الحميد التى أنجبت منه مولوداً راحت تطالبه بأن يعلن زواجه منها لكى تجعل «وضعها

الاجتماعى محتملا» .. ويظهر أنها صارحته (ومن وجهة نظرها فقد كان يمكن فهم إلحاحها) بأنها على استعداد لأن تذهب لأسرته وتشرح موقفها وتطلب قبولها فى الأسرة بحق الشريعة التى لا تحول بينها وبين هذا الطلب» .

وما لم يقله هيكى وقاله شاهد عيان كان فى موقع رسمى هو رئيس النيابة عماد الدكرورى أن برلنتى عبد الحميد تقدمت بطلب لإثبات بنوة أبنها لأبيه عبد الحكيم عامر .. وكما قال لى شاهد العيان - وكنا فى إجازة ليوم فى فايد - أن جمال عبد الناصر من جانبه لم يكن معترضا .. وبقي أن يتولى أشقاء المشير إقناع زوجته الأولى بشرعية الطلب والنسب .. إن عماد الدكرورى كان هو المحقق فى قضية وفاة المشير .. وقد حسم الرجل - الذى يحمل إنتقادات حادة لسنوات حكم جمال عبد الناصر - فى شهادته لى الجدل الذى لم يتوقف حول هل أنتحر المشير أم قتل .. وكان رأيه أنه قد أنتحر .. ولديه أكثر من دليل على ذلك .. وهذه قصة أخرى.

لم يدخل هيكى فى تفاصيل هذه الوقائع وهو يتحدث عن التغيير .. كما أنه لم يقصد أن يكون التغيير مجرد إزاحة «مجموعة السلطة» المنحرفة فى الجيش والمخابرات لتأتى مجموعة أخرى لتحل محلها .. وربما كررت انحرافاتنا .. فطبيعة السلطة هى التى تخرج ما فى الإنسان الفساد .. أو هى التى تجربته على الخط المستقيم .. وعلى ذلك تساءل هيكى: من أين يبدأ التغيير؟ .. وكانت إجابته: (١) أن تتسع عناصر السلطة وأن تصبح هذه العناصر تعبيرا حقيقيا عن قوى الشعب العاملة وأن تذوب قوة المجموعات القديمة أو ما تبقى منها فى إطار ديمقراطى وأن تنتهى الحقوق التاريخية المكتسبة لأى فرد لأنه أسهم فى يوم من الأيام فى عملية (سياسة أو ثورية) مهما كانت قيمتها.. (٢) أن يتقدم لإدارة منجزات الشعب أقدر وأكفا من تستطيع الطاقة الشعبية - وهى وحدها صانعة المعجزات - تقديمهم .. (٣) أن يصل الجيل الجديد إلى مواقع المسئولية فكم مفتوح ومناقشة .. وأغلب الظن .. أن هذه «الروشة» للعلاج ظللت بعيدة عن تحويلها إلى دواء يمكن به الشفاء .. سواء فى تلك الأيام .. أم فى هذه الأيام.

ثم يتساءل هيكى : «هل تحقق التغيير؟» .. وقد وضع السؤال عنوانا لمقال نشره فى ١١ أكتوبر ١٩٦٨ .. وقد أجاب: «إن التغيير الذى كنا نتحدث عنه ونرجوه وقع ولم يقع» .. وقع فى القوات المسلحة .. وفى بعض مواقع الإنتاج .. وفى هذه النواحي نستطيع أن نقرر باطمئنان أنه وقع تغيير .. لكننا لا نستطيع أن نقرر ذلك بنفس الأطمئنان فى نواحي

أخرى .. «فى روح العمل السياسى مثلا لم يقع تغيير كاف ونفس الشىء بالنسبة للضمانات المطلوبة للممارسة الديمقراطية» وبالنسبة «للقواعد الصلبة التى لا يمكن غيرها أن تقوم الدولة العصرية» .. فيما يتعلق بما هو مادى وقع الكثير مما كنا نرجوه من التغيير .. وفيما يتعلق بما هو معنوى لم يقع الكثير مما كنا نرجوه من التغيير.. لماذا؟ .. لماذا لم يقع التغيير شاملا وعميقا برغم تفويض به وبرغم دعوة إليه وبرغم تقنينه شريعة سياسية تحكم فوق أى حكم؟.

إن السبب فى رأى هيكلا لا يرجع إلى طبيعة الأشياء وإنما يرجع إلى طبيعة الظروف .. فقوى «التصحيح» أثبتت أنها أكبر من أى أخطاء وقعت وتراكت ضمن العوامل التى أدت إلى الهزيمة .. إن وجود «قوى التصحيح» وفعاليتها حقيقة لا يشك فيها ويكفى لإثبات ذلك أن تستعرض عملية النقد الذاتى التى فرضها المجتمع المصرى على نفسه بعد الهزيمة «وهى عملية يندر أن يكون لها مثيل فى أى مجتمع عانى تجربة من هذا النوع» .. ولم تكن «عملية النقد الذاتى» يأساً بقدر ما كانت أملاً .. ويكفى أن منطقها الأساسى لم يكن «الاستسلام» وإنما كان «الصمود» .. ولم يكن «السكون» وإنما كان التحرك بسرعة نحو البناء .. وذلك يقطع على «أن السبب الذى من أجله لم يحدث التغيير شاملا عميقا لا يرجع إلى طبيعة الأشياء» .. وإنما يرجع إلى طبيعة الظروف .. ظروف المعركة .. وظروف القوى الدولية .. وظروف التكنولوجيا التى تحتكرها الدول الكبرى .. وظروف الدول النامية فى ظل سطوة الدول الغنية.

والحقيقة أن الدعوة إلى التغيير و«التصحيح» ظلت نوعا من الطموح البعيد فى السماء لم تجد من يهبط به على الأرض إلا بعد أن تغيير النظام فى مصر .. بعد أن رحل جمال عبد الناصر .. وجاء أنور السادات .. لقد أراد النظام الجديد أن يقدم عربونا سياسيا يبدأ به مشواره .. فكان التغيير والتصحيح وبداية تصور «المجتمع المفتوح» .. ومع أن نظام السادات انتهى إلى نفس المأزق .. ووصل إلى مرحلة المطالبة بخطوة جديدة فى التغيير والتصحيح فإن البدايات كانت تحمل الكثير من التفاؤل.

لقد كان «بيان ٣٠ مارس» - الذى قدمه جمال عبد الناصر إلى المثقفين لتجاوز الهزيمة نفسيا وسياسيا واجتماعيا بعد مظاهرات الطلبة - يتضمن إشارة إلى «المجتمع المفتوح» .. وقد التقط هيكلا الإشارة ووضع عبارة «المجتمع المفتوح» عنوانا لمقاله المنشور فى ١٨ أكتوبر ١٩٦٨ ليواصل حرث وتقليب التربة المصرية التى نمت فيها الأعشاب الضارة وتسربت إليها العفونة .. إن عبارة «المجتمع المفتوح» كانت فى رأى هيكلا عبارة «تلخص

كل شيء» .. أو أنه «لا يمكن أن تكون هناك عبارة أقرب إلى الحقيقة ولا أصدق في التعبير عنها من هذه العبارة» .. ثم يبدأ هيكل بعد ذلك في الشرح والتفسير قائلاً:

«ليس هناك شك أنه في وقت مضى فإن بعض القوى أرادت وبعض الظروف ساعدت على محاولة جعل مصر مجتمعاً مغلقاً .. ولكن الأمانة تقتضى أن نسجل أن هذه المحاولة لم تنجح وإن كانت قد سببت من أعراض التمزق النفسى ما كنا فى غنى عنه» .. فقد أدى المجتمع المغلق إلى أن بعض «أجهزة السلطة ظنت نفسها فوق الرأى العام .. توهمت أنه لا يراها .. وإذا رآها فإنه لا يستطيع حسابها» .. وأدى المجتمع المغلق إلى حركة طبائع الأشياء .. أدت إلى تناقضات حادة .. مؤلة ومعوقة .. إن الفشل سيظل حليف كل دعاة المجتمع المغلق فى مصر .. لماذا؟..

«لأن مصر هى فجر ما يمكن أن نسميه بالحضارة العالمية المتصلة والتي انتقلت من العصر الفرعونى إلى العصر الإغريقى إلى العصر الرومانى إلى العصر العربى إلى عصر النهضة إلى ما وصف تجاوزا بعصر الحضارة الغربية والذي تحول الآن تياراً عالمياً غلاب وبالتالي فإنها لا تستطيع أن تنعزل والعزلة ضمن أوصاف المجتمع المغلق .. ومصر بدورها الحضارى المتصل كانت دائماً - بحكم وجودها على مفارق وطرق القارات - نقطة تجمع ونقطة تفرع .. وحتى بالوضع الجغرافى فإن مصر بشاطئها الشمالى على البحر الأبيض (المتوسط) وشاطئها الشرقى على البحر الأحمر - تقبع فى مكان بارز وسط العالم .. ولو تصورنا - فى تشبيه لمجرد التبسيط - أن العالم الحديث الذى اقترب من بعضه اقتراباً لم يسبق له مثيل يشبه قلب مدينة كبيرة حافلة بالحركة .. إذن فإن مصر - وفق التشبيه - موقع يقوم على ناصية طريقتين من أكثر الطرق ازدهاماً وعمراناً .. والواجهتان اللتان تبرز عليهما الناصية المصرية هما فى الواقع من زجاج مهما كانت سرعته أن يلمح بعض ما يجرى وراء الواجهات الزجاجية .. ويتصل بذلك مباشرة أن مصر جزء عضوى من وطن عربى .. وهى من أهم أجزاء هذا الوطن إذا لم تكن - بغير ادعاءات إقليمية - أهم أجزاء هذا الوطن إطلاقاً .. ومصر تأخذ من انتمائها إلى هذا الوطن العربى قوة بقدر ما تعطيه .. ثم إن هذا الوطن العربى الواحد مقسم إلى دول عربية متعددة .. وسلطة الدولة فى مصر محصورة فى رقعة الوطن المصرى لا تمتد ولايتها إلا بالاتصال المفتوح وإلا بالاختناك الحر حيث لا قسر ولا إجبار .. وإذا تحولت مصر إلى مجمع مغلق أى مجتمع منعزل فهى بذلك تقطع شرياناً من أهم شرايين حياتها وهى فى أقل القليل تقطع مصدراً كبيراً من أهم مصادر قوتها وتأثيرها .. هكذا فإنه من ناحيتين: ناحية علمية وناحية عربية لا يمكن لمصر أن تنعزل أى لا يمكن أن تتحول إلى

مجتمع مغلق .. تضاف إلى ذلك ناحية ثالثة وهى تأثير هذا الارتباط العالمى والعربى على الشعب المصرى ذاته مما يجعله يرفض رفضا قاطعا أن يحاصر فى العزلة أو يرضى بالتحول إلى مجتمع مغلق» .

كانت دعوة «المجتمع المفتوح» جزء من دعوة أكبر - فرضتها الهزيمة - للنظر فى العمق الإنسانى المصرى .. فجاء أحمد بهاء الدين بنظرية الصراع الحضارى مع العدو الصهيونى .. وبدأ الدكتور لويس عوض يعيد إحياء رموز التنوير فى مصر وعلى رأسهم شيخهم .. رفاعة الطهطاوى .. ويعيد رواية تاريخ الفكر الحديث منذ الحملة الفرنسية إلى الحرب العالمية الثانية .. وبدأ نجم الدكتور جمال حمدان فى البريق بعد أن راح يرسم ملامح «شخصية مصر» .. لقد تسابق الجميع على إزالة طبقات الغبار التى تراكمت على مصر فى ظل إختناقات المجتمع المغلق وطيور الظلام التى راحت تدفعه إلى كارثة الهزيمة . ولست وحدى الذى يؤمن بأن الطريق إلى حرب أكتوبر - ١٩٧٣ لم يكن طريقا عسكريا فقط بل كان طريقاً حضاريا أيضاً .. ولذلك لم أندش عندما وجدت هيكل فى مقدمة كتابه: «أكتوبر ٧٣ - السلاح والسياسة» يقول أنه خطر له أن يهدى الكتاب إلى جمال حمدان .. ذلك العالم المصرى الفذ الذى أعطى المكتبة العربية أثره المتميز: «شخصية مصر - دراسة فى عبقرية المكان» .. وقد استطرد هيكل: «وفى تاريخ مصر مع بداية العصر الحديث كتابان لهما مذاق خاص وبينهما تقابل من نوع ما .. الكتاب الأول هو: «تخليص الإبريز فى وصف باريز» الذى كتبه شيخ التنوير الجليل رفاعة رافع الطهطاوى فى أخريات القرن التاسع عشر .. والكتاب الثانى هو: «شخصية مصر» الذى كتبه العالم الراهب المعتزل جمال حمدان فى بدايات النصف الثانى من القرن العشرين» .

كان جمال حمدان قد قرر العزلة بعيدا عن الناس .. لا يقابل أحدا .. ولا يحاور أحدا .. وكانت كل صلته بالعالم والناس رسائل من تحت الباب تصل إليه .. وردود عليها يصل مرسلها عن طريق ناشر كتبه يوسف عبد الرحمن .. وهكذا وصلتني كتبه عليها إهداء منه عليها .. وقد حاولت كما حاول هيكل وحاول غيرنا أن نخرجه من دير العزلة والعودة إلى دنيا الناس .. ولكنه لم يقتنع مصرا على أنه «أعتزل وحركة التيار إلى أمام فكيف يعود والحركة معاكسة سواء إلى وراء أو إلى أسفل؟» .. وقد انتهى الدكتور جمال حمدان نهاية مأساوية .. انفجر فى بيته المتواضع المغطى بأطنان الكتب والصحف والأبحاث أنبوبة بوتاجاز .. وأتت النيران عليه .. وعلى ما كان يقرأ ويكتب .. وهكذا .. انتهت «حياة ذلك

العالم الراهب المعتزل والمهموم بشخصية مصر وعبقورية مكانها .. الموقع والموضع، .. وربما من هنا خطر لهيكل أن يهدى إليه كتاب عن حرب أكتوبر .. الذى بدأ برفض الهزيمة الحضارية .. ثم تجاوز الهزيمة العسكرية.

ولم يبق من القضايا التى فجرتها الهزيمة - وفجرها هيكل - سوى قضية الصحافة .. بعد مراكز القوي .. والتغيير .. والمجتمع المفتوح .. والديمقراطية .. جاء الدور على الصحافة .. لقد تعرضت الصحافة فى تلك الأيام السوداء لكثير من النقد الجارح وصل إلى الشك فيها .. حسب العنوان الذى اختاره هيكل لمقاله بصراحة فى ٢٠ ديسمبر ١٩٦٨ وكان: «الشك فى الصحافة المصرية» .. إن هيكل الذى هاجم بضراوة صحافة ما قبل الثورة .. وصحافة ما بعدها مباشرة وجد صحافة ما بعد التأميم - التى كان هو ألمع من فيها - فى حالة طعن دائم فى مصداقيتها .. بل أن هناك من أشار بأصابع الاتهام إلى الصحافة وأعتبرها المسئولة عن ما جرى فى يونيو ١٩٦٧ .. فهى التى حجبت الحقيقة عن الناس وساهمت فى تضليلهم حتى كان ما كان.

وتستحق مقاله هيكل عن الصحافة أن تقرأ كاملة .. فهى تشرح وتفسر .. تراجع وتحلل .. وتبدأ من عندها مشكلة الصحافة المصرية بعد التأميم التى راحت تتراكم وتزمن وتتعدد إلى أن وصلت إلى ما هى عليه الآن.

يكتب هيكل :

«تواجه الصحافة المصرية الآن أزمة نستطيع وصفها بأنها «أزمة شك» وهى أزمة لا يمكن إخفاؤها إلا بتفكير النعام الذى يدفن رأسه فى الرمل متصوراً أن الصياد لم يعد يراه لمجرد أنه - هو - لم يعد يرى الصياد .. ولو أردنا تحليل عناصر هذه الأزمة فلقد يكون خير أسلوب لذلك أن نعرض لمواقف عدد من الأطراف تعنيهم مسألة الصحافة المصرية ولهم فيها ما يرون من وجهات نظر مختلفة هى نفسها من خيوط أزمة الشك..

أولاً - رأى العام والصحافة:

(١) من زمن سابق بكثير على يوم الهزيمة فى ٥ يونيو فإن قطاعات من رأى العام المصرى كانت تنظر إلى صحافتها بالكثير من الضيق والتملل .. كانت الصحف فى رأيها تخرج كل يوم وكأنها مصبوبة على قالب واحد ليس فيه ما يكفى من التجديد

والتنوع .. وكانت فوق ذلك تخرج إليه مصابه بدءا تتناقض أعراضه بين الهزل والورم ..
مجاعة في قلة الحقائق وانتفاخ من كثرة الدعايات .. وكان من الصعب على الصحافة أن
تشرح لهذه القطاعات من الرأي العام المهتمة بأمورها تفاصيل ظروف تتعرض لها: بينها أن
القيود على النقد المتاح لاستيراد الورق حددت عدد صفحاتها وأن قيود الانتقال حددت
مجال حركتها وأن قيود الخوف حددت مجال انطلاقها .. ومع ذلك - للإنصاف - فإن
الصحافة المصرية حاولت في مواجهة كل هذه القيود بقدر ما استطاعت وأصاب النجاح
مرات وأصاب الفشل مرات أخرى.

(٢) وحين تكشف ما تكشف بعد النكسة فلقد كان السؤال الذي وجه إلى الصحافة
المصرية هو : أين كنتم؟ .. وكان من الصعب على الصحافة المصرية أن ترد وتقول: إن
الإيجابى فى التجربة المصرية وهو كثير كان يغطى على السلبى فيها .. ثم أن عوامل
الإخفاء كانت تمارس دورها إزاء الصحافة كما مارسته إزاء قوى كثيرة غيرها .. ومع ذلك
فلقد كانت تقنع بالتلميح دون التصريح .. وبالاختصار فإنه لم يكن فى مقدورنا أن نصل
بعلمنا إلى خبىء ولا كان فى مقدورنا أن نضع كل ما يصل إلى علمنا على طرف أqlامنا..

(٣) وعندما حلت النكسة فإن قطاعات كبيرة من الرأي العام كانت ترى أن الصحافة
خدعتها وأنها أعطتها من الآمال فوق ما كان من الاحتمال .. ومع التسليم بأن الكثير مما
نشرته الصحافة فى ذلك الوقت كان نوعا من السباحة فى بحر من الألفاظ الإنشائية
والحماسية - إلا أن الصحافة بالنسبة لصميم الموضوع كانت مجنبا عليها ولم تكن جانية
.. وحين يقف قائد عسكري مسئول ويقول «إن لدينا أقوى قوة ضاربة فى الشرق الأوسط»
فلقد كان على الصحافة أن تنقل عنه وتصدقه وأنى لها أن تعرف أن الطيران مثلا سوف
يفاجأ حيث لم يكن داع للمفاجأة أو أن القيادة العامة سوف تنهار نفسيا من الداخل قبل
أن يبدأ الصدام الفعلى مع العدو وقبل أن يتاح للجزء الأكبر من قواتنا أن يشتبك معه..

(٤) قبل النكسة وبعد النكسة فإن قطاعات من الرأي العام كانت تحاسب الصحافة
بمعيار فيه الكثير من العنت والإرهاق .. وكان الصحافة تملك سبيلا إلى تنفيذ ما تنادى
به أحيانا أو كان طاقتها تتعدى حدود مسئولية الكلمة وحدها..

(٥) وقبل النكسة وبعدها فإن الصحافة عكست - وكان ذلك طبيعيا - جوانب من
الصراع الإجتماعى والسياسى الدائر فى الوطن المصرى وكان بين ما عكسته الصحافة

تناحر أقصى اليمين المتهالك مع أقصى اليسار المتحجر ثم ساعدت ظروف لا أريد أن أخوض في وقائعها على صنع انطباع سطحي بدا معه وكأن نصف الصحافة عملاء للغرب ونصفها الآخر عملاء للشرق .. ولم يكن ذلك صحيحا وإن كان من الصحيح أيضا أن هناك عناصر من اليمين تلكأت بعد زمانها كما أن هناك عناصر من اليسار حاولت أن ترث مواقعها بدون جدارة تؤهلها لذلك وبغير حق شرعى يجيزه لها.. ومن الحق أن نضيف شيئا آخر ونحن ما نزال فى صدد «الرأى العام» كطرف فى أزمة الشك التى تواجهها الصحافة المصرى الآن .. إن أزمة الشك لها جذور بعيدة ولعلها بدأت منذ راحت الصحافة المصرية تتحول من صحافة رأى إلى صحافة خبر وكان ذلك إبان الثلاثينيات .. من هذا القرن .. وكان الأهرام أول من عالج هذا التحول - فيما أظن - وساعده عليه اختياره لما سُمى فى ذلك الوقت بموقف الحياد والاستقلال تجاه الصراعات السياسية المصرية حينئذ..

«قبل ذلك ومنذ بداية القرن الحالى (القرن العشرين) كانت الصحافة المصرية صحافة رأى .. بل إن التيارات الفكرية الكبرى والأحزاب المصرية الفاعلة كانت فى واقع الأمر صحفا وكانت صحف كل منها هى المظهر الفعلى لوجودها وكان هى أداتها الرئيسية للتأثير فى مجرى الأحداث .. كانت صحيفة «الجريدة» ورئيس تحريرها أحمد لطفى السيد هى نفسها تيار الديمقراطية السياسية بمفهومها الليبرالى .. وكانت صحيفة «اللواء» ورئيس تحريرها مصطفى كامل هى نفسها قوة الحزب الوطنى بكل ما كان ينادى به.. وكانت صحيفة «الجهاد» و«البلاغ» و«المصرى» و«الوفد المصرى» و«صوت الأمة» هى حرية حزب «الوفد» فى مراحل مختلفة .. وكان دور حزب الأحرار الدستوريين هو نفسه حجم توزيع جريدة «السياسة» كما كان حجم «السعديين» هو جريدة «الدستور» وكما كان حجم حزب «الكتلة» هو جريدة «الكتلة» .. كانت الصحف هى الأحزاب والأحزاب هى الصحف وكان لكل صحيفة قراؤها هم انصار حزبها وكان لكل صحيفة مقاطعوها هم خصوم حزبها .. وكان الوفد أكبر الأحزاب المصرية وأقربها اتصالا بال جماهير فى الثلاثينات وكانت اللعنة التى يمكن أن تحل بأى صحيفة من صحفها وقتها هى أن يصدر الحزب بيانا بأنها لا تعبر عن رأيه، وواجهت صحيفة «الجهاد» على سبيل المثال هذه المحنة مرة وانهارت بعدها ولم تقم لها قائمة..

«وحيث كانت الصحافة صحافة رأى لم يكن القارئ العادى لم يكن يشك .. لم يكن للشك فى ذلك الوقت مكان لأن الحدود ظاهرة والأعلام مميزة بألوانها .. ثم بدأ الشك مع صحافة الخبر .. والخبر - حتى وإذا كان صادقا - يرضى بعض الناس ولا يرضى بعضهم الآخر مع اختلاف مواقفهم .. ومن السهل أن يحدد كل إنسان موقفه إزاء رأى واضح .. ومن الصعب أن يحدد كل إنسان موقفه إزاء خبر حتى وإن كان صادقا .. ثم جاءت فنون الصحافة الحديثة وعلومها فوضعت الرأى فى ثياب الخبر وأصحبت المشكلة أعقد أمام أى قارئ .. أين حدود الرأى وأين حدود الخبر فيما يطالعه؟ .. أو بعبارة أخرى .. ما هو المقصود لتأثير معين .. وما هو المقصود لذاته هنا؟ .. وزادت المشكلة تعقيدا على تعقيد بثورة وسائل المواصلات التى جعلت أى صحيفة فى الدنيا تتلقى من الأخبار أكثر مما يتسع له حيزها عشرات المرات وهنا تنشأ ضرورة الاختيار على أساس أولويات الاهتمام العام ومجرد الاختيار حتى وإن راعى النزاهة إلى أقصى درجاتها .. رأى .. أو هو فى الواقع اعتراض لعملية التدفق الطبيعى للأخبار .. أى نوع من التدخل..

ثانيا: التنظيم السياسى والصحافة:

لقد قام فى مصر تناقض لم يكن ينبغى له أن يقوم بين بعض أجهزة التنظيم السياسى وبين بعض الصحف .. ولقد ساعد على إبراز هذا التناقض أن قانون تنظيم الصحافة نقلها من إطار الملكية الفردية إلى إطار ملكية التنظيم السياسى .. ولا يمكن أن يعارض صحفى مثل هذا الانتقال فملكية فرد له مصلحته الخاصة وله موقفه الطبقي .. ولكن التناقض مع ذلك نشأ ونشأ من تفسير «معنى الملكية» .. الصحافة تريد أيضا أن تبقى صحافة وتريد أكثر أن تحقق لنفسها أكبر قدر من الحرية على أساس الالتزام وبعض أجهزة التنظيم لا تتصور الملكية إلا فى شكلها التقليدى كما أنها تتعسف فى تفسير الالتزام وتخلط بينه وبين الإلزام .. والالتزام هو الخضوع للفكرة والمبدأ والإلزام هو الخضوع لاجتهادات المسئولين عن التنظيم والإنصياع لها بغير مناقشة تجرى على أساس الفكرة والمبدأ .. والمسافة بين الاثنين واسعة .. ومن هنا فإن بعض أجهزة التنظيم رأت فى موقف بعض الصحف عصيانا لا يغتفر وساعدت على ذلك عدة أسباب:

(١) كان أسهل الأشياء دائما بالنسبة لبعض أجهزة التنظيم أن تلقى بمسئولية قصورها على الصحف إذا كان هناك ارتباك .. فلأن الصحف لم تحسن عرض الأفكار .. وإذا كان هناك عدم اقتناع .. فلأن الصحف لم تخصص حيزا كافيا للشرح .. كان لابد دائما أن يوجد

«الولد» الذى يجلد حتى بغير ذنب جناه وإنما نيابة عن غيره ممن لا يمكن جلدهم كما كان يحدث لأبناء الأمراء فى العصر الأمبراطورى لليابان حين كانت مدرسة القصر الملكى تضع بجوار كل واحد من أبناء الأمراء واحدا من أبناء الشعب فإذا أخطأ ابن الأمير أو تعثر فى الإجابة على أى سؤال تعرى ظهر الجالس بجواره من أبناء الشعب وتجلده نيابة عنه .. فداءً وتكفيراً.

(٢) وكان بعض المسئولين فى أجهزة التنظيم يقيسون التزام الصحف بمدى الحيز الذى تخصصه من صفحاتها لما يفعلون وما يقولون.

(٣) ثم كان أخطر من ذلك أن بعض أجهزة التنظيم لم تكن تعطى القدر الكافى من التفكير للظروف المتغيرة ولم تكن تأخذ المبادرة فى يدها حين كان يجب أن تأخذ المبادرة .. ثم كانت لا تريد لغيرها أن يتحرك .. وهذه المشكلة بالذات عانى منها الأهرام أكثر من غيره فى ظروف عديدة .. وليست سرا أن بعض أجهزة التنظيم السياسى حرضت يوما على إحراق نسخ من الأهرام تعبيرا عن السخط عليه كما أن منشورات صدرت تدعو إلى مقاطعته وتعتبره خارجا مارقا .. وزادت المسألة بعد النكسة حين أجرى الأهرام لنفسه تحليلا للموقف العام كله خرج منه باجتهادات تقبل الصواب أو الخطأ لكنه طرحها للمناقشة المفتوحة .. بينها مثلا أنه اعتبر أن مرحلة ما بعد النكسة تقتضى لمواجهة عملا عربيا مشتركا فى حين أن بعض أجهزة التنظيم كانت ترى باستمرار الصراع الداخلى فى العالم العربى كما كان قبل المعركة تحت دعوى أنه لا ينبغى تميع قضية الثورة .. وبينها مثلا أن الأهرام اعتبر أن هناك صداما لا يمكن تجنبه بين مصر والولايات المتحدة الأمريكية ولكن هذا الصدام لا ينبغى أن يعبر عن نفسه بأسلوب التنطح رأسا برأس لأن تلك مخاطرة غير مأمونة وينبغى أن يحل محلها أسلوب آخر فى الصدام يجعلنا كمصارع الثيران فى وجه الثور الهائج لا يواجهه مباشرة ولكن ينهك قواه ويرشقه بالسهام حتى يستنزف ضراوته .. ولكن بعض أجهزة التنظيم وجدت ذلك استسلاما للولايات المتحدة الأمريكية ودعوة للتردد والانهازام تجاهها .. وفى حين أن الأهرام كشف سياسة الولايات المتحدة بالوثائق فإن هذه الأجهزة من أجهزة التنظيم لم يكن لديها فى كشف السياسة الأمريكية غير ألفاظ مستهلكة وتعبيرات كقطع العملة القديمة التى أنهكها التداول فانمحت نقوشها ..

وبينها مثلا أن الأهرام أعتبر أن هناك وقتا سوف ينقضى فى إعادة البناء العسكرى وأن هذا الوقت لا ينبغى أن يضيع على الجبهة الداخلية فلا تجد فيه ما تفعله سوى أن تلعق جراحها وبدلا من ذلك فإن لابد من عملية مراجعة فى الداخل تعيد للمواطن إحساسه بالحرية فى الوطن الحر .. وركز الأهرام فى ذلك على ضرورة إنهاء إجراءات الاعتقال والفصل والحراسة .. وعلى مناقشة أوسع فى مجتمع مفتوح وعلى سيادة القانون .. ولكن بعض أجهزة التنظيم وجدت فى ذلك ردة إلى الرجعية وسقوطا فى شراك الثورة المضادة .. وبينها مثلا أن الأهرام وهو يحاول أداء واجبه الإخبارى بكامل جهده - سبق بالأخبار إلى قرائه بأسرع مما وصلت بعض أجهزة التنظيم إلى قواعدها وأصبحت هذه خطيئة فكان الصحافة تريد أن تظهر أمام جماهير الشعب أنها أسبق إليها من بعض أجهزة التنظيم .. وكان ما كان من أمر التناقض الذى أشرت عليه بين بعض أجهزة التنظيم وبين بعض الصحف.

ولابد لكى يكون البحث وافيا فى هذه النقطة أن أضيف أن بعض التناقض لم يكن منه بد بين بعض أجهزة التنظيم وبين بعض الصحف .. لماذا؟ .. لطبيعة الأمور .. إن تنظيم الاتحاد الاشتراكى نشأ فى وسط السلطة التنفيذية وهناك تناقض طبيعى بين جوهر رسالة الصحافة وبين واقع عمل السلطة التنفيذية فى أى بلد من البلدان .. الصحافة فى عملها عليها أن تلقى بأكبر قدر من الضوء على أكبر رقعة من العمل الوطنى .. والسلطة التنفيذية لها ما تريد إعلانه ولها فى نفس الوقت ما تريد إخفاؤه .. والصحافة عملها أن تتكلم .. والسلطة التنفيذية همها فى بعض الأحيان أن تتكتم .. وإذن فهناك تناقض بين الاثنين .. وهذه الحساسية مظهر صحة وليست عرض مرض .. والخطأ فى الموضوع بالنسبة لعلاقة الصحافة ببعض أجهزة السياسى أن هذه الأجهزة تسرب إليها من تأثير الصلة بينها وبين السلطة التنفيذية بعض من هذه الحساسية .. وكما قلت فإن هذا أمر طبيعى .. ولكن الضرورة تفرض تصفية آثاره وذلك بالقطع سوف يحدث مع تقدم العمل فى بناء التنظيم السياسى ومع إبراك كل أجهزته بأن وراءها من سند ثورة ٢٣ يوليو ومبادئها ومنجزاتها ما هو أقوى وأبقى من كل مظاهر الحكم وهيلمان السلطة.

ثالثاً : البيروقراطية المصرية .. والصحافة:

إن البيروقراطية المصرية وهى قوة راسخة على قلب العمل الوطنى فى مصر منذ أزمان بعيدة لا تحس بالاطمئنان تجاه الصحافة فهى تشعر فى مرات كثيرة بأن الصحافة

تقحم نفسها على مشاكل هي في صميم اختصاصها وولائها .. وفي الفترة الأخيرة ومع التداخل المتشابك بين العمل السياسى والعمل التنفيذى فإن البيروقراطية المصرية كادت أن تضع وتفرض معايير قاسية تجاه ما تمارسه الصحافة حيالها .. ووصلت فى ذلك إلى حد تكاد أن تقرر فيه أن النقد البناء هو مجرد التصفيق لكل تصرف وأما النقد الهدام فهو الاعتراض على أى تصرف ..

والى هنا ثلاثة أطراف قوية تشارك فى شد خيوط أزمة الشك فى الصحافة المصرية .. قطاعات من رأى العام .. وبعض أجهزة التنظيم السياسى .. ثم الثقل الراح للبيروقراطية المصرية .. لكن هناك طرفا خارجيا رابعا ..

رابعا : الاستعمار .. والصحافة:

إن الصحافة المصرية والصحافة العربية الوطنية عموما تعرضت لحملة شك ضارية من جانب الاستعمار الذى أحسن - للأسف - تقدير دورها ضمن قوى الثورة العربية الشاملة .. ولو سألنا مثلا: كيف سقط حلف بغداد أكبر وأخطر المؤامرات الاستعمارية على المنطقة؟ .. لكان الرد : لقد سقط حلف بغداد أمام قوة جمال عبد الناصر وقيادته الشعبية ثم أمام تأثير الصحافة العربية المقروءة والمسموعة .. إن الصحافة المقروءة والمسموعة كانت المدفعية الثقيلة التى هدت حصون حلف بغداد وحطمت استحكاماته بدون طلقة نار واحدة .. وأخشى أن أقول أنه فى معارك عديدة من معارك القومية العربية كانت الصحافة المقروءة والمسموعة هى التى تفتح الطريق وكانت السياسة المنظمة وغير المنظمة هى التى تجيء وتسده .. الصحافة المسموعة والمقروءة حطمت حلف بغداد .. والسياسة المنظمة وغير المنظمة هى التى مكنت عبد الكريم قاسم على أنقاضه .. والصحافة المقروءة والمسموعة كانت من عوامل الوحدة .. والسياسة المنظمة وغير المنظمة هى التى أعطت الفرصة للانفصال .. وهكذا .. وهكذا.

«من هنا فإن حرب الاستعمار على الصحافة العربية الوطنية كانت حربا لا هوادة فيها بكل الوسائل .. وبينها التشكيك ..

ثم ليس معنى ذلك أن حساب الصحافة أبيض لم يمسه سوء .. ذلك إدعاء لا أطاول عليه .. وإنما لقد كانت الصحافة أخطاءها العديدة مما لا يمكن إنكاره كما أن عليها من الشوائب ما يمكن الدفاع عنه .. لكن ما قلته حتى الآن يدخل فى مجال تشخيص أزمة الشك فى الصحافة المصرية وفى وصف هذه الأزمة .. لكنه حتى الآن لم يقترب من حل أو

علاج .. وجزء هام من المشكلة فى رأى كثيرين أن وضع الصحافة المصرية كله معلق بتحديد صريح لمعنى ملكية الاتحاد الاشتراكى لها .. لا هى ملكية سياسية أو هى ملكية عينية؟ .. هل شرطه عليها هو الالتزام بالمبدأ والفكرة أو هو خضوع الإلزام للأشخاص المنفذين؟ .. هل يريدونها فى خدمة قرائها - وهم جماهير قوى الشعب العاملة - أو هو يريدونها فى خدمة الصراعات الصغيرة والعقيمة؟ .. هل يريدونها أداة من أدوات الحرية فى مجتمع مفتوح أو هو يريدونها أداة من أدوات السلطة فى مجتمع مغلق؟ ..

وفى الفترة الأخيرة فلقد كان هذا الموضوع بين الشواغل التى طرحت نفسها على كثيرين من المهتمين بالعمل السياسى والصحفى وعقدت اجتماعات طويلة ودارت مناقشات مازال فيضها يتدفق حتى الآن لكنه - الاجتماعات الطويلة ولا المناقشات المتدفقة وصلت بعد إلى خاتمة مطاف .. ولقد ترددت خلال الاجتماعات والمناقشات مقترحات فيها المعقول وفيها اللامعقول .. طرح مثلاً اقتراح بإنشاء مجلس أعلى للصحافة فى الاتحاد الاشتراكى يشرف على الصحف ويهيمن فوقها .. وقيل فى مناقشة هذا الاقتراح: ما هو مبرر هذه السلطة الجديدة المقترح إقامتها؟ ..

قبل أن تنشأ السلطة لابد أن نحدد اختصاصها .. وهناك سلطات كثيرة على اتصال بالصحافة وعملها .. هناك سلطة قانون العقوبات .. وهناك سلطة وزير الإرشاد الذى يتولى أمر الرقابة فى ظروف الحرب .. هذا من الناحية التنفيذية .. وأما من الناحية السياسية فهناك الالتزام بالميثاق وبما صدر مكملاً من وثائق النضال الشعبى وبينها بيان ٣٠ مارس .. ثم هناك حق الملكية السياسية للاتحاد الاشتراكى .. وتمثلها لجنة الإعلام المنبثقة عن اللجنة المركزية .. وإذن فلماذا مجلس أعلى؟ ..

«وأسرع أصحاب اقتراح المجلس الأعلى فى عد الاختصاصات التى يطلبونها له تفصيلاً .. كان رأيهم أن إنشاءه حتمى لكى يحقق - على حد قولهم - عدالة أكثر فى توزيع الأخبار وعدالة أكثر فى توزيع الإعلانات وعدالة أكبر فى توزيع أرباح الصحف بحيث تدفع الصحف التى تكسب للصحف التى تكسب .. وقيل فى مناقشة هذا التفصيل: ليس هناك شىء فى الصحافة اسمه العدالة فى توزيع الأخبار ذلك أن الأخبار ليست فى جيب أحديعطيها لصحيفة ويضن بها على أخرى .. إن كل صحيفة لها طابعها ولها تنظيمها الذى يخدم طابعها ولها مصادرها فى الخارج وفى الداخل والمصادر نوع من الاستثمار المادى والإنسانى تختلف فيه الطاقات وتتفاوت .. وليس هناك شىء فى الصحافة اسمه العدالة فى توزيع

الإعلانات ذلك أن الإعلانات ليست إعلانات والمعلن صاحب مصلحة يبحث عن أكفأ الوسائل لتحقيقها وبالتالي فإن حجم إعلانات أى صحيفة هو حساب مادي لمحصلة مجموعة من العوامل هى: مدى انتشار الصحيفة وعدد قراء النسخة الواحدة منها ونوعيات قرائها والوقت الذى يقضيه قارئها معها لأن ذلك يجعل فرصة عبوره على الإعلان المنشور فيها احتمالاً منه فى غيرها .. وليس هناك شىء اسمه العدالة فى توزيع الأرباح بحيث تدفع الصحف التى تكسب ضريبة للصحف التى تكسب .. إن قانون الصحافة صريح فى هذا الصدد .. يخص العاملين فى كل صحيفة بنصف الأرباح المحققة فيها ويخصص النصف الباقى لعملية تجديد منشأتها .. وأن يفرض على صحيفة تكسب أن تعطى أرباحها لجريدة تكسب معناه مكافأة الفشل أو ما هو أسوأ من ذلك إذا لاحظنا أن هناك - على اتساع العالم كله - ظاهرة عظيمة فى مجال الصحافة وتلك هى أن أكثر الصحف أرباحاً هى أكثرها احتراماً .. إن القارئ فى العام كله سئم صحافة الإثارة والرخص وهو يميل الآن إلى صحافة أكثر جداً وأكثر ارتفاعاً .. هذه هى الصحافة التى تحقق الآن اتساعاً أكبر فى توزيعها وبالتالي اتساعاً أوفر فى إعلاناتها ومن نماذجها فى صحافة العالم اليوم «النيويورك تايمز» فى أمريكا .. و«الصنداي تيمس» و«الأوبزرفر» فى بريطانيا و«الموند» فى فرنسا وغيرها.

«ويعود أصحاب اقتراح المجلس الأعلى يسألون: أليست هناك حاجة للتنسيق بين الصحف المصرية؟ .. إذن يقوم بها «المجلس الأعلى» .. وقيل فى مناقشة هذا السؤال: إن التنسيق يقوم به اتحاد للصحافة ، كما يحدث فى كل بلاد الدنيا - يوجه همه إلى خدمة المهنة كمهنة فوق كل المنافسات المشروعة وقبلها وبدعها .. هناك حاجة للتنسيق بالنسبة لتدريب الصحفيين مثلاً فى عصر هو ثورة فى وسائل المواصلات أى ثورة فى الصحافة .. إن هناك الآن أدوات جديدة باهرة ولا بد أن يحيط صحفيوننا بها وأن يستوعبوا كل إمكانياتها لكى تستطيع خدمتهم وخدمة مهنتهم .. وهنا حاجة إلى التنسيق بالنسبة للعمل على زيادة ما يمكن أن نسميه الطاقة القرائية فى الوطن .. فى بلد مازال عدد قراء النسخة الواحدة من أى صحيفة لا يزيد عن خمسة .. وهنا حاجة إلى التنسيق بالنسبة للعمل على زيادة ما يمكن أن نسميه الطاقة الإعلانية فى الوطن .. فى بلد مازال حجم الإعلانات المتاحة فيه كلها لجميع وسائل الإعلان أقل من خمسة ملايين جنيه فى السنة .. وما هو أوجب من التنسيق المادى هو أن يكون للمهنة قانون شرف تلتزم به على الأقل

إزاء الجمهور بحيث يستطيع أى قارئ أو أى مؤسسة أو أى مسئول أن ينتصف لنفسه من الصحافة فيما لا يقع تحت طائلة قانون العقوبات وإن كان يقع تحت طائلة قانون الأخلاق .. تنشر أى صحيفة خبراً عن قارئ أو عن مؤسسة أو عن مسئول ويشعر من تناول النشر أنه قد أسىء إليه أو أن ما نشر كان مختلفاً عليه حتى بغير إساءة ويلجأ إلى قانون شرف المهنة وتنصفه الصحافة من نفسها .. لكن ذلك ليس لا حاجة فيه إلى اقتراح مجلس أعلى وإنما أولى الجهات مسئولية عنها هى الصحافة نفسها ..

ويفرغ صبر أصحاب اقتراح المجلس الأعلى فيقولون بالغضب: وأين إذن ملكية الاتحاد الاشتراكي للصحف وكيف تتحقق؟ .. وقيل لهم: ليس بالغضب حل المشاكل .. قبل كل شيء لابد من تحديد معنى الملكية هنا .. إن قانون تنظيم الصحافة - فى الحقيقة - أعطى الملكية المادية للعاملين فيها فلهم نصف الأرباح مباشرة والنصف الآخر يعود إلى صحفهم نفسها .. وذلك نوع آخر من الملكية يختلف عن المعنى الشائع للملكية العامة التى تعود أرباحها كلها إلى الخزينة ولقد كان ذلك قصد إرادة المشرع فى قانون تنظيم الصحافة وعنايه .. ولهذا فإن القانون لم يكن تأميم الصحافة وإنما كان تنظيم الصحافة .. ومع ذلك فإن الاتحاد الاشتراكي يملك .. ولا بد أن يملك .. ولكن أين نوع من الملكية؟ .. إن المعنى الضيق للملكية المادية ليس وارداً هنا سواء بنص قانون تنظيم الصحافة أو بالمفهوم الواجب لرسالة الصحافة ودورها . ولو أخذنا المعنى الضيق للملكية لواجهتنا محاذير .. إن الصحف فى البداية إنتقلت إلى ملكية الاتحاد القومى .. ولقد صفى الاتحاد القومى ولكن الصحف لم تصف ولم يكن من الممكن تصفيتها .. وانتقلت ملكية الصحافة إلى ملكية الاتحاد الاشتراكي .. وتجميد الاتحاد الاشتراكي مرتين .. مرة بعد معارك يونيو سنة ١٩٦٧ .. ومرة قبل صدور بيان ٣٠ مارس ١٩٦٨ ولكن الصحف لم تتجمد معه ولم يكن ممكناً تجميدها ..

وإذن فهو نوع آخر من الملكية لابد من تحديده والاتفاق على حدوده .. هى الملكية السياسية بالدرجة الأولى مع ضمان الرقابة المالية على أوضاع الصحف وكفالة ضرورة المراجعة عليها .. ويستطيع البحث المدقق أن يعثر على صيغ ملائمة تحقق كل الضمانات للصحافة وللاتحاد الاشتراكي وللرأى العام المهتم بالصحافة .. وبعد فلقد أكون أطلت .. لكن القضية حيوية .. إن الصحافة المصرية ورائها تاريخ مجيد ويشرف به كل من ينتمى إليه، والصحافة المصرية إلى جانب التاريخ المجيد حاضراً يعيش، الواضع المعاصر بكل ما فيه ويناضل فى الطليعة من قواه المناضلة ثم أن الصحافة المصرية مستقبل يستحق

الحرص عليه لأن مصير الصحافة فى أى بلد هو نفسه مصير الحرية فى هذا البلد .. من هنا فإن أزمة الشك فى الصحافة المصرية ليست وحدها وإنما هى شركة مع كل قوى التطور والمستقبل والحرية فى وطننا .

انتهى المقال .. وبدأت الحرب على هيكل من الاتحاد الاشتراكى .. وهى حرب كانت شرسة استخدم فيها التنظيم السياسى صحيفة «الجمهورية» .. ونشرة «الاشتراكى» التى كانت تصدر للتثقيف الداخلى لقيادات التنظيم .. ووسائل التشهير المنظمة .. والمنشورات .. وهتافات المظاهرات .. وإلقاء الحجارة على مبنى الأهرام .. وكان هيكل فى هذه الحرب بدون مساندة من جمال عبد الناصر الذى لم يعترض على ما كتب لكنه طلب منه أن يتحمل تبعاته .. وفيما بقى هيكل .. وانهار الاتحاد الاشتراكى .

اللحظات الأخيرة في حياة عبد الناصر !

■ ولد جمال عبد الناصر في ١٥ يناير عام ١٩١٨ .. وورث عن والدته السيدة فهيمة محمد حماد الاستعداد للإصابة بأمراض القلب .. وقد ماتت هي بالسكتة القلبية في عام ١٩٢٦ .. وورث شقيقه عز العرب عنها نفس الاستعداد لنفس المرض .. وقد مات بأزمة قلبية في عام ١٩٧٧ .. وكان عمره لا يزيد عن ٥٥ عاما .. وكان مديرا لمكتب جريدة «الجمهورية» بالإسكندرية .. ولم تعان الأم بمرض السكر .. ولم يعان الأب عبد الناصر حسين منه .. ولم يعان من أمراض القلب .. وقد مات في سبتمبر ١٩٦٨ وكان عمره يزيد عن ٨٠ عام .. لكن جمال عبد الناصر ورث السكر عن عمه خليل الذي رياه في القاهرة .. وكذلك شقيقه «عز العرب» .. أي أن جمال عبد الناصر ورث أمراض القلب عن عائلة أمه .. وورث مرض السكر عن عائلة إبيه .. وكانت هذه هي جذور المرض في شجرة العائلة.

والشائع أن جمال عبد الناصر اكتشف إصابته بالسكر في عام ١٩٥٨ على أثر مفاوضات شاقة أجراها في موسكو مع السوفيت بعد ساعات من قيام ثورة عبد الكريم قاسم في العراق .. وقد توحش السكر في جسده بعد الانفصال السوري عن دولة الوحدة في ٢٨ سبتمبر عام ١٩٦١ .. وأدى توحش السكر إلى انخفاض وزنه بسبب تكسر البروتين .. وأدى إلى هبوط القلوبات الاحتياطية في الدم .. فزاد إحساسه بالجفاف والعطش .. ثم رفع السكر راية الخطر عالية في عام ١٩٦٤ أثناء زيارة قام بها هو وخورتشوف لمديرية التحرير .. فقد تحول إحساسه بالعطش إلى إحساس بالغثيان .. ورغبة في القيء .. واكتشف الأطباء ارتفاع نسبه «الأسيتون» وهو ما يعنى اضطرابا في عملية احتراق المواد الكربوهيدراتية .. وبعد هزيمة يونيو ١٩٦٧ وصل خطر السكر إلى مداه بتهديد الأعصاب الطرفية.

وبعد الهزيمة أيضا بدأت متاعب القلب التي وصلت إلى حد الجلطة في سبتمبر ١٩٦٨ عندما تسللت سرية برمائية إسرائيلية إلى نقطة «الزعرانة» على شاطئ السويس الغربى واستولت على محطة راداد وصورت فيلما سينمائيا بما فعلت عرضته فى تلفزيونات العالم .. وبقي جمال عبد الناصر حوالى الشهرين تحت الراحة والعلاج .. وخلال هذه الإجازة الإجبارية كانت هناك لجنة لتسيير العمل الداخلى تتكون من أنور السادات رئيس مجلس الأمة وسامى شرف مدير مكتب الرئيس وأمين هويدى الذى تولى مسئولية المخابرات العامة بعد التخلص من صلاح نصر وشعراوى جمعة وزير الداخلية ومحمد فوزى وزير الحربية .. ومحمد حسنين هيكل .. وفى تلك الأيام جاء الطبيب السوفيتى فيجيني تشازوف لمتابعة علاجه .. وبدون مقدمات قرر جمال عبد الناصر فى يوليو عام ١٩٧٠ السفر إلى موسكو للعلاج.

فى سبتمبر عام ١٩٧٠ كان جمال عبد الناصر يستريح فى مرسى مطروح عندما جاءته الأنباء السيئة عن الحرب الأهلية الشرسة بين المقاومة الفلسطينية والقوات الأردنية فى عمان .. ولم يتردد جمال عبد الناصر فى العودة إلى القاهرة .. وبناء على دعوة لقمة عربية لحقن الدماء العربية بدأ الحكام العرب يتدفقون على القاهرة .. وعندما انتهت هذه القمة فى ٢٨ سبتمبر .. انتهت معها حياة جمال عبد الناصر .. وكان عمره وقتها ٥٢ سنة و٨ شهور و١٣ يوما.

ولا جدال أن هذا اليوم من أخطر الأيام التى مر بها هيكل .. إن رفيق العمر على مدى ١٨ سنة قد رحل .. والرجل القوى الذى كان سنداً له لم يعد على ظهر الحياة .. وصراعات السلطة المكتومة أصبحت على وشك الانفجار .. ولا أحد يعرف ما الذى تخبئه الساعات أو حتى الدقائق القادمة التى بدت مشحونه بالقلق والتوتر.

ما الذى جرى فى الأربعة وعشرين ساعة الأخيرة فى حياة عبد الناصر؟ .. ما الذى سجله هيكل عنها؟ .. كيف كانت لحظات النهاية؟

إن هيكل - الذى لا يمكن أنى يكون قد ترك تفاصيل ذلك اليوم تمر دون أن يمسك بها - يروى ما جرى .. وما كان .. ودون أن يترك سرا وقع أو همسا حدث .. ويقول:

«كان البحر الأبيض - قلب الدنيا وبؤرة التاريخ - كان يستعد يومها لحدث كبير .. كبير .. كان مأساة عنيفة - مما روى تاريخ الإغريق - تحوم حوال آفاقه وتوشك أن تترك على شواطئه كالزلازل ترجمه رجاً من الأعماق السحيقة إلى قمم الموج العالية:

فى شرق الأردن فى عمان كان القتال مازال محتدماً بشدة وقسوة وكانت دبابات الجيش الأردنى من طراز باتون تركز هجماتها على منطقة الأشرفية تريد أن تخلع منها

بقايا جيوب المقاومة الفلسطينية في عمان وكان مستشفى الأشرفية بالذات هدف تركيز شديد .. فقد كان معروفا أن قيادة المقاومة الفلسطينية اتخذت منه - في وقت الصراع - مقرا لها توجه منه عملياتها .. وكان الدمار في أبشع صورة قد حل بكل شوارع العاصمة الأردنية القائمة على سبعة تلال وكان القتلى تحت الأنقاض بالآلاف وكان الجرحى بالآلاف تتعالى أناتهم وصرخاتهم تطلب النجدة أو تطلب الرحمة وكان الجوع والعطش يمسكان المدينة بقبضة عذاب اليم لا عاصم منه ولا مغيث .. الأخ يسفك دم أخيه ورفاق السلاح لا يقاتلون عدوهم ولكن يقتتلون فميا بينهم ..

في شرق البحر الأبيض أيضا .. في القدس المحتلة كان التدبير الأمريكي - الإسرائيلي قد أعد مخططاته كاملة للتدخل في أزمة الأردن ولم يكن باقيا إلا صدور الأمر في اللحظة التي تقتضى التدخل من وجهة نظر المدبرين المتواطئين .. كانت خطة التدخل كما يقول بنجامين ويلز الصحفي العليم بدخائل الأمور في واشنطن قد تم وضعها يوم ٢١ سبتمبر بعد مشاورات بين واشنطن وتل أبيب وهي مشاورات جرت في البيت الأبيض نفسه واشترك فيها مع الرئيس ريتشارد نيكسون كل من ويليام روجز وزير الخارجية وجوزيف سيسكو مساعد وزير الخارجية لشئون الشرق الأوسط وهنري كيسنجر مستشار نيكسون لشئون الأمن القومي وريتشارد هيلمز مدير وكالة المخابرات المركزية الأمريكية والادميرال توماس مور رئيس هيئة أركان الحرب المشتركة للقوات المسلحة الأمريكية والجنرال إيزاك رابين سفير إسرائيل في واشنطن ورئيس هيئة أركانها السابق ومساعدته السياسي في السفارة الإسرائيلية شلومو أرجوف .. كانت اجتماعاتهم تعقد في البيت الأبيض وكانت خرائط المنطقة من حولهم وكانت المعلومات التفصيلية تتدفق على غرفة العمليات من مصدرين يحددهما بنجامين ويلز بأنهما: المخابرات الأمريكية والمخابرات الإسرائيلية.

وتقرر بينهم أن تكون ساعة الصفر في التدخل هي اللحظة التي يزيد فيها عدد الدبابات السورية التي تدخل الأردن - كما يقولون - على مجموعة اللواءين التي قالوا أنها دخلت فعلا شمال الأردن وهي الخطة التي يبدو فيها أن زحف الدبابات قد تجاوز منطقة الرمثا .. وكانت الخطة التي تم الاتفاق عليها أن تبدأ العملية بضربة جوية يقوم بها الطيران الإسرائيلي ضد المدرعات السورية فإذا لم تحقق هذه الضربة هدفها تقدم طابور مدرع إسرائيلي لمحاصرة القوات السورية وإبادتها مع احتلال مثلث الرمثا - أربد - جرش .. وفي نفس الوقت كانت الخطة تتضمن إنزال كتيبة مظلات من الفرقة الثامنة الأمريكية - المتمركزة في «مينتر» بألمانيا الغربية لتحتل مطار عمان الدولي .. وتقيم من حوله نطاق دفاعات يسمح بإنزال لواء من المشاة على طائرات النقل على أن يتولى الأسطول السادس

الأمريكي بطائراته حماية التدخل الإسرائيلي - الأمريكي ضد أى عمل قد تقوم به مصر أو قد يفكر فيه الاتحاد السوفيتى.

وفى شمال البحر الأبيض كان الرئيس ريتشارد نيكسون قد وصل بنفسه إلى نابولى وكانت أقوى قطع الأسطول السادس الأمريكى أمامه تحيط بجزيرة كابرى .. ثلاث من حاملات الطائرات هى «ساراتوجا» و «أندبندانس» و «جون كينيدي» وعلى ظهرها قرابة ثلاثمائة طائرة قاذفة مقاتلة أكثرها من طراز فانتوم وعليها مجموعة من بطاريات المدفعية وقواعد إطلاق الصواريخ تمثل قوة نيران رهيبة وتتقدم هذه الحاملات مجموعة من البوارج والطرادات الصاروخية يتقدمها الطرادان «جوام» و «سبرنجفيلد» ثم أسطول جرار من قوارب طوربيد والغواصات وكاسحات الألغام .. وكان مقررا لهذه القوة البحرية أن تقوم بمناورة تكون بمثابة مظاهرة بالنار .. وكان مقررا أن يشهد نيكسون هذه المناورة من جسر حاملة الطائرات ساراتوجا المعقود لها لواء القيادة فى الأسطول السادس الأمريكى فى البحر الأبيض وكان المقصود من هذه العملية كلها على حد ما يقول الصحفى المشهور ماكس فرانكل - من كبار محررى النيويورك تايمز - وكان مع الرئيس نيكسون على ظهر حاملة الطائرات ساراتوجا - شيئا واحداً: أن يسمع جمال عبد الناصر فى القاهرة دوى مدافع الأسطول الأمريكى السادس .. وكان الموعد المقرر لبدء المناورة هو الساعة العاشرة من مساء يوم ٢٨ سبتمبر!!.

وفى جنوب البحر الأبيض فى القاهرة كان جمال عبد الناصر فى لحظة من أروع لحظات حياته ونضاله يحاول ولا يكل من أجل السلام العربى والسلامة العربية لكى تظل أمته فى وضع القدرة على مواجهة التحدى المستمر ولكى يوقف نزيف الدم المتدفق من قلبها .. كان جهده مركزا أشد ما يكون التركيز .. وكان فكره رائقا صافيا مجددا وكانت كلمته طوال الوقت لكل الأطراف: «ما هو الهدف؟» .. يجب ألا ننسى أنفسنا وسط التفاصيل والالتهامات المتبادلة .. ما هو الهدف؟ هذا هو السؤال الذى يتعين علينا أن نجيب عليه ونتصرف وفق متطلباته والباقى كله حسابات سهلة يمكن تسويتها فيما بعد .. ما هو الهدف؟ هذا سؤالى لكم دائما .. وكان عمله متواصل لا ينقطع .. وكان صورة كل مايجرى حول شواطئ البحر الأبيض واضحة أمامه بالعلم وبالفهم وبالضرورة القصوى لحفظ قوى النضال العربى كشرط لازم لاستمرار المعركة ضد إسرائيل .. وأهم من هذا كله أن ذلك الإنسان العظيم وسط ما كان دن حوله - ودوره هو فيه - كان يعرف حقيقة ما به وكان يدرك مخاطر ما يقوم به من عمل وما يعانیه من انفعالات على صحته المثقلة بالألم وعلى قلبه الجريح من جلطة جاءت فى سبتمبر سنة ١٩٦٩.

وأقول لنفسي الآن ولم تعد هناك جدوى من أى قول: «كأنه كان يعرف» .. وأقول
لنفسى الآن وقد فات الأوان: «كيف لم افهم؟ وكيف فاتنى المعنى الحقيقى لإشارات سمعتها
منه وكان يجب أن أتوقع منها ما حدث ولا أفاجأ بلحظة الرحيل وأجدنى أياما بعدها عاجرا
عن التصديق وإياما تليها عاجزا عن التصور .. وتجيش فى أعماقى الآن مشاعر متناقضة
ملتاعة وأن أتذكر بعض ما سمعت من إشارات وأنظر إليها على خلفية ما أعطى من جهد
وأعصاب فى أيام الأزمة فى الأردن .. قوله مرة وكنت أحدثه عن عمله الذى يفوق طاقة
احتمال صحته .. بل طاقة أى بشر حتى وإن كان فى تمام صحته وكان قوله: «فى مثل
ظروفى لا أستطيع أن أتصرف إلا كما أتصرف الآن .. وعلى أن أتحمّل النتائج كيفما
تكون» .. وقوله مرة أخرى وكنا نتحدث عن الحرب وعن اعتزاله السياسة عندما يتحقق
النصر وكيف يجب أن نجلس معا ونحن شيوخ لكى نكتب مذكراتنا عن قصة جيلنا
وحتى تبقى للأجيال وكان قوله: «لا تعتمد على فى ذلك .. لا تنتظرنى فى الشيخوخة ..
لا تنتظرنى هناك» .. وقوله مرة ثالثة بعد النوبة القلبية الأولى وكان حديث الاعتزال
يتردد بين وقت وآخر فى خواطره بصوت عال أمامى وكان قوله: «أحيانا أفكر .. هل
أستطيع أن أعتزل؟ .. لا أعرف .. يُخيل إلى أنه ليس أمامى خيار .. إما أن أكون هنا فى
المسئولية أو أكون هناك فى القبر .. وقوله مرة رابعة فى أعقاب خطابه فى المؤتمر القومى
الآخر يوم ٢٣ يوليو وكان قد عاد إلى بيته واتصل بى تليفونيا وتصورت أنه سوف
يتحدث عن أصعب ما كان فى خطابه ذلك اليوم وهو قبوله لمشروع روجرز ولكنه بدأ
بشيء آخر وكان قوله: «لقد كنت متأثرا وأنا أعلن انتهاء بناء السد العالى .. كنت أتمنى أن
أعيش إلى اليوم الذى أعلن ذلك فيه .. إن السد العالى كان يعينى كرمز وإتمام بنائه يعنى
بالنسبة لى شيئا كبيرا» .. ثم يخيف بالحرف: «يستطيع الواحد أن يموت غدا مطمئنا
إلى أن الناس هنا يستطيعون تحمل كل شيء ويستطيعون تحقيق كل شئ» .. وقوله مرة
خامسة فى أواخر الأيام وكنا فى فندق هيلتون أثناء أزمة الأردن وكنا جلوسا على الغذاء
وكان معنا أنور السادات وحسين الشافعى وعلى صبرى وكان حديثنا عما يجرى فى
الاجتماعات وتساءلت أنا: هلى سيجي يوم نكتب فيه وقائع هذه الأيام كما نراها أمامنا
والتفت ناحيتى على مسمع من الكل وكان قوله: «أنت المسئول عن ذلك فى يوم من الأيام
إنك تعرف كل شيء وأنا لم أحتفظ بأوراق خاصة لى .. وأنت تتحدث عن الإحساس
بالتاريخ دائما والكتابة صناعتك .. ولك أن تقتصر كما تشاء» .. والتفت يشهد الآخرين
على ما يقوله ووجدتنى أقول بسرعة: «مازال أمامنا وقت طويل قبل أن يجيء أوان الكتابة
عن هذه الأيام» .. وكان رده: «أريد أن أخلى مسئوليتى أمام التاريخ» .. ثم «ليطمئن
قلبى» ..

ثم قوله فى اليوم الأخير .. يوم الرحيل وكان قد اتصل بى تليفونيا فى الساعة الواحدة ظهرا وأحسست أنه منك مجهد وسألته عما إذا كان من الضرورى أن يذهب إلى المطار لوداع أمير الكويت وكان آخر المسافرين من القاهرة بعد انتهاء اجتماعها الكبير وكان قوله: «لأبد أن أقوم بالواجب إلى النهاية وعلى أى حال فهذا هو الوداع الأخير» .. وأحسست بعبارته تنفّس فى قلبى كأنها سكين .. وشعرت بضيق غريب ووجدتني أقول له: «تقصد أنه وداع آخر واحد من الملوك والرؤساء العرب الموجودين فى القاهرة؟» .. وقال: «ما هو الفرق بين ما قلته أنا وما قلته أنت؟» .. ولم أشأ أن أفصح عما أحسست به واكتفيت أن أقول: «لا شيء فى الواقع .. لا فرق».

وأترك هذه الإشارات وأعود إلى ما كنا فيه .. كنا عندما يجرى على شواطئ البحر الأبيض شمالا وشرقا .. وكان هو فى القاهرة جنوب البحر الأبيض يرقب كل الآفاق القريبة والبعيدة ويفكر ويحسب ويتحرك ويحرك أياما بعد أيام .. وكان ذلك الإنسان العظيم وسط ما كان من حوله ودوره فيه يعرف حقيقة ما به وكان يدرك مخاطر ما يقوم به من عمل وما يعانیه من انفعالات على صحته المثقلة بالألم وعلى قلبه الجريح من جلطة جاءتة تحذيرا فى سبتمبر سنة ١٩٦٩ .. وسوف أكتفى هنا بالأربع والعشرين ساعة الأخيرة أروى وقائعها كما عشت بجانبه .. حتى جاءت لحظة الرحيل.

كنت قد تركته عند الرابعة بعد الظهر - يوم الأحد ٢٧ سبتمبر - فى الجناح الذى كان يقيم فيه بفندق هيلتون حيث يترك كل الملوك والرؤساء العرب الذين التقوا فى القاهرة بحثا عن حل «يوقف نزيف الدم فى الأردن» كما كان هو يقول .. كانت هناك جلسة بعد الظهر عاصفة فقد حضرها الملك حسين لأول مرة .. وكانت هذه الجلسة قد بدأت فى الواحدة بعد الظهر وانتهت فى الثالثة والنصف .. وكنت فى قاعة الاجتماع قبل أن يدخل عبد الناصر وكان جوها متوترا .. كان الملك حسن مع بعض ضباطه فى ركن من القاعة .. وكان ياسر عرفات على مقعد فى صدرها يضبط أعصابه بالكاد .. وكان الملك فيصل فى مقعده التقليدى فى هذه الاجتماعات وكان واضعا يده على خده يفكر وتحدثت قليلا مع ياسر عرفات وكان على وشك أن ينفجر .. ودخل وقتها العقيد معمر القذافى يجلس إلى جوار ياسر عرفات ..

وانتقلت إلى حيث الملك فيصل جالسا أقطع عليه تفكيره وأقول له: «ألا تريد جلالتك أن تقوم بعملية نزع سلاح فى هذه القاعة؟» .. والتفت الملك فيصل إلى يسألنى عما أقصد وقلت: «إن الملك حسين يعلق مسدسا فى وسطه وياسر عرفات يعلق مسدسا فى وسطه ومعمر القذافى يعلق مسدسا فى وسطه .. والجو كله مشحون» .. قلت ذلك وابتسمت .. وقال الملك فيصل: «لا أعرف فى الحقيقة .. هل جئنا إلى هنا لنتفاهم أم لنتقاتل؟» .. ثم

استطرد الملك: «ولكنى لا أستطيع أن أنزع سلاح أحد .. ربما يستطيع فخامة الرئيس .. هو وحده الذى يستطيع » .. وأشار الملك فيصل إلى باب القاعة وكان الرئيس عبد الناصر يدخل منها فى تلك اللحظة ويتجه نحونا وقال له الملك فيصل : «فخامة الرئيس .. لا أريد أن أجلس وسط كل هذه المسدسات» .. وقال الرئيس ضاحكا من قلبه: «لا عليك .. سوف أجلس أنا وسط هذه المسدسات .. وتفضل أنت فأجلس مكانى».

وغادرت أنا قاعة الاجتماع لأنه مقصور على الملوك والروساء وحدهم .. وعندما انتهت الجلسة فى الثالثة والنصف كنت فى انتظاره بجناحه فى الدور الحادى عشر وعرفت منه بعض التفاصيل عما حدث وتركته ليستريح بعض الوقت .. دخل على غرفة نومه وكانت الساعى الرابعة وتوجهت أنا إلى بيتى أغير قميصى كما قلت له وأعود بعد قليل وكان الموعد المحدد للجلسة الختامية هو الساعة السادسة مساء .. وفى الساعة الخامسة كنت أدخل عليه على أطراف أصابعى مرة أخرى إلى جناحه وكان محمد داود الذى يقوم بخدمته الخاصة واقفا على باب حجرة النوم واقترب منى يقول: «إن الرئيس نائم وقد طلب إيقاظه فى الساعة الخامسة والنصف» .. ودخلت غرفة الصالون المواجهة لغرفة النوم واتجهت إلى الشرفة أطل منها على النيل .. وانتظر.

وبعد دقائق جاءنى محمد أحمد السكرتير الخاص للرئيس يقول لى: «إن الرئيس (السودانى) جعفر نميرى و(رئيس الحكومة التونسية) باهى الأدغم فى طريقهما إلى جناح الرئيس فهل نوقظه؟» .. ونظرت فى ساعتى - كما أتذكر جيدا - وكانت الخامسة وسبع دقائق وقلت: «ننتظر بعض الوقت .. نعطيه دقائق إضافية من النوم لو كنا نستطيع» .. وقمت باستقبال الرئيس نميرى والسيد باهى الأدغم وقلت لهما همسا: «إن الرئيس نائم ولم نشأ إيقاظه .. ولكننا نوقظه إذا أراد» .. وقال الرئيس نميرى: «نتركه بعض الوقت .. لقد جننا بمشروع اتفاق كلفنا بإعداده على ضوء مناقشات جلسه بعد الظهر ليكون أساسا لحديثنا فى جلسا المساء» .. وناولنى الباهى الأدغم مشروع الاتفاق لأقرأه .. وقرأته على مهل وفى ذهنى أن أطيل الوقت إلى أقصى حد ممكن .. وتناقشنا فى بنود المشروع .. واتجه حديثنا إلى بعض ما دار فى جلسة بعد الظهر .. ثم كان الوقت يقترب من الخامسة والنصف وطلبت من محمد داود أن يدخل لإيقاظ الرئيس .. وجاء محمد داود بعد دقيقة إلى غرفة نوم الرئيس وذهبت وكان واقفا بجوار الفراش واستمع إلى فى ثوان قليلة ثم قال: «أجلس معهما وسوف آخذ حماما سريعا وألحق بكم» .. واستطرد وهو ينتهد: «لقد كنت فى نوم عميق من شدة التعب» .. والحق بنا إلى الصالون وكانت الساعة الخامسة والنصف تماما.

وأمسك بيده مشروع الاتفاق ولم يجد نظارته وناولني الورق وطلب مني أن أقرأه على مسمعه وكان تعليقه أن المشروع يمكن أن يكون أساسا مقبولا «إذا خلصت النوايا» .. وجاء محمد أحمد يسلمني رسالة بعث بها ياسر عرفات الذي كان يقيم في الدور الرابع من الفندق وسألني الرئيس عما بها وقلت: «إن ياسر عرفات تلقى من عمان معلومات بأن الجيش الأردني يكثف هجماته لقتل له السيطرة على عمان الليلة وهو يريد تعليمات تصدر إلى ضباط المراقبة المصريين الذين سافروا هذا الصباح إلى عمان لكي يباشروا عملهم وبالذات في منطقة الأشرفية» .. وقال الرئيس: «فلنطلب ياسر عرفات نبحث معه مشروع الاتفاق قبل الجلسة .. واسألوا أيضا عن معمر القذافي قد وصل .. وينضم إلينا هنا» .

وجاء ياسر عرفات وكان منفعلا وبادر إلى القول موجها حديثه إلى الرئيس: «سيادة الرئيس .. لا فائدة وليس أمامنا إلا أن نهد الدنيا على رؤوسهم ورؤوسنا ولتكن النتيجة ما تكون» .. وقال الرئيس: «ياسر .. لا يجب لأي شيء الآن أن يجعلنا نفقد أعصابنا .. لا بد أن نسأل أنفسنا طول الوقت: ماهو الهدف؟ .. الهدف كما اتفقنا هو وقف إطلاق النار بأسرع ما يمكن .. إنني تحركت من أجل هذا الهدف بناء على تقديري للظروف وبناء على طلبك أنت لى من أول لحظة .. إن موقفكم في عمان مرهق ورجالكم في أربد عرضه للحصار ولقد قلت لك من أول دقيقة إننا لا نستطيع مساعدتكم بتدخل عسكري مباشر من جانبنا لأن ذلك خطأ .. لأن معناه إنني سأترك إسرائيل لأحارب في الأردن .. كما إن ذلك إذا حدث سوف يفتح الباب لتدخلات أجنبية تنتظر هذه اللحظة .. إنني أحاول أن أكسب وقتا لكي أستطيع زيادة قدرتكم على المقاومة ولتصلوا إلى حل معقول .. إنني خلال الأيام الأخيرة فتحت لكم أبواب كل ما أردتموه من سلاح وذخيرة .. كما إنني بعثت إلى بريجنيف لكي يضغط الاتحاد السوفيتي بكل قوته على الولايات المتحدة الأمريكية حتى لا تتدخل .. ولقد بعثت أنت لى تطلب من أن أفعل ذلك وقد فعلته .. كل ذلك في سبيل أن تكسب وقتا تحول فيه دون ضربة قاصمة توجه للمقاومة وتعوق كذلك وحدة قوى النضال العربى» .

واستطرد عبد الناصر: «إنني حرقت دمي خلال الأيام الأخيرة لكي أحافظ عليكم وكان أسهل الأشياء بالنسبة لى أن أصدر بيانا إنشائيا قويا أعلن فيه تأييدي لكم ثم أعطيتكم محطة إذاعة تقولون منها ما تشاءون ضد الملك .. ثم أريح نفسي وأجلس لأتفرج .. لكنني بضميري وبالمسئولية لم أقبل ذلك» .. واستطرد عبد الناصر: «إنني أستطيع أن أنهى المؤتمر هذه اللحظة .. إن المؤتمر من الوجهة السياسية قد حقق كثيرا .. ذهب الأخ نميرى

أول مرة وعاد بأربعة من زعماء المقاومة استخلصهم بالضغط من السجن .. وذهب الأخ نميرى مرة أخرى وعاد بك .. ثم صدر عنا بتقرير نميرى والبعثة التى رافقته إلى عمان تقرير أوضح الحقيقة كلها وشكل قوة ضغط أستطيع أن أترك الأمور على هذا الحد وأستريح .. ولكننى أسأل نفسى وأسألك : ما هو الهدف ؟ .. هذا هو السؤال الذى يجب ألا ننساه .. هدفنا مازال هو وقف إطلاق النار لإعطائكم فرصة لإعادة تقدير موقفكم وإعادة تجميع قواكم .. ونحن الآن أمام فرصة للاتفاق .. هل نحاول ؟ أو نسكت وننسى هدفنا؟ لك القرار لأن موقفى منذ اللحظة الأولى كان من أجلكم من أجل حمايتكم وحماية الناس الذين لا ذنب لهم والذين هم الآن قتلى لا يجدون من يدفنهم .. وجرحى لا يجدون من يعالجهم .. وشاردون بين الانقراض أطفالا ونساء يبحثون فى يأس عن أبسط حق للإنسان وهو حق الأمن على حياته».

وسكت عبد الناصر .. وساد الصمت لحظة .. ودخل العقيد معمر القذافى .. وجاء بعده محمد أحمد يقول أن كل الملوك والروساء العرب بدءوا يفدون على القاعة فى انتظار بدء الاجتماع .. وقال الرئيس عبد الناصر: «هل نذهب؟» .. وأردف : «هل نذهب لنفض الاجتماع .. أو لنواصل الحديث سعيا وراء هدفنا ؟» .. وقام الجميع إلى المصعد .. نازلين إلى قاعة الاجتماعات فى الدور الثانى وكان ياسر عرفات ممسكا بيدي يقول لى: «له الله .. كتب عليه أن يحمل هموم العرب كلهم .. وخطاياهم أيضا».

كان الاجتماع مقصورا على الملوك والرؤساء وعدت إلى الدور الحادى عشر فى فندق هيلتون أدخل الغرفة التى كان يقيم فيها أنور السادات وكان جالسا فى الشرفة وأمامه جهاز راديو يحاول أن يسمع منه إحدى المحطات .. ووقفت معه بعض الوقت نتحدث فيما هو جار وفيما هو محتل ثم ذهبت أجرى اتصالا تليفونيا مع الأهرام وجاء من يطلبنى بسرعة إلى قاعة الاجتماعات وكان السيد الباهى الأدغم هو الذى يريدنى ووقف معى فى مدخل القاعة يقول لى إنه إذا انتهى الاجتماع إلى اتفاق .. وإذا أقر تكليفه برئاسة لجنة الرقابة على تنفيذه فهو يريد أن يأخذ معه وفدا من الصحفيين يمثل الصحافة العربية والعالمية .. ليكون رأى العام نفسه رقبيا وشاهدا .. وحبذت الفكرة .. وعاد الأدغم إلى القاعة وفكرت من جانبى - متوقعا أن يطول الاجتماع - فى الذهاب إلى الأهرام بنفسى بدل عناء الاتصالات التليفونية .. ووصلت إلى الأهرام لأجد كبير الياوران على التليفون يطلبنى ويقول لى: «إن الرئيس يريدك فى القاعة فورا».

وعدت بسرعة إلى فندق هيلتون متوجها إلى القاعة ولحنى الرئيس عبد الناصر أدخل من بابها فأشار إلى أن أجلس بجانبه .. وقال لى همس: «لقد تم الاتفاق .. وهم الآن يكتبون صيغته النهائية على الآلة الكاتبة لكى نوقعها جميعا» .. وكانت الدهشة من

السرعة بادية فى عينى .. وقال الرئيس ضاحكا: «مالك؟» .. وقلت: «لم يتغير رأى بعد الاتفاق عما كان عليه وقت الصراع مازلت أقول كما كنت أقول: العقل العربى فى حالة تراجع إلى الغريزة .. تفكيرنا رماد .. وعواطفنا حريق» .. قال: «حتى بعد الاتفاق تقول ذلك؟» .. قلت: «نعم .. وأقول إننا كنا ومازلنا قبائل .. نغضب فى لحظة ونهدأ فى لحظة .. نشهر السلاح فى وجه بعضنا .. وبعد قليل نتصافح ونتعاقب كان لم يحدث شئ» .. قال وهو لا يزال يضحك: «دعك الآن من الفلسفة .. ليس هناك وقت لها .. هناك هدف نسعى إليه الليلة وأما الفلسفة فنستطيع تأجيلها إلى الغد وسيكون لديك لكل الوقت لتغرق فيها !!» .. ثم راح يتحدث عن ترتيبات إعلان الاتفاق .. ثم تنفيذه .. ثم طلب إلى أن الحق به بعد الاجتماع فى جناحه.

وجاء إلى جناحه فى الساعة الحادية عشر وكانت سعادته بالوصول إلى اتفاق تغطى إحساسه بالإرهاق بعد كل ما عمل وبذل .. ووقف فى الشرفة المطلة على النيل وقال: «هذا إجمال منظر تراه العين» .. وجاء أنور السادات وحسين الشافعى وعلى صبرى وراح يروى لهم بطريقته المرحية بعض ما دار فى الاجتماع .. ثم سأل فجأة: «أين معمر القذافى؟» .. وجاء محمد أحمد بعد قليل يقول: إن الرئيس معمر القذافى توجه من قاعة الاجتماع إلى المطار ليعود إلى بنغازى وأنه صافح الرئيس بعد انتهاء الجلسة .. فعل ذلك مودعا وهو لا يرد أن يثقل على الرئيس ولهذا فهو يرجوه أن لا يذهب لوداعه فى المطار .. وقال الرئيس على الفور: «اتصلوا بالمطار وعطلوا الطائرة حتى أذهب .. لا بد أن أودعه بنفسى».

ثم قال على الفور: «أظن أنه لم يبق هناك داع الآن لبقائى فى الفندق .. أريد أن أعود إلى بيتى .. لقد أوحشنى الأولاد ولعلنى أستطيع أن أراهم قبل أن يناموا الليلة» .. والتفت إلى يقول: «هل أنت متعب؟» .. قلت: «أبدا» .. قال: «إذن أبقى هنا لقد كلفت الفريق (محمد أحمد) صادق (رئيس الأركان) أن يقابل الباهى الأدغم وأن يبحث معه ترتيبات سفر لجنة الرقابة .. احضر معهم هذا الاجتماع» .. ثم استطرد: «ولعلك أيضا تقابل إخواننا فى المقاومة» .. وقلت: «إننى سابقى .. ومشيت معه من جناحه إلى المصعد وسلمت عليه قبل أن يقفل الباب .. ولم يكن يخطر بخيالى أنها آخر مرة أصافحه».

وقضيت ساعة مع الفريق صادق ومع الباهى الأدغم .. ثم قضيت نصف ساعة أخرى مع ياسر عرفات ومع بعض زعماء المقاومة الفلسطينية .. ثم أحسست أننى لا أستطيع أن أحتمل أكثر فغادرت الفندق ذاهبا إلى بيتى .. ولم أكد أدخل حتى دق جرس التليفون وكان المتحدث السير «تشارلز بومونت» السفير البريطانى فى القاهرة يقول لى: إنه يريد أن يقابلنى فورا لأن هناك رسالة عاجلة من إدوارد هيث رئيس وزراء بريطانيا .. وأن هذه الرسالة لا بد أن تصل إلى الرئيس جمال عبد الناصر الليلة .. وجاء السفير البريطانى إلى

بيتى وناولنى برقية من لندن تتصل بالإفراج عن الفدائيين العرب السبعة المحتجزين فى بريطانيا وألمانيا الغربية وسويسوا فى مقابل الإفراج عن بقية الرهائن من ركاب الطائرة المخطوفة إلى الأردن .. وكان الرئيس قد كلفنى ببعض الاتصالات الخاصة بهذا الموضوع وتحديث فيه بالتليفون أكثر من مرة من جناحه الخاص فى فندق هيلتون وأمامه مع السفير البريطانى السير «تشارلز بومونت» .. ونزل السفير البريطانى وكانت الساعة الثانية عشر مساء .. منتصف الليل بالضبط .. وتحيرت: هل أطلب الرئيس فى غرفته بالتليفون المباشر أو أنتظر إلى الصباح .. واتصلت بسامى شرف وزير الدولة وسكرتير الرئيس للمعلومات والساھر الدائم باستمرار فى انتظار أوامره أسأله: «هل نام الرئيس وهل انطفأ النور فى غرفته؟» .. وقال لى سامى شرف: «لقد كان يتحدث معى الآن على الفور .. وتستطيع أن تتصل به بسرعة».

وأدريت رقم التليفون وسمعت صوته يرد واعتذرت لإزعاجه وقال برقة: «أبدأ .. مازال هناك وقت طويل قبل أن أنام .. كنت أفكر فيما حدث وفيما يمكن أن يحدث» .. وقلت: «أول ما يجب أن يحدث هو إجازة لك» .. وقال: «سوف نتحدث فى هذا غدا» .. ورويت له عن لقائى بالسفير البريطانى ثم سألتنى عن اجتماعى بياسر عرفات ثم عن الاجتماع الذى حضرته بين الفريق صادق والسيد الباهى الأدغم .. ثم قال كمن تذكر شيئاً: «هل فعل أحد شيئاً بالنسبة للترتيبات المالية للجنة الرقابة .. هل سيذهب الباهى الأدغم إلى عمان ولا يجد تحت تصرفه ما يدفع به فاتورة الفندق الذى تقيم فيه البعثة فضلاً عن أية مصاريف أخرى» .. قلت: «فى الحقيقة لا أعرف» .. قال: «اتصل بسامى - يقصد سامى شرف - وقل له أن يرتب وضع ثلاثين ألف جنيه تحت تصرف البعثة .. عشرة تدفعها مصر .. وعشرة تدفعها السعودية .. وعشرة تدفعها الكويت .. قل له أن يكلف أحد بالاتصال بالملك فيصل وبأمير الكويت من أجل تأمين أسهمهما فى الاعتماد المخصص للبعثة».

ثم قال فجأة: «هل تذكر بيتى الشعر اللذين قلتهما لى أثناء الأزمة؟» .. قلت: «نعم» .. وكنت عندما استحكم الخلاف بين الأطراف قد قلت له مرة: «لقد فعلت كل ما تطيقه البشر .. وكيفيك ما فعلت .. وعلى كل جانب أن يتحمل المسئولية» .. ثم أضفت وقتها مستشهداً ببيتين من الشعر الجاهلى يقول فيهما الشاعر «أمرتهموا أمرى بمنعرج اللوى فلم يستبينوا الرشداً إلا ضحى الغد .. وما أنا إلا من عزمه إن غوت غويت وإن ترشد عزمه أرشد» .. وكان عندما سمع منى البيتين أول مرة علق بقول: «مع الأسف فإنى لا أستطيع أن أقول إن غوت غويت وإن ترشد عزمه أرشد» .. وأعدت عليه فى التليفون تلك الليلة بيتى الشعر كما طلب .. وقال وصوته يجمال نبرة الارتياح: «إلا يجب أن نحمد الله لأنهم

رأوا الرشد الليلة ولم ينتظروا عليه إلى ضحى الغد» .. ثم قال بصوت خفيض يحمل أثقال الجهد .. وأحسست به يتنهد ويقول: «من يعلم ماذا سيأتى به الغد؟» ..

ووصلت إلى مكتب فى الأهرام فى الساعة الثامنة والنصف من صباح اليوم التالى الاثنين ٢٨ سبتمبر .. وحين دخلت كان أول ما قيل لى: «إن الرئيس اتصل بنفسه وسأل عنك .. ولما عرف أنك لم تحضر بعد قال لا داعى لأن تطلبه لأنه خارج إلى المطار الآن وسوف يتصل بك هو عند الظهر» .. ولم أذهب إلى وزارة الإرشاد كما أفعل عادة فى الحادية عشرة صباحا وإنما بقيت فى الأهرام قريبا من التليفون الذى يطلبنى عليه عادة .. كان تليفونه قبل الثامنة والنصف أول اتصال أجراه ذلك اليوم .. ثم قال - كما عملت فيما بعد - إلى حمام الصباح ثم جلس إلى إفطاره وأكل تفاحة واحدة من صندوق تفاح جاء به الوفد اللبنانى إلى مؤتمر القاهرة ثم فنجان قهوة مع السيدة الجليلة قرينته .. وقالت له هى قبل أن يترك إلى أول وداع رسمى ذلك اليوم فى مطار القاهرة: «إن الأولاد سيكونون جميعا على الغذاء اليوم» .. وسألها عن أحفاده قائلا: «وهالة» و «جمال» .. وقالت هى: «إن جمال منذ الصباح الباكر جاءت به منى وهى فى طريقها إلى عملها وتركتها فى البيت لكى يراه جده كما طلب قبل أن ينام .. وأما هالة فهى فى الطريق الآن» .. وقال لها: أنه سيراهما على الغذاء .. وخرج من البيت قبل الساعة التاسعة بدقيقتين ..

وفى الساعة الواحدة دق جرس التليفون فى مكتبى .. وجاءنى صوته وأحسست به متعبا .. متعبا إلى أقصى حد .. وأعدت عليه حديث الإجازة وقال: إنه يستريح بعد وداع أمير الكويت .. وسألته عما يشعر به قال: «أجد نفسى غير قادر على الوقوف» .. وسألته: «هل رأيت الطبيب؟» .. وقال: «كان عندى الدكتور الصاوى (حبيب) وأجرى رسما جديدا للقلب .. وقال إن كان شيء كما هو» .. وقلت: «والام الساق .. أما من دواء لها؟» .. وقال: «سوف أضع قدمى فى ماء دافىء به ملح وأظن أن الألم سوف يتحسن .. هو طول الوقوف فما اعتقد» .. وعدت ألح فى حديث الإجازة واقترح أن يذهب إلى الاسكندرية وقال: «لا أستطيع الذهاب متعبا بهذا الشكل .. سوف أنام هنا يوما كاملا .. وبعدها أفكر فى الذهاب إلى الإسكندرية» .. ثم تطرق الحديث إلى السياسة كالعادة وسألنى عن رد الفعل فى إسرائيل لاتفاق حكومة الأردن مع المقاومة .. وأجبته بملخص البرقيات التى وردت ذلك الصباح .. ثم قال: «هل تعرف أن بيرجيس - يقصد دونالد بيرجيس القائم على شئون الرعايا الأمريكين فى القاهرة - سوف يسافر إلى إيطاليا وهناك سوف يجتمع بنيكسون .. إنه اتصل بالخارجية أمس وسأل إذا كان هناك ما يستطيع أن ينقله إلى نيكسون .. أريدك أن تطلبه الآن وأن تبلغه رسالة منى إلى نيكسون .. أطلب منه أن ينقل له إننى مازلت أسعى إلى حل على أساس قرار مجلس الأمن .. إن موقفى لم يتغير .. إن الضجة

التي تثيرونها عن الصواريخ زادت عن حدودها وهي بلا منطق .. إذا كانت إسرائيل تنوى الانسحاب من كل الأراضي المحتلة فما هو خوفها من الصواريخ على فرض إننا قمنا بتركيبها؟ ..

قلت له : «إننى سأطلب بيرجيس» .. قال: «إطلبه الآن» .. ورفعت سماعة التليفون الآخر وطلبت إلى مكتبى إيصالى بدونالد بيرجيس وقلت له: «إن لدى رسالة كلفت بإبلاغها إليك لكى تنقلها إلى نيكسون» .. وقال بيرجيس: «متى تريدنى أن أجيء؟» .. قلت له: «الساعة السابعة مساء» .. وأقفلت التليفون معه والرئيس على الخط يواصل الحديث ولا يخطر ببالى إننى سأنوّل موعدى مع بيرجيس لأن عبد الناصر سوف يكون قد رحل قبل الموعد المحدد .. ثم تشاء المقادير أن اسلم الرسالة إلى ريتشارد سون الذى رأس وفد العزاء فى عبد الناصر وكان قد جاء ليتحدث معى .. وقلت له: «ليس لدى ما أقوله لك غير رسالة كلفنى بإبلاغها إلى بيرجيس لينقلها إلى نيكسون وهذه الرسالة الآن لك» ..

واستطرد الرئيس يقول: «لا أظنهم سوف يفهمون شيئاً ومع ذلك فلا بد أن يكون موقفنا واضحاً ولو أمام أنفسنا وليتصرفوا هم كما يشاءون» .. ثم مضى الرئيس يقول: «قد لا أتصل بك فى المساء لأننى سوف أنام» .. ووجدتني أقول بطريقة تلقائية: «تصبح على خير» .. وقال ضاحكاً: «ليس بعد .. نحن مازلنا الآن فى عز النهار» .. وكانت تلك آخر مرة أسمع فيها صوته.

واستراح قليلاً فى غرفته ثم قام يرتدى ملابسه مستعداً للتوجه إلى المطار لمراسم الوداع الأخير مع أمير الكويت .. واتصل بسامى شرف يسأله عما إذا كان هناك جديد ؟ .. وقال سامى شرف أنه ليس هناك جديد ولكنه يلح على الرئيس فى ضرورة أن يريح نفسه لأن الجهد الذى يبذله عنيف .. وقال الرئيس: «سوف أنام بعد أن أعود .. سوف أنام نوما طويلاً» .. ثم استطرد: «وفى الغد نتكلم عن الإجازة» .. وخرج من غرفته متوجهاً إلى السلم أمام المصعد ثم ضغط على الزر يطلبه .. وكانت أول مرة منذ تركيب المصعد فى بيته يستعمله فيها للنزول .. كان دائماً يستعمله فى الصعود .. وعند النزول كان يفضل السلم .. وفى وداع أمير الكويت أحس فى الدقائق الأخيرة أنه متعب بأكثر مما يحتمل لكنه تماسك بجهد لا يصدق .. وقبل أمير الكويت وهو يتصبب عرقاً .. والدوار يعتريه .. وصعد أمير الكويت إلى طائرته والتفت الرئيس يطلب سيارته .. وكان ذلك على غير المعتاد فقد كانت العادة أن يذهب هو ماشياً إلى حيث تقف سيارته وأن يحيى المودعين .. وجاءت السيارة ودخل إليها وهو يقول لمحمد أحمد: «أطلب الدكتور الصاوى يقابلنى الآن فى البيت» .. واستقل المصعد من الدور الأول فى بيته إلى الدور الثانى .. وكانت الأسرة كلها فى انتظاره .. وأحسّسوا جميعاً أنه متعب ولكنه وقف وسطهم دقيقة يتحدث مع

حفيدته هالة وجمال ثم يتوجه بعد ذلك إلى غرفة نومه وتلحق به السيدة الجليلة قرينته تسأله متى يريد الغذاء ويقول لها وهو يخلع ملابسه: «لا أستطيع أن أضع شيئاً فى فمى» .. ويرتدى بيجامة بيضاء مخططة بخطوط زرقاء ويدخل إلى سريره ويجيء الدكتور الصاوى وتستأذنه السيدة الجليلة قرينته فى الخروج لأنها - كما عودها دائماً - لا تقف فى الحجرة وهناك فيها غيره حتى ولو كان الطبيب .. ولكن قلبها لا يطاوعها على الخروج بغير سؤال لمح الرئيس فى عينيها قبل أن تنطق به .. وقال لها مطمئناً: «لا تخافى .. أظنه نقصاً فى السكر» .. وقال بسرع: «أجيئك بشئ ؟» .. وقال الدكتور الصاوى: «أى عصير» .. وذهبت هى تعصر ليمون وكوب برتقال .. بينما الدكتور الصاوى يشعر من أول لحظة أن هناك طارئاً خطيراً .. ويخرج من الغرفة ليتصل بمحمد أحمد على التليفون ويطلب منه استدعاء الدكتور منصور فايز والدكتور زكى الرملى ..

ويعود إلى الغرفة والسيدة الجليلة قرينة الرئيس تدخل إليها حاملة كوب عصير برتقال وكوب عصير ليمون .. ويختار الرئيس كوب البرتقال ويشربه .. وتخرج هى من الغرفة ويبدأ الدكتور الصاوى محاولاته لوقف الطارئ الخطر .. كان تشخيصه على الفور أن هناك جلطة فى الشريان الأمامى للقلب .. ولما كانت الجلطة السابقة فى سبتمبر من العام الماضى قد أثرت فى الشريان الأمامى .. إذن فالموقف دقيق وخرج .. ويصل الدكتور منصور فايز وعند وصوله تحس السيدة الجليلة قرينة الرئيس أن هناك شيئاً غير عادى .. كانت طوال الوقت واقفة تنتظر فى قاعة الجلوس التى تجتمع فيها الأسرة وهى على مدخل البهو المؤدى إلى غرفة مكتب الرئيس ثم غرفة نومه فى الدور الثانى من البيت .. وحين وجدت الدكتور منصور فايز أمامها اقتربت منه والقلق يشد ملامحها لتقول له: «لا تؤاخذنى يا دكتور .. لا أقصد الإساءة .. ولكن مجيئك يقلقنى .. أنت تجيء عندما يكون هناك شيء غير عادى» .. وقال لها الدكتور منصور فايز: «أرجوك أن تطمئننى .. كل شيء بخير إن شاء الله» .. ودخل .. وبعد قليل جاء الدكتور زكى الرملى .. كان التشخيص واحداً .. وكانت الإسعافات التى بدأها الدكتور الصاوى قبل مجيئهما مستمرة وكان الرئيس منتبهاً إلى كل ما يجرى ..

وحوالى الساعة الخامسة بدأ الأمل يقوى .. كان النبض قد بدأ ينتظم وضربات القلب تعود إلى قرب ما هو طبيعى .. واستراح الأطباء والتقطوا أنفاسهم وهم بجواره وهو يراقبهم بابتسامة هادئة على شفثيه .. ثم بدأ يتحدث معهم .. كانت الساعة الخامسة إلا خمس دقائق بالضبط .. وقال الدكتور منصور فايز: «إن الرئيس فى حاجة إلى إجازة طويلة» .. وقال الرئيس: «كنت أريد أن أذهب إلى الجبهة قبل الإجازة .. هل أستطيع أن أذهب لأرى أولادنا هناك قبل الإجازة؟» .. وقال الدكتور منصور فايز: «إن ذلك سوف

يكون صعبا .. ويجب أن تسبق الإجازة أى نشاط آخر» .. وقال الرئيس: «إن كل الوزراء اليوم فى الجبهة .. لقد طلبت أن يذهبوا إلى هناك وأن يعيشوا يومين مع الضابط والجنود .. يجب أن يعرفوا ويعرف كل مسئول حقيقة ما يقوم به الجيش فى الجبهة» ..

وهم الرئيس من فراشه ومد يده إلى جهاز راديو بجانبه وفتحه يريد أن يسمع نشرة أخبار الساعة الخامسة من إذاعة القاهرة .. وبينما اللحن المميز لنشرة الأخبار من إذاعة القاهرة ينساب فى الغرفة ويبدد بعض الشيء جوها المشحون بالطوارئ الخطر أحس الدكتور منصور فايز أنه يريد أن يدخل سيجارة وتصور أن خروجه من الغرفة ليدخل سيجارة قد يكون فرصة تطمئن فيها السيدة الجليلة قرينة الرئيس على صحته .. وخرج فعلا إلى غرفة المكتب ثم إلى البهو المؤدى إلى غرفة الجلوس ووجدها أمامه ويدها تعصران وجهها من القلق ومشقة الانتظار .. وقال باسمها: «إنه بخير والحمد لله» .. وسألته بلهفة: «صحيح؟» .. وقال لها: «إننى كطبيب أسمح لك بأن تذهبي وترى بنفسك» .. وقالت له: «أخشى إذا دخلت أن يشعر بقلق ويتضايق .. إنه لم يتعود أن أدخل وهناك أطباء وإذا دخلت فقد يتصور أن هناك شيئا غير عادى» ..

فى غرفة نوم الرئيس كان المشهد يتغير بسرعة لم تكن متوقعه .. أستمع الرئيس إلى مقدمة نشرة الأخبار ثم قال: «لم أجد فيها الخبر الذى كنت أتوقع أن اسمعه» .. ولم يقل شيئا عن الخبر الذى كان ينتظر سماعه .. وتقدم منه الدكتور الصاوى وقال: «ألا تستريح سيادتك .. إنك فتحت جهاز الراديو ثم قفلته ولا داعى لأى مجهود الآن» .. وعاد الرئيس يتمدد تماما على فراشه ويقول بالحرف: «لا يا صاوى .. الحمد لله .. دلوقت أستريح» .. ولم يفرغ الدكتور الصاوى من عبارة يقول فيها «التمدد لله يا فندم ..» لم يفرغ ونظر مركز على الرئيس حتى وجده يغمض عينيه ثم وجد يده تترك من فوق صدره حيث كان وضعها وتستقر بجواره بعدها لم يشعر عبد الناصر بشيء .. لم يقل كلمة .. وكانت ملامح وجهه تعكس نوعا غريبا من الراحة المضيئة .. وجرى الدكتور الصاوى هلعا ينادى الدكتور منصور فايز ووقف كل الأطباء أمام الفراش وبيدهم وعقولهم كل ما يستطيعه العلم ..

ووصلت إلى البيت وصعدت السلم قفزا وكانت السيدة الجليلة قرينة الرئيس أول من لقيت وكانت إحدى يديها تضغط على خدها واليد الأخرى تمسك برأسها وليس على لسانها وقد ملكها الخوف والخطر إلا نداء واحد: «جمال .. جمال» .. وكانت تكتم نداءها حتى لا ينفذ إلى حيث يرقد هو .. وعبرت غرفة مكتبه بسرعة إلى غرفة نومه وإلى فراشه وكان الأطباء مازالوا من حوله وكان ممددا على الفراش وسطهم .. بالبيجامة البيضاء بخطوطها الزرقاء .. وفوجئت بما رأيت ..

عندما دعيت إلى البيت لم يخطر ببالي ما قدر لى أن أراه .. أقصى ما خطر ببالي عندما دعيت إلى بيته «لأنه متعب» هو أن شيئاً مما ألم به فى العام الماضى قد عاوده .. لكننى لم أكن مهيناً لما رأيت .. ولأول نظرة على الفراش فإننى أحسست بما لا أستطيع اليوم ولا غدا أن اصفه من مشاعرى ..

كان هناك على الفراش هدوء غريب .. صمت كامل .. كان هناك شيء واحد يلتمع بشدة وهو دبلة الزواج فى يده ينعكس عليها ضوء النور المدلى من السقف .. ولم أحاول أن اقترب من أى واحد من الأطباء فلم يكن من حق أحد أن يشغلهم .. والتفت حولى إلى بقية من فى الغرفة: شعراوى جمعة وسامى شرف ومحمد أحمد .. وكانوا جميعاً مثلى معلقين بين السماء والأرض .. ووجدتنى أدور فى الغرفة وأبتهل .. أردد والدموع تنزل صامته: يارب .. يارب .. ثم أرقب محاولات الأطباء الأخيرة وأناديه فى علاه: يارب غير ممكن .. يارب غير معقول .. وتستمر محاولات التدليك الصناعى للقلب .. وتتكرر تجربة الصدمة الكهربائية والجسد الطاهر يختلج ولكن الهدوء يعود بعد كل اختلاجه .. بلا حس ولا نبض .. وأحسست أن الأطباء فقدوا الأمر .. وأنهم لا يحاولون بالعلم .. ولكن يحاولون ضد العلم ..

وجاء على صبرى ووقف مبهوراً أمام ما يجرى .. وجاء حسين الشافعى واستدار إلى القبلة يصلى لله .. وجاء أنور السادات ووقف أمام الفراش رافعاً وجهه إلى السماء يتمتم بآيات من القرآن .. ودخل الفريق أول محمد فوزى والذهول يملأ وجهه فى نفس اللحظة التى قال فى أحد الأطباء «إن كل شيء قد أنتهى» .. وقال الفريق أول فوزى بحدة ملتاعة: «لا .. لا يمكن .. واصلوا عملكم» .. وانفجر الدكتور منصور فايز باكياً .. وانفجر معه كل الأطباء باكين .. وانهمرت الجموع .. طوفان من الدموع ..

ودخلت السيدة الجليلة قرينته إلى الغرفة المشحونة بالجلال والحزن .. لا يمكن لأحد أن يصف أحزانها المتوهجة كالجمر المشتعل .. «التفت تقول: لا تقولوا الرئيس .. قولوا جمال عبد الناصر وكفى .. سيبقى بالنسبة لى وللناس كلهم جمال عبد الناصر» .. ثم انحنت عليه تقبل يده مرة أخرى وهى تقول: «لم يكن فى الدينا سواه .. ولا أريد فى الدنيا غيره .. ولا أطلب شيئاً إلا أن اذهب إلى جواره حيث يكون» .. ثم التفتت السيدة الجليلة فى حزنها الذى يفتت الصخر تسألنى: «قل لى أنت .. رد على .. ألن أسمع صوته بعد الآن؟» .. وأقبل أحد الأطباء يغطى وجهه ونظرت إليه متوسلة بالدموع والنشيج: «اتركوه لى .. أنظر إليه .. أملأ عينى به» .. واستدار كل من فى الغرفة خارجين .. تاركين اللحظة الأخيرة وحدها معه ..

وعندما جاءت السيارة تنقل جثمانه الطاهر إلى قصر القبة كانت فى وداعه حتى الباب وكانت كلمتها المشوبة باللهب الحزين والسيارة تمضى: «حتى بعد أن مات ... أخذوه منى .. لم يتركوه لى» .. وانطلقت السيارة فى جوف الليل الحزين.

وسرى النبا كعاصفة من برق ورعد .. وزلزال يهز البحر الأبيض - قلب الدنيا وبؤرة التاريخ - من أعماق الأعماق .. إلى ندى الأمواج العالية .. وفى شرق البحر الأبيض - فى عمان - تسمرت الدبابات فى أماكنها وخرج رجال المقاومة من خنادقهم يصرخون وينادون عليه .. وأجهش حافظ الأسد وزير الدفاع السوري بالبكاء وهو يقول: «كنا نتصرف كالأطفال وكنا نخطيء .. وكنا نعرف إنه هناك يصحح ما نفعل ويرد هو آثاره» .. وفى شرق البحر الأبيض - فى تل أبيب - كان النبا أخطر من أن يصدق للوهلة الأولى وقالت جولدا مائير رئيسة وزراء إسرائيل «من الذى أطلق هذه النكتة السخيفة؟» .. ثم تأكد النبا وخرجت جولدا مائير تشارك الشعب الإسرائيلى فرحته بالخلاص من أعدى أعداء إسرائيل .. أصدر (موشى) ديان (وزير الدفاع) أمره إلى القوارب المعدة للتدخل الإسرائيلى - الأمريكى أن تتفرق .. وفى شمال البحر الأبيض كان الرئيس ريتشارد نيكسون قد صعد لتوهِ إلى ظهر حاملة الطائرات ساراتوجا .. ثم توجه إلى كابينة القيادة التى سيحل بها أثناء مناورات الأسطول السادس التى كان الهدف منها أن يسمع جمال عبد الناصر فى القاهرة صوت مدافعه .. ودخل عليه مساعده هالدمان بالنبا .. وذهل نيكسون ثم كان قوله بعد قليل: «لا داعى الآن لهذه المناورة كلها» .. وصممت قعقعة السلاح على قطع الأسطول الأمريكى السادس وطائط المدافع رؤوسها للحدث الخطير الذى يتعدى بآثاره كل الحدود..

وخيم على البحر الأبيض - قلب الدنيا وبؤرة التاريخ - سكوت كثيف - وهذأت العواصف وارتجت الأمواج على الشواطئ وقد استنفذت قواها .. وكان جمال عبد الناصر فى حياته أكبر من الحياة .. وكان جمال عبد الناصر بعد رحيله أكبر من الموت .
انتهى .

هيكـل لا يقرأ التقارير السرية الحمراء !

■ بكى هيكـل فى حياته لأسباب عامة ثلاث مرات .. مرة عند وفاة جمال عبد الناصر .. ومرة عند هبوط طائرة أنور السادات فى إسرائيل .. ومرة عندما سمع وهو فى السجن نبأ اغتيال أنور السادات.

كان هيكـل وقت رحيل جمال عبد الناصر وزيرا للإرشاد أو للإعلام .. وقد فاجأه جمال عبد الناصر بنبا تعيينه وزيرا فى ٢٥ إبريل عام ١٩٧٠ دون أن يخبره لأنه كان يعرف مسبقا أنه سيرفض .. وقد تردد هيكـل فى قبول المنصب .. وكان سبب تردده هو «أن الصحافة قد أصبحت حياته الحقيقية وهو لا يستطيع ممارسة مهنة أخرى» .. ووافق جمال عبد الناصر على أن يبقى هيكـل فى موقعه بالأهرام وهو وزيرا للإعلام .. لكن كان رأى هيكـل فى رسالة كتبها إليه: «أن القرار الذى يكلفه بالاضطلاع على التوالى بمسئوليات فى الأهرام وبمسئوليات وزارية يحمله عبء مسئولية كبيرة وهو يعتبر نفسه غير قادر عليها .. ولذلك يفضل تركيز جهوده على خدمة الأهرام» .. كما «أن الجمع بين المهمتين يعطيه جميع الوسائل التى تجعل منه رجل سلطة وقوة وذاك يمكن أن يؤذى النظام» .. كما أنه فى النهاية: لا يرى فى نفسه الاستعدادات والكفاءات التى تتطلبها المهمة الوزارية.

لكن جمال عبد الناصر نجح فى إقناع هيكـل بأن يكون بجانبه فى منصب رسمى حتى نهاية الحرب مع إسرائيل .. ولم يملك هيكـل إلا القبول .. وقد رفض هيكـل هذا المنصب ثلاث مرات فيما قبل .. فى خلال حرب السويس (عام ١٩٥٦) .. وفى أثناء الوحدة المصرية السورية (بعد عام ١٩٥٨) وبعد الانفصال (عام ١٩٦١) .. وواضح من هذه التواريخ أنها تواريخ أزمات حادة كان وجود هيكـل فيها وزيرا للإعلام ضرورة حيوية .. وفى المرة

الرابعة - التى قبل فيها هيكل الوزارة - كانت الأزمة السياسية فى أشد حالاتها .. بعد الهزيمة .. وبعد الانتهاء من الخطة «جرانيت - واحد» الهجومية لعبور قناة السويس بخمس فرق على ثلاثة محاور .. وبعد الانتهاء من الخطة «جرانيت اثنين» للعبور والوصول إلى المضائق والتمسك بها.

وقد وضع هيكل وهو وزير الإعلام قانون هيئة اتحاد الإذاعة والتلفزيون متأثراً بالقانون الذى يحكم هيئة الإذاعة البريطانية (بى . بى . سى) ويمنحها صلاحية التصرف المستقل من خلال مجلس أمناء بعيداً عن التدخل الحكومى لوزير الإعلام .. واختير الدكتور مصطفى خليل أول رئيساً لاتحاد الإذاعة والتلفزيون .. لكن .. هذه الاستقلالية لم تستمر فيما بعد .. فالسيطرة فى النهاية كانت لسلطة وزير الإعلام.

واكتشف هيكل خلال علمه فى وزارة الإعلام وجود مخصصات سرية لبعض الصحف اللبنانية خاصة مجلة «الحوادث» التى كان يملكها ويرأس تحريرها «سليم اللوزى» وهو فلسطينى الأصل .. هاجر إلى القاهرة فى الأربعينيات وعمل سكرتيراً لتحرير مجلة «روز اليوسف» ثم ترك مصر إلى لبنان ليستقر فيها .. وقد انتهى نهاية مؤسفة بأن خطف وحرقت أصابعه ثم حرق جسده فى أحماض حارقة حتى مات .. كانت وزارة الإرشاد فى مصر تدفع للصحف اللبنانية للدعاية للنظام الناصرى .. وقد رفض هيكل هذا التصرف .. واعتبره سلوكاً غير طبيعى .. ولم يكن من الممكن وهو الذى أدان المصاريف السرية فى بداية الثورة أن يوافق على مثل هذا السلوك.

وقد فوجئ هيكل فى أول يوم تولى فيه وزارة الإعلام بمدير مكتبه يعطيه ملفاً يضم أوراقاً حمراء هى تفريغ شرائط مراقبة التليفونات التى كانت ضمن اختصاصات وزارته .. وعندما عاد إلى البيت فزع هيكل مما قرأ .. ورفض فيما بعد قراءة هذه الأوراق اليومية الحمراء لأنها رغم ما فيها من تسلية ونميمة وأسرار تسيطر على رأس من يقرأها وتغير رؤيته للناس الذين يعرفهم .. وفى حمام وزير الإعلام كانت هناك خزانة عندما فتحها لجردها عرف أن الأموال التى بداخلها من حق التصرف فيها دون مراجعة أو محاسبة .. وقد رفض هذا الأسلوب.

وحارب هيكل وهو وزير الإعلام مدرسة المبالغة فى قوة الذات والمبالغة فى عيوب العدو .. بل كان واقعياً فى توصيف العدو وقراءة خرائط القوى التى يتحرك عليها .. وقد كان هذا هو خطه الواضح فى مقالاته بعد الهزيمة .. فهو فى مقال بتاريخ ٢٠ أكتوبر

١٩٦٧ عنوانه «وقفة قرب الجانب العسكرى من النكسة» يقول: «لقد كنا أمام عدو متعلم وعصرى» .. ولم نكن أمام عدو يستعمل كلمة الشطارة أو يلعب بالبيضة والحجر على حد التعبير المصرى الدارج .. وفى مقال بتاريخ ٢٨ مارس ١٩٦٩ عنوانه «نظرة على خط وقف إطلاق النار» وكان للتمهيد لحرب الاستنزاف يقول: «سوف تكون الفترة القادمة حافلة بتضحيات كبيرة وكثيرة عزيزة وغالية» .. وفى ١٣ مارس ١٩٧١ كتب المقال الشهير «تحية للرجال» الذى عدد فيه صعوبات وتضحيات الحرب مع إسرائيل .. وقد حوكم هيكل على هذه المقالات وغيرها فيما بعد أمام المدعى العام الاشتراكى ووجهت إليه تهمة «الانهزامية» .. وقد رد عليها فى ١٠ جلسات .. كل منها ٣ ساعات.

وفور وفاة جمال عبد الناصر سارع هيكل بتقديم استقالته من وزارة الإعلام إلى خليفته أنور السادات .. لكن أنور السادات طلب منه تأجيلها حتى ينتهى من إجراءات نقل السلطة إليه .. لقد قدم هيكل استقالته فى يوم السبت ٣ أكتوبر ١٩٧٠ ولكن أنور السادات لم يقبلها إلا فى يوم الأحد ١٨ أكتوبر ١٩٧٠ .. وكان نص خطاب الاستقالة:

سيادة رئيس الجمهورية بالنيابة

الأخ والصدیق أنور السادات

الآن وقد استقر جثمانه الطاهر فى ثرى مصر الخالدة فإنى أتقدم إليك راجيا أن تأذن بإعفائى من العمل فى وزارة الإرشاد القومى .. إن وصولى إلى القرار يدفعنى إلى التقدم بهذا الرجاء إليك لم يصدر عن إحساس بلوعة عاطفية - مع أنه لدى منها أكثر مما يتصور أحد - ولكنه يصدر أيضا عن اعتبارات عديدة إنسانية وفكرية وعملية أجملها فيما يلى:

١- إن الكل يعلم أننى حاولت طوال عمرى أن أبتعد عن المناصب الرسمية تمسكا بمهنة اعتقدت ومازلت أعتقد أن حياتى فيها.

٢- إننى خرجت عن هذه القاعدة نزولا على أمر كريم منه عندما شاء أن يكلفنى بالتعبير الرسمى عنه فى فترة من النضال الوطنى باللغة الحساسة وكان هذا من جانبه اختياراً شخصياً .. من بعده فإننى لا أملك هذا الحق بالنسبة لغيره كما أننى لا أستطيع أن أبقى على رأس وزارة الإرشاد القومى تعبيرا عن نفسى فمكان ذلك الصحيح هو الأهرام وحده وليس أى مكان آخر.

٣- إن جزءاً كبيراً من مهمة إعادة تنظيم وزارة الإرشاد القومي قد تم بإنشاء اتحاد الإذاعة والتلفزيون العربى وبالدراسات المعدة للبت فى شأن الهيئة العامة للاستعلامات وغيرها من مؤسسات الوزارة .. ومع أن عملية إعادة التنظيم لم تظهر آثارها بعد أمام الناس فإننى أتوقع - مع بداية سنة ١٩٧١ - بمشيئة الله أن تكون هذه الآثار أمام الجميع مرئية ومسموعة.

٤- إننى لم أعد أستطيع بكل ما أحس به الآن التوفيق بين وزارة الإرشاد والأهرام وكنت قد استطعت ذلك بجهد جهيد لبضعة شهور .. لكننى الآن أجد أن ذلك سوف يكون مستحيلاً بالنسبة لى .. وإذا كان لى أن أختار - والخيرة لله - فإننى أؤثر أن أبقى فى المكان الذى أسهمت فيه مع الآف من أبنائه فى تحويله إلى إطلالة مصرية على العصر الحديث .. وكان ذلك ولكى أكون منصفاً للتاريخ بتشجيع معنوى كبير منه وبإلهام مضى.

٥- إننى أعتقد إلى جانب ذلك أن على مسئولية تحملها أمام الأجيال فلقد اقتربت من فكره وعمله «جمال عبد الناصر» ولا بد أن أعيد ترتيب أوراقى وذكرياتى عنه لأننا نحن الذين عرفناه عن قرب وشرفنا بالوقوف حيث تمكنا من رؤيته وهو يحلم ويناضل ويحقق - لا نملك وحدنا قصة حياته فهذه القصة ملك لشعبنا ولأمتنا العربية وللإنسانية.

ولعلك تذكر أيها الصديق الكريم وكنا معا أخيراً فى فندق هيلتون - أثناء أزمة الأردن التى كانت آخر معاركة المنتصرة - أننا تحدثنا عن التاريخ وكيف سيروى حكاية هذا العصر وتذكر أنه أمامك وأمام السيدى حسين الشافعى وعلى صبرى أشار إلى وقال: «إنه هو المسئول عن ذلك .. لقد كان يعرف كل شئ .. وهو يتحدث دائماً عن الإحساس بالتاريخ .. والكتابة صناعته» .. ومن جانبى أيها الأخ الكريم فإننى أعتبر تلك الوصية يسألنى عنها ضميرى وسوف يسألنى عنها الضمير العام لأمتى .. وليس معنى ذلك أننى أفكر فى النشر العاجل فأنا أول من يقدر أن هناك أشياء لم يحن أوانها ولكنى بأمانة المسئولية أمام ذكره الغالية لا أستطيع أن أترك شيئاً للضياع أو النسيان ..

إننى أرجوك ملحا ومن كل قلبى ألا تعتبر هذا تخلياً منى فى وقت عصيب .. إنك تعلم أن ذلك لا يمكن أن يخطر لى ببال فأنت الرجل الذى اختاره هو بنفسه نائباً له فى وقت علم فيه أنه معرض لمخاطر مؤامرات خطط لها الذين تصدى طوال عمره لمطامعهم وسيطرتهم على مقدرات أمتهم .. وذلك الاختيار وحده يكفى لى بالنسبة لى وحدى وإنما بالنسبة لكل الذين تراودهم اليوم أعظم الآمال بأن يستمر الخط الذى رسمه لأمتنا سواء لمرحلة النصر أو لما بعد النصر بإذن الله ..

إنى أناشدك أن تغفر لى ما أستأذنك فيه الآن إذا كان رأيك فيه مخالفا لرأىى وأتمنى على الله وعليك أن يكون غفرانك من فهمك لموقفى وظروفى ومشاعرى .. وأريدك فى النهاية أن تعرف أن قلبى معك وأن عقلى معك بكل ما أستطيع دفاعا عن مبادئه وعن سياسات أجزاها نابعة من تلك المبادئ .. ولك الدعاء خالصا وصادقا أن يعينك الله على ما تحملت أمانته .. ولك التحية والمحبة.

محمد حسنين هيكل

السبت ٣ أكتوبر ١٩٧٠

ورد الرئيس أنور السادات على خطاب الاستقالة بالخطاب التالى:

عزيزى الأستاذ/ محمد حسنين هيكل

وزير الإرشاد القومى

تحية الإسلام مباركة طيبة وبعد

فلقد تلقيت كتابك وقرأته بكل عناية وتقدير فليس أحب إلى فى هذه الحياة من معنى مثل معنى الوفاء فى كل صورة وألوانه .. من أجل ذلك فإنه لا يسعنى إلا أن أجيبك إلى طلبك أيها الصديق واثقا أن جهدك وقلمك سوف يظللان كما عودت زعيمنا الراحل أن يكونا فى مكانهما من معركتنا المقدسة شاكرًا لك ما بذلته من جهد خلال توليك الوزارة داعيا لك المولى عز وجل أن يوفقك فى مكانك الذى اخترته بإرادتك وأن يمنحك الصحة وموفور السعادة والله أسأل أن يسددنا جميعا بتوفيقه .. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

أنور السادات

الأحد ١٨ أكتوبر ١٩٧٠

كان واضحا أن هيكل بدأ منذ رحيل جمال عبد الناصر فى تسجيل تجربته .. وربما كان هذا أحد أسباب تقديم استقالته من وزارة الإرشاد أو الإعلام بعد أقل من ٦ شهور فقط قضاهما فيها .. وكان واضحا أيضا أن الفكرة بدأت تلح عليه فى المقال الذى كتبه فى مناسبة ميلاد جمال عبد الناصر فى ١٥ يناير ١٩٧١ .. وفى المقال حوار على غذاء فى مطعم لاسير (أو صوبة النباتات) فى باريس مع المفكر والروائى ووزير الثقافة فى عصر الجنرال شارل ديغول .. أندريا مالرو .. لقد سأله مالرو فجأة: «هل كتبت ما تريد أن تكتبه عن

عبد الناصر ؟ .. فقال هيكـل : «لدى أوراق كثيرة ومذكرات بغير نهاية» .. وقال مالرو : «لا تنتظر .. أبدا كتابة ما تريده من الآن كاملا .. ثم تصرف فى النشر كما تقتضى الظروف .. أكتب كل شئ على الفور ثم قرر بنفسك ماذا تنشر ومتى ؟» .

وسأله هيكـل : «هل فعلت أنت ذلك ؟» .. قال : «إننى الآن أكتب .. سوف أكتب علاقتى بديجول كاملة فى جزأين .. جزء ينشر الآن وجزء يبقى لا ينشر حتى أذهب إلى الموت أنا الآخر» .

والحقيقة أن هيكـل لم يسارع بالكتابة عن جمال عبد الناصر .. شغلته حياته الصحفية اليومية فى الأهرام .. وشغلته مساندته القوية حتى حرب أكتوبر للرئيس أنور السادات .. ولم يبدأ هيكـل تنفيذ وصية جمال عبد الناصر إلا بعد أن خرج من الأهرام فى فبراير ١٩٧٤ .. فكتب «وثائق القاهرة» .. و «عبد الناصر والعالم» .. و «علاقة العرب بالسوفيت» .. أو «أبو الهول والكوميستير» .. و «الطريق إلى رمضان» .. ثم بعد أن فتحت النيران على جمال عبد الناصر كتب «لمصر لا لعبد الناصر» .. وعندما استقرت الأمور بالنسبة له بعد اغتيال أنور السادات كتب رباعيته شديدة الأهمية عن حرب الثلاثين سنة .. وهى «ملفات السويس» و «سنوات الغليان» و «الانفجار» و «أكتوبر: السلاح والسياسة» .. وبهذه الرباعية يمكن القول أنه نفذ بأمانة وبراعة وصية جمال عبد الناصر.

ولكن .. ما كتبه هيكـل عن ثورة يوليو وجمال عبد الناصر لم يمنع الكثيرين من توجيه أسئلة بالمئات إليه عن ما جرى وما كان فى تلك الأيام .. فهو «المرجعية» الموثوق فيها لتلك الفترة الحيوية والساخنة من التاريخ المصرى المعاصر .. لقد كان أقرب الذين «كانوا هناك» إلى جمال عبد الناصر .. وهو ما جعل لديه جديد يقوله دائما عنه .. حتى لو كان هذا الجديد تفاصيل صغيرة .. أو تفاصيل رفيعة .. ولو لم تكن هناك أسرار وحكايات فهناك آراء وتعليقات .. وربما مفاجآت.

لقد فوجئت مثلا عندما قال لى : أنه لم ينضم لتنظيم سياسى واحد من تنظيمات الثورة .. هيئة التحرير .. الاتحاد القومى .. والاتحاد الاشتراكى .. وفوجئت أكثر بأن جمال عبد الناصر لم يضغط عليه ويجبره على الدخول أو الانضمام .. وقد قال : «أتركوه» .. ولم يكن من الممكن بعد ذلك أن أفاجأ بأنه لم ينضم إلى الحزب المصرى .. وقال لى : «إنه يكتفى بأن يكون صديقا للحزب .. وبرر ذلك بأنه بطبيعته لا يقبل الصف .. لا يقبل أن يكون فى الصف .. «إن التنظيم لا يناسبنى» .. و «شغلى الأساسى هو أن أفكر وأكتب»

.. وهو يتطلب حرية لا تتوافر فى الأحزاب .. «فكل حزب له تنظيمه وقواعده وانضباطه .. والكاتب بطبيعته لا يستطيع أن يقبل قياداً أو تنظيمًا».

ولعل أهم ما قاله لى ونحن نتحدث عن الحزب الناصرى - وكان الحزب قد أصبح حقيقة فى صيف ١٩٩٢ - أن أول ما على الحزب الناصرى أن يفعله «هو تقييم التجربة الناصرية .. لا يستطيع أن يبدأ بدون ذلك .. وأتصور أن يضع هذا التقييم فى برنامجهِ .. إنه استئناف لما كان قائماً فى يوم من الأيام .. ولا تزال ثوابته باقية .. أول شئ على الناصريين فى حزبهم أن يقولوه هو ماذا فعلوا فيما مضى ؟ وأين وجه القصور ؟ وأين كان وجه الإنجاز ؟ وماذا كانت النتائج ؟ وكيف يمكن أن نعيد صياغة النتائج والثوابت بأسلوب جديد للحركة ؟».

لكن .. الناصريون ليسوا الحزب الوحيد الذى غرق فى الماضى ولم يقدم رؤية للمستقبل .. إن كل الأحزاب السياسية القائمة فى مصر هى «بقايا مما كان ذات يوم» على حد تعبير هيكىل فى حوار جرى بينى وبينه فى صيف ١٩٩٢ .. فحزب الوفد فى رأيه ليس لديه رؤية للمستقبل .. وهو عودة إلى ما كان .. وحزب «العمل» هو بقايا حزب «مصر الفتاة» الذى كان .. والحزب «الوطنى» الحاكم نفسه هو البقية الباقية لكل الجماعات التى كانت تلتف حول السلطة فى مصر.

وقد ظل حزب الوفد ينظر إلى الوراء فى غضب .. وظل يهاجم ثورة يوليو .. وينسب لها كل الشرور التى لحقت بمصر منذ قيامها .. ولم يرحب رئيس الحزب فؤاد (باشا) سراج الدين بنشر رأى هيكىل فى جريدة الحزب التى تحمل اسمه ولو فى قضية مثل قضية الأقباط والوحدة الوطنية .. وهى القضية الجوهرية التى استند إليها مؤسس الحزب القديم سعد زغلول وهو يفجر ثورته الليبرالية فى مارس ١٩١٩ لينقل المجتمع المصرى بعدها من مجتمع يستمد شرعيته من الخلافة التركية إلى مجتمع شرعيته من الدستور والبرلمان والقوانين المدنية.

كان هيكىل يتناول طعام العشاء على مائدة أحد الأصدقاء .. وكان على الناحية الأخرى من المائدة جمال بدوى رئيس تحرير صحيفة الوفد فى ذلك الوقت من عام ١٩٩٢ .. وكما هى العادة فى مثل هذه اللقاءات جرت المناقشة العشوائية حول ما يجرى فى البلد من أحداث .. وكان أهم ما يجرى من أحداث دعوة من عالم الاجتماع الدكتور سعد الدين إبراهيم المؤتمر عن العالم العربى من خلال مركز «أبن خلدون» الذى يملكه ويديره على طريقة الجمعيات الأهلية التى تتلقى دعماً من الخارج .. واتفق هيكىل وجمال بدوى على أن

الأقباط فى مصر ليسوا أقلية ووصفهم بهذا الوصف هو علامة خطر يجب التوقف عندها .. مع كل التقدير والاحترام للذين يرون أن هناك فى مصر ما يسمى بالمسألة - أو بالمشكلة - القبطية .. ودعا جمال بدوى هيكى ليبر عن رأيه فى هذه القضية فى صحيفة الوفد .. ووافق هيكى .. وكتب رأيه فى صورة خطاب مفتوح إلى جمال بدوى .. لكن .. جمال بدوى لم يستطع نشر الخطاب لاعتراض فؤاد سراج الدين على هيكى .. ووجد رئيس تحرير الوفد نفسه فى حرج شديد .. فقدم استقالته من موقعه .. وعرض عليه أن يصبح كاتباً متفرغاً فى الأهرام .. وقد سارعت الأهرام بنشر ما رفضته الوفد .. ولكن أزمة جمال بدوى لم تستمر طويلاً .. وعاد إلى موقعه بعد سحب الاستقالة.

لقد تصور هيكى - على ما يبدو - أن الوفد الليبرالى يمكن أن يحتل رأيه خاصة فى هذه القضية الخطيرة .. لكن .. الوفد - على ما يبدو أيضاً - كان لا يزال متأثراً بالماضى .. غير قادر على تجاوزه .. وهى - على كل حال - ملاحظة صحيحة ودقيقة .. فقضية الهجوم على ثورة يوليو وعلى جمال عبد الناصر لا تزال قضية ضاغطة على الوفد .. لا يستطيع الفرار منها .. أو الابتعاد عنها.

ولم ينجح الوفد فى تشويه صورة جمال عبد الناصر .. ولكنه نجح إلى حد كبير فى ترويح صورة وردية عن ما كان فى مصر قبل الثورة .. وتصورت الأجيال التى لم تعيش فى تلك الأيام أن عليها أن تجلس فى محطة الماضى تنتظر عودة الملك السعيد ذى الرأى الرشيد الذى سيعيد إليها الزمن الجميل .. وسيحمل الذهب إلى بيوتنا .. وسيفرقنا فى أنهار اللبن والعسل .. وسيضع على موائدنا الكافيار واللانجوست والبان كيك .. وسيعيد إلى الدستور قدسيته .. وإلى القانون احترامه .. وإلى الحرية وجودها .. وإلى الأصول والتقاليد نفوذها .. وسيجعل العميان يبصرون .. والأموات ينهضون .. والفقراء يشبعون .. وأمام هذه الصورة المرسومة بألوان قوس قزح عن مصر قبل الثورة والتى تباع للجائعين للخبز والحرية، سافرت حوالى ٥٠٠ كيلومتراً - ذهاباً وعودة - لأحاور هيكى فى قرية «الرواد» فى الساحل الشمالى .. كان ذلك فى عام ١٩٩٤ .. وكان قد مر على ثورة يوليو فترة كافية لتقييمها .. حوالى ٤٢ عام.

سألته: ألسنت معى يا أستاذ هيكى أن الثورة نجحت لأن النظام الذى أسقطته كان ضعيفاً؟ .. فقالك «النظام الذى أسقطته الثورة كان هشاً.. ولو لم يسقطه جمال عبد الناصر لأسقطه غيره .. وبنفس السهولة .. لو عشت مثلنا فى تلك الأيام لأمنت مثل غالبية الناس أن أعصار التغيير قادم .. قادم» .. وسألته: «ألا يشفع لنظام ما قبل الثورة أنه

كان نظاما ليبراليا .. ديمقراطيا؟ .. فقال: «فى العصر الليبرالى الديمقراطى الذى يتحدثون عنه ضرب زعيم الإخوان المسلمين حسن البنا بالرصاص فى الشارع .. وأجهزوا عليه فى مستشفى قصر العينى .. هل هذا معقول؟» .. وسألته: «هل هذا يختلف كثير عن ما جرى بعد الثورة؟» .. فقال: «أنا سمعت مؤخرا أحد وزراء الداخلية يحذر من العودة إلى العصر الناصرى .. الشمولى .. قلت له: إنه طوال حكم جمال عبد الناصر .. فى ١٨ سنة طبقا لبيان القاه وزير الداخلية الأسبق فى مجلس الشعب كان عدد المعتقلين ١٤ ألفا.. النهادرة عندك ٤ أضعاف هذا العدد .. عن أى نظام شمولى يتحدثون؟» .

وقلت له: «كان من السهل - كما تقول - أن يمد جمال عبد الناصر ورفاقه أيديهم .. يأخذوا السلطة الملقاة فى عرض الطريق .. وهو ما حدث .. لكن .. كيف تحول جمال عبد الناصر من ضابط انقلابى إلى زعيم ثورى؟» .. قال: «جمال عبد الناصر شأنه شأن أى شاب لم يكن يدرك الحقيقة .. كان يرى مظهرها .. لا جوهرها .. لذلك لم يكن فى ذهنه فى البداية سوى هدفين فقط هما: إلغاء النظام الملكى والألقاب .. وتحديد الملكية الزراعية .. وقد نجح فى تحقيق الهدف الأول .. لكنه عندما جاء فى موضوع الملكية الزراعية أدرك أنه لو جرت انتخابات برلمانية فإنه لن يحدث تغيير لأن الانتخابات ستأتى بملاك الأراضى .. ستأتى بنفس الوجوه القديمة .. هنا بدأ التحول فى تفكيره .. أن تتحول الثروة الزراعية والصناعية للناس .. فكان الإصلاح الزراعى .. وتحديد الملكية .. وكان التمسير .. ثم التأميم .. اكتشف أن المصريين لا يملكون بلادهم .. واكتشف أن عليه وعلى السلطة الثورية الجديدة أن تعيد ملكية البلد إلى أصحابها الحقيقيين .. وهو ما كان .. وهو ما حاسبوه عليه فيما بعد» .

وسألته: «إلى مدى أثرت فى جمال عبد الناصر؟ .. فقال: «أعتقد أننى أثرت فيه بقدر ما تأثرت به .. إنها طبيعة العلاقات الإنسانية .. وقد كان مشغولاً .. لكنه كان أيضاً مستعد أن يسمع .. وفى الوقت نفسه اختلفنا .. نعم اختلفنا .. لكن .. عيب أن أذكر ما اختلفنا فيه حتى لا ادعى بطولة على حساب رجل لم يعد على ظهر الحياة» .. قلت له: «هل كان من الممكن الاختلاف معه دون عقاب؟» .. قال مستنكراً: «ليس صحيحاً .. فقد كان مفتوحاً للمناقشة بلا حدود .. الحملات التى شنت عليه فيما بعد حرفت كل ما قال وكل ما فعل .. هذه الأمة - تلف وتدور .. تروح وتجيء - ليس فى تاريخها الحديث إلا محمد على وجمال عبد الناصر .. كل منهما كان له مشروعه القومى الذى نجح فى تنفيذه ثم عوقب على ذلك .. وأنا أعتقد أن كل انقلاب على جمال عبد الناصر يضاعف من حالة «الخلخة» التى نعيشها الآن .. نحن كمن يجلس على جزع شجرة وهو ينشر فيه» .

قلت: «لكنك من القلائل الذين عملوا مع جمال عبد الناصر واستمروا معه إلى آخر لحظة في حياته دون أن ينقلب عليهم» .. قال: «هذه مقولة لم تختبر .. كثيرا ممن عملوا معه استمروا طويلاً إلى جانبه .. بل إن بعضهم استمر أكثر من اللازم متجاوزاً عمره الافتراضى .. أعضاء مجلس قيادة الثورة بقوا معظم الوقت .. كانوا موجودين على الأقل من عام ١٩٥٢ إلى عام ١٩٦٤ .. وشوف عزيز صدقى ومحمود فوزى ومحمود رياض وصدقى سليمان وعلى صبرى ومئات غيرهم ... أنا لم أر شخصاً انقلب عليه جمال عبد الناصر .. بالعكس الرجل كإنسان من صفاته البارزة أنه صديق حقيقى .. كان يدرك أهمية التحكم فى أعصابه .. وكان يقول دائماً: أنا ما أقدرش «أتعرف» .. وإذا شعرت بذلك لا أقابل أحد .. لأسباب كثيرة منها «الكاريزما» التى كانت تنبع منه وما يستتبع ذلك من سلطة معنوية جعلته قادراً على أن يفعل ما يريد، كان جمال عبد الناصر يشعر بسلطته .. لذلك كان حريصاً على ألا يصدر قراراً وهو عصبى .. ثم أنه لم يخن طبقته وظل ينام على سرير فى غرفة نوم هى عهدة لإدارة الأشغال العسكرية .. وبعد أن توفى طالبت الأشغال العسكرية بالعهد .. هل يصدق أحد ذلك؟ .. رجل غير قابل للفساد احتفظ بولاءاته الطبقية .. هل أحد يتصور حاكماً فى العالم الثالث يملك كل هذه السلطة ولا يفسد؟» .

ثم كان سؤالى عن ما تبقى من ثورة يوليو بعد مرور كل هذه العقود ووقوع كل هذه الانقلابات عليها؟ .. وجاءت إجابة هيكى مطولة .. قال: «لابد أن نتفق على أن هناك فهماً خاطئاً للتاريخ . مرات نتصور أن حادثاً تاريخياً معيناً لابد أن يبقى مستمراً بصفاته وذاته وشكله فإذا ما اختلفت نهايته عن أصله فهذا معناه أنه فشل .. نحن ننسى عملية «الهضم التاريخى» .. وهى شبيهة بعملية هضم الطعام .. وثورة يوليو حدثت .. لو ظل فى طوره أو شكله لانتهى بتحطيم نفسه .. نحن أمام حدث استوعبناه وأحدث فينا أثره .. وهذه قضية يجب فصلها تماماً عما آل إليه هذا الحدث .. وعندما نسأل .. أين ثورة ٢٣ يوليو؟ .. سنجدها فى مسائل مادية كثيرة أصبحت جزءاً من الحياة العادية البيعية ونجدها دخلت فى عروق المجتمع ونسيجه .. مثل السد العالى وقناة السويس وشبكة المصانع المتنوعة .. قيمة الحدث التاريخى لأنه يحول مجموعة أحلام إلى جزء من واقع الحياة .. لو ظلت الأحلام أحلاماً .. ولو ظلت الثورة فى حالة فوران .. فى حلة تغير مستمر وعنيف .. نكون كمن لم يفعل شيئاً حقيقياً» ..

ويستطرد : «أنا عندى السد العالى وقناة السويس وعملية تصنيع ليس لها مثيل فى العالم الثالث وهى ناجحة .. ليست فاشلة كما يقال .. صروحها موجودة .. وجدناها فى الأوقات الصعبة .. ولا تزال تخدمنا .. ليس هذا فقط .. بل يضاف أنها كانت متميزة .. الاتحاد السوفيتى اقترح أن نبدأ بالصناعات الثقيلة لكن جمال عبد الناصر رفض وأصر على أن يبدأ بالصناعات الاستهلاكية .. وأنا حضرت هذه المناقشة فى موسكو عام ١٩٥٨ عندما ذهبنا للاتفاق على أول برنامج تصنيع .. كان رأيه أن عنده قطن وقصبا ونحتاج لسماذ وأسمنت .. فلا بد أن تبدأ الصناعة من هذا المحور .. وهذا ما جعلنا لا نتعرض لما تعرض لأى نقص فى معظم المنتجات الاستهلاكية .. وهذا ما جعل الاتحاد السوفيتى - الذى أخذ منهجا مضادا - يتعرض للحرمان والأنهيار .. إذن على المستوى المادى حققت الثورة إنجازات ضخمة وهى إنجازات استوعبها المجتمع وأصبحت جزءا من حياته اليومية وأنا أعتبر ذلك نجاحاً..

وعلى المستوى المعنوى .. أنا أتوقف طويلاً عند التعليم .. البعض يرفض المجانية .. يرفض أن يتعلم ابن البواب .. والبعض يرى أن التعليم مستواه انخفض .. وأنا لا اعترض .. لكن نصف متعلم أفضل من جاهل .. فالجاهل لا يمكن أن يستوعب التكنولوجيا .. أنا ليس عندى مانع أن يكون مستوى التعليم يثير الشكوى .. لكن عندى معيار واحد للتعليم هو أنه المنفذ الوحيد للحراك الاجتماعى .. ثم أن كثيرا من النابغين خرجوا من نظام التعليم الحكومى الذى نرفضه .. مثل دكتور مجدى يعقوب .. كذلك فإن التعليم فتح آفاق التغيير .. فلم تعد المهن تورث كما كانت قبل الثورة .. فليس مكتوبا على ابن الفلاح أن يظل فلاحاً .. ولا على ابن البواب أن يظل بوابا .. وهكذا .. ومع ٢٣ يوليو ارتبطنا بالعالم وبالمنطقة التى حولنا .. وارتبطنا بالعصر، لقد استوعبت الثورة العصر .. وعندما فقدت قدرتها على ذلك شاخت وانتهدت» ..

كان لابد أن أسأله: متى حدث ذلك؟ .. وقد قال: «نستطيع أن نقول أن العصر بدأ يختلف ابتداء من عام ١٩٦٥ .. وفى هذه الفترة كان العالم يتغير .. وأنا واحد من الناس الذين يعتبرون كارثة عام ١٩٦٧ نتيجة لمبيعية لعدم الوعى الكافى بأن العالم من حولنا يتغير .. وكان عزرنا الوحيد هو أن العالم نفسه لم يكن يعى أنه يتغير .. ابتداء من عام ١٩٦٥ جاء الكومبيوتر والفضاء ووسائل الإنتاج الحديثة .. وفى هذه الفترة حدثت أزمة الاتحاد السوفيتى الداخلية .. وحدثت أزمة الولايات المتحدة بسبب حربها فى فيتنام .. إننا لم نستوعب التغيير ولم نستوعب آثاره على القوى الكبرى .. على سبيل المثال نحن فى

عام ١٩٦٧ لم نستوعب أن الاتحاد السوفيتى يملك أن يسمح بان تواجهه أزمة كالتى وأجهناها .. وفى واقع الأمر لم يكن الاتحاد السوفيتى قادرا على مواصلة التحدى أكثر مما فعل .. اختلفت قواعد اللعبة فى عام ١٩٦٧ عما كانت عليه فى عام ١٩٥٩ .. لكننا لم نستوعب ذلك .. ف وقعت كارثة الهزيمة.

وكان سؤالى الأخير فى هذا الحوار: «هل ثمة تشابه بين الوضع الذى كان قائما قبل الثورة والوضع فى مصر الآن بعد مرور أكثر من ٤٠ سنة عليها؟» .. وقال: «لا أريد أن أقول تشابها إلا من حيث كم الخطورة .. نحن الآن فى مرحلة شديدة الخطورة .. لا تقل فى نوعها عما كنا عليه قبل الثورة .. لكن ليست مثلها .. الأسباب والمظاهر مختلفة».

ولا يزال هيكل يدافع عن الحلم الذى جاء به جمال عبد الناصر وإن لم يخف انتقاداته لتنفيذ الحلم .. وهو يؤمن بأن هذا الحلم ما زال صالحا .. لكنه يحتاج إلى بعض الوقت حتى يسترد الناس ثقتهم فيه .. وربما لا يكون الوقت بعيداً .. لأن كل محاولات نفى جمال عبد الناصر قد نفت نفسها .. فعاد الناس يبحثون عنه من جديد .. وهذه قصة طويلة .. تبعتها قصص ووقائع وأحداث أخرى مثيرة وصارخة جرت لهيكل ولمصر وللعالم منذ رحيل جمال عبد الناصر وحتى الآن .. تستحق قليلا من الانتظار.

الكتاب الثانى

هو والسادات ومبارك

الفهرس

صفحة

الموضوع

قبل أن نقرأ

- هل حلقة الذكر في حاجة إلى دارووش ٥
- ١- يموت الصحفي بترك مصادره لا بترك مناصبه ٧
- ٢- من الاهتمام بما يعرف إلى الاهتمام بما يفكر فيه ١٧
- ٣- رقصة الموت لفرسان الساحات الخالية ٢٥
- ٤- الحرب التي تنتهى بخسارة الجميع ٣٥
- ٥- رفيق مشاكل مازالت تجرجر أنيالها ٤١
- ٦- أحسدك .. على عدد خصومك ٥٣

الفصل الأول

- الجذور: من الحجاز إلى الحسين ٦٣
- ٧ - ولد في عام الدستور ٦٥
- ٨ - صراع القلب بين العمامة والطربوش ٧٣
- ٩ - اعتبر الله في عقلى وفي قلبى ٧٩
- ١٠ - الثعبان العجوز تتحول عيناه إلى ياقوت أحمر ٨٥
- ١١ - البحث عن معجزة لإنقاذ مستقبله ٩١

الفصل الثانى

- ولادة صحفية في تكتة عسكرية ٩٧
- ١٢ - البداية في عالم يفور ويغلى ٩٩
- ١٣ - المهمة الأولى في حى مشبوه ١٠٧
- ١٤ - الخوف هو الترف الوحيد الذى لا املكه ١١٥
- ١٥ - دعوة للغذاء .. ثم دعوة للصحافة ١٢١
- ١٦ - ملوك بالوراثه .. وملوك بالصحافة ١٢٩
- ١٧ - من خطر الحرب إلى خطر الكوليرا ١٣٩
- ١٨ - هيك .. لأنه ما فى مصارى ١٥٣

الفصل الثالث

- **الرهان على جمال عبد الناصر** ١٦٥
- ١٩- أسكتوا أنتم ودعوا غيركم يتكلمون ١٦٧
- ٢٠- السكوت الذى ترقد تحته عاصفة ١٧٥
- ٢١- كتب «الدنيا بخير» .. ثم تزوج ١٨٧
- ٢٢- بداية الجراح الأهلية فى الصحافة المصرية ١٩٩

الفصل الرابع

- **انقلاب فى بلاط صاحبة الجلالة** ٢٠٩
- ٢٣- صحيفة شاخت مع الأيام ٢١١
- ٢٤- مثل قصة بوليسية مثيرة ٢٢٧
- ٢٥- محكوم علينا تكرار التاريخ ٢٣٥
- ٢٦- الصحافة بين الحرية والحكومة ٢٤١
- ٢٧- الإخوان : هو أغنى اشتراكى فى مصر ٢٦٥
- ٢٨- الديمقراطية .. الفريضة الغائبة ٢٧٣

الفصل الخامس

- **نحن وأمريكا.. من الثورة إلى الهزيمة** ٢٨١
- ٢٩- فتش عن المخابرات المركزية ٢٨٣
- ٣٠- هيكلم ومضطفى أمين .. بلا عودة ٢٩٩
- ٣١- أصعب وأطول يوم فى حياة عبد الناصر ! ٣١٧
- ٣٢- زوار الفجر يحاولون اغتياله بالرصاص ! ٣٣٥
- ٣٣- الحرية والتغيير والمجتمع غير المفتوح ! ٣٤٩
- ٣٤- اللحظات الأخيرة فى حياة عبد الناصر ! ٣٦٧
- ٣٥- هيكلم لا يقرأ التقارير السرية الحمراء ! ٣٨٥

هيكل

الحياة . الحرب . الحب



هذا الكتاب

لأول مرة يكشف هذا الكتاب الحياة الشخصية والعائلية والخاصة للكاتب الصحفي المثير للأعجاب والمثير للجدل : محمد حسنين هيكل .. ويروي تفاصيل لم تنشر من قبل .. كيف بدأ مشواره في بلاط الصحافة حتى وصل إلى قممتها وتربع على عرشها . وينفرد مؤلف الكتاب عادل حمودة بنشر أسرار علاقة محمد حسنين هيكل بالرئيس جمال عبد الناصر وصراعة مع مصطفى أمين وكيفية ضخ دماء جديدة في صحيفة الأهرام التي كانت قد شاخت مع الأيام قبل أن يتولى رئاسة تحريرها .. وقصة مقال «بصراحة» وتأميم الصحافة .. وعلاقته بالشيوعيين والأخوان المسلمين . بالوثائق والصور النادرة يواصل عادل حمودة رواية الجانب العاطفي في حياة محمد حسنين هيكل وقصة زواجه وتفاصيل حياته اليومية ومعاركه التي لا تنتهي .

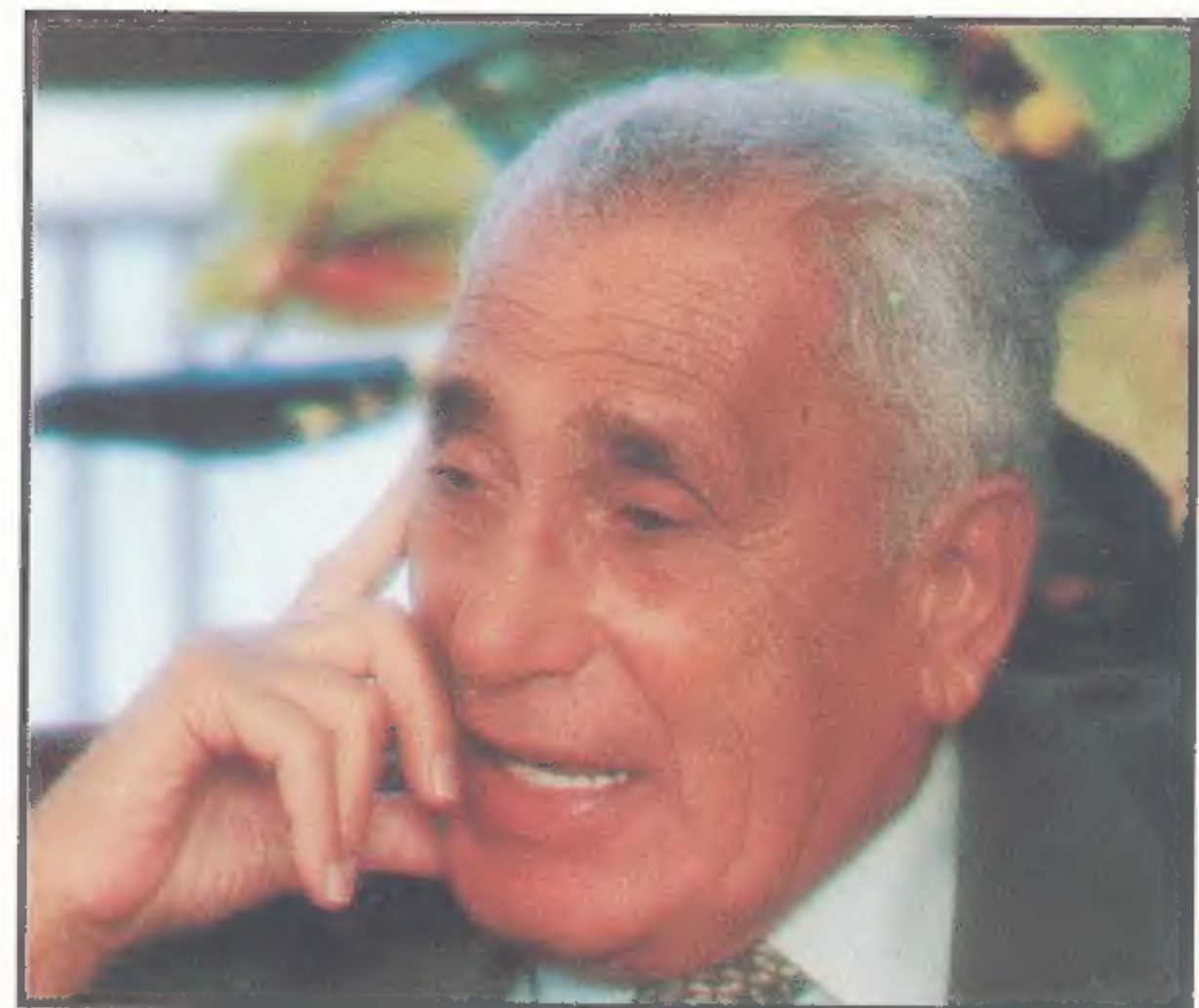
إنه كتاب لن يجروء أحد أن يكتب عن محمد حس

الن

Bibliotheca Alexandrina



0643535



الفرسان للنشر